

صفحات من تاريخ مصر

٨

# تاريخ مصر

في عهد الخديو اسماعيل باشا  
من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩

المجلد الأول

لواضعه

إلياس الأيوبي



الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة



# تاريخ مصر

في عهد الخديوي إسماعيل باشا  
من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩

حقوق الطبع محفوظة للمكتبة منبؤلى

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة منبؤلى

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج ٢ ع

تليفون ٥٧٥٦٤٧١



صَفَحَاتٌ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ

⑧

# تَارِيخُ مِصْرَ

فِي عَهْدِ الْخَدِيوِ إِبْرَاهِيمَ بَاشَا  
مِنْ سَنَةِ ١٨٦٣ إِلَى سَنَةِ ١٨٧٩

لِوَاظِعِهِ

إِبْرَاهِيمَ الْإِيُوبِي

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ

مَكْتَبَةُ مَدْبُولِي  
الْعَاطِفَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# فهرست

## المجلد الأول

(الأرقام الموضوعة بجانبها علامة نجمة هكذا : \* موجودة بأسفل الصفحات)

صفحة	
* ١٩	تقدمة الكتاب .....
* ٢٥	رأى اللجنة العلمية في الكتاب .....
* ٢٧	نص الخطاب المرسل من المجمع العلمي المصري الى المؤلف .....
* ٢٩	مقدمة الكتاب .....
* ٣٣	شكر المؤلف من تفضلوا بمساعدته .....
* ٣٥	بيان أهم مصادر الكتاب .....
* ٤١	تمهيد .....
١	الجزء الأول — السحر .....
٢	الفصل الأول — وفاة محمد سعيد باشا .....
	مشتملات :
٢	عود سعيد باشا .....
٤	يسى بك والمستخدم والبشرى .....
٦	اعلان موت محمد سعيد باشا وارتقاء اسماعيل العرش .....
٨	الفصل الثاني — الأمير اسماعيل .....
	مشتملات :
٨	نشأة اسماعيل وتربيته — ذهابه الى فيينا فالى باريس .....

## فهرست المجلد الأول

صفحة

- ٩ ... .. عودته الى مصر — موت أبيه ... ..
- موت جده محمد علي — النزاع بين عباس وباقي الأمراء — اتهام
- ١١ ... .. اسماعيل بقتل خادمه ... ..
- ١٢ ... .. تسوية الخلاف — قتل عباس وعودة اسماعيل ... ..
- ١٣ ... .. إيفاده الى أوروبا من لندن سعيد بمهمة سرية ... ..
- ١٤ ... .. كارثة كفر الزيات ... ..
- ١٥ ... .. قائممقامية اسماعيل الأولى ... ..
- والثانية — سرداريتها للجيش المصري — اتحاد فتنة القبائل الثائرة
- ١٦ ... .. على حدود السودان ... ..
- ١٧ ... .. الفصل الثالث — سمو والي اسماعيل باشا ... ..
- مشتعلات :
- ١٧ ... .. وصف اسماعيل لدى ارتقائه العرش ... ..
- ١٩ ... .. صراميه ... ..
- ٢٠ ... .. فتنة الاسكندرية — اتحادها ... ..
- ٢١ ... .. الجزء الثاني — بزوغ الشمس ... ..
- ٢٢ ... .. الفصل الأول — إيقاف الآمال ... ..
- مشتعلات :
- ٢٢ ... .. السفر الى الأستانة لتقليد الإمارة ... ..
- ٢٣ ... .. خطبة المجلس ... ..
- ٢٤ ... .. تهديد المخاوف على مشروع القتال ... ..

صفحة	
٢٦ ... ..	الفصل الثانى — زيارة السلطان عبد العزيز للديار المصرية
	مشمولات :
٢٧ ... ..	سفر السلطان
٢٨ ... ..	الوصول الى الاسكندرية...
٣٠ ... ..	مسامرة بين السلطان واسماعيل
٣١ ... ..	جولة فى الاسكندرية
	وفود المهتئين بوصول السلطان سالمًا — زيارة للسراى نمرة ٣ —
٣٣ ... ..	السفر الى مصر
٣٤ ... ..	حكاية نساء الريف وسعيد باشا
٣٥ ... ..	حكاية الأتقى محافظ القاهرة ومقتل عباس
٣٧ ... ..	الوصول الى مصر
٣٨ ... ..	تزل السلطان فى سراى القلعة...
٤٠ ... ..	صلاة الجمعة فى مسجد محمد على بالقلعة — استقبال وفود المهتئين بالقلعة
٤١ ... ..	مقابلة وفد العلماء للسلطان...
٤٢ ... ..	لطيفة للشيخ العدوى ...
٤٣ ... ..	حفلة المحمل ...
٤٤ ... ..	حكاية المملوك الذى نجح من مجزة أول مارس سنة ١٨١١
٤٦ ... ..	زيارة السلطان لشبرا
٤٨ ... ..	— زيارة للتحف المصرى يوم "نسم النسيم"
٤٩ ... ..	زيارة للأهرام ...
٥١ ... ..	العود الى الاسكندرية
٥٢ ... ..	القيام الى الأستانة

## فهرست المجلد الاول

صفحة	
٥٣	هواجس وعبر ... ..
٥٧	الجزء الثالث — رابعة النهار ... ..
	العمل على تحقيق الخطوة المرسومة :
٥٨	الباب الأول — (تحقيق الشطر الأول منها) . اجمال ... ..
٦٠	الفصل الأول — اصلاح الادارة ... ..
	مشمولات :
٦٠	تقسيمات مصر الادارية سابقا ... ..
٦٤	الاصلاحات التي أدخلها اسماعيل على الادارة ... ..
	انشاء وزارة زراعة — ادخال نظام هيئات نيابية على المديرات —
٦٦	تعيين مديرين من أبناء البلاد ... ..
٦٧	حكاية جابر بك مدير بنى سويف وقواصه التركي ... ..
٦٨	انشاء مجلس نيابى ... ..
٧٤	الفصل الثانى — توسيع نطاق الزراعة والرى والمواصلات ... ..
	مشمولات :
٧٤	صيرورة الأرض المصرية برمتها الى محمد على ... ..
٧٥	اصلاحات ابراهيم باشا الزراعية ... ..
٧٧	الاعتناء بوسائل الرى فى عهد محمد على ... ..
٧٩	توسيع نطاق المواصلات فى عهد محمد على ... ..
٨٢	أول سكة حديدية بمصر ... ..
٨٣	اصلاحات سعيد الاجرائية ... ..
٨٤	اسقاط المتأخرات ... ..

## فهرست المجلد الأول

صفحة	
٨٥ ... ..	تطهير المحمودية ... ..
٨٦ ... ..	انشاء الخط الحديدي ما بين القاهرة والسويس — انشاء اسماعيل
٨٧ ... ..	مساحة الأطنان المترعة قطعنا ... ..
٨٨ ... ..	تمليك الفلاحين الأطنان البائرة التي كانوا يزدعونها ... ..
٨٩ ... ..	استقدام آلات رافعة — تطهير الترع — حفظ الجسور — انشاء
٩٠ ... ..	مجالس زراعية ... ..
٩١ ... ..	انشاء وزارة زراعة ... ..
٩٢ ... ..	التوسع في تعمير وسائل الري — ترعة الابراهيمية ... ..
٩٣ ... ..	ترعة الاسماعيلية ... ..
٩٤ ... ..	إنجاز القناطر الخيرية — إنشاء ترع عديدة ... ..
٩٥ ... ..	ازدياد الآلات الرافعة ازديادا عظيما — انشاء الجارى — زيادة
٩٦ ... ..	الأطنان الصالحة للزراعة — تحسين طرق المواصلات ... ..
٩٧ ... ..	تصميم السكك الحديدية في القطر ... ..
٩٨ ... ..	اصلاح ادارة السكك الحديدية — حكاية ناظر محطة طنطا ... ..
٩٩ ... ..	والمسافرين الانجليز ... ..
١٠٠ ... ..	حكاية التاجر اليوناني الوجلج ... ..
١٠١ ... ..	الإقدام على انشاء سكك حديدية في السودان ... ..
١٠٢ ... ..	إقامة الأسلاك البرقية وإنشاء مكاتب لها ... ..
١٠٣ ... ..	المواصلات البريدية ... ..
١٠٤ ... ..	شراء مصلحة البريد — كليات باشا ... ..

صفحة	
تعديل طرقى ربط الضرائب وتوزيعها	١٠٧ ... ..
سوء طريقة تحصيل الضرائب	١٠٩ ... ..
مساعدة الفلاحة المصرية بالمال	١١٠ ... ..
تضحية اسماعيل بمصالحه في سبيل اتقاذ مصالح الفلاحين من الخراب	١١١ ... ..
الفصل الثالث — فتح أبواب التجارة والصناعة والعمل	١١٣ ... ..
مشمولات :	
إطلاق التجارة من عقالاتها	١١٣ ... ..
المرأة التاجرة الرثة الملابس — انشاء الشركة الحديدية للراحة	١١٥ ... ..
انشاء شركة الجفر	١١٦ ... ..
انشاء عدة شركات مساهمة	١١٨ ... ..
تصليح ميناء السويس والاسكندرية وتوسيعهما	١١٩ ... ..
انشاء المناورات البحرية	١٢٢ ... ..
إحياء الصناعة والفن	١٢٤ ... ..
عمل محمد علي في ذلك	١٢٥ ... ..
نظام الحرف	١٢٦ ... ..
عمل اسماعيل	١٢٧ ... ..
معامل السكر — معامل النسيج	١٢٨ ... ..
مصانع المعادن — مصانع الطوب — الدباغة	١٢٩ ... ..
صناعة الفخار — معامل الزجاج — معامل الورق	١٣٠ ... ..
تحسين المطبعة الأميرية — انشاء الحرف	١٣١ ... ..
معامل الصرغ — معامل القطن	١٣٢ ... ..



صفحة	
العمل في مناجم الزمرد ومناجم أخرى — استخراج التطرون ،	
والتقرا ، والملح ... ..	١٣٣
رواج صيد الأسماك والملاحة ... ..	١٣٤
الاشغال الهندسية — العمار والعمارات ... ..	١٣٥
عمار الاسكندرية — عمل محمد علي ... ..	١٣٦
عمل ابراهيم ... ..	١٣٧
عمل اسماعيل — توسيع الشوارع وتبليطها — توسيع الحارات —	
إنشاء حدائق وأحياء جديدة — إنشاء منزهات ... ..	١٣٩
الاثارة بالغاز — إنشاء البلدية — تجاوز العمار الأسوار والأبواب القديمة	١٤٠
زيادة عدد السكان — إقامة تمثال محمد علي — عمار مصر ... ..	١٤١
عمل محمد علي — تحويل الأزبكية الى متزه عام ... ..	١٤٢
عمل ابراهيم ... ..	١٤٣
تقلبات الأزبكية ... ..	١٤٤
تعذر الاستقاء في القاهرة بالرغم من قربها الى النيل — سعى محمد علي	
لجلب مياه النيل الى القاهرة ... ..	١٤٦
عدم نجاحه — عمل عباس الأول في السيل عينه — عمل سعيد	
في السيل عينه ... ..	١٤٧
وصف شوارع القاهرة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن	
التاسع عشر ... ..	١٤٨
حصص اسماعيل في تحسين القاهرة — إزالة أكوام الأقطار — تميم	
الكفن والرش ... ..	١٤٩

مقدمة	١٥٠
اختطاط شوارع جديدة — تحويل الأزبكية الى ما هي عليه الآن ...	١٥١
انشاء أحياء جديدة ... ..	١٥٢
اختطاط شوارع جديدة أخرى — انشاء سراى طابدين ... ..	١٥٣
انشاء كوبرى قصر النيل — انشاء كوبرى الانجليز — انشاء القصور العديدة، والمساجد — اقتداء الكبراء بالهنديو — توزيع الماء على أحياء مصر القاهرة ... ..	١٥٤
تحسين النظافة والصيانة — إنارة أحياء مصر وشوارعها بالغاز ... ..	١٥٥
الواردات — الصادرات ... ..	١٥٦
الجمارك والغرائب على بعض المهن كانت تمنح التزاما — إلغاء سعيد عموم الجمارك الداخلية والدخليات — خلل مصلحة الجمارك ... ..	١٥٧
حكاية غريبة ... ..	١٥٨
اصلاح ادارة الجمارك في عهد اسماعيل ... ..	١٥٩
الفصل الرابع — إحياء مالية القطر ... ..	١٦٠
مشمولات :	
حالة المالية الخمسة لنبى وفاة سعيد ... ..	١٦١
نكتتان لسعيد ... ..	١٦٢
الحالات على المالية ... ..	١٦٣
اصلاح اسماعيل الحالة السيئة ... ..	١٦٤
زيادة رواتب الموظفين ... ..	١٦٥
مصادر الإيرادات ... ..	١٦٦

## فهرست المجلد الأول

صفحة

الفصل الخامس — انتعاش التعليم والحركة الفكرية ... .. ١٦٩

مشمولات :

حال التعليم قبل محمد على ... .. ١٦٩

المدرسة الأولى سنة ١٨١٦ ... .. ١٧٠

انشاء مدرسة الطب سنة ١٨٢٥ — أول بعثة الى فرنسا ... .. ١٧١

أول مجلس المعارف ... .. ١٧٢

الأمل في تشييد دولة عربية جديدة — التوسع في تعليم أبناء القطر المصري ١٧٣

المدارس الابتدائية ... .. ١٧٤

المدارس الثانوية والعالية والخصوصية ... .. ١٧٥

إقفال المدارس ... .. ١٧٦

التساعّد بالأزهرين ... .. ١٧٧

الاضطرار الى التربية والتعليم على نفقة الحكومة ... .. ١٧٨

رغائب ابراهيم باشا — حديث للسيو جومار ... .. ١٧٩

تعديل طريقة ارسال البعثات العلمية — انشاء مدرسة مصرية بباريس ١٨٠

أخذ السلطان قواد الأول برأى جده ابراهيم ... .. ١٨١

انحراف عباس الأول عن رأى ابراهيم ... .. ١٨٢

قلة ميل سعيد الى تعليم أبناء البلاد ... .. ١٨٣

اهتمامه بالمدارس الأجنبية، وبالتعليم العسكري ... .. ١٨٤

ميدان العمل أمام اسماعيل — تقسيم حركة التعليم في أيامه ... .. ١٨٦

مدارس الحكومة ... .. ١٨٧

لائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ ... .. ١٩٠

صفحة	
١٩٥	مضار مبدأ المجانية المطلقة...
٢٠٣	مدارس الأوقاف — المدارس الفردية ...
٢٠٤	أولى مدرسة مصرية للبنات ...
٢١٠	مدارس الأقباط الأورثوذكس ...
٢١٣	مدارس الأقباط الكاثوليك — مدارس الروم الأورثوذكس...
٢١٤	مدارس الروم الكاثوليك — مدارس الأرمن ...
٢١٥	مدارس اليهود ...
٢١٦	المدارس الغربية ...
٢٢٨	الارساليات المدرسية ...
	حكاية ما وقع لبعض العاملين من طلبة الارساليات العلمية الى أوروبا
٢٣٠	مع عباس الأول ...
٢٣٢	نهضة في المعارف والأفكار — مظاهر هذه النهضة...
٢٣٣	المظهر الرسمى — مدرسة الاجتولوجيا ...
٢٣٤	المتحف المصرى ...
٢٣٧	لطيفة لموميا فرعونية ...
٢٣٨	مقرر ماريت ...
٢٣٩	ماريت وليك ...
٢٤١	المكتبة الخديوية...
٢٤٢	دار الآثار العربية...
٢٤٣	تنشيط الصحافة والجمعيات العلمية والخيرية والأدب والعلم ...

## فهرست المجلد الأول

صفحة

٢٤٦	مظهر النهضة الفردى
٢٥٤	مظهر النهضة الاجتماعية
٢٥٨	الفصل السادس — التغيرات التى أدخلت على الحياة الاجتماعية المصرية

مشمولات :

	جهود اسماعيل لتغيير القوى الفكرية وعجارى التقدير المتبادل بين
٢٥٩	الفرينين والمصريين
٢٦٩	تغيير العقيلة بواسطة الاصلاح اداريا وقضائيا
	استبداد الادارة فى الماضى — حكاية مدير الدقهلية وقريب أحد
٢٧١	محاسب عباس الأول
٢٧٢	التقدير والناظر القسم والصلاح
٢٧٣	ضابط القاهرة والتركى زوج المرأة الحسنة
٢٧٩	تغيير العقيلة متريلا
٢٨٤	تغيير العقيلة سياسيا
٢٨٥	تغيير العقيلة اجتماعيا
٢٨٧	احترام المحبة قديما
٢٨٨	شيخ البلد والقروى
٢٨٩	مهزار محمد على
٢٩١	الملك الحديشة — الكوميديا
٢٩٢	الأوبرا
٢٩٣	حكاية فيلى النقاد المسرحى
٢٩٥	المراقص — الليالى الراقصة

سنة	
٢٩٦ ...	السباقات
٢٩٨ ...	تقام حلوان
٢٩٩ ...	ابطال النخاسة والرق
٣٠٠ ...	الرق في الاسلام
٣٠١ ...	نشوء النخاسة - الرق في المسيحية
٣٠٢ ...	الرق في البلاد المسيحية غيره في الاسلام - نشوء الرغبة في ابطال الرق
٣٠٣ ...	ابطال النخاسة
	تحرير الارقاء في عموم الممتلكات البريطانية - اقتداء الدول الغربية
٣٠٤ ...	بريطانيا العظمى
٣٠٥ ...	تحول الجهود لإبطال الرق في العالم الاسلامى
٣١٠ ...	انضمام اسماعيل الى الحركة التحريرية
٣١٩ ...	مهمة بيكر باشا
٣٢٠ ...	مهمة الكولونيل جوردون
٣٢١ ...	معاهدة ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ القاضية بابطال الرق
٣٢٣ ...	الظواهر خلاف الحقيقة
	الباب الثانى - تحقيق الشطر الثانى (أى السعى الى الفوز بالاستقلال التام للبلاد) - اجمال
٣٢٤ ...	
	الفصل الأول - ازالة القيد الأول (قيد ما كان جائزا على حقوق العرش المصرى فى الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس المالية من محمد سعيد باشا)
٣٢٥ ...	مشتعلات :
٣٢٥ ...	نبذة فى تاريخ ترعة السويس قديما

## فهرست المجلد الأول

صفحة	
٣٣٧ ... ..	نبذة في تاريخ ترعة السويس حديثاً
٣٣٩ ... ..	ماتيه دى لسبس ومحمد على — فوديند دى لسبس ومحمد سعيد
٣٣٢ ... ..	لجنة سنة ١٨٤٦ ... ..
٣٣٣ ... ..	مقاتحة دى لسبس الأمير سعيد في شأن فتح ترعة السويس
٣٣٥ ... ..	الامتياز — أول اكتاب ... ..
	السعى الى نيل تصديق السلطان العثماني على الامتياز — مقاومة التجار
٣٣٩ ... ..	للشروع ... ..
٣٤١ ... ..	تمضيد محمد سعيد لدى لسبس ... ..
٣٤٧ ... ..	الاكتاب العام ... ..
٣٤٨ ... ..	البدء في العمل ... ..
٣٥٢ ... ..	اطلاع اسماعيل على حقيقة تمهدات سلفه وامتناعه ... ..
٣٥٤ ... ..	بدء النزاع بين اسماعيل ودى لسبس ... ..
٣٦٠ ... ..	النفصال بين دى لسبس ونوبار ... ..
٣٦١ ... ..	سوق نوبار الى عمكة جنح السين ... ..
٣٦٢ ... ..	وليمة ١١ فبراير سنة ١٨٦٤ ... ..
٣٦٤ ... ..	حكم نابليون الثالث — حكم نابليون الثالث ... ..
٣٦٧ ... ..	التسوية النهائية ... ..
	الفصل الثاني — ازالة القيد الثاني (قيد السيادة العثمانية ، بما يتبهما من
٣٦٩ ... ..	تضحيقات منزلة ، وإلزامات مصفرة ، وتوريث بالأرشدية الخ) ... ..
	مشمات :
٣٦٩ ... ..	فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ... ..

## فهرست المجلد الأول

صفحة

القيود الاثنا عشر ... ..	٣٧٠
فرمانا أول يونيه و ٢٠ يوليه سنة ١٨٤١ — تصديق الدول عليهما	٣٧٤
عمل اسماعيل على ازالة تلك القيود — تحويل مجارى الوراثة ... ..	٣٧٥
العمل على تغيير لقب "والى" بـ لقب "شعر بجلال مركز صاحب مصر	٣٨٤
الاتفاق على لقب "خديو" ... ..	٣٨٦
الامتيازات التى أوجبها هذا اللقب ... ..	٣٨٧
السعى الى الاستقلال والوسائل التى اتخذت لذلك ... ..	٣٩١
اشتراك مصر فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ... ..	٣٩٣
قسم المعرض المصرى ... ..	٣٩٤
لطيفة لاسماعيل أثناء زيارته لباريس ... ..	٣٩٨
مقارنة بين اسماعيل وعليليم الثانى امبراطور ألمانيا ... ..	٣٩٩
الاستقلال دون السلطان المتأخر بالقيام بحفلات ترة السويس ... ..	٤٠٣
مكيلة ... ..	٤٠٤
إخماد روح تمرد فى الجند المصرى ... ..	٤٠٦
مولد الملك (فؤاد) ... ..	٤٠٧
سفر الخديو الى أوروبا لاستدعاء عواهلها الى حفلات ترة السويس	٤٠٨
النزاع مع تركيا ... ..	٤١٠
عجى الامبراطورة أوجينى الى القطار المصرى — تهديد الطريق الى الأهرام	٤١٨
رحلة الامبراطورة الى الصعيد ... ..	٤١٩
بدء الحفلات بافتتاح ترة السويس ... ..	٤٢٠
حادثة لطوسن باشا وهو طفل ... ..	٤٢٦



## فهرست المجلد الأول

صفحة	
إشاعات سوء	٤٣٠ ... ..
مركز الاسماعيلية	٤٣٧ ... ..
نيابة سفير بريطانيا العظمى عن سلطان تركيا	٤٤٤ ... ..
عود الى التراجع بين مصر وتركيا	٤٤٥ ... ..
سفر اسماعيل الى الأستانة	٤٥٠ ... ..
فرمانا سنة ١٨٧٢	٤٥٥ ... ..
فرمان سنة ١٨٧٣	٤٥٧ ... ..
الفصل الثالث — إزالة القيد الثالث (قيد الامتيازات الأجنبية القضائية)	٤٦١
مشمولات :	
نبذة في تاريخ الامتيازات الأجنبية	٤٦١ ... ..
التجاوزات	٤٦٣ ... ..
لطيفة للسيو تريكو	٤٦٧ ... ..
مذكرة نوبار في سنة ١٨٦٧	٤٧٠ ... ..
المشروع لا يتال حظوة لدى الحكومة الفرنسية	٤٧٢ ... ..
» » » » الثمانية	٤٧٣ ... ..
مساعي نوبار	٤٧٥ ... ..
اجتماع اللجنة الدولية بمصر	٤٧٦ ... ..
تقريرها الموافق	٤٨٩ ... ..
لجنة بياريس لتحصن المشروع — موافقة إنجلترا — تشكيل لجنة	
إيطالية بفلورانس	٤٩١ ... ..

## فهرست المجلد الأول

صفحة

رفض تركيا — موافقة روسيا وبروسيا والولايات المتحدة على الإصلاح	٤٩٢
القضائي ... ..	٤٩٢
مدول الباب العالى عن الرفض	٤٩٣
نتيجة أبحاث اللجنة الفرنسية ... ..	٤٩٤
طبع القوانين المختلطة وتوزيعها	٤٩٦
الحرب السبيلية — توقف المخابرات — حود الى المخابرات	٤٩٧
مراوغة الباب العالى ... ..	٤٩٩
سفر اسماعيل الى الأستانة — نزول تركيا عن إصرارها	٥٠٢
اجتماع سفراء الدول ... ..	٥٠٣
لجنة الأستانة ... ..	٥٠٥
تصديق بريطانيا العظمى وإيطاليا على الإصلاح نهائيا	٥٠٩
تصديق الدولة العلية — استمرار فرنسا على المعارضة	٥١٠
تصديق النمسا والولايات المتحدة النهائى	٥١١
مقاومة فرنسا المقاومة الأخيرة ... ..	٥١٣
تحرير لجنة محكمة إكس ... ..	٥١٦
حفلة استقبال القضاة الأول	٥١٧
استمرار فرنسا على ممانتها ... ..	٥١٨
تهديد الحكومة المصرية بالناء محكمة التجارة بمصر والاسكندرية	٥١٩
موافقة فرنسا بعد التي والتي — افتتاح المحاكم المختلطة	٥٢١
بلوغ الأوج ... ..	٥٢٢
تقرير العمل بالتاريخ القرضوى ... ..	٥٢٣

## تقدّمه للكاتب

الى حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر

”نور ساطع ظهر حديثا في سماء الشرق“

«إدون دى ليون»

مولاي، هذه جملة حقة وصف بها المؤرخ إدون دى ليون والدك الجليل وكان يعرفه عن كتب، إذ كان على عهده قنصلا جنرالا للجمهورية الولايات المتحدة بالقطر المصري .

ولا يسع المرء، اذا أجال الطرف فيما كانت عليه مصر يوم ارتقى (اسماعيل) عرشهم وما وصلت اليه من حضارة وتقدم يوم اعتزاله الأريكة الخديوية، إلا أن يعترف بأن إدون دى ليون السياسي المؤرخ لم يقل إلا الحقيقة الواقعة . فقد احتل (اسماعيل) أريكة مصر والبلاد لم تخلص بعد من ظلمات القرون الوسطى التي حاول جدكم الأكبر (محمد علي) أن يتنشلها منها، فحال الأجل بينه وبين اتمام عمله، فوفقت مشروعاته الجلية، وتمطلت أنظمة العدل، وكادت تنمو آثار العلم، ونخبو جنوة التطور الذي بدت بشارته في سبيل المدنية . أضف الى ذلك صعبا : منها ما نشأ عن امتياز قناة السويس الذي منحه (سعيد باشا) للشركة المعروفة، فقد كان يلزم مصر بتجهيزات من شأنها أن تمس سيادتها في جزء كبير من أراضيها، ومنها ما اشتملت عليه القرارات الصادرة في سنة ١٨٤١ من نصوص تجعل تبعية مصر للدولة العثمانية

## خدمة الكلب

في حالة أقل ما توصف بها أنها غير مرضية ، وأنها تعرض البلاد لطوارئ ليست في الحسبان ، كما أن الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لرايا الدول الأجنبية في مصر كانت حملا ثقيلا على عاتق المصريين ، اضطرت لها المصلحة ، وتعددت بسببها السلطات المختلفة في البلد الواحد ، حتى كانت النظم الداخلية مختلة معتلة .

أما في الخارج فكانت مصر مفعودة المكانة لا يعرفها على حقيقتها إلا النفر القليل ، ويظن أكثر العالم المتعدين أنها لا تمتاز عن بقية بلاد أفريقيا التي لا تزال تعيش حياة همجية .

تلك كانت حال البلاد . ولكن بعد أن تولى (إسماعيل) العرش ست عشرة سنة ونصف السنة أصبحت مصر حكومة منسقة تسبق الأنظمة المتبعة في أرق البلدان الأوروبية ، من حيث نظامها النيابي والإداري والسياسي .

وزادت مساحة أرضها المزروعة نيفا وألف ألف فدان ، وتقدم الري فيها تقدما عظيما : فشقت الترع التي لا يحصر عددها ولا تحمد فوائدها ، نذكر منها ترعة الإبراهيمية والإسماعيلية ، وشيدت القناطر الجديدة ، وأقيم من الكبارى نحو أربع مائة على النهر الأعظم وفروعه : منها كوبرى قصر النيل الفخيم ، وكوبرى الانجليز ، وأنشئت الطرق الزراعية المتراصة الأطراف في أنحاء البلاد ، وملئت السكك الحديدية ، والأسلاك البرقية على أبداع وضع حتى بلغت ديار السودان ، وأنشئت المواصلات البريكية ، وأصلح توزيع الضرائب على أرباب الأطنان ، وأنشئت شركات الملاحة وغيرها من شركات المساهمة ، وأصبحت موانئ الاسكندرية وبورسعيد والسويس ،

## تقدمة الكتاب

وهى أهم ثغور القطر، تضارع أحسن موانئ السواحل الأوروبية والبحر الأبيض المتوسط عملا وحركة، كما نصبت المنارات الجميلة على طول الشاطئ المصرى حتى سواحل المحيط الهندى .

أما الفنون والمهن والحرف على تباينها ، والصناعات على اختلاف أنواعها ، فقد انتعشت انتعاشا عظيما ؛ ونشطت المشروعات العامة نشاطا جديدا ، وظهرت مدن القطر بمظهر غير مظهرها الأول ، وعلى الأخص مدينتا الاسكندرية والقاهرة بعد أن رصفت طرقيهما وأضيئت بمصابيح الغاز ووزعت بهما المياه بطريقة محكمة ، وأوجد فيها نظام خاص للكس والرش ، وقد غرست فيها الحدائق الغناء ، وأنشئت الميادين والمتنزهات الفسيحة الجميلة على طراز حدائق باريس ومتنزهاتها وساحات السباق ، وازداد بهاؤها بالمباني الفخمة ، مثل بناء الأوبرا ، ودور التمثيل الأخرى ، وما أحدث فيها من الأحياء الجديدة على النسق الأوروبي ، وما شيد من القصور والمساجد التى تضاهى أبديع ما أنتج فن البناء من عهد المماليك .

وقد زاد عمار البلاد فى هذه الفترة وبنيت علة مدن جديدة ، أهمها الاسماعيليه وحلوان ، واتخذت فى هذا العهد جميع الوسائل اللازمة لحفظ الصحة العامة فى القطر : فأعيد تنظيم الإدارة الخاصة بها ، وأصبحت البلاد ، على قدر المستطاع ، فى مأمن من غوائل الأوبئة والوافدات ؛ وقد نفخت فى التجارة روح جد زادت بها الواردات ووضعت الصادرات حتى بلغت أربعة أضعاف ما كانت عليه من قبل ؛ وألنى الالتزام الخالص بالجمارك ، ونظمت إدارتها أحسن تنظيم .

## قائمة الكتاب

أما الصليبي فحقت عنه ولا حرج ، لأنه دفع الى الامام دفعة كان من شأنها أن أنشئت المدارس على اختلاف أنواعها في جميع الانحاء : منها مدارس الفقهاء ومدارس الميمان ومدارس الخاديمات التي انفردت مصر دون الشرق كله بإيجادها؛ وزودت المدارس الخاصة والأجنبية بالتشجيع ، ورثت لها الاعانات ، ونفحت من الهبات الجميلة الثمن الكثير ، وظلت البعثات المدرسية للسبلان الخارجية تتوالى ويتسع نطاقها؛ وصارت العربية لغة رسمية في مصالح الحكومة والمدارس الأميرية بدل اللغة التركية .

كل هذا أدى الى اتساع دائرة العلوم والمعارف والآداب الاجتماعية : فنبغ في مصر فطاحل الكتاب ، ونطس الأطباء ، ورجال الصحافة الأكفاء ، والمفكرون الحكماء ذور الرأي الصائب والفكر السديد ؛ وأنشئت مدرسة العلوم المصرية القديمة ، ودار الآثار العربية ، ودار الكتب الخديوية الفخمة ، فأصبحت كأنها حلقة وصلت مصر الفراعنة بمصر القرون الوسطى ومصر الحديثة .

كما أنه امتاز عهد والدكم الجليل بالتطور الاجتماعي السريع الذي نهض بمقليات القطر المصري وكاد يرفعه الى مصاف بلاد الغرب . فارتقت العوائد وأتمط الحياة المنزلية والعمومية؛ ونظمت ادارة الحفظ والامن على أسس جديدة؛ واقصفت السلطات بعضها عن بعض : فأصبحت السلطة التنفيذية مستقلة عن السلطة القضائية ، وحق (لإسماعيل) أن يفخر بما فعل قاعلا : « انفصلت بلادى عن افريقيا لأننا أصبحنا جزءا من أوروبا » .

وفي ذلك العهد الجديد تخلصت مصر مما ترتب على امتياز قناة السويس من المساس بحقوق سيادتها ، وتعاقتت الفرمانات التي نالها بما بذلته من نفائس ثروتها مؤذنة برفع القيود التي كانت مصر راضخة لها بحكم التبعية للدولة العثمانية ، فتضككت هذه القيود واحدا بعد واحد ولم يبق منها إلا أمر الخراج ، واتخذ العزيز لقب "الخليديو" بدلا من لقب "والى" الذى كان يشاركه فيه حكام الولايات العثمانية ؛ ثم قرر التوارث فى العرش على مبدأ الابن البكر من "أولاد صاحب العرش" ، وأصبح استقلال مصر استقلالاً حقيقياً — بالرغم من صلة التبعية الاسمية — بدليل اشتراكها كدولة مستقلة فى المعرض العام الذى أقيم سنة ١٨٦٧ فى باريس ، وترؤس ملكها حفلات افتتاح قناة السويس التى تعد من أبداع وأبهى صفحات عهده ، وذلك بالرغم مما أبدته تركيا من الاحتجاجات على ترؤسه لها .

ولما كانت الامتيازات الأجنبية قد أدت الإفراط فى تطبيقها الى مساوئ عدة ، فقد درى ضررها على قدر الطاقة بإنشاء المحاكم المختلطة التى تعد صنفه أخرى جيدة فى تاريخ حكم (اسماعيل) وكان من شأنها أن تميد الى مصر كرامتها وحقوقها فى السيادة الداخلية .

وبينا كان العمل سائرا يحمّد ونشاط فى انجاز هذه السجائب المدهشات ، كان الفتح سائرا من جهة أخرى للقضاء على الرق والنخاسة ؛ فنجم عن ذلك أن قضى على الرق والنخاسة قضاء لا رجوع فيه ، وخضع السودان بأكمله لسيطرة مصر التى امتدت الى الشاطئ الغربى للبحر الأحمر والمحيط الهندى حتى بلغت رأس غاردافوى ؛ فأصبحت مصر امبراطورية عظيمة . ولما دخلت فى عداد الأمم المتمدينة حازت بنها المكان اللائق بمجدها الاثيل وأعمالها الجليلة .

## تقدمة الكتاب

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شكلت البعثات العلمية التي تجاوزت حدودها الثلاثين سنة لاستقصاء الجهات المجهولة في أواسط أفريقيا وشرقها، سعيا وراء خدمة العلم والمعارف، ورفع شأن القنطر المصري. فأنشئت الجمعية الجغرافية الهندية، وسارع أقطاب العلماء الى الانخراط في سلكها لنوال شرف الانتماء لها.

فلم يك والدك بلليل نورا ساطعا فحسب، بل كان شمسا متألقا في سماء مصر. ولا غرو اذا اتجهت رغبتك يامولاي—وأنت أبر أبناء هذا المصلح العظيم، الذي تمت على يديه جميع هذه المدهشات—الى أن يفصل التاريخ وقائعها، لذلك تكزمت ووضعت تحت إشراف المجمع العلمي المصري المبارة التي أدت الى ظهور هذا الكتاب، وتفضلت—مذ قررت اللجنة العلمية التي انتدبت لفحص مختلف مؤلفات المتبارين أفضليته على سواء—فشمسته وشملت مؤلفه بتعطفاك الملكية العالية.

فلتفضل جلائكم وتأذني رفعه إلى سديكم الملكية مقبلا بين يدي من صادق إخلاصى وعظيم طامحى وعبوديتى لكم خير شفيع

العبد الخاضع  
الياس الأيوبي



## رأى اللجنة العلمية

المشكلة لفحص مؤلفات المتبارين في هذا الكتاب

---

كتاب الياس الأيوبي ، يتألف من مجلدين مجموع صفحاتهما ١٠٨٤ صفحة ،  
في كل صفحة عشرون سطرا مكتوبة .  
وينقسم الى سبعة أجزاء تشتمل على اثنين وثلاثين فصلا .  
أقسام المؤلف معقولة وعملية . قصص الحوادث مضبوط ولا تميز فيه .  
الإنشاء عصري وأنيق ، ليس فيه كلمات بطل استعمالها ، والكلمات المستعداة  
قليلة فيه .

---



# الكتاب

المرسل من المجمع العلمى المصرى الى المؤلف

---

مصر ٨ مايو سنة ١٩٢٢

حضرة المحترم

بأمر جلالة الملك يتشرف المجمع العلمى باعلانكم ، فيما يخصكم ، بنتيجة المباراة  
التي وضعها صاحب الجلالة تحت إشراف جمعيتنا لتأليف كتاب فى تاريخ مصر مئة  
حكم سمو الحديو اسماعيل :

إن جائزة الثلاثمائة جنيه قد منحت لكم ؛ وقد صرح لكم أنف تتقبوا بلقب  
"الفائز فى المباراة" ؛ وستدفع لكم نظارة خاصة بجلالته المبلغ المذكور عند تهديكم هذا  
الكتاب . هذا وأن صاحب الجلالة يضع تحت تصرفكم مبلغا آخر تكبيلنا اذا أردتم  
أن تترجموا مؤلفكم الى اللغة الفرنسية .

وانى بتليفى هذه القرارات لكم أرجوكم أن تقبلوا منى خالص تهاى وشعور  
احترامى الفائق ؛

عن رئيس المجمع العلمى المصرى

(الوكيل) : ا . بيويك



## مقدمة الكتاب

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بينما نحن مشغولون في كتابة الجزء السادس من تاريخ مفصل خصصنا أنفسنا لوضعه في شؤون مصر الإسلامية بين الفتح العربي والفتح العثماني ، إذا بأحد الأدباء من أصدقائنا أشار علينا بالتكسب ، مؤقفاً ، عن موضوعنا هذا الى الاشتغال بتحرير تاريخ مصر في أيام حكم ( اسماعيل ) قائلاً : « إن أحوال مصر الحاضرة ربما كانت الى إيقاف الناس على ما أدى الى تشبك المصالح المختلفة في هذا البلد الأمين تشبكا غريباً ، أدعى منها الى إيقافهم على ما تم في عصور خلت ، قد لا يهتم لها واحد في الآلف ، لا سيما وأن الأمير فؤاداً قد أقام مباراة تحت إشراف المجمع العلمي المصري ؛ ووضع جائزة لمن يحرر أحسن تاريخ لمصر في عهد أبيه ! » .

فراينا أن نعمل بإشارة الصديق الأديب على ما في العمل بها من حرج ومشقة . فانتبأ ، من جهة ، نكاد نكون معاصرين لعهد ( اسماعيل ) — والحقائق التاريخية إنما يظهرها البعد ، فقط ، في حلتها أو صبغتها الحقيقية — ومن جهة أخرى ، فانا ، على ما أوجدته فينا معرفتنا بتاريخ ( اسماعيل ) السطحية السابقة من ميل فطري الى الرجل

(١) هذا الكلام صدر في سنة ١٩١٧

## مقدمة الكتاب

وإعجاب به، كذا، لثأرنا بالأحاديث والروايات المتناقضة عنه، نعتد — ولو اعتقادنا غير واضح ومصبوغا بصبغة مجرد الأخذ برأى الغير أخذنا لا يبرره بتحكيم عقل — أنه ربما استفادت سمعة (إسماعيل) من عدم تموض أحد لإزالة السلول عنها، ومن إيهاتها ما بين النور والفسق، حيث أجمع على ذلك كتاب العربية، بدلا من إبرازها الى نور النهار الساطع .

ولكننا، فيما يختص بقرب معاصرتنا للأيام التي دحينا للتكلم عنها، قلنا في نفسنا: «إننا، اذا توخينا الحقيقة باخلاص، وبحثنا عنها باحتناء، وقرأناها بشجاعة وبدون هوى، قد لا نجد بأسا في إقدامنا على كتابة تاريخ (إسماعيل) . ولئن لم نستطع إيفاء حقه — لأن المصادر التي سوف يستقى منها مؤرخو المستقبل غير موجودة الآن تحت تصرفنا — فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله؛ وربما قدّمت كتابتنا بعض المادة المفيدة لمن سوف يتلونا في هذا المضمار !

وفيما يختص بما لدينا من فكرة غير مبيلة على تحكيم عقل في شخصية (إسماعيل)، فانا قلنا في نفسنا: «فوق أنه يمارطينا، بصفتنا من المفكرين، أن نقيم بناء اعتقادنا في الأشخاص التاريخيين على محض التمزق السطحي بهم، أو على مجرد آراء الغير فيهم، فلان إقدامنا على كتابة تاريخ الرجل يلزمتنا، حتا، درس شخصيته وأعماله درساً تاماً، فينمّر، في معارفنا، فراغاً شائئاً، وقد يؤدى بنا الى تعديل فكرنا وفكر قرائنا الكرام في الخلدو الأول تعديلا يوجبّه تمزقنا بأخلاقه وخصاله تمزقا شامحا، ووقوفنا على جميع أعماله وقوفاً حقا .»

فأقدمنا ، إذا ، على العمل ، وأخذنا في مطالعة كل ما كتب عن (اسماعيل) وعصره ، بل معظم ما كتب عن أسرته في العربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية وما ترجم إلى هذه اللغات من اللغات الأجنبية الأخرى التي لا نعرفها ، ودرس ذلك جميعه درسا تاما .



وإذا بنا كلما زدنا تمزقا بعمل (اسماعيل) المتتبع ، وإدراكا لنتائج الاجتماعية في القطر ، زاد إعجابنا به وعلا قدره في نفسنا . وما فرغنا من البحث والتنقيب ، والمطالعة والدرس ، إلا وقد رجع فينا الاعتقاد الثابت بأن (اسماعيل) كان رجلا عظيما ومصريا حقيقيا ، وأنه عمل لمصلحة مصر ورقبها وقلمها ما لم يعملها عاهل تولى عرشها منذ قرون ، وأنه — وإن لم يخل من تقائص : فكثرة عليه ، لذلك ، عدد الطاعنين — قد كان أميرا شرفيا ، جديرا بأن يوضع في مصاف عظماء الشرق ، وجديرا بأن يقرن اسمه ، بعد مماته ، بصفات التمجيد والتبجيل التي كان يقرن بها وهو مستو على عرشه الساطع سنى .



فأقبلنا بارتياح ، بل بابتهاج ، على تكوين تاريخ مصر في أيامه . ولم نعد نخشى إلا شيئا واحدا ، وهو : أن يحول عجزنا دون إيفائنا الموضوع حقه ، وأن لا نخرج ميترفا<sup>(١)</sup> من رأسنا إلا مجزوة من سلاحها .

(١) "ميترفا" كلمة الحكمة عند قدماء اليونان والرومان تعربت مدججة بالسلاح من رأس زيفس أيبا -

وهو إله الآلهة والبشر .

## مقدمة الكتاب

---

على أنه إذا كانت الأعمال إنما توزن بالنيات، فانا تهتم عملنا هذا الى الجمهور ونحن  
واقفون من أنه سيقتفلنا كثيرا؛ لأن نيتنا في الحقيقة صالحة، ولم نبغ سوى تقرير  
الأمور كما خيل إلينا أنها هي في الواقع. فان أخطانا النظر إليها، فقهصر طبيعى  
في العين، لا لأننا وضعنا عليها نظارة الغرض والتحيز.

الاسكندرية في ٢٥ يارس ١٩٢٣

الياس الأيوبي



## شكر المؤلف من تفضلوا بمساعدته

قد تفضلت اللجنة العلمية في دار الكتب المصرية التي يرأسها حضرة العالم الكبير والفيلسوف المفكر صاحب العزة أحمد لطفى السيد بك بقبول طبع هذا الكتاب في مطبعة القسم الأدبي في تلك الدار، وتحت إشرافها النافع . وهى لا تطيع فيما من الكتب إلا ما تحكم بأنه جدير بأن ينظم في عقد المؤلفات الفانحة التى تعمل ، بنشرها ، على إحياء آداب اللغة العربية . فقلبتنا بذلك منة لم تقلد بها أحدا من المعاصرين لنا قبلنا ، وجعلت لكتابنا قيمة ثمينة فوق القيمة التى أكسبه إيها حكم المجمع العلمى المصرى والمندوبية العلمية الخاصة فيه بأنه أفضل المؤلفات المقترحة الى تقديرها فى المباراة العلمية التى وضعها صاحب الجلالة مولانا الملك ( فراد الأول ) إذ كان — حفظه الله — لا يزال الأمير المعظم فرادا .

ومهما شكرنا ، فانا لن نوفى ما توجبه هذه المنه الفريدة من شكر علينا !

ومما زاد فى مقدارها لدينا هو أن حضرة العالم الفاضل والحبيب السيد محمد على البيلاوى ، تقيب أشرف الديار المصرية وأحد أعضاء تلك اللجنة الجليلة ومراقب إحياء الآداب العربية ، قد وقف بشخصه الكريم على طبع كتابنا هذا ، مهذبا ، مجهدا نفسه فى جعله خلقا من كل شائبة .

ولا يسعنا ، هنا ، إلا شكر دار الكتب المصرية فى المحروسة والمكتبة البلدية بالاسكندرية على التسهيلات التى جادت بها طيننا باطوتنا كل ما احتجنا اليه من كتب ، وشكر أمثاتها ، حضرات الأفاضل : على فكرى افندى وخليفة قنديل افندى

## شكر المؤلف

وسيد عمر افندى، أمانة دار الكتب المصرية ؛ وحضرة الأستاذ العالم الشيخ أحمد أبى على، أمين المكتبة البلدية بالاسكندرية، على حفاظتهم بنا، ولطفهم الفائق نحونا، وآدابهم الجملة فى معاملتنا .

ونحن فى حاجة الى أن نشكر، على الأخص، صاحب العزة والمروءة وسليل بيت المجد والحسب سليمان يسرى بك، القاضى بمحكمة الاسكندرية الأهلية، الذى تفضل ووضع تحت تصرفنا مكتبته النفيسة، بلطف نفس، وكرم أخلاق، وسماحة شيم، زادت فى جمال معروفه .

وبما أننا فى مقام شكر من نرى شكرهم واجبا، فأننا نقلم هنا أبجل عبارات اعترافنا بالفضل والجدارة الى حضرة صديقنا الفاضل وزميلنا الكريم بولص غانم افندى، المترجم بمحكمة مصر المختلطة، الذى أمدنا بسعة اطلاعه على أصول البلاغة العربية، وقضى معنا ساعات طويلة فى مراجعة هذا المؤلف .

وكذلك نشكر حضرة محمد عصمت افندى رئيس القسم الأدبى بدار الكتب، وحضرات المصححين فيه فقد ساعدوا مساعدا ممدوحة . وأخص بجميل الشكر حضرة الشاب الفاضل الأديب عباس السيد افندى ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية، فانه لم يدع مجهودا إلا وبذله فى مسهيل تصحيح الغلطات المطبعية، وإتقان العمل بسرعة وتيقظ تام، حتى تمكن من إبرازه فى حلة قشبية قبل الميعاد المتفق طيه .



فإن ظهرت — مع ذلك — فى الكتاب شوائب، فاق الكمال لله وحده !

## أهم مصادر الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
أود سكالكي	مصر القديمة والحديثة ... ..
باركر	سورية ومصر في عهد سلاطين تركيا الخمسة الآخرين
فرزرد	مصر اليوم من الخديو الأول الى الخديو الثالث ...
برهيه	مصر من سنة ١٧٩٨ الى ١٩٠٠ ... ..
ليدى أمهرست أو ف هاكنى	التاريخ المصرى من القدم الى اليوم ... ..
البارون دكوزيل	مذكرات انجليزى عن مصر من سنة ١٨٣٣ الى ١٨٨٧
مانجين	تاريخ مصر تحت حكم محمد على من سنة ١٨٣٣ الى ١٨٣٨
لين	أحوال وعوائد المصريين الحديثين ... ..
باوريج	تقرير عن مصر وكندا سنة ١٨٤٠ ... ..
كلوت بك	موجز تاريخ مصر سنة ١٨٤٠ ... ..
هامون	مصر تحت حكم محمد على ... ..
هامون	مصر بعد صلح سنة ١٨٤١ ... ..
باكر موسكاو	فى بلد محمد على (ترجمة انجليزية) ... ..
شلمر	مصر فى سنة ١٨٤٥ ... ..
مارسيل	مصر تحت حكم محمد على ... ..
بيل سانت جون	مصر تحت حكم عباس ... ..
مريو	مصر الحديثة من محمد على الى سعيد باشا ... ..

## أهم مصادر الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
مدام أولمپ ادوار	كشف الستار عن أسرار مصر ... ..
ساكريه وأوتريون	مصر واسماعيل باشا ... ..
تييريس	مصر القديمة والحديثة في معرض باريس العام سنة ١٨٨٧
چليون دالجلار	رسائل في مصر الحديثة ... ..
إدون دى ليون	مصر الخديو أو دار الرق القديمة في عهد أرباب حديثين
ماك كون	مصر كما هي الآن سنة ١٨٧٧ ... ..
فان بين	مصر وأوروبا بقلم قاض مختلط قديم ... ..
ماك كون	مصر في عهد اسماعيل ... ..
رائس	اسماعيل باشا من سنة ١٨٣٠ الى ١٨٩٥ ... ..
سير ادورد مالت	مناظر متغيرة أو تذكارات عن أناس عديدين في بلاد عديدة
بيوفيس	الفرانسايون والانجليز بمصر ... ..
فون مالورنى	مصر — الحكام الوطنيون والتدخل الأجنبي ... ..
فوجانى	وصف مصر — القاهرة وضواحيها ... ..
لييك	مصر الأخيرة ... ..
موبلى بل	خديو يون وباشاوات ... ..
بتلر	حياة البلاط بمصر ... ..
ساندى إى كاسترو	مصر ... ..
فريسييه	المسألة المصرية ... ..
جاشين	مصر الحديثة ... ..
فارمان	مصر وتسلیمها ... ..

## أهم مصادر الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
فولبي	رحلة الى سوريا ومصر في سنة ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و ١٧٨٥
برتليي سانت إيلر	رسائل مكتوبة من مصر ... ..
مارمون	سياحة المارياشال دوق دى راجوزا فى سوريا وفلسطين ومصر
ديدييه	لئالى مصر ... ..
ديدييه	نعميمة ميل على النيل ... ..
جاردنيه	رحلة السلطان عبد العزيز من استامبول الى القاهرة
ليدى دف جوردون	رسائل من مصر من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٦٥ ... ..
ليدى دف جوردون	رسائل من مصر سنة ١٨٦٩ ... ..
آبو	الفلاح سنة ١٨٦٩ ... ..
مارى وائل	حياة البؤساء بمصر سنة ١٨٦٩ ... ..
مارى وائل	بين أكواخ مصر سنة ١٨٧١ ... ..
ليدى دف جوردون	الرسائل الأخيرة من مصر سنة ١٨٧٧ ... ..
رونيه	مصر بجزارة مراحل مراحل ... ..
كولتشى	الكولزا بمصر سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٥٥ ... ..
كولتشى	الادارة الصحية العمومية بمصر من سنة ١٨٦٠ الى ١٨٦٥
لوكوفتشس	حوادث من التاريخ المعاصر ... ..
يسقوب أرمين باشا	الملك المقارى بمصر ... ..
ليتان ده بقفون	مذكرات عن أهم الأشغال العمومية المفيدة التى عملت بالقطر المصري من أقصى القدم حتى يومنا هذا ...
فؤاد سلطان بك	النقود المصرية ... ..

## أهم مصادر الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
أنونيم	حالة مصر المالية سنة ١٨٧٤ ... ..
فردنان دى لسبس	فتح برزخ السويس : إيضاح ومستندات رسمية من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٦٠ ... ..
فردنان دى لسبس	رسائل ويومية ومستندات ليؤخذ منها تاريخ ترعة السويس من سنة ١٨٥٤ الى ١٨٧٠ ... ..
شارل رو	برزخ السويس وترعه ... ..
أنونيم	تاريخ مصر المال من أيام سعيد باشا سنة ١٨٥٤ الى ١٨٧٦
سانتيردى يوف	صاحب السعادة شريف باشا ، مصر سنة ١٨٨٧ ...
سانقى	مصر تحت حكم اسماعيل باشا ، ميلانو سنة ١٨٨٠ ...
يعقوب أرئين باشا	بعض اعتبارات عن التعليم العام بمصر سنة ١٨٩٤ ...
يعقوب أرئين باشا	المعارف العمومية بمصر سنة ١٨٩٠ ... ..
لورد كرومر	مصر الحديثة ... ..
پ . ل . ه . دى . س	تراجم مصرية : اسماعيل حسنيق باشا وموت المفتش مصر سنة ١٨٧٩ ... ..
نعوم شقير بك	تاريخ السودان ... ..
فيليب جلاز	الفرمانات السلطانية والأوراق الرسمية الخاصة بمصر من سنة ١٨٤٠ الى ١٨٧٩ ... ..
لوكونش	كيف يوزع القضاء بمصر سنة ١٨٦٦ ... ..
—	الإصلاح القضائي بمصر . المداولات والاجتماعات التي سبقته وأدت اليه ( مكتبة الاستئناف المختلط ) ...
هيرروس	حاكم مصر المختلطة ... ..

## أهم مصادر الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
بيكر باشا	اسماعيلية ... ..
مساداليا	النازفون تحت ادارة جوردون باشا ... ..
كلوت بك	تاريخ محمد علي ... ..
جوين	تاريخ مصر في القرن التاسع عشر ... ..
بورديانو	مصر عملا بمجاهدات سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١ ... ..
سوتاريا	حلمة المصريين على الحبشة ... ..
شارل . لساج	شراء أسهم ترعة السويس في نوفمبر سنة ١٨٧٥ ... ..
أرتين باشا	رسائل الدكتور برون محطرة من مصر والاسكندرية الى المسيو مول بياريس من سنة ١٨٣٨ الى ١٨٥٤
لامب لاو	مصر وضواحيها ... ..
جانثاني	في الطاعون الذي فلك بالقطر المصري سنة ١٨٣٥ ... ..
سرفلست هورد	ترعة السويس الخ . ... ..
داي	مصر المسالمة والحبشة المسيحية ... ..
روزستين	نحراب مصر ... ..
كلوت بك	بيان عن حال التعليم الطبي الخ في القطر المصري سنة ١٨٤٩
جيسى باشا	سبع سنوات في السودان المصري ... ..
دور بك	التعليم في مصر ... ..
الدكتور دري بك	ترجمة حياة علي مبارك باشا ... ..
محمد طلعت حرب بك	قناة السويس ... ..
موريه	تاريخ محمد علي ... ..





## تمهيد

كانت مصر حتى سنة ١٧٩٨ م تحت حكم الأمراء المماليك القليل وحكم الدولة العثمانية الاسمي . فأتت في سنة ١٧٩٨ حملة فرنساوية تحت قيادة الجنرال بوناپرت فغضبت على حكم المماليك ، واحتلت القطر . فعز ذلك على انجلترا . فبالت زالت بالدولة العثمانية حتى حملتها على إشهار الحرب على فرنسا وارسل جيش زانحالى مصر لإخراج الجيش الفرنساوى منها . ولكن الجنرال بوناپرت قضى على ذلك الجيش قضاء مبرما في واقعة أبى قير فى ٢٥ يولييه سنة ١٧٩٩

غير أن أحوال فرنسا الداخلية والخارجية ما لبثت أن اضطرت الجنرال بوناپرت الى مفاداة القطر . فظا بخلفه الجنرال كلير الانجليز والأتراك فى أمر انسحابه بجيشه من مصر والعود الى فرنسا على مرأكب انجليزية . وأبرم معهم لهذا الغرض معاهدة العريش فى أوائل سنة ١٨٠٠ وسلم الصدر الأعظم يوسف باشا معظم البلاد . ولكن الحكومة الانجليزية لاحتقادها الوهن التام فى الجيش الفرنساوى المعقود لواءه لكلير أبت التصديق على معاهدة العريش وأبت إلا أن يسلم الجيش الفرنساوى سلاحه فتظله المراكب الانجليزية أسيرا الى انجلترا .

فهاج هذا الأمر ثورة النضب والحمية فى صدر الجنرال كلير . فأرسل الى الصدر الأعظم يوسف باشا يأمره باعادة البلاد الى الفرنساويين والارتداد الى سوريا — وكان يوسف باشا قد بلغ بجيشه الثمانى المطرية وعسكر فيها — فأبى يوسف باشا إلا استمرار الزحف الى القاهرة .

## تمهيد

نفرج الجنرال كلير اليه بعشرة آلاف فرنساوى وهزمه هزيمة مخجلة  
في عين شمس . وعاد واسترد القطر كله .

ولكن سليمان الحلبي ما لبث أن قتله في ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ ، فألت القيادة  
الى الجنرال منيو — وكان قد اعتنق الاسلام وتسمى عبدا لله . ولم يكن من الدراية  
بأمور الحرب على شئ .

فاغتنمها ابتغرا فرصة وأرسلت حملة الإنجليزية تحت قيادة الجنرال أبركمرى لإخراج  
الفرنساويين من مصر . فتحارب الجبهشان الغريبان في ضواحي الاسكندرية —  
ما بين سيدى جابر والمعمورة — وانجلى المعركة عن فوز الانجليز وقتل قائدهم . فارتد  
الفرنساويون الى الاسكندرية وتمحصنوا فيها . وخلف الجنرال هتشسن القائد  
المقتول . فحضر الأرض حول الاسكندرية بالمياه بكمره سد أبى قير، وزحف بمعظم  
جيشه الى العاصمة . وبعد تناوشات وقائع صغيرة وحصارات لاداعي الى ذكرها  
في هذه التنبئة ، انتهى الأمر بالنجلاء الجيش فرنساوى عن مصر على قاعدة معاهدة  
المريش .

فأراد الأمراء المماليك — على ما أوجدته في طائفتهم من ضعف عظيم حروبهم مع  
الفرنساويين — العود الى الاستقلال بأحكام البلاد . وأرادت الدولة العثمانية استئصال  
شأفتهم ليستقيم لها عود الحكم في مصر أسوة بباقي الممالك الشاهانية .

فقام إنفا نزاع عنيف وقتال عنيف بين الولاة الميعتين على مصر من لدن الدولة  
العثمانية والأمراء المماليك ، ودارت الحرب بينهم مجالا .

## تمهيد

وكان قد حضر الى مصر مع الجيش العثماني المكلف بمهمة إخراج الفرنسيين منها رجل مكندفي من أهل قولة يقال له (محمد علي)؛ فاضتم فرصة ذلك النزاع وأخذ يتقدم على أكثاف الولاة تارة وطورا على أكثاف الممالك، حتى أصبح من كبار زعماء الجنود . فشرع حينذاك يعمل في الخفاء على إسقاط الولاة ويقاثل الممالك جهارا حتى آل به الأمر الى تهشيم مراكز الفريقين وفل كلنتهم . فأجمع العلماء وشعب القاهرة على اختياره أميراً على مصر في ١٤ مايو سنة ١٨٠٥؛ وعضدهم في ذلك الجنرال سيبستيان السفير الفرنسي في الأستانة عملاً بتوصية القنصل الفرنسي بمصر المدعو ماثييه دي لسبس، والد فردينان دي لسبس صاحب قناة السويس .

فاقرت الأستانة محمد عليا واليا على القطر في ٩ يولييه سنة ١٨٠٥، فما تواتى لحظة في تثبيت مركزه ضد دسائس تركيا، ومساعي الانجليز وصلاتهم، وتمودات الجنود وبأس الممالك، والاحتياج الى المال حتى انتهى به الكفاح، بعد عناء شديد، الى الفوز التام . فوطد قدميه نهائيا على السدة المصرية؛ وقهر الانجليز وأجل عن البلاد حملة أرسلوها اليها في سنة ١٨٠٧؛ وأقنى الجنود غير النظامية في حروب أرسلها اليها في البلاد العربية لمقاومة الوهابيين، وفي السودان للبحث عن مناجم ذهب وجلب السود، وفرغ من أمر الممالك بالمكيدة المأثلة التي دبرها لهم وجزهم فيها بالقلمة يوم أول مارس سنة ١٨١١؛ وعالج مسألة المال معالجة قطعية بأن استولى شيئا فشيئا على جميع موارد الرزق في البلاد وعلى أطيان القطر برمتها .

حينذاك أقبل ينشئ من مصر دولة حديثة وأمة شابة جديدة . ولكنه أدرك بأن ذلك لن يتسنى له إلا اذا جمع على ولائه حوافظ العالم الاسلامي، وإلا اذا نقل

البلاذ - ولو بنصف - من البيعة التي بنت القرون المنصرمة جدرانها حولها، الى بيئة جديدة تكون مصطبغة القاصدة والجدران بصبغة المدنية الغربية، اصطبغا متفقاً مع روح الاسلام .

فجميع عواطف الاسلام على ولائه هبّ يقضى على الوهابيين قضاء مبرما - والعالم الاسلامي كان يتبرعم خوارج ومنشقين - وهبّ ينجذ الدولة العثمانية المسلمة على انحداد ثورة اليونان المسيحيين . فافلح في الأمرين .

ولنقل مصر الى البيئة الجديدة المرغوب فيها عمل ما يأتى :

( أولاً ) نظم البلاد اداريا على النمط الغربي .

( ثانياً ) أنشأ من أبناء البلاد جيشا زاهرا وبحرية عامرة مدرّبين على الطريقة الغربية، بالرغم من صعاب كانت الواحدة منها كافية لقل الحديد وذلك الجبل .

( ثالثاً ) جتد بحمة المعارف، بتغييره برنامج التعليم وطريقته وفتح ميدانا جديدا للعلم أدخل الأمة فيه قسرا . فأنشأ المدارس المختلفة ترى : ابتدائية وثانوية وطالية متنوعة، وأدخل فيها التلامذة والطلبة رغم أنوفهم وأنوف أهلهم، واصلهم فيها العلوم الوضعية الغربية على يد أساتذة أكفاء أتى بهم من بلاد الغرب . وأرسل البعثات تلو البعثات الى المعاهد العلمية في أوروبا لا لكي تقتبس علوم الأمم الغربية وفنونها فحسب ، بل ليتخرج منها أساتذة يعلمون تلك العلوم لمواطنيهم بعد عودتهم الى بلادهم .

ثم أضاف الى تجديد بحمة المعارف إقامة المعامل والمصانع في طول البلاد وعرضها ليتمكن القطر من ترويح المصنوعات على الطراز الغربي في داخلته - لاعتقاد

(محمد ص) أن تغيير معالم البيئة المادية يساعد كثيرا على تغيير معالمها المعنوية — ومن الاستثناء عن الواردات الأجنبية .

(رابع) غطى وجه القطر بالأشغال والأعمال المفيدة ونحضر فيها الأيدي تفسيرا؛ ولولا ذلك ما اشتغلت ولا تمت تلك الأعمال . فأقام السدود وقوى الجسور وبنى ما رأى بناء منها واجبا؛ وعزز القناطر واحتقر الترع العديدة وأقام عليها القناطر الخارجية المسهلة للرى؛ وأبقى الترسانة والأحواض لتصلح السفن؛ وشيد القناطر الخيرية الكبرى — وهى معجزة أعماله — وأقام الحصون والقلاع؛ وأنشأ القصور والسرائر، واختط الشوارع؛ وهلم جرا، من الأعمال العظيمة التى غيرت وجه القطر تغييرا محسوسا .

(خامسا) هدم الحواجز التى كانت المصور السالفة قد أقامت بين تعامل الغرب والشرق؛ ومكن العالمين من الاختلاط معا، لا بالإنجار الواسع فقط، بل بالاحتكاك اليومي، وفى العادات والأخلاق والعقلية؛ ومنع كل تجاوز قد يجر ذلك الاحتكاك إليه . (سادسا) سنّ قانونا للبلد كل مواده منشورة بالرواية فى فتح عصر جديد للأمة؛ عصر تكون المساواة فيه بين الأفراد تامة؛ ويكون الفرد فيه آمنا على حريته الشخصية من كل عبث، ما دام لا يرتكب جرما، ولا يأتى أمرا تؤاخذ عليه الشرائع .

(سابعا) فتح أذهان المصريين الى أمرين لم يكونوا يفكرون فيهما البتة : (الأول) أن مصر والسودان قطران توأمان أبوهما النيل . فلما أن يدوما ملتصقين كما ولدا، وإما أن يكونا متحالفين أبدا، وإلا فللقوى منهما أن يجر الثانى على إحدى هاتين الخلتين، كما أجبرت ولايات الشمال الأمريكية ولايات الجنوب على البقاء متحدة

معه، بحرب الانفصال بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٥، و(الثاني) أن لمصر قومية شخصية منفصلة تمام الانفصال عن قوميات الشعوب الأخرى القاطنة في الأقاليم التي كانت تتكون منها القومية الثانية في ذلك العصر. وإنما فتح أذهان المصريين إلى هذين الأمرين بالحريين اللتين قام بهما في مجاهل السودان وفي سوريا والأناضول، وأفضت إلى استتباب السلطة المصرية على السودان نهائياً وعلى سوريا وإقليم اضماليا، بضع سنين .

ولكن المجتهد أبت أن تقوم على ضفاف النيل دولة مصرية قوية تجمل طريقها إلى الهند غير آمنة . فألبت على (محمد علي) روسيا وبروسيا والنمسا ، وأرسلت ضد قواه في سوريا حملة ، وبذلت في سبيل إثارة الأهليين عليه في تلك البلاد نفودا جمه . فاضطرته إلى الانسحاب من الأناضول والشام والاكتفاء بمصر . ثم استصدرت له من السلطان عبد المجيد، بالاتفاق مع الدول الأوروبية، فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ اللذين بقيا دستور الحكومة المصرية، حتى أبطلت مساعي (إسماعيل الأول) معظم نصوصهما، وأوصلت القطر إلى استقلال تام لا يقيد سوى قيد الجزية السنوية . فأقام (محمد علي)، بعد هذه الحوادث، أكثر من سبع سنوات على دست الأحكام يعمل بثبات على تنفيذ مراميه ، ويحوط الدولة الحديثة التي أنشأها بعنائه اليقظة، حتى دامه الخلف وهو في التاسعة والسبعين من عمره .

نقله ابنه الأكبر (إبراهيم باشا)، قائد الجيوش المصرية المنصورة في الملاحم والمعامع، وقاهر الرواسيين واليونان والأتراك . ولكن ولايته لم تدم إلا ثلاثة أشهر: لأن المنون احترمته وهو في أجد سعيه إلى إسعاد البلاد ، بينما أبوه لا يزال حيا .

فأعقبه (عباس الأول) ابن أخيه طوسن المتوفى سنة ١٨١٦ — وكان أرشد ذكور الأسرة — فملك حتى سنة ١٨٥٤ ملكا حاول جهده ، في السنين الست التي انتشر كابوسه فيها على الصدور ، أن يتنكب بمصر عن الجادة الحديثة التي أدخلها فيها جدّه العظيم (محمد علي) ، ليعود بها الى ديارجير المصور الوسطى الملحمة .

ولكنه قتل ، وهو في ريمان رجولته . وخلفه على العرش عمه (محمد سعيد باشا) ابن (محمد علي) العظيم . فملك تسع سنوات كانت كلها خيرا على البلاد وسعادة . ولولا أنه أهمل كاهل الحكومة المصرية ببعض نصوص تجاوزية في الامتياز الذي منحه لفردينان دى لسبس لإنشاء قناة السويس ، وبالصائفة المالية التي جرّها إسرافه على موظفيه ومستخدميه ، بالنينين — السائر والمسجل — المركبين على عاتق البلاد والبالين مما ما يقرب من أحد عشر مليونا ونصف مليون من الجنيهات ، واللذين لم يكن لهما مقابل من أعمال عمومية نافعة ، لمدّت سنوات ملكه التسع العصر الذهبي في تاريخ مصر الحديث .

وكانت بنيته القوية لما ارتقى سنة الامارة تبشر بعمر طويل ، ولكن إسرافه في اللذات قتله ، هو أيضا ، وهو في الأربعين من سنه . خلفه (إسماعيل الأول) ابن أخيه (إبراهيم) العظيم ، وهو الذي يسرد كتابنا هذا تاريخ مصر في عهده !





# الجزء الأول

---

السَّحَر

---

## الفصل الأول

وفاة محمد سعيد باشا<sup>(١)</sup>

توافق الناس والزمان • حيث كان الزمان كانوا

مرسيد باشا عاد محمد سعيد باشا ، وإلى مصر ، من أوروبا ، في أواخر سنة ١٨٦٢ الى الاسكندرية ، والمرض الذى ذهب الى بلاد الغرب ، ليتطبب منه ، على يد نعلس أطبائها ، قد تمكن من حياته ، تمكنا ، سم كل ينابيعها . فبات ميؤسا من نجاته : وأخذ الموت ينسج أكفانه . ويسدل حوله ظله .

وكما أن الناس ، حين تميل الشمس الى الغروب ، يأخذون في الشغوص اليها ويرقبون مقبها ، وتجهش العواطف في صدر كل منهم طبقا لميوله وآماله ، فهكذا كان المصريون ومستوطنو مصر ، والذين تربطهم بها مصالح ، ينظرون الى مغيب حياة محمد سعيد باشا ، وتواربها وراء أفق هذا العالم المنظور ، بأعين تمتلج فيها عواطف القلوب المختلفة .

فالأفاقون الذين احتاطوا بالأمير المحتضر ، أيام كانت زهرة حياته وصولته يانعة ، فاثروا من إسراره واعتروا من هواه ، كانوا ينظرون الى دخوله في حشيرة الموت ، وقلوبهم شاعرة بأن انقلاب ظهر المحن لهم بات قريبا ، وأن الأوان آن ليقنعوا خيامهم من الأرض المصرية ويقصدوا أنظارا غيرها .

(١) أم صادر هذا الفصل : "تاريخ مصر في عهد اسماعيل" لتولف الاطال ف . مانتى ، و"مصر لتاريخى" لأدون دى ليون ، و"إمالة التام عن أسرار مصر" لكتابة أولب أدار ، و"الكافى" لبطايل بك شادوم .

والبطانة التي لم تحط به إلا لأنه الأمير والحاكم وولى النعم، ما رأته يحضروا كدت من أنه، لا محالة، ميت إلا وولت وجهها شطر الشمس المنتظر شروقها لأنها شمس من ميصبح الأمير والحاكم وولى النعم .

والذين أحاطوا بمحمد سعيد باشا، ليرتكبوا عليه في أعمال نافعة أقدموا عليها، ومشروعات جليلة أنجزوا بعضها الى حيز الوجود، وتعلقت آمالهم في إنجراج الباقي منها، الى الحيز عينه، بحياة الرجل المات، إنما كانوا ينظرون الى زواله، وقلوبهم واجفة، وآمالهم مضطربة، لا يدرون ما المصير .

والشعب المصري، الذي رأى من الولى المولى حبا خاصا له، واحتفاء كبيرا بمصالحه، ورغبة حقيقية في تحسين أحواله، وتخفيف أقاله، ورأى منه إقبالا على إحياء اللغة العربية وإحلالها في دوائر الحكومة محلا رسميا، والجيش المصري الذى كان يحط انتباهه ومعرته، ووجد نعيم الحياة تحت لباس جنديته، كأننا ينظران من بعيد الى تصاعد أواخر أنفاس الأمير المحتضر، والقلب حزين مكتئب، والنفس ضارمة الى الله أن يخذل الخلف حذو السلف، وأن تكون الأيام التالية تكلهم الخير، اذا مَح اعتبار الأيام المتصرمة بفقره .

وأما الرجال المحافظون المتمسكون بالتقاليد العباسية، الراغبون عن كل من تنفجر في مصر للندنية الغربية، وعن كل طريق يمهدها، الناقدون على محمد سعيد باشا تركه سياسة سلفه، للسير في خطوات (محمد على) أبيه العظيم، فإنتهم كانوا ينظرون الى احتضار ذلك الأمير، نظرة القليل الصبر، ويرقبون عن كشب، ساعة لفظه نفسه الأخير، معللين الأنفس بمود العهد القديم الى البرزوخ من وراء سر رموته ولاعتقادهم أن مذهب الخلف مذهبهم، وأن (اسماعيل) يكره ما يكرهون ويجب ما يحبون .

وأما (اسماعيل) نفسه، فإنه منذ تأكد أن رقدة عمه لرقدة لا يسبقها قيام، وأن الموت بات حتمًا، بالرغم من أن شجرة العمر لم تنقلها السنون، ساووته الأفعالات الطبيعية التي تساور كل إنسان في مرضه، وأخذ ينتظر وهو في القاهرة، أن ترد عليه الأنباء المباشرة بارتفاعه ستة جده . الباشا العظيم !

وكانت قد جرت العادة أن ينعم بقب (بك) على أول من يحمل إلى الوالى الجديد خبر صيرورة العرش المصرى إليه، وأن ينم عليه بالباشوية إذا كان بيكا .

فلم يغادر (بى بك) مدير المخابرات التلغرافية، عدته، ثمان وأربعين ساعة، لى يكون أول المبشرين، فيصبح باشا، ولكن النعاس غلبه في نهاية الأمر، فاستدعى أحد صغار موظفى مصلحته، وأمره بالقيام بجانب العدة، ريثما يذهب، هو، إلى مخدعه وينام قليلا، وبالإسراع إلى إيقافه حال ورود إشارة برقية من الاسكندرية تنفيًا بانتقال محمد سعيد باشا إلى دار البقاء . ووصله بجائزة، قدرها خمسمائة فرنك مقابل ذلك . ثم ذهب الى مخدعه، ونام على سريريه وهو بلباس العمل .

بصورك والمستخدم  
والبشرى

ولم يكن الموظف الصغير الذى أتاه عنه، يجهل عادة الإنعام التى ذكرناها — فلما انتصف الليل بين اليوم السابع عشر واليوم الثامن عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٣، وردت من الاسكندرية الإشارة البرقية المنتظرة بفارغ الصبر. فتلقاها ذلك الموظف الصغير وأسرع بها الى سراى الأمير (اسماعيل) وطلب المتول بين يديه .

وكان (اسماعيل) لا يزال جالسا في قاعة أستقباله، مهرا، يحيط به رجاله وتسامره هواجسه .

فلما رفع اليه طلب ذلك الموظف، أمر بإدخاله حالا، فأدخل، وأحدثت به أنظار الجميع .

بفتح الرجل أمامه وسبله الإشارة البرقية الواردة . فقرأها ( اسماعيل ) ، وما أتى على ما دؤن فيها ، إلا ونهض والفرح منتشر على عياله — فوقعت الإشارة من يده — وشكر الله بصوت عال على ما أنعم به عليه من رفعة إلى سدة مصر السنية . ثم ترحم على عمه ترجما طويلا .

فشاركه رجاله المحيطون به في فرحه ، وتعاملت دعواتهم له بطول البقاء ودوام العز ، وأخذوا يهتفونه ويهني بعضهم بعضا .

ثم نظر ( اسماعيل ) إلى الموظف الجاني أمامه ، ( والذي كان قد التقط الإشارة البرقية حالا وقعت من يد مولاه ، ووضعها في جيبه ) . وتبسم وقال : " انهنض يا بك " ! وبعد أن حباه نغمة من المال أذن له بالانصراف .

فعاد الموظف مسرعا إلى مصلحة التفرافات ، لرغبته في الحصول على جائزة الخمسمائة فرنك التي وعد بها ، زيادة على الذهب الذي أصابه ، ودخل بتلك الإشارة على رئيسه ، بسى بك ، وأيقظه وسلمها إليه .

فتناولها بسى بك وقرأها . ثم فتح كيسه بسرعة وأعطى الرجل المبلغ الذي وعده به . ثم أسرع بالرسالة إلى سراى الأمير ( اسماعيل ) ، وهو يرى أنه قد أصبح باشا ، وتتلذذ نفسه بذلك .

فلما دخل على الأمير ، وعرض عليه الإشارة ، قابله ( اسماعيل ) بفتور وقال : " لقد أصبح هذا لدينا خبيرا قديما ! " .

فأدرك الرجل أن موظفه خاته ، وسبقه إلى استجلاء أنوار الشمس المشرقة ونعمها ، ثم ضحك عليه واستخلص منه خمسمائة فرنك . فاستشاط غضبا وقمة ، وعاد إلى مصلحته ، واستدعى ذلك المكبر المائن ، وأندلت عليه .

فأوقفه الموظف عند حقه، قائلا : "صه ! فإنى أصبحت بيكا مثلك ا " .

هكذا أضاع بى بك ثمرة سهره ثمانيا وأربعين ساعة ، بدم تجلده على الاستمرار  
ساعرا . بضح سويحات أخرى !<sup>(١١)</sup>

وما نشرت المدافع ، المطلقة من قلعة الجبل ، الخبز فى أنحاء العاصمة ، وأعلنت  
سكانها بغروب شمس حياة محمد سعيد باشا ، وشروق شمس حكم ( اسماعيل باشا ) ،  
إلا وأسرع بجار القوم ووجوه البلد وقناصل الدول بمصر الى سراى هذا الأمير  
وهثوه . وتمنوا له ملكا طويلا سعيدا .

إعلان موت محمد  
سعيد باشا وأرثها .  
اسماعيل العرش

وما بزغ نهار الثامن عشر من شهر يناير ، إلا وورد الى العاصمة آخر من كان  
قد بقى حول مرير الوالى المحتضر فى الاسكندرية ، وفارقته حائل فارقته الروح ،  
وأسرع هو أيضا الى سراى الوالى الجديد ، ليقدم له فروض عبوديته ، ويتلمس من  
محظوظيته ، نعمته .

ولم يبق بجانب جثة من كانت كلمته بالأس حياة وموتا إلا فرنساوى يقال له  
المسيو براليه ، كان صديق المتوفى الحميم .<sup>(١٢)</sup>

وبينا تعد فى مصر معدّات الاحتفال بأرثاء الوالى الجديد كرمى أبيه وجده ،  
صدرت الأوامر الى أولى الشأن فى الاسكندرية ، بالاسراع الى مواراة محمد سعيد باشا  
التراب ، ليحلا ينشر الناسور ، الذى قتله ، الفساد فى جثته بسرعة فتذهب الرائحة

(١١) أنظر : " مصر الخديوى " لأدونى دى ليون ص ١٥٩ و ١٦٠ ، و " لمحة القام عن أسرار  
مصر " لأولف أدار ، ص ١٦٣ و ١٦٤ ، وأنظر : " تاريخ مصر فى عهد اسماعيل "   
لماك كون ، ص ١٩ فى الحاشية .

(١٢) أنظر : " لمحة القام عن أسرار مصر " ص ١٦١

الكرمية التي قد تبعت عنه ، بالمهابة الواجبة لمقامه السامي . وقضت تلك الأوامر بأن يكون مدفن الوالي المتوفى بجانب مدفن إسكندر المقدوني العظيم ومدفن البطالسة الكرام ، إجلالا له ، ولكي يكتسب ، من ذلك الجوار الساطع ، حقا أمام أعين الأجيال المقبلة ، في أن تظلله صحابة الفخار المنتشرة حول قبور الصالحين من أولئك السواهل الأماجد<sup>(١)</sup> .

فامتثل ذوو الشأن بالاسكندرية تلك الأوامر ، ووريت جثة محمد سعيد باشا في مرقده الأبدى ، في الروضة المسورة الكائنة في سفح قلعة الديماس بجوار المسجد المعروف بمسجد نبي الله دانيال - ونودي بالقلعة بمصر بولاية (اسماعيل) ابن أخيه .

قربت المدن والبتادر ثلاث ليال ، وأقيمت الولائم والأفراح ، وفوقت سمو الأميرة أم (اسماعيل) الهدايا النفيسة على أرباب الدولة والعلماء والمشايخ ، وأقامت الأديعة في المساجد أياما : ورسمت بترميم بعض أضرحة الأولياء والصالحين من ما لها الخالص<sup>(٢)</sup> .

(١) "إمالة الختام عن أصرار مصر" ص ١٦١ ، وكان (سعيد باشا) في أواخر حياته الأخيرة ، حينما أحس بدنو أجله قد أنشأ لنفسه ضريحاً فخماً بالقرب من القناطر الخيرية . ولكن (اسماعيل) فلا سباب المذكورة في المتن لا فلا سباب التي تذكرها مدام أدمار أمر بدعته بالاسكندرية . أنظر : مالك كون ص ١٦ من "مصر في عهد اسماعيل" .

(٢) أنظر : "الكافي" المجلد الأخير ، ص ١٣٨ طبعة بولاق سنة ١٩٠٠

## الفصل الثاني

### الأمير (اسماعيل)

وإذا رأيت من الهلال غمؤه \* أيقنت أن سيكون بداراً كاملاً  
هو ثاني ثلاثة أنجال البطل المغوار، والقائد المقدام، إبراهيم باشا، ابن محي الدين  
المصرية، الباشا العظيم والغازي المهيب، الأمير (محمد علي) المكشوف مولداً، والمصري  
قلبا ومطامح وجهاداً .

نشأة اسماعيل  
وتربيته

ولد في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، على أصح تقدير، في قصر المسافر خانة، بمصر،  
ومن المؤرخين من يجعل مولده في ١٥ أو ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٢٧ — من والده غير  
والدتي أخويه الاثنين : البرنس أحمد وأنت والبرنس مصطفى فاضل : وتربى في حجر  
والده وبمحاولة جده، في المدرسة الخصوصية التي أنشأها في القصر العيني (محمد علي باشا)  
لتربية الأمراء وأولاده الصغار وأولاد أولاده .

ف تعلم (اسماعيل) فيها، على يد نخبة من مهرة الأساتذة، مبادئ العلوم واللغات  
العربية والتركية والفارسية، ونزرا يسيرا من الرياضيات والطبيعات .

ولكنه أصيب بمرض صليدي، لم تفتأ آثاره، بعد زواله، تؤلم جفونه . ويعجز  
الأطباء بمصر عن مداواته . فأرسل إلى فيينا، وهو في الرابعة عشرة من عمره، لمعالج  
فيها . وبربي، في الوقت عينه، تربية أوروبية .

ذهابه إلى فيينا  
فألم باريس

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "تاريخ مصر القديم والحديث" للكونت اردسكل، و"مصر في عهد  
اسماعيل" لسائق، و"مصر في عهد سعيد" لمريو، و"مصر في عهد اسماعيل" لمالك كون،  
و"مصر الاندليوي" لأدون دي ليون، و"رسائل عن مصر" لست هيلم، و"تاريخ مصر الحديث"  
لجورجي بك زيدان .







ففضى هناك حامين تحسنت صحته فيهما تحسنا بيتا ، وفارق الألم جفونه . فأمر جلده بانتقاله الى المدرسة المصرية في باريس . وهى دار تربية أسماها في تلك العاصمة (محمد على) حينه — عملا بنصائح فرنساوى يقال له المسيو جومار — للنشأة المصرية اللببية ، وأرسل اليها ولديه الأميرين حليم وحسين والأمير أحمد ولد ابراهيم ابنه مع نخبة من شبان مصر الأذكياء . منهم شريف باشا ، ومراد باشا ، وغيرهما ، تحت رئاسة وجيه أرمنى اسمه اسطفان بك ، وإدارة وكيل له اسمه خليل افندى نسيما يكان .

فانتقل الأمير (اسماعيل) اليها ، وهو في السادسة عشرة من عمره . وتبارى على مقامدها ، وفي مضمار تعليمها ، مع أذكى أولئك الشبان وأكثرهم نشاطا . وبرع على الأخص في علم الهندسة وفي فننى التخطيط والرسم ، وأحسن ، إلتقانا تاما ، اللغة الفرنسية ؛ والطبيعات والرياضيات .

فلما أتم طومره المدرسية ، عاد الى القطر المصرى ؛ وكان والده الفارس المهيب قد استلم زمام الحكم فيه ، وأخذ يظهر للأل أن كفاءته الادارية لا تقل عن كفاءته الحربية .

فشرع الأمير (اسماعيل) يتعلم ، في مدرسة أبيه الخازم ، ضروب الحكم وفنون الادارة ، ويطلع نفسه بالنبوغ فيها ، نبوغه في سائر العلوم التى تتقها ، كما أنه أخذ يتشرب لبان الأحكام القائمة على قاعدة التطور طبقا لمقتضيات الأيام .

ولكن المرض ، الذى كان قد أنشبت أنيابا أليما ، في أحشاء ابراهيم باشا لم يمهله كثيرا ؛ ولم يرحم القطر المصرى الذى باتت آماله كلها في تحسين أحواله ، وترقية شؤونه ، وسعادة أيامه ، متعلقة بأذيال تلك الحياة الثمينة . فحصل الموت عمر

موت أبيه

قاهر (زيب) ، بعد عود ابنه الأمير (اسماعيل) الى مصر بقليل ، وظادر أولاد ذلك الرجل العظيم الثلاثة ، حزاني ، كسيري الفؤاد ، بالرغم من الثروة الواسعة المخلفة لهم . وانما كان حزنهم وانكسار فؤادهم مسببين لهم ، أولا : من فقدانهم أبا ، قلما جادت بمثله لغيرهم الأيام ؛ ثانيا : من تحكم الداء ، العضال ، في جسم (محمد علي) العظيم وعقله ، بحيث أحرمهم مؤاساته في ذلك المصائب وأعوزهم تعفيده ؛ وثالثا : لأن ارتقاء ابن عمهم (عباس الأول) السدة المصرية ، مع ما اشتهر عنه من الجفاء لوالدهم جفاء حل ابراهيم باشا في حياته على إبعاده الى مكة المكرمة<sup>(١)</sup> ، لم يكن من شأنه أن يلهمهم الصبر ، ويحل من قلوبهم ، محل يلهم الغزاة الذي كانت قلوبهم محتاجة اليه .

غير أنهم تحقروا ويجلدوا ، وبذلوا مجهودهم ليكونوا مع والي الحديد على أتم ما يرام من الصفاء .

ولما كان الأمير (اسماعيل) لا يزال يافعا ، وقليل الحنكة في الأشغال المالية ، عهد النظر في شؤون دائرته الى إدارة خاصة ، باشرتها برهة مباشرة لم ترضه الرضا كله . فشرع عن ساعد الحزم والجد وأخذ زمام تلك الإدارة بيده ؛ فتججت أموره نجاحا باهرا ، وازدادت ثروته زيادة عظيمة .

وكانت له في الصعيد الأطيان الشاسعة ، من التي يزرع فيها قصب السكر وتأتي بمحصول جيد منه . فاقبل على تحسين زراعتها تحسينا ضاعف محصولها . وأوجد في تلك الأصقاع ، معملا بخاريا لتكرير السكر ، حل مثال المعامل الانجليزية الأولى .

(١) انظر : "إمالة الخاتم من أمراء مصر" ص ١٣٦

وبينا هو موجه كل اهتمامه الى أشغاله هذه الخصوصية ، ومكب عليها بكل نشاط موت جده محمد بن تنسه النشيطة ، إذا بملك الموت نزل مرة أخرى ، وفبض بالاسكندرية ، بقصر رأس الثين ، روح (محمد علي) المتوى عن العالم !

فما واروه التراب في مسجده الرخامى المرمى الذى أنشأه على جبين قلعة الجبل ، إلا وقام نزاع بين (عباس) و(سعيد) مبنى على اختلاف في تقسيم تركته .

ولما كان الحق في جانب (سعيد) ، وكانت مصلحته مصلحة عموم الأسرة ؛ وكانت دعاوى عباس من شأنها أن تذهب ، فيما لو حققت ، بمعظم ثروة البيت العلوى ، المحاز سائر الأمراء ، وفي جهلهم (اسماعيل) ، الى (سعيد) وأخذوا يقاومون مطامع (عباس) المقاومة كلها .

فكبر النفور بين الطرفين ، وبات موقف المقاومين حرجا ؛ لأن (العباس) لم يكن يحجم عن ارتكاب جريمة عائلية . والكل كان يعلم أنه حاول قتل عمته ، الأميرة زهره باشا ، الشهيرة بنازلى هانم ، أرملة محمد بك الدفتردار . لولا أن أهل قصرها تمكنوا من تهريبها <sup>(١١)</sup> .

ولكن الأمراء ، و(اسماعيل) في مقتلتهم ، لم يكونوا ليرهبوا سطوة ذلك الملقى . وأخذوا يكتبون في شأن دعواهم الباب العالى ، ملحين عليه الإلحاح الوحيد المفهوم لديه ، بإنصافهم .

فوقع في خلد (عباس) الإقدام على عمل يلقى الرعب في قلوبهم ويرعد فرائصهم ويعجلهم يعتبرون بما يجرى لواحد منهم . فاتهم الأمير (اسماعيل) بقتل أحد خدمه ؛

اتهام اسماعيل  
بقتل خادمه

(١١) أنظر : "إمالة التمام عن أسرار مصر" ص ١٣٦

وأراد أخذه بجريرة تلك التهمة، كأنما قتل خادم كان أمرا ذا شأن في نظر عباس  
في تلك الأيام.

ولكن الأمير (إسماعيل) لم يجد صعوبة في دحض تلك التهمة والخروج منها سليما.  
على أنه اتخذ لنفسه عبرة، واعتبرها الأمراء كذلك. فقر رأيهم جميعا، على مغادرة  
القطر المصري، والذهاب إلى الأستانة ليعرضوا أمرهم على السلطان ويستنصفوه  
من قريبهم المختصب العاقي، وذهبوا إليها.

فصدرت إرادة السلطان عبد المجيد بأنفاذ فؤاد أفندي—وهو الذي أصبح فيما بعد  
فؤاد باشا الطائر الصيت—وجودت أفندي—الذي أصبح فيما بعد، جودت باشا،  
وأشتهر بتأليفه التاريخية وغيرها— إلى مصر ليستقيا الخلاف، ويصلحا بين أفراد  
الأسرة العلوية الكريمة.

تسوية الخلاف  
فأتيا، ونجحا في مهمتهما. فباد الأمراء إلى مصر إلا (إسماعيل)، فانه فضل  
البقاء في الأستانة على الرجوع إلى قطر يحكمه (عباس) قطر، قد يجد فيه عقارب  
وحيات تحت قدميه.

خففه عبد المجيد بتأنيته، وأنتم عليه برتبة الباشوية الرفيعة، وعينه عضوا في مجلس  
أحكام الدولة العلية.

فاشتهر الأمير (إسماعيل) في وظيفته هذه، ببعد النظر وصائب النصيحة. ولبث  
فيها، والحرب قائمة بين تركيا وروسيا، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن قتل (عباسا)

قتل عباس وعردة  
إسماعيل

في مراهبه بنها العسل، الملوك اللذان أرسلتهما بهذه المهمة إلى مصر الأميره نازلى هانم عمته النافقة عليه <sup>(١)</sup> — يوليو سنة ١٨٥٤ —

فولاه عمه محمد سعيد باشا رئاسة مجلس الأحكام المصرى الأعل . فأهتم بشأنه أعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس أحكام الدولة العلية .

إيفاده الى أوروبا  
من لدن سعيد بمهمة  
سرية

وفى سنة ١٨٥٥ ، أوفده سعيد إلى أوروبا بمهمة سرية لا يعلم التاريخ ما هي . ولكنه يظنها مختصة بالسعى إلى توسيع نطاق الاستقلال المصرى الداخلى ، عقب فوز الجنود المتحالفة ، التي منها الحملة المصرية ، على جنود الروس ، فوق ربي بحيث جزيرة القرم . وزوجه بكاتين خاصين مرسلين منه إلى الامبراطور نابليون الثالث وإلى البابا پيس التاسع ، ليسانهما إياهما يدا بيد <sup>(٢)</sup> .

فقام الأمير (اسماعيل) بتلك المهمة ، قياما رفع شأنه في أعين العاهل الفرنسي والخبز الرومانى ، وأوجب ممنونية محمد سعيد له .

أما العاهل الفرنسي فانه — بعد أن وقف منه على دقائق الادارة المصرية وحركة تطور المدنية في القطر المصرى . بالنسبة لترديد نزوح الجاليات الأجنبية اليه — وعده بالنظر فيما اقترحه عليه من توسيع نطاق الاستقلال الداخلى بمصر في مؤتمر الصلح المقبل ، اذا ما وجد الى ذلك سبيلا .

(١) أنظر : "إمالة التمام عن أسرار مصر" ص ١٤٣ وما يليها . هل أن الزواة اختفروا في حقيقة مقتله . فثم من اتهم السلطان عبد المجيد به ، ومنهم من جعله بتدبير من يسنى لسانه الخ . أنظر : "مصر في عهد اسماعيل" لماك كون ص : ١ ، و "مصر الحديثى" لأدون دى ليون ص ٨٧ ، و "رسائل عن مصر الحديثى" بليون دنجلار ، ص ٦٢

(٢) أنظر : ماك كون "مصر في عهد اسماعيل" ص ٢٠ ، ورافيس : "اسماعيل باشا" ص ٣

وأما الحبر الرومانى — وكان لشخصه، فى تلك الأيام، منزلة سامية : أولا بسبب مركزه؛ ثم للشهور عن ميوله وفضائله؛ وأخيرا بسبب صداقة نابليون الثالث له — فإنه قبل هدايا ضيفه، بممنونية عظمى، واحتفى به حفاوة فائقة؛ ووعده بمساعدته جهد الطاقة والاستطاعة خيرا؛ ورجاه أن يرفع إلى سدة عمه السنية وصيته بالاكليرس الكاثوليكي والكاثوليكين المصريين إحسانا .

فلما عاد الأمير (اسماعيل) إلى مصر، وجد من مظاهر شكر عمه له، ما أطلع صدره، وأنساه مشاق سفره .

وفى مايو سنة ١٨٥٨، أقام محمد سعيد باشا حفلة حافلة فى الاسكندرية — وكانت حفلات ذلك الوالى مدينة نغمة — ودعا إليها جميع أمراء بيته العالى؛ سواء فى ذلك الذين كانوا فى الاسكندرية، والذين كانوا بمصر أو غيرها من الجهات .

فلم يلبث الأمراء الدعوة؛ وفى مقدمتهم أحمد باشا رأفت أكبر أولاد إبراهيم باشا؛ وحليم باشا أصغر أنجال (محمد على) واعتذر الأمير (اسماعيل)، لأنه كان متوكل المزاج .

وقد كان توك مزاجه فى ذلك الظرف، أمرا ساقه إليه حسن الحظ : فإنه لما كانت كثر الزيارات  
انقضت الحفلة عاد الأميران السابق ذكرهما إلى مصر بقطار خاص مع حاشيتهما ورجلها . فوقعت المربة التى كانت تقلهما فى النيل، عند كفر الزيات . ففرق الأمير أحمد باشا ونجا الأمير حليم باشا .

فأصبح الأمير (اسماعيل) وفى عهد السدة المصرية؛ لأنه بات أرشد رجال البيت العلوى بعد موت أحمد باشا أخيه الأكبر .

وقد اختلفت فى سبب تلك الكارثة الروايات . فمن قائل إن الكوبرى نسي مفتوحا سهوا فسقط القطار فى النيل عند ما بلغه، لأن السائق لم يتمكن من إيقافه؛ ومن قائل



— وهو الأقرب إلى الصدق : لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد أُنشئ بعد — إن القطارات كانت ، في ذلك العهد ، تحتاز النيل عند كفر الزيات ، في معدية تنقل عرباتها ، ثلاثاً ثلاثاً ، مع ترك الخيل للركاب في النزول انتهاء لخطوط ، أو العبور فيها ، وأن الأميرين — وكانا معاً في حربة واحدة — خُيّرَا فأبيا إلا البقاء في الحربة وعبور النهر وهى تقلهما ؛ فأن المنوط بهم أمر قتل العربات إلى المعلقة دفعوا بهربتهما بقوة إليها إظهاراً للشناطهم وضيقتهم ؛ فتدحرجت عنها إلى النهر وغرقت فيه . أما أحمد — وكان بدينا — فلم يستطع اللوثب من نافذة الحربة إلى الماء ، فأنخرج ميتاً مخنوقاً ؛ وأما حلم — وكان خفيف الجسم ، متميز المضلات — فإنه وثب من النافذة إلى الماء واجتازه سباحة <sup>(١)</sup> .

ولكن النيمة — وكان ذلك بدء قيامها ؛ ولكم حاولت ، فيما بعد ، تسوء سمعة (إسماعيل) وطمس معالم نغره ومجده — أبت إلا أن تفتننها فرصة لتشت عليه وعلى عمه سعيد سمومها وتحاول تحكير مياه الصفاء ، والتوادد بينهما <sup>(٢)</sup> .

غير أن الأميرين لم يباليا ، في نقاوة ضميرهما ، بما أذاعته الألسنة الشريرة حولهما . وظهر ذلك جلياً في أعمالهما .

فإن محمد سعيد باشا ، حينما سافر إلى سوريا زائراً في سنة ١٨٥٩ (ومكث في بيروت ثلاثة أيام ، نزل فيها ضيفاً كريماً على وجهاء المدينة ، وكان في أثناء مروره في الطرقات ، ينثر الذهب على الناس ) ، عهد في قائمقامية الولاية : مدة غيابة إلى ابن أخيه الأمير (إسماعيل) . فدل ذلك على مقدار ثقته به وبأخلاصه <sup>(٣)</sup> .

قائمقامية اسماعيل  
الأول

(١) أنظر : ماك كوك "مصر في عهد اسماعيل" ص ١٨ ، و "مصر القديمة" لأردن دي ليون

ص ١٥٤ و ١٥٥

(٢) أنظر مل الأخصر : "الكافي" لشاربم بك ج ٤ ص ١٣٦ و ١٣٧ طبعه بولان الأميرية سنة ١٩٠٠

(٣) أنظر : "تاريخ مصر الحديث" لجورجى بك زيدان ج ٢ ص ٢٠٢

كذلك حينما قصد البلاد الإنجليزية لتأدية فريضة الحج في أوائل سنة ١٨٦١ ،  
 أقامه نائباً عنه وقائماً مقامه . وسرّجنا من الكيفية التي أذى بها الأمير (إسماعيل)  
 وأجبهه . وأظهر له امتنانه حين عودته ، بتقليده قيادة أربعة عشر ألف عسكري ،  
 وبتعيينه سرداراً عامًا للجيش المصري ، وعهد إليه في إخماد ثورة بعض القبائل المتمردة  
 على حدود السودان .

والثانية

سرداريته لجيش  
المصري

فقام الأمير (إسماعيل) بهذه المهمة خير قيام : لأنه تمكن بحسن دهائه وفطنته  
 من تسكين نيران تلك الفتنة بدون سفك قطرة دم واحدة .<sup>(١)</sup>

إخماد فتنة القبائل  
الناشئة على حدود  
السودان

ولما أحسن محمد سعيد باشا بأول وخزات الداء الاليم ، الذي قضى فيها بعد على حياته ،  
 وشعر بأنامله تهتم بسرعة هيكلي جسمه القوي ، وعزم على السفر إلى أوروبا للتطبيب  
 منه ، في أواخر صيف سنة ١٨٦١ ، عهد أيضاً بالنياية عنه في كرمى ولايته ، إلى  
 ابن أخيه الأمير (إسماعيل) : كأنه كان شاعراً أن الموت بات قاب قوسين أو أدنى ،  
 وأنه يحذر به أن يقدم ، لولى عهدهم ، القرمص التي تتمكنه من تعلم شؤون الحكم ، قبل  
 التلبس ، لنفسه ، بواجبات أعبائه .

غير أن أطباء أوروبا لم يتمكنوا ، أكثر من أطباء مصر ، من التغلب على داء سعيد  
 العضال . فعاد الرجل إلى مصر ، وهو يائس من الحياة . وما لبث أن فارقتها غير  
 بالك طمها ، تاركاً ثروته القليلة ، نسيباً ، لابنته الأميرة طوسون وأرملة الأميرة أنجا هانم  
 البديعة الجمال ، وعطفاً ملكه لابن أخيه (إسماعيل باشا) .

(١) أنظر : "مصر في عهد إسماعيل" لـ مالك كون ص ٢٠

## الفصل الثالث

### سمو الوالى (اسماعيل باشا)<sup>(١)</sup>

وإذا سألت عن الكرام وجدته \* كالشمس لا تخفى بكل مكان

وكان عمره، عند ارتقائه الستة المصرية، اثنين وثلاثين عاما وسبعة عشر يوما :  
وصف اسماعيل لدى ارتقائه العرش أو ما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة قمرية .

فكان، والحالة هذه، في ريمان حياته وظهور أيامه : فاشج الفكر والتصور ؛ يانع الجسم ؛ ممتلئ ؛ زاهر البنية ؛ قويا ؛ ربة القامة ؛ عريض الجبهة ؛ كثيث اللحية والشارب والحاجبين ؛ متلائهما ، كأنهما من ذهب الجنينات ؛ وكانت عيناه تتقدان حدة وذكاء مع قليل حيل نحو الحول ، من أثر الرمد الصديدي الذي مني به في حادثته ، وانجلى عن إبقاء إحدى عينيه أصغر قليلا من الأخرى .

وكان ، اذا حدث إنسانا ، كمر على عنقه اليمنى ، وشخص الى محدته باليسرى ، خصوصا من عجا ، لستة تألقها : كأنه يريد أن يحتل أعماق أفكاره ، بالنور الساطع المنبعث منها .

وبلغه مرة ، أن أحد القناصل العامة ، قال ، بعد مثوله بين يديه ومحادثته وانصرافه : « إنه إنما ينظر بين ويسمع بالأخرى » . فقال : « واني لأفكر بالاثنتين معا »<sup>(٢)</sup> .

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "مصر تحت حكم اسماعيل" لسانق ، و"خديويون وباشوات" لوبديل و"مصر واسماعيل باشا" لساكره وأوتريون ، و"مصر الحديثة والحديثة" لأودسكي ، و"مصر في عهد اسماعيل" لملك كون .

(٢) أنظر : "خديويون وباشوات" لوبديل ج ٦

وكان عظيم الهيبة ؛ جليل المقام . ولا غرابة : فإنه ابن ( ابراهيم ) وحفيد ( محمد صلى ) . والهيبة كانت ميزة كل حركاتهما وسكناتهما . والجلال كان يحف بهما كأنه ظلهما الظليل .

وكان حسن الفراسة ؛ يدرك ، حالا ، ما انطوت عليه سريرة محادثه . ولكنه كان أيضا حسن الفطن بالناس ، لاسيما بالأجانب وأفراد الجاليات الغربية : فآدى ذلك الى جملة أضرار أصابته وأصابت بلاده . لأن عدد المخلصين اليه الولاء في خدمتهم ، من أولئك الأجانب ، لم يتجاوز — حل كثرتهم — عدد الأصابع .

وكان كبير النفس ؛ على الهمة ؛ يشعر شعورا عميقا بأن كونه ابن ( ابراهيم باشا ) الأمير الذى قابل في قارات العالم القديم الثلاث ، ليوطد دعائم ملك مصر ، ويوسع نطاقه ؛ ثم تمنى ، حينما آلت اليه أزمنة الأحكام ، لو يرقى الله عليه بعمر طويل ، ليتمكن من السير بمصر ، بخطوات واسعة ، في مضمار المدنية الغربية والرقى المصرى ؛ وكونه حفيد ( محمد صلى ) ، الباشا العظيم ، الذى أخرج مصر من ظلم العدم الى عالم الحياة ؛ ومن حضيض النذل الى عرش السيادة ؛ وسدد خطاها في سبيل العمل وميدان الفسار ، نيفا وأربعين عاما ، يحملانه محط آمال تاريخية عظيمة يتحتم عليه تحقيقها ؛ ويوجبان عليه أعمالا صاعدة ، لا مندوحة له من الإقدام عليها .

فوضع نصب عينيه ، حالمًا انفتح عصر ملكه أمامه ، الجرى على خطة تجعل التاريخ يضعه في صف جده وأبيه ، وينتعه بنتمها . فيقول : ( اسماعيل العظيم ) ابن ( ابراهيم العظيم ) ابن ( محمد على العظيم ) .

وصمم على تنفيذ تلك الخطوة ، وعدم الحياذ عنها ، مهما تكاثرت في سبيله العقبات

ومهما اضطرتته صروف الأيام الى اللين ، موقتا ، والتظاهر بمكس ما يرى اليه من  
الأغراض البعيدة .

مراتبه

تلك الخططة كانت ترى :

(أولا) الى السير بمصر بصراحة تامة في سبيل المدنية الحديثة ، والسير بها ، بعزم  
ثابت وقدم راسخة ، في جميع تشعبات ذلك السبيل .

(ثانيا) الى الفوز بالاستقلال السيامي لها .

(ثالثا) الى النهوض بها الى مصاف الدول العظمى .

ولكنه كان يعلم أن تحقيق هذه المرامي عن سبيل القوة يكاد يكون محالا :  
(أولا) لعدم نضوج العقيلة العامة في البلاد ، نضوجا يساعده على إدراك مقدمات  
نفسه ؛ و(ثانيا) لأن مركز مصر من الدولة العلية ومن الدول الغربية يجعلها أضعف  
بكثير من أن تحاول ، مرة ثانية ، تغليب سيفها على سيوف تلك الدول —  
(وما أصاب جده في ذلك كان خير عبرة له) . فصمم على تحقيقها عن سبيل الدهاء  
والافتناع ، وبالأرتكان على الدولة الغربية التي يتضح له رجحان كفتها في ميزان السياسة  
العمومية .

غير أن حزب الناقبين على محمد سعيد باشا ميوله الى الأجانب ، واستسلامه اليهم ،  
المتوسمين في خلفه إقلاعا عن تلك الميول وعودة الى المبادئ العباسية ومقتضياتها ؛  
والمتمسكين في أهوائهم حول هذا الخلف ، توها منهم أنه رئيسهم وزعيم حزبهم  
المعارض لكل اصلاح ، لم يكونوا يعلمون ما انطوى عليه ضميره ، وصح عليه عزيمته .

فظنوا، لما أغض محمد سعيد جفونه الإغماض الأبدى، أن دورهم قد حل، وأن الأوان قد آن للحمل على الجالية الغربية، حملة تزعزع أركانها، وتفضي شأنها.

فتة الاسكندرية

فأضرموا نار الأحقاد والضغائن الدينية في قلوب زمرة من السوقة والزائف ودفعوا بهؤلاء الى نوع من الفتنة والقيام على الغربيين. وحرضوا ثلاثة من السواكر — ولعلمهم كانوا ألبانيين من بقايا أجناد الأرناؤط الثمانية آلاف الذين اتخضعوا (عباس الأول) حراسا له، وعزم على تسريح مائتي من الجيش المصرى ليحلهم في قوة البلاد العسكرية مكانهم — على إهانة أحد الفرنسيين، والإنيال عليه ضربا بدون سبب. ثم على تطويقه بحبل في رقبته، وصعبه في الشوارع ومحاولة قتله؛ وهم يظنون أنهم يعملون عملا يقع من قلب الولي الجديد موقعا حسنا.

فهب قنصل فرنسا العام بالاسكندرية مدافعا عن المهان من رعايا دولته. وطالب الحكومة المصرية بمعاقبة الخناة وتقديم العذرة.

فتردّت الحكومة قليلا. لأنها لم تكن قد وقعت بعد على نيات الأمير الجديد. ولكن (اسماعيل) أصدر الأوامر حالا بضرب المعتدين ضربة تكون عبرة لأمثالهم، ورادما لمهيجهم.

لخادما

بجرت الحكومة الخناة من رتبهم؛ وأزلتهم من درجاتهم؛ وفتمهم الى أقاصى البلاد. ثم أمرت فرقة عسكرية بتقديم التحية الى الراية الفرنسية<sup>(١)</sup>. فأدرك الرجعيون ساعثي خطاهم، وأخلدوا الى السكينة، ورجعوا تبتيا لهم فرص مناسبة. وأمسوا يعتقدون بأن (اسماعيل) ليس رجلهم؛ وأن أمالهم يجب أن تعقد بغيره.

(١) أنظر: "مصر واسماعيل باشا" لسركيه وأوتريون ص ٢١ و ٢٢ و ٢٣

# الجزء الثانى

---

بزوغ الشمس

---

## الفصل الأول

### إيقاظ الآمال<sup>(١)</sup>

وما زلت تواقفا إلى كل غاية • بلغت بها أصل البناء المقنوم

غير أنه لم يكن من مصلحة (إسماعيل) ولا من مصلحة البلاد أن ينفر رجال ذلك الحزب • لأنهم، وإن لم يكن يرجى منهم نفع مطلقا، لا تتلاق عقولهم دون أشعة كل نور من أنوار التطور الاجتماعي، كانوا قادرين على تمكير مياه التفاهم بين مصر والأساتنة • وذلك التمكير لم يكن مرغوبا فيه • بل كان المرغوب فيه عكسه لتجاح سياسة السعاه التي عول (إسماعيل) على اتباعها في تحقيق أمنيات نفسه •

لذلك، فانه، بعد أن انتهت مراسم التهانى بارتقائه سنة جده وأبيه، صرح بعزمه على السفر إلى الأساتنة العليا لتناول فرمان التولية فيها، اقتداء بأبيه (إبراهيم) وعملا بنصوص فرمان سنة ١٨٤١

السفر إلى الأساتنة  
لتفقد الإمارة

فأقام حليم باشا عهده مقامه في غيبته، وسافر إليها • ومثل بين يدي السلطان عبد العزيز — وكان قد أخلف، منذ أقل من سنتين، أخاه عبد المجيد على عرش آل عثمان — فلقى منه كل حفاوة وأكرام وقلبه السلطان بيده أنخر نياشين الدولة فوق تقليده إياه إمارة مصر •

(١) أهم مصادر هذا الفصل: "مصر في عهد إسماعيل" لملاك كون، و"مصر القديمة والحديثة" لأبريسكي.



فاغتم (اسماعيل) فرصة فيض هذه العطفات ، واتمس من عبد العزيز التنازل إلى زيارة القطر المصري ؛ فوعده السلطان بذلك عاجلا ؛ فشكر وعاد راضيا محظوظا . ولما وصل إلى الاسكندرية وقابله جميع قناصل الدول وكبار رجال الجاليات الغربية ليهنئوه بسلامة الإياب وفرمان التولية ، ألقى على مسامهم خطابا نفيسا ، كان بمثابة إعلان للخطوة التي رسمها لنفسه ، فيما يختص بإدارة مصر الداخلية . وهالك نصه : <sup>(١)</sup>

#### « يا حضرات القناصل

خطبة الجلوس

إني أشعر شعورا عميقا بالواجب الذي وضعه الله سبحانه وتعالى على عاتقي باستدعائه المرحوم عمي إلى جواره وانتخابه إياي لتولى زمام الأحكام المصرية . وإني آمل في ظل صاحب الجلال الهايوني السلطان الأعظم أن أقوم قياما حسنا بأداء ذلك الواجب .

وإني موطن العزم توطينا حقا ، يا حضرات القناصل ، على تخصيص كل ما أوتيت من ثبات وهمة لترقية شؤون القطر الملقاة بحكمه إلى ، وإنماء رخائه .

وبما أن أساس كل إدارة جيدة إنما هو النظام والاقتصاد في المسالية فإني سأجعلها نبراسي في كل أعمالي . وأعمل على توطيد أركانها بكل ما في وسعي .

ولكي أقدم مثالا صالحا للجميع ودليلا محسوسا على إرادتي هذه الأكيدة فإني قد عزمت منذ الآن على ترك الطريقة المتبعة من أسلافي ، وعلى تقرير مرتب سنوي لي ، لن أجتأوزه أبدا . فأتمكن بذلك من تخصيص عموم إيرادات القطر لإنماء شؤونه الزراعية وتحسينها .

(١) ومن قائل إن هذا الخطاب تلى في القلعة ، ثاني يوم التولية .

وإني قررت أيضا إلغاء طريقة السخرة المشؤومة ، التي اتبعتها الحكومة دائما في أشغالها والتي هي السبب الأهم ، بل الأوحى ، الخلل دون بلوغ القطر كل النجاح الذي هو جدير به .

وإني لمتيقن أن التجارة الحرة ستجد فائتها ومصلحتها في هذه الاجراءات ، فنشر الرخاء وتعممه بين جميع الطبقات من الأهالي والسكان .

أما التعليم ، وهو أس النجاح والرفق ؛ وإقامة معالم العدالة بقسطاس حق ، وهي محو كل أمن ؛ فإني سأخصصهما بفائق عنايتي . فينجم عن النظام في المالية والادارة ؛ وعن توزيع العدالة توزيعا لا تشوبه شائبة ، زيادة في سهولة المعاملات ، وضمانة لسلامتها بين الأوروبيين والقطر .

وإني آمل ، يا حضرات القناصل ، أن أجد منكم اقتناعا بهذه المواقف التي تملأ فؤادي ، وإقبالا على وضع أيديكم في يدي بإخلاص ، لنعمل معا في سبيل خير ، على ما فيه خير البلاد وما كُنتم<sup>(١)</sup> . »

فكان لهذا الخطاب وقع حسن ، ليس فقط عند سامعيه ، بل في عموم الأرض المصرية ، وفي ذات البلاد الخارجية ؛ ويتيقن الجميع أن الملك الجديد البازغ بفره ، يعمل في طيات مستقبله سعادة ، قلما حلت الأقطار الشرقية بمثلا .

وكان فرديناند دى ليسبس ، صاحب مشروع ترعة السويس ، خائفا على مشروعه انقلابا في الولي الجديد ، وانحرافا كان قد هوى به كثيرون حوله . فرأى (إسماعيل)

تهته المخاوف على مشروع القنال

(١) أنظر : " مصر القديمة والحديثة " لأردسلكي ص ١٢ ج ١ ، و " مصر في عهد اسماعيل "

أن يسرى عنه مخاوفه، ويسكن مخاوف الشركة العالمية القائمة بذلك المشروع مع إبقاء يديه حريين في المستقبل .

فاغتنم فرصة وجود فوديناند في زمرة القناصل العامة المحيطين بشخصه في تلك الحفلة الرسمية التاريخية، وقال له على مسمع من الجميع : «إني، يامسيودي لسيهس لأرى فعسى غير جدير بالملك إذا لم أكن قتاليا أكثر منك . وإنك ، لو كنت والى مصر، وأنت رئيس شركة القتال، لما فعلت في مصلحتها ، بالأستانة ، أكثر مما فعلت<sup>(١١)</sup> أنا .

فبتد، بذلك ، بحماية الوهم التي كانت قد غشيت أفكارا كثيرة، ويمكن، بياكورة أعماله هذه التي سردنا تفاصيلها ، من بلوغ غايتين معا : (الأولى) المحافظة على وداد الرعيعين ومحبيهم؛ و(الثانية) اكتساب ثقة الأوروبيين وإعجابهم به .  
أما شعبه فكان فرحا به، فرحا بتوليته، ولا فرح الصبيّ بيوم العيد .

(١١) "أنا لثمة السويين" لفوديناند دي لسيهس ص ٢١٤ و ٢١٥

## الفصل الثانى

### زيارة السلطان عبد العزيز للديار المصرية<sup>(١)</sup>

كانت زيارتكم هذى لنا أملاً \* واليوم قد بلغ الآمال راجياً  
وبينا المملأ فى القطر لا يزالون يتحدّثون بسفر سمو الولى الى القسطنطينية ،  
والحفاوة التى قوبل بها هناك ، والإكرام الذى ناله ، وبما اشتملت عليه الخطبة الرسمية  
من بدور سعد تسلم فى مماء البلاد ، و بيننا الكل يشاهدون بده تحقيق الخطة  
التي رسمها لنفسه فى ذلك الخطاب ، فيما أصدره من الأوامر الى وزارة المالية بتخصيص  
مبلغ ستين ألف كيس (أى ماينوف قليلا على سبعة عشر مليوناً ونصف من الفرنكات)  
بصفة مرتب سنوى له ، لن يتعداه ، وصرف كل ما يزيد على ذلك فى مصالح البلاد —  
إذا نجح دوى فى وادى النيل جعله يهتر طرباً من أهله الى أقصاه ، وجعل عيون  
عموم العالم الإسلامى تنصب عليه ، وتنتظر نظرة إجلال وإعظام الى الماهل الحاكم فيه .  
ذلك النبأ انما كان تحرك الركاب السلطانية العثمانية الى زيارة الديار المصرية ، والبر  
بالوعد الذى وعد (عبد العزيز) تأججه به .

وإنما كان لذلك النبأ ، ذلك الوقع العظيم ، لأنه منذ أن نصح السلطان سليم خان  
الأول القطر المصرى وأضافه الى ممالكه الشاسعة الأرجاء ، وبارحه بعد أن أقام فيه  
حكومته المملوكية المزدوجة ، التى كانت من أكبر أسباب فقره وتماسته ، لم تطاه قدم  
سلطان عثمانى مطلقاً ، ولا وقع فى خلد أحد أن خليفة الاسلام يأتى اليه ليزوره ،

(١) أهم معاد هذا الفصل : "سفر السلطان عبد العزيز الى مصر" لجاردي ، فحصن مطابته برته .

بعد أن فارقت الخلافة العباسية ربوعه ، ولأنه ، منذ أن أغمض الموت جفون السلطان مراد خان الرابع في سنة ١٦٣٠ . لم يرو عن سلطان عثماني مطلقا أنه فارق حاضنة ملكه ، لا لجهاد تقى ولا لتفقد أحوال رعيته ، ولا لزيارة غيره من عوالم الدنيا وملوكها .

فلم يكده العالم يصلق ذلك النبا ، لولا أنه رأى من تحقيقه ما قطع قول كل متكهن وبئد الشك من جميع الصدور .

سفر السلطان  
ففى يوم الجمعة ، ثالث أبريل سنة ١٨٦٣ — وكانت الجمعة المقدسة عند الطوائف الغربية — ركب السلطان عبد العزيز ومعه ابنه الأمير يوسف عز الدين ، ووزيره فؤاد باشا وزير الحربية ومحمد باشا وزير البحرية ، وضيئهما من كبار موظفى الدولة والمباين وانغاصة السلطانية ، اليخت الفخم (فيض جهاد) ، بعد أن تبرك بدعاء والدته السلطنة المعظمة ، وركب كل من الأمراء الفخام مراد افندى وحيد افندى ورشاد افندى أولاد أخيه المرحوم عبد المجيد ، الفرقاطة (مجيدية) ، وركب وراهم جمهور عديد من الياوران والضباط والموظفين والجنود سفنا عثمانية أخرى ، وأطلع الجميع من الأستانة الى مصر .

فروا ببلبيولى فى اليوم الرابع من أبريل — وكلفت يوم السبت النور — فاطلقت طوابى الشاطئ الأوروبى وطوابى الشاطئ الآسيوى مائة مدفع ومدفعا ، إجلالا ومعظيا لاجتياز الباديشاه العثماني وأمراء بيته السلطاني مياه الدردنيل .

وما بلغ اليوم السابع من أبريل فخاه ، إلا ووصل الأسطول المجيد الى عرض بحر الاسكندرية . فتجلت لهم هذه المدينة ، وهم فى البعد ، كأنها العروس المنتظرة سامة الزفاف .

فدثوا منها في جهة مرثا رأس التين ، وأعين قاطنى السراى شاحصة اليهم ،  
وقلوبهم مخطجة سروراء ، وروح (إسماعيل) تستمرئ لذة المطعم المحقق .

فلما أضموا من البوغاز ، بحيث يشرفون على جميع دائرته الشاسعة بأنظارهم ، وأوا السفن  
مكتظة فيه ، والأعلام العثمانية تخفق فوقها ، وترفرف في جميع فضاء الساحل المنظور .

فأزالوا يتقدمون ، حتى إذا بلغوا أقرب نقطة في البحر تستطيع السفن البخارية  
الرسو فيها ، أطلقوا مدافع أسطولهم تسليما على الأرض المصرية .

فلوث المدافع من الطوابى المحيطة بالمدينة ، إيجابا وإجلالا ، وملأ الفضاء صدى  
الموسيقات العديدة من عسكرية وغيرها المصطفة على الشاطئ . وارتفعت أصوات  
البحر الغدير المحتشد المزدحم على الساحل ، ضاجحة ، عاجة — وقد مزجت  
التحية السلطانية بالتحية الأميرية — ، وصباحة : " بادشاهز چوق يشا " و  
" أفندمز چوق يشا " معا .

الوصول  
الى الاسكندرية

ونزل (إسماعيل) ومعه همه حليم باشا وغيره من أكابر رجاله ، في زورقه الفخم تحيط  
به انبعاثات ذلك الفرج العموى ، وسار قاصدا اليخت السلطانى لتهنئة متبوعه  
الأعظم بسلامة الوصول ، وتقديم فروض الاحترام والابلال له ، وللسلام على ضيوفه  
الكرام واستقبالهم .

فقبل يد السلطان ، وصالح باحترام والحناء أمراء البيت العثمانى ، ثم حمد وشكر  
ودعا دهاء صالحا .

فوجد من لندن عبد العزيز حفاوة فاقمة ، وإكراما جليدا : فان مدافع الأسطول  
العثمانى أرسلت طلقاتها ، مرة أخرى ، إجلالا له ، وأقبل السلطان عليه ، وقلمه

بيده سيفاً مرصعاً ، كأنه يريد تثبيت توليته الرسمية ، عسكرياً . ثم أبقاه في ضيافته سامة وأكثر ، أظهر له في خلالها ما ضاعف سروره وزاد إخلاصه .

ثم سار الجميع إلى الزوارق المعلقة لهم . فتخطى السلطان عن زورقه الخاص إلى الأمراء حميد ورشاد وعمر الدين . وركب هو زورق الوالي بمعية مراد و ( اسماعيل ) . وتزل الباقون في الزوارق الأخرى ، والمدافع تدوى من البحر والبر ، والموسيقىات تصبح ، والأصوات تضح ، والدحوات تتعالى . وساروا قاصدين سراي رأس التين العامرة في وسط مظاهر ذلك الاحتفاء العام المستمر .

وكان في انتظارهم ، أمام باب السراي ، فرقة كاملة من الجنود المصرية مصطفة على الرصيف ، ومرتدية أغلر ملابسها العسكرية . فرفعت سلاحها حالما مست أقدامهم الأرض المصرية ، وقامت لهم تحيتها العسكرية ، وتنادى جنودها بأعلى أصواتهم ، وسلاحهم يتصلصل : " بادشا همز جوق يشا " — وهي التحية التي كانت تدوى الأفاق بها في ذلك اليوم .

وكانت سراي رأس التين قد أعلنت إعداداً فخماً لتزول الركاب السلطانية فيها . فوجد عبد العزيز من زخرفها ورياشها والبذخ المنتشر في جميع أركانها ، ومن أسباب الراحة والهناء كلية كانت أم جزئية ، المتوفرة في كل جهاتها ، ما أوجب إعجابها ( باسماعيل ) وضاعف تقديره للثروة المصرية .

وبعد أن استراح ، وتناول طعام الفداء — وكان شيئاً فائراً يفوق وصف كل واصف ، وقتم باستمرار على مائدتين : إحداهما في السلامك ، السلطان وأمراء بيته ، والأخرى في دار الحرير ، للحاشية والمعبة والمباين ، ثم استراح ثانية — أخذ يحقق

بنظره، من نوافذ السلامك المفتوحة، بالأعمال المدحشة التي خلقتها ارادة (عبد على) الباشا العظيم، من العدم؛ ويسجب بها إعجابا عظيما، ثم طلب الى (اسماعيل باشا) أن يقص عليه كيف تمكن ذلك البذل الكبير من إتمام ما تم على يديه .

مسامرة بين  
السلطان واسماعيل

فقص عليه (اسماعيل) كيف أن (عبد على) — في بلد كانت تعوزه كل الوسائل ما عدا يد الإنسان، وكانت كل الآراء فيه مجمعة على معارضة آرائه؛ وسدول الجهل وشبح الحمجية غيم على ربوعه — قد أنشأ كل تلك المعجزات في أقل من ثمان سنوات. كيف أنه — بعد أن أضاع أكثر من سنة، وأفق مليوناً ونيفاً من النقود لايجاد الترمانة — اتضح له من الأكلة التي أقامها أمامه سرى بك المهندس الفرنسي (بالرغم من أنه قدم الى خدمته مصحوباً بتوصية ضئيلة) أن جميع مجهودات شاكر افندي رئيس أعماله التركي، لن تجدى نفعا، لمخالفتها للأصول؛ فأوقف حالا سير عملهما؛ وضرب صبغاً عن المبالغ الطائفة التي صرفت سدى وشرع، بدون أدنى إبطاء، في تنفيذ تصميمات ذلك الفرنسي الحكيم. وكيف أنه — بالرغم من كل الصعوبات القائمة في سبيله — حفر الخوض اللازم لترسانته؛ وأقام المصانع والمعامل فيها وحولها؛ وبنى أسطولاً العظيم المؤلف مما يزيد على خمسين وثلاثين قطعة مشتملة على أكثر من ألف ونعمائة مدفع بالرغم من عدم وجود الخشب والحديد لديه. وكيف أنه أوصل ماء النيل الى الاسكندرية، بحفر ترعة الحمودية التي يرى مصيهاً أمامه؛ وبمضرة إياها بدون آلات ومعاول بل بمجرد أيدي الفلاحين وأصابعهم، لعدم وجود تلك الآلات والمعاول في البلاد. وكيف أنشأ سراي رأس التين والطواهي الحصينة التي تدرأ عنها وعن الساحل تعديات كل



عدو والتي وضع رسمها وقام بتنفيذها المسويدي سرزى عينه . وكيف أقام المنارة الشاهقة ، هدى السفن والجاريات ، لتلا ترتطم بالصخور القائمة عند مدخل البوغاز .

وقص عليه أيضا كيف تم في عهد عباس ، وبالرغم من ارادته ، مد خط السكة الحديدية بين الاسكندرية ومصر على يد شركة انجليزية فكرت في مده حالا بعد النجاز من مد السكة الحديدية بين لندن وليفر بول ، اذ لم يكن قد مد من ذلك شيء في معظم البلاد الأوروبية الأكثر حضارة .

فارتاحت نفس عبد العزيز الى أحاديثه وتاقت الى استعادتها والتوسع فيها ، لاسميا فيما كان منها خاصا بالمحمودية والسكة الحديدية ، ليتقنه من أن الترع والسكك الحديدية ، بصفتها أهم طرق المواصلات بين البشر ، أهم ما يستطيع حاكم بار برطايه وملكه الإقبال على الإنكار منها في دائرة بلاده .

جولة  
في الاسكندرية

ولما غربت الشمس وهبطت حرارة النهار ، وانسدلت ظلال الفسق نخرج البادشاه من سراي رأس التين ، في أنغر عربات القصر المكشوفة ، تجرها أربعة جياد مطهمة ناصعة البياض ، ويتقدمها ثمانية صدامون بلباسهم المزركشة بالذهب ، وفريسيير من الخزاس المرتدين ملابسهم الحمراء الساطعة ، واجتاز—و(اسماعيل) على يساره ، والعربات المقلدة أمراء البيتين العثاني والعلوي تتلو عربته الفانرة—شارع رأس التين ، فشارع الميدان ، فشارع نوبار ، فالممشية وباب رشيد . وقد اكتظت كلها بالمتفرجين وقوا على جانبي الطريق ، وتزينت بالرايات والأعلام الخفاقة ، وازدادت بالألوان المتألقة .

أما في الشوارع الآهلة بالسكان الوطنيين، فإن الرمايا كانوا واقفين على حافات حوائطهم، المزينة باليارق، وقفه الخاشعين، يهتفون بملء أصواتهم "بادشا همز جوق يشا" وإذا ما دنا منهم الموكب يكادون يسجدون عبادة أمام جلالة الخليفة الفاتح بينما أناس منهم يثرون الورد والزهور في طريق الموكب، أو ينشرون في الهواء دخان البخور المعطر ويمرقون المود والنس. وجوقات موسيقية واقفة على بعد مائة متر الواحدة من الأخرى، تصدح بأطرب الأنغام فتشفي الأنفاس وتسجي القلوب.

ولم يكن من نساء ولا أولاد إلا في نوافذ البيوت وعلى أسطحة المنازل، حيث كانت تزدحم الرؤوس البيضاء والرؤوس السوداء وتدوى الزغاريد والتهايل.

وأما في الشوارع الآهلة بالأجانب، ولا سيما المنشية، فإن القبعات كانت تلوح في الهواء، وصيحات الابتهاج تملأ الفضاء، ويقتدى الأهالي بالفريبيين فيصيحون معهم ويفوقونهم بأصواتهم، ويمتهدون في أن يظهروا لسلطانهم بحركاتهم وأنظارهم، مقدار الحب والإخلاص اللذين تكنهما قلوبهم له، بينما السيدات ينثرن من النوافذ باقات الزهور والرياحين أو يرفرن بمناديلهن في الفضاء. وكانت الزينات يأخذ سنائها بالأبصار، وعلى الأخص الزينة التي أقامها الكونت زيرينا عند مدخل المنشية.

فلما فرغ السلطان من المرور عاد إلى سراي رأس التين من الطريق التي أتى منها بين مظاهر الإجلال والتعظيم.

وما استقر في قاعة جلوسه إلا وتلقى حوله البر والبحر بالأنوار المختلفة الألوان البهية الأشكال، ودوت في الآفاق الألعاب النارية المتنوعة الأوضاع. وأخذت

تساقط، أمام نوافذه، بأشكال أهلة وبلور ونجوم، يأخذ سناها بالأبصار، واستمرت الحال كذلك حتى بعد منتصف الليل .

ولقد المهين  
بسلامة الوصول

فلما كان اليوم التالي (يوم الأربعاء ثامن أبريل) حوالى الساعة العاشرة صباحاً، استقبل السلطان، وبجانبه (اسماعيل باشا) وفؤاد باشا، قناصل الدول العامة القادمين للتهنئة بسلامة الوصول؛ وألقى عليهم خطبة جميلة، أعرب لهم فيها عن سروره بما رآه من أسباب العمران في القطر المصري الذي هو إحدى ممالكه الشاهانية؛ وعن نياته الطيبة، البازة برعاياه التي يرجو الله أن يمكنه من تحقيقها .

فترجم فؤاد باشا انعطبة لهم . فشكروا السلطان على ما تفضل به من مقابلتهم وخرجوا وألستمهم تلويح بالنهائى على مقاصده ونياته .

زيارة السراى  
نمرة ٣

ولما كانت ساعات العصر، خرج عبد العزيزو (اسماعيل) وأصراء البيتين العثمانى والعلوى وجميع رجال حاشتهما للتفرج على قسم المدينة الفرنى . وساروا بعد ذلك بجانب ترعة الحمودية . وبعد أن استراح السلطان في بستان البرنس حليم (وهو الذى عرف، في أيامنا، بسراى نمرة ٣ التى كانت مخصصة لسكنى الغازى أحمد مختار باشا قبل سنة ١٩١٤، اذ كان مندوباً سامياً للدولة العثمانية بالقطر المصري) ولقى من احتفاء البرنس حليم بجلالته ما استوجب مخطوطيته منه ثم عاد الى سراى رأس العين، وقضى ليلته في راحة وهناء كما قضى الليلة السابقة، والمدينة كلها حوله أنوار وأفراح وتهليل وزغاريد .

السفراى مصر

وفي يوم الخميس (تاسع أبريل) اجتاز، بمركبته المفتوحة، المدينة مرة أخرى، فقابلته بما قابلته به المرة الأولى . وتوجه الى المحطة، حيث كان في انتظاره القطار

المعد (ركوبه ، ليقله الى مصر عاصمة الديار . ولم يكن قد رأى قبل ذلك قطارا . فاستوقفت أنظاره آلاته وعدته ؛ وأهابت فيه عواطف حب الاستطلاع — وكانت قوية في قلبه .

فأخذ يستفهم ويستفسر عن كل ما يرى ؛ فتقدم إليه ناظر المحطة ومهندس القاطرة بكل بيان شاء وإيضاح طلب والإيضاحات التي سأل عنها . حتى اذا أتت الساعة الحادية عشرة ، صعد الى صالونه الخاص . وجلس (اسماعيل) وفؤاد باشا في مقعد آخر مجاور ليكونا تحت طلبه . وركب باقي الأمراء العثمانيين والعلميين في عربات القطار الأخرى ؛ وكذلك رجال الحاشيتين . فصار بهم القطار يقطع سهول الوجه البحري . والراكبون يتجادلون بما توجبه المناظر الممتدة أمامهم من مواضع الحليث . حتى اذا بلغ بهم القطار كوبرى كفر الزيات الضخم ، أخذ الكل يعجبون ببناؤه ، ويعظمون من شأنه ، ويبالغون في تقدير نفقائه . واستفهم السلطان عنه من (اسماعيل) فقال انه بلغ ما يزيد على السبعة ملايين من الفرنكات . وأخذ البرنس حليم يقص على من معه في المقعد حكاية نجاة من الموت في حادثة سقوط القطار في النيل . منذ خمس سنوات تقريبا .

ولما مروا على طنطا ، وراوا ازدحام الأتخدام على محطتها ، ونظروا ما أذن الجامع الأحمدى تملو في آفاقها ؛ طلب عبد العزيز بعض الإيضاحات عنها وعن أهميتها فأجابته (اسماعيل) الى طلبه ؛ وقص عليه ما يعمل فيه أيام المولدين الأحمديين الأصغر والأكبر .

وحكى له على سبيل الفكاهة كيف أن نساء الريف المجاور — حينما جعل (محمد سعيد باشا) الخدمة إجبارية على الجميع — تجهزن حول سرياه بطنطا وأخذن يصمحن

حكاية نساء الريف  
وسعيد باشا

ويصخب ويبلغ من بعضهن الحق مبلغه . فأقبلن بمصى في أيديهن على جدران مسجد مجاور يضربنها صائحات : "خذ ! هنا جزأوك ، أيها الظالم ، الذي تريد انتزاع أولادنا منا ! " بينا (سعيد باشا) — وكان مصابا برمد في عينيه ، وقد استغفهم عن سبب الججاج والمخرج الواصلين الى أذنه ، وطمه — بقهقهه ويكاد يستلقي على ظهره من كثرة الضحك ؛ وكيف أن إحدى تلك النساء لمحت ناظر المحطة الفرنجى واقفا على رصيفها القريب من القصر فتادت زميلاتها وأشارت اليه قائلة : "ها كنّ النصرانى الذى يسير أولادنا في عربات النار . هلم لننتقم منه ! " ؛ فحوّل تيار مضطهر صوب ذلك المسكين وهجم عليه كمنجنونات ، غضابي ، وهنّ يصحن : "لنقتلنه ! لنقتلنه ! " ؛ ففتر الرجل من وجوههن ، هائما خائفا ، واقتفين أثره ؛ وركبن خلفه كأنه الصيد وهنّ السلوقية . وما زال يجرى وهنّ يطاردنه حتى وصل باب سراى الأمير ، فاقصمعه خائفا منذهرا . وبعد أن أوصده وراءه صعد وسقط على قدمي سعيد هاتفا : "أقذنى يا مولاي" وأخبره الخبر . فكاد سعيد ينشئ عليه من الضحك ولم يعد يستطيع جمع أجزاء جسمه المترجج .<sup>(١)</sup>

ولما بلغ القطار برا كبيه كوبرى بناها ، ورأوا ، من خلال النوافذ ، السراى الفريدة التى أقامها عباس باشا ، عند أحد تعاريج النيل ، في نقطة تجتلى عين الناظر منها مساحة من الأفق ، فلما يضارع جمال أى منظر في العالم ، جمالها الطيبى ، تمثلت أمام أعينهم الفاجعة الزهية التى قضت على حياة ذلك الوالى ، في أعماق تلك السراى ، المهمة منذ ذلك الحين — فسرت في أجسامهم قشعريرة كأنهم يرونها تمثل من جديد ؛ وتحيلوا الألفى بك ، محافظ مصر ، آتيا منها مرة أخرى ؛ داخلا ذلك القصر الدايم ؛ مغرجا

حكاية الألفى  
محافظ القاهرة  
ومقتل عباس

(١) أنظر : "مصر في عهد سعيد باشا" لريو ، ص ٣٠ و ٣١

منه الجلثة الهامدة، مرتدية ملابس الجسم الحى : جلسا لها فى صدر العربى — كان عباسا لا يزال العاهل الحاكم، وكأنه لم يمت — أمرا الحوزى، الذى كان يحمل كل شئ، أن يسر الى مصر، داخلا العاصمة، وهو جالس فى تلك العربى على يسار جلثة الوالى القائمة — كان الموت لم يقتل على عرش مصر منذ سويقات، متخذاً كل استعداد وحيلة لحمران محمد سعيد باشا ولى العهد الحقيقى من ميراثه وإقامة الهامى باشا الغائب فى الأستانة مكان عباس أبيه .

وقص (إسماعيل) على عبد العزيز كيف أن فتاحيل الدول طارضوا الأتقى بك فيما أراد فعله واحتجوا عليه . فلم يتم له ما نوى . واستتب الأمر لمحمد سعيد . فبلغ من رعب ذلك الرجل ، بالرغم من تأكيدات الوالى الحديد الطيب القلب له ، بأنه قد صفع عنه وضر له زلته ، أنه ، حالم دوت فى أفق مصر، أول طلقة من المدافع المؤذنة بتولية سعيد، وقع مفشيا عليه وفارق الحياة<sup>(١)</sup> .

وبينا القطار واقف بالمسافرين بنها . لمحوا على أحد أوصفتها ، القطار القائم الزقاقى .

فسأل السلطان (إسماعيل) عن الوجهة التى يقصدها ذلك القطار . فأجابه بإيضاح واف . واستطرد الحديث الى التكلم عن السويس وترحتها . واختمتها فرصة ليندر بنور أغراضه الخفية فى الأذن السلطانية . حتى اذا ما جاءت الأيام ، التى يرى إظهار تلك الأغراض فيها، يكون السلطان مستعداً لتمضيده فى إنجاحها .

(١) أنظر : "مصر اندلوى" لأدوندى ليون ص ٨٧ و ٨٨ ، و "مصر فى عهد إسماعيل" ص ١١

لذلك كون ، و "امانة القام من أسرار مصر" لأولب أدمار، ص ١٤٦ وما إليها .

وبعد ما فارقوا بنها وأخذوا يقتربون من مصر؛ وبدأت قم الأهرام العظيمة تبدو في البعد كأنها تتأطع السحاب، مجللة بنوب العير النقي الذي تلحفها به الرياح الهابة على الصحراء حولها، دارت الأحاديث على ماضي مصر المكنون وعلى الأعمال القديرة المعجزة، التي تمت فيها على أيدي فراعنتها الأماجد . وأحسن ( اسماعيل ) في تلك اللحظة ، بأن هاجسا قام في قلبه يحذثه بأن ملكه معد لمجد مجد العصور الفرعونية التي دالت ؛ ويسر له قائلا : "إن التاريخ سيعلمك في مصاف أكبر أولئك الفراعنة مجدا وفخارا" .

ولما قارب القطار طوخ، تحول الحديث الى القناطر الخيرية التي أنشأها الباشا العظيم على مفرق النيل : فأجمع الكل على اعتبارها مضارعة ، في العظمة ، لأعظم ما خلقته إرادة فراعنة القدم؛ وزائفة، في الفائدة، حل كل ما أوجده أولئك القديرون . ولم يكن ( مرييت ) و ( بروجن ) و ( ماسيرو ) قد أماطوا ، بعد ، حجاب السر عن تاريخ الأسرة الثانية عشرة الرفيعة الشأن، أسرة أرتسن وأمنحمت ، بانية اللايرت ، ومحفرة خزان ميريـس .

وهكذا مرت حل المسافرين الساعات ، وهم لا يشعرون بمرورها ، حتى وقف القطار بهم أخيرا بالقرب من قصر النيل .

فقرل السلطان ، واستراح هنيئة ، في المحل الفخم المملوء ؛ وكذلك أمراء يتسه الوصول الى مصر الكرام ؛ وأقام الجميع هناك إلى أن تجهزت المعدات التي صدرت الأوامر بها .

فلما سدل المساء سدوله ، سار الموكب السلطاني من قصر النيل الى سراى القلعة عن طريق شارع كوبرى قصر النيل ؛ فباب اللوق ؛ فحسن الأكبر؛ فنيط المنة؛

فباب الخلق ، فتحت الريح ، فالدرب الأحمر — وهذه الشوارع بجاراتها ودروبها وسككها وعطفتها مزينة بأبهى زينة ، متألقة بأجمل الأنوار ؛ مكتظة بأناس من مختلف الأمم والملل والنحل ، متعجبين ، امتزاجا يقر العين ، ويشرح الصدر ؛ هاتفين بالصحة السلطانية — وكان قد تفكر أن لا يهتف بغيرها ، إجلالا لصاحبها ، حل طول الطريق ، ومظهرين من عواطف الولاء والاخلاص والعبودية ما تحار له العقول والألباب ؛ ناثرين الزهور ؛ حارقين البخور ؛ مكبرين ؛ مهللين ؛ وقد انتشرت بينهم الحفوات الموسيقية على أبعاد قليلة بعضها من بعض صادحة بالسلام السلطاني ، بينما النساء والأولاد قد انمقدت عناقيدهم فوق السطوح وفي النوافذ على درجات الجوامع والمساجد والزوايا الخارجية وفي نوافذها ، والجميع يدحون للسلطان كل بلسانه ، وكيفيته الخاصة وعلى طريقته المعتادة .

نزول السلطان  
في سراى القلعة

وكان السلطان شيقا ، وكذلك من معه ، الى رؤية تلك القلعة الشهيرة ، وسراياها التاريخية ؛ لازدهام تذكارات التاريخ حولها من أيام صلاح الدين وبيبرس وقلاوون وبرقوق وقايقباى الى أيام سليم خان ويونابرت وعمد على ، لا سيما ما كان من تلك التذكارات لا يزال حاضرا بالاعتنان .

وكانت سراى القلعة قد امتلئت لتزول الضيوف الكرام فيها ، إعدادا شديدا بما يروى عن مثله في كتاب ألف ليلة وليلة ، مما لم يكن يستطيع القيام به إلا سلاطين الجلق .

فما ارتاح السلطان في مخاضه ، ومرت أمام حنى مخيمه ، أشخاص العظلة الذين سبق وجودهم في تلك الأماكن وجوده فيها ؛ ثم تناول طعام العشاء ، وكان أغفر ما تتلذذ به الانواق ، وتستمره الألسنة ؛ كثيرا وفيرا ؛ ممدودا على عدة مواثد



اللاكلين ، إلا ودوت حوله الأفاق بالمندافع المؤذنة بصلاة العشاء — وكان (اسماعيل) قد أمر أن تضرب عند حلول كل وقت من مواقيت الصلاة ، لكي يكون الشعور بما أن أيام إقامة الخليفة بمصر لآيام أعياد مباركة — وعلت منحة المدينة العظيمة ، حافلة بالدعوات الصالحات ؛ عاجة بالهتاف : ”باديشا همز جوق يشا“ .

وما هي إلا لحظة ، وثالقت الزينات ، وأشعلت ألعاب النار ، وشقت السواريج كبهد السماء ؛ وانتثرت الأهلة والنجوم منها متباينة الألوان في الفضاء ؛ وبرزت المدينة كلها تسطع في جميع جهاتها بالأشعة المنبثقة إليها من كل صوب .

فتقدم السلطان الى حيث استجلت أنظاره أرجاء القاهرة بأسرها ، هذه القاهرة المثلة فرحا بشريفه أرضها ، فتع عليه بذلك المنظر الشائق — وكان الليل قد كساه ثوبا خياليا يلعب باللب ويسكره — وأحس في صميمه بلذة سماع كل تلك الأصوات ، المصعدة الى أذنيه الدعوات التي ترسلها الرعية المخلصة لسلطانها نحو قدمي العرش الإلهي .

ففاض صدره بالحبور المتدفق اليه من كل حذب وصوب ؛ وأراد اظهار امتنانه ومحظوظيته (لاسماعيل) . فزعم وسام «المجيدية» المرصع المتلى على صدره السلطاني ، وعلقه بيده على صدر (اسماعيل) ؛ وقال له : ”اني لا أدري كيف أشكرك على كل ما بذلته لتلاؤ نفسي سرورا“ . فأجابه (اسماعيل) : ”انما قلنت لمولاي ما هو له“ . فزاد هذا الجواب في سروره .

وبعد أن استجلى من موقفه السامى جمال المناظر المبسوطة تحت قدميه ، دخل الى مخاضه وثام نوما هادئا هنيئا .

مسلة الجبل  
في مسجد محمد علي  
بالقلعة

وكان الغد يوم جمعة. فقرر أن يصل الخليفة صلاته الجامعة في مسجد (محمد علي) بالقلعة عينها ، وأن يذهب إليه من السراى التى بات فيها راجلا على جواد مطهم في موكب يكون كل من فيه فارسا .

فلما آذنت ساعة الصلاة ، امتطى عبد العزيز الحصان الذى قلم له ، واقتدى به أمراء بيته السلطانى وأمرأه البيت العلوى والوزراء الثنائون والمصريون وكبار رجال الماسين والمعية ، وكوكبة من الفرسان . وسار جمعهم في موكبهم الحافل المهيب ، داخل القلعة ، من السراى الى الساحة الفسيحة الأرجاء المنتسطة أمام مسجد (محمد علي) حيث كانت جميع الأطلال المحيطة ، المطلة على تلك الساحة ، غاصة بالمتفرجين ، ودأوية بدعائهم .

وبعد أن انقضت الصلاة ، توجه السلطان إلى زيارة قبر الباشا العظيم ، الرائد رقدته الأبدية ، في ذلك الجامع المرمرى البناء ، المطل من علاه على القاهرة كلها ، كأنه روح (محمد علي) تشرف على جسم القطر الذى أعادت إليه الحياة ، لتتمهده وترعاه .

فوقف إليه ، برهة ، خاشعا . ثم التفت إلى من حوله وقال على مسمع من الملا :  
” لقد كان رجلا عظيما . وإن ذكره لينخذل “ .

استقبال وفود  
المهين بالقلعة

ثم عاد إلى سراى القلعة حيث استقبله وفود المهين من الأعاظم والعلماء والبطاركة والرؤساء الروحانيين ، والوجهاء والأعيان والتجار . ولكن يظهر لهم بجملة واحدة ، مقدار أنشراحه من زيارته للقطر المصرى ، قال لهم : ” إني ضيف اسماعيل وضيقتكم “ . فكان لقوله هذا وقع عظيم في القلوب ، لأنه كان بمثابة إعلان رسمي لاستقلال مصر !

لذلك كانت الزينات، التي أقيمت في مساء ذلك اليوم، أجل بكثير من زينات الليلة السابقة . وكان أبدعها شكلا ما أقيم منها أمام قصرى (اسماعيل باشا) وحليم باشا وسراى عابدين . وبلغ من تفنن صانعى الألعاب النارية ومن إعجاب السلطان بها أنه طلب بعضهم من (اسماعيل) ليأخذهم معه إلى القسطنطينية .

مقابلة وفد العلماء  
للسلطان

ومما يحسن ذكره في مقابلة السلطان للعلماء، اللطيفة الآتية وهى : أن (اسماعيل) كان يعتقد في علماء الأزهر الأجلاء عدم خبرة ودراية بواجبات الرسميات في موقف كهذا — وكان هذا هو الواقع — فحسن لديه أن يختار أربعة منهم فقط لينشروا بالمثل بين يدى الحضرة السلطانية، وهم : السيد مصطفى المروسي شيخ الجامع الأزهر، والشيخ السقاء، والشيخ عيش، والشيخ المدوى من كبار علمائه . وأولم وثانيهم من دواهي الرجال وأوسعهم صدرا، وثالثهم من المتصوفين، وأما الرابع فكان من الورع والتوكل على الله، بحيث لا تهمة ولا ترهبة العظومات البشرية .

ثم وكل إلى قاضى القضاة التركى أمر تعليمهم آداب المثل بين يدى الخليفة . فأفهمهم فضيلته أن المقابلة ستكون في قاعة يقف السلطان في صدرها ، على منصة مرتفعة عن الأرض قليلا ، بينها وبين باقى القاعة حاجز، مفتوح من وسطه ، وأنه ينبغي لهم إذا ما بلغوا الباب ووقعت أعينهم على جلالته أن يحنوا انحناء عظيما، ويسلموا بكفا اليدين، حتى تمسا الأرض ؛ ثم يتقدم كل منهم نحو فتحة الحاجز، بخطوات موزونة حتى إذا ما صار أمامها، كرر الانحناء والتسليم، ووقف أو ردد السلطان عليه تحيته . فبعد ؛ حينئذ الانحناء والتسليم مرة أخرى ، ثم يرجع متقهقرا ووجهه إلى السلطان إلى أن يبلغ باب الدخول ؛ فيكرر الانحناء والتسليم حينها ؛ ثم ينصرف مثل ما دخل، حتى يتوارى عن نظر السلطان .

فاستغرب العلماء أن تقتصّر المقابلة في تلك الصور من الانحناء والاحترام . ولكن قاضى القضاة أكد لهم أن الأمر لكذلك . فقالوا : "قد فهمنا" .

فلما جاء دورهم في المقابلات ، دخل الشيخ العروسي أولاً ، فالشيخ السقاء بعده ، فالشيخ طيش . وفعل كل منهم ما علمه القاضى أن يفعل .

وكان (اسماعيل) واقفا وراء السلطان بمسانة ، وعينه تراقب كل حركاتهم . فأعجب من إتهانهم المدرس الذى ألقى عليهم إتهانا محكما .

لطيفة للشيخ  
المدوى

فلما أتى دور الشيخ المدوى ، دخل هذا الأستاذ الفاضل ، وانحنى عند الباب كرملائه ، ثم أسرع ، بعد ذلك ، نحو السلطان بمشيتة الاحتياذية ، ولم يعاود الانحناء ولا التسليم فبدأ قلب (اسماعيل) ينفق — ثم تقدم بقدم ثابتة حتى وصل إلى الحاجز ، وجاوزه ، وصعد إلى المنصة ، التى كان السلطان واقفا عليها — وقلب (اسماعيل) يحف — ونظر إليه بين ثابتة وقال : "السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله" . فوثب قلب (اسماعيل) في صدره . ولولا مهابة السلطان لركل الرجل وأخرجه .

ولكن السلطان أبتم ابتسامه لطيفة ، وردّ على الشيخ المدوى تحيته وأحسن منها ، وانحنى أمامه انحناء خفيفا .

نفاطبه الشيخ فيما يجب على السلطان نحو رعاياه ، بصفته كبير الحكام ، لأن الحكام خلفاء الأنبياء في الناس ، وفيما يجب على أمير المؤمنين ، بصفته خليفة الرسول ، نحو المؤمنين ، وهؤل في المسؤولية الملقاة على عبد العزيز ، وأكد له أن ثوابه عند الله سيكون بمقدار تقل المسؤولية ، وحسن نفاذه فيها ، كما أن عقابه عند الله تعالى سيكون على قدر إهماله واجباتها .

فالتقى لون (اسماعيل) ، ولعن الساعة التي اختار فيها ذلك الشيخ الأبله ، ومن أشار عليه به ، وأخذ يحسب لنفصب السلطان ألف حساب .

ولكنه لم ير على وجه السلطان علامات للغضب مطلقا . بل وجد صلاح عبدالعزيز مرتاحة إلى كلام ذلك الأستاذ ، لا سيما أنه لم يفهم منه شيئا بلجهله اللامعة العربية . أما العدوى فلما فرغ من خطبته ، ختمها بالسلام الذي بدأها به ثم انحنى أمام السلطان ، وأقبل خارجا بوجهه لا يظهره كسابقه . وسبحته بيده فوجد هؤلاء في انتظاره على الباب يلومونه على فعلته التي كانت على زعمهم «قذى في العيون» . فقال لهم : «أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين . وأما أتم فكأنكم قابلتم صخا ، وكأنكم حيدتم وثنا» .

ثم سأل السلطان عبدالعزيز (اسماعيل) : «من الشيخ ؟» فأجابه : «هذا شيخ من أفاضل العلماء ، ولكنه مجذوب . وأستحيج جلالكم عفوا عن سقطته» . فقال السلطان «كلا . بل إنى لم أنشرح لمقابلة أحد انشراحى إلى مقابلته» وأمر للشيخ العدوى بخلفة سنية وألف جنيه<sup>(١)</sup> .

وكان يوم السبت التالى حادى عشر ابريل ، يوم تشيع المحفل المصرى إلى الإقطار الحجازية . فتقرر أن يرأس جلالة السلطان نفسه الحفلة السنوية المتادة . وأختبذت جميع الوسائل لكي تكون ، بسبب وجوده على رأسها ، قيمة الحفلات التي من نوعها . لأنه لم يسبق لسلطان عثمانى أن ترأس مثلها منذ الفتح السليمي . ولم يكن أحد يتوقع أن تجود الأيام بزيارة سلطانية أخرى في مصر ذاته .

(١) نفس حل هذه اللطيفة سبط ولد الشيخ العدوى صديق ، السيد محمد حاشور الصديق القاضى بالحاكم الشرعية ومن أفاضل الأدياء .

فلما كانت الساعة العاشرة ، نزل السلطان من القلعة ، وسار نحو الكشك الذى أقامه محمد على خصيصا لذلك تحت السور الى جنوب باب العزب ، وهو قريب من المكان الذى يروى أن الأمير المملوك أمين بك وثب منه وثبته المشهورة فى حادثة ذبح المالِك .

فلقت بعض الحضور نظر السلطان الى ذلك ، فرغب عبد العزيز فى أن تلقى على مسامحة الرواية ، بينما تم حوله مراسم الاحتفال .

وكانت تفاصيل تلك الرواية غثقا فيها . فما حكى للسلطان منها هو أن أمين بك ، لما قذف بحصانه من فوق السور ، وانكسرت أرجل الجواد حينما مست الأرض ، فسقط ميتا ، وقع هو أيضا عن صهونه وأصيب برضوض أقعدته رشده ، فصر به بعض البدو ، فأسرعوا اليه واحترقوا ثلاثة أرباع حقه ، لكن يسرقوا سلاحه ويقتلوه ؛ غير أنه لم يمت . وتمكن — وحده ، على قول بعضهم ؛ وبمساعدة بعض ذوى الرحمة ، على قول آخرين — من النهوض والاختفاء فى مكان أمين تعالج فيه الى أن شفى واستطاع الالتجاء الى سوريا .

حكاية المملوك الذى  
نجى من مجزرة أول  
مارس سنة ١٨١١

وبعد الفراغ من حفلة المحفل ، توجه السلطان للتزه فى المدينة . فزار مساجد آل البيت الكرام وضيها وكان الناس من السوق والعامية ، كلها مرّ بمجموعهم المتشدة ، صاحوا : " الفاتحة لمولانا السلطان ! " " فينظر اليهم كأنه يجهلهم . وهو إنما يستغرب لذلك ، ويقارن فى سره بينه وبين خشوع الأساتذة وسكوتهما ؛ وإطراق العيون فيها الى الأرض حينما يمر فى شوارعها ذاهبا الى صلاة الجمعة <sup>(١)</sup> .

(١) أنظر : " الكافى " لتاريخ بك ج ٤ ص ١٣٨ طبعة بولاق الأميرية سنة ١٩٠٠

ثم عاد من طوافه ، فتناول طعام الغداء في سراى الجزيرة . ولما كان الأصيل ، أهدى رغبته في رؤية أنجال ( اسماعيل ) . فأرسل ( اسماعيل ) من أحضرهم من قصرهم بالمنيل في جزيرة الروضة ، حيث كانوا مقطعين الى طلوهم تحت عناية المسيو جاكليه ؛ يمدن عن كل المؤثرات الخارجية ، لاسيما مؤثرات الحريم . فأعجب السلطان بهم وبنباهتهم وذكائهم ؛ وشجعهم بأقوال حكيمة على الاستقرار في دروسهم بنشاط وهممة ورغبة صادقة ، ليكونوا قوة عين أبيهم الكريم ، ونفر مصر ، وخير أحفاد للرجلين العظيمين ( ابراهيم باشا ) و ( محمد علي ) .

ثم عاد الى القلعة . ولما أسدل النسيق ظلاله ، بدت مصر ، مرة ثالثة ، في حلل زيتها البهية ؛ وأخذت نجوم الألعاب النارية وأهلتها تبارى مرة أخرى لنجوم السماء . وبدورها في السطوع والألأة والجمال .

فاظهر عبد العزيز ( لاسماعيل ) نيته في الإقامة بمصر مدة أيام ؛ ورجاه الاكتفاء بما عمل من الزينات والألعاب ، والامتناع عنها في الليالى التالية ؛ حثا براحة القائمين بها ، وراحة السكان معا .

وكان قد أرسل من الإسكندرية بانرة تحمل البريد الى القسطنطينية . فأوفد إليها ، أيضا ، في تلك الليلة ، المصاحب عبد الكريم أغا ، ليبلغ جلالة السلطنة والدته ، أنباء صحته الجيدة ؛ ويحمل الى بابه العالى ، الأوراق الدولية الخاصة بالإدارة اليومية .

ثم كلف راضى أغا ، أحد خصيائه ، بالذهاب ببطاقة زيارته الى أربعة عشر « حريما » بمصر ، ليبلغ « تحياته وتسليماته السلطانية » الى أرامل محمد علي باشا و ابراهيم باشا ، وصباس باشا ، ومحمد سعيد باشا وغيرهن .

وفي يوم الأحد ثاني عشر ابريل — وكان عيد الفصح عند الطوائف الشرقية — ذهب لزيارة قصر الزهرة، في طريق شبرا، وكان (لإسماعيل)، وهو الوحيد الذي تفننت الهندسة المعمارية في تجميله وتزيينه، على صغر حجمه. فأعجب به أيما إعجاب، وأمر بعض الرسامين الذين بمعيته أن يأخذوا رسمه — ولكنه لم يمكث فيه طويلا وغادره الى قصر شبرا ذاتها — وكان حلیم باشا، الذي أراد السلطان أن ينزل في ذلك اليوم ضيفا عليه.

زيارة السلطان  
لشبرا

فاستقبله حلیم باشا في تلك الروضة الفناء، التي أنشأها لوالده، أبدع الخيالات الشعرية. وكانت مزدهية بالزهور والرياحين، المفروسة على أبدع نظام وأجمل تنسيق، حافلة بالطيور المفردة المختلفة الأجناس والألوان والأشكال — وكانت الزهور والطيور أحب المخلوقات الى قلب عبد العزيز، وأعز ما ترتفع اليه نفسه بعد ربات الحدود.

فقضى بقية نهاره، وبعض مسائه في تلك الجنة الأرضية، متجولا بين رياحينها وأزهارها طورا، وطورا جالسا أمام بحيرتها، المحيطة بها، المظلة الرخامية البديعة الصنع، العديدة المثيل في العالم بأسره. أو جالسا في القاعة العظمى الكائنة في الزاوية على يمين الداخل، والتي قلما بذلت في تشييد سواها الأموال التي بذلت في تشييدها، وقلما أزدعت غيرها، بالصناعة الدقيقة المواد الثينة التي أزدعت، هي، بها: كآق (محمد علي) أراد أن يجعلها قصرا من قصور الجنتان، بجانب تلك المظال الرخامية، المتتابعة صفوها على شكل دائرة يعضاوية حول تلك البحيرة المعلقة لمسباحة جواريه فيها. وقد أقيم في وسطها بناء مرمرى على شاكلة باقة أزهار، تجللت النقطة كلها في صنعه وتكوينه. وأعدت لجلوسه، هو، على أريكة حريرية فيه لكي يتسنى له



في شيخوخته — والمياه تجري من تحته ، والجواري يسبحن حوله ، ويتداعبن أمامه ،  
والروائح العطرة تتأرجح من الأزاهير النابتة في كل مكان ، وداخل كل مظلة من  
هاتيك المظال ، والمتدلية الى حافة البحيرة بشكل من أبدع الأشكال — أن يتخيل  
أنه انتقل الى جنة الفردوس التي أعتقها ربه للصالحين والمحسنين من عباده ، وأن  
يتمتع ، وهو حي في هذه الدار ، ببعض لذات لذائذ الدار الأخرى التي بات منها حل  
أدنى من قلب قوسين .<sup>(١)</sup>

أسفا على تلك !

آه تلك الروضة الفيحاء الغناء ! كيف عيشت بها أيدي الإهمال . وكيف جرّدها  
من محاسنها الفريدة بغيث أيدي الصيانة عنها !

وأسفا على ذلك !

وآه ثم آه ! لذلك الايوان البديع الأكبر المكوّن من مجموع هاتيك المظال الصغيرة  
الكلية الجمال ، المزرية الواحدة منها بجمال ايوان كبرى المشهور ! كيف تناولتها  
أيدي الدمار : فأنلفت رخامها البديع ، ونهبت يهبجة صنعها المدحش ، وباتت  
تهتدها بخراب عاجل !

وقضى عبد العزيز وقته فيها يتحدث مع حليم باشا وفؤاد باشا عن زراعة البساتين  
والزراعة على العموم ، ثم عن القناطر الخيرية — وكان الأمير مراد افندي ، ولى  
المعهد ، قد ذهب في ذلك اليوم عينه لزيارتها في مركب بخارية وانفجر طيها .  
وأرسلت هناك أوورطتان مصريتان للقيام بفروض استقباله . ولكنه لم يفارق المركب ،

(١) أنظر : "مصر مرحلة مرحلة" لرونيه ص ١٦٥ وانظر : "مصر الخديوي" لأدون دي ليون

وتفقد ، وهو فيها ، القناطر : الأمر الذى لم يرجح له ضباط تينك الأورطين والذى لم يمكنهم من التفرج على القلعة السعيدية — وهى حصن أنفق محمد سعيد باشا على إقامته عند نقطة أقسام فرعى النيل ، مبلغا طائلا من المال ، بدون جدوى ، كان الأجدر به إنفاقه على إتمام عمل القناطر الخيرية الضخم ، الجليل ، الذى أقبل عليه . أبوه ، الباشا العظيم ، يضع سنوات فقط قبل أن يوافيه الأجل المحتوم .

ولما توغل المساء فى الليل ، عاد السلطان الى القلعة فلم يفارقه الانسراح من شبرا وبستانها وإيواتها !

وفى يوم الاثنين ثالث عشر إبريل — ووافق وقوع عيد شم السيم ، احتفلت القاهرة به احتفالها المهود ولكن زاده بهجة وجود السلطان — قصد عبد العزيز المتحف المصرى — وكان مديره حينذاك مريت بك ، الإيجيتولوجى الشهير — فتفقد جميع غرفه ومحتوياته ، واستفسر عن كل ما رآه فيه ، وارتاح الى البيانات التى استطاع مريت أن يسلمها له .

زيارة المتحف  
المصرى يوم  
"شم السيم"

ثم ذهب من هناك لزيارة معامل القطن والحرير ببولاق — وكانت أعمالها ناجحة تبشر بفلاح باهر فى المستقبل ، لم يحقق ، وأأسفاه المستقبل شيئا منه — فسرّه ما رآه فيها من حسن الترتيب والنظام وأنشراح صدره لعلامات النجابة والذكاء ، البادية على وجوه الشبان المشتغلين فيها .

ولما كانت المحادثة بالأمس عن القناطر الخيرية قد شوقته الى رؤيتها ، ركب زورقا بخاريا من زوارق (اسماعيل باشا) ، أعد خصيصا لذلك الغرض ، وتوجه فيه من بولاق اليا . فتفقدتها بمثابة ، وأعجب بها إعجابا عظيما : وأكبر من إقدام

وحمة الباشا العظيم الذي باشر انشاعها بالرغم من طعنه في الشيخوخة . وحكم بأنها لمن أجل أعمال الدنيا فائدة ، وأن محمد علي قد استحق بيتائها شكر الأرض المصرية الى الأبد .

ثم عاد الى قصر النيل وتناول طعام الغداء فيه .

وفي يوم الثلاثاء ، رابع حشربريل ، ذهب الى زيارة الأهرام ، ومعه أمراء زبارة للأهرام البيت العتيق ، وأمرأ البيت العلوى ، وجهود كبار رجال البلاطين .

وبعد أن عبروا النيل الى شاطئه الغربى ، عند البحيزة ، ركب السلطان عربية مفتوحة تجتازها أربعة جواد ، وركب ورائه ( اسماعيل باشا ) و ( فؤاد باشا ) فى عربية أخرى . يجتازها جوادان فقط ، وامتنى الباقون خيولا .

ولما تمكن الطريق الى الأهرام قد مهدت بمد . فكثيرا ما كانت تجتاز حقولا مزروعة أو تمر فى أرض تربية ، ترفع حوافر الخيول الواقعة عليها ، مصحبات غير كثيف منها تملأ بها الفضاء .

وكانت عربية السلطان سائرة فى طليعة المركب اتقاء للفتبار ، وخيولها القوية العفية تقطى بها المنحدرات الى المرتفعات . ولأنها كانت أربعة صافئات ، تمكنت من الاستمرار مقلدة راكبيها الكريم ، حتى مدخل الصبوان الذى أعد له فى نزل الهرم الأكبر ، وعند قاعدته .

وأما عربية ( اسماعيل باشا ) وفؤاد باشا ، فإن الجوادين فيها أجهدا تعباً ، أدى بهما الى التوقف عن المسير ، بالرغم من كل حث وتحريض . فاضطر الزايجان الكريمان أن يتزلا منها ويمتليا جوادين آخرين .

وهكذا سار الموكب ، والعشير وراءه يتناول عنان السماء ، حتى بلغ الأهرام ، حيث كانت موائد الطعام قد مدت في الصواوين الممتدة لذلك كأنها في أكبر القصور اشتغالا على مملاتها .

فاستراح القوم ثم أكلوا . وبعد ذلك أقبل عيد العزيز يسترح الطرف ويستفهم متخطيا من جوار هرم خوفو ، الى الزاوية البارز من قبتها أبو الهول ، والمعبد المصرى القديم الذى يحواره ، ومقبرته . وامتلى جوادا الى هرم منقورا الذى كان لا يزال معظم جرنه الأمل مكسوا بطلائه العجيب ، فالى هرم نيتوكريس الأحمر الجليل !

ألا ليت شعرى ! من يلبقى بما جال في خيلة سلالة سلاطين آل عثمان ، وهم يتجولون حول آثار الفراعنة الخالدة ، الدالة على عظمتهم الزائلة ، والقائمة على مدخل الصحراء الشاسعة ، معالم ماض كان قصيا ، وقتا خط التاريخ أول صفحاته ! من يلبقى بما قالت لهم ، لا سيما لعبد الحميد ؟ عينا أبي الهول السرّيتان الشاخصتان بصفاء أبدى أمامهما ، كأنهما تريدان أن تحجبا مكنونات الأيام وراءه ، وتشعران الحاضر ، مهما كان نفعا عظيما ، بضآته ، تجاه مجموعة المفاتر البشرية ، التى حركتها القرون بالتتابع ( من خوفو الى أوزورتنس ، وأمنمحت ، ومن أحسن الى توطمس وأمن هوتب ؛ ومن راع مسيس الى نيفثاؤ وبتامكت ؛ ومن كينزى الى اسكندر الأعظم والبطالسة الإمامجد ؛ ومن قيصر الأكبر الى هديان وديوكليسيان ؛ ومن عمرو بن العاص الى أحمد بن طولون والمعز لدين الله ؛ ومن صلاح الدين الى بيبرس وقلادون وبرقوق ورسبى وقايتباى ؛ ومن سليم الرهيب الى يونا برت العجيب ) كسيناتوغراف أمام تينك العينين ، ثم وارتها في طيات السهور !!!

ولما مالت الشمس الى الغروب عاد الموكب السلطانى الى الجيزة وتناول الجميع طعام الشاء فى سرايا البديعة — ولم يكن (اسماعيل) قد أجرى فيها التحسينات التى صيرتها فيها بعد ثلثة قصوره ، ودرة منزهاته الخصبوية . ثم رجع السلطان الى القلعة وما استقر فيها برهة إلا وحانت صلاة الشاء . فقام ينادى بها ، بعد اطلاق المدافع ، نحسة عشر مؤذنا اختيروا اختيارا دقيقا لجمال أصواتهم وأخذوا يتبارون فى التلحين والإنشاد مباراة حلت كل من سمعهم على الظن بأنهم يلابل الفضاة برزت من خلواتها تمشى بأنفاسها المطربة ، فى ذلك المساء المجلوة سماؤه ، ضيوف مصر واليها .

وكان الغد يوم الأربعاء ، خامس عشر أبريل ، بفعل يوم راحة عامة وخصص لتجهيز معذات السفر الى الاسكندرية .

البرد  
الى الاسكندرية

فلما بزغت شمس يوم الخميس ، سادس عشر أبريل ، ازدحمت شوارع العاصمة وساحاتها وظهور منازلها ودرجات سلام جوامعها ، بجماهير الناس على اختلاف مللهم وعملهم وأجناسهم ، انتظارا لمرور السلطان وموكبه العظيم — وحالما وافت الساعة التاسعة صباحا ، أخذت المدافع ترمى طلقاتها بين كل دقيقة وأخرى إيلانا بالرحيل ، لغاية الساعة العاشرة . حتى اذا دقت هذه ، تزل السلطان من القلعة بموكب عظيم ، مهيب ، لفر على تلك الجماهير عييا مسلما . وأمر بأن توزع مبالغ طائلة من المال على فقراء العاصمة وخدمة مساجدها .

فانطلقت للسن تلك الجماهير بالدعاء بللاليته ؛ وذرفت عيون كثيرة دموعا عجيبة فى توديعه . وما زالت أصوات النساء ترتفع من كل قم ، الى أن بلغ الموكب القطار المعد له ، فأقله . فشخصت اليه الأبصار ، وشيمته القلوب حتى توارى .

وكان السلطان قد أبدى عزمه على زيارة المقام الأحمدي بطنطا . فأقيم له صيوان  
نغم بجوار محطتها . ولكنه رجع عن عزمه في آخر لحظة ، واكتفى بإيقاف القطار  
قليلا قبالة ذلك الصيوان ، لكي يتمكن الجماهير الغفيرة ، المزدحمة هناك ، من استجلاء  
منظر وجهه البهي ، والقيام بفروض النداء له .

فم سار إلى الاسكندرية ونزل في سلامك رأس التين الذي كان قد أقام فيه .  
وفي اليوم التالي ، وكان يوم الجمعة سابع عشر أبريل ، صلى السلطان الصلاة الجامعة ،  
بأبهة وجلال عظيمين ، خارجا إليها وراجعا منها ، ممتطيا فرسا ضليعا أصيلا ، في موكب  
تحف به ثغامة وعظمة ، يزيد في كمال مظهرهما ما في لباس عبد العزيز من البساطة .  
وكان عبارة عن كسوة إفريقية ترين صدرها أنسجة حمراء فقط ، وليس على طربوشه  
أية علامة تميزه عن غيره ، بينما ملابس أمراء بيته ووزرائه وكبار رجال حاشيته موشاة  
بالمذهبات الساطعة ، محلاة بالنياشين الالامعة .

وبعد الفراغ من صلاة الجمعة ، والإحسان بجانب عظيم من النقود على فقراء  
الاسكندرية ، وخدمة مساجدها ، عاد عبد العزيز إلى سراي رأس التين ، وتناول  
طعام الغداء . ثم استراح قليلا ، ريثما انتصفت الساعة الثالثة بعد الظهر .

حينذاك نزل هو وأمراء بيته وكبار دولته ورجال ما بينه ، يرافقهم (اسماعيل باشا)  
وأمراء بيته وكبار دولته ، في الزوارق المعتة لهم . فنهبت بهم إلى اليخت السلطاني  
”فيض جهاد“ وسفن الأسطول المرافقة له ، بينما كانت الطوابي والبواخر الراسية  
في البوغاز ( ومن ضمنها المركب الايطالية المسماة فيكتور عمانويل ، المرسله من قبل  
ملك إيطاليا الملقب بالملك الحلو الشهازل ، لتشارك في تعظيم الخاقان الشاهي ) وقلاع

القيام إلى الأمانة

الساحل لغاية المكس والجمي من جهة ، ولغاية سيدى بشر وأبى قير من الجهة الأخرى ، تطلق مدافعها تحية وإجلالا ؛ ويبدأ الجماهير يكتظ بها الشاطئ وهي هاتفة مهللة ! فصعد السلطان الى يخته يصحبه (اسماعيل) وصعد باقى الأمراء الى سفنهم ؛ وأخذت المراكب تستعد للرحيل .

فتقدم (اسماعيل) الى توديع عبد العزيز . فقال له السلطان : <sup>٣٥</sup> "إني أعيد لك تشكراى القليلة على ضيافتك البهية لى ولال بيق ؛ وأؤكد لك أنى لن أنسى زيارتى لهذه الديار ماحييت ؛ وأؤمل أن الشعب المصرى ، بفضل عنايتك واهتمامك وضيقتك على مصالحه ، سيزداد رخاء وسعادة . وإنى فى كل سائحة ساشمله بتعطفاى هو وأميرو الجدير بها " .

فانحنى (اسماعيل) وشكر وأثنى . ثم أذن له السلطان بالانصراف . فنزل الى زورقه . وأخذت السفن الثمانية تتعد رويدا رويدا عن الأرض المصرية ، والأرض المصرية ترجع ارجعاجا فى توديعها ، حتى توارت عن الأبصار !

هكذا انقضت الزيارة السلطانية للقطر المصرى ! وهكذا مرت أيامها المشرة البهية ! ولم يبق أثر منها فى البلاد ، بعد ذكرها ، سوى اسم (عبد العزيز) الذى أطلق على أحد شوارع العاصمة ، لإحياء لتلك الذكرى ؛ وسوى النياشين ؛ والألقاب والرتب التى فاضت بها التعلقات السلطانية على كبار الموظفين المصريين !

أسفا ! هل كان يدور فى خلد الأمراء ، عاشى تلك الأيام وأعيادها ، أن الأحقاد ستسج ، لكل منهم ، خيوط مأساة سوداء : فلا تمضى أربع عشرة سنة إلا ويتدهور عبد العزيز عن عرشه الرفيع الى عجين ضيق ، لا تلبث أيدي الإثم ،

هواجس ومبر

أياماً ، إلا وتسلبه الحياة فيه ، بقص شرائين ذراعيه واستصفاه دمه — ولا يرفع مراد على الأكف سلطاناً ، إلا أنجز به في حبس انفرادي ، يوافيه الموت الخفي فيه بعد ثلاثين سنة ، وليس بين الرفع والسقوط إلا ما يوشك أن يكون طرفه عين ! — ثم لا تمضي ست عشرة سنة وبضعة أشهر إلا ويصدر أمر عبد الحميد بخلع الخديو الأول ( اسماعيل ) عن عرش مصر السفى ؛ فيخرجه الى منفى ، مرة مذاقه ؛ وحياة معركة أيامها ، بعد الإقامة على أوج العز الأقدس ، وفي نعيم الحكم المطلق ، والرخاء غير المحدود ! — ولا تمضي خمس وأربعون سنة إلا وتتل ثورة عسكرية عرش عبد الحميد حينه وتخرجه بدوره لينوق حرقه السجن ومرارة المنفى ، وألم التيسير ، قسراً ، من حبس الى حبس ؛ ومن اعتقال سرى الى اعتقال سرى ؛ ويموت ، أخيراً ، موت معلوك ، لا يكاد أحد يلتفت إليه ، كأنه لم يكن السلطان الرهيب ، الذى لبثت ترتعد الفرائص ، ثلاثة وثلاثين عاماً ، لدى ذكر اسمه ! — ولا تمضي إحدى وخمسون سنة إلا ويرى رشاد نفسه — وقد كان يحببه أخوه عبد الحميد ثلاثاً وثلاثين سنة ، بعيداً عن كل مظاهر العالم ، لا يدري ما فيه ، حتى اذا جاءت الثورة العسكرية ، وجدته شبيهاً هزماً ، فانخرجه من حبسه وهو لا يكاد يصدق ؛ وأجلسته على عرش أجداده ، وهو كأنه فى منام ، أميراً للومتين — مدخلاً رغم أنفه فى الحرب العالمية العظمى بعد أن داهمته ، مرعماً أيضاً ، الحرب الطرابلسية وحرب البلقان : فيرى أنه لم يرتق عرش أجداده إلا وقد جرد هذا العرش من كل ذيلنج ونز ، وأصبح سريراً خشبياً ، كله شظايا تخرج الجسم : وأشواك هموم وانخرة تعيط بالجلوس عليه ، بدلاً من أنهار اللذات السالفة ! — ولا تمضي اثنتان وخمسون سنة إلا وتقتل يد أئيمة ، صبراً وضراً ، يوسف من الدين ، ذلك الذى كان فى تلك الأيام شاباً فى مقتبل ربيع



حياته ، وكانت الدنيا تبسم له ابتسائها كلها في ظل سلطة أبيه العليّ ومقامه الأرفع ! ؟ . . .

الأفّ للدنيا! ما أكذب مظاهرها! وما أقصر حياة سرورها ولذاتها !!  
عل أن ( اسماعيل ) لم يدع فرصة تلك الزيارة السلطانية تمرّ ، دون أن يحاول الانتفاع منها لتقديم أمنياته في سبيل تحقيقها :

فاستهوأ لنفس عبد العزيز وحملها على مساعدته في المستقبل ، كل المساعدة الممكن توقعها ، لم يكتف بما بذله له بسطاء فائق ، من مسببات الارتياح والسرور ، وبأخذة على نفقات جيبه الخالص ، كل المصاريف التي عنّ لضيوفه صرفها ، وهم في ضيافته ؛ بل بالغ في تقديم الهدايا والتحف الفاخرة وتويعها ، حتى ملأها سفينة برمتها ، لعبد العزيز عينه ، ولأمرأء بيته السلطاني ، وكبار رجال دولته . وزوّد فؤاد باشا ، الصدر الأعظم ، وقت فراقه ، بمبلغ ستين ألف جنيه لي يجعله عوناً له ، وطوع بئانه .

فسافر السلطان من مصر ، وهو في حال نفسية تجعله مستعداً لقبول أى طلب يقدمه ( اسماعيل ) إليه ، إذا كان مشفوعاً بما يحيل الطلبات كلها مقبولة في الأستانة . ومثل ( اسماعيل ) لم يكن ليجهل الوسيلة .

فما أفلح الأسطول العثماني من ثغر الاسكندرية ، وعاد الوالى إلى عاصمة دياره ، إلا وأقبل بكل ما في وسعه على تحقيق الخطة التي رسمها لنفسه .



# الجزء الثالث

---

رابعة النهار

---

## العمل على تحقيق الخطة المرسومة

### الباب الأول

#### تحقيق الشطر الأول منها

##### إجمال

فليدخل مصر بصراحة في مضمار المدنية الحديثة ، ويسير بها ، بعزم ثابت وقدم راسخة ، في طريقها ، وفي جميع تشعبات هذا الطريق ، أوجد في أعمال القطر ، على اختلاف أنواعها ، روحا جديدة ، أصلحت إدارته ، وكيفتها تكييفها ، من شأنه ضمانه دوام تطور البلاد الاجتماعي — ووسعت نطاق الزراعة بتوسيع نطاق الري ، وتنظيمه ، وتكثير طارقى المواصلات ، وترتيبها وتوزيع الضرائب توزيعا عادلا — وفتحت أبواب

(١) أهم مصادر هذا الباب هي: "مصر كما هي" لمالك كون ، و"مصر في عهد اسماعيل" للولف غيه ، و"مصر في سنة ١٨٤٥" للششر ، و"بيان أهم الأشغال التي تمت في القطر المصري منذ الأيام القديمة لغاية يومنا هذا" لثيان دي بلقون ، و"مصر في حكم اسماعيل" لمرير ، و"مصر تحت حكم محمد علي" للهنس بكار مسكاو ، و"مصر تحت حكم محمد علي" لهامون ، و"مصر تحت حكم محمد علي" لكلوث بك ، و"مصر تحت حكم محمد علي" للمصحين ، و"تاريخ محمد علي" لموديه ، و"اسماعيل باشا" لرافيس ، و"مصر مرحلة مرحلة" لرونه ، و"رسائل من مصر" للبدي جوردن كرف ، و"حياة البلاط" لبيرز ، و"رسائل محرومة من مصر" لسفت هيلير ، و"مصر" لمالروفي انظر الخ .

التجارة والصناعة والعمل واسعة ، أمام مجهودات الجميع : فأحيت ، بذلك كله ، مالية البلاد ، وضاعفت إيراداتها وصادراتها — وأنشئت التعليم بعد مواته ؛ وعممته ؛ وتوعته ؛ ورقته ، حتى جعلته كفيلا بأن يكون التطور الاجتماعي المستمر ، متجها على الدوام ، نحو الحسن والمفيد ، بالرغم من كل عقبة تعترضه وعثرة تعوق سبيله — وأدخلت ، في نهاية الأمر ، حل الحياة الاجتماعية المصرية ، تغييرات أساسية ، جعلت بقاءها على جودها القديم أمرا في منتهى التعذر ، وأوجبت تحركها من عقالاتها القرنية نحو بنات جديدة وعقلية حديثة .

وبما أن هذا الاجمال قد يقع لدى جاهل تاريخ (اسماعيل) ولدى المتحاملين عليه تحاملا مبديا على مجرد ما سمعوا عنه من أفواه قاصديه ، موقع الاستنكار ، إن لم تقل موقع السخرية ، فانا لانرى بلدا من تفصيل ما أجلنا تفصيلا تاما ، إظهارا للحقائق .

## الفصل الأول

### إصلاح الإدارة

”مصر بلد، إذا حصلت الإدارة فيه، أكل العامر الصحراء.

وإذا ساءت الإدارة فيه، أكلت الصحراء الأرض العامرة“.

«تأويلون الأول»

كانت مصر، في مئة الممالك الأخيرة، تنقسم إلى خمسة عشر إقليمًا : تسعة منها في الوجه البحري وهي : البحيرة، ورشيد، والفريسة، ومنوف، ودمياط، والمنصورة، والشرقية، وقليوب، والجيزة، وثلاثة في مصر الوسطى وهي : إطفح، والفيوم، وبني سويف، وثلاثة في مصر العليا وهي : أسيوط، وجرجا، وقوص (طية) .

تقسيمات مصر  
الإدارية سابقا

وكان على رأس كل إقليم أمير مملوك يقال له الكاشف . ومرجع الكل إلى الأمير المملوك المدعو ”شيخ البلد“ المقيم في القاهرة . والذي كان حاكم القطر الحقيقي، بالرغم من وجود وال عثمانى بالقلعة، يرسل من لندن القسطنطينية كما عثر لرجال الحكم هناك أن يمزلوا سلفه، أو كلما أرسل ”شيخ البلد“ إليه رسوله، المعروف عند أهل مصر بلقب ”أبى طبق“ لينتدوه بزمه بأن يقول له : ”أنزل يا باشا“ .

(١) أهم مصادر هذا الفصل هي : ”مصر كما هي“ لمالك كون، و”لغة عامة على مصر“ لتكوت بك، و”مصر في عهد سيد باشا“ لمرو، و”مصر في عهد اسماعيل“ لمالك كون، و”تاريخ مصر الحديث“ بلوج بك زيدان، و”مصر منذ الفتح العربي لغاية الحملة الفرنسية“ لمرسيل، و”وصف مصر“ لطباء الحملة الفرنسية.

وقد حافظ يونانرت على هذا التقسيم .

فلما استتب الأمر لمحمد على عثله . وروى كلوت بك أن القطر المصري كان في سنة ١٨٤٠ منقسما إلى سبع مديريات فقط؛ منها أربع في الوجه البحري وهي : البحيرة ، والمنوفية ، والدقهلية ، والشرقية ، علاوة على محافظتي الاسكندرية ومصر ، وواحدة في مصر الوسطى وهي : بني سويف والفيوم معا ، واثنان في الصعيد وهما : المنيا ، وإسنا .

وقسم (محمد على) كل مديرية إلى عدة مراكز . وكل مركز إلى عدة أقسام . وكل قسم إلى عدة نواحي . فبلغ عدد المراكز في تلك السنة أربعة وستين . وعدد الأقسام ثلاثمائة ونيفا . وعدد النواحي ثلاثة آلاف وثمانمائة .

وأضرب ما في التقسيم ، الذي قال عنه كلوت بك أن البليدة كانت جزءا من البحيرة ، والغربية جزءا من المنوفية ؛ وأن العريش كان تابعا للدقهلية ؛ والقلوبية تابعة لمصر .

و(محمد على) أول من سمي رئيس المديرية "مديرا" ، ورئيس المركز "مأمورا" ورئيس القسم "ناظرا" . وأما رئيس الناحية فما قى اسمه "شيخ بلد" منذ القدم .

وأوجد في كل ناحية ، بجانب شيخها ، مستخدما سماه "الخولى" وظيفته مراقبة الزراعة ومسح العلين ؛ وأثر يقال له "صراف" . يجمع الأموال وتوريدها للأمور ؛ وثالثا يقال له "الشاهد" وهو المأذون من قبل القاضي للحكم في قضايا الأحوال الشخصية ، وتحرير عقود الزوجة وغيرها .

وكان مرجع شيخ البلد إلى الناظر ؛ ومرجع الناظر إلى المأمور ؛ ومرجع المأمور إلى المدير ؛ ومرجع المدير إلى ديوان الداخلية . على أن كل مأمور كان مكلفا بكل

مدير برفع تقرير أسبوعي عن أعماله وإجراءاته إلى ذلك الديوان عيـنه ليقف هذا على ما جريات الأمور .

أما المديرين فكانوا كلهم أتراكا أو ممالك من ممالك الباشا العظيم . وأما المأمورون فقد اجتهد (محمد علي) في جعل معظمهم من أبناء مصر دون أن يبالى بكونهم مسلمين أو أقباطا ، وكذلك نظار الأقسام .

لكن التجربة لم تغلح ، لسببين :

(الأول) هو أن المصريين ، في تلك الأيام ، بالنسبة لوجود معايب الشعوب المستعبدة زمنا طويلا ، وقائضا فيهم ، لم تكن لهم ذاتية ، ولم يكونوا أكفأ للإمرة . فكان المقلد منهم سلطة يستبد بمن كانوا اخوانه بالأمس استبدادا فاحشا ، مع خنوعه أمام رؤسائه خنوعا شائنا .

(والثاني) هو أن هيئة الأتراك ، بالرغم من أن الجيش المصري كمر أولئك العتاة الذين استبدوا المصريين أجيالا وقرونا ، كانت لا تزال متأصلة في نفوسهم تأصلا عظيما : فكان مأمور المركز ، أو ناظر القسم المصري يقف محنتها أمام قواصه التركي ذاته احتشاما فاقها ، فبالك في حضرة ملقـم من الملقـمين الأتراك ، أو حضرة ذى حيية من رجال ذلك المنصر القاهرة ؟

وكان (محمد علي) عيـنه ، بالرغم من كل مجهوداته لرفع درجة المنصر الفلاح المصري إلى مستوى درجة المنصر التركي ، لا يستطيع — لأن تربيته الأصلية تركية وشعوره تركي محض — أن يحمل نفسه على تقدير فلاح مصر أكثر من الأتراك . والركون إليهم في المهمات أكثر من ركونه إلى أبناء جنسه . ولا أدل على استقرار الشعور



التركي حيا فيه حياة قوية ، بالرغم من تمسقه مصر وامتلاء قلبه بحبها ، وبالرغم من اشتباكه مع تركيا في حرب كان يلعب فيها بمرشه ، بل بذات حياته وحياة أولاده ، من الجواب الذي أجاب به ذات يوم وجها من الغربيين أقبل يهتله بالانتصارات التي أحرزها جيشه المصري على الجيوش التركية ، ويكيل الثناء جزافا لأبناء مصر البواسل ، المقاتلين بفوز مستمر ، فوق ربوع الشام وبطاح الأناضول . فان ( محمد علي ) قطع عليه كلامه قائلا : " لا تنس ، يا صديقي . أن الذين يفوزون في المعارك إنما هم الضباط لا الجنود . وأن ضباط الجيش المصري كلهم أتراك<sup>(١)</sup> " .

وأما مشايخ البلاد فكانوا من الفلاحين ، طبعا . وكذلك الخوليون . والصيارفة .  
وهؤلاء كانوا كلهم أقباطا — والشهاد .

وكان الكل مأجورين ، تناسب مرتباتهم مع أهمية وظائفهم . ويرتدون ملابس عليها شارات تلك الوظائف . فشيوخ البلاد كانوا يتقلدون وساما من فضة . ونظار الأقسام وساما ذهبيا . والمأمورون وساما من ماس . وأما المديرون فكانوا بكوات أو باشاوات من أصحاب الرتب العسكرية السامية يتقلد كل منهم كسوة رتبته .

وجعل ( محمد علي ) ، على رأس الإدارة ، عثة دواوين للنظر في شؤونها المختلفة ، كديوان الداخلية وديوان الحربية وديوان البحرية ، وديوان الخارجية ، وديوان

(١) يختلف شعور إبراهيم ابنه . فانه مع تهادي الأيام ، بات مصريا أكثره تركيا . ولا أدل على ذلك مما قاله ، مرة ، للبرنس الروسي بكرمسكار ، وهو يصف حصار عكا له ، وهو : " ليس في العالم جنود يفوتون أجنادي في حمايتهم وحمائهم في القتال ، مهما قاوم في النظام ومرة فنون الحرب والطلان . ولئن بدا من بعضهم ، أحيانا ، تردد أوجع ، فانما بدا ذلك من جانب الضباط الأتراك . ولست أذكر أن شفا من ذلك بدا من أولاد العرب " . انظر بكرمسكار ،

التجارة، وديوان المعارف العمومية، وديوان الزراعة، وديوان الصحة، وهلم جرا . وجعل فوقها كلها المجلس الخاص ، الذى كان هو نفسه يرأسه ، تعرض عليه كل الأمور، صغيرها وكبيرها ، ليطلع عليها ويبدى رأيه فيها . وكان يدعى "ديوان المعونة" للدلالة على ماهيته .

وكان ، اذا أراد الإقدام على أعمال كبرى فى الزراعة ، أو على أشغال ذات منفعة عمومية هامة ، يجمع المديرين فى أحد تلك الدواوين ويعرض المشروع عليهم ويأخذ رأيهم فيه . فاذا وافقت أغليتهم عليه نفذه ؛ وإلا انتدب مخصصين يبدون بحته ، ويستصفون خلاصته .

فلما آلت الأحكام الى عباس باشا ، أغمض عليه عن سيرة الإدارة فى الطريق الذى اختطه (محمد على) لها ؛ ورأى ، مع تجرده عن الرغبة فى لخص الأمور بنفسه ، أن يحل هواه محل نظر الدواوين : ففتح أمام الجاسوسية مجالاً تفرق منه انطلق الى العمل ؛ وأدى ، بعد زمن قليل ، الى تعطيله ، واستتباب استبداد الحكماء ، لا سيما كبارهم ، بالرعية استبداداً فاحشاً .

فحال الأمر محمد سعيد باشا ، بعد توليته بقليل ؛ وكبر عليه شقاء الأهلىين ! ولكنه لم يراصلاحاً يقدم عليه ، خيراً من الإناء وظائف المديرين — لأنهم كانوا ، فى نظره ، جرثومة ذلك الاستبداد وقرومته — وجعل ديوان الداخلية يشرف رأساً على أعمال المأمورين ونظار الأقسام : فزاد الطين بذاك بلة . وأضر ، بالرغم من حسن نياته ، من حيث أراد أن يفيد .

فلما استلم (إسماعيل) زمام الأمور ، وحمل أمام ذكاته الاختلال الشائن الذى أوجدته فى نظام الإدارة روح عباس الظفانة شراً وروح سعيد المتعلبة خيراً من خير

الإصلاحات التى  
أدخلها إسماعيل  
على الإدارة

تبصر، رأى أنه لا بد له من اصلاح عام يدخله على ذلك النظام مرميا، ليكون قاعدة لكل اصلاح قائل .

فقسم القطر الى ثلاثة أقسام كبرى : البحرى ، والمتوسط ، والصعيد . وقسم هذه الأقسام الثلاثة الى أربع عشرة مديرية وثمان محافظات <sup>(١)</sup> .

لبن المديرية سبع في الوجه البحرى وهى : البحيرة ، والقليوبية ، والشرقية ، والمنوفية ، والغربية ، والدقهلية . وثلاث في الاقليم المتوسط وهى : بنى سويف ، والفيوم ، والمنيا . ونحس في الصعيد وهى : أسيوط ، وجرجا ، وقنا ، والقصير ، وإسنا .

أما المحافظات الثمان فهى : العاصمة ، والاسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، والعريش ، وبورسعيد ، والسويس ، وسواكن .

وحافظ على تقسيم المديرية الى مراكز ، والمراكز الى أقسام ، والأقسام الى نواحي . وقسم محافظتى العاصمة والاسكندرية الى أقسام ، جعل كل قسم منها يضاف مركزا في المديرية . وأنشأ وظائف مفتشين ورؤساء مفتشين للأقاليم ، كان ، فيما بعد ، أعظمهم شهرة وأكبرهم شانا اسماعيل باشا الذى عرف "بالصفيح" و"المفتش" ، وسليمان باشا ، وعمر باشا لطفى .

وعهد برياسة النواحي الى عمد بدلا منها الى مشايخ . وجعل هؤلاء مساعدين لأولئك فى أعمالهم . وفوض الى أهالى كل ناحية أمر انتخاب عمدتها ومشايخها . وأبقى الصيارفة والمأذونين . ولكنه ألغى وظائف الخوليين : لأنه لم يعد من سبب

(١) لهذا ولجميع القسم الذى يليه ، أنظر : ماك كون "مصر كما هى" ص ١١٤ وما يليها .

لوجودها، بعد أن منح محمد سعيد باشا حق امتلاك أترية الأتليان ، وحق زراعتها  
كما يشاعون . وأبقى مرجع الإدارة كلها الى وزارة الداخلية .

وكان محمد سعيد باشا قد حوّل بعض دواوين أبيه كالداخلية والمالية والحربية  
الى وزارات ؛ وعهد في الأولى الى الأمير أحمد باشا رافت ؛ وفي الثانية الى مصطفى  
باشا فاضل ؛ وفي الثالثة الى الأمير حلم باشا . فحوّل (إسماعيل) باقى الدواوين  
الكبرى — كالبحرية ، والخارجية ، والأشغال ، والمعارف — الى وزارات كذلك .  
وأشأ في أوائل سنة ١٨٦٥ وزارة جديدة دعاها "وزارة الزراعة" ضمها الى وزارة  
الأشغال ، وعهد فيها ، معا ، الى نوبار باشا ، مكافأة له على فوزه في مسألة قناة  
السويس التى سيأتى الكلام عنها .

لشأن وزارة زراعة

غير أن أعظم تحسين أدخله على الإدارة انشاء هيئات نيابية في المراكز والمديريات  
قصد منها أن يعلم الأمة ، بأشراك وجوها ونوابها مع حكامها في أعمالهم الادارية ،  
كيفية الوصول الى حكم نفسها بنفسها .

إدخال نظام  
هيئات نيابية  
على المديريات

فأقام ، لهذا الغرض ، في كل مركز ، مجلسا اداريا يستشير المأمور أعضائه في إنجاز  
الأعمال المركزية ؛ وأقام ، حول كل مدير ، مجلسا محليا ينتخب الأهليون أعضائه  
ليكونوا أمين المدير ومستشاريه ، وليضربوا على تجاوزات مشايخ البلاد وعمدها .<sup>(١)</sup>

وكان قد اضطر ، في بادئ الأمر ، الى انتخاب المديرين كلهم من العنصر التركى ،  
لعدم وجود أكفاء من أولاد العرب للقيام بمهام تلك الوظائف الخطيرة . ولكنه —  
مع تقدم أيام ملكه ، وإخراج المدارس المصرية وسلوك الإدارة رجالا يعتمد عليهم  
من أبناء البلاد ، وبما أن الحوادث التى تلت أظهرت عدم كفاءة الأتراك للادارة ،

تعيين مديرين  
من أبناء البلاد

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هي" ص ١٣٦

بالرغم من كفائتهم غير المنكورة للإمرة والحكم — أخذ يستبدل المديرين الأتراك بمديرين من المصريين الصميمين ، رويدا رويدا ، حتى أصبحت معظم مديريات القنطر مرؤوسة في سنة ١٨٧٧ بمديرين من أبناء البلاد ، بالرغم من أن هيبة الأتراك ، من جهة ، كانت لا تزال كبيرة في نفوسهم ، وأنه كان يخشى أن تحملهم هذه الهيبة في معاملاتهم الادارية مع كبار رجال العنصر التركي الخاضع لحكمهم ، على خور في العزائم ، قد تقيم عنده مضار للصحة العامة ؛ وبالرغم من أن هيبة الحاكم المصري ، من جهة أخرى ، لم يكن لها أصل في نفوس إخوانه المصريين ، لا سيما أهله وذويه وبلدييه ، وكان يخشى أن تحمله ألفتهم به على تهاون في واجباته ، يخل إخلالا بالنا في تلك المصلحة العامة حينها .

حكاية جابر بك  
مدير بني سويف  
وقواصه التركي

ويرى ، للدلالة على هذين الأمرين معا ، أن وجهيا من وجهاء الصعيد عين مديرا للديرية التي فيها بلدة ؛ فوجد من ملازمة أهله ومعارفه له وجالوسهم معه ، بدون أقل تكلف ، في حجرة الرسمية الخاصة به ، وتضييعهم وقته عليه في محادثات لا طائل تحتها ، أولاتهم سواهم من الناس ، ما رأى ، معه ، مهابة مفقودة في أعين مرؤوسيه وإلهالي معا ، وما غصت به روحه . ولكنه لم يجد من نفسه القوة الأدبية الكافية لايقافهم عند حدهم . فاعرض الى قواصه التركي — وكان ألبانيا ، على القامة ضخم الجثة ، ذا شاربين كشاري عنترة وأبي زيد في صورتهم المتداولين بين أيدي الناس — أن يدخل يوما ، فجأة ، على أولئك الأهل والمعارف ، عند ما يراهم جالسين في حجرة الخاضبة ؛ ويزجرهم ويطردهم من حضرته ، عساهم يرتدون .

فامتثل القواص للأمر من القنطرة ودخل على جمع بلديي المديرين الملازمين له في غرفته ، وقد قتل شاربيه الكثيفين حتى مس طرفاهما أذنيه ؛ وحلق عييه حلقة

مرقعة . وهم عليهم صارخا بصوت خفيف : "يلا ! سكتر ! كرتا ! فلاح أدبسيزا"<sup>(١)</sup>  
 فذكر الجمع وارتدت فرائصهم . وماهى الإلحظة وقد أدخلوا المكان مهرولين يتسابقون  
 ويتنافسون الى الباب ، ولكن المدير كان أولهم هروبا ، لشدة ما وقع في نفسه من  
 هبة قواصه وهول منظره وصورته<sup>(٢)</sup> .

وتوج (اسماعيل) اصلاحه الإدارى باقدمه على اشراك الأمة المصرية معه في الحكم  
 وتحقيقه ، في إنشاء مجلس نيابى ، الفكرة التى دارت في خلد جده ، الباشا العظيم ، ولم  
 تمكنه الأيام من انخراجها الى حيز العمل<sup>(٣)</sup> .

لبسط في أواخر سنة ١٨٦٤ ، رغبته في استدعاء أكابر التجار والأعيان والمزارعين  
 الى جمعية عمومية ، تطلع على حال البلد المالية ، ويناط بها أمر المناقشة في الضرائب  
 وتحليلها وتقريرها ثم توزيعها توزيعا عادلا .

وفي أوائل سنة ١٨٦٦ فخذ تلك الرغبة ، ومنع القطر هيئة نيابية ، وضع لها قانون  
 انتخاب في منتهى الحكمة والسماحة ، حتى لقد قال فيه بعض كتاب الفرج : " انه  
 يصلح لأن يكون نموذجا وقدوة لمعوم الأقطار بلا استثناء ، وأنه خليق بأن يحسد  
 العالم المتمدين مصر عليه " . وجعل اختصاصات تلك الهيئة واسعة ، ومداولاتها

(١) سمعت هذه الرواية من كثيرين ممن حاصروا الحادثة . وسمعتها أيضا من صديق الشيخ مرمى محمود  
 الحائى بالإسكندرية ، قلا من لسان بعض يدي ذلك المدير . والأسناد يرويا بكيفية تكية  
 في منتهى الظرف .

(٢) أنظر : ماك كون "مصر في عهد اسماعيل" ص ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨  
 وأنظر : "تاريخ المالية المصرية" ، و"رسائل من مصر المعاصرة" بلطون دنجبار ، ص ١٤٢  
 و ١٤٤ على أن هذا المكتب ينتظر الى الأمور من وراء نظارة سودا ، وما لورنى : "مصر"  
 ص ١١٧ وما إليها .

نافذة في الأمور المالية والإدارية، واستشارية، خليقة بالعمل بها، متى كانت صائبة، في الأمور التشريعية .

وفي ٢٥ نوفمبر من السنة حينما افتتح أول جلساتها بمحفلة شاققة، تلا فيها بنفسه خطابا وجيزا فصيحا، أظهر فيه للتوابع الغرض من اجتماعهم، وطلب اليهم مساعدة حكومته على تنفيذ الأشغال العمومية المفيدة الإدارية في البلاد، وتحديد مواعيد سنوية لجباية الأموال، وأحاطهم علما بما تم، في ذلك العام، من تعديل نظام ارث العرش المصري، والموجبات التي ألزمته، والتفقات والتعهدات التي استلزمها وسيأتي بيان كل ذلك في حينه .

فكان — مع أنه شرق — أول عاهل، بعد كارلو البرتودي سافويا، ملك سردينيا، روى التاريخ عنه، أنه تآزل، عن طيبة خاطر ويجرد أوداته، عن جزء من سلطته المطلقة، ومن ميزات تاجه الملكي، وأول عاهل أهد إلى أمته جانبا من السلطة التشريعية المستمدة، في الحقيقة، منها . فسبق، في هذا المضمار، موتسو هيتو، ميكادو اليابان المديد الطائر الصبوت، ومظفر الدين خان، شاه العجم المدوح الذكر !

وانا، اذا وعينا تماما أن المجترة نفسها، العريقة في الأحكام الدستورية، لم تزل مزينة هذه الأحكام إلا بعد أن قامت عليها، مدة ملكها (يوحنا العديم الأرض)، أخا ريكاردوس قلب الأسد، وأنها أضربت، لاستمادتها والحفاظ عليها، نيران ثورين، وظلت عرشين، أغرقت قوائم أولها في دم تشارلز الأول السنيورتي الجالس عليه، وأنه من أمة في أوروبا، إلا وكابدت في سبيل الحصول على تلك المزية أجسم المشاق، وأهرقت أزكى دماء نبلاء الشهور والأفهام من أولادها، وأن

الصحافة العالمية استغذت كل كلمات الشكر والثناء، في تمجيد عمل ميكادو اليابان وشاه الحيم المذكورين حيناً ثم، أدركنا مقدار ما يستحق عمل (اسماعيل) من إعجاب، وما هو خليق به من ملح جزيل !

ولا يضير ما أخذه عليه بعض الكلب من أن الهيئة النيابية التي جاد بها على بلاده لم تكن، بلهل معظم أعضائها المطبق، ولتقل ظلم ستين قرناً على عوائقهم، تستطيع تقدير المنحة المهود بها حق قدرها، ولا استخدام الآلة الموضوعة بين يديها استخداماً حسناً، وأنها اعتقدت من واجباتها أن ترى أنها ملتزمة للتصديق، فقط، على رغائب "ولى النعم".

فانه اذا صدقت الرواية الزاعمة أن التواب — حيناً أفهمهم شريف باشا وزير الداخلية في تلك السنة، أن المجالس النيابية الأوروبية مقسمة دائماً الى حزيين : حزب يضد الحكومة، وحزب يعارضها ويقاومها، وأنه يجدر بهم، والحالة هذه، أن ينقسموا هم أيضاً الى حزيين : حزب مع الحكومة، وحزب عليها، فيجلس رجال حزب الحكومة على مقاعد اليمين، ورجال حزب المعارضين لها على مقاعد اليسار — تسابقوا جميعهم الى مقاعد اليمين، هاتئين : "إننا كلنا عبيد أفندينا . فكيف نكون <sup>(١)</sup> معارضين للحكومة؟".

وانذا مع ما ترجمه السيدى (نف جوردون) في مراسلاتها من أن أحد المتخفين قال لها : « إنا، معشر التواب، إنما نحن ذاهبون الى مصر، وقلوبنا في جزمنا، لأنه، انما كان أحدنا لا يستطيع أن يجاوب المدير، على أى أمر يصدره اليه، مهما <sup>(١)</sup> أخطر من الأخر : ماك كون "مصر كما هي" من ١١٨ (الحاشية) ، و"مصر تحت حكم اسماعيل" من ٤ (الحاشية) .



كان جائراً، سوى عبارة "حاضر! على عيني ورأى!"؛ أقريدين أن نجسر على مقاومة ارادة أفندينا، الذي يملك أعتاقنا، وحق التصرف في أعمارنا، ويستطيع في أى وقت يشاء أن يخفض الأرض تحت أقدامنا، ويقطع خبرنا في أقاصي الفازوقل<sup>(١)</sup>؟»

وإذا سمع أن خوف الأهليين من المديرين ومن معادلتهم جعلهم يفزون من الانتخابات، وأن هذه — بالرغم من القانون الجميل الموضوع لها — لم تجر إلا بالقوة القاهرة، وطبقا لرغائب أولئك الحكام؛

وإذا سمع أخيراً أن الثواب كانوا، في أول جلوسهم على كراسيهم، متبيين لا يدرون ماهى واجباتهم؛

فانه يجب أن لا يغيب عن الأنفهان ثلاثة امور :

الأول : أن ( اسماعيل ) كلف يعلم حق العلم أن هناك أقلاماً وقفها أصدائه على تسوية سمعته وتسويد صحيفه أعماله، وإظهار كل الإصلاحات التي يقدم عليها كأنها مجردة لا لرغبة حقيقية فيها، وابتغاء للفائدة التي تعود منها على البلاد، ولكن لذو الرماد في أمين الدول الغربية، وحمل العالم المتملدين، على الاغترار بالطلاء واعتباره مجردى تلك الإصلاحات من أعظم رجال القرون و« أكبر حاكم وجد على رأس مصر الإسلامية منذ الفتح العربى »؛ كما كان يقول محبوه والمغمورون بأفضاله من أصحاب الجرائد الفرنسية والإنجليزية والإيطالية الكبرى في بلادهم . وكان يعلم أيضاً أن الواقفين على نوع عقلية الأمة المصرية وماهيتها، في تلك الأيام، قد يسخرون بمحتته،

(١) أنظر: "رسائل إيدى جوردن . دف" ج ٢ ص ٨٦ ، و "مصر" لمالوريك ص ١٢١

ويستكرونها ، حتى فيما لو اعتبروها صادرة عن إخلاص حقيقى فى حب البلاد ، ورغبة صادقة فى رقيها ، وأنه ، مع ذلك ، لم يخف طعن الطاعنين المصالحين ؛ ولم يخش استهزاء المستهزئين ، فى سبيل السير بأمنته فى معارج المدنية الحديثة ، والنهوض بها الى مستواها بأية وسيلة يراها مجدية فعلا .

الثانى : أن أى عمل انساني كان يراه الوقت الحاضر صغيفاً هزأه ، قد لا يلبث ، مع مرور الأيام عليه وهو قائم ، أن يكسبه الزمان حلة من الكمال ، ويحوطه بهالة من الجلال ، لا تجعله كغيره فى العيون ، فقط ، بل مثمراً ثمراً شهيماً . وأن خير معبر عن هذه الحقيقة ، ما قاله ذلك النبيل الفرنساوى الذى منحه نابليون الثالث لقب شرف كان لأعرق الأسرات الفرنسية قدما ، واندثر باندثارها ، وهو : « إنه ليضلجلى ، حقاً ، أن يلتبني عارفى بالدوق دى مونمورانسى : لأنهم يعلمون أنى لست من هذه الأسرة . ولكنى متأكد أنه لن تخفى خمسون سنة إلا ويكون الملاقاة نفسى من منح يلقى هذا اللقب ومنى منحه ؛ فيعتبرونه ، فى أحفادى ، إرثاً عن أسرته القديمة ؛ ويصبح مصدر فخار لهم : لأن الزمان يقدس كل شئ<sup>(١)</sup> » .

ومن يعلم أن شريف باشا ذاته — الذى رأى النواب الأتوليين يتسابقون الى مقاعد اليمين ، ليحلا يعتبروا من حزب المعارضين للحكومة — أصبح ، فيما بعد ، من أشد الناس تمسكا بالهبة النيابية بمصر ، ومن أكبر أنصار الحكم الدستورى ، حتى إنه فضصل اعتقال الأحكام فى أوائل حكم توفيق على توليها ، ولا هيئة نيابية فيها<sup>(٢)</sup> من يراجع ، بعد ذلك ، تاريخ الحركة الفكرية النيابية بالقطر المصرى فى نصف القرن الذى

(١) أنظر : مالوف "مصر" ص ١٢٢

تلا افتتاح أول مجلس نيابي فيه ، ويقف على مقدار تطور العقلية فيها ، يدرك إدراكا تاما مقدار الحكمة المستكنة في قول ذلك النبيل الفرنسي ؛ ويمكن من الوقوف على التطور الاجتماعي الذي أوجبه ، على ممر الأيام ، منحة ( اسماعيل ) : فيقدرها تقديرها الحق ، ولا يغفل على صاحبها بالثناء والشكر اللذين يستحقهما .

الثالث : أنه لم يمض على تشكيل ذلك المجلس بضعة أعوام ، إلا وأنجب نوابا عن مصالح الأمة حقيقين بهذا الاسم ؛ ولو أن عددهم لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة ؛ نوابا لم يروا أن مهمتهم لتعصر كلها في التصديق على أعمال الحكومة وتمييزها . لم يخافوا التصدي لمعارضتها ومناقشتها الحساب ؛ بالرغم من علمهم أنها إنما تنطق بلسان الأمير وتعب عن إرادته . ومع ذلك ، فإن التاريخ لا يذكر أنهم أصيبوا بسوء بسبب حرية ضمائرهم وألسنتهم . ولو أن بعض ذوى الأمر امتعضوا منها ، وهددوا أصحابها بضر إن لم يصمتوا .

## الفصل الثاني<sup>(١)</sup>

### توسيع نطاق الزراعة والرى والمواصلات

”الزراعة حياة مصر؛ والرى روح الزراعة؛  
والمواصلات من البلد كالشرابين من الجسد“  
«كهنوت مصرى قديم»

من المعلوم أن (محمد على)، فى أوائل سنى ملكه، أى ما بين سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨١٤، مقابل ترتيبه إيراد سنوى، لحاملى جميع الأقطان المصرية، يوازى إيرادها السنوى المعتاد، استولى على جميع هذه الأقطان، بما فيها أقطان ديوان الأوقاف ورزق المساجد— ما عدا ”الوسيات“— وهى أقطان تخلفت للنواحى عن فلاحين ماتوا بدون وريث، أو تنازل عنها أصحابها الفقراء، لعدمهم، الى ملقرم الناحية مقابل مبلغ يسير من النقود؛ فأصبح الملقرم يزرعها لحسابه، نظير دفعه مالا سنويا لليرى، ليمكنه من القيام ببعض شقات فى المصلحة العامة كتطهير الترع وصيانة السواقى. وما لبث الملقرم، بعد عهد قليل، أن امتنع عن دفع ذلك المال، مع احتفاظه بالومسية؛ كما فعل البطريقيون ”بالأجر العام“ فى جمهورية روما القديمة. فحقق (محمد على)، بذلك التملك، الحلم الذى رآه فى صباه، وهو فى قوله، إذ نظر نفسه يشرب كل ماء النيل، ليروى ظمأ اعتراه، ولا يتروى.

صعوبة الأرض  
المصرية برمتها  
الى محمد على

(١) أهم مصادر هذا الفصل هى: مؤلفات كلوت بك جهاون، وما نعين وعويه البادى ذكرها، و”تاريخ مصر الحديث“ لجورجى بك زيدان، و”مصر فى عهد محمد على“ لـ”إكلمسكار“ و”مصر المعاصرة“ لمريشو، و”مصر“ لـ”بارون مالورق“، و”مصر“ لـ”سنانى لين بول“.

ومن المفهوم، بدهة، أنه إنما استولى على جميع أطيان القطر. لا طمع أو جشع في أملاك الغير؛ ولكن لسبيين: الأول . رغبته في إدخال أصناف مزروعات جديدة على الزراعة المصرية المعاصرة له (كالقطن، والكتان، والأفيون، والنبيلة والتوت الخ)، من شأنها زيادة الثروة العمومية، وإنماء رخاء البلاد؛ وعلمه أن جهود الفلاحين المصريين في الاقتصاد على أنواع المحصولات القديمة يحول دون تحقيق رغبته؛ والثاني تصميمه على احتكار تجارة القطن خاصة، فلما منه أن في ذلك مصلحة البلاد؛ لاعتقاده أنه يدرى من أساليب التجارة وضروبها ما لا يدره الفلاحون؛ وإرادته، والحالة هذه، أن يتمكن من زرع ما يشاء، أنى يشاء، وبأية كمية يشاء .

فادخل، الأصناف الجديدة، التي كان راغباً فيها، على زراعة البلاد؛ وتصرف في زرعها التصرف الذي رآه مناسباً لمصلحته ومفيداً لتجارة القطن . فأكثر، مثلاً، من زراعة أصناف المستعمرات (كالقطن وأمثلة) في الوجه البحري، حتى كاد يجعل زراعة هذا الإقليم كلها قاصرة عليها . وخص الصعيد بزراعة القطن واللؤلؤ والمحسوب .

ويكلا تحرم مصر الاستفادة حتى من الأطيان البائرة، أنعم بعد سنة ١٨٣٠ بأكثر من مائتي ألف فدان منها على كبار أتراكه؛ وأعطاهم من دفع ضريبة ثما عليها مدة تتراوح بين ست وعشر سنين؛ على شرط أن يحبوها ويزرعوها . وقد عرفت هذه الأطيان باسم "الأبيديات" أو "الأبعاد" . وأكثر (محمد علي) فيما بعد من الإتمام بها على المخلصين في خدمته من رجاله الأمناء، بصفة مكافآت لهم على أعمالهم التي أحرزوها رضاه، ورغبة منه في إنماء المساحة الصالحة للزراعة في القطر المصري .

اسلامات ابراهيم  
باشا الزراعية

وقد اقتدى به في الاحتفاء بالزراعة، بل فاقتضينا في أساليبها، ابنه ابراهيم باشا: فإنه، على كونه جندياً أكثر منه رجلاً زراعياً، ما كاد يقتني الأطيان الشاسعة بالقطن

إلا وأدرك، أكثر من كل مزارع، مقدار الخيرات التي يمكن للأرض المصرية أن تنجزها، اذا بوشرت زراعتها على حسب الأصول الفنية .

فأقبل يشتغل بمشهى الذكاء والتفنن؛ وأدخل تحسينات جمة على الطرق الزراعية القديمة المتبعة؛ واستنبط طرقا أخرى؛ وباشر زراعة نباتات غير النباتات المعروفة (كشجر الزيتون) مثلا: فانه غرس منه ما ينفع على ثمانين ألفا . ثم أصلح جملة أطيان باثرة، وحوّلها الى أطيان زراعية في غاية الجودة . تاهيك بالاصلاحات التي أدخلها على فن إقامة الحدائق والبساتين، وتحويله بحزيرة الروضة الى اسم على مسمى حقا . وقد قال عنه البرنس بكمرسكاو في كتابه المعنون "مصر تحت حكم محمد على": "ان ابراهيم باشا معجب به في مصر كمحسن عظيم . فـا هو بالقراس والمزارع على مقياس شاسع، فحسب؛ بل انه قد مدّ ظل اصلاحاته فوق أرجاء الصحراء الشرقية التي ما وراء القاهرة، والمسلم أمر تحويلها الى جنة غناء للسيو بونفور، وهو رجل لا يعرف الملل ويشغل تحت ادارته عشرة آلاف عامل بأجرة تراوح ما بين قرش ونصف الى ثلاثة قروش يوميا تدفع، لهم كل يوم جمعة بانتظام مستمر"<sup>(١)</sup>.

ولم يكن لينيب عن ذهن (محمد على) أن روح الزراعة بمصر إنما هي حسن توزيع مياه الري وأن توسيع نطاق الفلاحة فيها لن يدرك إلا بتوسيع نطاق الري عينه، ونطاق طرق المواصلات؛ وأن خير ضمان لاستمرار الفلاحين مقدمين بنشاط وحب على الزراعة إنما هو استفادتهم وإثرائهم منها ورؤيتهم أنفسهم غير مرهقين بالضرائب وطرق تحصيلها .

(١) أنظر: بكمرسكاو "مصر تحت حكم محمد على" ص ٩٨

الاختناء برسائل  
الرى في عهد  
محمد على

فما وضع يده على الأرض المصرية ، للفرضين اللذين قلنا منهما ، إلا وأقبل بهيمته الفائقة على الاختناء بذلك جميعه :

فلم يترك جزءا من الأقطان الذى كان يمكن ريهما بالوسائل الموجودة منذ زمن الممالك ، إلا وضمن له وصول المياه إليه بكيفية ثابتة . وربما كانت رغبة تمكنه من القيام بهذا العمل سببا ثالثا فى إقدامه على زرع الأقطان من أبدى أصحابها ؛ لأن هؤلاء كانوا لا يفترقون يتنازعون على الرى . يقاتل أهالى الجهة أحيانا جيرانهم أهالى الجهة الأخرى على فتح ترعة أو سدّها . مثال ذلك ما كان يقع دائما من المنازعات بسبب ترعة الفرعونية . هذه التربة كانت تصل بين فرعى النيل ، وبين عين شمس ونضير ، مائة مهنوف . وبما أنها كانت تحوّل جانبها عظيما من مياه فرع دمياط إلى فرع رشيد ، تسبب — لا سيما فى أيام التعاريق — شرقا جسيما لمزروعات الأرز فى شمال الدلتا والدقهلية ، من المنصورة إلى دمياط ؛ كان المزارعون اللذين فى جوار فرسكور وبعض جهات الدلتا الشمالية ، والمزارعون اللذين على فرع رشيد فى نزاع مستمر بعضهم مع بعض : أولئك يرغبون فى سدّ التربة ومنع تحويل مياه فرع دمياط إلى فرع رشيد ، وهؤلاء يرغبون بالعكس فى فتحها وتحويل المياه إلى فرعهم . وقد رفع كلا الطرفين شكوى فى هذا الشأن الى الخلفاء بونابرت فى سنة ١٧٩٩ فكان أحد الأوامر الأخيرة التى أصدرها ذلك الرجل العظيم وهو بمصر خاصا بإجراء تحقيق فى المسألة أمام لجنة من المهندسين المرافقين لحملته . ثم حدث ، بعد ذلك بسنوات ، أن مياه النيل ، إما بفعلها الطبيعى وإما بفعل بعض ذوى المصلحة ، ذهبت بالجسر السائد للفرعونية ، وأحيت المنازعات القديمة بين أولئك المزارعين ، فرأى ( محمد على ) أن يفض الخلاف بينهم فضا نهائيا : فسدّ الفرعونية مجاز من البناء الثابت المتين ؛

وعوض على أهل مديرية البحيرة والجانب من الدلتا، الذين كانوا يطالبون بفتح تلك التربة، خسائرهم الناجمة عن ذلك السد بإنشاء حدة ترع في فرع رشيد أفادتهم أكثر مما كانوا يستفيدون من ترعة الفرعونية <sup>(١)</sup>.

ولكن وسائل الري الخلفة عن المسالك كانت قليلة . ولم يكن في القطر من ترع هامة سوى بحر يوسف ، وبحر موسى ، وبحر شنين الكوم ، والبحفرية . فرأى ( محمد علي ) أنه ، رغم كل اعتناء يبذله في الانتفاع بكل ما يمكن الانتفاع به من مياه هذه الترع ، فإن جانباً عظيماً من الأطنان ذات التربة الخصبة يستمر بوراً لعدم وصول مياه النيل إليه .

فعل الرزم من اشتباكه في حروب عظمى — اضطر إلى الدخول فيها إما لحفظ الأمن في البلاد ، وإما امتثالاً لأوامر سلطان تركيا ، أو لرغبة في التوسع وفي إحياء شأن الأمة العربية — أقبل على إنشاء وسائل ري ، يعتبرها التاريخ أسطح ماسة في تاج مجده ، وخير وسام على ثوب نفه . أهمها : ترعة المحمودية والحطاطبة في البحيرة ، ومدة ترعة الحفيرية ، وترعة مسد الخضراء ، والبقيدي في الغربية ، والتمناحية ، والسرناوية ، والباجورية في المنوفية ، والبوهية ، والمنصورة ، وترعة دوده ، والشرقاوية في الدقهلية — وقد أنشأ هذه التربة الأخيرة ، لأن مزارعي الأطنان التي على الفرع الدميالحي ، على الرغم من سد الفرعونية ، لم يفتروا يشتكون من قلة المياه وعدم كفايتها لمقاومة دخول البحر الملح في النيل بالقرب من المنصورة . وأنشأها في جهة أعلى بكثير من النقطة التي يصل عندها امتزاج الماء العذب بالماء الملح : فجعل مزارع الأرض ضامنة الحصول على الماء الجيد طوال العام — ومصرف بليس ، وترعة

(١) أنظر : لبنان دى بلفون " بيان أم الأعمال بمصر " ص ٣٤٢ وما يليها .



الوادي في الشرقية ، والزعفرانية ، والباسومية ، والشرقاوة في القليوبية ، وبضع جندول أخرى في الصعيد ، لا تأتي على ذكرها ، لأن الوجه القليل ماقي قليل الري وغير منتظمه لغاية أيام (اسماعيل) .

ولم يقتصر (محمد علي) على انشاء هذه الترع ، ولكنه أقام على معظمها قناطر حاجزة ، مسهلة للري : لأنها بحفظها المياه في مستوى موافق من العلو تمكن من تسريبها إلى الأرض بمجرد قطع يعمل في هذه ، أو من توصيلها إليها بواسطة آلات رافعة كالسواقي والتوايت والشواديف . وقد أنشأ (محمد علي) منها في القطر عامة ما يزيد على خمسين ألفا . وبعض تلك القناطر على جانب عظيم من الأهمية .

وتزوج كل ما عمله في هذا الباب المفيد بشروعه في انشاء القناطر الخيرية الجليظة ، الشاسعة الأطراف ، البديعة الصنعة الهندسية ، على فرعى النيل ، في الموضع الذي أشار تاپليون الأول في مذكراته بوجود إقامتها عنده .

توسيع نطاق  
المواصلات في عهد  
محمد علي

ولم يهمل في الوقت عينه ، توسيع نطاق المواصلات ، لعلمه أنه إذا تعذر نقل حاصلات الزراعة إلى حيث يسهل بيعها بأثمان موافقة ، فلنأبى أن تلتف أو تباع بأثمان بخسة : فلا يعود الاشتغال في إتمامها يجدي ، وتبور الفلاحة مع تهادي الأيام ، ولو بلغت وسائل الري درجة الكمال ، واتسع نطاقه إلى أقصى ما يتصوره الفكر ، اللهم إلا إذا كانت تلك الوسائل طرق مواصلات أيضا .

فاجتهد أولا في جعل معظم ترع القطر الكبرى صالحة للاحة كالنيل بتطهير مجراها بين حين وحين . ثم زاد عدد المراكب المانعة فيها زيادة مطردة : فيينا كان الموجود منها على النيل ، في أيام الاحتلال الفرنسي ، سبعة من أسوان إلى القاهرة ، وتسعمائة من القاهرة إلى البحر الأبيض المتوسط ، أصبح في سنة ١٨٣٩

ثلاثة آلاف وثلاثمائة؛ منها ثمانمائة للحكومة خاصة . وذلك غير مراكب الصيد التي كانت تنخر في بحيرات البرلس والمقزلة وإدكو ومريوط .

ولما انتشر اختراع قطن الأمريكى ، وبنيت السفن البخارية أسرع ( محمد على ) وبنى لنفسه واحدة منها كلها من حديد؛ ظننا الأهل ، أول ما رأوها ، حيوانا بحريا ضخما ولد في مياه النيل حديثا . ولكنه لم يستطع تعمير استعمال ذلك الاختراع في النيل لعدم وجود مناجم الفحم بحرى في القطر .

ولم يكن ، قبله ، طرق في البلاد ، بالرغم من أن جسور الترع كانت تصلح لهذا الغرض ، لو خصصت بشئ من العناية . ولكن حكام مصر الذين سبقوه على سبيلها ، كانوا ، كلهم ، من رأى ذلك التركى الفاعل بضرر إنشاء الطرق السلطانية ؛ ووجوب تعطيل الموجود منها ، لأنها . بتسليمها نقل المرافق من مكان الى مكان ، تمكن الأجانب من غزو البلاد . وأما عندها ، فيحول دون توغل أى جيش فاتح فيها .<sup>(١)</sup>

فجعل ( محمد على ) جسر ترعة المحمودية التي أنشأها ، طريقا للورود ، واختط عدة طرق سلطانية أخرى ، أهمها السكة التي بين مصر وقصره في شبرا ، وهي من أجل ما يكون ، تظلل الأشجار الباسقة جانبيها . ونقل حاصلات الأفيان المجاورة لها الى العاصمة ، لا شكر .

على أن أهم طريق للواصلات أوجدت في أيام الباشا العظيم ، هي الطريق التي أنشأها الملازم الانجليزى ( واجهورن ) ما بين الغرب والشرق الأقصى ، وعرفت باسم " دى أوثر لاندرووت " ؛ وكانت ، ما بين السويس والقاهرة والاسكندرية ،

(١) أنظر : " مصر " لبارون دى مالوف ص ١٢٤ ( الحاشية الثانية ) ، قلا عن " برتيمم " في كتابه " الى القسطنطينية ومنها " ص ٢٤٩

ذات محطات ونظام وأدوات جعلتها مصلحة تامة المعنى ، أطلق عليها اسم مصلحة "الترانزيت" . وكانت في بادئ أمرها الإنجليزية محضة ، وكل عمالها من الإنجليز . ولكن (محمد علي) تربع حتى تدرج بتسلطه ارتكبتها مديرها : فدفع تعويضات كافية لعمالها ، وصرفهم ، وأحل محلهم عمالا من لدنه . فصار المصلحة المصرية سنة ١٨٤٥ وكانت إنجلترا منذ سنة ١٨٣٧ ، أى حالاً فرغ من مد الخط الحديدي بين لندن وليفربول -- وهو أول خطوط العالم الحديدية -- وقيل أن تمتد غيره البلاد البريطانية حينها ، قد فاقمته في أمر إنشاء سكة حديدية بين مصر والسويس ؛ وراق المشروع في عينه . فبحث من استحضر من أوروبا الأدوات والمواد اللازمة له ، وهب إلى نفاذه . ولكن فرنسا خافت أن يقول الأمر ، إذا ما تم على يد شركة الإنجليزية ، إلى استيلاء بريطانيا العظمى على القطر المصري . فعارضت في المشروع -- ولم يكن (محمد علي) في تلك الأيام يعتمد في الملمات إلا عليها -- فأبى اغضابها ؛ ورأى ، من جهة أخرى ، أن نفقات تلك السكة قد تربو على خمسة وعشرين مليوناً من الفرنكات . بين أن إراداتها قد لا تأتي بأرباح مطلقاً ، لاقتصاد منافع الخط المرغوب في إنشائه على المواصلات مع الهند ، وعدم استفادة الزراعة منه بشئ . فأهمل المشروع وطرحه في زوايا السليان .

أما أمر إثراء الفلاحين من زراعتهم وعدم إرهابهم بالضرائب وطرق جبايتها ، فإن الأيام السوداء التي آل فيها عرش مصر إليه ، والمصاعب الكبيرة الالفة ، من كل نوع ، التي أحاطت به ، لم تمكنه من تحقيقهما ، على كثرة رغبته في ذلك -- ولا أدل على هذه الرغبة من إرساله شبانا كثيرين إلى أوروبا ليتلقوا علم الزراعة الفنى ؛ ومن ابتائاته في شبرا عربة أحب أن تكون نموذجاً للعيشة الفلاحية السعيدة -- فلات

وفي نفسه من ذلك غصة : (أؤلا) لشعوره بحقيقة قول الشاعر الفرنسي : "إلى أريد . ولكن ، يا للشقاء الأكبر ! فاني لا أصنع الخير الذي أحب ، وأعمل الشر الذي أكره ! "؛ و(ثانيا) لعلبه بأن أعداء اسمه ومجده سيجدون ، في عدم تحقيقه ذنوبك الأمرين ، متسما للطن عليه ، وقشويه وجه شمس حياته الساطعة !

وبما إن المشهور عن عباس الأول ، هو أنه حامل القطر المصري كأنه بلد فتحة  
أول سكة حديدية بمصر  
بجند السيف ، فن البليهي أنه لم يكن ينتظر منه الالتفات إلى ما يعود على أهله وساكنيه بالرأفة والخير .

فاستمر الفلاح المصري ، اذا ، مقيا على أطيان لا يملك منها شيئا . واستمر يزرع وينى ما لا نصيب له في اختياره ، ويعنى محبولا لا يستطيع التصرف فيه . ولما رأى أن الحكومة أصبح يعوزها شئ كثير من الحكمة والرأفة النسبتين اللتين امتازت بهما أيام الباشا العظيم وإبراهيم المهلم ، وأن عباسا لا يهجه من أمره إلا أن يملأ خزائنه بالقود التي يصير جسمه للحصول عليها ، وأنه ، فيما عدا لذاته ، غير مشغول في شأن من الشؤون العامة ، اللهم إلا في إحلال الجنود الألبانيين وضيهم من الأتراك محل الجنود المصريين ، وتسليحهم بمسدسات أميركية — كان الشر المتدلع من طينجاتهم لا يكتفى لإلقاء الرعب في القلوب — ورأى أن مشروع مد سكة حديدية بين الاسكندرية ومصر لم ينفذ إلا رغم ارادة ذلك الوالى ، أخذت عنايته بالحقول تقل ، واهتمامه بريها ، ودفع طوارئ الحدائق عنها ، وتطهير الترع الصغرى الموكول أمر صيانتها إلى القرى ، يزول . وبات الخراب يهدد الزراعة المصرية بأسرها .

إصلاحات سعيد  
الاجرائية

فلما آل زمام الحكم الى (سعيد) هاله الأمر، وكبر عليه أن تصبح معظم نواحي القطر، بسبب إهمال الري والمواصلات وزرّوح الفلاحين تحت ثقل الضرائب الفادحة وظلّة طرق جبايتها الوحشية، قاطا مصففاً وفقراً بلقماً . وأدرك أن ما كان صالحاً ومفيداً في أول عهد أبيه، لم يعد له في عهده من موجب، بل إن ضرره الفاحش بات يرى بالعين ويلمس باليد .

فأصدر أمراً بتوزيع الأقطان، في كل ناحية، على القائمين بزراعتها ليتصرفوا في زرعها كما يشاءون . وأمر بتقييد ذلك التوزيع في سجلات خاصة، تكون بمثابة جميع ملكية لأولئك المزارعين . ولئن لم يمنحهم حق امتلاك الأرض بالمعنى الذي يفهم من هذا التعبير (لأن ذلك لم يكن ممكناً بسبب الاحتقاد السائد من أن ملكية الأرض حق من حقوق السلطان دون غيره) ، فإنه أباح لهم حق التصرف فيها فيما ورثها، على أن تكون "أثريتها" — كما كانوا واستمروا يسمونها لغاية عهد غير بعيد — لا هي بينها، موضوع ذلك التصرف . فأنعش بذلك الزراعة المصرية وجعلها تترعرع وتشتد .

وتوصلا الى استئصال كل الأشواك من سبيلها دفعة واحدة، أقبل على الضرائب، وعُدل طريقتي ربطها وجبايتها : فأبطل النظام التضامني الذي كان قاعدتها، وهو نظام — بما كان يوجب من التضامن في دفع الأموال، بين أهل الناحية الواحدة، وأهل نواحي القمم الواحد، وأهل أقسام المركز الواحد، وأهل مراكز المديرية الواحدة — كان يلزم العامل النجيب النشيط بسد العجز الناجم عن كسل رفاقه،

(١) لكل ما يروى عن سعيد في هذا الفصل، أنظر على الأخص: كتاب "مصر المحاصرة سنة ١٨٤٠

وتهاونهم ، أو جهلهم ؛ والسبب الناجم عن الفراغ الذى يحدثه الموت ، أو أى طارئ  
كان فى عدد سكان الناحية أو القسم أو المركز أو المديرية : وفى ذلك من الخبث  
والظلم ما لا يسلم به عقل .

إسقاط المتاعرات

ثم أسقط ، جملة واحدة ، كل المتاعرات التى كانت على النواحي — وكانت تبليغ  
ثمانين مليوناً من القروش ، أى سدس الأموال جميعها فى عهد (عبدلى) أبيه —  
والمتاعرات نتيجة طبيعية لسوء ربط الضرائب وسوء جبايتها .

وتنازل أخيراً عن الاحتكار التجارى الذى كان لأسلافه . فعدل ، باذنه عن أخذ  
الضرائب فعلاً ؛ وأطلق الحرية للزارعين فى بيع محصولاتهم ، أنى يشاءون ولن يشاءون ،  
وطالبهم بدفع الأموال الأميرية نقداً .

ورغبة منه فى تسهيل الانتقال عليهم من طور الى طور وجعله أمين العواقب ،  
قسط تلك الأموال على اثني عشر قسطاً شهرياً ؛ ونظم طريقة تحصيلها ، طبقاً لما  
كان متبعاً فى فرنسا حينذاك . ومنع مهلاً للدفع ، ريثما يتاح لدى المزارعين مال  
كاف . وتجاوز ، فى بعض الأحيان ولبعض النواحي المشتتة عضبة الفقر على ساعدها  
عن ضرائب سنة برمتها .

ثم أضاف الى جميع هذه النعم نعمة أخرى وهى : رفع الضرائب سنوياً ، عن كل  
أرض لا تبلغها مياه النيل ، إما لقلة فى الفيضان ، أو لائى سبب كان — مقتضياً  
فى ذلك أثر أسلافه من عواهل مصر الصالحين : كأحمد بن طولون ، والمعز لدين الله ،  
والعزيز بالله ، وصلاح الدين .

وتتبع كل ما فعل فى هذا الباب ، بإنشاء قرية للفلاحين على نظام قرى الغرب  
الريفية ؛ جعل فيها جميع أسباب النظافة والراحة متوفرة ، لتكون نموذجاً يبنى فلاحو

القطر قرام على مثاله ؛ ولكن الفلاحين أبوا إلا البقاء على معيشتهم التقذرة . ولم تمض مدة يسيرة حتى أهمل ساكنو القرية الأتموزجية منازلها الجميلة ، وابتنوا لأنفسهم عششا كالتي اعتادوا ، من صغرهم ، سكناها . فاندثرت قرية سعيد<sup>(١١)</sup> .

غير أن إصلاحاته لم تكن لتجدي الزراعة الفقع المرغوب فيه ، لو لم تقترن بإعتناء تام بوسائل الري وطرق المواصلات .

فأقبل عليهما . ولكنه ما ألقى نظره على الواجب عليه عمله في شأن الري ، حتى هالته جسامته وذلك لأن الأحوال كانت تطمر الترع التي أنشأها أبوه ، بما فيها الحمودية ؛ لقلة الاعتناء بها وقلة صيانتها ؛ ولأن أمر تطهيرها ، فقط — ناهيك بحفر ترع غيرها — كان من شأنه استفادة رجل مقدم في عدة سنوات ، فأجهم .

ولكنه — حينما أفهمه موجيل بك أن الحمودية التي كلفت أموالا وأعمالا ثمينة ، والتي تستحق الاسكندرية منها ما بها ، أن لم تتدارك حالا بالتطهير ، انطمرت بعد قليل ، وبانت غير صالحة للاستعمال ، حتى ولا للشرب — شرعن ساعد الجدة والنشاط ، وأصبر إلى المديرية الأوامر بتسيير العدد اللازم من الأنفار إلى ضفاف تلك التربة ليشغلوا في تطهيرها . فأرسلت النواحي مائة وخمسة عشر ألف عامل ؛ وخصص لكل منهم عمل يؤديه ؛ ووعد وعدا صريحا بتمريجه حالما ينجزه . فاجتهدوا ، وتباروا ؛ وبالرغم من أنه لم يسطر إلا فأسا واحدة لكل خمسة منهم ، أتموا العمل على ما يرام في ظرف اثنين وعشرين يوما فقط ؛ دون أن يموت أحد منهم ، بل دون أن يمرض أكثر من خمسة في كل ألف ، بفضل الاحتياطات والوقايات الصحية التي اتخذت .

(١١) أنظر : أدون دي ليون "معراة الديري" ص ١٢٦

فانما تذكرنا أن أكثر من اثني عشر ألف عامل من الذين حفرُوا المحمودية في سنة ١٨١٨ ماتوا في خلال عشرة شهور، ودفنوا تحت أتربة الجسرين المقامين على ضفتيها، أدركنا مقدار تقادم الأيام نحو الأحسن في غضون بضع وأربعين سنة من وجود مصر تحت أحكام الأمرة العلوية .<sup>(١)</sup>

غير أن إقدام سيد على تميم مذ السكة الحديدية بين الاسكندرية ومصر—وهي سكة افتتحها في أول يناير سنة ١٨٥٦—وإنشاء خط آخرين القاهرة والسويس؛ وإنشغال فكره في الإصلاحات التي حزم على ادخالها في حكومة السودان؛ وفي الامتياز الذي منحه المسيودي لسبس لأجل حفر ترعة السويس؛ ثم في عقد القرض الذي أودرت خلقه عباه؛ ومداومة المرض له، على أثر ذلك، مداومة همت ببناء جسمه الشديد؛ كل ذلك حال دون مثابرته على عمل تطهير الترع التي أنشأها والده، ودون التفكير في إنشاء غيرها .

إنشاء الخط  
الحديدي ما بين  
القاهرة والسويس

فلما مات ترك الزراعة في أزمة، كان لابد لحلفاء من همة شماء، ونشاط فائق، يبدلان بسخطه في سبيل ذلك .

تلك الهمة وذلك النشاط وجدنا، لحسن حظ مصر، في (اسماعيل) خليفته . فانه وقد رأيناه وهو أمير، وولى عهد فقط، يقبل على تحسين مزارعائه الخاصة بتحسينها ضاعف محصولها—معم أن يعمل للقطر، بشكل كبير واسع، ما عمل في أملاكه بشكل صغير ذي دائرة ضيقة .

فأقدم، أولاً، على إنماء مساحة الأقطان المزروعة قطناً بمصر، لاسيما في الصعيد، إنماء كبيراً . وذلك لأن الحرب الأهلية بالولايات المتحدة كانت حينذاك في أشد

إنماء اسماعيل  
مساحة الأقطان  
المزروعة قطناً

(١) أنظر: "مصر المعاصرة سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٥٧" لمرثيو (الفصل الثاني، ترعة المحمودية) .



استعارها . ونشأ عنها بوار مزارع أميركا القطنية بوارا عظيما . فتحوّلت أنظار المعامل  
السجّية البريطانية وغيرها الى القطن المصرى ؛ وأخذت تقبل على ابتياعه أيما إقبال ،  
بأثمان عالية علوا لم يكن يحلم أحد به .

فلكى بنال غرضه سريرا أعلن في عموم مديريات مصر العليا على السنة كبار موظفى  
الادارة والعمد والمشايخ عن استعداده لاعطاء المزارعين ، مجانا ، كل البذرة التى  
يحتاجون اليها ، مهما بلغت مقاديرها وقيمتها . فبينما كانت مساحة الأطنان المترعة  
قطنا في الصعيد تحرق من أربعة آلاف فدان فقط ، اذا بها قد أصبحت ، بفضل  
سعيه ودأبه ، مائة ألف فدان في نهاية سنة ١٨٦٤ أى بعد مرور أقل من سنتين  
على تبوئه سنة الإمارة .

تمليك الفلاحين  
الأطنان البائرة التى  
كانوا يزرعونها

وكان كثيرون من الفلاحين يزرعون أطنانا ، وجعلوها مهملة ، فوضعوا أيديهم  
عليها واستغلوها ، دون أن يكون عندهم حرج ملكية بها ، فيحدث كثيرا أن أهواء  
أصحاب الأمر أو الجاه في نواحيهم ، تقتنم ذلك لتزعمها من بين أيديهم متذرعين بأية  
وسيلة كانت أو ترهقهم في مطالبات مالية عليها ، تحملهم على تركها والاقلاع عن  
زراعتها ، فتعود بورا . فتتقص بذلك المساحة المترعة في القطر وتضيق على المسالية  
الضرائب التى كانت تلك الأطنان تدفعها . فنقول ( اسماعيل ) لأولئك الفلاحين حق  
استخراج حرج ملكية لتلك الأطنان ، على أن يدفعوا جانباً يسيرا من التقود بصفة  
رسوم عليها . فتهافتوا على الانتفاع بالحق المخول لهم ، وأصبحت الأطنان التى كانوا  
يزرعونها وهم متخوفون ، ملكا حرا لهم ، لا يستطيع أحد منازعتهم فيه . وباتت  
فلاحتها مضمونة ؛ والأموال المربوطة عليها ، كذلك ؛ بيد أن كان تحصيلها موكولا  
إمكانته الى طوارئ الحدثن .

على أن إنعاده (اسماعيل) كية الأطنان المزروعة في القطر إنما كبيرا لم يكن إلا باكرة  
أعماله في مضار، كان همه أن يجرى شوطا بعيدا فيه ، بقدر ماتهمه الفائدة التي تعود  
عليه منه ، بصفته أكبر مزارع في القطر .

استخدام آلات  
رافعة

فانه ما لبث أن استقدم من أوروبا عددا عظيما من ماكينات الري البخارية —  
وكان استعمالها قد شاع هناك ، وحل محل معظم الآلات الرافعة — وأقامها في أطنانه  
الخاصة . فافتدى به كبار الملاك وصغارهم ، من الباشا والبك ، الى العمدة والشيخ .  
واستوردوا من تلك الماكينات ما كاد يحصل ، بسبب الدخان المنبعث عنها والضخم  
في الأثقال ، ضفاف النيل شبيهة بصفاف التيمس .

وتسهيلا لمهمة هذه الماكينات من جهة ، ولكي يزيل من جهة أخرى الخطر  
الذي كان يهدد زراعة البلاد كلها بسبب انطمار ترع القطر بالطمي المتراكم في قاعها ،  
أقبل ، بكل همة ونشاط ، على تطهير الكبرى من تلك الترع — وكان أمر تطهيرها  
منوطا بالحكومة رأسا — وأصدر الأوامر الى المديرين بالإنشاء والنواحي والكفور  
بتطهير صغرياتها المسازة بها والملقى أمر صيانتها اليها . وشدد في تلك الأوامر تشديدا  
كفلا لهاذا . وما قى كل سنة يكلف المديرين بالإنشاء ، أيام التحريق ، في إنجاز  
الأشغال اللازمة لحفظ جسور النيل ، حفظا فعلا ، حتى تكون على أتم ما يرام ،  
في أوان الفيضان — لأنه كان قد علم بنفسه ، وهو أمير ، أن الهيئات الحاكمة ، كثيرا  
ما تهمل تلك الأشغال ، أولا توفيقا حقها من العناية ، فتصاب الزراعة والقرى بمضار  
جسيمة ، حتى في السنوات التي يكون فيضان النيل فيها عاديا .

تطهير الترع

حفظ الجسور

وما كاد يمضي على تزويجه العرش ثلاثون شهرا حتى أنشأ ، للدلالة على مقدار اهتمامه  
بالزراعة ، خمسة مجالس زراعية : اثنين منها في الوجه البحري ، وثلاثة في مصر الوسطي

إنشاء مجالس  
زراعية

والصعيد ؛ شكل كل منها من رئيس ومهندس تعينهما الحكومة ، وأعضاء على قدر عدد المراكز في كل مديرية تنتخبهم المجالس المحلية من الأعيان .

وجعل اختصاص تلك المجالس : (أولاً) الاطلاع على مشاريع كل ترميم تقتضيه الأشغال العمومية الجارية ؛ (ثانياً) درس كل مشروع خاص بإنشاء أشغال جديدة تستلزمها المنفعة العامة . فإذا وافق الأعضاء على شيء من ذلك ، وزعت الأموال اللازمة لتنفاذه على الجهات بنسبة مقدار استفادتها منه ومقدار نصيبها في إجرائه ؛ (ثالثاً) وعلى الأخص الاهتمام في تحسين الشؤون الزراعية سواء أكان ذلك بالنصائح والإرشادات والتعليقات التي تلقىها على الفلاحين ، أم بتشجيع كل ما من شأنه أن يوجد رقياً في أصناف المزروعات ويزيدها جودة . فأدى ذلك الاهتمام إلى اكتشاف أحد اليونانيين نوع القطن المدعو "يوانوفيتش" ورواجه في القطر : وهو صنف قطن كان له ، في أيامه ، الشأن الذي بلغه في أيامنا الصنف المعروف باسم "مسكلاريدس" ، ومكتشفه ، وأدى ، في سنة ١٨٧٣ ، إلى اكتشاف أحد الأقباط ، بالقرب من بركة السبع ، شجيرة قطن دعاها "قطن البامية" لمشابتها لشجيرة الباميا ، وأتى ، إذ اضمحلت بزراعتها ، بثلاثة أضعاف محصول شجيرات القطن العادية . وبيع إردب بذرتها بثمن تراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين جنيهاً ، بينما أن إردب البذرة الأخرى لم يكن يباع إلا بجنيه فقط .

وأنشأ فوق تلك المجالس ، وزارة الزراعة التي أشرنا إليها ؛ وعهد بها إلى أكفا وجاهل وهو نوبار باشا ، ليكون مرجع تلك المجالس إليها : فتجدد من حكمة الوزير الذي على رأسها غير مستند لآرائها وأعمالها .

ولكن إنماء عدد الأطنان الزراعية؛ واحضار ماكينات بخارية، بمصاريف كثيرة، من البلاد الأوروبية؛ وانارتها بمصاريف تكاد لا تقل عن جملة أثمانها الأصلية؛ وتوسيع نطاق الإدارة الزراعية؛ كل ذلك كان يوجد لدى ينطبق الكنته على المظهر ويكون الصيد في جوف الفراخ، ألا يكفي بتطهير الترع القديمة وصيانتها، والاعتناء بوسائل المواصلات الموجودة وحفظها، بل أن يوجه الجهد إلى الاستفادة من مخترعات العصر، لإنشاء ترع جديدة، ووسائل مواصلات حديثة، تكون وافية بالحاجة .

ولم يكن (إسماعيل) الرجل الذي يفوته ذلك، لا سيما وأنه — مذجعل لنفسه مرتباً سنوياً، وفصل، بذلك، بين ماله الخاص ومال الخزينة المصرية — أقبل لإقبالاً عظيماً على إنماء ثروته العقارية؛ وأخذ نظار مزارعه ومفتشوها — لا سيما إسماعيل المعروف "بالمفتش" — في جميع أنحاء القطر، يبدلون من المجهود، وتفتيق الذهن، والتفتن في حمل الفلاحين على بيع أطيانهم إلى سموه، ما صير، في أقل من ثلاث سنوات، خمس أطيان القطر الجيدة ملكاً له .

ولما كان معظم تلك الأطنان في مصر العليا؛ وكان هذا الجزء من القطر قد أعوزه جانب عظيم من العناية التي أحاط (محمد علي) الوجه البحري بها — وإن يكن قد عهد، في أواخر مسمى حياته إلى لئان بك رئيس مهتمسى ديوان أشغال، أمر تحسين وسائل الري فيه — فأتى أهله ومزارعوه متألمين من قلة تلك الوسائل، فإن (إسماعيل) بدأ في الصيد بتنفيذ الخطة التي وضعها لنفسه بخصوص الاختار من حفر ترع وجداول جديدة في القطر . وأنشأ، غربى النيل، التربة العظمى التي سماها "الابراهيمية" إكراماً لذكر أبيه : وهي ترعة تخرج من النيل بالقرب من أسيوط؛

التوسع في تسمية  
وسائل الري

ية الابراهيمية

وحرصها، من مبدأها لغاية ثلث مجراها، ثلاثمائة قدم؛ وأما عرض الثلثين الباقيين  
نهمسون قدما . تفسير ما بين ديروط وما فوق الواسطة بقليل ، أى مسافة تسعين  
ميلا، على موازاة بحريوسف ، راوية مديرتى أسبوط والمنيا، وجميع الأطيان ما بين  
البهنسة والسلسلة العربية . ثم تستمر متجهة نحو الشمال حتى تصب في فرع رشيد.

ولما كان الحكم ، الذى أصدره نابليون الثالث في مسألة الخلاف القائم بين  
الحكومة المصرية وشركة ترعة السويس ، قضى بتقضى هذه الشركة للحكومة المصرية  
عن كل حق في مد التربة ذات الماء العذب من مصر الى السويس وبور سعيد ،  
التي كانت الشركة مباشرة حفرها ؛ وإلزام الحكومة المصرية بمثلها ، هم ( اسماعيل )  
في الوقت عينه ، بنفاذ ذلك الحكم ؛ لا سيما أنه كان شديد الرغبة في إحياء  
ما يستطيع إحياءه من أرجاء الصحراء العربية الشمالية : فلم يرض إلا زمن يسير  
وسارت مياه النيل تهادى في مجرى التربة ، المحفورة ما بين بولاق والسويس ،  
والمندوحة بالاسماعيلية اكراما لمفئتها . وأصبحت الملاحة ميسورة فيها حتى للسفن التي  
حملت أربعمائة طن فانتعشت أرجاء شاسعة من الصحراء العربية ما بين مصر  
والسويس ؛ وعلى الأخص ما عرف منها ، فيما بعد ، باسم "تفتيش الوادى" — وهو  
أرض «جسان» التي أقطعها يوسف بنى اسرائيل ، على ما جاء في التوراة . وبوصول  
ماء النيل العذب باستمرار الى مدينة السويس ، لأول مرة منذ نشأتها ، أمكن هذا  
التفرغ أن يكبر بسرعة عجيبة ويزداد سكانا وأهمية تجارية .

وكانت القناطر الخيرية أوشكت أن تخترب ؛ تلك القناطر التي أنفق الباشا العظيم  
على تشييدها بمعرفة لبنان بك أولا ، وموچيل بك بعده ، أموالا طائلة وزمنا مديدًا ؛  
وحادثته نفسه ، يوما ، لتشميل بنائها ، بهدم الاهرام الأبدية واستخدام حجارتها

الضخمة فيه<sup>(١)</sup> بل أصدر أمره بذلك فعلا الى لبنان بك؛ وصمم على نفاذه؛ لولا أن هذا المهندس أقنعه بالأرقام، بأن ثمن المتر المكعب من الحجر الذى يستخرج من هدم تلك الآثار الفرعونية، يكلف عشرة قروش ونصفا، بين أن المتر المكعب المستخرج من المحاجر، لا يكلف أكثر من ثمانية قروش ونحسة وسبعين فضة<sup>(٢)</sup>؛ تلك القناطر، التى مات ذلك الباشا العظيم، وهى بعيدة عن التمام؛ وما زال موجيل بك، بسده، يلح على عباس خليفته بنجازها، لادراك فائدتها، ويكلا تضيق ثمة الأموال الكثيرة التى أنفقت والمتاعب الجسيمة التى كابدت، حتى أجا صبره وحمله على أن يقول له ذات يوم، هو أيضا، وهو يشير الى الأهرام: «إنى لا أدرى ما الفائدة من وجود تلك الجبال من الصخور المرصوبة فوق بعضها، فاهذب وأهدمها واستخدم حجارها فى تعيم عمل القناطر!» فاضطر موجيل — لكى يخلص من تنفيذ أمره، كان مجرد التصور أنه المنفذ له، وأن اسمه سيمر، اذا، الى العصور التالية، ونست «هادم الأهرام» مقرون به، يوقف يشعر رأسه رجا — الى إعادة عمل لبنان، وعرض تقرير تفصيلى بالنقطة اللازمة على ذلك الوالى الظناني. ولم لم يكن عباس يدرى من الأرقام شيئا، اقتكرها خدعة من المهندس الغربى، قصد بها الفرار من تنفيذ أمره: فالتقى نظره شزرا، على ذلك التقرير؛ وقال لموجيل: «ما هذا؟» فافهمه موجيل مضمونه بدقة، حتى حمله على الاقتناع بأن هدم الأهرام

(١) أنظر: دونه "مصر مرحلة مرحلة" ص ٣٨٩؛ وانظر: لبنان دى بلقون نفسه فى مؤلفه المنون "بيان أم الأعمال التى تمت بمصر منذ عهد القراءة الى الآن".

(٢) وانظر: لبنان دى بلقون "بيان الأعمال التى تمت بمصر منذ القدم الى الآن"؛ وانظر: "حوادث ووقائع مصر" لسيبيون ماريين ص ١١٠ وما يلحقها.

يكلف أكثر من استخراج الحجارة من محاجرها بكثير؛ فقال له عباس حينئذ : « دعني ، اذا ، من شأن نعيم قناطر<sup>(١)</sup>ك ! » .

تلك القناطر؛ التي كان أقل ما فيها من فائدة اغناؤها عن خمسة وعشرين ألف ساقية وشادوف ، ورى أربعة ملايين من الأقدنة ؛ فكيف بها ، وهى ، بمنها استمرار انصراف مياه فرع دمياط الى فرع رشيد ، لانخفاض مجرى هذا عن مجرى ذلك ، تمنع الشرق عن كل الأهلان الواقعة شرق ذلك الفرع ؟

تلك القناطر؛ التي بالحال التي هى عليها ، وبالرغم من قصها ، كانت محط الإعجاب وموضع الفخر الأبدى .

هذه بالنسبة لمروء كل حكم عباس وسعيد عليها دون أن تميز أو ترم ، كانت قد أخذت تؤول الى السقوط ، وكما قلنا ، فاستدعى ( اسماعيل ) المستر فورل ، أكبر مهندسيه ، وكلفه باتمام عملها ، حتى يبلغ درجة الكمال ؛ وألا يألوف ذلك جهدا حتى يفرغ منه ، مهما كلفه من نفقات ، أو استدعى من عمال .

إنجاز القناطر  
الغيرية

فاشتغل المستر فورل في ذلك العمل ثلاث سنوات ، حتى تمكن من إنهائه . وأبرز في سنة ١٨٧٨ القناطر الخيرية في حلتها القشبية التي كان ( محمد علي ) يود أن يراها فيها لتقريبها عيناه .

فقلد ( اسماعيل ) بذلك ، الوجه البحرى طامة ، منة ليس بعدها منة ؛ وأولى البلاد خيرا لو لم يولها غيره ، لكنى !

ولكنه لم يقف في عمله عند ذلك الحد . بل ما فتى يفتح مجارى ترع ويلبث إنشاء ترع عديدة جدادول ، حتى إنه لم تنقضى أيام ملكه إلا وقد خُدت منها في الأرض المصرية أكثر

(١) أنظر : " مصر الخديوية " لأدون دى ليون ص ٢٦٣

من مائتين استندحت حفرا زاد ٦٥٪ على ما أوجته ترعة السويس، على قول المستر فولر؛ وبلغت نفقاتها ما يقرب من ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات؛ وطولها ما يزيد على ثمانية آلاف وأربعمائة ميل؛ كما أثبت المستر ملهل في "الكتمبرورى ريفو" (أكتوبر سنة ١٨٨٢)؛ وبلغت مساحتها المائية مائة ألف ميل مربع.

ناهيك بزيادة الآلات الرافعة عما كانت عليه في أيام (محمد على) زيادة هائلة؛ حتى بلغ عند السواقي في سنة ١٨٧٧ ثلاثين ألفا وأربعا وثمانين؛ والشواذيف سبعين ألفا ومائة وثمانية وخمسين؛ والتوايت ستة آلاف وتسعمائة وستة وعشرين؛ والمكينات البخارية أربعمائة وستة وسبعين؛ واشتغل فيها أكثر من ستين ألف حيوان، ومائة وثمانية وخمسين ألف رجل كل مائة وثمانين يوما.

ازدياد الآلات  
الرافعة ازديادا  
ظها

وناهيك بالجارى الذى أقامها على تلك الترع وعددها أربعمائة وستة وعشرون كبريا؛ منها مائة وخمسون في مصر العليا، ومائتان وستة وسبعون في الوجه البحرى؛ علاوة على ثمانية جارى مخضمة أهمها كوبرى قصر النيل الفعخ، الذى قلما كان له مثيل في تلك الأيام، في الملمين الغربى والشرقى معا؛ وعد من أنغرا أعمال العالم الهندسية. وقد بلغ ما أنفق على تشييدها كلها مليونين ومائة وخمسين ألف جنيه!

إنشاء الجارى

فأدى هذا جميعه الى زيادة ما يقرب من مليون ونصف مليون من الإقذنة، على مساحة الأرض المزروعة في القطر، يربو إيرادها السنوى على أحد عشر مليونا من الجنيهات، ثمن محصولات؛ وتزيد إيجاراتها، في ذلك الوقت، على مليونين.

زيادة الأطنان  
الصالحة للزراعة

ولعلمه أن تحسين طرق المواصلات يجب أن يقترن دائما بتحسين وسائل الرى، مهد أكثر من ستة آلاف ميل من السكك الزراعية، في القطر عامة، ولا سيما

تحسين طرق  
المواصلات



في الوجه البحري . ولمناسبة زيارة الامبراطورة أوجيني للبلاد المصرية في سنة ١٨٦٩ أنشأ ، في أقل من ثلاثة أسابيع ، السكة الجبلية الموصلة من برج الحية المقابل مصر الى الاهرام ، والمغروسة ، على جانبيها ، بالانحجار الباسقة التي جعلتها أهم متزهات سكان القاهرة وأبيها .

ولما كانت السكك الحديدية والتلغرافات أكبر وسائل للواصلات أوجدتها العلم الحديث ، كان من البديهي أن يخصصها (اسماعيل) بأكبر جانب من عنايته في سبيل احياء الزراعة من مواتها .

فلما ارتقى العرش المصري ، لم يكن في القطر كله سوى الخط الحديدى الواصل ما بين الاسكندرية ومصر وطوله مائة وثلاثون ميلا ؛ والخط الواصل ما بين بنها والزقازيق وطوله أربعة وعشرون ميلا ؛ والخط الواصل ما بين مصر والسويس عن طريق بلبيس وطوله تسعون ميلا ؛ أى ما كان مجموعه مائتين وأربعة وأربعين ميلا .

تسمي السكك  
الحديدية في القطر

فزاد ، هو ، على ذلك أكثر من ألف ومائة ميل . فانه هو الذى أنشأ الخطوط : من بولاق الى ايتاي البارود ؛ ومن الاسكندرية الى رشيد ؛ ومن طنطا الى دسوق ، وإلى زفتى ، وإلى دياط ، وإلى شبين الكوم ؛ ومن الزقازيق الى المنصورة ؛ ومن بنها الى ميت بره ؛ ومن قليوب الى القناطر ؛ ومن الزقازيق الى الاسماعيليه والسويس على محاذاة التربة البحرية ؛ ومن أبو كبير الى الصالحية ؛ ومن مصر الى حلوان ، وإلى المرج ؛ ومن بولاق الدكرود الى أسيوط ؛ ومن الواسطى الى الفيوم ؛ ومن أسوان الى الشلال الأول ؛ علاوة على ستين ميلا تحويلات . وإذا حرقنا أن التفقات اللازمة لمذ ميل واحد من هذه السكك كانت تبلغ ، عادة ، نيفا وأحد عشر ألف جنيه ، فانا لن

نستغرب أن يكون ما صرف على انشاء جميع هذه الخطوط قد تجاوز الثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات .

إصلاح إدارة  
السكك الحديدية

على أن ما هو أهم من أمر انشاء السكك الحديدية ، أمر اصلاح ادارتها ؛ فقد كانت في أيام عباس ، بل في أيام سعيد حينها ، فوضى لا ضوابط لها : يركب المسافر في قطاراتها ، وهو غير متأكد من صدق مواعيد قيامها ، ولا من بلوغه المكان الذى يقصده ، لكثرة ما يتور القيام والطريق من عراقيل وموانع . فقد يكون القطار على أهبة السفر من محطة الاسكندرية مثلا ، فيأتى ناظر المحطة رسول من قبل قنصل من القناصل العامة ، أو خصى من لدن أحد الباشاوات ، أو البيكوات الأتراك ، ويأمره بتأجيل ميعاد قيام القطار ريثما يأتى القنصل أو الباشا أو البيك ، أو حرم أحدهما . فيؤجل الناظر الميعاد ، ويقم المسافرون على أحر من الجمر فى انتظار مجيء حضرة القنصل أو مساعدة السرى التركى وحره ؛ وربما طال انتظارهم ساعات . وقد يكون القطار مسافرا ، فتعطل عدته ؛ أو يخرج عن الخط لجهل السواق ؛ أو يصادفه مانع آخر ، كارسال أحد باشاوات الريف رسولا الى إحدى المحطات ينهئها بحجز القطار لحين تشريفه ، فيقف فى الطريق ساعات وساعات ؛ وأحيانا ، أيا ما ، ريثما يزول أو يزال ذلك المانع .

ويمكن ، فى هذا الموضوع ، أن القطار تعطل مرة فى محطة طنطا وفيه تجار من الإنجليز قادمون من الهند وذاهبون ببضائعهم الى الاسكندرية ؛ فبعد أن عيل صبرهم من طول الانتظار ، ذهبوا لينثوا شكواهم من التأخير الى ناظر المحطة ، وكان انجليزيا ؛ ولكنه تريا بزي البلاد وطمع فى عوائدها ؛ وتظاهر بعدم معرفة غير التركية والعربية فرارا من شكوى الأجانب — لاسميا من بنى جملته — الكثيرة ؛

حكاية ناظر محطة  
طنطا والمسافرين  
الانجليز

وابتغاء للتمتع بقلعة الاهتمام بالأمور وعدم المبالاة بتضييع الوقت، الخصيصتين بنا، معشر الشرقيين، في تلك الأيام؛ واتخذ لنفسه مترجما بينه وبين الغربيين — فوجدوه في حجرتهم، جالسا على أريكة، يدخن شيشة عجمية، ولا يعنيه من الدنيا إلا التلذذ بها والنظر إلى الدخان المتصاعد منها في الفضاء، على هيئة أنصاف دوائر. فأفروا جعبة تشكيكاتهم أمامه بالانجليزية؛ ومترجمه المصري يترجمها له بالعربية. وهو لا يبالي بها ولا يزداد إلا تدخيننا، كأنه لا يفهم الانجليزية ولا العربية؛ أو كأن الحديث غير موجه إليه. فاحتدم غيظ أولئك التجار، وقالوا للترجم: «قل لشيخك هذا الأبله أن يبطل جعل نفسه مدسنة، ويثقت إلى ما نحن فيه؛ وإلا، شكرناه إلى قنصلنا العام بالاسكندرية، ورجوانه أن يطلب من سمو الوالي، أن يركله من وظيفته ركلا!» فضحك الناظر، بين أسنانه، لما سمع ذلك؛ ولكنه استمر متظاهرا بعدم فهمه الانجليزية، واستمر على عدم مبالاته بقولهم، بعد أن ترجمه مترجمه له. ولم يتنازل إلى إجابتهم عن لسانه إلا بعد مدة، ليقول لهم: «على رسلكم! تمهلوا فالأمور مرهونة بأوقاتنا!» وأضاف، لكي يشهد لهم أنه شرفي تماما، التعبير الشرقي المتداول، عادة، على الألسن، لحمل قليل صبر على الصبر؛ وهو: «إن الله خلق العالم في ستة أيام!» نخرجوا من حضرتهم وهم يلحنونه ويمرقون الأثر.

وكان (سميد)، بعد إعراضه عن نوبارمئة ثم إقباله عليه، قد عهد إلى ذلك الرجل الحازم — ولم يكن، حينذاك، إلا بيكا — أمر ادخال الإصلاح في تلك الإدارة المختلفة. <sup>(١)</sup> فينزل نوبار جهده. ولكن الخلل كان متصلا أيما تأصل. فلم يستطع تلافيه تماما، لا سيما أن السكك الحديدية كانت ملكا للوالي. وكان تغلب

(١) أنظر: "نوبارباشا".

أهواء (سعيد) السريع ، من جهة ؛ وميله ، من جهة أخرى ، الى إرضاء ذوى المالة من التجار القريبين ، والذوات ، وبهزاريه ، والقناصل العاتة خاصة . ولا سنيا ماباتييه ، القنصل الفرنساوى الذى كان سعيد يقول عنه ، هو نفسه ، انه لم يكن يستطيع مقابلته الا ويشعر بوجف غريب في قلبه وتيبب يحمله على الرضوخ لطلباته ، أية كانت<sup>(١)</sup> — يحولان دون استتباب قدى إصلاح قطعى عام .

واستمرت الحال كذلك في أيام (اسماعيل) الأولى : لأن مفتشى مزارعه وبيجار مستخدمين دائرته الخاصة ، لعالمهم أن السكك الحديدية ، بالرغم من كونها مصلحة عامة ، ملك خاص به ، كثيرا ما كانوا يتجاوزون حدود الاعتدال في تصرفاتهم مع إدارتها ، لا سيما في مواسم القطن . فيحتكرون القطارات ، ويعطلون سفر بضائع التجار عامة ، حتى يفرغوا من شحن بضائع مولاهم الخاصة وتسفيرها ؛ فيصيب التجار من جراء ذلك ، خسائر جسيمة . لتأخيرهم الاضطرابى عن تسليم بضائعهم في الأوقات المحددة لتسليمها . ويحمل النفيظ بعضهم أحيانا ، على ارتكاب أعمال لعة ، يعضدهم قناصلهم فيما بعد ، على الخروج منها بدون أذى . مثال ذلك ما فعله أحد تجار اليونان . فانه ، لما أيقن أنه ، بسكوته على تصرفات أولئك المفتشين والمستخدمين ، وتأخره عن تسليم الأقطان التى اشتراها الى المحلات التجارية التى باعها لها ، قد تصيبه خسائر فادحة ربما ذهبت بكل ثروته ، استأجر عدة أشخاص من بنى جنسه ، وأقامهم على المحطة المكسدة أكياسه فيها ؛ ولما وصل قطار البضاعة المحمل أقطان سمق الوالى ، أوقفه ، بواسطتهم عنوة ، وأفرغ مشحونه ؛ وشحن أقطانه فيه ببله ؛ وأجبر سواق القطار ، إرهابا ، على السير بها الى الاسكندرية .

حكاية الخابر  
اليوناني الرشح

(١) أنظر : "مصر" للورق .

على أنه ما تفتئت الأيام بملك (اسماعيل) ، إلا وقد تناول ظل الإصلاح جميع فروع إدارة السكك الحديدية ؛ لا سيما بعد أن اتخذ (اسماعيل) سؤاها لقطاراته الخاصة السواقي الذي كان لنايليون الثالث ؛ وسمع شاء جميلا على عافظة ذلك العاهل على مواعيد أسفاره بدقة<sup>(١)</sup> ووقف بنفسه ، عقب رحلاته الأوروبية ، على نظام السكك الحديدية في أوروبا . فترتبت مواعيد سفر القطارات ووصولها ، ترتيبا ، لم تدخل عليه الأحوال التاليات إلا تعديلات طفيفة ؛ وانتظمت انتظاما لم يعد للخل إليه من سبيل إلا نادرا .

حينذاك أخذ (اسماعيل) يفكر في إنشاء سكك حديدية في السودان ، ترويحيا للزراعة فيه ، وللتجارة بينه وبين القطر المصري .

الانكدام على انشاء  
سكك حديدية  
في السودان

فكلف المستر فولر بدرس الموضوع درسا دقيقا وتقديم تقرير واف عنه — وكانت طبيعة الأرض بين أسوان والخرطوم قد درست قبل ذلك في سنة ١٨٦٥ درسا حسنا — فنهب ذلك المهندس الإنجليزي إلى وادي حلفا ، وقضى عدة أسابيع ، متجوّلا في ربوع النوبة والسودان الشرق وبطاحها ، يقيس ، ويبحث ، ويحسب ويفحص مباحث أسلافه . ثم عاد وقدم تقريره إلى الأمير ، مشيرا بعمل سكة حديدية من وادي حلفا إلى المتمة — وطولها خمسمائة وخمسون ميلا — وأخرى من شندى إلى كسلا ، فصنوع — وطولها خمسمائة ميل — وقدر نفقات الأولى بأربعة ملايين من الجنيهات ، منها مليونان ونصف ، أجرة المهندسين والعامل من الفريج وثن الأدوات اللازمة ؛ والباقي أجرة العمال المحليين وثن المباني الواجب إقامتها . وقرر

(١) انظر : ليك "مصر الأخيرة" ص ٧٨

نفقات السكة الثانية بأربعة ملايين مئطها، ولو أنها أقصر طولاً من الأولى، لزيادة  
الابتعاد عن مصادر الأدوات، ووجوه المسالك<sup>(١)</sup>.

فاحمد (إسماعيل) تقريره وبدئ في العمل سنة ١٨٧٣ وبعد أن سير فيه أكثر  
من ثلاث سنوات، وأفق عليه ما يزيد على أربعمائة ألف جنيه، وأخذت بشائر  
الخير العميم تبدو من خلال الخطوط الموضوعة، اضطرب الدائنون الأجانب الحكومة  
المصرية إلى توقيفه وإطاله ضيقاً منهم بالنقود. فلم يقضوا، بذلك، على مصلحة  
تجارية وزراعية عظيمة، فحسب، بل على حياة السودان فيها، مدة تليف على ربع  
قرن، ومكثوا الثورة المهدية من الانتشار، فيما بعد، فوق ريوحه وتجرىبها، ونشر  
ظل الموت عليها : لأنه لا يختلف اثنان في أنه، لو كانت السكة الحديدية مجتازة  
بجهات السودان، بعد قيام المهدي محمد أحمد، لتكثرت الحكومة المصرية من القضاء  
على دعوته، ولما نسجت الأيام أكفان حملة هكس باشا، ولا نعتت روح  
جوردون ضحية تباطؤ الحكومة الإنجليزية في إرسال التجندات إليه، وتباطؤ (ولسل)  
الاضطراري في السير بتلك التجندات إلى الخرطوم لتقاذه<sup>(٢)</sup>.

وتلا انتشار السكك الحديدية، انتشارها العظيم، تشعب مد الأسلاك البرقية  
في البلاد.

إقامة الأسلاك  
البرقية وإنشاء  
مكاتبها

(فحمد على) كان قد أنشأ ما يقوم مقامها، على ما هي عليه الآن، أبلية مرتفعة  
ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة. وبين البناء والبناء من المسافة ما لا يحجب  
نظر قمة كل منهما من قمة الآخر. وأقام على كل بناء آلة على طريقة (شاپ) لتفراق<sup>(١)</sup>  
١٣٥

(٢) أنظر : ماك كون "مصر كما هي" ص ٢٣٩ والخوف عنه في "مصر تحت حكم إسماعيل" ص ١٣٥  
(٢) أنظر : مالورني "مصر" ص ١٤٧

حكومة الكشفسيون الفرنسية الرهيبية ، ترسل الأبناء الى آلة البناء التالي ؛ وهذه توصلها الى التي بعدها ؛ وهم جراً <sup>(١)</sup> .

فلما انتشر في أميركا وأوروبا اختراع المستر سامويل مورس الأمريكي — وهو التفراف الحالى — أدخله (سعيد) الى القطر ولكنه لم يمتد من أسلاكه إلا شيئاً يسيراً . فلما استلم (اسماعيل) زمام الحكم بيده القدرة ، أقبل على هذا الفرع أيضاً من طرق المواصلات العمومية ، ونفخ فيه من روحه : فتشعبت الأسلاك التفراعية في البلاد تشعباً مذهشاً في مدة وجيزة حتى بلغ طولها خمسة آلاف ونعمائة ميل ؛ فيها من السلوك ما طوله عشرة آلاف ونعمائة ميل ، موزعة كالآتي :

من مصر الى الاسكندرية...	... ..	١٤٢	ميلا على سبعة أسلاك .
» » ضواحيها...	... ..	٣٢	» » سلكين .
» » حلوان...	... ..	١٨	» » سلك واحد .
» » قلوب والقناطر...	... ..	١٧	» » سلكين .
» » اتناى البارود...	... ..	٧١	» » سلك واحد .
» » السويس عن طريق بلبيس	... ..	١٥٤	» » » »
» » المنصورة عن طريق قلوب	... ..	٩٦	» » سلكين .
» » أبى كبير للصالحية...	... ..	٢٥	» » » »
» » بنها الى ميت بر...	... ..	٩	» » أميال »
» » الزقازيق والسويس	... ..	١٢٣	» » ميلا »

(١) أنظر : مانجمن "تاريخ مصر في عهد محمد علي" ص ٢٤١

- من طنطا الى طنطا وديساط ... ٧٣ ... ميل على سلكين .
- » » » زقى ... ٣٣ ... » » »
- » » » دسوق ... ٤٧ ... » » »
- » » » شين الكوم ... ١٩ ... » » »
- » نشرت » دفر الشيخ ... ١٠ ... أميال » »
- » الاسكندرية الى ضواحيها ... ١٢ ... ميل » »
- » » » رشيد ... ٤٦ ... » » »
- » دمنهور الى العطف ورشيد ... ٥٠ ... » » »
- » بورسعيد » السويس ... ٩٦ ... » » » سلك واحد .
- » » » القنطرة ... ٢٦ ... » » »
- » مصر الى غزة عن طريق بنها ... ٢٨٨ ... » » » سلكين .
- » » » أسبوط ... ٢٣٩ ... » » » ثلاثة أسلاك .
- » الواسطى الى الفيوم ... ٢٥ ... » » » سلكين .
- » بيا الى الروضة ... ٩١ ... » » »
- » أسبوط الى ابي تيج ... ٥ ... أميال » »
- » » » أسوان ... ٣٠٠ ... ميل » » »
- » قنا » القصير ... ١٦٤ ... » » »
- » أسوان » انحرطوم ... ١٠١٢ ... » » »
- » بربر الى كسلا ... ٤٠٧ ... أميال » » » سلك واحد .
- » كسلا الى مصبوع ... ٤٤٧ ... ميل » » »



من كسلا الى سواكن... .. ٣٠٠ ميل على سلك واحد .

» الخرطوم الى الأبيض... .. ٤٠٧ أميال » »

» » المسلمية وستار ... .. ١٦٢ ميلا » »

وأُنشأ مكاتب لهذه الأسلاك البرقية في كل مدينة وبندر وناحية كبيرة على طول مسافات امتدادها ؛ وقسمها الى ثمانية أقسام ، وهى :

(١) محطات الوجه البحرى ؛ (٢) ماين مصر وأسيوط ؛ (٣) ماين أسيوط  
واسنا ؛ (٤) ماين اسنا وادى حلفا ودقلا ؛ (٥) ماين دقلا وبربر ؛  
(٦) ماين بربر والخرطوم ؛ (٧) ماين الخرطوم ومصوع ؛ (٨) ماين مصر  
وسوريا . وجعل ثمن الاشارة البرقية ذات العشرين كلمة علاوة على السنوات  
عشرة قروش صحيحة فى كل قسم . وجعل لغة التراسل : جنوبى مصر ، عربية ؛  
وشمالها ، عربية أو فرنساوية أو انجليزية أو تليانية أو تركية . وأقام على إدارتها المستر  
جورج الانجليزى وأفاض أمر هندستها بالمستر هوزبورن الذى أنشأ أسلاك السودان .

وفى عهده ، وبتصريح منه ، أنشأت الشركة الانجليزية الشرقية خطا بين  
الاسكندرية والسويس ودا وراء البحر الأحمر ؛ وآخر عن طريق صحراء شبه جزيرة  
سينا الى سوريا والأناضول . وأنشأت شركة ترعة السويس خطا خاصا بها على طول  
الترعة ماين بورسعيد والسويس . وأصبح الاتصال بأوروبا والقارات الأخرى  
ميسورا إما عن طريق غزة وإما بواسطة الشركة الانجليزية الشرقية كالاتى :

من الاسكندرية الى الأستانة عن طريق كريت ورودس وأزمير .

» » » » أوترنتو » » » » وفاق .



الأجنبية وبعض أفراد من الجاليات الغربية على إنشاء مكاتب بريدية في الاسكندرية ومصر وغيرها ، لاستمرت البلاد المصرية محرومة من التواصل البريدي كما كانت في عهد المماليك .

وأشهر أولئك الأفراد السلخور موسى الايطالى — وكان ، لغاية سنة ١٨٦٥ ، قائما لحسابه الخاص بأعمال بريدية عامة في العاصمة ؛ يساعد حمله مستخدمين بأجور يدفعها اليهم على استلام الخطابات والمراسلات حتى الرسمية منها وتصديرها الى جهاتها وتسليمها الى أربابها .

فرأى ( اسماعيل ) أن استقرار وسيلة مهمة كهذه من وسائل المواصلات في يد ادارة فردية ، مع احتياج الحكومة نفسها اليها ، لأمر يشين الحكومة المصرية كثيرا لأنه ينم عن تأخرها في المضمار الجارية فيه الدول المتقدمة . فاشتري مصلحة البريد من ذلك الايطالى الدشيط بمبلغ ستة وأربعين ألف جنيه ؛ وأتم عليه بقلب بك ، وأقامه مديرا لها ، وخصص له ، في ميزانية حكومته ، مبلغا وفيرا لينفقه على تحسين نظامها وترقية شؤونها .

فأبقى موسى بك مستخدميه القدماء فيها — وكان معظمهم من الايطاليين ، وباقيهم خليطا من السوديين والفرنسيين والجريك والتمساويين والروس والمصريين — واجتهد في إنماء عدد المكاتب وحركة التراسل ، بجملة إصلاحات أدخلها على مصلحته تباعا .

وفي سنة ١٨٧٦ طلب اقالته منها . فتمحه ( اسماعيل ) مكافأة سنوية ؛ وعين خلفا له انجليزيا يقال له المستر كليار ( وهو الذى أصبح فيما بعد ، كليار باشا ؛ وعين مديرا عاما للجهاز المصري ؛ وترك لنفسه أثرا جميلا في قلوب المصريين ) ولما رأى المدير

الحديد أن عدد المستخدمين أكثر مما يستدعيه العمل ؛ وأن معظمهم لا موجب لوجودهم في المصلحة إلا دالتهم على بعض كبار موظفيها ، صرف ربههم وأبدل بكتيرين من الباقين غيرهم من الأكفاء ؛ وبالخليط ، أولاد عرب بالتدريج .

وبعد أن نظم أقلام الإدارة العامة ، أقبل ينشئ مكاتب جديدة في القطر حتى أبلغ عددها الى مائتى مكتب وعشرة ، فيها ثمانمائة وثلاثون مستخدما ، علما عن ثلاثمائة واثنين وأربعين جمالا وبربريا . وجعل توزيع المراسلات يوميا بين مصر والاسكندرية وجميع الجهات المهمة ، بعد أن كان أسبوعيا أولا ، فثلاثا في الأسبوع . وما تقي يحسن فيه حتى صيره الى ثلاثة وأربعة وخمسة توزيعات في النهار على محطات السكك الحديدية الكبرى . ولما كان عدم انتظام الشوارع وعدم تجميل المنازل في المدن والبنادر يحولان دون توزيع المراسلات على أبواب البيوت ، ويوجان حصرها في شبايك المكاتب ، أنشأ في العاصمة صناديق خاصة لمراسلات من شاء الاشتراك فيها من التجار والأعيان .

فبلغ عدد المراسلات في سنة ١٨٧٨ مليونين ونصفا ، معظمها تجارى . وبلغت قيمة النقود التي تصدرت ، صرا ، من عموم المكاتب ، عشرة ملايين من الجنيهات . وما من شئ أبلغ من هذه الأرقام في بيان مقدار الخدمات الجليلة التي قامت بها مصلحة البريد بعد أن جعلها ( اسماعيل ) مصرية .

على أنشاء ، اذا علمنا أنها قامت بها ، ومصالح بريد أوروبية بجانها في الاسكندرية ومصر والسويس ، تراحمها في أعمالها ، وتستدعى الى نفسها ، طبعا ، لاسميا في أوائل قيام المصلحة المصرية ، تمة التراسلين الغربى والشرقى على السواء ؛ وإذا علمنا أن

البريد لم يكن يستطيع السفر بين أسبوط وأسوان، وبين أسوان والسودان، إلا كل خمسة عشر يوما على سفن تجارية، ازداد في أعيننا قدر تلك الخدمات وازدادت ثناء على مديها .

يقى علينا أن نرى ما الذى عمله (اسماعيل) فى آخر سبيل من سبل توسيع نطاق الزراعة، وأخى به كيفية ربط الضرائب على الأطنان وتوزيعها توزيعا حسنا .

تصديق طريق  
ربط الضرائب  
وتوزيعها

فلا مشاحة فى أن القاعدة التى يجب لكل حكومة أن تقيم عليها أمر فرض الأموال على العقارات، إنما هى ثمن هذه الحقيقى، ومقدار ما ينجى منها من ثماره ولا خلاف فى أن أثمان الأطنان المصرية ارتفعت فى أوائل عهد (اسماعيل) ارتفاعا عظيما، وبيعت حاصلاتها، لاسيما القطنية، بأثمان تكاد تكون متماثلة : وذلك بسبب الحرب الأمريكية الأهلية، ووبار زراعة الولايات المتحدة ومزارعها .

وليس من ينكر أن اتساع نطاق الرى وطرق المواصلات، الاتساع الذى يبتاه، كان من شأنه أن يجعل ارتفاع أثمان الأطنان، وزيادة حاصلاتها، مطردين .

فلا غرابة، والحالة هذه، فى أن تكون الضرائب فى عهد (اسماعيل) قد زادت على ما كانت عليه فى عهد سلفه، وأن يكون قد أدخل على فئاتها شئ من التعديل، فى مصلحة "الميرى" .

ولكن (اسماعيل)، قبل زيادة أى شئ فيها أو تعديله، رأى أن يمدد فك زمام القطر كله، ويروكه روكا جديدا، لكيلا يقع على أحد حيف بسبب ربط الضرائب الجبلية . لأنه كان يحدث كثيرا، فى تلك الأيام، أن ذوى الجشع من القابضين على القوة الادارية، وسواهم من ذوى الجاه كانوا يقتصبون أملاك صغار المزارعين،

ويضعون أيديهم عليها ، ولكن بدون نقل تكليفها الى أسمائهم : فيستمتعون بفلاتها ، ويستمرّ الفلاحون ، أصحابها الأصليون ، يطالبون بأموالها ويجهرون صـل دفعها .

فصدرت الأوامر ، اذا ، الى مشايخ البلاد وعمدها ، بالاجتماع في المراكز ، وتعيين مندوبين من قبلهم يكلفون بتقديم بيان واق الى المديرين عن زمام الأقطان التابعة لدائرة نواحيهم ، وكشف بأسماء ملاكها الحقيقيين ، لكي تتمكن الحكومة من ربط الضرائب عليها ، على نسبة ما هي عليه من الجودة ، وتحصيلها بمن هو ملازم بدفعها في الواقع . وكانت الأقطان المزروعة كلها تنقسم الى قسمين : "انخراجية" و "مشورية" .

أما "انخراجية" ، فهي التي آلت ملكيتها الى أصحابها بموجب الأمر الذي قلنا أن ( سعيد باشا ) أصدره بأن تكلف الأقطان صـل أسماء المشتغلين فيها .

وأما "المشورية" ، فهي الأقطان المعروفة بالأبعاد والوسيات ، وهي التي انعم بها على أصحابها ليخلصوها في مقابل إعفائهم من دفع أموال طليها ، مدة معينة ؛ ومقابل ربط أموال يسيرة عليها ، بعد اقضاء تلك المدة — وكان المنعمون بها يشترطون ، في بادئ الأمر ، نظير هذا الاعفاء ، حودتها الى الحكومة عند موت من وهبت اليهم . ولكن هذا الشرط أهمل فيما بعد ؛ وأصبحت الأقطان المشورية تورث كالأقطان انخراجية . وقد بلغ مقدارها في أوامر أيام ( اسماعيل ) مليوناً ومائتين وخمسين ألف فدان .

فلما تم روك البلاد ، جعل متوسط ما ربط على الفدان من الطين انخراص مائة قرش وعشرة ؛ ومتوسط ما ربط على الفدان من الطين المشوري خمسة وثلاثين قرشا ؛ علاوة على ريال أضيف الى مال كلا الصنفين من الأقطان للقيام بأعمال الري وحفظ الترع والجسور .

فلا نزاع في أن هذه الفئات لم تكن لتتعب الفلاحة أو ترهقها؛ وأن أقصى ما كان يؤخذ عليها هو عدم مساواة الأطنان العشورية بالأطنان الخراجية فيها، مع أن معظم الأطنان العشورية كان لا يقل جودة عن مثله من الأطنان الخراجية .

ولكنه يجب ألا يغيب عن الأنظار : (أولاً) أن الفرق في المعاملة كان نتيجة تعهدات سابقة بين طرفين، لم يكن إلى تقضها من سبيل إلا باتفاق هذين الطرفين معاً، أى الحكومة وأصحاب الأطنان العشورية عنها ؛ (ثانياً) أن معظم أصحابها، إن لم تقل كلهم، كانوا من الأغنياء الجهلاء الذين يرون في عدم مساواتهم بالفلاحين البسطاء، رفعة لشأنهم وإجلالا لقدمهم ؛ وبهمهم أن يحافظوا عليها أكثر مما تهتمهم مبادئ العدالة والإنصاف ؛ وأنه لم يكن في الاستطاعة ، والحالة هذه، مساواتهم بالفلاحين، قسراً، إلا بأحداث ثورة قد نفوذ من اقتصادية إلى فتنة سيئة المواقف، كانت البلاد في خفي عنها .

سوء طريقة  
تحويل الضرائب

ولكن الذى أتمب الفلاحة وأرهقها، هو أن طريقة جباية الأموال ماثلت، منذ أنشئت حكومات في الشرق، حتى الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر لمصر، آفة من الآفات الكبرى التي بليت بها البلاد ؛ وأن المنوط بهم أمر تحصيل الأموال كانوا يسبقون طريقة تحصيلها، ويتجاوزون حد المعلوم في المواعيد التي يطالبون الفلاحين بدفعها فيها ؛ إما لأن مدين صاحب الأمر الأعلى لا تراه، لانشغاله في تحقيق أمنيات نفسه السامية ؛ وإما لأنهم، بالنسبة لدنوعهم من قلبه، كانوا متأكدين من أنه لا يشك في إخلاصهم وأمانتهم<sup>(١)</sup> .

(١) أنظر : "مصر الخديوية" لأدوندى ليون ص ٢٣٠ سطر ١٢ و ١٣ و ١٤ و ص ١٨٦

سطر ٧ و ٦ و ٨ و أنظر : "مصر تحت حكم اسماعيل" لماثكون ص ١٥١

فن المشهور، مثلا، عن اسماعيل صديق باشا، المعروف "بالمفتش" و"الصغير"، وزير المالية، أنه كان يتبجح علانية، ويفتخر بأنه يحصل عادة من الفلاحة المصرية مليونين من الجنيهات سنويا أكثر من الظاهر في حساباته.

ومن المعلوم أيضا أن المديرين والحكام الآخرين المتولين شأن التحصيل — لا سيما في المديرية البعيدة عن العاصمة — كانوا يفتنمونها فرصة ليقروا من الفلاح التلمس، بوسيلة الكرايج، ما يزيدون به رعايهم وثروتهم؛ وانهم لكي يتمكنوا من حمل الصيرافة على الثبات في تحصيل ما يستطيعون تحصيله من الفلاح، تحت أسماء متنوعة، كانوا يأثرون من تعريفة المواعيد المقررة لدفع الأموال؛ بالرغم من أن الإرادة العليا، وقرارات مجلس شورى الثواب جعلتها في الأوقات المناسبة؛ أي بعيد جناة كل محصول هام.

وأما أن (اسماعيل) نفسه كان يرغب في ألا يصاب المزارع المصري بضم؛ وأنه كان يفضل مصلحة الفلاحين من رعاياه على مصلحته الخصوصية ذاتها، فذلك واضح :

مساعدة الفلاحة  
المصرية بالمال

(أولا) من أنه — لما وضعت الحرب الأهلية الأمريكية أوزارها في أوائل سنة ١٨٦٥؛ وتسبب عن انتهائها غير المنتظر نزول أسعار القطن في بورصة ليفربول نزولا فاحشا وأصابة سوق الاسكندرية بحسائر جسيمة؛ وارتجاج الأرياف المصرية ارتجاجا سيئا فاقا لأن المزارعين، ارتكانا على أن أثمان القطن ستستمر، حتما، عالية وأسعاره متمسكة، كانوا قد توسعوا في زراعته توسعا كبيرا، واستقوا، لذلك، أموالا طائلة برهون عقارية، فأدى سقوط أسعاره بخفة الى اختلال التوازن بين قيمة الاقراض وقيمت ضمانات مصادرها العقارية، اختلالا نجمت عنه توقفات عديدة



عن الدفع، أوجبت شكاوى ودعاوى، هددت بيوتا كثيرة بالخراب والمحرق — تماخل (اسماعيل) في الأمر وتلافاه . فأصدر، وهو في فيشى يتطلب بمياهها المعدنية، أمره إلى مالىته، بفحص طلبات دائنى المزارعين المصريين، وتحقيقتها، وتسديد ما يثبت صحته منها، مقابل إصدار أذونات بالمبالغ المدفوعة تدعى "أذونات القرى"، يستند أصحاب الأملاك المدينون قياتها إلى المالية على ثمانية أقساط، ابتداء من سنة ١٨٦٩، أى بعد الأزمة بأربع سنوات . فصددت المالية بالأمر، وسددت من ديون المزارعين المصريين ما أصدرت به أذونات قيمتها خمسة وثلاثون مليوناً من الفرنكات<sup>(١)</sup>.

ولعل الذى حمل (اسماعيل) على اقتاذ مزارعى بلاده من هذه الورطة التى وقعوا فيها، علاوة على رغبته فى رفع الضيق عنهم، رغبته فى عدم تحويل جهة رؤوس الأموال القريبة من الأرض المصرية، لاعتباره هذه الثقة من عوامل تهتم البلاد فى سبيل الحضارة، ومن أكبر أسباب إحياء روح العمل والنشاط فيها — وإلا، فإن المقرضين الغربيين الذين باتت أموالهم، بسبب هبوط أسعار القطن الفجائى، عرضة للضياع، أو إنها ضاعت بالفعل، لم يكونوا ليلوموا فى ذلك إلا سوء تبصرهم، وشدة مطامعهم، ولم يكونوا جديرين بمواساة ما، فضلا عن العناية بهم، لأن معظمهم كانوا يقرضون المزارعين بفوائد مغلها ثلاثة أو أربعة، وأحيانا، خمسة فى المائة شهريا

(ثانيا) من أنه لما زاد النيل فى سنة ١٨٧٠ زيادة عظيمة هددت بالفرق، ثلاثا من قرى مصر، وبالخراب التام أهلها، ونما الخبر إلى (اسماعيل)، أمر بكرم الجسود فوق تلك القرى، فى وسط أطيانه الخصوصية، لتحول إليها وتقمعها المياه

نسخة اسماعيل  
بمصلحه فى سبيل  
اقتاذ مصالح  
الفلاحين من  
الخراب

(١) أنظر : مالكون "مصر كما هي" ص ١٢٧ وانظر : "تاريخ مصر المائى" لمجهول .

المتدفقة المهددة : فتتجو قرى الفلاحين البائسين ومزارعهم . فكسرت الجسور ،  
وغرقت أطيان الأمير بالقفل . فأصابته ، من جراء ذلك ، خسائر قدرت بأربعة  
ملايين من الفرنكات . ولكن قرى المزارعين ومحصولاتهم نجت وأبعد ، عنهم وعنهما ،  
البؤس والشقاء ، فأعلن (اسماعيل) أن هذا يمرره سرورا يجعل خسارته لا قيمة لها  
عنده بالمرّة .

فأمر هذه عنايته بمزارعى بلاده وفلاحيهما ، حتى وهو فى بلاد الغربة يتطلب وهذا  
شعوره . لم يكن ليرضى أن تتقل كاهلهم جباية الأموال المقررة على أطيانهم ، منهم  
ولئن أُوخذ على شئ من المظالم والمغارم التى أحاقّت بهم ، فى هذا الباب ، فانه انما  
يؤاخذ بحق ، على عدم تنزيله العقاب الصارم بموظفيه المجرمين المتجاوزين الحدود  
فى ذلك ، مثما أنزله باسماعيل صديق باشا كبيرهم ، وحل سماحه لنفسه بأن تغيب تلك  
المظالم والمغارم عن نظره وهو يتطلع الى آفاق كان من شأن شروء الحاضر أن تتضاعل  
فيها ، وتواري أمام عظمة المستقبل وزهوه وخيراته الجملة ، التى كان يسعى الى تحقيقها !  
حل أن عنده فى ذلك ، هو أنه لابد ، لحائى الورد ، من ونز الشوك ، ولا مغز ،  
لقاطف العسل ، من ابر النحل !

## الفصل الثالث<sup>(١)</sup>

### فتح أبواب التجارة والصناعة والعمل

”هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا  
في مناصكها وكلوا من رزقه وإليه النشور“  
«فرآن شريف»

ان التجارة أصبحت حرة ، منذ تنكب محمد سعيد باشا جادة الاحتكار ، وشاد  
حرية الأخذ والعطاء على القوائم الأربع الآتية :

(الأولى) ان كل فلاح مصرى حرّ فى انماء المحصول الذى يراه أكبر فائدة له  
من سواه .

(الثانية) أنه حرّ فى بيع محصوله تقدا لأى مشتر يشاء وبالثمن الذى يريده .

(الثالثة) ان التجار أحرار فى نقل المحصولات التى يشترونها ، بجميع الوسائل ، برا  
وبجرا كما يشاءون .

(الرابعة) ان عموم الدخوليات والجمارك الداخلية تانى ، منعا لتحمل البضائع  
مصاريف تضاعف أثمانها<sup>(٢)</sup> .

وكانت الحكومة المصرية قد قررت فى عهد عباس — ولا ندرى لماذا — ألا تخرج  
السفن من ميناء السويس إلا بالترتيب . فإدامت السفينة التى عليها رقم ١ ، مثلا

(١) أهم مصادر هذا الفصل : ”مصر المعاصرة لمريش“ ، و ”رسائل من مصر“ لسنيت هيلز ، و ”مصر  
فى عهد اسماعيل“ لسانق ، و ”تاريخ المالية المصرية“ لمجهول ، و ”مصر كما هى“ لماك كون ،  
و ”مصر فى أيام محمد على“ ، و ”سياحة بمصر فى أيام محمد على“ لـ بـ كـ رـ سـ كـ لـ ، وعل الأنص  
”مذكرات عاتق بمصر من الأعمال الهامة من أيام القراصة الى الآن“ لـ بيان دى شلون .

(٢) أنظر : مريش ”مصر المعاصرة“ ص ٧٣

لم تنقذ من مشحونها ، أولا تزال غير مستعدة للسفر ، فان السفينة التي عليها رقم ٢  
تضطر الى الانتظار وعدم الخروج ، ولو أنها قد انتهت من شحن مشحونها وباتت على  
غاية الاستعداد للرحيل ، وهلم جرا <sup>(١)</sup> .

فشاحنو البضائع الى موانئ البحر الأحمر كانوا يضطرون ، مهما استدعت  
ارسلالياتهم من اسراع ، الى الانتظار ، ريثما يروق الاقلاع لصاحب السفينة السابق  
وقتها رقم سفنهم . فان لم يرق له ، ورضوا ، هم في السفر ، تحتم عليهم الخضوع لكل  
الشروط التي يوصي بها الطمع . فينجم عن ذلك أحد أمرين : إما أن تزيد مصاريف  
الشحن زيادة فاحشة ، وإما أن تتأخر البضائع في السويس تأخرا ضاوا .

فالتي محمد سعيد باشا هذا النظام ، واستبعد من قوانين الموانئ كل ما من شأنه  
إيجاد عراقيل في سبيل الاتجار .

فزل سعر الشحن نزولا محسوسا جلدا وراجت الأسواق التجارية رواجاً عظيماً ؛  
كانت نتيجه ، من جهة ، أن التجارة الخارجية سارت في طريق الصعود سيرا  
حدها ، وارتفعت حركة الثغر الاسكندري — وكان المصدر العام لها تقريباً — من  
٨١١٧٣٠٥٠ فرنكا في سنة ١٨٤١ الى ١٨٣٩٠٢٠٠٠ فرنك في سنة ١٨٥٦ وإلى  
نحو مائتي مليون فرنك أي ما يقرب من ثمانية ملايين من الجنيهات في سنة ١٨٦٢  
وتلا ارتفاعها أن اتخذ النشاط التجاري في الاسكندرية شكلا لم تعهده القرون  
الأولى فيها ، منذ الفتح العربي ، وأنشأ بورصة مالية انتشرت المضاربات فيها ، على  
أثر صعود أسعار القطن في سنة ١٨٦٢ ، بسبب الحرب الأهلية الأمريكية ، انتشارا .

(١) أنظر : مريخو "مصر المعاصرة" ص ٧٦

مرقوا ، ضارح في شدته وعصفه المشاهد منه في العواصم الأوروبية ؛ وأدى الى ثروات عظيمة زالت بسرعة بغفائية عظيمة أيضا ، لقيامها على بيع وشراء يعقد بالكلام لا بالتسليم وتحول الى الغير بمكاسب طائلة أو بخسائر فاحشة .

وكانت نتيجة الرواج ، من جهة أخرى ، أن التجارة الداخلية انتقلت الى أيدي الأهلين ؛ والمحصرتهم فيهم شيئا فشيئا ، لتفوقهم على عمال التجار الأجانب في معرفة عادات البلد وتقاليد ولقته وأساليبه ؛ ولا سيما لقناعتهم في المآكل والمكسب . وأصبحت المراكب والسفن الشراعية التي تمتاز الحمودية ، على الأخص ، ومجاري النيل ، على العموم ، مشحونة ، أن لم يكن كلها ، بغلها ، ببيضاح لتجار من الأهلين ، اشتروها من المزارعين مباشرة ، في داخلية البلاد ، لبيعوها في الاسكندرية الى التجار الأجانب هنذا وعدنا .

المرأة الطاهرة  
الزينة الملابس

وقد قال يومئذ أحد كبار التجار الغربيين لكاتب فرنساوى بليغ كان قد زار البلاد في أواخر سنة ١٨٥٦ ، وهو يشير الى امرأة مصرية ، حافية القدمين ، ومرتدية لباسا يكاد يكون رثا : « أتراهي أنا قلت لك اني دفعت الآن الى هذه المصرية ، ذات المظهر الحفير المتبعدة أمامك ، أربعائة جنيه انجليزى ثمن بضائع أتت بها ، أتصلتني ؟ » . وحمل أساع التجار بين الخارجية والداخلية سعيدها باشا على انشاء شركتين للالاحة : إحداها بحرية ، والثانية نيلية .

إنشاء الشركة  
المجيدة للالاحة

فالأولى ، ودعيت « المجيدة » ، إكراما للسلطان العثماني عبد المجيد ، فأمدست بفرمان همايوني استصدره محمد سعيد باشا في أواخر ربيع الأول سنة ١٢٧٣ من

(١) أنظر : مريمر « مصر المعاصرة » ص ٧٥ ، وست هيلر « رسائل من مصر » .

السلطان المذكور؛ ورأس مال قدره عشرون مليوناً من الفرنكات، مقسم الى أربعين ألف سهم، قيمة السهم الواحد خمسمائة فرنك. وغرضها استغلال شواطئ القلزم لغاية الخليج الفارسي استغلالاً تجارياً؛ ونقل الجمح الذاهبين، سنوياً، الى الأقطار المجازية، لتأدية الفريضة المقدسة، نقلاً سريعاً منظماً؛ وربط نظام الملاحة في البحر الأحمر، بنظام سفن بخارية تمخر في البحر الأبيض المتوسط؛ وتقوم بخدمة سواحل السلطنة العثمانية.

وقد وضعت هذه الشركة تحت رياسة الأمير مصطفى فاضل، أصغر أبحال إبراهيم باشا الكبير؛ وصين لها بطريقه استثنائية، مجلس ادارة مؤلف من نوبارك وكيلا للرئيس ومراقبا لعموم أعمال الشركة في حال تغيب سموه؛ وكان من كبار الموظفين المصريين والتجار الأجانب.

إنشاء شركة البحر

والثانية، وديعت "الشركة المصرية لقيادة السفن بالبخار على النيل والترع المصرية" تأسست برأس مال قدره خمسة ملايين من الفرنكات؛ وبامتياز من محمد سعيد باشا في ٩ محرم سنة ١٢٧١ (٢ أكتوبر سنة ١٨٥٤) الى مؤسسها، وهم زمرة من كبار التجار الغربيين؛ أشهرهم ذكرا السليور يوبولاني؛ وبعض كبار موظفي الحكومة المصرية كذى الفقار باشا، المشرف العام على المالية المصرية؛ وكوينج بك سكرير سمو الأمير الخاص؛ وموجيل بك كبير مهندسيه. وغرضها الانفراد بقوة البخار لحرر بضائع الوارد والصادر في عموم دائرة القطر المصري، على النيل والترع المصرية بطلب من أصحاب المراكب المشحونة فيها تلك البضائع، وبالأسعار التي تضعها الحكومة المصرية لكل صنف منها. وذلك الانفراد مقابل انشائها طلبات تارية في العطف تكون قوتها كافية لحفظ المحمودية دائماً في حال صالحة للملاحة ولرى عشرين ألف فدان

رياحيفيا؛ وتزويد الاسكندرية بالماء اللازم لها، حتى فيما لو غيرت الحكومة طريقة  
المجارير المائية فيها .

غير أن هاتين الشركتين المساهمتين — وكانتا أول ما تأسس من نوعهما في القطر  
المصرى ، ولذلك توسعنا قليلا في ذكرهما — بالرغم من أن مدة أولاهما جعلت  
ثلاثين سنة ، ومدة ثانيتهما خمس عشرة سنة لم تقوما بأعمالها ، أعواما قليلة ، حتى  
تطلق النخل الناجم عن الاهمال وعدم الاعتناء ؛ لا سيما بعد أن أخذ المرض من  
(سميد) مأخذه . فغمرت جانبا كبيرا من رأسى مالها؛ وبات الخراب التام بهتدهما  
حينما آل الأمر إلى خلفه .

فشر (اسماعيل) عن ساعد الجدة في هذا الباب من المصلحة العاقبة ، ومد يده إلى  
الشركة المحيدية ، لجمع ما بقى من حطامها؛ ثم صفاها؛ وأنشأ عليها، شركة جديدة،  
دعاها "العززية" لإجلال السلطان عبدالعزيز؛ كان جل رأس مالها من جيبه الخاص  
وساعده على ذلك ثروته الشخصية حينما ارتقى عرش مصر فقد كان إرادته لا يقل  
عن مائة وستين ألف جنيه سنويا ولم يكن عليه دين مائة؛ وجعل مهمتها القيام بالشأن  
الذى أسست المحيدية من أجله .

ولما رأى أعمال الملاحة سائرة على أتم ما يرام في البحر الأحمر وعلى سواحل  
البحر المتوسط الثمانية، وريح البحر والرياء نافعة في قلوب "العززية" ، تأقت  
نفسه إلى توسيع نطاقها وجعل سفنها تنحرف في المياه الأوروبية، حاملية في مراقبتها  
الجنوبية، الزاية المصرية وهي خالقة فوق بضائع مصرية .

فأرسل اثنين من أخصائه ومن كبار رجال الإيطاليين والفرنسيين ، يدعى  
أحمد السليور فرانسكو يني بك، والثاني المسيو جورنو بك إلى البندقية ومرسليا،

ليهدأ له سبل العمل والنجاح فيهما . فمقدنا اتفاقا في إيطاليا وفرنسا ، ولكنهما صادفا ، من منافسة ومن حصد الملاحاة الأجنبية هناك في إيطاليا وفرنسا ، لا سيما من شركتي البنسولور والأورينتل الانجليزية ، والماساجيرى اميرال ماريتيم الفرنسية ، ما اضطر الأمير الى المدول عن فكرته ، والاقتصار على ملاحتى القلزم وسواحل البحر الأبيض الجنوبية ، وتحويل جهوده في إنشاء تجارة بلاده الى وجهات أخرى .<sup>(١)</sup>

إنشاء عدة شركات  
مساهمة

فطلق ، من جهة ، يعضد ، بأمواله الخصوصية ، رؤوس الأموال الفردية ، لتكوين شركات مساهمة عديدة ، بدون نظر الى جلسية المساهمين فيها ، أو دينهم : فتأسست ، بفضده ، ونحت تأميم موجيات رضائه ، ورؤوس أموال كان ما يخلصه فيها أهم رؤوس الأموال الفردية المكتتب بها ، شركة اعتمادات مالية زراعية مساهمة ، فرضها تسليف المزارعين ، ولا سيما أصاغرهم ، تقودا بفوائد خفيفة لا تقاظم من أيدي المزارعين اليونانيين واليهود وغيرهم ، وشركة مساهمة لاستيراد الماكينات البخارية من أوروبا ، وبيعها الى المزارعين المصريين بأقساط تناسب درجة ثروتهم ، وتركيبها في الأماكن التي تعين لها ، وشركة مساهمة ثلاثة للقيام بنفاذ مشاوع الري والطرق الزراعية التي تقترها المجالس المحلية وتمتددها الحكومة ، وشركة رابعة لاستغلال السودان والانجمار بمجالاته المتنوعة . وعمد فيها بعد الى تأسيس شركات اعتمادات مالية لعميز مركز مصر المالى وتحريره من الاحتياج الى رؤوس الأموال الغربية ، كصرف أهل أو مصرف عقارى ، يكون هو أكبر مساهمها وأهم عملاتها . وأنشأ ، أثناء وجوده في باريس سنة ١٨٦٩ بالاشتراك مع الخطوات ا . دى . جياردين وأخوانه المالين الشهيرين الذين عرفه بهم نوبار باشا "الشركة العمومية المصرية" للتجار

(١) أنظر : "مصر فرعه اسماعيل" لسانى .



والاستغلال ، لحفر ترعة كبرى لرى جزء الوجه البحرى الشمالى الغربى — فلفح ، هو ، معظم رأس مالها وكل مصاريف تأسيسها — وأسس كذلك المصرف ( البنك ) الفرنساوى المصرى ، بالاشتراك مع المسيو ليفى كريميى اليهودى الذى ربط بين ميموه وبينه وثائق صداقة متينة رجل مالى كان مخصصا لخدمته فى تلك العاصمة<sup>(١)</sup> .

تصليح  
ميناءى السويس  
والاسكندرية  
وتوسيعهما

وطفق ، من جهة أخرى ، وهو يعمل على توسيع نطاق السكك الحديدية — أساس رفق كل تجارة فى العالم ، بل كل رفق على الإطلاق — يفكر فى جعل مينائى الاسكندرية والسويس — وهما أكبر الثغور المصرية على البحرين الأبيض والأحمر — على درجة من الاتساع والأمن يتسنى لهما أن يباريا أكبر الموانئ العالمية فى أهمية حركتهما التجارية .

أما السويس ، فان شركة البنىسولراند أوريتل الانجليزية كانت قد طلبت فى سنة ١٨٤٢ من ( محمد على ) أن يأذن لها بإجراء أعمال هامة فيها ، لمجملها فريضة فسيحة أمينة ، وإنشاء حوض عام لتصليح السفن ، فأبى .

فلما آلت الأحكام الى محمد سعيد باشا رفعت اليه شركة المساجيرى امبريال ماريتيم طلبا فى المعنى عينه ، وتوسمت منه قبولاً لما اشتهر عنه من الميل الى فرنسا وجبه للفرنساوين . فعضد طلبها المسيو برافيه — وكان أخص أخصاء محمد سعيد باشا . فأجابها اليه فى سنة ١٨٦١ ، وأتفق معها على أن يدفع لها سبعة ملايين من الفرنكات على أن تقوم هى بعمل الحوض العام ، فقط ، علاوة على تقديمه يد السخرة المصرية اليها لتستعين بها على نجاذه .

(١) أنظر : " تاريخ المالية المصرية " لمجهول .

فكلفت الشركة بالعمل محل دوسو اخوان Dusan — وهو الذى بنى فيها بعد ميناء بورسعيد — وشرع ذلك المحل فى سنة ١٨٦٢ ولكن الحكومة المصرية رأت، بعد ذلك، لأسباب لا داعى الى بيانها هنا، أن تمنع يد السخرة، وتعوض الشركة منها بأعطائها مليوناً ونصفاً من الفرنكات، علاوة على السبعة المتفق عليها. ولم يقف سخطها عند هذا الحد بل تجاوزته حتى وصل المبلغ الى تسعة ملايين. على أن العمل لم يتم إلا فى عهد (إسماعيل)؛ ولم يفتح الحوض المذكور إلا فى سنة ١٨٦٦

فأراد (إسماعيل) أن تعمل ميناء واسعة هناك؛ لاسيما بعد الفراغ من عمل ترعة السويس وفتحها. فأمر؛ فشرع فى العمل فى سنة ١٨٧٠ وأنشئ حوض خارجى دعاه (إسماعيل) ”بور ابراهيم“، إكراماً لاسم أبيه الهام، وربطه بالسويس بسكة حديدية، أنشأ الى جانبها سكة حريات؛ وما زال يعمل ويحسن لتأمين السفن وراحتها حتى بلغ مجموع ما أنفقه فى هذا السبيل، مليوناً وثمانمائة ألف وعشرة آلاف جنيه.

أما ميناء الاسكندرية — وطولها ستة أميال وعرضها ميلان بين رأس النين ورأس العجم من الشمال الشرق الى الجنوب الغربى، وهى مقفلة من كل جانب إلا من هذا الجانب الأخير — فان (إسماعيل) كان قد أحس بوجوب تصليحها منذ ارتفاعه سنة جده، له، بيده، المضار الناجمة عن قيام الصخور متشعبة فى مدخلها وجراها. ولكن ذلك الاحساس زاد فيه، بعد فتح ترعة السويس، زيادة لم يعد يستطيع معها صبرا على بقاء الحال كما هى؛ لاسيما بعد أن رأى تحوّل جانب عظيم من تجارة الاسكندرية بسبب صعوبة مدخل مينائها الى بحرئ تلك الترفة البحرية.

فبعد، قبل نهاية سنة ١٨٧٠، عقدا مع محل جرينفيلد وشركائه المهتمين بلندن، كلفه بمقتضاه باقامة حاجز مضخم خارجي، وإنشاء ميناء داخلية، وبناء أرصفة فيها للسفن، تكفل لها وللسافرين الراحة التامة، نظير تخاضيه مبلغ مليونين من الجنيهات الانجليزية.

فبعد بضعة أشهر صرفت في تجهيزات لم يكن منها بقاء (ووجد المهتمسون الانجليز، في خلالها، سبيلا الى جعل المليونين المتفق عليهما - بالرغم من احتوائهما على زيادة في التقدير تبلغ ثمانين في المائة، أسوء جميع الأشغال العمومية والخصوصية التي قام بها مهندسون غربيون في عهد اسماعيل) - مليونين ونصفا، وذلك باضافتهم بعض تعديلات الى التصميمات والرسوم الأصلية) شرع في العمل في بدء ربيع سنة ١٨٧١، بعد حفلة شائعة وضع الخديو فيها بيده أول حجر في ذلك الميناء الضخم.

فسير بالحاجز، أولا، جنوب مائة رأس التين الغربي، وعلى بعد خمسين مترا منها، مسافة قدرها ألف متر. ثم ميل به نحو الجنوب الجنوبي الغربي مسافة قدرها ثلاثمائة وخمسون مترا؛ واجتاز به الثفر كله. فاذا به ميلان يشتملان على ألف وأربعمائة فدان مياها هادئة تستطيع أكبر مراكب العالم وعمارات الدول كلها الرسو بأطمئنان والاجتماع براحة فيها. واذا بالدخل الأهم دائر خلف الحاجز الجنوبي الغربي على بعد ١٥٠٠ متر من الشاطئ، والتمز الضيق لدخول المراكب الصغيرة ونروجها، الى جهة رأس التين. واذا بالبناء قد برز على علو سبعة أقدام فوق كل علو قد تبلغ اليه أمواج البحر في أشد ارتفاعها. وشمل، من جهة الشاطئ الحاجز (Mole) الواسع، على مسافة تسعمائة متر من قم المحمودية، لجهة رأس التين؛ واشتمل على أرصفة طولها ١٤٤٠ مترا في منتهي المائة والجودة.

ثم أوصل ذلك جميعه بسكة حديد القبارى ، بخط حديدى أنشئ لهذا الغرض خصيصا . فأصبحت القطارات تستطيع تفريغ مشحونها على الأرصفة الراسية البواخر بجانبها مباشرة ؛ وتستطيع البواخر تفريغ مشحونها مباشرة أيضا ، فى القطارات العاجية التى تملأ صغار قاطراتها تلك الأرصفة ! وبلغت قيمة ما تتقاضته الحكومة من الرسوم سنويا من السفن الداخلة الى ذلك المرفأ لغاية سنة ١٨٧٧ مائة وثلاثين ألف جنيه .  
 على أن همة (اسماعيل) لم تقتصر على توسيع ميناء السويس والاسكندرية ؛ ولكنها تناولت موانئ البحر الأحمر القصبية عنها ، من القصير الى زيلع وبربرة ، وأدخلت عليها من التحسينات ما كان متناسبا مع انتعاش حركة السودان التجارية ، فى عهده ، ونحوها .

انشاء المنارات  
البحرية

ولعلم (اسماعيل) أنه لا بد لوانى ، لى تقوم بعملها قياما نالعا فى النهار والليل ، من منارات فيها ، ترشد السفن الى أحواضها الداخلية الآمنة ، وتقرأ عنها أخطار الشعاب الصخرية ، أكثر من انشاء هذه السرج الجزيلة النفع على جميع شواطئ مملكته المقامية الأطراف .

فانه ، حين أدركت (سعيدا) منيته ، لم يكن من تلك المنار سوى منارة الاسكندرية ونور طائم فى خليج السويس ، فما ابتعدت الأيام بملك (اسماعيل) إلا وقد قامت سبع منارات عظيمة على ساحل البحر الأبيض ، غير الصغرى منها ، وسبع أخرى على سواحل البحر الأحمر ، وواحدة على ساحل الأوقيانوس الهندى . وإليك بيانها :

(أولا) على ساحل البحر الأبيض : أربع بالاسكندرية وهى : منارة رأس التين تبعث أنوارها المتألقة الى بعد عشرين ميلا ؛ ومنارة طرف الحاجز ، تبعث أنوارها

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هي" ص ٢٥١ و ٢٥٢

الى بعد ستة أميال ؛ ومنارة الحجى ؛ ومنارة الخليج الغربى ؛ ثم منارة وشيد ، ونورها الأبيض والأحمر جميل للغاية ؛ ومنارة رأس البرلس ، ونورها أبيض ثابت ؛ ومنارة دمياط ، ونورها أبيض كذلك ؛ ومنارة بورسعيد الكبرى ، وهى مثيلة منارة الاسكندرية ، وتبعث أنوارها الجميلة الى بعد عشرين ميلا .

(ثانيًا) على ساحل البحر الأحمر : منارة السويس الكبرى ، تبعث أنوارها على بعد ثمانية عشر ميلا ؛ أنشئت فى الميناء ، علاوة على النور العائم فى الخليج والنور الأبيض المقام على مدخل الثغر ؛ ومنارة أخرى دون الكبرى بقليل ، تبعث أنوارها الى مدى أربعة عشر ميلا ، من قمة رأس الزعفران ، الواقع على بعد خمسين ميلا جنوبى السويس ؛ ومنارة ثالثة مثلها يرى نورها من بعد أربعة عشر ميلا كذلك ، على قمة رأس غريب ، ويبعد عن رأس الزعفران جنوبا خمسين ميلا أخرى ؛ ورابعة ، أقوى منها ، فى جزيرة الجبل ، على مدخل الخليج ، تبعث أنوارها الى بعد ثمانية عشر ميلا ؛ وخامسة قائمة على محور ديدلوس فى وسط البحر الأحمر فى خط ٢٤ و ٥٥ شمالا ، تبعث أنوارها الى بعد أربعة عشر ميلا ؛ وسادسة مثلها فى سواكن ؛ وسابعة فى الوجه بمحطة الأربعينيات (الكورتينات) .

وأما التى على ساحل الأوقيانوس الهندى ، فواحدة فى بربرة ، قائمة هناك ، دليلا ساطعا على نور البدنية والحضارة المنبعث عن (اسماعيل) الى أقصى أطراف مملكته ، والمنهى بشروق شمس أيامه فى شرق القارة السوداء ، لتبتد غياهب ظلماتها المموجة وتخترق حجب دياجيرها المظلمة .

وقد بلغ ما أنفق فى إقامة هذه المنارات الشاهقة المدينة التى كان معظم حراسها من الإنجليز والخيرين يعملها ، نيفا ومائة وقسمين ألف جنيه ؛ وقد اعتنى بها وتنظيمها

اختصاص جعلها في مقدمة مثيلاتها في البلاد الغربية حينها، وجعل ما يتقاضى من الرسوم على السفن المتفتحة بها يزيد على ما تستدعيه صيانتها من نفقات — والفضل في ذلك إلى مديرها العام مالك يكلوب باشا<sup>(١)</sup> .

وكانت السفن التي تجتاز قنال السويس إلى الشرق الأقصى تدفع رسوما في ذهابها وإيابها، وأما التي تقيم في السويس ثم تعود إلى بورسعيد فلم تكن تدفع سوى رسوم الذهاب؛ والسفن الحربية لا تدفع شيئا؛ وأما السفن البريدية فكان يعمل خصم قدره ٥ ٪.

ولعلم (اسماعيل)، أيضا، أن تنفع روح الحياة في أصناف الصناعات والفنون وأبواب العمل، من شأنه أن يضاعف الحركة التجارية بأكثر مستورداتها وصادراتها أكب على الأمرين معا بكل نشاط نفسه النشيطة .

إحياء الصناعة  
والفنون

أما الصناعات والفنون — وقد كانت مصر في أيام الفاطميين والأيوبيين، بل في ذات أيام السلاطين المماليك من بحريين وبرجيين، مهبطها وكمبها — فإن الحكم التركي المملوكي — الذي أنشأ في الديار السلطان العثماني سليم خان الأول عقب انتصاره على جنود طومان باي البواسل، في واقعة الريانية، وذبحه نيافا ونحسين ألفا من سكان القاهرة، وسلبه كنوزها وقامشها وتسيير صناعاتها ومشاهير رجال فنونها إلى الأسرانة، مع الزمرة من أعيانها التي اعتقلها فيها محبة المتوكل على الله آخر خليفة عباسي بمصر — كانت قد قضى عليها قضاء مبرما؛ كما قضى على كل حركة حيوية فيها : فبت ترماد البلاد من الاسكندرية إلى أسوان فلا تجد مصنعا واحدا من

(١) أنظر : "مصر كما هي" لملاك كون من ٢٥٦ وما يليها .

المصانع العديدة التي كانت تعمل فيها النخاس والطرف من أنواع ما تحفظه دار آثارنا العربية بمصر، اليوم .

عمل (محمد علي)  
في ذلك

فلما استلم (محمد علي) زمام الحكم بيده القوية، وصفا له الجوع بزوال أيام معارضة من عماليك وغيرهم، ووقع في خلد أنه ينشئ في مصر، ومن مصر، دولة شابة يقيمها على جبهة الشرق، ساطعة السنا، رأى أنه لا بد له من إحياء الصناعات والفنون فيها، ليتمكن من نيل أغراضه وقضاء أوطاره .

فأقبل ينشئ المعامل والمصانع في كل جهة؛ منها ما هو لصنع الأشياء الشرقية التي كانت البلاد تصنعها في أيام عزها السابق — ونرى بعضها الآن مما صنع في عهده في قصور أفراد أسرته الكريمة و"سراياتهم"؛ ومنها ما هو لصنع الأشياء الغربية المستوردة من الخارج .

تلك المعامل والمصانع أقيمت، في الوجه البحري : بمصر، وقلوب وميت غمر وزقني والمحلة الكبرى وسمنود والمنصورة ودمياط وفتوة وشبراخيت الخ . وفي الوجه القبلي : في بني سويف والمنيا ومنفلوط وأسيوط وطهطا وجرجا وسوهاج وإسنا الخ؛ واشتغل فيها نيف وعشرون ألف عامل .

ولكنها، بالرغم من وجود الرؤساء المستقدمين من أوروبا حتى من أميركا بكثرة فيها، لتعليم الصناع المصريين المشتغلين تحت إدارتهم، ما لبثت كلها أن تعطلت وأقفلت في عهد (محمد علي) عينه، ما عدا معمل الطرايش بقوة، خانه بقي قائما بفضل استيراد جميع أفراد الجلس والمهيئة الإدارية طرايشهم منه .<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> راجع كتابي هاتون وما تخبرني في هذا الصدد، وعلى السوم كل ما كتبه الكتاب الغربيون في هذا القسم من تاريخ (محمد علي) من مبررات دار الكتب المصرية . فلا سبيل إلى حصرها وبيانها في هذه الحاشية .

والمرجع في هذا البوار والتعطيل الى سبين رئيسيين : (الأول) عدم وجود المواد الأولية كالحديد والفضة ، في البلاد ، وضرورة استحضارها من الخارج بأثمان باهظة كان من شأنها جعل مجارة المصنوعات المصرية للصنوعات الأجنبية ، في أثمانها ، ومساواتها فيها ، أمرا متعذرا ؛ و(الثاني) أخذ الحكومة المصرية بمبدأ الاحتكار التجاري ، وهو مبدأ من شأنه قتل كل همة فردية والقضاء على روح كل إقدام .

ولم نجد الصناعة تعضيدا من خلفاء (محمد علي) الثلاثة الأول . فإبراهيم لم يمش ؛ وعباس لم يهتم ؛ وانصرفت الأمة في مدة سعيد بكلياتها وجزئياتها الى الفلاحة ، عقب التسهيلات التي قدمت لها ، ولم تكن قد اعتادت . على أن تهافت الأجانب على القطر في مدة سعيد ، أوجب توسع التجارة بالاسكندرية ، مع ما توجبه شيئا فشيئا من تغيير معالم ، ونشوء مصانع ميكانيكية ؛ ولكنه لم يدخل تغييرا محسوسا ، حتى ولا تعديل على نظام الصناعات والفنون البلدية .

نظام الحرف

فبقى هذا النظام معمولا به كما كان منذ قديم الزمان : أثرا للماضي الفرعوني ؛ واتخذ من العصر التركي اسما جديدا لم تعهده مصر العربية وهو "الطوائف" .

فكل صناعة أو حرفة كان يقال لها "طائفة" وكان لكل طائفة شيخ يتخذه كبار رجاله ، وتتصلق الحكومة على تعيينه مقابل رسم يدفعه اليها ، ويختلف مقداره مع اختلاف الأيام .

فتمى تبين الشيخ رسميا ، أصبح حاكم "الطائفة" المطلق والمسؤول الوحيد عن كل شؤونه . فهو الذي يحدد أثمان العمل ؛ ويرتب درجات الأجور ؛ ويقبل دخول أعضاء جديدين في الطائفة ؛ ويرشد الى كيفية إنجاز الاتفاقات ؛ وينتدب الصناع



الذين يجزونها؛ ويجمع الموائد المفروضة على رجال الطائفة؛ ويمنع الأعضاء، ساحة قبولهم، الشهادات التي تثبت كفايتهم وتبين مقدار الأجرة اليومية الواجبة لهم؛ لأنه إذا جاز لرجل الطائفة أن يقول على الشغل بالقطعة، لم يكن يجوز له أن يقول عليه باليومية لأن يوميته كانت معلومة وميينة في شهادته، ولا سبيل له إلى زيادتها ولا إلى تنقيصها. فكانت المزاحمة، والحالة هذه، معلومة بالمتوة؛ وكان العمل على العموم تحت رحمة شيوخ "الطوائف"؛ فإذا بلغهم أن أحد رجال الطائفة اشتغل بأجرة زائفة على المهينة في شهادته أو ناقصة عنها جاز لهم أن يطلبوا عقابه من الحكومة وحسبه وينالونها.

على أنه كان يباح للصانع أن يشتغل في فروع من فروع فنه بشرط دفع ضريبة مضاعفة؛ كذلك إذا احترق بحرفتين — وهو ما كان نادرا — إلا إذا اتفق سرامع الشيخ، وحمله برشوة على غرض نظره<sup>(١)</sup>.

أما الصناعة الغربية المستوطنة، فلم تكن خاضعة لهذا النظام. ولكنها لقلتها، لم يكن في استطاعتها أن تزاحم الصناعة المحلية، مزاحمة محسوسة. ومن المعلوم أن قلة المزاحمة تعود الخمول، وتحول، عادة، دون تحسين العمل ورفقه وبلوغه درجة الكمال.

فلا عجب، والحالة هذه، من بقاء الصناعات والفنون المحلية في مستوى واحد،

طوال المئة مابين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٦٣

فلما قنع (اسماعيل) فيها، من روحه، أخرجت الأرض المصرية أولا، برأس مال قدره ستة ملايين من الجنيهات، معامل سكر في مصر الوسطى، تمتد على طول

(١) أنظر: ماك كرون "مصر كما هي" ص ٢٩٦ وما يليها لغاية ص ٣١٤ للاستيفان من حصة الخمول في نظام الخمر في المصالحات بمصر في الدولة العلية.

تسمين ميلا على شاطئ النيل الأيسر ، من بنى سوف الى برج أسيوط ، وتستغل محصول ٢٥٧٠٠٠ فدان بمحاصرها القائمة بالفشن ، ومغاغة ، وآبا ، وبنى مزار ، ومطاي ، وبمالوط ، والمنيا ، وفروشوط ، ومعامل سكر أخرى في الصعيد ، تمتد ما بين أرمنت ، والضبعة والمطاعة وتستغل أربعين ألف فدان ، ومعامل سكر ثلاثة في واحة الفيوم ، تستغل حاصلات ديميرس ، وسليكس ، والفيوم ، وأبو كساء ، ومعصرة دودا ، وكل معمل منها يشغل نيفا وألفى عامل ، كلهم مصريون ماعدا المهندسين — فانهم كانوا الجليز — ويخرج ، طلاوة على السكر ، صلا أسود (دبسا) أجود من صل جند الهند الغربية ، وروما من أطيب المشروب ، بثمن اجمالى قدره سنويا مائة ومبعمون ألف جنيه .

معامل السكر

وأخرجت ، ثانيا ، معامل نسيج عديدة ، اشتغل فيها من الصائغين ما ربا عدهم على عدد صناعات كل حرفة أخرى : فألف وستمائة منهم كانوا يشتغلون في معامل دوائر الولاية باشا ، بغفوة ، وبولاقي ، وشبرا . والمعمل الأول كان يخرج خمسين ألف طربوش ، في السنة ، يباع معظمها الى رجال الهندية والبحرية ، وباقيها للعموم ، والأخرى تخرج ٣١٥ ألف ثوب من الصوف ، معظمها للجنود أيضا .

معامل النسيج

وأقام بمصر ستين معملا لنسيج القطن والتيل ، وعشرين لنسيج الصوف ، وأحد عشر لمعمل الأبسطة ، ومائة وسبعة للمحاكة ونسيج البقعة .

وأقيم بالإسكندرية ثمانية وثلاثون عملا لنسيج القطن ، وواحد وثلاثون عملا لمعمل الأبسطة .

ونشأ في دمياط مائة وستة وستون دكانا لنسيج الحرير وإثنان وستون لصناعتة . وقام المجتهدون ، في بنى سوف ، يكثرئون من عمل البساط الصعيدى المعروف

بالكليم والأشجبة التيلية الخشنة للبس الفلاحين ؛ وكان في كل دكان من دكاكينهم من منوال الى اثني عشر منوالا .

وأُخْرِجَتْ ، ثالثا ، معامل لصنع المعادن ؛ منها ثلاثة للحكومة ، وهي : مسبك مدافع ، ومصانع المعادن ومعمل بنادق — وفيه ماكينات لتصليح البنادق من أحدث طراز ومجتان — وعنابرهما ببولاق ؛ ومعمل خرطوش بالاسكندرية ؛ علاوة على معمل سلاح ، وعنابر للبواخر والسفن الحربية — وهو ما أنشئ فيها بعد نظيره في السويس .

أما معامل شغل المعادن الخاصة بالأهليين فكانت بمصر : خمسة وثمانين مسبك حديد ، و٧٣ معملا للنحاس ، و ٨٠ محلا للتبييض ، و ٢٤٠ محل صانغ ، وصدة معامل سلحدارية وحلادين ، تخرج من الأسلحة أنفصها وأجملها ، ومن الأدوات الحديدية الصغرى ، ما تدعو اليه الحاجة ؛ وبالاسكندرية : ٦ مسابك حديد ، و ٣٠ محل حلادة ، و ٢٠ معمل نحاس ، و ٩٣ محل صياغة .

ثم أنشأت الحكومة ، بقلوب ، معملا لضرب اللبن كان يخرج ٧٠٠٠٠٠ لبننة حمواء كل عام ؛ ثم الألف منها تسعون قرشا صافا — وكان معظم البناء حينذاك بالآجر والقليل منجلا بالبحر . وكانوا يستخرجون الحجر ، بمصر ، من المقطم ؛ وبالاسكندرية ، من المكس كما هو شأنهم اليوم ، بعد أن كانوا ، قبل سنوات قليلة من ذلك العهد ، ينهبون المعابد القديمة كلما أرادوا إنشاء بناء بالبحر .

وبدت الدباغة وصناعة الجلود فأنشأت الحكومة ، لهذا الغرض ، مصنعا بالدباغة بالاسكندرية ، كانت تدفع فيه من ثلاثين الى أربعين ألف جلد سنويا ، ما بين جلود بقر وبجاموس وخراف وما عنى .

وأثنى الأفراد نيفا وثلثين مصنعا بمصر والاسكندرية ، تجهز وتدبج أكثر من مائتي ألف جلد سنويا . فكثرت تصدير الجلود المصرية الى الخارج ، وراجت صناعة السروجية في داخل القطر رواجاً عظيماً .

ولسنا نقول شيئاً عن صناعة الخزف ؛ لأنه من المعلوم أن صنع الفل والزلج والأباريق والأزهار ، وما على شاكلة ذلك جميعه ، والتفنن في صنعه ، قديمان بمصر قدما تكاد النكرة لا تذكره ؛ ومن المعلوم أيضا أن هذه الصنعة بلغت في مصر القديمة شأوا لم تبلغه في مصر الحديثة . ولكنا نقول ان أفضل أدوات حرفته إنما كانت تخرجها مصانع قنا وبلاص وأسيوط ومنفلوط وملوى ؛ وتنزل الى المراكب في النيل منها ، سنويا ، نحو مائة ألف قطعة ، كما كانت تفعل في أيام طوطمس العظيم ، وأيام أن أكره بنو اسرائيل على مغادرة مصر .

وأخرجت هذه الأرض المصرية أيضا من ثمانية الى عشرة معامل زجاج — واسم أحدها لا يزال مطلقا على إحدى المحطات بين الاسكندرية ودمهور — كانت تصنع للأسواق نيفا وعشرة آلاف قطعة متنوعة ، سنويا ؛ عدا عشرين ألف زجاجة مصباح . نذكر هذا : والألم ملء القواد ، في هذه الأيام التي لا يعمل زجاج لنا فيها حتى أصبحت زجاجة المصباح البسيطة ذات العشرين الفضة دارجة ، سابقا ، تباع بنصف ريال ، منذ أن حالت الحرب العالمية الكبرى دون أن ترسل مصانع الغرب شيئاً منها إلينا .

وماذا نقول عن معامل الورق التي أقامتها الدائرة السنية — أى دائرة (اسماعيل) — ببولاق سنة ١٨٧٠ ، وكان يشتغل فيها ٢٢٠ عاملا وطنيا تحت رقابة مهندسين

ورؤساء أعمال من الانجليز ؛ فيخرجون ١٨ طنا من الورق المستعمل للفسكر ، وسبعين ألف فريدة ورق طباعة وكتابة ، من أنواع مختلفة ، يصنع أو طوؤها قيمة من الحلقاء وقشر القصب ، وكانت تكفى كل الحاجة اليها بمصر ، ويصدر الزائد على الحاجة منها بالات بالات الى الججاز ، بل الى الهند ؟

نحن لا نتوسع في ذكرها ، خشية إيلام القوس ، لأن عددها الآن بمصر ، مع انعدام الوارد من الخارج أصبح يهدد المدارس ، بالإقبال ، لا الصحافة والتأليف فقط بالتعطيل ، ومصالح الحكومة بالارتباك .

تحسين المطبعة  
الأميرية

أما المطبعة الأميرية التي أنشأها (محمد علي) فان (اسماعيل) وسعها توسيعا أصبحت معه تستطيع أن تطبع كل ما تحتاج اليه مصالح الحكومة ، وجميع كتب التدريس التي تقررها وزارة المعارف العمومية باللغتين العربية والتركية ، وفي كل لغة من اللغات الأوروبية الكبرى ، كالفرنساوية والانجليزية والاطليانية ، طبعا نظيفا متقنا ، خليفا بأى مطبعة بباريس ولندن ، مهما كانت كبيرة ، ومعنى بها ، أن تفتخر به ، مع أن عمالها — وكانوا أكثر من مائة — كانوا جميعا من المصريين .

على أن الإقدام الشخصى شرع ، مع ذلك في مزاحمتها مزاحمة كبيرة منذ ذلك الحين . فالدائرة السنية أنشأت محل ليتوغرافيا لها ببولاقي ، وأنشأ بعض الفرنج والأهليين خمس مطابع وخمسة محال ليتوغرافيا بمصر ، وأربعة بالاسكندرية ؛ ولكن العمال فيها كانوا لفرنج كلهم .

وزاد عدد المشتغلين في باقي الحرف ، فالطعانون والقزانون أصبحوا طائفة كبيرة ؛ وبلغ عدد الخبازين في المدن والبنادر وحدها — خلافا للفلاحين والبندو —

٢٣٠٠ خباز منهم ١٠٠٠ بمصر و ٤٩٠٠ بالاسكندرية . وبلغ عدد صانعي الفطير والخبز ألفا ومائتين ، منهم ٨٠٠ بمصر ، و ٢٠٠ بالاسكندرية ، والباقي في البناجر . وبلغ عدد الطواحين البخارية ٢٧ بمصر و ٢١ بالاسكندرية ؛ وما يدار منها بالخيول ٥٧٥ بمصر و ١٢٧ بالاسكندرية ، علاوة على ٣٧ طاحونة هوائية بهذا الثغر ، وجملة طواحين بطنطا والزقازيق والمنصورة . وكان للحكومة طاحونة بخارية عظمى ، تقوم بطحن الغلال اللازمة للجيش والبحرية ، ومخزنان عظيمان بمصر والاسكندرية ، لتوزيع الخبز على الجنود والتوتية ، وعلى جهات البر والمدارس والحجاج العابرين . وزاد عدد البنائين وصانعي الأحذية والسمكرين ، وازدادوا امتحانا لصنائعهم ، حيال المزاومة الأجنبية ؛ كذلك كان شأن التطريز والصياغة ، ولو أنهما استمررا يشتغلان على النماذج القديمة المصرية .

غير أن صنعة عمل المشربيات والتفنن فيها أخذتا يزولان شيئا فشيئا ، وتحل محلهما الصنعة على الطراز الغربي ؛ حتى أصبح بمن «العينة» فقط من الصنعة القديمة أغلَى مما كان ثمن الشباك كله في عهد علي بك الكبير ومحمد بك أبي الذهب . وكذلك بات شأن الترويق والتلميق في داخل المنازل والقصور : فان النوق والصنعة القديمين زالا منهما ، وحل مكانهما النوق والصنعة الألمانية .

معامل التفريخ      أما التفريخ فيبقى كما كان قديما ، ووصفه هيرودوتس المؤرخ اليوناني . غير أن معاملته — وكانت عددها ٦٠٠ في القطر — ازدادت كثاشا وطفقت تخرج نيفا واثني عشر مليون دجاجة سنويا .

معامل القطن      وأدت الحرب الأميركية الأهلية إلى إنشاء معامل قطن في البلاد ، منها ستة بخارية ، بتسعة مكابس بالاسكندرية ؛ ومعملان في داخلية القطر ، أحدهما

بالمنصورة، خاصة و «تورت اخوان» ، كان أكبر المعامل قاطبة ، لاشتماله على ثمانين محلجا وسبعين مكبسا وآلات لتنظيف الدرة وطواحين زيت وطواحين دقيق عظمى وآلات لفرز الكنان .

وأحيث روح (اسماعيل) العمل في مناجم الزمرد، بجبل زبارا ووادي سقيط، بين إدفو والبحر الأحمر؛ وفي مناجم الرصاص، بجبل الرصاص، في الجهة عنها؛ وفي مناجم الذهب في بلاد البشاريين؛ وفي مناجم الفيروز بغاور شبه جزيرة سيناء؛ وفي محاجر المقطم وأسوان الفرانجية، ومحاجر وادي عمرحوب المرمرية، وجبل الدخان الأبيض والأحمر الرخامية؛ وحشت: فأوجد البحث قليلا من الحديد والرصاص والنحاس في بعض الصخور بشلال أسوان وجبل زبارا .

ولشط استخراج النطرون من مديرية البحيرة، واستخراج الترات والأصلاح من البحيرات ومن الصخور، حوالى شواطئ البحر الأحمر .  
أما النطرون فأصبح له ثمانية أحواض كبيرة، وبركان صغيران تحفان في الصيف، استغلت الحكومة جانبها منها، واستغل الأهالي الباقي؛ واشتغل فيها ثلاثمائة عامل، منهم مائة راهب قبطي مقيمون في أربعة أديرة .

وأما الترات، فانه أمضى يستخرج منه ٦٥٠ كيلو من أمهاض المدن القديمة، وينظف في المعامل المصرية، فيؤدى ٥٦٠ كيلو من ترات البواتسا .

وأما الملح، فانه أصبح يشتغل في استخراجة ألف شخص وألف وثلاثمائة حيوان من اثنتي عشرة حفرة؛ فيستخرجون منه ٧٢٠٠٠ إردب سنويا .

ووجد زيت حجر (بقول) على بعد مائة ميل جنوب السويس؛ فأحضرت المسكيات لاستغلال ينابيعه، وبوشر العمل؛ وما لبث أن أخذ يشر بفلاح قريب .

العمل في مناجم  
الزمرد ومناجم  
أخرى

استخراج النطرون

والترات

والمح

وراج صيد الأسماك في المصايد والنيل والبحر فاشتغل نيف و ٣٧٠٠ صياد ،  
 في نيف وثمانمائة قارب ، على النيل وفي البحر ؛ وما يزيد على ستة آلاف صياد ،  
 في أربعة آلاف قارب ، على بحيرة المنزلة ؛ حتى بلغت العوائد المربوطة على هذه  
 البحيرة قطع ستين ألف جنيه ؛ وراجت كذلك الملاحة النيلية : فبلغ عدد المشتغلين  
 فيها ستة وثلاثين ألفاً ؛ وكانوا أكثر الناس بسطة في السرور ، وأستثم ميلا الى  
 الابتهاج والغناء ، وكثيرا ما كانت الحكومة ، ساعة احتياجها الى نوتية في سفنها  
 الحربية أو التجارية ، تستدعيهم اليها وتنظمهم في سلكها بأجور جيدة . أما المراكب  
 النيلية التي كانوا يعملون فيها ، فكانت على مستين نوتا من النعيبة الفخمة الى  
 الصنديل البسيط .

وقد وضع بعضهم تعدادا لأرباب الحرف والصنائع في القطر ، سنة ١٨٧٧ ،  
 فافا بهم كالاتي : ٣٧١ صانع أساحة ؛ ٢٦٠٥ حداد ؛ ٤٣٤ صانع لبن ؛ ٦٤٧٣  
 نشارا ونجارا ؛ ٣٢٠ خاما ؛ ٧٧٠ صانع ملابس ؛ ١٢٩٦ نحاسا ؛ ٥١٠٩ صائغ ؛  
 ١٨٧١ مطرزا ؛ ٣٢٠ حفارا ؛ ٨٦ قريانيا ؛ ٢٦٣٠ جوهريجا ؛ ٢٤٨٢ حرقا جيرا ؛  
 ٢٨٥ مرنحاق ؛ ٤١١٣ بناء ؛ ١٤٦٣ حصريا ؛ ٦٨٦ نقاشا ؛ ٢٥٧ عامل شباك ؛  
 ٥٤٠ طوانيا ؛ ٨٣٤ نحرانيا ؛ ١٩٠ خيالا ؛ ٧٧٠ سروجيا ؛ ٢٢٣٥ صانع أحذية ؛  
 ٥٨٩ مفرلا ؛ ١٤٠٤ حجارا ؛ ٣٥٢٠ خياطا ؛ ٩٧١ دباظا ؛ ٥١٠ قصديري ؛  
 ٤٣٦٠ سمكريا ؛ ٥٨٢ منجدا ؛ ٣٠٠ مطبعا ؛ ٢٠٠ صائغ ورق ؛ ٢٥٠ صانع زجاج ؛  
 ١٠٠٠٠ نساج ؛ ٩٦٠٠ صائد سمك ؛ ٣٦٠٠٠ مراكي (نوتى) ؛ ٩١٠ قفطاطى ؛  
 ٣٥٠ مركب منازيب .



فكان، والحالة هذه، مجموع المشتغلين في الحرف والصنائع مائة ألف وأكثر، أى بنسبة ١ الى ١٢ من مجموع الذكور البالغين في القطر جميعه . وهذه نسبة تدل على مقدار الحركة والعمل في مضامير الصناعة والفن .

وكانت الأشغال الهندسية ، في كل ما تستدعى الحرف المذكورة منها، معهودا بها في بادئ الأمر الى رجال من الانجليز بمرتبات تتراوح بين ٨ و ٢٥ جنيا شهريا . ولكن الحركة التعليمية ما لبثت أن أحلت المصريين ، لاسيما المتخرجين من مدرسة الفنون والصنائع ببولاق ، محلهم بمرتبات من ٨ الى ١٠ جنيات شهريا .

غير أن هذه الصنائع والحرف كلها ، ولو أنها كانت بمحركتها الحديثة ، والنشاط الذي أوجبه ، تجعل مصر شبيهة بخليج نحل ، الكل فيها يشتغل ، لم تكن سوى وجه من وجهى الحياة العملية التي دبّت في جسم القطر إذ نفخ ( اسماعيل ) فيه من روحه .

وأما الوجه الثاني فالأعمال والمنشآت الخصبوية والعمومية ، التي أشغل فيها ذلك الأمير المقدم المهم والمجهودات .

فانه ما ارتقى العرش ، إلا ووضع نصب عينيه ، لاسيما فيما يختص بهامة الاسكندرية ومصر ، الاقتداء بأعظم قيصرو الرومان ، القائل : « وجدت روما مبنية باللبن ، ففكرتها مبنية بالرخام » ؛ أو بالامبراطور نابليون الثالث ، الذي وطن عزمه على تغيير شكل باريس ، من حسن الى أحسن ؛ وما قىّ ينفذه حتى صير العاصمة الفرنسية و عروس مدائن العالم طرا .

عمار الاسكندرية أما الاسكندرية، فلما بعد عزها الأقدس في أيام البطالسة والرومان والبيزنطيين أضرمهم، إذ كانت ثانية عواصم المسكونة، وكان عدد سكانها يرو على سقائة ألف آلت الى الخراب والدمار، شيئا فشيئا على توالى القرون، لتضل السياسة عنها .

(أولا) مذ اتخذ عمرو مدينة الفسطاط عاصمة له (عملا برغبة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب في ألا يكون بينه وبين المسلمين بمصر ماء) ، فالمسكر، فالقطائع ، فالقاهرة، وابتعاد التجارة عن شواطئها .

(ثانيا) منذ أن أنشأ الطولونيون مدينة رشيد ، وبعد أن أبقي الظاهر بيبرس دمياط الحديثة على أقاض دمياط القديمة؛ وما زالت مبانيها تهدم، وأكوام المهديم تكتنف العمور، وتزاحم على قواعده، وتحصره فيها حرف، لغاية عهد (محمد علي) الكبير، بالجزيرة الخضراء؛ وما قئ عدد سكانها يتضائل، حتى باتت ضيقة حقيرة، لا يؤبه بها؛ وبات سكانها لا يزيدون ، إلا قليلا ، على ستة آلاف ، حينما احتلها الفرنسيون في سنة ١٧٩٨

عمل (محمد علي) فلما استخلص (محمد علي) الحكم لنفسه من أيدي الباشاوات المرسلين من لندن الأسنانه وأيدي الممالك، ومن مطاعم الدول المستعمرة؛ وعن له أن يتخذ الاسكندرية عاصمة لدولته الحديثة، ومقرًا ومرجعا لتجارها؛ وأقبل يعمرها، ويحسنها، ويجهلها، لا سيما بعد أن أوصل مياه المحمودية اليها : فأنشأ حولها الحدائق والبساتين، وأقام، على ضفاف تلك التربة، القصور والمنازل الخلوية البديعة؛ ومد ما بين باب رشيد وسرايه القحمة برأس التين، شارعا جميلا مرصوفا بحجر مستخرج من الجبل الأحمر فوق مصر، ومكسواً بمسحوق الجير والبسولانة الصناحية ، لتمتجح أجزاء ذلك الحجر

مما، وبهرز متجانسة لا تنوء فيها؛ وبني الترسانة على يد سيريزى بك مشيد عمارة البحرية، التي خلقت أسطوله المدمر في واقعة ناكارينو؛ وأنشأ الخوض الحديدى العالم لتصليح سفنه التجارية والحربية، على يد موجيل بك؛ فصنع بفرنسا، وأتى به، جاهزا، الى الاسكندرية، فوضع في المثل المعدله، وكلف ١٢٧ ألف جنيه؛ وأصلح الميناء الجديدة؛ وصرح للبرج بالخروج من وكالتهم المدعوة "فندق" التي كانت متاجرهم فيها، ويأوون اليها ليلا وتقبل عليهم أبواها، لئلا يمتزجوا بالأهلين أو يمتزج الأهلون بهم، وأذن لهم بالانتشار في المدينة: فأقبلوا ينشئون لأنفسهم الحى الذى عرف فيما بعد باسمهم؛ وقد اقتدى به ابنه ابراهيم، وأنشأ الميدان المعروف بالمشية؛ وشيد حوله المنازل الفخمة التي شرع بإجرتها بأجور عالية الى قتاصل الدول العامة، حتى دعى ذلك الميدان باللغة الأجنبية "ميدان القناصل"؛ وأقيم زعماء التجارة، المتعاملون مع (محمد علي) مباشرة، كزينيا، وأنسطاسى، ونجاره، وغيرهم، على بناء قصور لهم ومنازل لا يأتى الملوك أنفسهم السكنى فيها؛ حينذاك أخذت الاسكندرية تنمو شيئا فشيئا وتوسع، فتتلاشى أكوام الخراب أمام تحطم خطوات المار؛ وتتكون الأحياء الجديدة فوق وفات الأحياء الميتة؛ وتخطط الشوارع الحديثة فوق خطوط شوارع الاسكندرية، الرافدة تحت تراب القرون؛ اسكندرية البطالسة والرومان؛ حتى أصبحت مدينة مساحتها خمسة أضعاف ما كانت عليه، يوم أن فتحها بونابرت، وجرح كليبر في رأسه وهو يهاجمها من جهة باب رشيد؛ وأصبح عدد سكانها نيفا وستين ألفا. وما زالت تنمو، بعد ذلك، وترداد بتدقيق حياة القطر وتجارتها كلها اليها، وزوج الريف العامل للسكنى فيها، وحب سعيد لها، وتفضيله إياها على العاصمة، مقتديا في ذلك بأبيه المهيد، حتى أصبحت في عهده

عمل (ابراهيم)

مدينة ذات مائة ألف نفس تقريباً تزدحماً بالقصور والبساتين والمنتديات العامة، ما تزدحماً به المدن الغربية التي هي من درجتها .

ولكن نموها لم يكن منظماً ولا مطابقاً لروح العصر الجديد . فانها بقيت قليلة الشوارع الواسعة المسلوكة ؛ كثيرة الأزقة والدروب الضيقة ، المعوجة ، القذرة ؛ كثيرة الحفر والتقر ، في ذات الشوارع المهمة ؛ لها بالك بالحارات والمسالك الصغيرة ؟ لا تنظم فيها ، ولا اعتناء بنظافة ورش وصيانة ؛ تنكس الأتربة والأفئدة في طرقاتها وسككها التربة ، التي لا بلاط يغطيها ، فاذا هبت ريح عليها ، انتشرت ، عثراً شريراً ضاراً ، في الفضاء ، وأصاب المائة بأمراض في أعينهم ؛ أو ضربتهم بأوبئة في أحشائهم ؛ وإذا سقط مطر ، تحولت الى وحول ، بعيدة النور ، تنرق فيها الأرجل حتى الركب ، والعربات حتى ما فوق نصف السجل ؛ فبيت المرور منها متمذراً ، وتنقطع حركة الأخذ والعطاء ، إلا اذا استخدمت الجمال والمهجن لنقل البضائع من الجمر إلى الأسواق ، ومن الأسواق إلى الجمر ، بأجر باهظة ؛ وإذا ماجت الليل ، وانسدلت سدول ظلماته البهيمية ، انباعت الأخطار والأحوال في تلك الشوارع والأزقة والدروب ، لعدم وجود تنوير عام فيها ؛ وانقطع مرور الأقدام منها ، إلا أقدام من لم يصف التعرض لشر اللصوص وقطاع الطرق ، أو اضطرت أشغاله للتفرير بنفسه ؛ وباتت الضواحي ، حتى عند أبواب المدينة عينها ، محطاً للثمن والإجرام . وبما أن استنفاة أغلبية الأهالي ، بالرغم من توصيل مياه النيل إليهم في ترعة المحمودية ، استمر من الصحاريح ، كما كان قديماً ؛ أو اذا تحول إلى مياه المحمودية ، قلما احتفى بتطهيرها أو ترويقها ؛ وبما أن الوقايات الصحية لم تكن مألوفة ، وكان ذبح المواشي اللازمة للغذاء ، مثلاً ، يتم على قوارع الطرق أو في داخل حوانيت الجزارة ؛ وكان دفن الموتي

يباح في جوار المنازل وداخل المدينة ، حتى في المساجد والبيوت ، ما فتئت الأوبئة ، ولا سيما الطاعون ، تهاجم الاسكندرية الجديدة وتفتك بأهلها ، بين حين وحين ، فتكا ذريعا .

فأقبل (اسماعيل) يغير ذلك جميعه ؛ ولو أنه لم يكن يحب مدينة الاسكندرية ولا الإقامة بها ، لطيره منها ، بعد أن قال له منجم أنه سيلقى منيته فيها . وإذا بالسائح الذي زار تلك المدينة في أوائل سنة ١٨٦٣ ، يكاد لا يعرفها لدى عودته اليها في سنة ١٨٦٩ ؛ ويكاد لا يعرفها ، من جديد ، لدى عودته اليها مرة أخرى في سنة ١٨٧٨<sup>(١)</sup>

لشوارعها وسعت بالتدريج توسيعا مستمرا ؛ واترعت منها أكرام الأقدار والأثرية ؛ وطمرت الحفر والنقرب ومهدت تمهيدا حسنا ؛ وبلطت بلاطا جميلا أتى به من تريسق ، بمصاريف كبيرة ؛ وغرس بعضها ، على جانبيه ، بالأشجار الباسقة ؛ فأصبحت حركة التجارة فيها آمنة مطمئنة ؛ وحركة النقل والتنقل سهلة تم بمصاريف قليلة من الجمرك واليه ، وبين أنحاء المدينة قاطبة .

وحاراتها وأزقتها وسعت بالمثل ؛ ونظفت ؛ وأبعد عنها كل مسببات الأمراض والأوبئة ؛ وفصلت أحيائها بعضها عن بعض بقواعد تنظيمية ، مافق مفعولها يزيد ، بين أقسام المدينة ، فراغا جميلا ، أخفى يملا حداثى وبساتين ؛ وأنشئت أحياء جديدة ، أهمها حى للعالم ، بنى على الأراضى الواقعة بجوار عامود الصوارى — وكانت ملكا لسيو راثيه السابق ذكره ، فاشترأها (اسماعيل) منه وهبها للحكومة — وأمر بأن تنفق أجور المساكن التى يدفعها العمال فى سبيل إنشاء مستشفى لم يطمعون فيه بجانا . واختطت شوارع جديدة ، منها ما هو للزهة المحضة كشارع المحمودية وسكة

توسيع الحارات

إنشاء حدائق وأحياء جديدة

إنشاء منزهات

(١) أنظر : "صرحت حكم اسماعيل" لسانق .

الزل — وهما من أجمل متزهات القطر؛ ومجلىا، حين تما، عروىى السكك المصرىة قاطبة — ومنها ما قضت به الحاجة فى الأحياء الجديدة .

الإتارة بالغاز

وأثيرت جميع هذه الشوارع والأحياء والضواحي بالأنوار الغازية ، إنارة بديعة، على مثال المدن الأوروبية الكبرى . فزالَت الأخطار والأهوال منها؛ وولت أقلام الأمم مدبرة؛ وسادت الطمأنينة وانتشر الأمن فى كل جهة بعد مغيب غزالة النهار .

إنشاء البلدية

وأنشئت بلدية للاعتناء بأمور التنظيم، والصيانة، والنظافة : فأبطل الذبح داخل البيوت والحواليت، وجعل له محل خاص، وأبطل دفن الأموات فى المدافن الخاصة ببحوار المنازل وداخل المساجد؛ وغيرت طرق الاستقاء، ووزعت المياه على البيوت مرفقة جهد الاستطاعة؛ وأقيمت الوقايات الصحية، على يد الإدارة الصحية المعروفة إذ ذاك باسم "الانتدانس سانيتير"؛ غففت وطأة الأمراض والأوبئة، وأخذت تتلاشى جرائمها شيئا فشيئا .

تجاوز القمار الأسوار  
وأتت بواب القديمة

وخرج بالعمار خارج الحدود والأبواب القديمة ؛ وسير به شرقا وجنوبا وشمالا، مسيرا حثيثا، وقامت القصور فى وسط الرياض الفيحاء والفايض الزاهرة، تمتد، حلقة متصلة، على شاطئ البحر، من طابية الرومان الى ميدى جابر، وما فوقها؛ وأجملها كلها وأكبرها حيا القصور التى شادها ( اسماعيل ) لنفسه ولأبنائه وبناته، ابتغاء تشغيل العمال ومساعدتهم على القيام بشؤون حياتهم . وافق أن أحد تلك القصور — وهو الذى شاده لنفسه خاصة، وكان أوسع الكل أرجاء — احترق بعد الفراغ من بنائه؛ فأمر بإعادته أحسن مما كان .

تاهيك بالأعمال والأشغال العظمى التى عملت فى الميناء واستوقفت إعجاب الكل، بما سبق لنا بيانه .

فزاد ذلك جميعه في مساحة البلد المبلية ، حتى أصبحت أربعة أضعاف ما كانت عليه في عهد سعيد ، وزاد في عدد سكانها حتى أضحى ، في أقل من خمسة عشر عاما ، نيفا و ٢٤ ألفا ، منهم ٤٨ ألفا غربيون ، بعد أن كانوا ٧ آلاف فقط ، عند ممات الباشا العظيم ! ولكن يبرهن أن عصره عصر رقى فكري صحيح ، وعهد تقدم حق في مسائل الحضارة ، أقام في شهر أغسطس من سنة ١٨٧٤ في ميدان المنشية الذي أنشأه (ابراهيم) أبوه ، تمثالا نحاسيا لحقه العظيم ، تجلى فيه (محمد علي) ، فارسا مهيبا ، يشرف على الساحة الفسيحة ، ويده الثابتة على خاضعته القوية ، تدل على أن النصر بات طوع بانه وأنه نشر مجده في الفضاء الخاف به !

إقامة تمثال  
(محمد علي)

عمار مصر

وأما مصر القاهرة<sup>(١١)</sup> فانها ، بعكس الاسكندرية ، ما فتئت تزداد عمارا واتساعا ، منذ أن أنشأها جوهر قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي ، حتى اقتراض دولة الأمراء المماليك ، وقيام الأسرة الحمديدية العلوية . ولكنها بالرغم من كل بناء قام فيها ، ما فتئت محصورة بين بابي الفتوح والنصر شمالا ، والخليج المصري غربا ، والجبل وقرافة المماليك وسلاطينهم شرقا ، ونعرايب القسطنطين جنوبا . وكان كل حد من هذه الحدود يمتاز بتلال سوداء من الخرابات والأقذار تعلو عنده حتى يبلغ ارتفاع بعضها من خمسين الى مائة قدم ، كالتلال التي لا تزال نواحي جنوب مسجد أحمد بن طولون الى يومنا هذا وهي أطلال مدينة القطائع ، عاصمة الطولونيين ، الواقعة بين قسطنطين عمرو وقاهرة المعز . وكان سكان كل حد ، ما عدا الحد الغربي ، لا يفتأون يزيدون تلك الأكام القنطرة ارتفاعا ، بما يرمونه عليها ، يوما ، من أقذار منازلهم .

(١١) جميع التحسينات التي أبريت في القاهرة على أيدي (ابراهيم) و(اسماعيل) أنظر : كتاب لبنان دى بقفون المنون : "مذكرات عاتم من الأعمال الهامة بمصر منذ أيام القراعة الى الآن" ص ٩٥ وما يليها .

وأما الحد الغربي، وهو الخليج، فكما أنه كان — أيام الفيضان — مستقى المنازل المقامة على شاطئه، والمتدلية منها الأدلاء فيه، كان — أيام التصاريق — مصب مجارى كل تلك المنازل . إلا أنه كان، في وسطه، عند بركة أوجدها هناك الفيضان، يتكيف تكيفا يقر العين، بما أنشئ فيه من بساتين منذ عهد الأمير أزيك، قائد جنود (قايتباى) التى قهرت عثمانى (بايزيد الثانى) ، في ربوع سوريا القصبية، حتى عهد الاحتلال الفرنسي، وأطلق على مجموعها اسم الأزرىكية، إكراما لذلك الأمير .

فكان القادم الى مصر، من أية جهة يصل إليها، حتى من جهة الغرب — لأن تلال الاقنار كانت تحصل الأزرىكية عن بولاق — يرتد نظره عند وقوعه على تلك الدمن ، ويود لو أن فى الاستطاعة ازالها وملاشاتها، ولكنه لا يلبث أن يسلم بأن ذلك محال، بعد ما يتأمل جسامة الأكوام، ويقدر الهمة الواجبة للاقدام على ذلك العمل الشاق فوق كل تصور، والذي يعد بجانبه ما قام به هرقل، البطل اليونانى من تنظيف اسطبلات أوجيلاس الملك ، لعب أطفاله ، حتى جادت الأيام لمصر (إبراهيم) الهمام .

فبينما (محمد على) أبوه يكلف برهان بك رئيس ادارة الأشغال العمومية ، وأحد تلامذة البعثة المصرية الأولى الى باريس، بوضع مشروع لتحويل الأزرىكية ببركتها الى بستان عام ، يشتمل من الخضرة السندسية والظل والماء على ما تشرح له الصندور، وبينما برهان بك يصدر بالأمر، ويضع مشروعه، ويقدمه الى الأمير، فيعتمده ويأخذ من وقف الأسرة البكرية الأربعين فدانا المتكونة جهة الأزرىكية منها، ويعطيهم — بدلا عنها — أطيانا ببلدة جهتم قدرها عشرة أضعاف المأخوذ منهم؛ بينما يقدم برهان بك على نفاذ المشروع ، ويحول الأزرىكية الى المتنزه المرغوب فيه ،

عمل (محمد على)

تحويل الأزرىكية  
الى متنزه عام



سنة ١٨٣٧ ، أمر (ابراهيم باشا) المسيو بونفور مهندسه بإزالة الأكوام كلها الواقعة ما بين النيل وبولاق ، ومصر القاهرة ، والقسطاط (مصر العتيقة) ؛ وإنشاء متزهات خاصة مكانها ، تمتد مدى البصر . ووضع تحت تصرفه ما شاء من الأموال والرجال . فأقدم المسيو بونفور بهمة على تنفيذ ما أمر به ؛ ولم تمض ثمان سنوات إلا وتم ثلثا المهمة ، وتجلبت الرياض والفياض الفيحاء ترينها الإختبار الباسقة — لاسيا الجيز والليخ — حيث كانت تعملو الأكوام الجارحة للنظر .

ولما عاد (ابراهيم) من حروبه بسوريا ، شغل الأعمال الجارية وأتم بونفور ما كلف به . فزال الأكوام كلها من باب الحديد الى مصر القديمة ، غرب القاهرة بأسرها .

همل (ابراهيم) حينذاك أقبل (ابراهيم) على إزالة ما كان منها بحريها أيضا ، أى ما بين بابي الفتوح والنصر ، من جهة ؛ والعباسية والظاهر والفضالة الحالية ، حتى باب الحديد ، من الجهة الأخرى . ولم يكن في استطاعة غير المنصور في (تزيب) تقيم ذلك العمل التيتاني . فأقبلت الأيدي بتأثير ارادته القوية وهمته الشياء ، تعمل ، بكثرة واستمرار ، معاول القطع والجرف ، في تلك الدمن المتكدسة ، فتترعها وتطرحها في البرك المجاورة — وأخصها بركة الرطل ، وبركة طبالة المستنصر الفاطمي — فتطمها ، حتى نظفت منها الجهة ما بين بابي القاهرة الشماليين والفضالة ؛ وجففت ، في ذات الوقت ، تلك البرك التي كثيرا ما كان الفيضان وعدم الاحتواء يحولانها الى مستنقعات ، تتولد فيها جرائم الأسراض .

(١) أنظر : بكار مسكار "مصر تحت حكم محمد علي" ص ١٦٣ وما يليها وهو الكتاب المكون أيضا "أسفار وحوادث بمصر" .

وإذا بالموت دام أبا (اسماعيل) الهام، وقطع شجرة حياته، وهى فى ابان إثمارها فوقف العمل، وفرحت الأوبئة .

تغلبت الأوبئة

وكان حى الأوبئة فى أثناء ذلك قد تغيرت معاملته مرتين : فبرهان بك حاطله ، أولا ، بسد كان من شأنه أن الأرض داخله يُتحول كلها الى بحيرة عظيمة تتمخر فيها المراكب ، أيام الفيضان ، وتصير ، فى باقى السنة ، الى حقل ، بساطه السنسمى من البرسيم العطر ، والأشجار المغروسة فيه مغلال خضراء كغلال الجنان ، تنزّد على أوكلتها الطيور ويهدل الحمام . وحضر ، خارج ذلك السد ، ترعة عرضها عشرون قدما تجري فى طوله وتصل — بفتحات — بالبحيرة ، فتوصل إليها الماء اللازم لرى أرضها أيام جفاف فوشها ، وتفصل السد عن الشارع الدائر حول ذلك الحى — وهو شارع كان عرضها مائة قدم تحف به من خارجه البيوت ، ومن داخله صفوف من شجر اللبخ الزكى الشذا — فكانت ، وأنت مستظل بها ، تتمتع نظرك بماء البحيرة وزمرد أوراق الشجر ، أو بالساط السنسمى السابق ذكره ، وتلذذ سمعك بخير مياه التربة . أما الوجه الحسن فلا تعلمه الصدف فى ساعات النهار . وقد كان يحيط بحى الأوبئة ، من جهاته الثلاث ، قصور فخمة مشيدة على النسق الشرقى ، وقف التاريخ فى بعضها ، مفكرا أنى يجرى مجاريه . فمنها القصر الذى شاده محمد بك الأتلى بعد هدم ثلاثة غيره لم تقم طبقا لذوقه . فلما أتم بناءه وجاء وفق مرامه ، داهمت الحيلة القراموسية الحكم المملوكى وبلدت شمله شذو مذر . فذهب الأتلى بك ، بعد كسرة امبابية ، يهيم على وجهه خلف مراد بك زعيمه ، وحلت قدما بونابرت ، رجل الأعداء ، فى ذلك القصر : فكان كأنه بنى له . ومنها القصر الذى اتخذ كليب مقرا لأركان حربه ، فوفاه فى البستان المحيط به سليمان الحلبي وقتله — وكان والى

دمشق قد وعد ذلك البائع المتحمس دينيا ، باطلاق سبيل أبيه من السجن الذي كان قد زجه فيه ، اذا هو أقدم على الفتك بقاهر الصدر الأعظم يوسف باشا ، في ساحة وغى هليوبوليس . فبرّ سليمان بوعده غير أن أباه لم يغز بالنجاة وخوزق<sup>(١)</sup> وجعل (محمد علي) في ذلك القصر عينه ديوان معارفه العمومية ، ولكنه ألقى بستانه — حيث ذهبت المأساة المفجعة ، بطالع فرنسا في مصر — بالسراى الفاحشة التي كانت لا يثته زهره هائم ، زوجة الدفتردار الشهير بقسوته الطبيعية المتناهية ؛ ومنها القصر الذي كان نخسرو باشا ، علق (محمد علي) اللدود ، والذي أراد اغتياله ، مرة ، تحت ستار الليل البهيم ، ولم يفلح ؛ والقصر الذي كان (لمحمد علي) عينه ، يوم كان لا يزال يرتقى درجات سلم طالعه العجيب ، وحمل فيه زعماء جنده على أن يقسهوا على حسامه بطاعته طاعة عمياء في كل ما يأمرهم به ، وألا يتخلوا عنه ما دام حيا ، كيفما دارت حوادث الزمان ، وأما الجهة الرابعة ، فكان يشغلها صف بيوت خشبية عالية مظلمة وغريبة الشكل يملكها ويسكن فيها جماعة من الأقباط .

ثم تبادت الأيام وأساء بعض سكان تلك القصور ، لاسيما القناصل الأجانب ، استعمال التزعة ذات العشرة الأمتار مرضا ، وحولوا مجراها — في أيام التحاريق — الى اسطبلات لدوابهم وزرائب لطيورهم ودجاجهم ؛ ثم لم يلبثوا ، لكيلا تضيق منهم هذه المزية ، ان طلبوا ردمها زاعمين أن حيات خيثة تنبعث منها .

فردمت به ، ووقعت الأزيكية بذلك خير جزء من أسباب بهجتها ، فأهملت ؛ وما مضى إلا زمن يسير حتى تحولت الى دمنة ؛ ثم باتت مكافأ ترتكب فيه أعمال عريضة وسكر ، في القهوات والحانات المنتشرة في جنباتها ، وأعمال سرقة وتهتك تحت

(١) أنظر : بكار سبكار "سياحات وحوادث بمصر" ص ٢١٦ ج ١

ظل أشجارها، حملت أقدام الكرام على هجرها والابتعاد عنها، بعد أن كانت تؤمها كوكبات الفرسان الفانرى الملابس للثتره فيها، ومياسهم في ركابهم يحملون لهم شبكاتهم .

ومع أن القاهرة واقعة على مقربة من النيل ، فإن الاستقاء كان متعذرا فيها بعد النهر في الحقيقة عنها ، وعدم صلاحية مياه الخليج للشرب معظم أيام السنة . ولم يخف هذا العيب الأساسى فى موقع المدينة العظيمة ، على الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، سيد جوهر الصقل بأنها ، فيروى أنه قال له ، اذ قدم اليها من المهديّة فى المغرب : « لقد بنيتها ، يا جوهر ، فى بقعة لا هى على قمة الجبل ، فتحصن بها ، ولا هى على شاطئ النهر فتتفجع به ! » ولذلك فكر هو وخلفاؤه من بعده فى تحصينها من جهة الصحراء الشرقية ، وفى جلب مياه النيل اليها من الجهة الغربية . فاحتفر المعز ، الخندق الذى قاتل القرامطة عنده ، شرقيا ، ووفق حفيده ، الحاكم بأمر الله ، الى احتفار الخليج المصرى ، الذى عرف مدة باسم الخليج الحاكم ، والذى بات يروى عطش القاهرة دهرًا . ولكنه لم يكن وإفيا بالفرص ، لاسميا بعد أن تراخت المحافظة على نظافته ، فى عهد الحكم العثمانى ، وبات مستودع أقدار ومصرفها . وباد الأهالى الى الاستقاء رأسا من النيل على أيدي سقاكين .

تعذر الاستقاء  
فى القاهرة بالرغم  
من قربها الى النيل

فوجه (محمد على) اهتمامه بنوع خاص الى هذه المسألة الحيوية ، مسألة تموين القاهرة بماء للشرب . وفكر ، فى بادئ الأمر ، فى تعميق فرش الخليج المصرى ذاته ، بحيث يصبح ترعة صيفية تستمد مياهها لرى الأطنان الواقعة شمالى العاصمة ، فوق ارتفاع أهل القاهرة بها لشربهم .

سمى (محمد على)  
بجلب مياه النيل  
الى القاهرة

ولكن عقبات كثيرة حالت دون ذلك، أهمها أن أساسات جدران معظم المباني القائمة على ضفة ذلك الخليج أقل غورا في الأرض من العمق المنزوى إبلاغ قاعه إليه . فلو عمق الخليج لتداعت .

ففكر ، آنذا ، في طرق أخرى كإيجاد آلات رافعة عند فم الخليج ، أو إنشاء مصرف جامع في وسطه ، أو احتضار ترعة يكون فيها على بعد كاف ، فوق القاهرة ، بحيث إن مياهها ، إذا انصببت في الخليج ، كفته ماء طول السنة ، وفكر في تسير تلك التركة بين أكوام الفسطاط ، أو من وراء القلعة ، والذهب بمصبها في الخليج إلى شمال مصر .

ولكن المصاعب التي قامت دون تحقيق كل ذلك أدت إلى الإحجام عن المشروع بشأنا .

عمل  
(عباس الأول)  
في السبيل عنه

فلما شاد (عباس الأول) قصره المشهور في الصحراء الشمالية فوق الظاهر — قسمت تلك الصحراء العباسية ، باسمه — فكر ، هو أيضا ، في توزيع المياه على القاهرة ، وتسيير فرع كبير منها إلى ذلك القصر ، وكلف بالعمل لبنان بك ، ثم ضم إليه لاميير بك والمسيو بوديسو . فوضعوا المشروع وأفاضوا في تفصيلاته ، وقدروا نفقات تشييده بمبلغ ٣٦٩٩٣٣٤ فرنكا ، وبدعوا يسوّون الأرض ، ويخطّون تصميمات الشوارع التي عزّموا على تسيير مواسير المياه تحتها . ولكن العمل لم يخطّ إلى الأمام خطوة ، ووقف حيثما ابتدأ .

عمل (سعيد)  
في السبيل عنه

فأراد (سعيد) أن يبدى هو أيضا اهتماما فيه . فأجاز ، على فم سابائنيه ، انفصل الفرساوى العام ، لفرساوى يقال له المسنوكردييه ، بوضع مشروع جديد للغاية حينها

غير الذى سبق لباس باشا المصادقة عليه . فأسس كدبيه هذا شركة لذلك الغرض  
وباشر الأعمال التمهيدية تمام المشروع . ولكن الاهتمام لم يتعد هذا الحد ، لأن  
صعوبة التنفيذ كانت جسيمة .

ولا يخفى أن قلدر وجود الماء يوجب تراكم القذارة ، حتما ، وطعم التمكن من  
رش الأحياء إلا نادرا ، وأمام منازل الموسرين ، فقط على أيدي الرجال المعروفين  
بالسقاين .

فشوارع القاهرة — القاهرة عهد المالك وعهدى الفرنسيين و (محمد على) وقد  
كانت ضيقة ضيقا جعل سير العربات فيها أمرا مجهولا إلى اليوم الذى قدمت فيه  
لابراهيم بك الكبير عربية من فرنسا على سبيل الهدية (ومع ذلك فإن القوم هناك  
لما رأوا ، بعدها بقليل ، الجنرال بوناپرت يتجول فى أحياء مصر وبولاق بعربة تجرها  
ستة جياد استغربوا الأمر جدا ودهشوا له) — وكانت معوجة ، قليلة التهدم ، تزدهم  
الأخطار فيها بسبب ازدحام الأقدام فى مضايقتها — كانت ، اذا ، تربة كثيرة الغبار ،  
وتتجم عن انقصاد ذلك الغبار ، الكثير المكروبات ، فى الهواء ، نفس المضائق الناجمة  
عن انقصاد نظيره فى الاسكندرية . وبما أن ما كان يجرى فى النهر من أمور مخالفة  
للقواعد الصحية ومسببة للأوبئة وداعية لانتشارها ، كان يجرى بكيفية أوسع ، وعلى  
قياس أكبر فى مصر القاهرة ، لزيادة اتساع هذه عن ذاك ، وبعدها عن البحر الملح  
أى عن أعظم مصادر الهواء النقي ، كان انتشار الأمراض والحيليات الملهية والأوبئة  
سهلا فيها ، وقتكها بالأهالى ذريعا . وقد ترقب بعضهم حركتها ، فانتضع له أن الطاعون  
على الأخص ، كان يماود العاصمة كل عشر سنوات ، ويحتاج عددا عظيما من  
سكانها .

وصف شوارع  
القاهرة فى أواخر  
القرن الثامن عشر  
وأوائل القرن  
التاسع عشر

محل (اسماعيل)  
في تحسين القاهرة

فلما وطن (اسماعيل) حزمه على الاقتداء بأغسطس قيصر وناپليون الثالث، وأقبل على تنفيذ ذلك العزم بهمة المعتادة التي لم تعرف الملل ولا الكلال، يزيدها نشاطاً، ما كان يعتقد من صحة في قول أحد أولياء الله في عهد جده، وهو «إن هذه الأسرة المحمدية العلوية، ما دامت مقبلة على التشديد والبناء كان الملك والعز مضمونين لها، فإذا أفلتت منهما أو توانت فيهما، تلاشت أو اضمحلت» رعى إلى إصابة غرضين: (الأول) إدخال ما يمكن إدخاله من الإصلاحين الاجتماعى والصحى على القاهرة المعزولين الله، مع إبقائها على ما هى عليه من ذاتية تجعل المصور الوسطى، بفرسيتها، وقواها الخشنة الخالصة واتجاه الصناعة والفن فيها نحو ما يلعب بالتصوير، مع استمرار النوق لذته الحقيقية : وتجعل موصوفات روايات ألف ليلة وليلة، أيضاً حاضرة أمام الخيلة، كأن الأجيال لم تمر وتوال، وكأن تلك المصور لا تزال حية حاضرة؛ و(الثانى) إنشاء القاهرة أخرى غريبها يدعوها المصران، الحاضر والمستقبل "قاهرة اسماعيل" وتختص دون الأولى، بإعجاب القلوب، وتلذذ الأعين، بشوارعها الفسيحة، الظليلة، ذات الأرصفة الآمنة؛ وميادينها الواسعة، الجميلة ذات الفسقيات الزاهرة؛ وقصورها الفخمة، النبيلة، المقامة على أحدث طراز عصرى؛ وبساتينها الزاهية، المتنوعة فيها النباتات الغريبة، وملاعبها الفاتحة، المتلألئة بالألوان ليلاً؛ وأحيائها الطلقة الصيفية، القائمة الصحة على حراستها، بدل الأبواب القديمة .

ازالة أكوام  
القاذورات

فأقبل، أولاً، يزيل ما بقى شمالى القاهرة المعز من أكوام قذرة؛ ويطهر ما لم يزل غير مطهور من مستنقعات وبرك تبعث كراهة الروائح؛ وينظف ما بين بابى الفتوح والنصر، وقلمة الكيش، والسيدة زينب، من شوارع وأزقة ودروب وأسواق، بتعميم الكنس والرش فيها، ومنع ثورة الغبار وكل مخالف للقواعد الصحية ثم اختط

تعميم الكنس  
والرش

اغسطس  
شوايخ جديدة

ما بين الظاهر و باب الحديد ، الشارع المدعو الآن بشارع القجلة ؛ واختط ، ما بين باب الحديد ، والأزبكية ، الشارع الذى أطلق عليه اسم كلوت بك ، لا لتكريم الطبيب الفرنسي سوى على الهمة ، مثنى مدرسى أبى زعبل والقصر العيني الطيبين ، والذى يعد بحق أبا الطب الحديث بمصر فحسب ، ولكن للدلالة ، بنوع أخص ، على أن الإصلاح الصحى سيسير من شمالى المدينة الى جنوبها ؛ ويتناول ، بذراعيه ، شرقها وغربها . ثم اختط جنوب الأزبكية بشرق ، الى القلعة ، الشارع الفخم الذى أطلق عليه اسم جده العظيم ، اشعارا بأن القلعة ، وإن بناها صلاح الدين ، فأنما أصبحت تعرف بمحمد ص . لأن دولته قامت فيها ، وشمس حياته توارت فى المقام المشيد على جبينها . فأصبح السبيل الى ذلك الحصن سهلا آمنا ، بعد أن كان الوصول اليه عن الطريق ، التى يقبها المحمل سنويا ، منه الى الحسنية ، وعرا كثير التعرجات ، والمنعطفات ، والمضائق .

تحول الأزبكية  
الى ما هو عليه الآن

ولما عاد سنة ١٨٦٧ من زيارته لمعرض باريس ، وقد أخذت بله التحسينات الجارية فى العاصمة الفرنسية على طريقة هوسمن الشهير ، أقدم على الأزبكية ؛ فقلعها رأسا على عقب ؛ وطلب من بستانى فرنساوى ، أن يعملها له على شاكلة حدائق تلك العاصمة فكيفها ذلك البستانى تكييفا بديما . وتصرف فى التربة التى كانت دائرة حولها والبحيرة التى كانت داخل السد الذى بناه (محمد على) تصرفا جميلا ؛ وإذا بما كان مجرى المياه راكدة ، وصقوف أشجار لا نظام لها ، وبحيرة أقرب الى المستنقع منها الى بساط يقر العين النظر اليه ، قد تحول الى بستان على مثال البرك منسوب باريس ونخرج الى الوجود ، نزهة من أنزه المترهات ، ومكانا بديما يحلب الألباب ، تثيره الأنوار الغازية ، وتزينه الفسقيات النائرة الماء فى الأعلى ، لؤلؤا ساطعا ، والمغائر



الصناعية، المنحدر منها الماء ينحدر تله به الأسماك، الى بحيرة صافية، تجري الأسماك فيها ملوثة .

وأقبل على الحى المحيط به، فجعل يتنزع ملكية منازل الخشبية التى كانت للأقباط مقابل تعويضات يدفعها اليهم، ويزيل تلك المساكن الثمة، ويهب الأرض التى كانت قائمة عليها هبة الى من شاء التمهيد باقامة مبان نفحة طيها، تنفق مع عظمة القاهرة الجديدة المراد انشاؤها .

فكان أكبر أولئك التمهدين شانا، وأكثرهم مالا وإقداما، السوق أوف سيونزلاند فلانه ما تقى بقيم، فى حى الأزبكية هذا، القصور والفنادق، ويعمل، وبكيف الموجود منها فيه حتى بلغ به الى ما نراه الآن عليه، من المظلة والوقوف والجمال .

فالتخذ (اسماعيل) محورا لعظمته، وبعد أن أوصله بالموسكى شرقا، تحول الى غربيه، فأزال ما كان يعرف بباب الجنينة — وهو باب كان قائما على مدخل ذلك الحى، فى منتهى الطريق الواصلة ما بينه وبين بولاق — واختط الى جنوبيه بميل نحو الغرب الأحياء البديعة المعروفة الآن بأحياء التوفيقية وعابدين والاسماعيلية، بعد أن أقام، فى طرف الأزبكية الجنوبي، المسرحين الفخمين المضارفين فى الجمال، والجلال والأبهة، مسارج أوروبا وهما المسرح الجنيد والأوبرا . وأنشأ، أمام هذه الميدان القسيح الأرجاء المنظم الزوايا، المزرى بميدان قندم ذاته الشهير فى باريس : وفى هذا الميدان الآن تمثال لأبيه البطل الهام، تجلى (ابراهيم) فيه، فارسا صنديدا، يتطاير برق من عينيه، وقائما بصيرا، تكسوه المهابة ويظله الجلال، كما تجلى، حقا، لسكره المصرى المحجوب به، وللمسكر الثمانى المأخوذ رجا منه، يومى قنية وزريب . وقد كان هذا التمثال فى عهد (اسماعيل) بميدان العتبة الخضراء أنزله العرايون

أيام الحوادث العرابية ثم بعد أن مكنت تلك الفتنة نصب في ميدان الأوبرا حيث هو الآن .

ثم اخطت ، في تلك الأحياء ، الشوارع العريضة ، الظليلة ، الواصلة بين جهاتها المختلفة ، الشوارع ، التي ، بالرغم من كل ما حدث بعدها ، لا تزال من أنغر مسالك القاهرة ، وأكبر شرايين مواصلاتها . وأهمها : شارع عبد العزيز ، والشارع الذي أقام نوبار باشا فيه قصره الفخم فسمى باسمه ، شمالا ؛ وشارع كوبري قصر النيل ، وشارع سراي الاسماعيلية ، غربا ؛ وغيرها وغيرها مما امتازت به القاهرة الاسماعيلية . أما جنوبا ، فإن كل ما اخطت من سكك فقد انتهى الى رحبة فسيحة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، تركت بين الشوارع والأحياء الجديدة ، وبين الدروب والأزقة ، الموصلة من عابدين الى السيدة زينب ، لتمتد أمام السراي المنشأة بعابدين ، مقرا للكل ، بدل سراي القلعة ؛ كما تمتد ساحة الكونكرت ، في باريس أمام قصر التويلري الامبراطوري !

اختطاط شوارع  
جديدة أخرى

ألا كم أبدع التفنن والتنسيق في سراي عابدين هذه ، وفي تزيينها بالرياش والأثاث الفاخر ! وكم أنفق من مال في سبيل ذلك ، وفي سبيل جعل الحديقة الداخلية ، في تلك السراي ، قطعة من جنان الفردوس !

إنشاء سراي عابدين

وأما غربا ، فإنه لما بلغ العمار النيل — وكان العمل من جهة أخرى ، قائما على قدم وساق لإنشاء سراي الجزيرة الفتنة — لم يعد يحسن إبقاء العبور ، من شاطئ الى شاطئ ، على كوبري من المراكب المصفوفة بعضها بجانب بعض ، والمحدودة عليها ألواح الخشب ، أو في معذيات بسيطة ؛ وبات من المحتم إقامة كوبري يتناسب

إنشاء كوبرى  
قصر النيل

في غفاته وجماله مع أمة الأحياء المجاورة له . فعهد (اسماعيل) الى شركة فرنساوية أمر بإنشائه . فأنجزته في سنة ١٨٧٢ وبلغت ثقافته مائة ألف وثمانية آلاف من الجنهات .

إنشاء كوبرى  
الانجليز

وبينا هو يقام ، شعر (اسماعيل) بالحاجة الى ربط الجزيرة ببر الجزيرة أيضا ؛ فكلف عملا انجليزيا بإنشاء كوبرى ، يصل بينهما . فأنجز في السنة عينها ، وبلغت تكاليفه نيفا وأربعين ألف جنيه .

إنشاء القصور  
المدنية

وفي أثناء السير في هذه المنشآت العظيمة ، وبينما القصور الباذخة تقام في كل جهة يصلح أن يقام فيها قصر ، ويبلغ عددها عشرات العشرات ، أهمها : قصر الجزيرة بستانه الساحر ، وقصر الزعة على سكة شبرا ، وقصر حلوان ، وقصر القبة ، وقصر الاسماعيليه ، وقصر الزعفران ؛ بينما قصور أخرى قديمة تجدد تجديدًا لا يعيد اليها مجدها فقط ، بل يزيدا رونقا وبهجة : كالقصر العالى ، وقصر المسافرغاته ، وقصر

والمساجد

النيل ، وسراى القلعة ؛ بينما المساجد ، لاسيما مسجد الرفاعى ، والمدارس توضع قواعدها الجرائنية ، وتنشأ في كل جهة من جهات المدينة العظيمة — منها ما يشيده (اسماعيل) ، ومنها ما يشيده البر ، وبينما وزراء مصر ووجهائها وأعظم سراتها ، كشرى ونوبار ، واسماعيل صديق ، وعلى شريف ، وغيرهم ، كلعت ورياض ، يقتصدون بالأمير وقيمون في الأحياء المنشأة حديثا أو في الأحياء الشقية ؛ المزدانة بقصور الخاليك القدماء ، كتي الدرب الأحمر ، وحي الخلية القديمة ، وغيرهما ، المنازل الفاخرة ، والبيوت الماهرة ، ذات الرياض والبساتين الداخلية — كان العمل قائما على قدم وساق ، وبكيفية لا تدرى ما هو الملل أو الكلال ، لإنجاز ما لم يتمكن العزائم

توزيع الماء على  
أحياء مصر القاهرة

الساقفة من إنجازهم ، وأخى به توزيع المياه على أحياء القاهرة توزيعا منظما مستمرا .

لغثت هم الشركات، وحملت الجهود على المبارة؛ ولم يمض زمن إلا وأقيمت المباني اللازمة لرفع المياه ونمذجتها، ومكثت المواسير تحت الشوارع وفي الحارات والدروب، وسير ماء النيل مقطرا من خزائنه إليها، قسرت منها إلى الحفريات في البيوت . وحلت مشكلة قديمة العهد، بفضل إرادة (اسماعيل) الحديدية .

ولما بات الماء ميسورا غزيرا ، توسع القوم في وسائل النظافة والصيانة ، وطلق طل الرش يطل على الشوارع في الصباح والمصر بانتظام ، وأخذت المنازل، حتى الحفيرة منها ، تمسح مرارا في الأسبوع وبفزاره : فقلت الأمراض ، وتحسنت الصحة العمومية .

حسن النظافة  
والصيانة

وكان العمل قائما، كذلك، على قدم وساق، بالكيف حينها، وفي عموم الأحياء، قديمها وجديدها، لتعمم الإنارة بالغاز . فكانت مواسير السائل المنير توضع بجانب مواسير الماء المحيي ؛ حتى إذا تمت الأحياء البديعة ، وشيدت القصور الرفيعة ، وغرست البساتين الجميلة ، ونجحت الشوارع الفسيحة ، ناصعة النظافة ، ظليلة الجانبين، تكففت إليها في وقت مما المياه، وسلطت فيها الأنوار : فتجلت المدينة ، كلها، المعتادة الظلام ليلا، منذ نشأتها—وقد تكيف قديمها، وبرز جديدها يرفل في حلاله البهية—عروس الشرق قاطبة وبتيمة عواصمه .

إنارة أحياء مصر  
وشوارعها بالغاز

وبلغت نفقات هذه المباني والمشآت، والتحصينات، وتوزيع المياه والنور على العاصمة، وفي السويس بعدها، ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف جنيه .

فإذا تمثلنا مقدار ما اقتضته كل هذه الأعمال المختلفة من حركة تجارية متنوعة، وأضفنا إلى ذلك جميعه ما نجم ، في سنى ملك (اسماعيل) الأخيرة ، من مضاعفته

لذلك الحركة حينها ، عن انضمام بواخر الأسطول المصرى الى سفن الشركة العزيرية في أعمالها ، وتكوينها معها ما عرف فيما بعد باسم "الوابورات الخديوية" ، لم تستفرب اطراد الزيادة في الواردات والصادرات على العموم ، ولا سيما في عامي ١٨٧٢ و ١٨٧٣ وهما الستان اللتان بلغ العمل فيهما أقصاه ، والجهود غايتها ، كما يتضح ذلك من الجدول الآتي <sup>(١)</sup> :

سنة	جنيه	سنة	جنيه
-----	------	-----	------

الواردات

حركة الواردات

١٨٦٦	٤٦٦٢٢١٠	١٨٧١	٤٥١٢١٤٣
١٨٦٧	٤٣٩٩٠٩٧	١٨٧٢	٥٥٠٥٩٩٥
١٨٦٨	٣٥٨٢٩٦٩	١٨٧٣	٦١٢٧٥٦٤
١٨٦٩	٤٠٢١٦٠١	١٨٧٤	٥٣٢٢٤٠٠
١٨٧٠	٤٥١٢٩٦٩	١٨٧٥	٥٦٩٤٨٢٠

الصادرات

حركة الصادرات

١٨٦٦	٩٧٢٣٥٦٤	١٨٧١	١٠١٩٢٠٢١
١٨٦٧	٨٦٢٣٩٧٤	١٨٧٢	١٣٣١٧٨٢٥
١٨٦٨	٨٠٩٤٩٧٤	١٨٧٣	١٤٢٠٨٨٨٢
١٨٦٩	٩٠٨٩٨٦٦	١٨٧٤	١٤٨٠١٤٤٨
١٨٧٠	٨٦٨٠٠٧٢	١٨٧٥	١٢٧٣٠١٩٥

(١) أنظر ملك كون : "مصر كما هي" ص ١٧١ و ١٧٢

وأدركا صدق قول السير بارتل فرير في محاضرة ألقاها في "الادنبج فيلوز فيكل انستيتوش" وهو : « إن التجارة والسكك الحديدية عملت بمصر عملها في كل قطر أوروبي تقريباً » وأدركا كذلك صدق قول القنصل المؤلف الأمريكي أدون دى ليون القائل في سنة ١٨٧٥ : « الحقيقة هي أن التصيلحات والتحسينات والأشغال العمومية التي شرع فيها وأنجزت في الاثنتي عشرة سنة الأخيرة ، في القطر المصري ، كانت مدحشة عجيبة لا مثيل لها في أى قطر مساحته أربعة أضعاف مساحة القطر المصري ؛ وسكانه أربعة أضعاف سكانه<sup>(١)</sup> » .

واذا عرفنا أن ثمن مجموع الواردات ، ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ ، زاد على من مجموعها ، ما بين سنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٥ ، خمسة عشر مليوناً وستمائة ألف جنيه ؛ وأن ثمن مجموع الصادرات ، ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ ، زاد على ثمن مثيله ، ما بين سنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٥ ، واحداً وستين مليوناً وستمائة وواحداً وثلاثين ألفاً وخمسمائة وستة من الجنيهات ؛ أدركا بسهولة مقدار أثره الضخمة التي دخلت القطر زيادة على الثروة الهائلة التي أصابها أهله في الاثنتي عشرة سنة الأولى من ملك (إسماعيل<sup>(٢)</sup>) وكبرت حركة القطر الزراعية التجارية العملية في حيوتنا ؛ وبقنا أقرب الى النظر ، بلا تحيز ، الى ما عول به من جسامه الضرائب وفداحة الديون .

هذا إذا سمع الاعتماد على صدق الأرقام المبينة أعلاه . ولكن المعلوم أنها دون الحقيقة بكثير . وذلك لأن مصلحة التجار لم يدخلها الإصلاح ، بمانيه كلها ، إلا في سنة ١٨٧٧

(١) أنظر : "مصر الخديوي" لأدون دى ليون ص ٣٦٣

(٢) وقد قدر البارون أن ثمن مجموع المحصول الزراعي في تلك الأيام كان ٤٥ مليوناً و٣٨٢ ألفاً و٣٣٢ جنيناً سنوياً ، فضلاً عن مبلغ ٦ ملايين و ٥٤٥ ألفاً و٧٨٣ جنيناً ثمن غيل ومواشي وطيور وبيض وزبدة وجبن وعسل وبلح وسمك ، وجوز وخبث الخ . فيكون المجموع سنوياً : ٥١٩٢٣١١٥ جنيناً .

فانها كانت ، في أيام (محمد علي) التزاما يمتنع ، مقابل جعل سنوى معلوم ، الى أفراد يستغلونه لحسابهم الخاص ، أسوة بأبواب إيراد أخرى كانت حكومة (محمد علي) تعطيا التزاما لمن يرسو عليه آخر عطاء .

وكانت الجمارك نوعين : جمارك الثغور والحدود والجمارك الداخلية . فكانت الرسوم في جمارك الثغور تؤخذ على الواردات والصادرات ؛ وتؤخذ في جمارك الحدود على الواردات فقط سواء أكانت من السودان أم من الغرب والشرق . وأما الجمارك الداخلية فكانت رسوما تدفع على البضائع لدى ادخالها في أى بلد من بلاد القطر الهامة . وكان يقال لها في مصر وطنطا وغيرها "دخوليات" وفي أسوان وإسنا وباقي الصعيد حتى أسيوط "جمارك" . والاختلاف في التسمية نتيجة الاختلاف في الواردات . فمن أسوان لغاية أسيوط كانت نتقاضى ، على الأخص ، من الجلايين ، على الرقيق المهرب ، وأما فيما عداها من المدن فكانت تؤخذ على البضائع ، ولا سيما مواد الطعام ، كلخضر والفواكه والأسمان والحبوب .

وقد رأينا أن محمد سعيد باشا ألغى جميع الجمارك الداخلية والدخوليات ، كما أنه أبطل أن تكون جمارك الحدود والثغور التزامات وأنه جعلها مصلحة أميرية مستقلة .

النا . (سعيد) حرم  
الجمارك الداخلية  
والدخوليات

خلل مصلحة  
الجمارك

غير أنها لم تنظم : (أولا) لأن وظائفها كانت تباع بيعا كما كانت تباع مناصب القضاء في فرنسا قبل الثورة العظمى فيها سنة ١٧٨٩ ؛ (ثانيا) لأن المرتبات كانت قليلة ، وغير وافية بالحاجة ، فتلزم متقاضياها بالركون الى "البقشيش" والرشوة ليعيشوا فكانوا يأخذون جنيا ، مثلا ، على صندوق البضائع الحرة ، المزم بدفع رسوم قدرها ثلاثة وعشرون جنيا وثمانية عشر شلنا للحكومة ، ويسمحون له بالخروج من الجمرک ؛

أو يتبرون البضائع الحرة بضائع قطنية ، ويتقاضون عليها الرسوم المفروضة على البضائع القطنية ؛ أو كانوا ، أيضا ، لا يراعون حقوق الأولية : فيمكنون من يزيد بقتيشه من التجار على بقتيش سواء من تخليص بضائعه والخروج بها قبل غيره ، ولو كان آخر القادمين ، غير يجنس أمانها الحقيقية ساعة التتمين ؛ و(ثالثا) وأخيرا لأن التهريب كان كثيرا ومنظما ، ومعظم المهززين يونانيون في منتهى الجسارة ، ونظام الامتيازات يحببهم ، فيمكنهم من الاستزاء بالحكومة المصرية وعمالها . ولا أدل على ذلك مما رواه موريس بك ، أحد كبار رجال الداخلية ، للستر بتلر ، مرهبي ولدى الخلدوي

حكاية حرية

محمد توفيق في سنة ١٨٨٠ ومفاد الرواية أن رجال خفر السواحل ضبطوا ذات يوم كمية كبيرة من تبغ وتبأك كان بعض المهززين اليونانيين يحاولون تهريبها . فلما نرى خبر الضبط إلى القنصل اليوناني — وكان يشاطر المهززين أرباحهم — جمع في الحال نسمائة «جريكى» من حرافش القوم وزطافهم وأوابشهم ، علاوة على جماعة المهززين أنفسهم ، وهاجم ، بجهورهم النفير ، خفراء السواحل ، في عقر مقرهم ، ليستخلص منهم المضبوط . فدارت بين الطرفين معركة فظيعة ، عض القنصل فيها بأسنانه ذراع أحد الصاكر عض كلب ، رأى موريس بك أثره بعدئذ ، في ذراع الرجل ، وعرف أن القنصل هو العاض ، لأن سنا من أسنان هذا الموظف الأمثل الأمامية كانت ناقصة في فكه ، وظهر أثر نقصها في دائرة المضمة . فلما رفع الأمر إلى الحكومة ، أمدى إليها القارئ اللبيب ، ماذا كانت نتيجة الشكوى ؟ أن السياسة تماخلت في الأمر : فعوقب خفراء السواحل ولم يصب المهززين أذى .<sup>(١)</sup>

(١) أنظر بتلر : "حياة البلاط بمصر" ص ١٣٨ و ١٣٩



اصلاح ادارة  
الجمارك في عهد  
(اسماعيل)

فعهد (اسماعيل) الى موظف انجليزى في جمرك لندن، يقال له المستر سكريشور، بتنظيم مصلحة الجمارك المصرية وترتيبها . وكان الرجل خبيراً في العمل ، لاشتغاله زمناً طويلاً فيه ، وتقلده عدة مناصب اذارية بحركية في البرتغال والبرازيل .

فأدخل إصلاحات جملة على المصلحة الموهودة أمورها اليه ، لاسيما على حساباتها ، التي وصفها لى كبير من موظفى الحكومة المحالين على المعاش ممن كانوا في الجمرك في ذلك العهد البعيد . فلم يجد تعبيراً عن حالتها أظهر فحلاً السائد فيها من قوله لى : « إنها كانت بطن حمار » .

ولكن خلا كبيراً استقر ، بالرغم من مساعى المستر سكريشور وبجهوداته ، منتشراً في عدة أفرع من مصلحة الجمارك ؛ ولم يعمها الاصلاح تماماً إلا في عصرنا هذا وعلى أيدي حكومتنا الحالية بفضل مجهودات مديرها كليار باشا وشقيق بك والمستركنج لويس خليفتهما .

فلو كان نظامها الحالي نظامها سنة ١٨٧٥ ، لأمكن لنا أن نقف ، تماماً ، على حقيقة الثروة التي دخلت القطر ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ ؛ ولتجلى لنا أن مقدارها ضعفاً ما أثبتته الاحصائية الجبركية في تلك الأيام ، مذ أوجب انشاء وزارة تجارة مستقلة سنة ١٨٧٦

## الفصل الرابع<sup>(١)</sup>

### إحياء مالية القطر

”المال ! المال ! فكل شيء بدون المال — على ما يقال — جذوب“  
« بوالو »

ان عنوان هذا الفصل وحده ، متى وقع عليه نظر بعض القراء ، قد يجعلهم يتسمون ابتسامة الازدراء ، ويقفونها بسؤال يترج فيه الاستغراب والاستنكار معا امتراجا تاما ، كالسؤال الآتي : « وكيف ؟ (اسماعيل) ، الذى أهمل مالية القطر بالدين الباهظ ، الذى لا يزال القطريين تحت فداحة ثقله ، (اسماعيل) أحيا مالية مصر ؟ انك يا هذا تمزح ! » ولكنا لا نمزح مطلقا ، بل نقول ، ونحن نزن الكلام فى ميزان التعقل التام : نعم ان (اسماعيل) أحيا مالية القطر . واليك الدليل بل الأدلة . مات (مسيد) ، وعلى الخزينة المصرية — ضيق القرض الذى عقده وقدره مليونان وسبعائة وخمسة وخمسون ألفا وخمسمائة جنيه انجليزى — دين سائر يربو على عشرة ملايين جنيه ، لا تبرره أعمال عمومية نافعة مطلقا ، وانما أوجهه :

(أولا) أن سعيدا كان لا يعرف للتقود قيمة . يدل على ذلك أن المسيو براثيه ، صديقه الحميم ، الذى سبق لنا الكلام عنه ، شكاه ، يوما ، أن تقدير ثمن أحد الأشغال ، التى كلف بعملها ، بليرات ايطالية ، بحسب بحقوقه إجمافا كبيرا . فقال له

(١) أهم مصادر هذا الفصل هى : ”مصر“ لماروق ، و”مصر المعاصرة“ لبول مريشو ، و”تاريخ مصر المال“ لجهول ، و”مصر تحت حكم اسماعيل“ لمالك كون ، و”مصر تحت حكم محمد علي“ لهامون .

حالة المالية  
الصحية لدى  
وفاة (مسيد)

(سعيد) : « دعمهم يقدرونه ، أذاً ، بليارات الجبليزية ! » غير سبال بأن الليرة الانجليزية تساوى الليرة العليلانية خمسا وعشرين مرة<sup>(١)</sup> .

(ثانيا) أنه كان متلافا ، لا يعرف تبيذيره حثا يقف عنده ، حتى لقد أنفق مرة على زخرفة حجرة في أحد قصوره نيفا وسبعة ملايين من الفرنكات ؛ وكان معطاء للهي ، لا يعرف مخاؤه أن يميز بين من يصبح أن يكون موضع إنعام ، ومن لا يصبح ، حتى لقد أهدها ، مرة ، مالى أجنبي من المقيمين بالاسكندرية سل فاكهة ، ثم طلب منه نفقة بمسنة عشر ألف جنيه ، ففعل .

(ثالثا) أن المتعهدين بتوريد ما تحتاج اليه حكومته أو ما يحتاج اليه هو ، لا سيما الأجانب منهم ، لعلمهم بقلة تقديره للنقود ، كانوا لا ينفكون يشنونه ويسرقونه ، وهو لا يبالي بأعمالهم ، إما تعاليا ، وإما لعدم اهتمام منه بهم .

(رابعا) أن مطالبات الغربيين على السنة فتناصلهم بتعويضات عن أضرار وهمية ، يزعمون أنهم أصيبوا بها ، في اتفاقات أبرموها مع الحكومة المصرية ، كثرت جدّا في عهده وبلغت ، في خروجها عن طور المعقول ، حثا جاوز كل احتمال ، وضافت ، دونه ، رجة تسامح (سعيد) على سعتها : لأنه بات لا يعمل ، أو لا يعمل عملا ، تعاقد عليه مع افرنجى ، إلا وتكون نتيجة مطالبته ذلك الافرنجى إياه بتعويض . وأى تعويض ! يكاد يتضاقل بجانبه مبلغ الستة والخمسين ألف جنيه استرليني ، الذى تقاضاه من عباس الأول ، المهندس الانجليزى خطط سبر السكة الحديدية من اسكندرية الى مصر ، أجرة على تخطيطه ؛ ومبلغ الستة عشر ألف جنيه الذى طالب به لتعديل ذلك السبر ، بعد أن اتضح تعذر تنفيذه كما خططه — على أنه لم يزل منه

(١) مالورى : "مصر" ص ٦٩ حاشية رقم ٣٠٧

سوى ستة آلاف، عملاً بما حكم به المستر بروس القنصل البريطاني العام، المحكم  
في الموضوع<sup>(١)</sup> !

وقد أشار (سعيد) ذات اليوم، بكتابة لطيفة، الى ما كانت تفص به نفسه من تلك  
المطالبات الجائرة الجمقاء . فانه كان يستقبل أحد قناصل الدول الكبرى، في سلامك  
رأس التين، في قاعة تطل شبايكها الواسعة على البحر، وكان الزمن صيفا، وتلك  
الشبايك مفتوحة، ونسيم البحر العليل يدخل منها، كأنه نسمة من الجنان . بفلس  
القنصل مكشوف الرأس، بجانب (سعيد) أمام تلك الشبايك، وما لبث أن  
عطس؛ فأمرع (سعيد) وقال له باهتمام، وهو يتهمم : «تفضل يا جناب القنصل،  
تفضل واليس قبعك ! فقد يصيبك زكام، وأنت عندي فتهب دولتك الى مطالبتي  
بتعويض<sup>(٢)</sup> » .

وكان سعيد يقول في هذا الصدد : « إني لأخشى أن ينظر جوادى شذرا  
في طرقات الاسكندرية الى افرنجى، فهبّ ويطلبني بتعويض<sup>(٣)</sup> ! » .

وتذكرنا هاتان النكتتان بما كان عليه (سعيد) من خفة الروح وطريف الملح،  
بسبب تربيته الفرنسية، ومنته الفرنسياتى البحث . فقد ذهب الى زيارة لندن مرة،  
أيام إقامة أول معرض فيها . فاذا بطقمها لم ينفك مغيما، ما طرا، طوال مدة إقامته  
هناك . فبئنا هو، ذات يوم، يتفقد احدى حجر ذلك المعرض، رأى شعاع شمس  
نافذا من السقف الزجاجى الى الداخل، ومنتشرا فوق مكان من المعروضات، كأنه

(١) أنظر : "مصر المحاصرة" ليهول مريو، ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) أنظر : "توبارباشا" لهرتران ص ١٠ .

(٣) أنظر : "توبارباشا" لهرتران ص ١١ .

وضع فيه خصيصا . فالتفت (سعيد) الى ذى الفقار باشا ، مراقب عموم ماليته ، ونديم سفره ، وقال له باسمي : « ألا ترى ما أندر الشمس هنا ! فقد بلغ من ندرتها لديهم أنهم أصبحوا يرضونها ضمن نفائسهم ! » .

ولكن (سعيد) المسكين كان كفر نساوي أيام الكردينال مازارين : اذا تمللوا من ضريبة ، وضعوا فيها أغنية مسخرية ، ورددوها مدة ، دون أن يمنهم ذلك من دفع الضريبة ، حتى كانت عادة الكردينال أن يقول عنهم بفرنساويته المشوبة بإيطالية : « إل كانتارون ما إل پاچارون » أى سيفنون ؟ ولكنهم سيدفعون .

و (سعيد) كان ، اذا تملل من جور طلبات التموينيات ، انتقم لنفسه بنكتة كالتي ذكرناها ، ثم أفضى به الأمر الى دفع المطلوب .

الحالات  
على المالية

فأدى ضغط ذلك الدين السائر الباهظ على عاتق الخزينة المصرية الى ضائقة مالية شديدة باتت معها مرتبات الموظفين والمستخدمين ، في سنى حكمه الأخيرة ، لا تصرف لهم إلا نادرا ، وإن صرفت ، فيمطل وبطء . ونجم عن عدم صرفها أن أوراقا مالية من نوع جديد ، لم يرو عن مثلها أبدا ، برزت الى عالم الوجود في الأسواق المصرية . وكانت عبارة عن محاولة على المالية المصرية أخذ يمزرها أولئك المستخدمون والموظفون ويسامونها الى مؤنهم ، سندادا لمطلوباتهم .

فبات يحيط بأبواب المالية جهش من البدالين والقضاين وخلافهم ، لا يستطيع الحكومة التخلص منه ومن طلباته : (أولا) لندرة النقود في خزائنها ؛ و (ثانيا) لعدم تمكنها — بسبب أن معظم أولئك المطالبين أجنب ، يحجم نظام الامتيازات — من فض جموعهم بكرايج رجال الشرطة ، كما كانت تفض تجهيز الداشين الوطنيين

من أبواب الحرف والصناعات ورجال المقاولات، الذين اشتغلوا لحسابها وداينوها؛ فان مطالب هؤلاء الأهالى كانت تدفع اليهم لكما وركلا وسياطا، فى نهاية الأمر . ولو استعملت الحكومة طريقة الضرب هذه مع أولئك الأجانب، لفتحت على نفسها أبواب ويلات لا فراغ منها إلا بدفع تعويضات مالية جسيمة، وتقديم ترضيات أدبية تحط من شأنها حطاً كبيراً .

فكانت تلجأ، أذاً، الى المحاطلة والمراوغة؛ ولكنها تضطر الى الدفع بعد استفاد كل وسائل التعطيل والتأجيل والتسويق .

وبانت تلك الحال السيئة نظامية الى حد أنه أصبح لتلك التحاويل سوق خاصة بها ومعدل خصم جارٍ؛ وكان معدلاً يتجاوز حدود الاعتدال، بقدر تجاوز فرض الدفع دائرة الاحتمال؛ أو على قدر ما يتجاوز صعوبات التحصيل حد المألوف .

غير أن ضغط الاحتياج أدى الى تداول تلك التحاويل متداولا أثرى منه عدة صياغة بمصر والاسكندرية وغيرهما من البنادر التى كانت مقراً لموظفى الحكومة ومستخدميها .

فلما آل الحكم الى (اسماعيل)؛ أمر : (أولاً) بصرف جميع المتأخرات، سواء أكانت للمستخدمين والموظفين، أم لرجال الجيش؛ و(ثانياً) بصرف المرتبات لمستحقيها فى أوقاتها بانتظام . فاختفت تلك التحاويل من السوق؛ وزالت عن عتق المالية المصرية المطالبة الموحدة بسدادها، التى كانت ناشبة أظفارها فيه .

اصلاح (اسماعيل)  
الحالة السجة

ولما كان إقبال العامل الغزلية والنسجية الأوروبية على ابتلاع القطن المصرى بكثرة، بسبب الحرب الامريكية الأهلية، قد أوجب تحسینا لجائياً فى أسعاره، ورفهها

زيادة رواتب  
الموظفين

رفعاً مطرداً إلى حدٍّ غير متظر أو معلوم به ؛ ونجم عن غزارة النقود في البلد ، أن التوازن بين قيمتها وقيمتها مواد الغذاء والترف ، أصبح مختلاً اختلالاً جسيماً — كما هي الحال في أيامنا هذه بسبب الحرب المالية واحتياج السلطة العسكرية إلى محمولات البلاد وأيدى العملة — أمر ( اسماعيل ) بزيادة رواتب موظفي حكومته ، ولا سيما كبارهم ، زيادة مناسبة ، تساعدهم على حفظ كرامتهم ، وتحويل دون تنهيم إلى المال الحرارم .  
فاكتسب بهذين العاملين ثقتهم بحكومته وولاهم لشخصه .

ولعلمه أنه لا يستطيع الاستقرار على دفع المرتبات في حينها ، فضلاً عن دفع العلاوات التي جاد بها ، إلا إذا كانت خزانة المالية ممثلة دائماً ، ولعلمه أن لا شيء يملأها أكثر من توسيع موارد إيراداتها ، وأنه لا سبيل إلى ذلك التوسيع إلا بانماء مساحة أرض القطر الصالحة للزراعة وتوزيع مزارعها ، وإنماء تجارة البلاد وتكبير دائرة العمل فيها ، أقدم على ذلك جميعه بما سبق لنا بيانه من الهمة والنتاج . ونجم عن إقدامه هذا أنه بنى كانت إيرادات الحكومة في سنة ١٨٣٥ مليونين وسبعمائة ألف جنيه ، وفي سنة ١٨٦٢ أربعة ملايين وتسعمائة وتسعة وعشرين ألف جنيه ، يقابلها مصروف قدره مليونان وثلاثمائة جنيه ، في سنة ١٨٣٥ — أى باقتصاد ثمانمائة ألف جنيه ، وأربعة ملايين وثلاثمائة وثلاثون ألف جنيه ، في سنة ١٨٦٢ — أى باقتصاد نحو سبعمائة ألف جنيه — أصبحت إيراداتها ، في سنة ١٨٧٦ ، عشرة ملايين وسبعمائة واثنين وسبعمين ألفاً وسبعمائة وأحد عشر جنيهاً ، تقابلها مصروفات قدرها ثمانية ملايين وتسعمائة وواحد وثمانون ألفاً وثمانمائة واثنان وخمسون جنيهاً — أى باقتصاد ما يقرب من مليوني جنيه ، وذلك بعد دفع الفوائد المطلوبة على الديون

(١) انظر : " تاريخ مصر المال " لمجهول ص ١٧

المسجلة وستائة ونمسة وثمانين ألفا وثلاثمائة وثمانية عشر جنيا، مقدار الجزية السنوية للأستانة .

وإنما نذكر سنة ١٨٧٦ لأنها السنة الأخيرة من حكم (إسماعيل) وهو مستقل عن كل رقابة أوروبية، ولأن عظمتها بلغت أوجها فيها .

مصادر الإيرادات ومصادر تلك الإيرادات : الأموال، والرسوم، والسكك الحديدية، ومخلفات .

أما الأموال، فأربعة ملايين وثلاثمائة ألف جنيه ونمسة آلاف جنيه من الأطنان الزراعية، ومساحتها أربعة ملايين وثلاثمائة ونمسة آلاف وثمانمائة وسبعة أفدنة بين خراجية وعشورية ؛ و ١٨٩٠٠٠ جنيه من التخيل وعدده ٤٦٧٠٠٠ نخلة و ٤٢٢٠٠٠ جنيه من الرخص الحرفية .

وأما الرسوم، فسبعمائة وتسعة وثلاثون ألف جنيه من الجمارك، و ٢٦٤٠٠٠ جنيه من اللخان .

وأما إيراد السكك الحديدية ، فبعد أن كان ٣٦١٣٠٠ جنيه، في سنة ١٨٦٣ ، أصبح ٩٩٠٢٠٠ جنيه في سنة ١٨٧٦

وأما المخلفات، فبلغت ٢١٠٠٠٠٠ جنيه، وليس بين أبوابها في عهد (إسماعيل) باب واحد لم يكن في عهد (عبد علي) بين أن كثيرا من الضرائب المفروضة في عهد (عبد علي) لم تكن مفروضة في عهد (إسماعيل) . ومن شاء المقارنة بين ضرائب العهدين فلما عليه إلا مراجعة كتاب هامون "مصر تحت حكم محمد علي" وكتاب مالك كرون "مصر تحت حكم إسماعيل" ؛ فيرى أن الخراج في أيام (إسماعيل) كان ستة شلنات ونصف على كل ذكر من مائة عشرة فما فوق، ماعدا المستخدمين والجنود؛ وأنه كان مربوطا على كل بيت من بيوت الريف — وعددها ثمانمائة وثلاثون ألفا —



أربعة قروش صحيحة سنويا؛ وأن المربوط على الرخص التي كانت تمنح للتجار والصناع والمحترفين، كان يتراوح بين تسعة شلنات ونصف، وسبعة جنيهات وخمسة عشر شلنا على الفرد؛ وأنه كان هناك ضرائب على المواد الأولية المستعملة في الصناعة؛ وضرائب على المصنوعات بمصر واسكندرية ورشيد ودمياط؛ ودخوليات قدرها ٢٥ ٪ على الماكولات والألبان، ومواد الوقود والبناء؛ وضريبة قدرها ١٠ ٪ على كل ما يعرض للبيع في الأسواق، سواء أوزن أم لم يوزن فوق ١٠ ٪. أخرى كانت تتقاضى على البضائع حينها لمصلحة الجليش؛ وأنه كانت هناك ضرائب على العريات وحيوانات النقل كلها، والبقر والثيران، تختلف من ثلاثة إلى أربعة جنيهات عن كل عربة، وإلى سبعة شلنات ونصف على حمار الفلاح أو الحمار. فيروسم أخرى تقاضونه منها جميعا، ويتراوح بين ثلاثة قروش، وعشرين فضة صاغ، كلما دخلت تلك العريات والحيوانات مدينة من المدن؛ وأنه كان هناك ضرائب على الملح، وعلى الدخان، وعلى التحرفان المذبوحة، وعلى المعديات؛ وضريبة على الملاحه عموما وقدرها واحد وعشرون شلنا سنويا عن كل مركب؛ وقرشان ونصف عن كل أردب من الحمولة، علاوة على رسوم المرور، تحت الكبارى، ٥٠ ٪ على المصايد؛ وأنه كان هناك ضريبة على الزواج، وأخرى قدرها خمسة شلنات ونصف على كل بيت يذبح، سواء كان رجلا أم امرأة أم طفلا. وأن البندل العسكري كان ١١٢ جنيا. ويرى أن هذا جميعه كان موجودا في عهد (محمد علي)، ما عدا البندل العسكري، وما لم يكن يمكن وجوده، لعدم وجود موجه، كرسوم المرور تحت الكبارى، لأن الكبارى في أيام البابا شا العظيم لم تكن معروفة<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: "مصر تحت حكم اسماعيل" لماك كون ص ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٠.

فالزيادة الكبيرة في الإيرادات في سنة ١٨٧٦ ، كانت ، والحالة هذه ، نتيجة اتساع نطاق الزراعة اتساعا عظيما ، ونتيجة اتساع نطاق التجارة والصناعة والعمل اتساعا لم يمهده أيام (محمد علي) ، ونتيجة تعديل طريقة ربط الضرائب وطريقة تحصيلها ؛ لانتيجة إرهاب الأهالي بالضرائب إرهابا فاحشا غير معمول ، كما قيل كثيرا . ولولا أن البلد ، لما استلمه (إسماعيل) ، كان خاليا من كل أسباب الحضارة وأقرب إلى الخراب والمهمجية منه إلى العمران والمدنية ؛ لولا أنه كان يجب أن ينشأ كل شيء فيه ، مع قيام رغائب أهله في عكس تيار كل إصلاح على العموم ؛ ولولا أن كل شيء خلق فيه بسرعة لم تترك للنمو الطبيعي مجالا — وذلك لشدة الشوق إلى قطف ثمر الفراس المغروس ؛ فالتضمت الحال صدم النظر إلى كية المشق ، وقلة الاكتراث بالديون ، مهما بلغت ، وأنى وصلت ، في سبيل نيل بنية النفس السامية ، وتحقيق الخطوة النبيلة الموضوعة ، لولا ذلك جميعه ، لآذى ازدياد الإيرادات في الخزينة المصرية ازديادا مطردا إلى إبراز عجائب في عالم الوجود ، مزرية بسجائب أيام الباشا العظيم ومعجزاتها ، على سطوعها .

على أن التاريخ لن ينمط (إسماعيل) فضله في أنه عمل على إفادة بلاده من ذلك الازدياد كل الافادة ، التي كان مركزها السياسي والاجتماعي يمكنها من نيلها على يديه ؛ وأنه لم يترك ميدانا من ميادين الإصلاح والعمران والرق إلا وأدخلها فيه بهمة ، وصدا بها في حبلته بغيرة ملتبة لا تعمل حسابا للصعوبات ، ولا تبالي بمن إزالة العقبات من السبيل .

أما وقد تكلمنا عن نجاحه في مضار الماديات ، فانه لم يبق لنا إلا التكلم عن نجاحه في مضار التعليم والحركة الفكرية ، وفي مضار ترقية شؤون حياة أمته الاجتماعية .

## الفصل الخامس<sup>(١)</sup>

### انتعاش التعليم والحركة الفكرية

تسلم : فليس المرء يولد عالماً \* وليس أخو علم كمن هو جاهل  
فإن كبير القوم لا علم عنده \* صغير إذا التفت عليه المحافل  
«عمر بن عبد العزيز»

لما دخل الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨ ، لم يكن في القطر كله إلا مدرسة الأزهر ومكتبتها الحاوية لكتب علوم الدين وكتب لغة وآداب . ومع أن الأستاذة المدرسين في تلك الكلية كانوا عديدين فإن عدد الطلبة كان قليلاً بالنسبة لما هو الآن . ومع أنه كان يوجد سبمة أروقة للعلوم ، فإنه لم يكن التعليم يتجاوز تجويد القرآن ، ومعرفة الحديث ؛ وتمتد الأروقة إنما كان لسبب تمتد أنواع الطلبة وجلسياتهم ، كما هي الحال الآن ؛ فیر أنه كان في القاهرة عينها عدد يمتد به من الكتّاب المخصص لها أوقاف خيرية لتعليم الأولاد مبادئ القراءة والكتابة ، والقرآن الكريم .

فلما بدأ حكم (محمد علي) يستقر في القطر ، نجم — عن القليل من النظام والأمن اللذين أدخلهما على الحياة القومية ، وعن إخفاء طلاب العلم من الخدمة العسكرية — رقى محسوس لعدد المتعلمين في الأزهر والبيئات العلمية الأخرى . ولكنه لم ينجح

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "التعليم العام بمصر" ليعقوب أرئين باشا ، و "التعليم العام بمصر"

لسيف . إيدار دوريك .

عنها رقى في طرق التعليم إلا بعد ما عث محمد علي باشا فتح ميدان جديد للعلم وادخال الأمة فيه قسرا .

وتفصيل ذلك أن هذا الأمير، بعد أن قتل المماليك في مجزرة القلعة الشهيرة، امتلك الصبيان والشبان من ممالكهم . فأدخل هؤلاء في حرمه ، وجميع الآخرين في مدرسة بالقلعة ليتعلموا فيها القرآن، والكتابة، واللغة التركية، وضروب العسكرية العملية، وفق الفروسية بفروعه: مقتديا في ذلك بالسلطين المماليك البرجيين وبعض كبار الأمراء المماليك أنفسهم الذين استأصل شأقتهم من الأرض المصرية .

ولما فكر في سنة ١٨١٦ في تشكيل جيش على النظام الغربي، ولم يفلح في بادی الأمر بسبب الثورة التي قام بها الجنود غير النظاميين حوله، أرسل أكبر الشبان من ممالكه القائمين بالقلعة الى مصر العليا، ليكون منهم مدرسة عسكرية تحت ادارة معلمين غربيين . ثم لكي يملأ الفراغ الذي قد يحدثه في هذه المدرسة، إنشاء الأورط، أسس بمصر، في القصر العتيق، مدرسة أخرى تحضيرية للدخول في المدرسة الأولى؛ وذلك حوالي سنة ١٨٢٥ ووضع فيها ٥٠٠ ولد من الشراكسة، والكرج، والأتراك، والأكراد، والأرناؤوط، والأرمن، واليونان — ليس فيهم مصري واحد — ليتعلموا القرآن، والكتابة، والقواعد اللغوية، والآداب التركية، والفارسية، ومبادئ اللغة العربية، والحساب والهندسة، والجبر، والرسم، واللغة التليانية — لأنها كانت لغة معظم معلمى العسكرية الناشئة — وجعل اللغة التركية أساس التعليم كله .

ولكنه، لادراكه أن تعليم أولئك الشبان لم يتم بالسرعة والمتانة اللتين يريد هما، ولرغبته في سرعة تكوين هيئة أركان حرب مصرية، أرسل، منذ سنة ١٨٢٦، الى لبقرونو، وميلانو، وفلورنسا، وروما، بعض المماليك الشبان، ليتعلموا صناعة بناء

المدرسة الأولى  
سنة ١٨١٦

السفن، والفنون الحربية، والطباعة، والهندسة العسكرية والمدنية، وعلم جزأ .  
ثم أرسل، بعد سنتين، طلبة آخرين الى إنجلترا، ليعلموا الهندسة المدنية، وهندسة  
الآلات المائية، والميكانيكا، وفق الملاحظة .

ولما كان الباعث له على كل هذا الاهتمام الفرعى اهتمامه الأصل بتكوين جيش،  
فكر في إنشاء مدرسة للطب، وفي الواقع أنشأها منذ سنة ١٨٢٥، ولكن الذي  
يستوقف الانتباه هنا هو أنه عدل، في اختيار الطلبة لها، عن طريقته في اختيار  
الطلبة لمدرسته الحريتين التحضيرية والعسكرية؛ وجعل كل تلامذتها من المصريين،  
لا سيما من شبان الطلبة الأزهرين .

وفي سنة ١٨٢٦ أرسل الى فرنسا أول بعثة تلميدية أرسلت اليها، وكانت مؤلفة  
من ٤٠ شابا، معظمهم من ثلاثة القصر العيني، وبعضهم من طلبة مدرسة الطب  
وأمرهم بتعلم الفنون العسكرية، والقوانين الادارية، والهندسة المدنية والحربية،  
وعلى الاجمال جميع العلوم التي كان الباشا مضطرا، من أجلها، الى استخدام  
الغربيين، لعدم وجود مصريين خبيرين فيها .

فنجحت تلك البعثة نجاحا حمل الباشا العظيم في سنة ١٨٣٤، تقريبا، على إيجاد  
نيف ومائة طالب في باريس، وعلى إرسال البعثات الى إيطاليا، وإنجلترا، والبلاد  
الأخرى .

ولم يقتصر فرض (محمد علي)، من هذه البعثات المتوالية ومن المدارس الأولى  
التي أنشأها، على محض تعليم بعض الأفراد من المصريين وساكنى مصر فقط، بل  
إنه رعى الى تكوين أساتذة منهم، يتمكن بواسطتهم، بعد نبوغهم، من نشر ظل

إنشاء مدرسة الطب  
سنة ١٨٢٥

العلوم الوارف على التقطركله ؛ والنهوض به من هاوية الجهل السحيق التي طرحته فيها من حائق حكومة الأتراك العثمانيين والأمراء المماليك .

ولا أدل على ذلك من أنه في سنة ١٨٣٤ ، لما عاد طلبة البعثة الأولى الأربعون الى مصر ، قابلهم الأمير بنفسه ، وسلم الى كل منهم كتابا فرنساويا في العلم الذي تعلمه ، وكلفه بترجمته الى التركية .

وأمر بهم ، بعد خروجهم من حضرته ، فأطلقت عليهم أبواب القلعة ثلاثة أشهر بأكلها ليرجموا تلك الكتب ؛ ولم يفرج عنهم إلا عند فراغهم من ترجمتها ؛ وبعد أن طبعت تلك الترجمات بالمطبعة الأهلية التي أسسها الباشا ببولاق ، وزعت على أساتذة وطلبة المدارس التي كانت الأصول الفرنسية قد أحضرت لأجلها .

ثم أنشأ حوالي سنة ١٨٣٦ مجلسا أعلى للمعارف ، مؤلفا من نخبة من أولئك الطلبة وبعض علماء الفرنسيين ؛ ووضع على رأس إدارته وزيرا اسمه مصطفى بك غنار ، كان أول وزير معارف عين في مصر على مسمى تاريخها . وجعل أهم أغراض ذلك المجلس تقديم العدد الكافي من الضباط الأكفاء لجهشه النامي على ممر السنين ، والذي لم يدع يمكن ملء الفراغات التي يملأها الموت في صفوفه بشيئة جديدة من المماليك الشراكسة ، لصعوبة جلبهم من بلادهم ؛ ولا بأولاد خدام (محمد علي) الأمناء من الأسويين والأتراك ، لظهور نسل هؤلاء الموظفين في مظاهر أجسام ضعيفة يوزها الذكاء والصحة ، فضلا من قلة عدده .

وبما أن كل أعضاء ذلك المجلس الأعلى كانوا قد تربوا بفرنسا تربيتهم كلها ، سواء في ذلك الفرنسيون منهم وغير الفرنسيين ، فإن نزعتهم كانت فرنساوية محضة .

ولا غرابة في كونهم أدخلوا على القطر طرق التعليم الفرنسية، وأنهم حاولوا تطبيقها على احتياجاته بقدر ما استطاعوا .

الأمل في تشييد  
دولة عربية جديدة

على أن تربيته الفرنسية كانت قد غنتهم بلبان آمال لمستقبل البلاد ، لم يكن لهم بد من السعى الى تحقيقها . ومنها أمل انشاء دولة عربية جديدة تجاه الدولة التركية المتناحرة ، المشبكة مصر في حرب معها ، لتحل من العالم الاسلامي محلها .

ولا شك في أن هذا الأمل كان يدور ، في ذلك الحين المضطرب ، في مخيلة الكثيرين من أبناء البلاد ، بل الكثيرين من الاثراك المتمصرين أنفسهم . ولم يكن (عبد علي) يرى مصلحة في اجتثاث جنوده ، بالرغم من أن ميوله كانت كلها تركية ؛ لأنه كان ، هو نفسه ، يحلم بدولة عربية تكون أسرته مالكة لها ، كما كانت الأسرة العباسية العربية مالكة لدولة أركانها فارسية .

الوسع في تعليم  
أبناء القطر المصري

فاستصدر المجلس الأعلى ، لذلك اذا منه بإدخال المنصر المصري في المدارس بكثرة ، بعد أن كان لإدخاله فيها قاصرا ، حتى ذلك الحين ، على عدد معلوم قليل جدا . وفتح ، لنيل الغرض المقصود ، صفة مدارس ابتدائية وثانوية في القطر عامة ، يعلم فيها ، في مدة ثمانى سنوات ، على نسق الليسيات الفرنسية ، العلوم الآتية وهى : القرآن ، الكتابة ، اللغة العربية ، اللغة التركية ، اللغة الفرنسية ، مبادئ الرياضيات ، مبادئ التاريخ ، مبادئ الجغرافيا ، الرسم .

ونجى عن تنطب المنصر المصري على عدد طلبة هذه المدارس ، وعن الرضاة في تحقيق أمنية إنشاء دولة عربية ، أن اللغة العربية أصبحت لغة التعليم العام ، وأن اللغة التركية لم يعد يعنى بها ، إلا من حيث هى لغة اضافية فقط ، منزلتها من الأهمية تكاد تكون أقل من منزلة اللغة الفرنسية .

أما المدارس الابتدائية التي أسست، في ذلك العهد، فهي :

في الغربية، مدارس : أبار، والحلة الكبرى، وزقى، وشربين، وفؤه،  
وميت غمر، والجعفرية، ونبروه .

وفي المنوفية، مدارس : أشمون بحريس، وشبين الكوم، ومنوف .

وفي الدقهلية، مدارس : المنصورة، والمنزلة، وصهرجت، وفارسكور، ومحلة  
دمنة، والعزيرية .

وفي الشرقية، مدارس : الزقازيق، وبليس، وكفور نجم، وميت العز .

وفي القليوبية، مدارس : الخانقا، وأبي زعل، وبنا، وقامولا، وقليوب .

وفي البحيرة، مدرستا : البحيرة، وحلوان .

وفي الفيوم، مدرسة الفيوم .

وفي بني سويف، مدرستا : بني سويف، وبوش .

وفي المنيا، مدارس : الفشن، والمنيا، وبني مزار .

وفي أسيوط، مدارس : أسيوط، وأبي نجح، والساحل، وساقية موسى، وسدبو،  
ومنفوط .

وفي جرجا، مدارس : جرجا، وسوهاج، وطهطا .

وفي قنسا، مدرستا : فرشوط، وقنا .

وفي إسماعيلية، مدرسة إسماعيلية .

وأنشئت كلها في فبراير سنة ١٨٣٧، ماعدا مدرسة أبي زعل، فانها أنشئت  
في أكتوبر سنة ١٨٣٦، ومدرسة ساقية موسى، فانها أنشئت في نوفمبر سنة ١٨٣٨



وكان قد أسس في الصعيد، في شهر مايو سنة ١٨٣٣، مدارس في : أسيوط،  
وملوى، ومنفلوط، وأبي تيج، والساحل، وإنجم، وجرجا، وسوهاج، وطهطا؛  
ولكنها أوقفت كلها في أبريل سنة ١٨٣٥

المدارس  
الثانوية والعالية  
والخصوصية

وأما المدارس الثانوية والعالية والخصوصية التي أسست في عهد (محمد علي) فهي:  
مدرسة الخلفاء العليا في سنة ١٨٣٦ ؛ مدرسة أبي زعبل الاعلادية في أكتوبر  
سنة ١٨٣٦ ؛ مدرسة القصر العيني العسكرية في سنة ١٨٣٥ ؛ مدرسة البيادة بالخلفاء  
في سبتمبر سنة ١٨٣٣ ؛ مدرسة البيادة بدمياط في يونيو سنة ١٨٣٤ ؛ مدرسة البيادة  
بأبي زعبل في فبراير سنة ١٨٤١ ؛ مدرسة البيادة بأباض في يوليو سنة ١٨٣٣ ؛  
مدرسة اللغات بالأزبكية في يونيو سنة ١٨٣٦ ؛ المدرسة البوليتكنيكية ببولاق  
في مايو سنة ١٨٣٤ ؛ مدرسة المصانع العسكرية بمصر في يوليو سنة ١٨٣٣ ؛  
المدرسة المعدنية بمصر المتيقة في مايو سنة ١٨٣٤ ؛ مدرسة المدفعية بطره في يونيو  
سنة ١٨٣١ ؛ مدرسة الخيالة بالجيزة في أبريل سنة ١٨٣١ ؛ مدرسة الصيدلية بالقلمة  
في نوفمبر سنة ١٨٢٩ ؛ مدرسة الطب البيطري بأبي زعبل في يونيو سنة ١٨٣١ ؛  
مدرسة الحسابات بالسيدة زينب في فبراير سنة ١٨٣٧ ؛ مدرسة الطب والتوليد بمصر  
في فبراير سنة ١٨٣٧ ؛ مدرسة العمليات (الصنائع والفنون) بمصر في مارس سنة ١٨٣٩ ؛  
مدرسة البحرية بمصر في سبتمبر سنة ١٨٣١ ؛ مدرسة الموسيقى في الخلفاء بمصر .  
في أغسطس سنة ١٨٢٧ ؛ مدرسة الطبول والأصوات بمصر في سنة ١٨٢٤ ؛  
مدرسة الطبول بمصر في أغسطس سنة ١٨٢٤ ؛ مدرسة العزف بالتخيلة في أبريل  
سنة ١٨٢٩ ؛ مدرسة الآلاتية بمصر في نوفمبر سنة ١٨٣٤

## إقبال المدارس

غير أن معظم هذه المدارس سواء أكانت ابتدائية أم ثانوية أم عالية لم تعمر طويلا، وأقبل معظمها، بعد أن وضعت الحرب بين مصر وتركيا أوزارها، فاضطر (محمد علي) إلى القعود عن الفتح والتوسع، وإلى تخفيض عدد جيشه من مائة وخمسين ألف مقاتل إلى ثمانية عشر ألفا .

والباقي أقفل، إما قبل ذلك العهد، وإما بعده . فمدارس : الرحمانية ، والنجيلة ، وشبراخيت ، وإيبار ، والمحلة الكبرى ، وزقني ، وطنطا ، وفوه ، والجعفرية ، ونبروه ، وأشمويت جريس ، وشين الكوم ، والمنصورة ، والمنزلة ، والمريزة ، وبليس ، وكفورنجم ، وميت العز ، وقوله ، وقلوب ، ويوش ، والمنيا ، وأسيوط ، وأبي تيج ، والساحل ، وساقية موسى ، ومنشوط ، وجرجا ، وسوهاج ، وطهطا ، وقتا ، وإسنا ، ومدرسة البيادة بمياط ، أقفلت في سنة ١٨٤١ ؛ ومدارس : دمنهور ، ومنوف ، وصهرجت ، ومحلة دمنة ، وبني مزار ، أقفلت في سنة ١٨٣٧ حينما ؛ ومدارس : شربين ، وبها ، والفيوم ، والفشن ، في سنة ١٨٣٨ ؛ ومدرسة ميت غمر في سنة ١٨٤٦ ؛ ومدرسة الخاقاه الابتدائية في سنة ١٨٣٩ ؛ وكذلك مدارس : سنبر ، وإنجيم ، وفريشوط . وفي هذه السنة أقفلت أيضا مدرسة الزراعة ، وكانت قد تأسست بشبرا في سنة ١٨٣٦ ؛ وأبطلت في سنة ١٨٣٧ ، مدرسة القصر العيني العسكرية المؤسسة في سنة ١٨٢٥ ؛ وفي سنة ١٨٣٤ ، مدرسة البيادة بالخاباه المؤسسة في سنة ١٨٣٢ ؛ وفي سنة ١٨٤٩ ، مدرسة البيادة بأبي زعبل المؤسسة سنة ١٨٤١ ؛ وفي سنة ١٨٣٦ ، المدرسة المعدنية بمصر العتيقة المؤسسة في سنة ١٨٣٤ ؛ وفي سنة ١٨٣٨ ، مدرسة الحسابات بالسيدة زينب ؛ وفي سنة ١٨٤٩ ، مدرسة البحرية .

التساعد  
بالأزهريين

ولما أصبحت اللغة العربية أساس التعليم كله، دعت الحال الى الاستعانة بالعلماء الأزهريين، ليقوموا بشؤون تعليمها في جميع هذه المدارس، فجعل معظم الابتدائية منها تحت ادارة نخبة منهم كالشيخ خليل الخوانكي، ناظر مدرسة الرحمانية، والشيخ غنيم سالم، ناظر مدرسة شبراخيت، والحاج أحمد عصافير، ناظر مدرسة دمنهور، والشيخ يوسف البرادعي، والشيخ محمد حسن، ناظرى مدرسة أبيار، والشيخ مصطفى التبراي، والشيخ حسن الطويل، والشيخ محمد أبو النجا، والشيخ رضوان بالي، ناظر مدرسة المحلة الكبرى، والشيخ وهبة مصطفى، ناظر مدرسة بندر زقي، والشيخ محمد كفاي، ناظر مدرسة شرين، والشيخ سليمان الخطيب، ناظر مدرسة فوه، والشيخ عبد الرحمن الشمري، ناظر مدرسة ميت غمر، والشيخ أحمد الشيخ، ناظر مدرسة فارسكور، والشيخ علي القهتي، والشيخ جوده مصطفى، ناظرى مدرسة العزيزية، والشيخ محمد عبد الرحمن، ناظر مدرسة الزقازيق، وهلم جرا.

ومن البسيى أنه لم يكن بدّ للتعليم الملقن على أيدي مثل هؤلاء الأماتة من التأثير بقلة معارفهم، وعدم سعة عقولهم، ووقوف حركة التطور في عقلياتهم. لأن الأزهري، في ذلك العصر، كان قد بلغ من الاقتصار على العلوم اللغوية والدينية، ما لم يكن معه مندوحة عن الانحطاط في ميادين العلوم العقلية الاجتماعية، وفي ذات القوة المستقلة. ولو اقتصر التعليم على أولئك الأماتة، لما استفاد طلاب تلك المدارس، أكثر مما كان يستفيد الطلاب الأزهريون، في سنى مجاورتهم الأولى.

ولكنه كان قد وجد في القطر، لحسن طالعه، عنصر آخر لم تنفل وزارة المعارف العمومية الحديثه استخدامه. ذلك العنصر كان مكونا من الأشخاص الذين تخرجوا

من المدارس المؤسسة منذ سنة ١٨١٦ والتي كانت تعلم فيها العلوم الدينية، كالتاريخ والرياضيات والجغرافيا والهندسة والرسم الخ .

هؤلاء الأشخاص، إما لعدم تمكنهم من الدخول في الجيش والادارات، وإما لإحالتهم على المعاش، أو لأية أسباب أخرى، كانوا قد كونوا هيئة تعليمية في القطر فيها الكفاية لسد احتياجات ذلك الوقت؛ ولو أنهم كانوا بيدين عن درجة الكفاية التامة بمراحل .

غير أن طلبة البعثات العالية الى الديار الأوروبية أخذوا، مع تهادى الأيام، يعودون الى القطر وينضمون الى تلك الهيئة المعلمة، ويساعدون، إما بترجماتهم، وإما بمؤلفاتهم على رفع مستواها وتحسين قيمتها .

والتلامذة لغاية سنة ١٨٣٦، كانوا جميعا من الممالك القفاسيين، أو من أولاد موظفى الوالى وضباطه الأجانب، فكانوا يتبرون كأنهم ملكه الخاص، أو بالحرى ملك حكومته، فيبرون على نفقته؛ ولما عدل نظام انتقاء الطلبة، وحل أولاد المصريين، فى المدارس، محل أولئك الشبان الأجانب، ربوا، هم أيضا، على نفقة الحكومة، وبالكيفية والشروط، التى كان أولئك يبرون بها .

الاضطرار الى  
التربية والتعليم على  
نفقة الحكومة

ولم يكن خلاف ذلك ممكنا : لأن الكره الذى أبداه الفلاحون المصريون، فى أول أمرهم، للتعلم ودخول المدارس، بالرغم من المزايا العديدة المرتبطة بالأمرين والتابعة عنهما، كان كالكره الذى أبدوه للخدمة العسكرية . فاضطر (محمد على) الى استعمال الوسائل القهرية معهم لتعليمهم وتربيتهم، كما استعمل الوسائل القهرية لتكوين جيش منهم . فكان أعوانه يهاجمون القرى مهاجمة، ويتربصون الأولاد من أحضان أهاليهم

قسرا، ويوزعونهم على المدارس بحسب سنهم وبنيتهم وقامتهم فبعد ما تظهر الأيام ميولهم، كانوا ينقلونهم الى المدارس التي يمكن فيها تلك الميول أن تسيروا بهم الى ذروة النبوغ. وأما من أثبتت الخبرة تجرده من كل ذلك، كان يمد الى فلاحه آياته .

تلك كانت حال التعليم في أيام (محمد علي) ؛ ولم يدخل على نظامها تعديل ، إلا ما أشارت به الخبرة ، أو جاد به هوى المنوط بهم الأمر ، أو وجبت احتياجات الحكومة .

رغائب  
(ابراهيم باشا)

فلما استلم (ابراهيم باشا) زمام الأحكام ، حق له إدخال إصلاحات شتى على تلك الحال ؛ ولكن قصر ملة ملكه لم يمكنه من نفاذ شيء مما رغب . وأهم ما وقع في خلدته في هذا الموضوع تعديل كيفية تشكيل البعثات العلمية الى أوروبا ، وتغيير شكل إقامتها هناك .

فالمنذوبية المشكلة في سنة ١٨٣٦ رأت إن الحكومة عاجزة عن تعليم الناشئة العلوم الوضعية والفنية العليا ، لسببين : (الأول) قلة الأساتذة الأكفاء ، للقيام بتدريسها ؛ و(الثاني) عجز اللغة العربية واللغات الشرقية على العموم ، عجزا مطلقا عن التصير عن مضموماتها ، لعدم وجود الكلمات الباقية عليها فيها .

فأرأت ، والحالة هذه ، وجوب الاستقرار على ارسال البعثات المدرسية ، لكي يستتم التلازمة العلوم ، التي لم يكن في استطاعتهم تعلم بعضها ، بكيفية كافية ، ولا التقرب من غيرها ، ما داموا بمصر ، وما دام تعلمهم باللغة العربية .

حديث  
السيرة جومار

وقد قال المسيو جومار — وهو أول من حبب الى (محمد علي) البعثات المدرسية الى الخارج ، وأحد الأعظم الذين ساعدوا على النمو العقلي والعلمي في القطر المصري —

« هل يكفي إنشاء مدارس نفقة عظيم على الطراز الأوروبي ، برجال يؤتي بهم من ميلانو وباريس ولسنره بمصاريف جمة ، ثم لا يلبثون أن يعودوا الى بلادهم حاملا يلبفون الغرض الذى رضوا بالمجىء لأجله ؟ كلا ثم كلا . وبما أن عدد الذين يختارون الإقامة الى الأبد في وطن غير وطنهم قليل جدا ، ولا يزيد على واحد في عشرين ألفا ، فالواجب ، اذا ، تعليم الأهالي أنفسهم في أوروبا ، بأحدى اللغات الأوروبية ، علوم الأوروبيين وفنونهم ، فيدخلون بذلك في صميمها ، ويتمكنون من أسرارها ، وتقتانس عقليتهم بعقلية متعلميها من الغربيين ؛ ولو أمكن لحمد على أن يرسل الى أوروبا منذ سنة ١٨١٥ مائة أو مائتين من الطلبة المصريين ، لتقدم رقي البلاد وتمتحنها عما هو عليه الآن » .

ولكن تلك المندوبية رأت أن تعمل الطريقة المتبعة ، حتى ذلك الحين ، بأن تؤهل ، أولا ، في المدارس المصرية ، الطلبة الذين تقرر إرسالهم الى المدارس الأوروبية ، كيلا يضيعوا من وقته هناك ، في تلقن العلوم المهمة لهم سبيل تلقى العلوم الخاصة ، المقصودة بالذات من إرسالهم الى تلك المدارس .

تعديل طريقة  
إرسال الجنات  
الطلبة

فلم تعد تبحث الى أوروبا إلا المتخرجين من المدارس المصرية الخاصة ، بعد تجميعهم علومهم فيها ، وتمكنهم من لغة البلد الأجنبي الممدين للذهاب اليه .

ولنيل هذا الغرض ، أنشئت مدرسة مصرية بباريس ، جعلت ادارتها تحت رئاسة مصرى ، يقال له استفان بك ، وأُسندت وكالتها الى نائب ، اسمه خليل أفندى تشيراكيان ، وكلف ضباط معينون من لندن وزارة الخارجية الفرنسية بمراقبة سير الدروس فيها ، وأرسل اليها ، في بادئ الأمر ، أربعون تلميذا منهم حلم وحسين ولدا (محمد على) وأحمد وإسماعيل ولدا (إبراهيم) — وقد سبق لنا ذكر هذا جميعه .

إنشاء مدرسة  
مصرية بباريس

فلما زار (ابراهيم باشا) هذه المدرسة أنشأ إحدى سياحاته في أوروبا استوقف انتباهه عدم الضبط المدرسي، وقلة نجاح الطلبة، وفداحة المصاريف التي تستدعيها مدرسة، أصبح كل واحد من تلامذتها (سلطانا صغيرا) حسبما قال هو نفسه .

ووجه نوبار باشا — وكان يومئذ كاتب أمراة (سكرتيره) — فكره الى المضار و فقدان المزايا، الناجمة عن الطريقة المتبعة، سواء أ كان من جهة التربية، على الأخص، أم من جهة التعليم على العموم. وقال له : «إن جمع أربعين طالبا مصريا في مدرسة واحدة يعيشوا دائما طبقا لعاداتهم وطبائعهم وبدون اختلاط، أو اختلاط قليل، مع خلافهم، من غير جنسهم ودينهم؛ أو إيقاعهم في بلادهم وبتأثيرهم الأصلية، سيان . فلما الامتناع عن ارسال طلبة بهذا الشكل؛ وإما الاقتصار على ارسال أحداث ما بين الثامنة والتاسعة من عمرهم، وتوزيعهم على المدارس والمآهل (باسيون) الغربية، بحيث لا يكون أكثر من اثنين في مدرسة واحدة أو مآهل واحد : فيستفيدون في تعلمهم؛ ويستفيدون، على الأخص، في تربيته» .

فوافق (ابراهيم باشا) على رأى سريره (سكرتيره) وعزم على اتباعه . ولكن الموت حال دون تمكنه من ذلك : فاستمرت الطريقة العقيمة التي ندد بها نوبار متبعة، حتى أقفلت ثورة سنة ١٨٤٨ الباريسية تلك المدرسة المصرية؛ وما فتئت، بعد ذلك، منتظبة على أفكار القائمين بشؤون التعليم في هذا القطر، حتى في عهد الاحتلال الانجليزى، بالرغم من جذب محمولها .

ولم يفلح الى المزايا الجمة الناجمة عن العمل برأى (ابراهيم باشا) إلا حفيده الكريم عظمة السلطان نؤاد الأول<sup>(١)</sup> فانه — حفظه الله — أيام أن كان رئيسا للجامعة المصرية،

أخذ السلطان  
نؤاد الأول برأى  
جده (ابراهيم)

(١) صاحب الجلالة نؤاد الأول العظيم، ملك مصر . كتب في سنة ١٩١٨

أدخل، بجانب نظام بحثاتها العلمية، نظام بحثات أحداث، ناهى الأطفال، الى بلاد  
أوروبية مختلفة، ليمشوا في بحثات تنافرت تمام المغامرة ببحثهم المصرية : فيكونون  
نشأة جديدة، وافسانية مصرية عصرية، متشربتين ومتشبعتين بغير المبادئ،  
والعادات، العقلية، المدينة مصر لمجموعها بلها القرنى .

ووقع في خلد (ابراهيم باشا)، علاوة على ما ذكر، إلزام جميع الموظفين والضباط  
المصريين بارسال أولادهم الصغار الى المدارس والمآهل الأوروبية، على نفقاتهم  
الخصومية، بدلا من ارسالهم اليها على نفقة الحكومة؛ وذلك لاعتقاده أن الأهلى  
إنما يهتمون بتربية أولادهم وتعليمهم على نسبة التضحية المادية والأدبية التى يحملون  
أهمهم أعباءها فى هذا السبيل؛ وإن الاهتمام الذى تكون التضحية العائلية أسد،  
لا يلبث أن يتشربين جميع طبقات الأمة، ويشترك فيه كل أفراد الهيئة الاجتماعية،  
ولا يختلف لثنان طاقلان فى سداد آراء (ابراهيم باشا) هذه؛ فلا يسع أحدا  
إلا التأسف تأسفا عميقا على قطع المنون شجرة حياته الكثيرة الثمار قبل نضوج هذه  
الثمرة عليها أيضا .

وزيد لدى التفكير بأن خليفته (عباس باشا الأول) لم يكتف بعدم مجاراته فى أفكاره  
وتبائنه تحسب؛ بل إنه قلب نظام التعليم والمدارس رأسا على عقب، بعد امتحان  
أجراه بأبى زعبل للأستاذة والطلبة معا، وكانت نتيجته سيئة للغاية. لأن الأستاذة—  
وكان معظمهم من الأزهريين الذين سبق لنا ذكرهم — ظهروا فيه بمظهر الجهلاء  
النوكى الحقى فاسم بأفقال عموم المدارس وطرد الطلبة والأستاذة منها؛ ماصدا مدرسة  
واحدة، أبقاها ودعاها بالمفروزة، للدلالة على أنها المختارة من بين الكل؛ وأحلها  
لتخريج ضباط للبرية والبحرية ومهندسين عسكريين ومدنيين .

إنصراف  
(عباس الأول)  
من دأى (ابراهيم)



غير أنه عاد الى فتح مدرسة الطب وتنظيمها على أسس جديدة تؤهلها لتخرج أطباء للجيش . ولما كان شديد الكراهة للعناصر الأجنبية ، ولا سيما الغربية منها ، وكان لا يرى متى تأتى الساعة التى يمكنه فيها الاستغناء عن غربى متقلد وظيفته فى القطر ؛ وكان ، من جهة أخرى ، يكره من صميم قواذه أن يتخلى الشرق عن عقليته وعاداته وأخلاقه ، حتى السقيمة منها ، فانه ارتأى أن يرسل الى أوروبا ، بدلا من الصبيان ، الناحى الأطفال ، والأحداث ، الذين رغب عمه (ابراهيم) فى إرسالهم اليها ، شبانا فى الخامسة والعشرين من عمرهم ، على الأقل ، أمواكل دروسهم بمصر ، وأن يفضل على هؤلاء أيضا ، الشبان الذين يكون قد سبق لهم تدريس فى المدارس العليا الملقاة ، لكن يتقنوا فى روح يسير العلوم التى يرسلهم لتلقيها ، ويعودوا فيعملون محل الغربيين فى دوائر التعليم والإدارة عامة .

قلعة ميل (سميد) الى  
تعليم أبناء البلاد

وكان (سميد باشا) خليفته ، بالرغم من ميله الكثير الى الغربيين وعقليتهم ، قليل الرغبة فى تعليم الفتيان من رعيته ؛ حتى انه قال ذات يوم لكوج بك ، مربيه السويسرى الذى أصبح سريره الخاص ، بعد ماتولى العرش ، وكان يحضه على اعادة فتح المدارس التى أقفلها عباس ، سلفه : <sup>(١)</sup> "لم نعلم الشعب ؟ لكن يصبح الحكم عليه والتصرف فيه أصرمهما عليه ؟ دعمهم فى جهلهم ! فالأمة الجاهلة أسلس قيادا فى يدي حاكمها" . فأتى اذا وزارة المعارف العمومية ، كما أتى معظم الوزارات ، وألحق بإدارة التعليم بدائرته الخاصة ، أو بوزارة الحربية .

ولكنه عاد فأظهر اهتماما عظيما بمدرسة الطب دون غيرها : فوضع لها نظاما جديدا ، واحتفل بافتتاحها ، على هذا النظام ، احتفالا شامها تحت رئاسة أدهم باشا

(١) الموقر "مصر" ص ٦٩ حاشية ٣١٢

وزير الداخلية، وبحضور شيخ الاسلام وعلماء الدين والهيئات الرسمية القريبة

في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٦

وأظهر أيضا اهتماما يعتد به بالمدارس الأجنبية المؤسسة في البلاد بمعرفة الاراساليات المنهية . وبما يؤثر عنه أن راهبات الراعى الصالح — وكثي قائمات ، في مدرستيها بمصر والاسكندرية ، بترية ستين يتيمة من بنات البلاد ، على اختلاف أديانهم ، زيادة من البنات الأخرى ، الدافعات قيمة زهيدة ، أجرة تعليمهن وتربيتهن — وجدن السبب ثقيلا عليهن ، فالتجأن إليه ، ورفعن الى مكارمه عرضا ، طلبن به منحهن لإردب برّ ، سنويا ، عن كل واحدة من تلك اليتيمات ، فأجاب طلبهن في الحال ، وجاد طين بما التمس . وأن راهبات المحبة بالاسكندرية — وكثي قد فعلن صيدلية لتوزيع الأدوية مجانا على المرضى ، على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ، شأنهن اليوم — وجدن أنهن في احتياج الى مبلغ خمسة آلاف فرنك ، سنويا ، ليمكن من الاستمرار على عملهن الباذي فالتمسن من مكارم (سعيد) ففاضت طين به . ولو التمسن نعمماتة ألف فرنك ، لما تأخر عنهن .

وهو (سعيد) أيضا بناية بمصر للارسالية الأميركية في سنة ١٨٥٥ — وهي سنة قدومها الى الديار المصرية ، ثم ساعد على توطيد أقدامها في القطر ونشر لواء معارفها فيه . وجاد ، كذلك ، على أول مدرسة ايطالية حكومية تأسست في القطر ، في عهده ، بمبلغ ألفين وأربعمائة جنيه ، ووهبها ثمانية آلاف ذراع في نقطة من أحسن جهات الاسكندرية .

وبما أنه كان مغربا بالجيش والفنون الحربية ، لم يكن يسعه أن يهمل التعليم العسكري في جملة ما أمهله من أنواع التعليم المصري . لذلك رتب ونظم بكيفية نهائية مدرسة

اهتمامه بالمدارس  
الأجنبية

وبالتعليم العسكري

القلعة الاعدادية في أغسطس سنة ١٨٥٦ ؛ ووضع ، على رأسها ، الشيخ العالم الفاضل رفاعة بك رافع ، الذي لا يختلف في جدارته وسعة معارفه اثنتان ؛ واحد مد برنامج سيرها ودروسها المشتمل على ١٧ مادة ، أهمها : (١) أن عدد الطلبة مائتان ؛ (٢) أنهم يقبلون فيها من سن ١٢ الى سن ١٨ ، مشروطا أن يحسنوا القراءة والكتابة ، لكن يتمكّنوا من اتباع سير الدروس منذ السنة الأولى . ويكون لهم الخيار ، فيما بعد بانتخاب المضار الذي يريدون أن يمحروا شوط حياتهم فيه — ولو أن تربيتهم عسكرية محضة — فيدرسون العلوم التي تؤهلهم لأن يكونوا مهندسين أو أطباء أو ضباطا الخ ؛ (٣) أنهم يتعلمون كلهم العربية بأفرعها بلا استثناء ؛ ويتعلم التركية والفارسية من يرغب منهم ؛ ويتعلم كلهم لغة ، على اختيار كل منهم ، من اللغات الأجنبية الآتية ، وهي : الإنجليزية ، والألمانية ، والفرنساوية ؛ كما أنهم يتعلمون الخط ، والحساب ، والهندسة ، والجبر لنافية معادلة الدرجة الثانية ، وحساب المثلثات المستقيمة المخطوط ، والرسم الخطي ، والتصميمات العسكرية ، والجغرافيا العامة ، والتاريخ ، والتضاريس ، والحركات الحربية ، وفقّ التحصين — كل ذلك في ظرف خمس سنوات أو أربع ، حسبما يرى الأساتذة المتدرون ؛ (٤) أن يعطى كل طالب مائة قرش صاغ شهريا ، زيادة على غذائه وملبسه وسكّانه وتعليمه والأدوات التي تلمّزه .

وفيا هذا ذلك ؛ فإن حالة التعليم ، على العموم ، سادت في أيام (سعيد) عما كانت عليه في أيام (عباس) ، وآلت الى اليوار . فبينما كان عدد الطلبة ، المتعلمين على نفقة الحكومة في أيام (محمد علي) الزاهرة ، نيفا وعشرين ألفا ، ونزل عند موت الباشا العظيم الى أحد عشر ألفا ، فإنه استمر يتناقص ويقل ، حتى لم يعد في أو اواخر حكم

(سعيد) ، إلا بضع مئات ، وتضاملت ميزانية التعليم حتى انحطت في سنة ١٨٦٢ إلى ستة آلاف جنيه فقط سنوياً !

لحق والحالة هذه لعقوب أرزين باشا أن يقول : <sup>١١</sup> أنه يمكن اعتبار المدة ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٦٢ ، فيما يخص بالتعليم العام والمعارف العمومية ، كأنها معدومة <sup>(١)</sup> ؛ وحق لما يكون أن يقول : <sup>١٢</sup> "إن ميدان العمل في هذه الوجهة ، كان مفتوحاً وظالماً على سعيه ، أمام (إسماعيل باشا) عند ما تبوأ عرش أبيه وجده <sup>(٢)</sup> " .

ميدان السل  
أمام (إسماعيل)

فدأب يعمل فيه ، ويعمل ، لا ليجرد إنشاء جيش قوى يركن إليه في المهمات ، بل لمصاحبة الأهالي وتزجية مستوى البلاد العقلي ، حتى حركت همته الشماخ المهم ، وحق للتاريخ أن يدعوه عهد "عهد إحياء العلوم والمعارف بمصر" . فبينما الليل غيم داس ، إذا بنور سطع وبدد غياهب الجهل .

وتتقدم حركة التعليم في عهده إلى خمسة أقسام : (الأول) ما كان منها في المدارس التي أنشأتها الحكومة ، وقامت بالاتفاق عليها ، (الثاني) ما كانت منها في مدارس المساجد والأوقاف والكتاتيب القديمة ، (الثالث) ما كان منها في مدارس أفراد من الهيئة الاجتماعية الإسلامية ، (الرابع) ما كان منها في مدارس الطوائف الشرقية غير المسلمة ، (الخامس) ما كان منها في مدارس الجاليات الأجنبية .

تقسم حركة التعليم  
في أيامه

ول أن عناية المليك ، الساهر على الرق العام ، أشرفت عليها من عل وأظلتها كلها بظل وأرف .

(١) أنظر : "التعليم العام بمصر" لعقوب أرزين باشا ص ٩٢

(٢) أنظر : "مصر كما هي" لمالك كون ص ٢١٠

مدارس الحكومة

## ١ - المدارس التي أنشأتها الحكومة

لما تبوأ (اسماعيل) سدة لم يكن في القطر من مدارس سوى مدرسة ابتدائية، ومدرسة تجهيزية، والمدرسة الحربية في القلعة، ومدرسة الطب والصيدلة والولادة التي أنشأها كلوت بك - وكلها بالعاصمة - ومدرسة بحرية بالاسكندرية؛ وكانت جميعها في حالة سيئة من حيث كيانها ونظامها والتعليم والتربية فيها .

فعهد (اسماعيل) بأمر إصلاحها الى أدم باشا - وهو ثاني من تولى وزارة المعارف بالقطر المصري في عهد (محمد علي) الكبير، واستمر على دفتها ، بعد وفاة مصطفى بك مختار، أول وزير لها، عشر سنوات أي من سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٩ - وأقبل ينشئ خلفها جهته العالية . فتأسست في سنة ١٨٦٤ مدرسة رأس العين ، بجوار السراى الخديوية بالاسكندرية؛ ومدرسة الناصرية بمصر، في الشارع الموصل من عابدين الى مسجد السيدة زينب، مكان القصرين اللذين كانا للأميرين المملوكين حسن كاشف وقاسم بك ، في أيام الحملة الفرنسية ، وخصصا بالجمعية العلمية المعروفة باسم "الانستيتيوت" حيث كان يجتمع يونانيرت وكليبر وفوربي وموجج والتسعون عالما الآخرون، الذين رافقوا تلك الحملة، وأنشأوا مجموعة الكتب العلمية انحصية بمصر، التي كانت من أكبر أسباب إعادة الحياة اليها .

وظهرت المدرستان المذكورتان بمظهر جديد لم يمهده معهد علمي مطلقا من المعاهد السابقة وتجلبتا - الأولى تحت إدارة ناظرها أحمد بك نصحي، والثانية تحت إدارة ناظرها برعي افندي - عنوان النظافة التامة والنظام الكامل . وعلمت فيهما العربية، والفرنساوية، والانجليزية، والألمانية، والجغرافيا، والرسم الخلي،

والحساب العادى، والحساب العالى، والقرآن لغاية الفرقة الرابعة، والتركية بدله من الفرقة الرابعة لما فوق .

وانتظم الطلبة فى سلكيهما، قسمين : داخلية وخارجية . على أنهم كانوا يتغدون جميعا فى غرقى طعام عظيمتين، هذا أبناء البيكوات والباشاوات فى مدرسة الناصرية فانهم كانوا يأكلون على حدة .

وفى سنة ١٨٦٥ تأسست بنها، فى سراى (جاس الأول)، مدرسة عظيمة حوت ثلاثمائة طالب يعلمهم أحد عشر أستاذاً ومدرسة أخرى بنى سويف ؛ وغيرها بالمينا ؛ وسادسة بأسوط . وحوت كلها نيفا وستمائة وواحد وثلاثين طالبا، منهم ٥٠٢ داخلية .

وبسبب الاتساع الزاحم ، الذى اتخذته الصناعة المصرية على أثر ارتفاع الأسعار الفطنية الناجم عن الحرب الأهلية الأميركية ، قرر (اسماعيل) فى سنة ١٨٦٥ حينها إنشاء مدرسة للفنون والصنائع . فوضع نوبار باشا نظامها بمساعدة فى فرنساوى ، يقال له المسيو مونييه : ولكن الكوليرا أوقف نموها وحال دون انتظامها . ثم شغلت الأفكار عنها بالمشاغل السياسية التى ألهمت بها سنة ١٨٦٦ بيد أنه ما وافت السنة التالية إلا وعاد شريف باشا — وكان ناظرا للمارف — الى موضوعها، ووفاه حقه .

فتحت المدرسة أبوابها فى سنة ١٨٦٧ تحت إدارة فرنساوى خبير يقال له المسيو إلواجى جون ؛ ودرس فيها أحد عشر أستاذاً وعريضا ؛ وجعلت مدة التعليم فيها ثلاث سنوات ، أولا، ثم نحسا . وشمل البرنامج : الرياضة ، والكيمياء، والرسم، والتوبوغرافيا، والفرنساوى، والانجليزى، والمهندسة، وكل صنعة وحرفة .

ولما كانت الألفاظ الفرنسية الاصطلاحية، الخاصة بالفنون والصناعات، غير متداولة على الألسن إلا قليلا، ولا يعرف إلا القليلون جدًا مقابلاتها العربية، ألف المدير، الواجى جون المذكور، قاموسا فرنساويا انجليزيا عربيا لها، يحدد بمكتبة كل ذى فن وصناعة الازدىان به .

وفي سنة ١٨٧٦ أنشئت ثلاث مدارس صناعية غيرها، ليحوز اليها التلامذة البلقاء في المدارس الابتدائية، بدلا من تحويلهم الى المدارس الحربية، فيتعلمون فيها، مدة خمس سنوات، صنائع يتعيشون منها في مستقبل حياتهم . وكانت تباع المصنوعات، التي يصنعونها في مدة دراستهم، ويحفظ ثمنها على ذمتهم، ثم يشتري بها أدوات صناعية، وآلات لكل منهم تصرف اليه حين مغادرته المدرسة، ليدخل ميدان الحياة وهو متسلح بها .

وأنشئت في هذه الملة عينا، في العباسية، مدرسة أولية، ومدرسة إعدادية، خلاف جملة مدارس عسكرية وحربية سيأتى الكلام عليها في غير هذا المكان . وتلا ذلك انشاء مدرسة هندسية ملكية كبرى، عرفت باسم "المدرسة البوليتكنيك" وأحضرت اليها الأساتذة من فرنسا ومن ضمنهم المسيو جليون دالجلار، صاحب الرسائل الممنمة عن مصر ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ وعهد بمساعلتهم الى أساتذة مصريين، من الذين تعلموا بفرنسا على نفقة الحكومة .

وكانت المجانية أساس التعليم، في هذه المدارس كافة، وتشمل الكسوة والطعام أيضا .

غير أن هذا جميعه لم يكن سوى باكورة العمل . فسرطان ما أدركه الهندوى أن إنشاء بضع مدارس، مستقلة الواحدة عن الأخرى، قليلا أو كثيرا، ومشتغلة كل

منها على حدة، بدون ارتباط بينها، ويرتاج خصيص بها، لا يؤدي الى ما يرى اليه من تعميم التعليم وفشره بين أفراد أمته. فكلّف لجنة تحت ادارة على باشا مبارك ناظر المعارف والأشغال العمومية، منذ ١٥ أبريل سنة ١٨٦٨ بوضع قانون أساسى للتعليم العام، تكون المدارس، بموجبه، كلا منظما ذا أجزاء مندمج بعضها فى بعض .

فاشتغلت تلك اللجنة بهمة وعزيمة صادقة؛ وأخرجت، الى حيز الوجود، اللائحة المعروفة باسم "لائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤" وهى لائحة ذات أربعين بنداً مبينة على مبادئ أساسيين، هما : تضامن جميع المدارس فى نظامها وتعليمها؛ ومساواة المعاهد التى من درجة واحدة مساواة تامة فى جميع الأمور .

لائحة ١٠ رجب  
سنة ١٢٨٤

فقسمت المدارس الى ثلاثة أقسام : ابتدائية — وهى الكاتيب ومدارس المديرات — وثانوية، وطالية؛ خلاف المدارس الخاصة .

أما الكاتيب — وقد كانت نيفا وخمسة آلاف، وبقيت لسنة ١٨٧٤ مستقلة عن الحكومة، بطلابها الزائد عددهم على المائة والمشرين ألفا، وفقهاء الذين كانت معظمهم من المميين — فان اللائحة لم تدخل، على المنشورة منها فى القرى، تعديلات محسوسة، غير إلزامها بتعليم الحساب . ولكنها شددت على ذات المركز المهم منها، برفع مستوى التلامذة العقلى، لى تؤهلهم للدخول فى مدارس أعلى منها درجة؛ كما أنها شددت عليها بالصبرورة الى مدارس ابتدائية حقيقية؛ وذلك بما وضعت من تعليمات وإرشادات للفقهاء فيها، وبما قررت لها من كتب، وأدوات مدرسية، وإدخال تعليم لغة أجنبية ومبادئ الجغرافيا والتاريخ على برنامجها .

وأما مدارس المديرات — وهى مدارس ابتدائية حقة — فان اللائحة المذكورة قررت تعميم إنشائها فى بتادر المديرات كافة، على نظام مثيلاتها فى أوروبا؛ وجعلت



برنامج التعليم فيها كالآتي : القرآن ، العربي ، الفرنسية أو الانجليزية ، الحساب ، التاريخ ، الهندسة ، الرسم ؛ وجعلت الأصل فيه المجانية المطلقة ، سواء في ذلك الطلبة الداخلية والطلبة الخارجية .

وأما المدارس الثانوية ، فقرر أن تكون سبعا : ثلاثا في مديريات الوجه البحري ، وأربعاً في مديريات الوجه القبلي ؛ وأن تكون المجانية المطلقة الأصل في التعليم فيها أيضا .  
وأما المدارس العالية ، فجعلت تسعا : ثمان منها في مصر ، وواحدة بالإسكندرية .  
وكانت أهمها كلها مدرسة البوليتكنيك ومدرسة الطب .

أما البوليتكنيك — وكان يقال لها أيضا مدرسة الهندسة — فقد أنشئت أولا في العباسية ، ثم نقلت الى درب الجمائز ، في سراي الأمير مصطفى فاضل ، أنى الخديو ، حيث كان مقر وزارة المعارف ؛ وكان تلامذتها الستون كلهم داخلية ، ويتعلمون ، في ست سنوات : الرياضة العليا ، والكيمياء ، والطبيعة ، والجولوجيا ، والميكانيكية ، والعربي ، والفرنساوي أو الانجليزي ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم .  
وكان التابعون في الرسم كثيرين . ولا غرابة : فمصرى اليوم إنما هو حفيد مصرى العهد الفرعونى .

ولما كانت تلك السراي واسعة جدا ، فقد نقلت اليها مدرسة الادارة ، وعدد طلبتها خمسون ، ومدرسة المحاسبة والمساحة ، ومدرسة اللغات ، والمدرسة التجهيزية وطلبها خمسمائة وخمسون ، معظمهم خارجية .

ووجد ، مع ذلك ، متسع لمسرح فسيح ، كانت تقام فيه الامتحانات العامة السنوية العالية ؛ ولحديقة نفيسة ، أنشأها في سنة ١٨٧١ على باشا مبارك ، وربها

في ست حجر ، وكانت فيها طائفة من كتب مكتوبة بخط اليد في لغات متعددة لا سيما العربية ؛ وأهمها نسخ قرآنية وجدت على قبور مؤسسي المساجد من سلاطين مصر السالفين ، وكانت ذات أهمية تاريخية عظيمة ، لأن الواحدة منها كتبت ووضعت على قبر مؤسس المسجد في بحر السنة التالية لموته ؛ فكانت تدل على تطور الخط العربي ، على ممر الأيام ؛ وتساعد على تحقيق عصر بناء تلك المساجد ، والتثبت من مواعيت التاريخ العربي .

وأثنى ، في تلك السراى ، أيضا في ١٢ يوليو سنة ١٨٧١ معمل طبيعيات ، تام الأدوات ، يضاهى أكبر المعامل الأوروبية التي من نوصه .  
وانما ذكرنا المعمل والمكتبة والمسرح ، عند كلامنا على مدرسة البوليتكنيك ، لاقترانها بها في فكر عموم مصري ذلك العهد ، بسبب وجودها مما في محل واحد .  
وأما مدرسة الطب — وقد قلنا كيف تأسست وألغيت ثم أعيدت الى الوجود — فلم يكن لها من مثيلة في الشرق كله ؛ وكانت تنقسم الى قسمين : قسم الطب والجراحة ، وقسم الصيدلة . ومدة التدريس في كل منهما خمس سنوات : منها ستان لأطادة العلوم الأدبية ، المعلمة في المدارس الثانوية وإتمامها ؛ والثلاث السنوات الباقية ، للطب والصيدلة . وكان عدد طلبتها ، في سنة ١٨٧٦ مائة وخمسة وتسعين طالبا ، كلهم داخلية ماعدا عشرين . وبما أن تعليم التلامذة الداخلية ، وطعامهم ، ولبسهم ، ومقامهم ، كتعليم الخارجية ، كان مجانا ، فان تخريج الطبيب الواحد كان يكلف الحكومة ثلاثة عشر ألف فرنك ، وتخريج الصيدلي الواحد أربعة عشر ألف وخمسمائة فرنك ؛ ولذا فان الداخلية كانوا يلزمون بالاستخدام في الحكومة ، بعد نيلهم دبلوم الطب أو الصيدلة ، وأما الخارجية فكانوا أحرارا .

وكان معظم الأساتذة ، في القسمين ، من المصريين الذين تعلموا بأوروبا ، فلم تكن مرتباتهم ، والحالة هذه ، ضخمة كما لو كانوا يحضرون ، خصيصا ، من أوروبا . وكان ، في المدرسة ، مستشفى مدني وعسكري على أحسن شكل ، ومعمل كياوى خاص بقسم الصيدلة تحت ادارة جستنيل بك ، ليس له مثيل ، وبستان نباتي ، ومكتبة شاملة ، ومجموعات تجهيزات تشريحية ، ومجموعات تاريخ طبيي ، وكلها مختارة اختيارا حكيما .

ثم استدعى (اسماعيل) من سويسرا أستاذا خصيصا في للتعليم وحركته ، يقال له المسيو دور ، وبعد أن أنعم عليه برتبة البكوية ، عينه مفتشا عاما للمعارف ، وكلفه بتنظيمها ، وتوسيع نطاقها على النمط الفرنسي ، ورتب مجلسا أعلى للإشراف على شؤون المدارس ، وخص وزارة المعارف بميزانية سنوية ، تراوحت بين سبعين وثمانين ألف جنيه . ولما اضطره ، فيما بعد ، انهاقه على المتاع العمومية الأخرى ، والشؤون السياسية المختلفة ، الى الاقتصاد من ذلك المبلغ قليلا ، وهب تلك الميزانية ايراد تفتيش الوادى — بعد أن استردّه من شركة قناة السويس ، مقابل مبلغ عشرة ملايين من الفرنكات — وكان مجموع ذلك الايراد ستمائة ألف فرنك سنويا . على أن مصروفات ادارة التفتيش كانت تستغرق جزءا كبيرا من هذا المبلغ ، فأخذها (اسماعيل) على عاتقه الشخصي ، وقرر ستمائة ألف فرنك سنويا للمعارف بكيفية ثابتة .

فقام دور بك بمهمته ، بعزم صادق وهمة عالية ، وبعد أن درس موضوعها درسا عميقا ، وأجرى بعض تعديلات في المدارس الموجودة — كتحويله مدرسة الادارة الى مدرسة حقوق ، ( شرع ناظرها المسيو فيدال يعلم القانون الرومانى والقانون الفرنساوى فيها ، ويقارن بينهما وبين باقى الشرائع ، توطئة وتعميدا لتخرج رجال

حقوقيين تتكون فيهم الكفاية للجلوس على منصات القضاء المختلط الذي كانت المحاكمات دائرة في أمر النساء مع الدول صاحبات الامتيازات ) ؛ وبجمله مدرسة اللغات معهدا لتخريج مترجمين ومنشئين ، يشغلون في الادارات ، أو في إنجراج ما يلزم من الكتب للماهد العلمية ؛ وكأضافة قسم طب يطرى الى مدرسة الطب انتظم في سلكه خمسون طالبا ؛ وأثناء قسم فلكي في سراى الأمير مصطفى فاضل السابق ذكرها - ووضعه ، للدارس عامة ، المناهج الوافية ، الكافلة بلوغ الأمانى ونيل المنى ، فيما لو نفذت برمتها .

ولكن تنفيذها التام كان معسرا ؛ وجبل مجهودات الخديو ووزراء معارف أمته ومساعديه كان ضائعا في مجموعه لسبيين : (الأول) قلة المال ، بالرغم من تعاقب التفصحات الخديوية ؛ و(الثاني) قلة الرجال ، بالرغم من استحضار الأساتذة من أوروبا ، وحف ارسالية الطلبة المصريين فيها بكل صنوف العناية .

أما قلة المال ، فلأن الحركة التمدنية التي قام بها (اسماعيل) ، تناولت كل مظاهر الحياة القومية ، والحياة الاجتماعية ، ومكنوناتها ؛ واستنفدت معظم إيرادات البلاد وإيراداته الشخصية ، وما لم تستنفده تلك الحركة ، ابتلته المساعي الى الاستقلال وإلى احلال الدولة المصرية من مصاف الدول العظمى في المحل الاتق بماضيها الفرعونى وحاضرها العلوى ، كما سترى في البابين التاليين : فلم يمد في حيز الامكان الاتفاق على التعليم ، أكثر مما كان ينفق عليه ، بالرغم من شدة الرغبة في توسيع دائرة الاتفاق .

على أنه لا يجب أن يستنتج من ذلك فكرة تحط من قدر المجهود المبذول في هذا السبيل : فانه بينما كانت ميزانية التعليم بمصر تتراوح بين السبعين والثمانين ألف جنيه

سنويا ، ولا تهمل عن الستين ألفا حتى في أسوأ سنى العسر المالى — وذلك غير المنطقى على المدارس الحربية والبحرية التابعة لميزانيتى وزارتى الحربية والبحرية ، وغير ما كانت تتفقه ادارة الأوقاف على عموم مدارس المساجد والكتائب — لم تكن ميزانيته في تركيا تريد أبدا على الخمسين ألفا حتى في أجود سنى الرخاء — وذلك بالرغم من أن سكان تركيا كانوا سبعة أضعاف سكان مصر ، وبالرغم من أنه لم تتم في تركيا حركة تمدينية البنة كالحركة التى أثارها (اسماعيل) بمصر ، ولا ألزمها مركزها السياسى بنفقات في غير أبواب الادارة الداخلية ، كما ألزم مركز مصر السياسى الحكومة المصرية بها .

مضار مبدأ  
المجانة المطلقة

على أن مبدأ المجانية المطلقة في المدارس المصرية — وقد كان مبدأ معلوما كلية في تركيا — هو الذى كان يجعل المبلغ المخصص لميزانية التعليم غير واف بالمراد ولا مساعدا على القيام بالمقصود . وذلك لأن مصاريف طعام التلامذة وكسوتهم ومسكنهم ، ناهيك بما كان يتقاضاه بعضهم من المرتبات الشهرية ، على زهادتها ، كانت تبتلع ثلاثة أرباع الميزانية ، ولم تكن مرتبات المعلمين تستنفد أكثر من الربع الباقى ، وكانت ، لهذا السبب ، زهيدة حتما ، وغير مشجعة على العمل . فمرتبات معلمى المدارس الثانوية ، مثلا ، كانت تتراوح بين مائتى قرش وسبعمائة ونحسين قرشا شهريا !

ونعيم عن جعل المجانية أساسا للتعليم ضرران عظيمان : (الأول) اضطراب الحكومة ، مع تقدم الأيام وتغير عقلية الأمة فيما يختص بإرسال أولادها الى المدارس ، الى حصر عدد التلامذة ، الممكن قبولهم في المدارس الأميرية ، ضمن دائرة محددة ، وحرمان الكثيرين من الراغبين في التعلم من ثمرات العلم الشمية . لأنه ، لما كانت نفقات

التأهيد الواحد يكلف الحكومة ستة وعشرين جنيها سنويا، بين تعليم وأدوات تعليم وليس وأكل ونوم، لم يعد في الاستطاعة اجابة طلبات جميع الراغبين في الالتحاق بالمدارس بل ولا جلها، وبات من المهم الاقتصاد على محلات معلومة في كل مدرسة بالرغم من أن الدفعة القوية التي صدرت عن (اسماعيل) للشؤون العالمية، أدت، في ظرف عشر سنوات، الى انشاء المدارس الأولية على النظام الأوروبي في المديرات، والى تشجيع التعليم الابتدائي في الكتائب ومدارس المساجد وغيرها، مما سيأتى بيانه .

والى مثل هذه النتيجة، وهى الاقتصاد على محلات معلومة في المدارس وحرمان الكثيرين من الراغبين في التعلم من ثمرة العلم الثمينة، وصلت حكومتنا اليوم، بسبب مفاالاتها في الاتفاق على تشييد معاهد التعليم، وافراطها في المرتبات الضخمة الممنوحة للاساتذة الأجانب .

والضرر الثانى قدان الطلبة حرية اختيار المدرسة الثانوية أو العليا، التى يميلون اليها ميلا طبيعيا، بعد فراغهم من تلقى دروسهم الابتدائية . لأن الحكومة، المتولية الاتفاق عليهم، كانت ترى نفسها أحق منهم بذلك الاختيار : فتصرف فيهم كما تشاء، تصرفا كثيرا ما كان غير الحكمة رائده، لأن الصدف والفطوف تجعله في يد وزير ربما تعوزه الحكمة .

مثال ذلك ما حدث جينا خلف قاسم باشا فى ديسمبر سنة ١٨٧٢ شاهين باشا على دست وزارة الحربية، فانه رأى فى ١١ فبراير من السنة التالية أن يمزج هيئة الضباط، ويضاعف عدد تلامذة المدارس العسكرية، فطلب الى بهجت باشا وزير المعارف أن يسمح له بأن يختار من مدارس الحكومة المدنية، الشبان الذين يحتاج اليهم، ولم يسمع بهجت باشا إلا موافقته، لتلا يرى بأنه يريد إضعاف قوة مصر

المداخلة عنها . فاختار قاسم باشا ١٤٤ طالبا من التحضيرية ، و٦٥ من التجهيزية ، و٩٦ من المهندسخانة ، بحيث لم يعد في الفرقة الأولى منها سوى تلميذين من الثلاثين الذين كانوا فيها .

ولولا تناخل بعض العقلاء ، وإلقاتهم نظر الخديو الى ذلك الخلل — فتلافاه (اسماعيل) — لنفذ قاسم باشا مرامه وأحل الخراب بجملته بالمعاهد العلمية .

ومثال ذلك أيضا ، ما كان يتبع ، عادة ، في أمر الأذكيا والبلدء من طلبة المدارس الأولية : فانهم كانوا يرسلون الأذكيا الى المدارس المدنية العالية ، ويرسلون البلدء الى المدارس الحربية . فيتخرج الأذكيا من مدارسهم المدنية ، وأعلى مرتب شهري يمكن أحسنهم الطمع فيها ، عشرة جنيهات مصرية ؛ بينما البلدء يتخرجون من المدارس العسكرية ، ضباطا ؛ أقل مرتب شهري ، يربط للواحد منهم ، أعلى من أقصى مرتب يطلع فيه الذكي الملكي ، فتلبط بذلك همه كل ذكي ، ويصبح مرناحا الى التظاهر بالبلادة والغباء ، حرصا على سمادته المستقبلية ، وتمتلا بقول ابن الراوندى :

رزق الثيوس يميئها بسهولة \* وذوو الفصاحة رزقهم مسجون

ان كان حرماني لأجل فصاحتي \* فامن على من الثيوس أكون

ومثال ذلك ، أخيرا ، ما كان يعمل سنويا ، في الخلق الطلبة بهذه المدرسة العالية أو تلك ؛ فانهم كانوا يجمعون المتخرجين من المدارس التجهيزية ويقسمونهم الى عدة مجاميع ، يوزعونها بطريقة الاقتراع ، على مدرسة الطب ، والمدارس المجتمعة في سراى الأمير مصطفى فاضل ؛ ثم يعودون فيدخلون مدرسة الطب ، بطريق الاقتراع أيضا ،

ثلاثة أرباع المجموع الذى يكون قد أصابها ، ويدخلون الربع الباقي فى مدرسة الصيلة ؛ ثم يعملون العملية فيها فيما يختص بمدرسة المهندسخانة ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة اللغات ، وهلم جرا ، بدون مبالاة بما ينجم عن ذلك من إجحاف بميول التلامذة ، وقهر للكفايات على الانتشار فى ميادين غير التى خلقت من أجلها .

ودام مبدأ الاقتراع هذا بمضاره معمولاً به حتى سنة ١٨٧٦ ، إذ ألغاه رياض باشا وزير المعارف فى ذلك العام ، وصاحب الأيادى البيضاء على التعليم الابتدائى ، بما بذله من مجهودات فى سبيل تحسين حال الكتائب ، وترقية معلومات الفقهاء .

وهكذا كانت المجانية — التى كثيراً ما جذبها فى الأيام السالفة قصيرو النظر من الأميين وغيرهم ، وما زال يجذبها بعض الكتائب الاجتماعيين لغاية أيامنا هذه — أعظم مانع لانتشار المعارف والتعليم بمصر فى ذلك العصر !

ونجم عنها زيادة على ما ذكر ، تغلب النظام العسكرى على معظم المدارس . ولا نستطيع أن نجزم أكان تغلبه هذا خيراً أم شراً عليها ، لأسباب لا تخفى على القارئ البليغ : فان البلاد كانت فى حاجة الى روح الشدة فى حفظ النظام ، بقدر ما كانت فى حاجة الى انبثاق روح الحرية والاستقلال فيها . ففقدناها الروح الأول كان من شأنه أن يحرمها فائقة التعليم ، وفقدناها الروح الثانى كان من شأنه أن يديم استكاثتها الى النسل الموروث عن القرون السالفة . وبما انا لسنا من مذهب الفائل بتفضيل الجهول ، مع الاستقلال ، على العلم ، مع عدمه ، لأننا على ثقة تامة من أن الجهول جارء حتماً ، فى نهاية الأمر ، الى الاستعباد والذل ، والعلم مفض ، حتماً ، فى نهاية الأمر أيضاً ، الى الاستقلال والكرام ، إلا اذا اعترض خور فى الأخلاق سبيله ؛ فانا نتردد فى إبداء حكم بات فى الشأن الذى نحن فى صدده .



وأما قلة الرجال فمفسدين :

(الأول) أن الفترة المشؤومة ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٦٣ أنقصت كثيرا عدد المصريين أولى الكفاية لمباشرة شؤون التعليم ، وأضاعت ممن تبقوا ، الثقة في أنفسهم والاعتقاد طليها . فبجئ عن ذلك أن وزارة المعارف كانت في اضطراب دائم إلى استدعاء نظار المدارس للتعاون بهم على الأعمال الإدارية والفنية تمظهرهم عن أشغالهم ، وإن نظار المدارس باتوا يستشيرون الوزارة في جميع أمورهم حتى التافهة منها — فتعثر كل حركة لإدارتهم — ونتيجة الأمرين اختلال النظام في طرق التعليم وفي نفاذها .

و (الثاني) هو أن ازدياد عدد الطلبة ، لا سيما الداخلية ، ازديادا مطردا في السنوات الأولى من حكم (اسماعيل) أدى حتما إلى ازدياد الشعور بالحاجة إلى معلمين ، وإلى وجود عدم الكفاية منهم . فإن الأهالي ، بعد أن كانوا في أيام (محمد علي) وخطفائه الأولين ، يمانعون في تعليم أولادهم مماقتهم في تجميعهم — لارتباط الأمرين معا في ذلك العهد — فيضطرون (محمد علي) إلى استعمال القوة والتسرف في أخذهم منهم وإرسالهم ، قسرا ، إلى المدارس التي أنشأها ، ما لبثوا أن رأوا الفوائد الجمة المائدة على المتعلمين من أبنائهم ، ورأوا ولد هذا الفلاح الحقير ، وابن ذلك الصانع الوضعي يملئان ، بفضل العلم الذي تلقياه ، أعلى مراتب التوظيف ، ويحلبان برتبة البيكوية بل برتبة الباشوية الرفيعة ، ثم رأوا أن التعليم ليس مجانيا فقط ، بل مكافأ عليه ، ومحوطا بجميع صنوف العناية والهناء ، أقبلوا بكل انشراح ، يتراحمون على أبواب المدارس ، كل يلتمس لابنه فيها محلا ، ويرجوه نصيبا في المستقبل ، كنصيب الذين أسعدهم الحظ من أولاد أقرانه ، بل من أولاد الأخط منه قدرا .

فأخذت الحكومة منهم ، في الأول ، ما كان في استطاعتها أخذه ، ولكنها ما لبثت أن رأت نفسها أمام المعضلتين ، اللتين ذكرتهما : معضلة المال ومعضلة الرجال ، إلا واضطرت الى الوقوف عند حدّ معلوم ، والبحث عن طرق لحلّهما .

أما معضلة المال ، فإن الوزير الحكيم علي مبارك باشا رأى أن خير حل لها هو السير على الخطّة المتبعة ، إذ ذاك ، في المدارس الأوروبية ، أى إبطال مبدأ المجانية البحتة ، وتكليف الأهالي بالاتفاق على تعليم أولادهم ، ولو إنفاقا يسيرا في بادئ الأمر . فأنشأ مدرستى ماريستان قلاوون والقربية ، وفرض فيهما دفع مصاريف شهرية على الراغبين من الأهالي في الحلق أولادهم بهما . ولما كانت تلك المصاريف زهيدة جدًا ، على كفايتها للاتفاق على الأساتذة القائمين بشؤون التدريس في كلتا المدرستين ، أقبل التلاميذ عليهما إقبالاً عظيماً ، وبلغ عددهم فيهما ، في مدة قصيرة مائتين وخمسين طالباً ، فبانتا مثالين لجميع المدارس الابتدائية التي أنشئت بعدها .

وأما معضلة الرجال ، فإن دوربك رأى أن حلها لا يكون إلا بإنشاء المعاهد لتخريج مدرّسين للدارس الابتدائية والمدارس الثانوية . فأنشأ مدرسة دار العلوم ، ثم أنشئت بعدها المدرسة المدخّوة بالنورمال : ( الأولى ) لتخريج أساتذة يقومون بتدريس كل ما كانت اللغة العربية أساساً لتعليمه ، و( الثانية ) ثلثية مستوى التعليم في المدارس الابتدائية ، وتخرج أساتذة يقومون ، على الأخص ، بتدريس اللغات الأجنبية ، والرياضيات والعلوم الأخرى .

ولكنه ، لما كان لا بد من الالتجاء الى الأزهر ، لأخذ الطلبة المتقدمين فيه الى مدرسة دار العلوم ، وتخرجهم فيها مدة سنتين ، ليرسلوا بعدها الى مدارس الريف ،

ليدرسوا فيها، كان على الأساتذة، المتخرجين من هذه المدرسة، شئ من المسحة الأزهرية، جعلهم لا يرون قاعدة للتعليم خيرا من التي شيوا عليها في ذلك المعهد الديني العظيم .

ولم يدرك دورك تمام الغرض الذي رعى اليه من انشاء دار العلوم ، وهو تخريج أساتذة متشبعين بمبادئ التدريس على النمط الأوروبي ، وميالين الى العمل بقواعد الپيداجوجيا الحديثة . ولكن البلاد نالت، من انشائها ، فائدة أعظم من التي رجاها ذلك الأستاذ السويسري ؛ لأنها ، لما رأت إقبال المتعممين على تقن علوم كان سواد الأمة الأعظم يعتقدها من بدع الشيطان، لاعتقاده إياها من غرس عالم غير إسلامي، من غرس عالم ما فتئ العالم الإسلامي يظن السوء في نياته نحو الاسلام — وهو الاعتقاد الذي أذى بالأزهر الى مقاومة (محمد علي) مقاومة شديدة، بالرغم من كونها خفية وصماء، حينما أقبل يأخذ أولاد الفلاحين المصريين، ويزجهم في مدارس، أو يرسلهم الى مدارس بلاد الكفار (الفرنج) ، مع أنه لم يقاومه مطلقا ، لما كان مقتصرا في بادئ أمره، على تعليم مماليكه وغيرهم من أولاد الشرقيين الأجانب عن مصر — ورات أولئك المتعممين يميزون ما يتلقونه من تلك العلوم ، ويعظمون من شأنها ، ويغالقون في فوائدها، أخذت تتحول عن اعتقادها أنها علوم من بدع الشيطان، وأخذت الرغبة في تحصيلها تنتشر في المجموع، رويدا رويدا ، وتم جميع الطبقات . ومن المعلوم أن رقي البلاد برمتها، ماديا كان أو أدبيا، مربوط، في نهاية الأمر ، بنشج الأمة بمبادئ العلوم الوضعية؛ وعملها على اقتباسها، واقتباسها إياها، في الواقع .

ثم أنشئت معاهد، خلاف مدرستي دار العلوم والنو مال، لتثقيف أساتذة المدارس الابتدائية، غير من ذكروا، ممن كانوا يرغبون في تحسين معارفهم، وترقية درجة

معلوماتهم العامة . وجعل التعليم فيها ليس مجانياً ، فقط ، بل ربط جنيته لكل طالب حتى يتبين نجاحه ، أو تظهر خيئته .

على أنه لا قلة المال ولا قلة الرجال حالتا دون قيام (اسماعيل) بعمل تعليمي لم يسبقه إليه أحد في الشرق ، وكان من أنصح الأدلة على حسن نوايا ذلك الأمير ، وبرها برطايه ذلك العمل هو إنشاءه في سنتي ١٨٧٥ و ١٨٧٧ مدرستين للعميان على الطريقة الغربية المعروفة . وهما مدرستان كان الفطر المصري ولا يزال في أشد الاحتياج اليهما وإلى مثيلتهما ، لكثرة عدد العميان فيه ، وكثرة قلة الرمد الصيدى بعيون سكانه !

وليس أوقع في النفوس من الوصف الذى يصف به دورك في كتابه المعنون "التعليم في مصر" الحجرة المخصصة في الأزهر الشريف لتعلم أولئك البؤساء ، وقيام معلمهم بأمر تعليمهم بطول أناة وحسن صبر يستمطران المدامع من الأعين<sup>(١)</sup> !

على أن التعليم فيها ، إنما كان بتحصيل الذاكرة أعباء الحفظ ، لا بتعليم اليد القراءة والكتابة لمسا ، بخلاف المدرستين اللتين أنشأهما (اسماعيل) ، فانهما كانتا تستخدمان الكتب ذات الأحرف البارزة ، المخصصة للعميان ، لتعليمهم القراءة ، والكتابة ، والحساب ، باللس ، فوق تعليمهم صناعة الحصر ، والخراطة ، والكرامى ، وغيرها . وما لبثنا أن جمعنا ملحقا عنيينا من أولئك البؤساء ، الذين كانوا لا يفترقون لحظة عن الالتئال الى الله أن ينف من أحسن اليهم صنعا بجميع صنوف عطاياه وتعمه ، وإبقاء حياته وملكه .

وتتوالى الإصلاح المدرسى ذات المعاهد الدينية ، لاسيما الكبرى منها ، كالأزهر بمصر والجامع الأحمدي بطنطا ، والدسوق بدمشق ، وجامع ابراهيم باشا بالاسكندرية .

(١) أنظر : "التعليم العام بمصر" فدر بك ص ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥

فالزم الشيوخ المتخرجون فيها بتأدية امتحانات، لنيل اجازة التعليم، واعتراف الحكومة بهم أنهم معلمون .

وكان عدد المجاورين بالأزهر في سنة ١٨٧٦ أحد عشر ألف طالب وخمسة وتسعين؛ وعدد المجاورين في الجامع الأحمدى ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وعشرين؛ وعدد المجاورين في المسجد الدسوقي مثلهم تقريبا . وأما عدد طالبي العلم في جامع الشيخ ابراهيم باشا، فلم يكن سوى أربعمائة وثلاثة عشر .

٢ — مدارس المساجد والأوقاف والكتائب القديمة التابعة للأوقاف مدارس الأوقاف بما أن ادارة هذه المدارس والكتائب، طوال مدة حكم (اسماعيل)، تقريبا، بقيت مسندة الى أيدي وزراء المعارف، فان حظ حركة التعليم في المعاهد التابعة لها، والمتولية هي الاتفاق عليها، كان كحظ مدارس الحكومة وكتائبها . وأدخلت عليها التنظيمات والتصحيحات التي أدخلت على هذه فلا داعي لزيادة التكلم عنها .

٣ — المدارس التي أسسها أفراد من الهيئة الاجتماعية الاسلامية المدارس الفردية ان أهمها ماتجمل في مدرسة راتب باشا بالاسكندرية؛ وفي مدرسة السيوفية للبنات بمصر؛ وفي مدرسة القبة للأولاد .

فراتب باشا، مؤسس رواق الحنفية في الأزهر، أنشأ بالثغر الاسكندري، مدرسته المجانية المشهورة، وحسب عليها أوقافا، وأجرى أرزاقا تكفل بقامعا الى ماشاء الله . فانها، حين نشأتها، نيف وستون طالبا؛ ولكن صلحهم ماقى يتزايد حتى جاوز المائة . وقد كانوا يعملون فيها، في مبدأ الأمر — أسوة بالمدرسة المؤسسة من الأوقاف في الثغر عنه ، والحلابة مائة طالب — القرآن، والعربية، والتركية، والحساب .

ثم تطورت الأيام، فأضيف الى تعليم ذلك الفرنسية؛ وما لبثت تعليلات الزمان أن نهبت بالتركية أدراج الرياح؛ ثم نهبت بالفرنساوية أيضا، وأحلت الانجليزية محلها مما .

أول مدرسة  
سرية للبنات

أما مدرسة السيوفية للبنات، فقد كانت الأولى من نوعها في العالم الاسلامي . أنشأتها الأميرة تسمينا آفت خاتم أفندي زوجة (إسماعيل) الثالثة، بإيعاز وتشجيع فليّ من بعلمها الجليل، على نفقتها الخاصة، وبشجاعة أديبة نادرة؛ لاعتبار العالم الاسلامي عملها هذا بدعة غير ممدوحة .

نعم إنه كان في البلاد مدارس للبنات، أسستها الأخويات والارساليات المسيحية، والطوائف غير الاسلامية، والجاليات الغربية، كما سيأتي بيان ذلك، وكانت بعض بنات المسلمين يؤمها؛ ولكن الرأى العام الاسلامي لم يكن راضيا عنها، وكان وجوه القوم وكل من يظن في نفسه أنه ذو حيلة يأنف من إرسال بناته اليها لخالفه ذلك للعادات المتبعة، مخالفة تنفر الشعور والأوهام المسلم بها بدون مناقشة .

وقد كان ذلك الرأى العام شديد التأثير الى درجة أن (محمد علي) الكبير — الذى لم يكن لينحنى بسهولة أمام منجته، ولا يهاب مخضه — أبى الموافقة على ما أشار به مجلس معارفه الأعلى، المتشرب بالمبادئ الغربية، والمقتنع بعظم تأثير المرأة المتعاملة في البيئة الاجتماعية، من وجوب تعليم البنات، وإنشاء مدارس لهن، أسوة بمدارس الصبيان؛ واكتفى بتعليم بنات أسرته وجواريهن على يد المسز ليدر زوجة أحد مهنرى الانجليز، التى أنشأت في سنة ١٨٣٥ أول مدرسة افرنجية للبنات في القاهر المصري، بتشجيع من تلميذتها الخاتم بنت (محمد علي) الكبرى، زوجة محرم بك أمير الأسطول المصري، ومحافظة نهر الاسكندرية، المسمى باسمه الحى الكبير المشهور في هذه المدينة .

ولما كان الناس — لا سيما الكبراء — على دين ملوكهم، اقتدى بالعزير الذوات والوجوه، وبدأت تنتشر في البلاد عادة استخدام المرأة معلمات أجنبيات، تهنّيب بناتهم، وتثقيف عقولهنّ .

غير أن (عبد علي) لم يكن بالرجل الذي يحمل، بتاتا، أمرا يعتقد هاتما ومفيدا، لمجرد مخالفته للرأى العام ؛ وإذا لم يكن يرى صلاحية فاعده وإجرائه مباشرة، كان ينفذه من وجه غير محسوس .

فلكى يزجود الأمة عن تربية بناتها، هذا يوقفها من نومها، أتاها من طريق سوى ؛ وأنشأ بمساعدة كلوت بك، مدرسة قابلات ؛ كانت كل تلميذاتها، في بادئ الأمر، عشر جوارى حبشيات من سراى الخاصة . ولما لم يكن الرأى العام يرى في الأمر بأسا بل يرى بالعكس تعليم النساء فنّ القبالة شيئا مستحبا ؛ ورأى القوم ، بعد ذلك من عمل تلك الجوارى عقب خروجهنّ من المدرسة ، ما نهض بهنّ الى مقام محمود وأغنى الأمرات الى طلبت مساعدتهنّ، عن عمل الجاهلات من القوابل، طلق الفقراء يرسلون بناتهم الى مدرسة كلوت بك بالقصر العيني ، حتى توطدت دعاتها ، وباتت مع مضى الزمان ، من المنشئات الثابتة ، التي لا يفضى انبهارها . وآلت النظارة عليها في أيام (اسماعيل) الى مدام فيال . فنصت مقاصدها بأربع وأربعين طالبة داخلية ، وعشر خارجيات ؛ والذي كان يلفت منها الأنظار هو أن جميع تلك الصبايا كنّ يتلقن العلوم، وهنّ مكشوفات الزموس ، لا طرح عليها، كأنهنّ غربيات ؛ لا شوقيات، بدون أن ينفر ذلك أحدا من الزائرين — الى مثل هذا الحد يتطلب الشعور بالصلحة على الشعور بالعادات الموروثة !

ولم تكن المتخربات من تلك المدرسة قوالب فقط ، بل كنّ طبيبات أيضا ،  
انتشرن بمصر ، والاسكندرية ، وبرزخ السويس ، ودمياط ، ورشيد ، والمدريات  
الأربع عشرة ، انتشار ملائكة الرحمة ، يخفّن البؤس عن المريضات ، ويواسين  
العليلات ، فهد ذلك السبيل الى تعليم البنات وكسرن حدة الشعور العام النافر  
من تعليمهن .

وكان (اسماعيل) الراغب في اطلاق بلاده في مضمار الحضارة الغربية ، بهمة تكاد  
تكون صفحا ، لاحقاؤه أن لا سلامة لها إلا بغيرها شوطها الطبيعي فيه ، يقظا كل  
البقطة للصغيرة قبل الكيرة من تحركات رأى العام فيها . فلم يفته الالتفات الى  
ترجيحه القليل عن مقره ، وعزم حالا ، حل اغتنامها فرصة ، لتنفيذ أمنيته في التعليم العام  
كانت من أمر أمانى قلبه . ولعلمه بما انطوت عليه النفوس لا سيما الجاهلة ، من  
إحاطة أجل المشاريع نفعا بسحابة من ريب وظنون ، ولرغبته في أن تقوم ، مقام تلك  
السحابة ، حالة من الشعر ساطعة السن ، أوعز الى ثلاثة زوجاته ، الأميرة تسمينا  
أمت خانم بأن تكون أول مدرسة إسلامية تفتتح في القطر المصرى لتعليم البنات حل  
الطريقة الغربية شعاعا من أشعة شمسها .

فاشترت الأميرة سراى قديمة بالسيوفية ، وهى حى من أكثر أحياء العاصمة سكانا  
وجتذبت بنامها ، فصيرتها مدرسة ، وفحصت أبوابها للطالبات في ربيع سنة ١٨٧٣  
وهى السنة التى أشرقت حل البلاد بأفراح الأعياد التى أقيمت لترويج الأمراء الثلاثة  
توفيق وحسين وحسن ، أبناء (اسماعيل) الكبار .

ولكنه بالرغم من أن تلك المدرسة جعلت داخلية مجانية ، وأن البنات استدعيت  
اليها من جميع طبقات الأمة ، بلا تمييز مذهبي أو اجتماعي ، وأن الجميع كانوا يعلمون



أنهم يرضون ولية النجم بإرسال بناتهم إليها، بالرغم من أن المعيشة فيها جعلت هنيئة، فافخرة، كان المقيات فيها بنات أرباب قصور من ذات العيش الرغد؛ وأن المعلمات الخمس عشرة اللاتي اخترن لها، ومنهن الناطرة واثنان أفريقيات، كُنَّ من خيرة المدرسات، لم يقع في خلد أحد من الأهالي، في بادئ الأمر أن يبعث بابنته إليها، لشدة تسلط الأوهام الموروثة، المقبولة بلا تمحيص كنهها على العقول .

فلم تجرد الأميرة عدد التلميذات اللازم لمدرستها، واضطرت إلى أخذ تقيات الجوارى البيض من بيتها وبيوت أميرات الأسرة المالكة وأمرائها، وإدخالهن فيها. غير أن السحر ما لبث أن زال، والغشاة التي كانت على العيون ما لبثت أن انقضت فأدرك القوم حقيقة النعمة التي أسديت إليهم، على يد أميرتهم الجليلة الفاضلة من لندن خديوهم الحازم الباز بمصالحهم العقلية والعلمية؛ وفقهوا إلى لغة الطعام الأدبي الذي مد (اسماعيل) به المائدة أمامهم . فأقبلوا، من كل ملة ونحلة — أولاد عرب، ونوبيون، وأقباط، ويهود، وشرقيون، من كل الطوائف والأجناس — وزاحوا بناتهم، وسنن من سبع إلى اثني عشرة سنة، على أبواب مدرسة السيوفية، ليدخلوهن فيها . فامتلائت بالداخليات المحلات الممتدة لهن، وعددها مائتان؛ واضطر الاقبال الإداري إلى إنشاء مائة محل أخرى — ولكن خارجية — لمن لم يمكن قبولهن في مصاف الداخلات .

فأنصهر (اسماعيل)، حينذاك، أمره، إلى إدارة الأوقاف، بإنشاء مدرسة أخرى للبنات على نظام مدرسة السيوفية . فصعدت الإدارة به، وأسست في جهة القرية، المدرسة المرغوب فيها . فتقاطرت إليها الطالبات، لا سيما بنات الوجهاء وموظفي الحكومة ومستخدميهما، واكتظت بهن المقاعد، وزادت الطالبات، مئات مئات

عن المطلوب . فدل الاقبال على المدرستين ، دلالة قاطعة ، على سرعة تطوّر المصري الى مقتضيات العصر ، حينما يأتيه الايماز من على .

وكان التعليم ، فى كلتا المدرستين — ومدة خمس سنوات — مثله فى مدارس أوروبا التى بن نوعهما ، أى القراءة العربية ، والكتابة ، والحساب ، والرسم ، والجغرافيا ، والموسيقى ، وأشغال الابهة ، والطبخ ، والفنيل ، والتدبير المنزلى ، زيادة على تعلم التركية والفرنساوية ، وتلقين القرآن للسلمات .

ولكن مصروفات التعليم كانت تخوق مثيلاتها فى أوروبا ، لأن المظاهر ، هنا ، كانت نفحة ، سلية كظاهر كل ما كان يصدر عن (اسماعيل) ؛ وأما هناك ، فكانت بسيطة ، عادية .

غير أن إقبال بنات الوجهاء والكبراء عليهما ، ومزاحمتن بنات الشعب على مائدتهما ، حملا الخديو على الرغبة فى تشييد مدرسة ثالثة ، تكون من العظمة والبهاء فى أقصى درجتيهما ، وتجعل خصيصية بتربية بنات العائلات الرفيعة ، والبيوتات السنية ، أو المصرية الشريفة ، القديمة .

فصدرت إرادته بتشيدها ، وبشر ذلك حالا . وانك لترى فى خريطة القاهرة ، المعمولة بمعرفة جران بك سنة ١٨٧٨ ، الموقع الذى خصص لإقامة تلك المدرسة عليه .

ولما كانت حزيمة (اسماعيل) قد توطنت على إبطال الرق ، نهائيا ، كما سنبينه فى محله وكان لا بد من خدمات تهمن بخدمة المنازل ، بدل الرقيقات المرغوب فى عتقهن — ولم يكن من وجود تلك الخدمات بين أهل البلاد ومنهم ، لعدم استدعاء نظامات

القطر الاجتماعية السالفة وجودهن — رأى (اسماعيل) أن ينشئ مدرسة، غير ما ذكر، تعلم فيها بنات رقيقات قعيرات شؤون الخدمة المنزلية على أنواعها . فأسسها في العاصمة على نفقة الأميرة زوجته الأولى، ونحت رعايتها السامية، ورعاية وزارة المعارف، وعهد بالنظارة عليها الى سيدة أوروبية، وضع تحت إدارتها ثمانى معلمات، منهن واحدة إفريقية. وأدخل فيها ستا وسبعين طالبة داخلية، وإحدى وسبعين خارجية. فبرزت الى الوجود، من أحسن المدارس المصرية وأكثرها فائدة — وليت لها من مثيلة في أيامنا !

ومما يستوقف النظر من أمر هذه المدارس، أنه كان يقام فيها بإنصهات على أشغال التلميذات البدوية، يخصص صافى المتحصل منها بتكوين مال للطالبات الفقيرات، يصرف لمن عند زواجهن !

ولكن الضائقة المالية ما حتمت أن اشتكت، وازدادت حلقاتها تعسفا . فعصر البناء الفخم، الذى أنشئ ليكون مدرسة لبنات الوجهاء، عما قصد به منه، واضطرت الأميرة تشيما آقت خانم، بل إدارة الأوقاف ذاتها، الى الاقتصاد فى الإنفاق على مدرستيهما . ثم، لما سارت تلك الأميرة السنية الى المنفى، بصحبة بلها الجليل، سنة ١٨٧٩ ضمت المدرستان الواحدة الى الأخرى، وبلغ، فى السنوات التالية، من تضائل الإلتحاق عليهما، ما آل بهما، الى الخروج عن دائرة الناية التى أنشئتا من أجلها، وصيرورتهما، ملجأ لبنات المعوزين، يذهبن اليه ليصبن منه قليلا من الطعام المساكى على سبيل الاحسان . وأما مدرسة تربية الخادِمات، فالفيت، كذلك، بعد تنازل (اسماعيل) عن العرش، بالرغم من شدة الاحتياج اليها، إرضاء لمتطلبات أصحاب الديون .

ألا ، قاتل الله داتنى مصر فى ذلك العهد ، قدر ما أساموا الى البلاد ونهبوا من أموالها ، ووقفوا فى سبيل خيرها ! وأغدى بمحابب رضوانه على أرواح (اسماعيل) وأزواجه عداد ما نورا من عمل خيرى لبنت مصر وفاداتها فى بابى تعليمهن وتربيتن ! أما مدرسة القبة ، وكانت ابتدائية وثانوية معا ، فقد أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ، ولى العهد ، على ثقته الخاصة ، وجعلها قسمين : داخلية وخارجية . فبلغ عدد الطلبة الداخلية خمسين ، ولخارجية أربعين . وامتنازت عن سائر المدارس التى من نوعها بالعناية الخاصة التى حاطها الأمير بها ، واتى جعلت الطلبة بأمن من كل عوز .

#### ٤ — المدارس التى أنشأتها الطوائف الشرقية غير المسلمة

إليك بيانها :

##### (١) مدارس الأقباط الأورثوذكس

مدارس الأقباط  
الأورثوذكس

دبت فى الأقباط الأورثوذكس روح العلم ، بما بذله من مجهودات فى هذا السبيل بطريركهم الأنبا كيرلس الرابع المشهور عندهم بلقب " الأنبا كيرلس الأكبر محيى العلوم والمدارس " . فما فتوا يسلكون الطريق التى اختطها لهم ، حتى أصبحت مدارسهم فى عهد (اسماعيل) : اثنتى عشرة مدرسة بالقاهرة ، وواحدة بمصر العتيقة ، وواحدة بالبحيرة ، ومدرستان بالإسكندرية ، يتلم الطلبة فيها : القبطية ، والعربية ، والفرنساوية أو الانجليزية أو الطليانية ، والحساب ، ومبادئ الهندسة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وبعض منطق ، والأناشيد الكنسية .

وفذلك خلاف مدرسة إكليريكية بالعاصمة ، يتلم فيها اثنا عشر طالبا من راغبي الكهنوت ، اللاهوت ، واللغة القبطية ، والعربية ، والفناء الكنسى .

وكانت أهم هذه المدارس، ولا تزال، المدرسة الكبرى البطريركية. فقد بلغ عدد الطلبة فيها سنة ١٨٧٦ ثلثمائة وتسعة ومبشرين : منهم ٣٠٢ أقباطا أرثوذكسيون - ٤٠ منهم داخلية، والباقيون خارجيون - و ١٦ مسلما ، ويهودى واحد، وثمانية أرمن، ونحسة يونانيون، وسورى واحد. وكان عدد أساتذتها ثلاثة عشر، لم ستة مساعدون، وطليم ناظر، رجل فاضل يقال له المسوادوارزار .

وكانت هذه المدرسة تمتاز عن مثيلاتها بالامتحانات العامة ، التى كانت تعملها، سنويا ، فى حفلة ضخمة ، يرأسها عادة وزير المعارف - وكان فى الغالب على مبارك باشا - ويحضرها شيخ الإسلام ومفتى الديار المصرية وجم غفير من الأكابر والأعيان والسراة ووجوه البلد ؛ ولم يكن يشوبها سوى الجزء منها ، الذى كان يقوم فيه نحسة من التلامذة ، وهم مرتدون ملابس كهنوتية ، ببعض شعائر طقسهم الكهنسى، فيوجبون ثورا فى نفوس الحاضرين من خيربى مذهبهم ، ويلهبون عن الحفلة ، بشكلها المدرسى البحت ، المراتحة أفتلة الجميع اليه ، ليصبغوها بصبغة دينية لا يراتح اليها إلا قلوب البعض ، وكانت الحفلة فى غنى عنها .

وكانت مدرسة حارة السقاين ، بتلامذتها البالغ عددهم ١٧٤ - أى ١٧١ قبطيا ، ومسابان ، وأرمنى كاثوليكي - على المدرسة البطريركية فى الأهمية بمصر .

على أن الذى امتاز به الأقباط دون المسابان ، هو أنهم ، قبل إقدام الأميرة تسميا آفت خانم على تأسيس مدرسة السيوفية ، أنشأوا مدرستين للبنات : أحدهما فى حارة السقاين ، وكان فيها ٥٠ بنتا قبطية يتعلمن على يد محلمات سوريات ، اللغة العربية والأشغال اليدوية ؛ وقد وقعن من قلب دوربك ، حين زيارته لمن موقع الاستحسان ،

بميونين النتيات، وهياتن الظاهر عليها الاهتمام الكلى بالدروس؛ والأخرى بجانب الأريكية؛ وكان فيها ٨٠ بنتا في سنة ١٨٧٦ يتعلمن ما يتعلمه بنات مدرسة حارة السقاين .

أما باقى المدارس القبطية ، فلم يكن يتعلم فيها غير أقباط ، وكانت جملتهم ٢٥٠ طالبا .

غير أنه ، بالرغم من مجهودات ذوى الفضل من رجال الطائفة ، وبالرغم من أن أضياعها لم يكونوا بالنظر القليل ، لم يكن الأقباط يستطيعوا القيام بنفقات المدارس التى أنشأوها ، لولا بركة (إسماعيل) الجليل بهم ، وموالاته لإياهم . فانه — فوق تشجيعه الأدبى لكل جهودهم ، ووضعه سفته البخارية النبيلة بكل المؤن اللازمة ، والخدمة الواجبة ، تحت تصرف بطريركهم فى رحلاته الرعوية الى الصعيد — قد وهب مدارسهم ألفا ونعمائة فدان من أطيان القطر الجيدة ، لينفقوا من ريعها على تعليمهم . وبما أن مقدار ذلك الريع كان نيقا وألثى جنيه سنويا — وكانت ميزانية المدارس القبطية بأسرها لا تتجاوز ٢٠١٥١٨ قرشا صاغا — فانه كان يكفيا تقريبا ، أو يكاد ، بخلاف النفعات التى كانت يده الكريمة تنجزها عليهم ، بين حين وحين .

فإذا حق لم أن يدعوا الأنبا كيرلس الرابع بطريركهم ”محيى العلوم والمدارس“ فى أمتهم ، حق لم أيضا ، بل وجب عليهم أن يدعوا (إسماعيل) ”حافظ تلك العلوم والمدارس“ ، ويقيموا له تمثالا فى محن مدرستهم الكبرى ، بدار البطريركية المرقسية ، اعترافا منهم بفضل الممير !

مدارس الأقباط  
الكاثوليك

### (ب) الأقباط الكاثوليك

هؤلاء— بسبب اتصالهم بروما، وبالتالي، بجمعية انتشار الايمان الكاثوليكي المسماة "بروپاجندا فيدي" صاحبة المدارس الجمة الشهيرة في البلاد الشرقية— كانوا أسبق اخوانهم المصريين على الاطلاق، في مضمار التعليم والتعلم، وأعرضهم فيه. وكانت مدارسهم الابتدائية والثانوية منتشرة، على الأخص، في الصعيد، أى بأسبوط، وطهطا، وانجم، وجرجا، وقنا، ونقاده. وكانت حافلة في سنة ١٨٧٦ بنيف وثلاثمائة طالب.

والذى يستوقف الأنظار، في المدارس الثلاث الأولى منها، أنها كانت مختلطة، أى للبنين والبنات معا. وهو أمر غريب في ذاته، لشذوذه عن مبدأ فصل الذكور عن الإناث، المعمول به في عموم مدارس الكنيسة على الاطلاق.

مدارس الروم  
الأرثوذكس

### (ت) الروم الأرثوذكس

والكلام هنا على الرعايا المحليين— فقد أصبح لهم، في عهد اسماعيل، مدرستان للبنات والبنين بمصر؛ يتعلم في إحداهما ١٤٠ ولدا: اليونانية، والفرنساوية، والعربية، والحساب، والرياضة، والجغرافيا، والتاريخ، وتعلم في الأخرى ١٢٠ بنتا: اليونانية، والفرنساوية، والتاريخ، والجغرافيا، والحساب، وأشغال الالة، والموسيقى؛ وأصبح لهم بالاسكندرية— وكان منحهم فيها يرو عليه في مصر— مدرستان أيضا: واحدة للذكور، وواحدة للإناث؛ يؤم الأولى ٤٣٠ ولدا، ويؤم الثانية ٢٢٢ بنتا؛ وبين المتعلمين فيهما طلبة كثيرون من ملل أخرى، وكان برنامج التعليم في كليهما ما كان في مدرستى مصر.

مدارس الروم  
الكاثوليك

## (ث) الروم الكاثوليك

تأخروا عن اخوانهم، الروم الأرثوذكس، في هذا المضمار؛ وربما كان السبب في ذلك قلة عددهم في تلك الأيام، أو قلة ذوى اليسار بينهم، أو أنهم اكتفوا، دهرًا، بمدارس الأخويات الكاثوليكية.

ومهما تكن الحال، فإنه لم يكن لهم سوى مدرسة واحدة، فيها ثلاثون طالبًا فقط، بالاسكندرية بمنشية إبراهيم باشا المعروفة اليوم "بلمنشية الصغرى"؛ وكان نصيبهم من الحركة التعليمية في عهد (اسماعيل) ضئيلًا جدًا.

## (ج) الموارنة

كان شأنهم أكبر قليلًا من شأن الروم الكاثوليك، ولا ندرى هل السبب في ذلك هو أنهم كانوا أكثر عددًا منهم، أو أن أرباب اليسار فيهم كانوا أكثر منهم في الروم الكاثوليك، أو لما اشتهر منهم من جدّ وفشاط واقبال على العلوم والمعارف، أو أن المنافسة المشهورة بين الطائفتين تناولت مضمار التعليم أيضًا — مهما يكن من الأمر، فإنه كان لوارنة ثلاث مدارس ابتدائية بمصر: واحدة بدرب الحبينة، وثانية بمنطرة الدكة بالأزبكية؛ وثالثة بشبرا. والثلاث من نوع الكتائب البلدية، ولكنها كانت أرق منها ماديا: لأن الطلبة كانوا يجلسون فيها على نخوت، بدل جلوسهم فوق حصير على الأرض، كما كانت الحال في الكتائب.

## (ح) الأرمن

مدارس الأرمن

لم يكن لهم سوى مدرسة واحدة، فيها عشرون تلميذًا. ولكنها كانت غريبة في بابها، لأن ناظرها، وكان المعلم الوحيد فيها — الباباز، أى القس مجرد يقش — لم يكن يعرف غير الأرمنية، والعشرين تلميذًا، المنتهفين على يديه، لم يكونوا يعرفون



غير العربية . فكان الأستاذ والتلامذة ، والحالة هذه ، يتفاهمون بالاشارات وتعبير  
العيون و( السيمياء ) ، أكثر منهم بالتكلم والمحادثة . على أن البطركية الارمنية  
أخذت تعمل على تأسيس مدرسة للطائفة جديرة بها ، في دارها في سنة ١٨٧٢

مدارس اليهود

### ( خ ) اليهود

هذه الأمة الصغيرة ببلدها ، الكيرة بتأثيرها على ماجرعات الأمور ، ما فتئت ،  
على شريقتها ، أقل من تيقظت الى مقتضيات الأيام . فـ رأّت لواء العلم منشورا  
في القطر ، إلا وهبت للانضواء تحته ، وقام البردة من أبنائها كيليامين أدنى ، ومبارك  
ملكي ، وإبراهيم كوهين ، وشموئيل أشير ، وپروسر أوزيما ، وعلى الأخضر صموئيل  
روبنو ، ينشعوث الكتائب والمدارس بمصر والاسكندرية للأولاد والبنات ،  
ويماونهم فيها الايطالية على أصولها ، والعبرية ، والفرنسية ، والحساب ، والتاريخ ،  
والجغرافيا ، والكوموجرافيا ، ويماون المتقدمين منهم التلمود — كتّاب اليهود الشارح  
للتشريع شرحا يعتبر تنريفا جديدا ، وهو أصر عليهم من التوراة حينها — مرة  
في الأسبوع .

وكانت سنّ التلامذة المندجين في تلك الكتائب والمدارس تختلف ما بين ثلاث  
سنتين وست عشرة سنة .

على أن تلك المعاهد ، ما عدا مدرسة حارة اليهود بمصر ، المؤسسة في سنة ١٨٦٠ ،  
بهمة صموئيل روبنو ، برأس مال قدره ألف جنيه ، تبرع به هذا السرى وحده ،  
كانت مشهورة بالقذارة الضاربة أطنابها فيها ، أكثر منها بحسن التعليم وانتظام طرقه .  
فقامت الطائفة برمتها ، وتضافرت ، وأسست مدرستين حريين لأولادها وبناتها ،  
إحداها وهي أكبرهما بمصر ، أمها ١٧٥ طالبا ، والثانية بالاسكندرية وأمها ١٤٥

بنّا — وكان سبعون من الذكور، وسبعون من الإناث يهودا مصريين ، والباقيون يهودا من جلسات مختلفة . وعلمتهم فيها العبرية ، والعربية ، والفرنساوية ، والاطالية ، والخط ، والحساب .

ثم أنشأت ، بالاسكندرية ، مدرسة أخرى كان مشر التلامذة فيها مجانيين ، والباقيون بمصروفات أسبوعية زهيدة . غير أن معظم أولاد اليهود وبناتهم كانوا يذهبون الى المدارس المنشأة من الغربيين ، أكثر من ذهابهم الى المدارس المؤسسة من طائفتهم . وبما أنهم كانوا يتبرون العلوم محض أسلحة اجتماعية ، لا يحتاجون اليها إلا ليضربوا بها في معترك الحياة ، كانوا يتسرعون في اقتباسها ، ويكتفون بقشور معظمها أو طلائعها ، غير صارفين عنايتهم أو جلها إلا للحساب والحساب التجارى على الأخص ، ويخرجون من المعاهد العلمية ، وهم في أول فهمهم ، ببضاعة قليلة ، واعتداد بالنفس كبير ، وجسارة أكبر ، ليندفعوا في ميادين العمل والكسب ، فكنت لهذا السبب ، قلما ترى بينهم فردا راقيا رقيقا ، على قلة عدد الأيمنين بينهم .

#### ٥ — المدارس التي أنشأتها الجاليات الغربية .

اندارس الغربية

ان ما دار من حركة التعليم في مدارس هذه الجاليات ينقسم الى قسمين : قسم خاص بمجاهد الأخويات والرهبنات والارسلالات المسيحية ، كاثوليكية كانت أم بروتستانتية ؛ وقسم خاص بالمعاهد المدنية البحتة .

(١) أما القسم الأول ، فقد سبق لنا قول وجيز فيه ، ولما نرى أن نوفيّه ، هنا ، حقه ، فنقول : ان أقدم مدارس أنشأتها الرهبانيات المسيحية الكاثوليكية بالقطر هي مدارس الآباء الفرنسيسكان المعروفين بآباء الأرض المقدسة . وكانت تعلم الايطالية على الأخص ، والتعليم المسيحي الدينى .

فلما كانت سنة ١٨٤٤، استدعى (محمد علي الكبير) راهبات المحبة والآباء العازاريين الى الاسكندرية، ووجههم محلا فخا، مكان برج عربي قديم . وأجاز لهم الانتفاع بأقاصيه لبناء المحلات اللازمة لهم، على أن ينشئوا مدرستين لأبناء المدينة . فقامت الراهبات بالشرط، وفصحن مدرسة للبنات، ما فتئت، مع تقدم الأيام، تكبر وتوسع حتى صارت الى ما زارها عليه الآن من الكمال والافتخار في أول الشارع المدعو باسمهن "شارع السبع البنات" أو "شارع الراهبات"، وأصبح عدد المتعلمين والمتعلمات فيها حل عهد (اسماعيل) نيفا وألفا وثلاثين، منهم ٨٨٠ بنتا و ١٥٠ ولدا، وكان (اسماعيل) يهبها، سنويا، لإردبا من البر عن كل بنت تتعلم فيها .

وأما العازاريون فبنوا بيتا، وكنيسة، إزاء تلك المدرسة، وأحلوا الاهتمام بإدارة دير الراهبات المذكورات محل الاهتمام بتربية الناشئة . ولكنهم ما لبثوا، أن رأوا أن عملهم هذا محل بالشرط الذي اشترطه الوالي، وأن مثل ذلك الاخلال قد يؤدي الى استعادته الموهوب اليهم منهم .

فاستدعوا إخوة التعليم المسيحي الشهيدين "بالقرير"، وكلفوهم ببناء مدرسة مجانية بالقرب من بيئهم . فلبى القرير الدعوة، وأنشأوا المدرسة المطلوبة، وطاشوا مع العازاريين مدة ست سنوات، بأخفاق تام، وعلى غاية ما يرام من الوفاء .

ثم تغيرت مجارى القلوب، وما لبث العازاريون إلا ورأوا، أو تخيلوا، اقتيانا من القرير على ما كانوا يستقدونه حقوقا لهم، دون سواهم . فهبوا الى انشاء مدرسة خصيصا بهم، ولما تم بنائها، هجموا الى القرير، وأفهموهم أن الضيافة لها حدود تحف عندها، ورجوهم أن يحثوا لأنفسهم عن محل غير الذي هم فيه نازلون، وذلك في أواخر سنة ١٨٥٢

فغار الفرير في أمرهم، وتخطوا؛ ولكنهم اضطروا الى الرحيل . فتقدم اليهم آباء الأرض المقدسة (الفرنسيسكون)، وعرضوا عليهم أن يضيفوهم في المنازل الكثيرة المجاورة لكنيستهم الكاثوليكية الرعوية ، بمنشية ابراهيم باشا ، فقبلوا، شاكرين؛ ونقلوا مدرستهم الى تلك المنازل؛ وما عمت أن اكتظت بالطلبة، لما اشتهر عنهم من الاعتناء الخاص بأمر التعليم .

فشجعهم ذلك على فتح مدرسة بالعاصمة في ١٥ فبراير سنة ١٨٥٤ فراجت ، أيضا ، راجا عظيما . ولما كانت سنة ١٨٥٩ ، وهبهم (محمد سعيد باشا) معلم الحالى بالخرنفس - في أهم الأحياء الوطنية - ونفعهم بثلاثين ألف فرنك . فآدى ذلك الى نجاحهم، النجاح الذى ما قى في ازدياد مطرد، عاما عن عام، لغاية أيامنا هذه .

وكانت مدارسهم، في عهد (إسماعيل) ، تضم بين جدرانها ، بالاسكندرية ، نيفا وستمئة طالب ، منهم ٢٣٠ مجانيون ؛ وبمصر ، نيفا وثمئة طالب ، نصفهم مجانيون ؛ وكانت تعلم ، مع الفرنسية ، الإيطالية ، والعربية ، والموسيقى ، وأهم العلوم الوضعية .

وكانت مصروفات الداخلية بمدرسة مصر مائة فرنك شهريا ؛ وبالاسكندرية ستين فرنكا ؛ ومصروفات نصف الداخلية ٥٠ فرنكا شهريا بمصر، و٣٠ بالاسكندرية .

والذى كان يميز المجانية في مدارسهم عنها في مدارس الحكومة، أنها كانت خصيصة بالطلبة الكاثوليكين دون سواهم، في حال أنها كانت، في الحكومة، عامة، لامتياز للذهاب فيها .

أما المازاريون ، فبعد أن انفصل القويصر عنهم ، طفقوا يعلمون في مدارسهم تعليما قاعدته الطريقة الشهيرة عند الغربيين باسم "كلاسيك" وهي التي قوامها اليونانية القديمة واللاتينية ، والآداب المكتسبة من مؤلفات أشهر الكتاب اليونان واللاتين والفرنساويين ؛ وأصبحوا يفخرون ما سواهم بأن ما يتقنه طلبة مدرستهم من اليونانية القديمة لا تباريهم فيه طلبة مدارس أوروبا ذاتها . واشتركوا مع راهبات المحبة ، في إنشاء ملجأ للأيتام — كانت الأول من نومه في القنطرة المصرية — حوى اثنين وخمسين يتيما .

واقترنت راهبات المحبة القديسة تريزادي رميت منشقة "أخوية الراعي الصالح" ، وأسست بمصر في ٦ يناير سنة ١٨٤٦ — وهو يوم عيد الغطاس عند الطوائف النورية ، وكان لغاية سنة ١٩٠٠ يوم عيد الميلاد عند الطوائف الشريفة — بيتا لراهباتها ، ليقمن فيه بتربية البنات المصريات ، وعلى الأخص اليتيمات والفقيرات منهن ، بجانا . فبتن موضوع عناية (محمد علي) وأمراء بيته الرفيع العباد .

فتمكن من التوسع ، وفتح مدرسة نخمة ، داخلية ، بشعرا لبنات الأسرات الفنية ، خلاف المدرسة الداخلية المحانية لرصبتين في المحافظة على شعور الفقيرات من أن يخرجن باخلاطهن مع الفتيات ، ورؤيتهن الهناء في الماديات المحيط بهذه والذي هن محرومات منه .

وحذت الراهبات الكلاسيكيات ، أي الفرنسيسكيات ، حذو سابقاتهن ؛ وأنشأن ، في سنة ١٨٥٩ ، مدرسة بمصر ، بجهة درب رياش ، بالقرب من الأربكية ؛ طفقن يعلمن فيها ، بنات الطائفة اللاتينية على الأخص ؛ وذلك لأن هذه الطائفة كانت ، ولا تزال ، تحت دعوية الآباء الفرنسيسكيين الروحية ؛ وكان من الطبيعي أن ترسل

بناتها الى مدرستين ، لانتانتين ، هن أيضا ، الى ماري فرانسيس دسيزي ، مؤسس  
الرهينة الفرنسيسكية .

فضاقت المدرسة بالمائة والسبع والثلاثين طالبة وقيمة الالتي ملائها ، وحال  
فقر تلك الراهبات دون التوسع فيها أو انشاء غيرها . وكان (اسماعيل) ، وهو لا يزال  
ولى عهد السلطنة المصرية ، واقفا على سرحاطن ، معجبا بنيتن واقدامهن . فلما آل  
اليه العرش ، ففحصهن ، في يوم جلوسه عليه ، بحسين ألف فرك ، وقدر لمن تسعين  
إردبا لهما ، سنويا . فتمكن بذلك من وفاة ديونهن ، وتوسيع دائرة مدرستين بدرب  
رياش ، وفتح مدرسة أخرى ببولاق سنة ١٨٦٨ ثم غيرها بالمنصورة بعد أربع سنوات  
أى فى ٢٠ مارس سنة ١٨٧٢

ومع أن الغرض الأقل المقصود من تأسيس هذه الrehينات والأخويات مدارسها  
بالقطر المصرى ، إنما كان ولا يزال السعى الى نشر الدين الكاثوليكي الرومانى ، إلا أن  
الانصاف يقضى علينا بأن نعترف مع المسترماك كون بأنها عملت عملا محمودا على تقدم  
العلوم فى البلاد ، وبين طبقات الأمة ، وأنها وضعت ، نصب عينها ، التعليم الجيد  
أولا ، ثم السعى الى نشر الدين . فكان فى هذا سرنجاحها ، وتوافد الطلبة عليها من كل  
ملة ومحلة وجنس ، وبلغ عددهم فى مدارسها فى سنة ١٨٧٦ نيفا وثلاثة آلاف  
ومائة وخمسين <sup>(١)</sup> !

أما المدارس والمعاهد البروتستانتية ، فقامت على أبهى الارباليات الأميركية  
والانجليزية والسكندنيدية .

(١) أنظر : "مصر كما هي" ملك كون ص ٢٢٠ .

فالارسالية الأميركية وفدت على القطر في سنة ١٨٥٥ كما سبق فقلنا ، ووجهها (سعيد باشا) بناية بمصر، أسست فيها أول مدرسة لها . فكانت بمثابة موقف وثبتت منه إلى أنحاء القطر ، عامة ، وأسست في السنوات العشر التالية ، مدارس غيرها : بالاسكندرية ، والقليوب ، وأسيوط ، وقوص ، والمنصورة ، وفي ثلاثة عشر بندرا من بنادر الريف بمصر الوسطى والصعيد ؛ منها ما هو للأولاد ؛ ومنها ما هو للبنات ؛ ومنها ما هو مختلط بين الجنسيتين ؛ ومنها ما هو للشبان لتعلم اللاهوت ، والاستعداد للكهنة ؛ ومنها ما هو لتخريج معلمات ؛ ومنها مدرسة أيضا ، للصبيان ؛ ومعظمها مجانية ؛ وما فتشوا يشتغلون غيرها ، حتى بلغ عدد مدارسهم في سنة ١٨٧٦ ثمانيا وعشرين . فيها ما يزيد على ١٢٤٤ طالبا وطالبة ، بينهم بعض مسلمين ومسلمات ، ومعظمهم من الأقباط !

وكانت مدارسهم الكبرى للصبيان بمصر ، في بادئ الأمر ، في يد أقباط اعتنقوا البروتستانتية ، ولم يكونوا يحسنون الإدارة ولا التعليم : فكان كلاهما مختلفا ، بخلاف مدرستي البنات ، في حارة السقاين والأزبكية ، فانهما كانتا من خيرة معاهد ذلك العصر .

على أن أرض مدرسة الصبيان احتيج إليها للنافع العمومية في سنة ١٨٧٦ فترع (اسماعيل) ملكيتها من الارسالية مقابل ثمن دفعه إليها . ولم يكتف به ، بل عوضها منها أرضا واسعة في أحسن بقعة من الأزبكية ؛ ثم تفحصها بسبعة آلاف جنيه لبناء مدرسة جديدة عليها ، تسع ١٥٠ طالبا ، وتشتمل على مساكن للعاملين وطالبتهم <sup>(١)</sup> . فأنشئت المدرسة الفخمة الحالية ، المزودة بها حتى الأزبكية ؛ ولكنه لم يفكر أحد

(١) أنظر : "مصر كما هي" لـ "لاكرون" ص ٢٢١

في وضع أى مظهر كان فيما يذكر الداخل إليها بأنها من نعم الخديو الفخيم صاحب اليد النهيية !

والارسالية الانجليزية وفلت على القطر في سنة ١٨٦٢ تحت رياسة الأكسة الأدبية المس واتلى ، بنت رئيس أساقفة دبلين التى أوقفت حياتها وثروتها على تربية البنت المصرية ، لاسما الفلاحة . وأسست ، فى السنة عينها ، مدرسة مختلطة بمصر ، صادفت من العناية أشده فى سبيل جلب التلميذات إليها ، لاسما المسلمات ، وتعليمهن ، بالرغم من أن التعليم كان مجانيا ، وأنه كان يشمل العربية ، والانجليزية ، والفرسايوة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والخط ، وأشغال الابر للبنات .

وإن القلب ليتقطع أسفا ، لدى مطالعة وصف المس واتلى ، فى الكتب التى ألقتها عن الحياة المصرية الحقة ، للشاق التى تكبستها بصبر جميل ، وهى دائبة بثبات نادر على الطريق التى اختطتها<sup>(١)</sup> لحياتها ! ولكنه ، لما كان لابد للتأبر من نيل مناه ، فان المس واتلى ما لبثت أن جنت ثمرة ثباتها ، وبعد مضي عشر سنوات عليها ، وهى عاملة فى مدرستها المذكورة ، لا تعرف الملل ، كلل النجاح مسماها : فامتلا معهدا بنيف وبائة وستين صبيا وستين بنتا ، ضاقت بهم حجر فرقه .

فأنهم (اسماعيل) عليها بأرض واسعة ، فى جهة الفجالة ، وساعدها بمبلغ وثير على بناء مدرسة جديدة عليها . فبرزت من أحسن المدارس بالقطر . ولما كانت البنت المصرية هى المقصودة على الأخص ، منها ، زاد عدد الطالبات فيها ، حتى بلغ المائة والستين ، معظمهن فلاحات ، والبعض من الطبقتين : الوسطى والعليا . ولا شك

(١) طالع : كتابي المس واتلى المنوتين : " رجد ليف إن لمحت " ، و " أند مور أبرت رجد ليف إن لمحت " أى " حياة الزماء بمصر " ، وأيضا " عن حياة الزماء بمصر " .



في أنه كانت لاهتمام الأميرة الجليلة زوجة (اسماعيل) الثالثة في أمر تربية البنات وتعليمهنّ، دخل في ازدياد إقبال الفتيات الراغبات في التعلم .

أما الارسالية السكتلندية، فانها قصرت عملها على مدينة الاسكندرية، حيث فتحت بجانب كنوستها مدرستين : احدهما للذكور، والثانية للاناث في المنشية، بجوار البحر، وجعلت التعليم فيهما مجانيًا للفقراء . فأمهما ٩٥ تلميذا و٩٢ تلميذة، علموا العربية، والانجليزية، والفرنساوية، والايطالية، والكثابة، والحساب، والتاريخ .

وقد امتازت عموم مدارس الارساليات البروتستانتية، بالمساواة التامة، التي نشر لوائها فيها بين الطلبة والطالبات المجانيين، والمتعلمين بمصرفوات، بحيث لم يكن أحد ليستطيع أن يميز مطلقا أحرار المجانيات .

ويصدر بنا أن لا نغتم الكلام عن معاهد هذه الارساليات دون أن نخص بالذكر رجال الدين الذين قاموا بتأسيس المدرسة الألمانية بالاسكندرية . فانهم على اصطباغهم بالصبغة الكليروسية، فتحوا لمدرستهم هذه طريقا نحو الأهمية العظمى بين مدارس الارساليات الأخرى، بما قرروا من أن يكون التعليم فيها مدنيا مجتبا، لا مسحة دينية عليه مطلقا .

(ب) وأما القسم الثاني الخاص بالمعاهد المدنية البحتة، فان السبب الذي دعا إلى إحياء الأجنبة إلى إنشائه هو أن بعضها لم يكن مرناحا لانهصار التعليم في المعاهد الدينية . فقام الأخوان الحليان روثايل وحنانيا عبيد في سنة ١٨٦٠ وأسس<sup>(١)</sup>

(١) وكذا — حل أنها سرور بان — متجنين بالجنسية الرومانية .

المدرسة اليونانية بمصر وآيا على نفسيهما دفع مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين ألفاً وثلاثين ألفاً من الفرنكات سنوياً للساعدة على القيام بشؤونها . فأتمها الطلبة من أولاد الجالية اليونانية ، يتعلمون فيها اليونانية القديمة ، واليونانية الحديثة ، والاطالية ، والفرنساوية ، والعربية ، والحساب ، والجغرافيا ، والتاريخ ، ويتفنون فيها على نفقتها .

ولما كان اليونان بالاسكندرية أكثر منهم بمصر ، أسسوا مدرسة تحت إدارة رجل يقال له المسيو تيماس ضمت إليها ٥١ تلميذاً ، وعلم فيها فوق ما ذكر من تعليم مدرسة الأخوين عبيد ، التاريخ المقدس ، ومبادئ الاعتقادات المسيحية . ثم هب الكيريس عمانوئيل ساماريا ، وأسس مدرسة أخرى يونانية جمع فيها ٢٨ تلميذاً ، يعلمهم خمسة أساتذة التعليم عينه السابق ذكره .

ولم يحمل اليونان تعليم البنات ، بل سبقوا اليه الجاليات الأخرى ، لأنهم أنشأوا في ٢٠ مايو سنة ١٨٤٣ ، أول مدرسة من هذا النوع بالخاصة ، ثم أسسوا بالاسكندرية ، مدرسة ثانية للبنات ، انتظم في سلكها ، حالا ، ما يزيد على خمس وتسعين طالبة .

وهب إيطالي ، يقال له الميسوكولو غازي ، فأنشأ مدرسة ايطالية بمصر ، قصدها أولاد الجالية الايطالية ، ولكنها ضاقت دون عددهم رجا . ولم يتمكن أولاد الفقراء من الانتظام فيها لعدم مقدرتهم على دفع مصروفاتها .

فنهض الميسو فيجري ، وأنشأ في سنة ١٨٧٠ مدرسة ايطالية مجانية ، أهم ما امتازت به عن سواها ، أنهم كانوا يؤثرون الطلبة فيها على الترجمة من الفرنسية الى اللتينية والعربية ، وبالعكس ، في آن واحد ، وشفغوا على مسمع من الفرقة برمتها : فترقي ،

عند التلامذة ، المقدرة على تحويل الفكر ، بسرعة ، من احدى هذه اللغات الى الأخرى ، وعلى ابرازه مرتديا بالحلة التي تقتضيها طبيعة كل منها .

فيران أهم عمل تعليمي قامت به الجاليات الأجنبية بمصر ، هو الذي تم بمساعي المسيو دوفين ومجهوداته ، وأغنى به إنشاء معاهد تعليمية مجانية ، لا صبغة جنسية أو دينية عليها ، ولا غرض منها سوى تثقيف العقول ، وتنوير الأذهان ، وتخفيف عبء مشقات الحياة على العاملين في ميدانها ، دعت "المدارس الحرة المجانية العمومية" .

ففي أول سبتمبر سنة ١٨٦٨ ، فتحت مدرسة هذا شأنها في الاسكندرية ، ولكي يكون النجاح قرين سيرها ، وامتتالا لرغبة (اسماعيل) ، الذي كان أكبر معضد للقائمين بأمرها ، وضعت تحت رعاية سمو ولي عهده ، الأمير محمد توفيق باشا — وكان له من العمر ، حينذاك ، ست عشرة سنة ، فقط — نخصها بأخى عشر ألف فرنك سنويا ، وحفظا بكل صنوف العناية . فبرزت الى الوجود ، علمية ، حرفية ، حروس المدارس وأقيدها ، وأما القاصدون من كل مذهب وجنس ، وليس فيها مظهر البتة يذكر أحدهم بأن هناك فارقا بينه وبين الجالس بجانبه ؛ بل يشعر الجميع بأنهم اخوة في الانسانية المحضة ، وأن هذه الاخوة هي الرابطة الوحيدة بينهم . وشرعوا يتعلمون فيها العربية ، والانجليزية ، والفرنساوية ، والثلاثانية ، ومبادئ الرياضة ، والهندسة ، والتاريخ ، ويتعلم من شاء منهم الحرفة التي يختارها . فنجحت نجاحا عظيما ، ذهب مداه الى أبعد مما كان يتظن ويرى . ومن شاء الوقوف على حقيقة ، فليطالع التقرير الذي رفعه مجلس ادارتها الى سمو الأمير محمد توفيق باشا ، الموجود نسخة مطبوعة منه في المكتبة السلطانية بمصر .<sup>(١١)</sup>

ذلك النجاح السارحدا بالمسيو دوفين وزمرة الرجال الكرام المواطنين ، الذين وضعوا أيديهم في يده ، الى انشاء مدرسة مثلها بمصر . فتأسست في سنة ١٨٧٣ ، بمساعدة مالية كبرى من (اسماعيل) ، ونحت رعاية ميموولى عهده ، أيضا ، وبالنفقات السنوية عينها التى لشقيقتها بالاسكندرية . وفى الوقت الذى لم يقصد فيه هذه سوى ٢٥٦ طالبا - منهم ٩٠ فقط مصريون - قصد مدرسة مصر وانتظم فى سلكها ٤٨٦ طالبا - منهم ٢٦٢ مصريون ، من كل ملة و طائفة و نملة ، و ١٥٠ انجليزيا ، و ٦٢ فرنساويا ، و ٧٣ ايطاليا ، و ٣٦ يونانيا ، و ٢١ نمساويا ، و ٥ روسيان ، و ٣ اترك ، و ٣ روس ، و ٣ اسبانيل ، و ١٣ من جنسيات غير محددة - ويتضح من الأرقام التى ذكرناها أن نجاح مدرسة مصر كان أعظم من نجاح مدرسة الاسكندرية .

ولم يقتصر المسيو دوفين ومساعدوه على فكرة انشاء هاتين المدرستين ، بل انهم ، منذ استطعوا لثة نجاح مسعاهم ، وقطفوا ثماره بالاسكندرية ، هبوا ، فى طامى ١٨٦٩ و ١٨٧٠ الى فتح فرق ليلية ، لتعليم الشبان والرجال بالثفر ، وساعدهم (اسماعيل) مساعدته المهودة . فانرجوا مشروعاتهم الى حيز الوجود ، واندج فى سلك تلك الفرق ٤٥٠ طالبا ، منهم ٢٧٣ من رطايا الحكومة المحلية .

هكذا تناولت الحركة التعليمية بمصر ، فى عهد (اسماعيل) ، جميع المظاهر ، من التعليم الدينى المحض فى المعاهد الدينية المحضة ، كالأزهر وغيره ، الى التعليم ، المتخذ دتارا لترويج التعليم الدينى ، فى معاهد الارساليات المسيحية ، الى التعليم المزوج بنشئ من الدين ، عملا بمؤثرات الوسط والبيئة ، فى مدارس الطوائف الشرقية المختلفة ، ومدارس اجمالية يونانية ، الى التعليم المدنى البحت انلخص بجنس دون جنس ، فى مدارس اجمالية التليانية ، الى التعليم المدنى البحت ، المجرد عن كل صبغة دينية

وفسفية، في المعاهد المنشأة بمساعي السيودوفين ومن معه . وفي ذلك أوضح صورة لما كانت عليه الأفكار والأخلاق في تلك الأيام، وأكبر دليل على سعة صدر (اسماعيل) ورجحان عقله العظيم، في أمر قلما اتفق لعاقل شرقي، غيره، أن لا يبدى فيه تعصبا لهذا الفريق أو ذاك .

ولا يسمنا أن نختم هذا الفصل عن حركة التعليم بمصر، في أيامه، بدون أن نذكر ما لاقت من عنايته المدرسة التي أنشأتها الحكومة الإيطالية بالاسكندرية في عهد (سعيد باشا) وتولت أمر الاتفاق عليها، وبدون أن نذكر ما كان من شأن الارساليات المدرسية الى البلاد الأوروبية ما بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٧٩

أما مدرسة الحكومة الإيطالية بالاسكندرية، فقد سبق لنا القول أن (سعيدا) نفحها بستين ألف فرنك، ووهبها ثمانية آلاف ذراع في نقطة من أحسن جهات المدينة. وتقول الآن ان حركة التحسينات، التي أدخلها (اسماعيل) على أحياء الاسكندرية وشوارعها، اقتضت نزع ملكية جزء من تلك الأرض . فبالنسبة للصدقة المتينة التي كانت بين (اسماعيل) وفيكتور عمانوئيل، ملك إيطاليا، ولتقدير الماهل المصري التعليم الملقن في تلك المدرسة حتى قدره، دفع للحكومة الإيطالية ثمن ذلك الجزء وحده أربعين ألف جنيه . فاستعانت بها على تجديد بناء مدرستها، وترقية شؤونها، وعهدت بإدارتها الى أستاذ فاضل، يقال له السليور باجاني، كان رأى دورك فيه، « انه أخير نظار المدارس بمصر بمبادئ البيداجوجيا، وأحكمهم تطبيقا لأحدث طرق التعليم على مقتضياته بالفطر في تلك الأيام » .

وكانت تلك المدرسة تعلم الإيطالية، والعربية، والانجليزية لمن يرغب فيها، والفرنساوية، والرياضيات، ومسك الدفاتر، والفلسفة الطبيعية، والتاريخ،

والجغرافيا، والرسم على نوعيه . وكان معظم تلامذتها من اليهود ، وليس بينهم سوى عشرين تلميذا مسابما .

الإرساليات  
المدريية

وأما ما كان من شأن الإرساليات المدرسية ، الى البلاد الأوروبية ما بين سنة ١٨٦٣ و سنة ١٨٧٩ فقد بلغ عدد الطلبة الذين تألفت منهم نيفا ومائة واثنين وسبعين وزعوا كالاتى :مائة وعشرون أرسلوا الى مدرسة الطب والمدرسة الحربية ، بباريس ، وثمانسون ، الى مدارس طورينو العسكرية والملكية ، وثلاثة فقط ، الى مدارس لندن الهندسية . وبلغ المنفق عليهم فى تلك السنوات الست عشرة ١٦٣٠٥٧ جنيا .

فمن شاء أن يقارن بين ما عمل فى هذا المضمار فى عهد (إسماعيل) ، وما عمل فى عهد أسلافه ، فليعلم أن عدد طلبة الإرساليات المصرية الى أوروبا بلغ فى مدة حكم (محمد على الكبير) و (إبراهيم الهمام) أى ما بين سنة ١٨١٦ و سنة ١٨٤٨ : ٣١٩ طالبا ، وفى مدة حكم (عباس) ، أى ما بين سنة ١٨٤٨ و سنة ١٨٥٣ : ١٩ طالبا ، وفى أيام (سعيد) ، أى ما بين سنة ١٨٥٤ و سنة ١٨٦٢ : ١٤ طالبا فقط ، وأن جملة ما أنفق عليهم قد بلغ فى عهدى الباشا الكبير وابنه ٢٢٣٢٣٣ جنيا ، وفى عهد (عباس) ٤٩٦٧٥ جنيا ، وفى أيام (سعيد) ٦٩٠٨٣ جنيا .

فاذا وجد قلة نسبية فى المنصرف على أولئك الطلبة تحت حكم (إسماعيل) بالنسبة الى المنصرف عليهم تحت حكم (سعيد) ، فليعلم أن ذلك لسببين :

(الأول) هو أن (سعيدا) لم يكن ، من جهة ، يعرف للنقود من قيمة ، كما سبق لنا القول ، وكان ، من جهة أخرى ، كأسلافه ، يعتقد أنه كلما زاد انفاقه على طلبة إرساليته ، كلما حق له أن يطالبهم ، لدى عودتهم ، بمعرفة كل فن وحرفة ، لا بمعرفة ما تخصصوا له وأتقنوه فقط .

و(الثاني) هو أنه اتضح (لإسماعيل) أن طلبه الارساليات ، بالرغم من بقائهم زمنا في المعاهد الأوروبية ، واقتباسهم العلوم الملمعة فيها ، وإتقانهم إياها ، في أغلب الأحيان ، اتقاناً يجعلهم متفوقين ، في مضارها النظرى ، على أقرانهم الغربيين ، لم يكونوا يكتسبون إقدام هؤلاء ، ولا روح الاعتداد على النفس ، المتفوية به همهم في معاركة مصاحب الحياة ؛ بل كانوا لا ينفكون متمسكين بأذيال الحكومة ، متمكين عن العمل في ميدان الاستقلال الشخصى ، إلا اذا أخذت هى يديهم . من ذلك أن الأطباء المصريين الذين تخرجوا من مدرسة باريس لغاية سنة ١٨٧٠ بالرغم من نيلهم شهادتهم العليا فيها ، وتمنهم حل العمل ، تمزنا مفيدا ، في المستشفيات العسكرية والمملكية ، أثناء الحرب المشهورة بين فرنسا وألمانيا ، لم يقع في خلدهم ، مطلقا ، لدى عودتهم الى مصر ، أن يفتحوا عيادات خصوصية ، ويراحوا زملائهم الغربيين في أعمالهم ، مزاحمة ، كان من المهم أن يفوزوا طيهم فيها ، لكونهم أبناء البلاد ، العارفين لغتها وعوائدها ، والمتخفين بأخلاقيها ، ولأنهم أقرب ، طبعاً ، الى قلوب مواطنيهم من أولئك الأجانب ؛ وأقبلوا يضايقون الحكومة بطلبات استخدام متتابعة ، في مصالحها ، كأنهم لا يستطيعون ، بدونها ، معاشاً ؛ أو كأنه لا قدرة لهم ، ولا سلاح في أيديهم يضربون به في مناكب الأرض ، ابتغاء للرزق !

فراى ، والحالة هذه ، أن يقلل من مصروفاتهم ، حتى أن يجبرهم قلة السعة في الاتفاق على التخلي بخلق المهمة والإقدام .

وامتاز عهده عن عهد أسلافه ، في أمر طلبه تلك الارساليات ، بأنه كان ، اذا استخدم أحدا منهم في مصالح حكومته ، بعد عودته الى مصر ، قائماً كان يعهد اليه القيام بشؤون من النوع الذي تؤهله شهاداته للقيام به . وأما أسلافه ، فقلما

كانوا يراعون ذلك . وكثيرا ما نطالع في ما كتبه مؤرخو (محمد علي) الغربيون أنه كان يكلف المهندس، مثلا، بأعمال من اختصاصات طبيب بيطرى، أو يكلف الطبيب البيطرى بعمل طاه من الطهارة، وهلم جرا .

وقد سمعت من صديق لى، نقلًا عن لسان عثمان باشا غالب — ولست أضمن صحة الرواية، بل أراى بما لدى من المعلومات التاريخية، ما تلا الى تكذيبها — أنه لما حاد الى مصر ثلاثة من الذين أتموا دروسهم بأوروبا، ونبغوا فيها — وهم من أصبحوا فيما بعد، على باشا إبراهيم، وعلى باشا مبارك، وحامد بك، ومثلوا بين يدى (عباس)، ليقتلوا له واجب عبوديتهم، ويضعوا أنفسهم تحت تصرفه، كان فكره منصرفا الى انشاء معمل شمع؛ فسألم: «أيمنكم أن تصنعوا لى شمعا؟» فأجابوا: «اتنا، يا أفندينا، لم نتعلم ذلك!»؛ فاحتدم خيظا وقال: «أى، اذا، لقد أنفقت نقودى على تعليمكم سدى!»، وأمر بهم، فطرحوا أرضا، وضربوا خمسين سوطا . فخرجوا من لدنه فى حال انفعال لا مزيد عليه، وهم نالقون على عقله وعقليته، ولا عنون السامة التى عادوا فيها من أوروبا<sup>(١)</sup> . وانما أراى ما تلا الى تكذيب هذه الرواية: (أولا) لآنى لست أرى لها من أثر فى مرويات على مبارك باشا عن نفسه؛ (وثانيا) لآنى أعلم حق العلم أن حماد بك تعلم فى أوروبا كيف يصنع الشمع، فيما تعلمه فى دروسه الكيماوية!

تلك كانت الحركة التعليمية بمصر، فى عهد (إسماعيل)، وتلك المجهودات التى بذلت لترقية مستوى الأمة العقل، حتى أصبح عدد المتعلمين فيها ٤٪ من عامة

(١) روى لى هذه الرواية صديق الأستاذ الشيخ مرسى محمود الحامى، بكيفية النكبة اللطيفة . ولكنه، مثل، يميل الى عدم تصديقها .

حكاية ما وقع لبعض العائدين من طلبة الإرساليات العلمية الى أوروبا مع (عباس الأول)



ذكورها، بعد أن كان أقل من واحد في المائة منهم؛ وذلك في عهد كانت أرق نسبة المتعلمين في أكثر البلاد الأوروبية تعليميا ١٥٪ فقط، وكانت في روسيا ٢٪ لا غير! فلا غرابة إذا أن ادون دى ليون، المؤرخ الأمريكي المعاصر لها، قال عنها: «إن ما عمله (اسماعيل) في سبيل التعليم العام بمصر كان عظيما، ويعتبر عظيما في أي قطر من الأقطار<sup>(١)</sup>» ولا غرابة في بلوغ الأشعة المنبثقة عنها إلى سر أعماق الأمة، وأكن مكوناتها — وأبناء الخديو أنفسهم كانوا يتعلمون، مع أبنائها، ذات العلوم الملقنة اليهم، ويشاركونهم في جميع مظاهر حياتهم؛ لا يختلفون عنهم في شيء منها، ولا يمتازون إلا بنومهم في حجر مخصوصة، وقد أثار ذلك رغبة التعلم في جميع أفراد طبقاتها، إلى حد أن رجلين من طامة الناس وقدا اللتحاق بالأزهر، فلما رأيا من فقرهما المدقع ما يحول دون إدراك مبتغاهما، اتفقا على أن أحدهما يشتغل نهارا في تكسير الحجر الذي تلبط به الشوارع، وأن ثانيهما يجاور في الأزهر، ليقتبس ما يلقي فيه من علوم، وأنهما يجتمعان بعد الغيب في الحجر التي استأجرها معا، فيعلم مكرم الحجر مقتبس العلم مما كسبت يده؛ ويندئ مقتبس العلم مكرم الحجر مما اكتتبه عقله. فتيسر لهما، هكذا، أن يدركا، معا، ما ابتدئا ادراكه، كما تيسر نيل القوت للأعمى والمقعّد، فيما يروى عنهما، إذ سارت رجلا الضريّر بالمقعّد، وأرشدت حينا المقعّد الضريّر إلى السبيل السوي<sup>(٢)</sup>.

ولا غرابة — وقد رأينا (اسماعيل) يظال، بتأنيته في التعليم، جميع القامئين بشؤونهم، بلا تمييز بين جنس ومذهب ودين — في أن تلك الحركة التعليمية، المتنوعة المسالك

(١) أنظر: "مصر الخديوية" لادون دى ليون ص ١٦٠

(٢) أنظر: "مصر" لماورق ص ١٠٤

والمشارب، والمتحدة المرمى والمقصود والنتيجة، فيما يختص بالعلوم، أدت مع ترائى الزمن، الى ازالة جزء عظيم من الفوارق، التى كانت بين الملل، والنمل، والأجناس المختلفة، الضاربة فى وادى النيل؛ وجعلت الصدور أوسع احتمالا للاختلافات المنهجية، والقلوب أقرب جدًّا، مما كانت، الى التسامح فى الدين. ومما احتمال وتسامح، لن تستطيع أمة، تختلف معتقدات أفرادها؛ من التكوّن بدونهما !

ولا غرابة أخيرا أن يكون قد تولد، عن تلك الحركة التعليمية، نهضة معارف وأفكار كانت من أكبر مسببات تطورات المستقبل، ومن أدعى مكونات نظمات الأيام التالية.

نهضة فى المعارف  
والأفكار

نعم، ان مثلها كان قد نشأ، أيضا، من جهود (محمد طه الكبير) التعليمية، وارسالياته المدرسية الى أوروبا — ولكنها، من جهة، كانت فردية أكثر منها اجتماعية. فلم تؤثر فى مجموع الأمة إلا قليلا، ولا تناولت طبقاتها الدنيا؛ ومن جهة أخرى، فان ملكى (عباس) و(مسعيد) كانا قد أوقفها فى تطورها، وأعادها الى الجود؛ ولولا إقدام (اسماعيل)، لظل الأفراد القليلون المتخلفون بعد موت من كانت أنفاس تلك النهضة قائمة به، فى ظل النسيان، فى أية جهة كانت من جهات القطر المعاد الى النوم.

للك نهضة الاسماعيليه، ثلاثة مظاهر: (١) المظهر الرسمى؛ (٢) المظهر الفردى؛ (٣) المظهر الاجتماعى<sup>(١)</sup>.

مظاهر هذه النهضة

(١) أهم مصادر هذا الجزء من هذا الفصل: "تاريخ آداب اللغة العربية"، و"تاريخ مصر الحديث" لجورجى بك زيدان، و"تاريخ النعت الاسلامى" له أيضا.

أما المظهر الرسمي ، فقد تجل ، على الأخص ، فيما بذلته الحكومة من مجهودات ، لاعادة الاتصال بين حلقات تاريخ مصر في القدم ، وتاريخها في العصر الوسطى ، وتاريخها في الأيام الحالية .

أما الاتصال بين تاريخها القديم ، وتاريخها في العصر الوسطى ، فإن المسيحية ، أولا ، فالاسلام كانا قد قطعاه بناتا ، على توالى القرون ، بما حملا مصر الفرعونية والبطلموسية على الانقلاع عنه من دين ، ومعتقدات ، ولغة وطادات ، وعقبة سابقة .

وأما الاتصال بين تاريخها في العصر الوسطى ، وتاريخها الحالي ، فقد قضت عليه قضاء مبرما ، قرون الحكم الثماني الثلاثة على وادى النيل . فبتأسيس مدرسة للاجتولوجيا ( علم الآثار المصرية ) ، أولا ، ثم بإنشاء المتحف المصري ، أعيد الاتصال الأول ، وإنشاء المكتبة الخديوية ، وتزوين قاعاتها بكل ما أمكن العثور عليه من مکتوبات مصر الاسلامية في العصر الوسطى — أعصر الخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين ؛ أعصر الطولونيين والأخشيديين ؛ أعصر الفاطميين والأيوبيين ، وأعصر السلاطين المماليك البحريين والبرجيين ؛ ثم كل ما أمكن العثور عليه ، أيضا ، من مکتوبات القرون العثمانية ؛ وإنشاء دار الآثار العربية ، أعيد الاتصال الثاني .

مدرسة  
الاجتولوجيا

أما مدرسة الاجتولوجيا — والاجتولوجيا علم نشأ في العالم الغربي ، حقيب العثور على الآثار القديمة المعروف "بمصر رشيد" ، وتمكن شبوليون من فك طلاسمه الميروغليفية ، والتوصل الى معرفة هذه اللغة المقلّسة المصرية القديمة ، المقوش بعلاماتها ورسومها التاريخ الفرعوني برمته ، على آثار العهد العتيق وتشيدهاته — فقد

عهد بإدارتها ، وتعلم الطلبة فيها ، الى العالم الألماني بروجش — وكان من فحول رجال الفن ، وله فيه المؤلفات الشيقة الممتعة — فما زال بالطلبة المتعلمين على يده ، حتى أوجد فيهم روح الاهتمام بالماضى المصرى السعيق ، بالرغم من الهاوية التي حفرتها العقائد بين عقليتهم ، وعقليه أجدادهم البعدين ؛ وحتى تمكن من انشاء قنطرة على تلك الهاوية ، بين عصر الفراعنة وعصر (اسماعيل) . وأشهر من نبغ من تلامذته ، العالم الاجيولوجى الوديع أحمد بك كمال . وأهم ما يتجج عن اشتغال طلبته فى حل الكتابات الهيروغليفية زوال نفور مصرى اليوم المسلمين والكاثوليك ، بالتدريج ، من قومية مصرى عصور الوثنية ، وتاريخهم وأعمالهم ؛ والاقبال شيطا فشيئا ، على مطالعة أخبارهم ، والاعتبار بآثارهم ، والدق من الحنوا ليهيم ، والتفانح بهم ؛ بالرغم من مؤثرات المعتقدات . « وإذا لم يكن للأمة مجد سالف وأثر باق ، فلا تدوم سلطتها ولا تتأصل حضارتها ! » .

المتحف المصرى

وأما المتحف المصرى ، فقد عهد (اسماعيل) بإبرازه الى حيز الوجود ، الى الفرنسيواى الشهم الكبير ، ماريت باشا ، ووضع تحت تصرفه العمال والنقود على قدر ما يريد . وكان الرجل من فطاحل المشتغلين بالعلم الاجيولوجى ، ومن المفهرمين بكشف النقاب ، وإمالة اللثام عما درس أو توارى من المفاخر المصرية القديمة ، غراما يجمع الى ذاته قوى النفس ، ويحصرها فيها ؛ فما زال يتقرب ويبحث هنا ، وهناك ، تحت الزمال ، وفى كهوف الجبال — لا سيما حيث كانت "منف" القديمة — حتى تنسئ له ، فى سنة ١٨٥١ اكتشاف "السيرايم" أى معبد الاله "سيرابيس" وإذا فيه قبور ٦٤ عجلا من العجول المعروفة باسم "أپيس" دفنت هناك ، من القرن السابع عشر قبل المسيح ، لنهاية القرن الأول بعده ، وتنسئ له العثور فى ذلك المكان ، على

كثبات تثبت أن الديانة المصرية القديمة إنما آلت في نهاية أمرها ، الى التثليث والتوحيد ، على فرض أنها كانت في البدء اشتراكية — فاوزيريس هو الاله الأكبر ومبدع كل الكائنات ؛ وأيس تجسد في عجلة أصبحت أتما ، وهي لا تزال عنزراء ، بفعل پناه ، روح القدس . وعليه فاوزيريس وأيس وپناه ثلاثة أقانيم في إله واحد ، أوزيريس يقيم في السماء ؛ وأيس يعيش على الأرض ، ولا بد له عند بلوغه سننا محددا من الموت موتا عنيفا ، على أنه يقوم بعد ذلك من بين الأموات ويصعد الى السماء ليقم في حضن أبيه باسم سيراپيس ؛ وپناه روحهما المرفرف بينهما — ثم أنسى له اكتشاف نيف وألفي أبي هول ، وما يقرب من خمسة آلاف تمثال ونقش خلاف ثمانية تماثيل في منتهى الجسامة ، تعد ، من جهة كبرها ، معجزة فن الحفر المصرى . فكان والحالة هذه ، خير من يهد اليه إرراز المتحف المرغوب فيه . وما لبث أن دل نجاحه الباهر ، على أن القوس إنما أعطيت بارها .

فانه أقدم بهمة لا تعرف الملل ، وشجاعة لا تبالي بالأخطار ، على جمع ما لم يكن يتيسر جمعه لغيره . لم يحز عليه ، من نفائس الآثار القديمة ، حتى كؤن في بولاق متحفا لا مثيل له في العالم ، أدخرفيه من الذخائر والأعلاق ، والأصنام ، والتماثيل ، والمكتوبات البردية ، والنقوش ، وموميات كبار القراعنة ؛ ما لا يعرف له قيمة ، ولا يمكن لكنوز الدنيا بأسرها مشتراه ، ولو بذلت في سبيل ذلك بالتدقيق — ومعرفة أحمد عرابي باشا هذا هو الذى حمله أيام أن آلت اليه الدكاتورية بمصر ، على الرغبة في بيع ذلك المتحف دفعة واحدة ، ليستند الديون المصرية الرسمية كلها بما يدفع له من ثمن فيه <sup>(١)</sup> .

(١) أنظر : "مصر الأخيرة" لبيك ص ٨١

ولا مشاحة فإن قيام الحكومة المصرية بالبحث عن آثار حياة البلاد المتقضية قبل ظهور المسيحية والاسلام . والتقيب عليها ، واكتنازها وإجلالها ، وإقدام (اسماعيل) كثيراً على دعوة ذوى المترلة الرفيعة من زائريه ، خمسة خمسة ، وستة ستة ، الى تناول الطعام معه في مركوفاج (نادى) من المركوفاجات المكتشفة مع وقوف الأهالى على ما كان يبدو من السائحين الغربيين القادمين الى بلادهم من الاهتمام بزيارة التشهيدات الفرعونية والبطليموسية ، زيارة تفقيية ؛ واقتناء ولو القليل والثائه ، من آثار أولئك العواهل بأثمان باهظة ، كل ذلك أدى الى تيفظ حصة حوامل في القلوب لم يكن لها في الأجيال السابقة من أثر :

(أولها) الاهتمام باقتناء أى شئ يكون من تلك الآثار ، ليعه ثمن يرضى النفس الى الراغبين فيه من أولئك الأجانب ؛ والمزاحمة على ذلك الاقتناء مزاحمة شديدة ، يدل عليها ما يقصه الكونت لبيك عن الرجل الذى اغتصب من ولدى مهزار قردا ذهبيا من أبدع المصنوعات واختص به بعد أن أشبعهما ضرباً<sup>(١)</sup> .

(ثانيها) الاجتهاد فى تقليد تلك الآثار تقليدا متقنا ، عند عدم التمكن من العثور على الصحيح منها ، كما فعل بعضهم فى الأقصر : فانه اشترى من أحد السائحين الفرنسيين ، بمبلغ مائة فرنك كتابا فيه نخراطيش الفراعنة المختلفة ، وشرع يصنع جمرانات وينقش عليها ما يشاء من تلك النخراطيش ، نقشا جميلا ، ويبيعها كأنها صحيحة وقديمة ، بأثمان طالية لذات الخلدلين بها ، ومن ضمنهم عالم المانى اچيتولوى مشهور ، وهم لا يفقهون الى التقليد ، ويظنون ، لا سميا ذلك العالم ، أنهم بمجازتهم لها ، إنما حازوا بتيات يقانحرون بها مزاحيمهم عليها<sup>(٢)</sup> .

(١) أنظر : "مصر الأخيرة" لبيك ص ٢٦٨ و ٢٦٩

(٢) أنظر : "مصر الأخيرة" لبيك ص ٢٦٩ و ٢٦٥

(ثالثها) نظر العامة نفسها نظر الابرار ، والاجلال ، والتعظيم ، الى بقايا ذلك  
الماسخى الخصب المهيبة ، وتحولهم ، شيئا فشيئا عن شعور الاحترار ، الذى كان متأصلا  
في قلوبهم لأهل تلك المصور ، المدحوة عندهم "كفرية" لرغبتهم في الدلالة على مبلغ  
ازدراثهم لها .

غير أن هذا التحول كان بطيئا ، وكثيرا ما كان يقع للعملة أنفسهم المشتغلين تحت  
إدارة مارييت باشا أن يبدو امتنانهم لنفس بقايا من كانوا ملوك أجدادهم في سالف  
الأيام .

الحلقة  
لوبياء فرعونية

فيروى من هذا القبيل أن مارييت باشا لما عثر على مومياء الفرعون "مصرى إن را"  
من الأسرة السادسة ، في جهة إهرام دهشور ، كلف بعض أولئك العملة بنقلها  
الى متحف بولاق ، ولما كان لا بد لهم من الذهاب بها ، في بادئ الأمر ، الى البدرشين ،  
لاستغلال القطار الحديدى في محطتها ، لم يجدوا طريقة لاجتياز المسافة بين المكانين  
خيرا من وضع جثة ذلك الفرعون على ظهر حمار ، عرضا ، وسوق الحيوان بها ،  
وأطرافها متدلية من كلا جانبيه بشكل مهين — ولما بلغوا بها محطة البدرشين ،  
وأرادوا أن "يخلصوا" عليها ، ليسافروا بها الى بولاق ، وقع فاعثر تلك المحطة في حيرة  
عميقة ، لأنه لم يكن قد سمع بكلمة "مومياء" في عمره ، فلم يعرف ما هى حينها  
سموها له . ولم يجد لها تسمية ، بل ولا ذكرها ضمن الأشياء التى تحسن الواردة  
في تسميته . أخيرا قطع لهم جميعا تناكر في الدرجة الأولى ، واعتبر مومياء فردا  
منهم . فلما وصل بها حاملوها الى كوبرى بولاق وأرادوا أن يمتازروها بها أوقفهم رجال  
الدخولية ، ليحصلوا منهم رسما عليها . ولكنهم لم يدروا ما هى ، ولا فى أى صنف

من الأصناف نفع، حتى فتح الله على أحلم، فقال: «ألا ترون أنها فسيخة؟»  
فقال رفاقه: «حقاً! هي فسيخة!»، وأخذوا عليها مكس فسيخة<sup>(١)</sup>!

فلتنفخ المنظمة البشرية، أية كانت بعد ذاك، أوداجها! فما أحرأها بالدرس الذي  
ألقاه المسيو ماسيرو خلف ماريت باشا على الأمير الألماني الصغير والمتنطرس  
غطرسه إمبراطورية، افتخاراً يحسبه البالغ من السن حوالى المائة والخمسين عاماً،  
أمام موميا ذلك الفرعون الراقدة عليها آلاف السنين! إذ قص عليه ما أصابها من  
امتحان، لا في بلاد غريبة، يذخر فيها الناس على جهلهم إياها، بل في البلاد ذاتها،  
التي كان صاحبها حاكمها المطلق، حيث كانت الجباه تنمو لجلاله، والقلوب، قبل  
الأبصار، توجف خشوعاً لهيبته، والركب تنحرف أمامه ساجدة! وعلى أيدي أحقر  
الملا من سلالة أولئك الخاشعين الساجدين!

وربما كان لتقرير الذي كان أليف ماريت باشا في مسكنه بصحراء مسقاة  
وهشور دخل في بطنه سيرة التحول عن احتقار المصور الفرعونية «الجاهلية»  
في نفوس مجاوريه وفضله. فانه كان من شأن ذلك الحيوان «النمس» في عرفهم  
أن يجعلهم على الاشتزاز، وعلى مزج صاحبه ومواضيع بحثه في طائفة النفور عينها  
التي كانت توجبها نجاسته، لا سيما، بعد أن وقع له، يوماً، شديد القبط،  
أنه خرج يلتمس فيثا، فسارت به قدامه إلى رحبة مسجد مجاور. فرأى فيه  
«الميضأ»؛ فحسن لديه الاستحمام فيها. فغاضها بلذة، وأبطأ في التمتع ببرودتها  
اللطيفة، حتى جاء المصلون، ساعة العصر، ليتوضأوا؛ فوجدوه منفرداً بمياهها.

(١) انظر: «مصر الأخيرة» إليك ص ٧٦ وما يليها.



فحملوا عليه حملة منكرة ، وأخرجوه مهيناً مضروباً . واضطر ماريت الى تقض بناء تلك « الميضا » لأنها نجست ، واعدته ثانية ، بحجارة غير التي احتك فيها ختريه الاليف <sup>(١)</sup> .

وكان من لطائف ذلك الختير ، أيضاً ، أن لوردا انجليزياً ذهب ، مرة ، مع اللادى قريته ، لزيارة ماريت باشا في مقامه الصحراوي ، فأمسكهم على الغداء . فما جلسوا على المائدة إلا وأتى الختير ، كأنه كلب ظريف ، وأخذ يمتك بالخالسين ، طالباً منهم نصيبه في الطعام . فنارت حوامل الاشتزاز العميق في صدر اللادى ، وأبدت استغرابها من « أن رجلاً كماريت يتخذ مثل ذلك الحيوان القذر أليفاً له ، دون غيره من الحيوانات الجديرة بذلك » . ولاظهار اشتزازها ، عملياً ، غرست أسنة شوكتها في ظهر ذلك المسكين . فما كان منه إلا أنه دخل تحت المائدة ، وصدمها بظهره ، فقلبا بصحونها وطعامها على حضرة اللادى ، فأظف لها ملائمتها <sup>(٢)</sup> .

ويبلغ من غيرة ماريت باشا على ادخار الآثار الفرعونية واكتنازها ، والضن بها على غير المتحف الذى أنشأه ، أنه استصدر من الحكومة المصرية أمراً سامياً يحظر تحظيراً باتاً ، التنقيب عليها وبيع أى شئ كان منها الى الأجانب ؛ وهل أى أثر يكون من مكانه ، إلا بمعرفة رجال الآثار ، وتصدير أى بقية من بقايا الماضى بمصر الى أى قطر من الأقطار الخارجية — وكان نهب الآثار القديمة ، قبل ذلك ، مباحاً : فلاحاً بها سارقوها المتاحف الغربية الكبرى — فضمن بذلك بقاء الكنوز المصرية التاريخية لمصر والمصريين ، دون سواهم ؛ ولم يعد في استطاعة أحد أن يزين ببعض

(١) أنظر : « مصر الأخيرة » هيك ص ٦٧

(٢) أنظر : « الكتاب معه » ص ٦٦ و ٦٧

منها غير المتحف المصري، والميادين المصرية، إلا تهريبا وتحايلا. كما وقع للكونت ليبيك وهو في الصعيد. فان بعضهم عرض عليه مشترى موميا في سركونفاچها، كان قد مثر عليها، بدون اطلاع رجال الآثار، في أحد مدافن الملوك، التي كانت لا تزال تحت التثقيب. فتمسرها ليبيك من الرسومات التي عليها، ولادراكه قيمتها التاريخية، اشتراها بثمن جيد. ولكن الصعوبة كلها كانت في التمكن من تصديرها إلى فرنسا، مع تيقظ جني ماريت ولا كأنهما أميرت (أرجس) حارس بستان (المسعيد) في الميثولوجيا اليونانية. وزادت تلك الصعوبة، بعد أن فشا خبر المشتري وبلغ أذني «الأرجس» المصري، وصدرت أوامره إلى ذوى الشأن بمديرية قنا، بمنع ليبيك — ولو أنه فرساوى مثله — من مقتناه، وإعادة الثمن الذي دفعه به إليه — وكان عشرين ألف فرنك، على ما أظن — وإرسال الموميا بسركونفاچها إلى المتحف. فعمد ليبيك إلى من صنع له سركونفاچا كالذى فيه الموميا، برسوماته وألوانه، ولو أنها غير متقنة، ووضع فيه جذع شجرة، وسمر عليه خطاه، ثم سلمه — كأنه يصمدع بالأمر، ومقابل إعادة العشرين ألف فرنك إليه — إلى رجال السلطة في المديرية — وكانوا من الجهل في ذلك الموضوع بمكان عظيم — ورجاهم، فقط، ألا يرسلوه إلا بصحبته، حينما يؤوب إلى مصر، عساه أن يتمكن من نيل تصريح من الحكومة المصرية بتصديره إلى فرنسا. فوعده — وكان هو في الأثناء قد سفر، سرا، السركونفاچ والموميا الحقيقين إلى القصير، برا، ومنها إلى السويس، بحرا، فإلى بور سعيد ومرسيليا — فلبس تيقن أن ما اقتناه أصبح في فرنسا، قام من الأقصر إلى مصر، ومعه السركونفاچ الكاذب. فاستلمه ماريت أمامه، متبها، ولكن نظره ما لبث أن وقع على خطاه، إلا وقطب حاجبيه، لأن عينه الخيرة أدركت التقليد، حالا،

ففتح السركوفاج بيد مضطربة . وإذ به يرى جذع الشجرة داخله بلل جثة محطلة !!!  
فالتفت الى ليك ووامل الاستغراب والنفظ والاستهزاء تتناوبه ، وهو لا يدرى أيها  
يبدى . فقابل ليك نظره بقهقهة ضحك عالية ، وقال : « لم يعد ، يا صديق ، من  
وسيلة ، سوى انى أردت اليك العشرين ألف فرنك التى دفعت لى ، فهاكها ، لأن  
ما اشتري بها ، حقا ، أصبح فى فرنسا ! » فأدرك ماريت أن مواعنه ضحك عليه .  
ولما كان ممن يستطعمون ملح السخزية الظرفية أكثر مما تستغزم السخزية الى  
الغضب ، انغم الى ليك فى ضحكه ، واهضى الأمر بينهما على سلام<sup>(١)</sup> !

وأما المكتبة الخديوية ، فيعزوبعضهم إسماعيا الى إشارة بذلك صدرت من السلطان  
عبد العزيز الى (اسماعيل) ويقولون ان هذا الماهل ، لما زار مصر ، وشاهد مساجدها  
وآثارها ، ورأى الكتب العديدة من مخطوطات ومطبوعات ، مبعثرة فى خزاناتها ،  
أشار الى (اسماعيل) بإنشاء مكتبة طامة تجمع شتاتها ، ليستفيد الناس بمطالعتها . وان  
هذه الاشارة الهايونية وقعت وقعا جميلا من نفس (اسماعيل) .

على أننا ، مع عدم ميلنا الى تكذيب حكاية هذا الایماز ، نرى أنه كان من طبيعة  
الاهتمام الذى أبداه (اسماعيل) بأحياء العلوم والمعارف فى بلاده ، ومن شأن رغبته  
فى تكوين نهضة علمية أدبية فيها ، أن يولدا فى نفسه فكرة إنشاء تلك المكتبة .  
وكان جده ( محمد على الكبير ) قد أوجد مستودعا فى بيت المال القديم ، خلف  
المسجد الحسينى ، لبيع مطبوعات الحكومة من كتب وغيرها . فأضاف (اسماعيل)  
الى ما فيه من كتب ، نحو ألفى مجلد من مخطوطات بالعربية والتركية والفارسية ،  
ابتاعها من تركة حسن باشا الموناسترى أحد كبار رجال ( عباس الأول ) . ولما كانت

(١) أنظر : "مصر الأخيرة" لليك ص ٢٧٩ و ٢٨٠ و ٢٨١ و ٢٨٢

سنة ١٨٦٩ — وهى سنة الاحتفال بفتح القناة السويسية ، وتوافد أصحاب التبجان وأرباب الأقلام الى القطر — أوعز الى حل باشا مبارك — وكان مدير ديوان الملوس ، أى ناظر المعارف — أن يتخذ عملا ، من سرى درب الجمايز ، بجانب ديوانه ، ويعمله دار كتب خديوية ، وينقل اليه ذلك المستودع برسته ، وأهم ما يجد من كتب فى المساجد والتكايا بمصر وغيرها من مدن القطر ؛ ففعل ، وأضاف اليها الكتب التى كانت فى خزانة الأوقاف الخيرية ، وكثيرا من الآلات الهندسية والرسومات ونحوها .

فلما كانت سنة ١٨٧٠ ، أصدر (اسماعيل) أمرا رسميا بإنشاء المكتبة ، وأمر حل مبارك باشا بتنظيمها ووضع قانون لها ، ففعل . وفى سنة ١٨٧٦ توفى الأمير مصطفى فاضل باشا شقيق (اسماعيل) — وكان كلغا بالكتب ، عربية وغيرها ، حرصا على اقتنائها ، وعنده منها خزانة قيسة فيها نيف و ٣٥٠ كتاب . فابتاعها (اسماعيل) بثلاثة حشر ألفا من الجنيهات ، وأهداها الى مكتبته الخديوية ؛ وما زال يجمع فى اقتناء الكتب العربية وغيرها ، وهو لا يزال بالإنفاق ، حتى صبر تلك النار تضارع مثيلاتها التى من درجتها فى العواصم الأوروبية ، وأعاد الى الشرق الأدنى ، مثلا من مفاخر العالمية ، التى ازدهت بها العصور العباسية والفاطمية ؛ وأخرج الى الأيام الحاضرة ، فى ثوب قشيب ، تحفا من تلك المفاهر ، جعلتنا نشاهد حيانا ما كنا نسمع عنه من خطوط متقنة ، تخطوط ابن مقلة ، ورسوم بنية بهجة ومكن ظمأنا الى العلم والبحث والمذاكرة ، من يتابع حية بلجا إليها ، فيرتوى .

دار الآثار العربية وأما دار الآثار العربية ، فإن (اسماعيل) أصدر أمره بإنشائها فى سنة ١٨٦٩ وكلف بذلك فرنس باشا ، رئيس هندسة الأوقاف . وكان غرضه منها جمع ما كان

مبعثراً في المساجد وغيرها، من الآثار العربية والإسلامية، على أنواعها، فكانت تلك الدار ضوئاً للتحف المصرية، المجموعة فيه الآثار الفرعونية والبطليموسية والرومانية والبيزنطية، فيكون الاثنان معاً، هيكلًا فخماً للتاريخ المصري برمته، ينتقل فيه المطالع الباحث، أو المتفرج البسيط، من مرحلة إلى مرحلة، في حياة مصرنا هذه، على امتداد العصور، وهو مأخوذ اللب دهشة، وإعجاباً وإعظاماً ولكن علا كثيرة، منها اشتغال المكان المطلوب لجمع تلك الآثار فيه بما سواها، حالت دون تنفيذ فرنس باشا أمر (اسماعيل) في عهده فلم تخرج فكرة «الحديد العظيم» إلى الوجود إلا في أيام ابنه وخليفته، المرحوم محمد توفيق باشا؛ وقد أنبأ على بهجت بك، مدير دار الآثار العربية الآن، المؤرخ المحقق الكبير المرحوم جورجى زيدان بك «أن عدد ما كان في تلك الدار من التحف الأثرية، في سنة ١٩١٣، نحو ٤٠٠ قطعة، بينها آثار عربية إسلامية من بقايا التمدن الإسلامي على اختلاف عصوره، ومصنوعات حجرية وزجاجية، وخشبية، ونحاسية على الطرز العربي الجميل، تستحق العناية والدرس، وأكثرها من عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين<sup>(١)</sup>» .

غير أن مظهر النهضة العلمية الرسمى بمصر لم يقتصر، مطلقاً، على ما ذكر، ولو أنه تجلّى فيه، على الأخص . فدار الطباعة، مثلاً، وجدت من (اسماعيل) عناية كبرى جعلتها أكبر مطبعة عربية في العالم، حتى بلغ متوسط المؤلفات المطبوعة فيها، سنوياً، على عهده، نيفاً وعشرين مؤلفاً، فضلاً عن الكتب المترجمة وخلافها .

تنشيط الصحافة  
والجمعيات العلمية  
والخيرية والأدب  
والعلم

ثم إنه نشط الصحافة والجمعيات العلمية، والخيرية، والأدب على أنواعه، في سائر الأمصار العربية، تنشيطاً عظيماً، بتشجيعه المعروف للعلم .

(١) أنظر : "تاريخ آداب اللغة العربية" لجورجى زيدان بك ص ١٥٠ ج ٤

أما الصحافة، فهو الذى سهل الاشتغال بها على أدباء السورين المتقاطرين فى أيامه الى مصر، طمعا فى كرهه، وأشهرهم آل تقلا، وأديب اصحق، وسليم النقاش، وسليم حموى، وغيرهم. ولم يكن يقاوم حريتها فى أى موضوع تخوض فيه، ما عدا موضوع الطعن عليه؛ وعدم مراعاة جانبه. فان الخوض فيه كان يؤلمه ويؤذيه، لا سيما فى أيام ضيقه، ويتنازع على البقاء مع دائقيه وجماتهم. ولا غرابة، لما من جاهل، لا سيما فى أيامه، ولا سيما من كان منته وتربيته كمنته وتربيته، كان يستطيع أوريد أن يروض نفسه على احتمال انتقاد السنة الرطابا لأعماله. وما من رجل يحسن اليك ويرعاك، إلا ويستفزه أن تكون مع صدقه عليه، فى وقت شدته.

أما الجمعيات، من علمية وخيرية، فقد أمتها بساتينه وماله، وشجع الناس على الاشتغال فيها. فاليه مرجع الفضل فى تأسيس الجمعية الجغرافية الخديوية فى سنة ١٨٧٥ — وكان من أهم أعضائها محمود باشا الفلكى، وستون باشا الأميركى، وكلاهما من موظفى الحكومة المصرية — والجمعية العلمية الشرقية — وكان من أهم أعضائها أرتمين باشا ونغرى باشا، ثم انضم اليها سليمان أباطله باشا، وإلياس حبالين، والدكتور مهدي خان التبريزى — وساعدت حكومته على انشاء الجمعية الخيرية الاسلامية الأولى فى سنة ١٨٧٨، وأمتها بالتقود، ولى كان الباحث على إنشائها روحا سياسية اجتماعية دبت فى نفوس المصريين فى ذلك العهد، على أثر ما شاهدوه من استئثار الأجانب بمرافق البلاد الاقتصادية، فحملتهم على فتح المدارس لتعليم البنين والبنات، وتهذيب أخلاقهم، فى ميدان حرية مطلقة، فان الحكومة اشتربت عليها لى تسمح لها بذلك، ألا تكون خاصة بالمسلمين، وألا تصطبغ بصبغة دينية خاصة. فبذرت الجمعية اسمها، وتسمت<sup>٢٢</sup> بالجمعية الخيرية<sup>٢٣</sup>. فاعتبرت رسميا وصدق على قانونها.

وأما الأدب، فقد نشطه (اسماعيل) بما سهل لرحاله من أسباب الرزق في خدمة حكومته، وخدمته الشخصية، وغيرها. فقد قرب الى ذاته الشاعرين المهيدين عليا أبا النصر المنقلاطى والشيخ على اللقي، والكاتب الفريد عبد الله فكرى باشا، وألقى بعميته عبده المحولى الموسيقى المغنى الشهير، وعهد بتقريب أبنائه الى الأستاذ الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى، ووهب ابراهيم المولى، بعد أن خسر ثروته في التجارة، مالا استرجعها به، وظف نقولا بك توما في حكومته، حيناً. وأذن من نفسه الدكتور أحمد حسن الرشيدى، وأوعز اليه أن يشتغل، فالف كتاب "عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج". ولما انتقل يوسف انخياط بجوفه التمثيل من الاسكندرية الى مصر في سنة ١٨٧٨، أمر (اسماعيل) أن تفتح له أبواب الأوبرا لتمثيل رواياته فيها، ووعد أن يحضر التمثيل بنفسه. ولكن ذلك الفى لم يجد رواية في متعلاته يشتغل بتمثيلها الفصل إلا رواية "الظلم"، وكان (اسماعيل) حاضراً : ففضب لها تمثيلها من ذكر الظلم والظالمين في تلك الأيام العصيبة، التي كانت الحرب فيها، بينه وبين الدائنين الغشومين، عوانا، وتوهم بحق أن أولئك الممثلين، بالرغم من أنه غمرهم بفضله، يرضون به وبأحكامه، انقيادا لإيمازات أصدائه. فاستنقصهم جتاً، وحكم بأنهم غير جديرين بالنعمة التي أسبغها عليهم. وأمر بإخراجهم من مصر. فاموا بهار ونزى عظيمين.

وأما العلم، فلا أدل على اهتمام (اسماعيل) به، وجهاده في سبيل ترقية شؤونه من البضع والعشرين بمئة صابية التي سيرها الى مجاهل أفريقيا الوسطى والشرقية، لاكتشافات صابية متنوعة، سيأتى ذكرها، بالتفصيل، في كلامنا على تحقيقه الشطر الثالث من الخطوة التي رسمها لمجهوداته.

مظهر النهضة  
الفردى

وأما المظهر الفردى لتلك النهضة، فحصل في مجهودات الثابنين من المدارس المصرية والسورية على اختلاف أنواعها ومذاهبها، ومن الرسائل المدرسية إلى البلاد الأجنبية، منذ أيام (محمد على)، ومباحثهم وأعمالهم وتأليفهم .

لحسن حسنى باشا — الذى بدأ حياته العملية بصفحة مصصح و كاتب بالتركية فى الوقائع الرسمية سنة ١٨٥١، وآلت إليه، فى نهاية أمره، النظارة على مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٨٨٠ — كان من نوابغ الرجال فى المهمة والاقدام، فضلاً عن سعة اطلاعه على الرياضيات والميكانيكات، (علوم الحيل)، وإليه يرجع الفضل فى استجلاب معمل الورق لمصر .

ومحمد على باشا الحكيم، وإبراهيم الدسوقي، كانا أول من أنشأ مجلة طبية فى اللغة العربية سنة ١٨٦٥، دعواها "العصوب" وضمناها من المباحث الجليلة، ما تروى منه الألباب، وترتاح إليه العقول — ألا ليتها عاشت طويلاً !

وأبو السعود افندى، الذى ترجم عدة كتب تاريخية و غيرها، كان أول من أنشأ جريدة سياسية مصرية . فدعها "وادي النيل" واستمر يصدرها مرهين فى الأسبوع طالحة بالمقالات السياسية والأدبية والعلمية، إلى أن واقعه المنية سنة ١٨٧٨

وإبراهيم المولىجى، ومحمد عثمان جلال، تلياه فى هذا المضمار، وأنشأ فى القاهرة فى سنة ١٨٦٩ "جريدة تزهة الأفكار" — وكانت أسبوعية، شديدة اللهجة . فاضطرت الحكومة إلى تعطيلها .

وسعيد صالح بك، فاضطر المدارس، أصدر فى سنة ١٨٧٠ مجلة دعاه "روضة المدارس" أخذ يطبعها فى مطبعة "وادي النيل" ويوزعها على الطلبة مجاناً — وكانت



علمية ، أدبية ، يحزرها نخبة من العلماء والأدباء ، منهم عبد الله فكرى باشا السابق ذكره ، واسماعيل باشا الفلكي ، وبدر بك الحكيم ، وعلى مبارك باشا ، ورقاعة بك ، وقدرى بك — وهو الذى أصبح ، فيما بعد ، قدرى باشا المشهور بمؤلفاته . وكان كل منهم ينشر فيها مقالات متسلسلة في موضوع واحد كالكتاب المستقل .

ومikhail عبد السيد افندى أصدر جريدة "الوطن" في سنة ١٨٧٧ — وهى أقدم الصحف القبطية — وسليم حموى باشا السورى أصدر جريدة "الكوكب الشرقى" في الاسكندرية سنة ١٨٧٣ ؛ ولكنها لم تعيش طويلا . وسليم تقلا بك ، وبشارة أخوه ، السورى ، أصدرتا بالاسكندرية في سنة ١٨٧٦ جريدة "الاهرام" ، فالت حظا وانحرا من الزواج والنفوذ ؛ ولا تزال تشر لنا يومنا هذا ، وربما كان لها من اسمها الحظ في البقاء الذى أتمعت الدهور جهودها في حرمان ممياها منه ، ولم تفلح .

وأحمد حسن الرشيدى — وهو من كبار نوابغ مدرسة الطب المصرية ، وقد سبق الكلام عنه — جاهد في خدمة النهضة التى نحن في شأنها جهاد الأبطال ، ترجمة وتأليف ؛ فكان من أكبر أركانها ومن أكثر الأطباء عملا في سبيلها . وهو ، وإن يكن من نابغى عصر (محمد على) إلا أنه قد أدرك زمن (اسماعيل) وألف ، في أكثر فنون الطب والطبيعات والاقرباذين ، التأليف الوافية الممتعة .

ومحمد على باشا البقل ، الجراح الطائر الصيت — وهو من زاوية البقل بالمنوفية ، وقد سبق ذكره أيضا — قد ألف في الجراحة جملة كتب مفيدة ، منها : "روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى" و "غرد النجاح في أعمال الجراح" و "غاية الإصلاح في فن الجراح" و "نشر الكلام في جراحة الأقسام" ، علاوة على إصداره "المجلب" الطبعة العربية البادى ذكرها .

وحسن عبد الرحمن بك — وكان من أساتذة مدرسة الطب في أيام نظارة محمد علي باشا البقل عليها — ألف ، بأمر رئيسه هذا ، كتاب "القول الصحيح في علم التشريح" ، لكي يدرس في المدرسة المذكورة .

وأحمد ندا بك ، الصيدلى الشهير ، المتوفى سنة ١٨٧٧ ، كان هماما ، كثير العمل والبحث ، محبا للتأليف ونشر العلم ، وله مؤلفات جزيلة الفائدة ، أهمها : "الآيات البينات في علم النباتات" و "حسن البراعة في فن الزراعة" ( مترجم عن الفرنسية ) و "حسن الصناعة في فن الزراعة" ، وضعه لتعليم في مدرسة الزراعة التي أحيل اليه التدريس فيها بعد إنشائها ، و "الأحوال المرضية في علم الطبقات الأرضية" ( جيولوجيا ) ، وهلم جرا .

وحسين عوف بك الكحال ، المتوفى سنة ١٨٨٣ — وكان ، في عصره ، ركا من أركان العلم الأربعة ، وهم : أحمد ندا بك في التاريخ الطبيعى ، ومحمد علي باشا البقل في الجراحة ، وحسن عبد الرحمن بك في التشريح ، والمتكلم عنه في الرمد — ألف في فنه هذا كتابا ذا سبعة أجزاء من خير ما ديجبه يراع الكاتب .

ومحمد حافظ بك ، المتوفى سنة ١٨٨٧ — وكان أستاذ الرمد في مدرسة الطب — ألف كتاب "مطمع الأنظار في تشخيص أمراض العين بالبحث بالمنظار" .

وسالم سالم باشا ، المتوفى سنة ١٨٩٣ ، صاحب الشهرة الواسعة ، ألف كتاب "وسائل الابتهاج الى الطب الباطنى والعلاج" و "دليل المحتاج في الطب والعلاج" ، وأكثر مصادره ألمانية ، لأنه هم اختباره الطيبة في قينا ، بعد خروجه من مدرسة القصر العبنى سنة ١٨٤٨

وعلى رياض بك ، الصيدلى ، نشر في عهد (إسماعيل) كتاب "النقطة الرياضية في الأعمال الإقرباذنية" .

وعبد الهادي اسماعيل، معلم البيطرة في المدارس الحربية، ألف كتاب "المجاللة البيطرية لارشاد الضباط والسوارى والطوبجية".

ومنتصور أحمد، مدرّس الكيمياء بمدرسة المهندسخانة المصرية، ألف كتابه "وصفة المتطبين في فن الصيدلة والأقرباذين".

ألا يخيل لك، أيها القارئ، أنك في أيام الرشيد والمأمون؛ وهلا نتمثل أمامك شخصيات آل بختشوع وآل حنين، وأنت تقرأ أسماء كل هؤلاء النوابغ المصريين في علمى الطب والصيدلة؟

وبهجت باشا - وهو أرنأوطى الأصل - خلف خرائط طوبوغرافية يستد بها. وعلى عزت، المدرّس للعلوم الرياضية في المهندسخانة، ألف "الخلاصة العزمية في تهذيب الأصول الحسابية".

وأحمد فائق بك، وهو من كبار أساتذة المهندسخانة الخديوية، وضع المؤلفات الجمة في الهندسة والسوائل، أهمها: "الأقوال المرضية في علم بنية الكرة الأرضية" و"تحرك السوائل" و"الدرة السنية في الحسابات الهندسية".

وعاصر سعد، مدرّس الرياضيات بالمدارس الحربية، ألف "المنحة الزهرية في الأعمال الجبرية" و"أحسن الوسائل لتصرف السوائل".

وأحمد نجيب، مدرّس الرياضة بمدرسى أركان الحرب والطوبجية، ألف "التحفة البية في الهندسة الوصفية".

وحسين علي الديك، ألف كتاب "علة الحاسب وعمدة الكاتب" في الحساب ومسك الدفاتر الديوانية.

ومحمود باشا الفلكي، المذكور مرارا والمتوفى سنة ١٨٨٥، عن ثمانين عاما، ألف بالفرنساوية والعربية مؤلفات جمّة ممتعة .

ونختار باشا المصري، وكان كثير الاشتغال في الرياضيات والفلك، ألف "التوقيقات الالهامية لمقارنة السنين المصرية بالافرنجية والقبليّة" و"المجموعة الشافية في علم الجغرافية" و"جداول تحويل المسطحات المترية"، وهلم جرا .

واسماعيل باشا الفلكي، ألف "الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة" وتقاويم فلكية سنوية .

والسيد صالح مجدى بك، المحالة اليه ترجمة الكتب في الفنون العسكرية، ألف "الدرر المتثور في الظل والمنظور" و"بنية الطلاب في قطع الأحجار والأخشاب" و"الروضة السندسية في الحسابات المثلثية" و"تذكير المرسل بقصر المفضل والمجمل" و"ميادين الحصون والقلاع ورمى القنابل باليد والمقلاع" وتكتاب "الترع والأنهر"، وهلم جرا .

ومحمد صفوت المشهور باسم "الساعاتى المصرى"، وعلى أبو النصر المغلولى، والشيخ على الليثى، أطروا العالم والخاص والسوقة والأمرء بأشعارهم الجميلة .

[ومن نكات الشيخ على الليثى المستنرفة أنه دخل يوما هو والشيخ على أبو النصر المغلولى على (اسماعيل)، والحديدو مقبض النفس، وكان الرجلان — على خفة روحهما التى كانت كأنها خطرة نسيم حطر — طويل القامة جدّا، دسمى الخلقه، وأسودين سوادا يكادان يكونان زنجيين .

فلما وقعت عين (اسماعيل) عليهما أخذ يحيلهما في طولها وعرضهما ويرفعهما بها ويضعهما . فلما رأى الشيخ على الليثى منه ذلك، شرع يقلب كفا على كف .

فقال (اسماعيل) له : « ما بالك تفعل هذا ؟ » . قال : « أفكر في أمر أقوله إذا صفح عنه مولاي مقدما » . قال : « لقد صفحت ، قتل » . قال : « أراي أستغرب ما الذي أعجب به مولاي في مخنتين مثلنا أنا وزميلي هذا ! » . فضحك (اسماعيل) وسرى عنه .

وقد كان الشيخ على اللثي هذا — على ما به من خفة روح وعلى ما في شعره من الإبداع والرواء — على جانب متين مع الله . فمن أجل ما يحكى عنه أن رجلا يقال له محمود فوزي افندى (كان ناظرا لدار العلوم فآثره على مبارك باشا الى وظيفة أستاذ الكيمياء والطبيعة في إحدى المدارس الثانوية ، ثم ما زال به حتى رفته بتاتا ، مع أنه كان ابن زميل له في التلمذة بفرنسا) قصده وسأله أن يتوسط له لدى الباشا لكي يعيده الى منصبه ، لعدم تمكنه من استخدام علمه في الكيمياء والجغرافيا الطبيعية إلا في التدريس . فقال له الشيخ على اللثي : « أعفى ، يا ولدي ، من هذه المهمة ؛ فانها شاقة على نفسي . فعل مبارك باشا هذا رجل سيء الأخلاق وأخشى اذا أنا كاتبته في هذا الشأن أن لا ينالني منه إلا إراقة ماء وجهي ! » . ولكن محمود افندى تشدد في التماسه . فظاهر الشيخ على بأنه يروم قضاء حاجة فاستدعى خادمه وقال له : « ضع لي إبريق الماء في بيت الراحة » ، وكانت هذه جملة مصطلحا عليها بينه وبين خادمه ، يعني « احضري عريتي ! » ؛ ثم قلع جبته وخرج واضطر محمود افندى الى انتظاره حتى يعود .

ولكن الشيخ على ما بارح الحجرة إلا وارتدى جبة خلاف الجبة التي تركها فيها وسار توا الى على مبارك باشا في ديوانه ودخل عليه وبادره بالكلام هكذا : « أنت يا رجل أوقع في خلدك أن يبتى تكية لك ترسل اليها من ثناء ؟ » ، فدهش على باشا

وقال: «ما ذا تعنى يا شيخ على؟». قال: «أعنى أن كل من ترفعه أنت من موظفيك يأتى فيحل فى بيتى». وما محمود فوزى أفتدى خوجه الكيمياء والطبيعة فى المدارس الثانوية، الذى رفعه منذ أيام، أتانى بأمه وزوجه وأولاده وأخواته ونزل عندى، وأرانى مضطرا إلى الاتفاق عليه؛ أفتدى أن أولادى قليلون على قترهقنى بالاتفاق على كل هذه العائلة. قال على باشا: «ولكن محمود أفتدى هذا رجل شرس الأخلاق، قليل الآثاء، كثير المخالفة للأوامر!». فقال الشيخ على: «وأنا ما شانى حتى تتكبنى به وبأولاده؟ أنى سأرسله إليك من غد، فأعده إلى وظيفته وزد فى مرتبه!». قال على باشا: «وتريد أيضا أن أزيد فى مرتبه؟». قال: «نعم» ونخرج عائدا إلى منزله. فوجد محمود أفتدى هناك فى انتظاره، فما رآه هذا استوى على مقعده إلا وأعاد الكرة وكرر الاتمس. فقال له الشيخ على: «يا بنى إنى، بعد ما قتله لك عن أخلاق على مبارك باشا، أرى أن الأوفى أن تكتب له عرضا تسترحه فيه وتطلب إعادتك إلى وظيفتك!». ثم قلم له ورقة وقلما، وقال: «خذ واكتب!». وأملاه عرضا لطيفا وصرفه موصيا إياه بأن يذهب به إلى على مبارك باشا من صباح غد.

ففعل محمود أفتدى كما أمر. ولما أدخل العرض إلى على مبارك باشا أمر بكتابته لفل بين يديه. فقال له الباشا: «أأنت كاتب هذا المرض؟». قال: «نعم». قال: «وأنت من الذى عرفك بالشيخ على اللبى؟ حقيقة إنكم أناس لا تحمقشون!». ثم استدعى باشكاتب الديوان وأمره بأن يكتب إذا باعادة محمود أفتدى إلى وظيفته، وبزيادة جنيته على مرتبه الأصلى وصرفهما.

نفرج محمود أفتدى وهو لا يدرى أفى يقظة هو أم فى منام. ولما كان العصر وفريغ من عمله، ذهب إلى الشيخ على اللبى ليشكوه، وقال له: «حفظ الله مولاي

الأستاذ . فانه لم يعلمني البتة أنه قابل على مبارك باشا البارحة وأوصاه بي خيرا !  
فأجاب الشيخ على : « إني يا بني إنما أردت أن يكون اعتناك على الله ، لا على  
الشيخ على ، وقد خرجت أنت من عندي ولا اعتناك في قلبك إلا على الله . وها قد  
تحققت بنفسك أن من يعتمد على الله لا ينجب ! » <sup>(١)</sup>

وعائشة التيمورية ، ومعلماتها فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلابية ، فحسن بأناملهن  
العنايية باب أفق جديد أمام الأعيان المعاصرة لمن ، المهتجة بمعلمهن الشعري والنثري  
البديع .

وعبد الهادي نجح الابياري ، السابق ذكره ، صاحب كتاب "سعود المطالع"  
وكتاب "نفحة الأكرام في مثلثات الكلام" و"الوسائل الأدبية في الرسائل الأحدثية"  
و"الكواكب الدرية في نظم الضوابط العلمية" وكتاب "باب الفتح لمعرفة أحوال  
الروح" ، وغيرها .

والشيخ حسين المرصفي المصري ، صاحب "الكلم الثمان" و"الوسيلة الأدبية"  
في العلوم العربية "جملا لعلوم اللغة العربية بمصر مقام كالدنى ونعها اليه في سوريا  
الشيخ ناصيف اليازجي ، صاحب "تجميع البحرين" و"نصائح الخطاب" وأحمد فارس  
الشدياق ، صاحب "سر الليال في القلب والإبدال" و"غنية الطالب" .

وعبد الله أبو السعود ، صاحب جريدة "وادي النيل" ، وحسن حسنى باشا  
الطويراني ، وعلى مبارك باشا ، ورفاعة رافع بك ، ألدوا عصور ابن الأثير وابن خلدون

(١) قصر على نكته الشيخ على القى المستظرة وعلمه هذا الطيب حضرة صاحب الفضيلة والعلو والنيل  
الحبيب النقيب السيد محمد على البيلارى قبيب السادة الأكراف في القنطر المصري ومراتب إحياء  
الآداب العربية . وإني أختم فرقة ذكر اسمه الكريم هنا لاسدائه أجل موارات شكرى على مافضل  
به من العناية الفاهقة بطلع كتابى هذا . وسيله خالصا من كل شائبة تقفل من قيمته في اعتبار القراء .

والمقرزى بما كتبه من المؤلفات التاريخية والجغرافية المفيدة . فأبو السعود، وضع كتاب "الدرس التام في التاريخ العام" وكتاب "منحة أهل العصر بمقتضى تاريخ مصر" ؛ وحسن حسنى الطويرانى، وضع كتابا في العربية والتركية في تاريخ الدولة العثمانية ، تعدت بالعشرات ؛ وعلى مبارك باشا، ألف كتاب "الخطط التوفيقية" في عشرين جزءا ، تحدى فيه أسلوب المقرزى في "خططه" ؛ ورفاعة رافع بك ، من رجال عهد الأسرة العلوية لغاية (إسماعيل) ، وضع في التاريخ سفرا جليلا ، دناه "أنوار التوفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل" حال المنون بينه وبين إتمامه ، فلم يطبع منه سوى الجزء الأول . وذلك فوق ما كتب من الأسفار الهامة في غير عهد (إسماعيل) .

ومحمد عlish المغربي ، صاحب "فتح العلى المالك" ، في الفتوى على مذهب الامام مالك" ؛ وقدرى باشا ، صاحب "مرشد الحيران الى معرفة أحوال الانسان" وغيره ؛ ومحمد العباسى المهدي ، صاحب "الفتاوى المهدية" ، أعادوا الى الشرع والقضاء ، شيئا من سنا الأنوار التى أشرقت عليهما ، على أيدى أبى حنيفة النعمان وأبى يوسف والامام مالك وغيرهم .

وجمال الدين الأفغانى — ولو أنه غير مصرى ، وأنه لم يخلف كتابا تستحق الذكر — قد أحيا بمقامه بمصر مئة في زمن (إسماعيل) روحا في نفوس المسلمين من أهالى البلاد، كان لتحرركتها، ومساعدتها، وجهودها التالية شأن خطير، اصططب به الريع الاخير من القرن التاسع عشر، اصطبافا أزعج الكثيرين من أرباب السياسة .

وأما مظهر النهضة الاجتماعى ، فتجلى في الجمعيات على أنواعها التى قامت في ظل (إسماعيل) أو في عهده ، تفتتح للهم سبل أعمال جديدة ، من خيرية ، وعلمية ، وخطابية ، وأدبية ، وسياسية .

مظهر النهضة  
الاجتماعى



فالجمعية الخيرية الاسلامية، وقد سبق الكلام عنها ؛ وجمعية المقاصد الخيرية ، وقد تأسست في سنة ١٨٧٨ ، تحت رعاية سلطان باشا ، وعضوية مقبل باشا ، وكثيرين من أعيان مصر ، نزعتا الى أعمال البر والتعليم . ففتحتا المدارس ، وأمدتا عثة أسرفية .

ومجلس المعارف المصرى — وهو "الانستيتوت" أو المعهد العلمى المصرى ، الذى أنشأه يونابرت ، حين قدم بجلته الى مصر ، بحث من رسمه في سنة ١٨٥٩ ، على يد جماعة من رجال العلم الغربيين — قام بنشر المندنية والعلم بمصر ، وتوالى على رياسته نخبة من العلماء ، في جملتهم مارييت باشا ، ودشامبور ، وكولونى ، وغيرهم .

وجمعية المعارف — وقد تأسست في سنة ١٨٦٨ بمساعى محمد عارف باشا ، أحد أعضاء مجلس الأحكام لنشر الكتب النافعة ، وبرزت في شكل شركة مساهمة ، ثمن المهم فيها خمسة جنيهات ، فليقت إقبالا كثيرا حتى بلغ عدد المساهمين أو الأعضاء بضع مئات ، مزيتهم الوحيدة الحق في اقتناء مطبوعات الجمعية بثن أقل مما تعطى به لسواهم — شرعت تطبع الكتب الهامة في التاريخ واللغة والأدب والفقه ، منها : "أسد الغابة" لابن الأثير و"ألف باء" و"الفتح الوهبي" و"تاج العروس" وغيرها . وما زالت قائمة حتى حدث التنازع السياسى الذى سياتى بيانه في حينه ، بين (اسماعيل) وحليم باشا ، على مبدأ الوراثة ؛ وكان محمد عارف باشا من مروجى آراء حليم . فلم تعد تطيب له الإقامة بمصر ، ورأى أن سكناه الأستانة أوفق للصلة التى قام يدافع عنها . فذهب الى القسطنطينية ، وتوفى فيها . وانحلت الجمعية . وكان عارف باشا هذا من أهل الأدب ، له مؤلفات في التركية ، ويحسن اللغة العربية ، ويروون من نظمته يتين يفصح بهما ، ويدلان على عقليته ، وهما :

ألم تعلم بأن سماء فكرى \* تلوح بأفقها شمس المعارف ؟

نحترس والدى فى المزاي \* فيوم ولدت ، لقبى بمارف !

وجمعية رواق الشوام بالأزهر ، وقد أنشأها طلبة الأزهر السوريون سنة ١٨٧٣ ، أخذت ، كلما حزم طالب سورى على الرجوع الى الشام نهائيا ، تحدد ليلة للاجتماع ، تعانها الى أهل الرواق . فيعد الشعراء قصائد الوداع ، ويتلون ليلة السفر بمحضر من علماء الأزهر وأدبائه . وكانوا يتدنون القصيدة بالفضل ، ثم يتخلصون الى المديح والوداع . ويتبارون ويتنافسون فيها أيمًا تنافس . ولم يكن الشعراء من السوريين فقط ، بل كل من أراد أن ينظم قصيدة ، أيا كان ، تقبل منه ، ويؤذن له بتلاوتها<sup>(١)</sup> .

وجمعية الآداب ، وأنشئت بمصر سنة ١٨٧١ ، وتولى رئاستها الشيخ محمد الخشاب الفلكى ، والجمعية العلمية الشرقية ، وقد سبق ذكرها ، قامتا مشتهريين باسمى علم ، ترويان الى أغراض سياسية فى طى الخفاء .

وأما جمعية "مصر الفتاة" فقد كانت سياسية . جوهرها ومظهرها ، وذكرنا أن من أعضائها جمال الدين الأفغانى ، وأديب اصقى ، وسليم النقاش ، وعبد الله نديم ، وقولوا يوما ، وضيهم من أرباب الأعلام فى ذلك المهد . وذلك لصدر جريدة سميت "مصر الفتاة" باسم الجمعية عينها ، ديج أعمدتها بالعربية والفرنساوية معا أعلام أولئك المفكرين ، على أن بعض التفات أكدوا لجورجى زيدان بك ، أن هذه الجمعية كانت اسما بلا معنى ، وأن أصحاب جريدة "مصر الفتاة" أرادوا إيهام أولى الأمر بوجود جمعية سرية يخشى أسماها ، فيعتدلون .

(١) كلام المرحوم خفى تامف بك .

غير أن أهم ما تجلّى فيه مظهر النهضة الاجتماعية ، هو مجموع التغييرات الأساسية التي أدخلها عصر (اسماعيل) على الحياة الاجتماعية المصرية . فجعلت بقاها على وجودها القديم أمرا في متبى التعمد . وسيرتها باستمرار نحو بيئات جديدة ، وعقلية حديثة ، وهو ما توخينا في الفصل التالى .

على أننا ، قبل الخوض فى هذا الموضوع ، نرانا مضطرين أن نلفت نظر القارئ الى أننا لا نقصد ، من قولنا هذا ، الحكم بصلاحيّة تلك التغييرات الأساسية ، واستنكار ما كانت عليه البلاد من جمود قديم ؛ أو الحكم بالعكس : لأن ذلك ، فى كلا الأمرين ، يستدعى بحثا ليس له هنا من موضع . وإنما نقصد اثبات واقع ، ترك فى تاريخ القطر أثرا عميقا ، ندع الحكم فى صلاحيته من صلها الى ذكاء القارئ وتحقيقات الأيام .

## الفصل السادس<sup>(١)</sup>

### التغيرات التي أدخلت على الحياة الاجتماعية المصرية فأوجبت تطورها المستمر

”إنما تمحل الشعوب على تغيير نظامها المسمى، وعاداتها، وطرق معيشتها، بتغيير حال مساكنها، وتجديد صميم بيوتها وتجديداً كلياً“  
«كاتب مصرى»

(فاسماعيل) وإن لم يغير حال المساكن ، ولم يمتد صميم البيوت ، بمعنى هذين التعبيرين الخرفى — لأن ذلك كان يقتضى هدم المساكن والبيوت — لقد أقام طوال مدة حكمه عاملاً على تغيير عقلية رمايه : فكرياً ، وإدارياً ، وقضائياً ، ومزلياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، مع إقدامه على تغيير بيئة المساكن والبيوت ، بما جدد من الشوارع القائمة تلك المساكن والبيوت عليها ، وما أُنشأ من شوارع جديدة مشجرة وعمارات جديدة نفحة على الطراز الغربى بجانب الشوارع والسكك والمباني القديمة ، أو على مقربة منها ، كما سبق لنا بيانه ، وإقدامه ، فى الآن عينه ، على تعديل صميم المساكن والبيوت بما أدخله الى عقروها من تعليم ، وتهذيب ، وأفكار ، وطرق معيشة جديدة .

(١) أهم مصادر هذا الفصل : ”حكاية ماسة“ لآسنة واتل ، و”ياديسى فى القاهرة“ لكارل دى برير ، و”مصر فى عهد اسماعيل“ لمالك كوك ، و”الفلاح“ لأبرو ، و”خديويون وهاشوات“ لموريل بل ، و”مصر الخديوى“ لادون دى ليون ، و”رسائل من مصر“ لبلدى جورودون دى ، و”لإلى القاهرة“ لبيديه .

بجهود (اسماعيل)  
لتغيير القوى  
التفكيرية وبجاري  
التقدير المتبادل  
بين الغربيين  
والمصريين

أما فكرا، فان (اسماعيل)، برغ مستوى عقلية أمته، بواسطة المدارس التي أنشأها، والتعليم المنتوع الذي مذ موائمه الفاتحة فيها، وبإقدامه على عموم الأعمال التي سبق لنا بيانها في الفصول الخمسة السابقة، والتي كان اذا نظر اليها يقول بحق: «إن بلادى لم تعد افريقية، ولكنها أصبحت بقعة من أوروبا»؛ بل بإقدامه على الاعتناء الفائق بضيوفه الأجانب، اجتهد في أن يطلع المماوية التي حفرتها الأيام بين المسابيين وضيهم، بما غير من فكر الغربيين في بلاده وقومه، وبما غير من أفكار قومه في الغربيين؛ فجعل بذلك الغربيين على احترام المصريين وتقديرهم المصرى قدره، وتجنب إبذاته لما هو عليه من حضارة وعلم، وحمل المصريين على احترام الغربيين لما يذكرونه فيهم من علم وفضل، ولما يرونه من أمير البلاد، من بذل الحفاوة والاكرام لهم.

ولعلمه أن أحكام الناس على الناس تتكون بالسماع والمطالعة، أكثر منها بالامتحان والاختبار الشخصى لم يأل جهدا في حمل كتاب الغرب على مدح التطور المنتوع، الملائم لروح العصر، السائر بمصر في أيامه، بإستمرار وسرعة، نحو العقيلة الغربية، والحضارة الأوروبية. ولم يكن يستنكف بذل المال في هذا السبيل، بسخاء ملكى، ذهب يعمض المؤلفين الى المغالاة، وتقدير ما أعطاه لبراءة والكتاب، بليف وخمسة ملايين من الجنيهات.

ثم إنه، من جهة ثالثة، بما بذله من مساع في سبيل تهديد الامتيازات الأجنبية، ووضع حد لتعمديات الأوباش والزعاف من الجاليات الغربية، لاسيما اليونانيين مما سيأتى بيانه في حينه، اجتهد في إزالة حاجز آخر من الحواجز العديدة الكبرى القائمة دون تعديل العلائق بين رعاياه والأجانب، لاختلاف شكل العقيلة بينهم.

ولا شك في أن النجاح، إن لم يكن كله، بجله، كل في نهاية الأمر جهوده هذه،  
وإن لم يظهر ذلك جليا في أيامه، فالأسباب لعدم ظهوره خمسة رئيسية :

(الأول) وقوف "الشراقة"، وهم الذين يدعومهم الفرنج "ليفنتيين" — ومعظمهم  
يهود — أمام المصريين في زى الغربيين، وادعائهم أنهم غربيون. فقد كانوا يتمنون  
الى الجلوسيات التي توافق هواهم، ولم يكونوا من الانتساب إليها في شيء. كل  
ما هنالك أن أمراتهم — وقد أثرت من الرأيا — كانت قد أرسلتهم الى أوروبا،  
ليقتبسوا شيئا من معارفها وحضارتها. فلم يقتبسوا إلا « غندرة المتفندين »، وهم  
يظنونها منتهى المدنية والرقى، وعادوا، فوجدوا ما عليه ذوهم من احتكار المالية  
المصرية والرأيا، فساروا على خطواتهم، وجمعوا من دم الفلاح المصري القناطير  
المنتظرة من الأموال، وقالوا، بواسطة أومن وراء خدمتهم أهواء المواهل، ألقاب  
النبيل والشرف. فاحتقدوا أنهم عظاميون وعصاميون، بينما هم في منتهى الضعة أمام  
الأقوياء، ويتلبسون من طريق التذلل والمسكنة والتعلق الوصول الى إفراغ جيوب  
أصحاب النقود في جيوبهم — هم — ولو بفتح عملات للتجارة أو ليجود الخلاعة،  
كانوا مملوئين بحرفة وخيلاء أمام الأهالي، لاسيما بعد أن تكون لهم في صناديقهم  
الثروات الفاحشة، فلا يسيرون الى أحياء أولاد العرب أو القرى إلا والكراباج  
في أيديهم، يرفعونه على الفلاح واليومي، لأقل سبب، ويستعملونه بقسوة من بلغ  
الثروة من ذلك، أى من لا قلب له. والمصريون، وقد غشهم زيمهم، وخدحتهم  
برائيتهم ووطأتهم، يعتقدون أنهم غربيون، ويمحطون الى الغربيين تيار الكره  
والاحتقار المطار في قلوبهم من أولئك الليفنتيين<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: "باريس باقاهرة" لكامل دى هيدو، ص ٨٩.

و (الثاني) هو أن التجار الغربيين أنفسهم — إلا في بعض استثناءات نادرة وشريفة — كانوا في الحقيقة ، حسب تعريف جليون دجلار ، حثالة أمهم وثقاتها ، وأبعد الناس افتكارا عن إيجاد مثلة لأنفسهم كريمة في قلوب المصريين . فهم لم يقدموا إلى القطر إلا لفرض الإثراء السريع ، سواء أكان ذلك من سبيل ما يجذ أم من سبيل ما يستكر . ولو خيروا بين السبيلين لفضلوا الثاني . وأتأس هذه صفتهم لم يكن من شأنهم طبعاً أن يجولوا فكر المسلمين في الغربيين ، ويحللوه على تحسين علاقاتهم بهم .

و (الثالث) هو أن المصريين ، منذ ارتقى (اسماعيل) سدة البلاد ، ماقتوا يرون عرشه محاطاً بميش حرمرم من الجراد الزاحف إليه ، من كل أنحاء أوروبا ، لامتناس الثروة المموية . فكانوا يضعون في إحدى كفتي الميزان اندفاع أميرهم في سبيل تكريم الغربيين ، وإدناهم من نفسه ، ووضع يده في أيديهم ، بكل إخلاص ليستعين بهم على بلوغ أغراضه السامية ؛ ويضعون في الكفة الأخرى عدم اهتمام ذلك الجراد بما سوى امتصاص موارد الخزينة المصرية ، وعدم مبالاة بشئ إلا يجعل كل خطوة من خطوات الأمير ، في طريقه إلى العلاء ، نهي قنطاراً من الذهب يتحول إلى فاه الشره . ثم يزنون الكفتين ، فيرون من أنفسهم امتصاصاً من الغربيين ، على الإطلاق ، وإحجاماً عن التعدية إلى جهم واحترامهم .

و (الرابع) هو أن المصريين أنفسهم — وكانوا قد رأوا تهافت "الشرافوة" والتجار الغربيين على مدح (اسماعيل) ، والترنم بالثناء عليه ، أثناء الليل وأطراف النهار ، وتعظيم أعماله ونياته ، وتحجيلها بكل لسان ، وفي كل مكان ، وحمل صفحات الجرائد المتنوعة ، طوال ما كانوا يرجون منه رجاء ، لا سيما غير مشروع ، وطوال ما تمكنوا

من امتصاص ثروته ، وثروة البلاد . بالكثافة والنضام — رأوم ، أول ما أناخت الصعوبات المالية بكلكتها على البلاد ، يلبون لذلك الأمير ظهير المخن ، ويتناولون على مقامه السامى ، ويشتمونه ويمرغون اسمه فى الأوحال ، لا لسبب ، إلا لأنه أراد التوقف على شفا الجرف الفظيع الذى جرّوه إليه ، ورغب فى منع شئ من فريستهم عن أفواههم المغفورة .

و (الخامس) وهو الأهم ، هو أن المصريين أيضا — وقد ذكروا ما كان من أميرهم فى بسط بساط الهناء لعواهل الغرب وكبرائه ، وفى جمع أنواع السرور والملاذات حول سياحتهم فى قطره ؛ وذكروا أن جانباً عظيماً من ثروته وثروة بلاده أنفق فى إقامة معالم الأفراح لقدومهم ، ونشر موائد الاحتفالات بأقامتهم فى قصوره ، وتشققاتهم بين متجهاته وجناته ؛ فاحتلدوا ، دحرا ، أن أولئك العواهل والكبراء باتوا من أعظم المخلصين له ، ومن أميل الناس الى تعظيمه فى مشروعاته ، وشذ أزره فى مهماته ، وأقربهم الى الأخذ بيده فى ساعات شدته والدفاع عن مصالحه فى أوقات حرجه — رأوا أولئك العواهل والكبراء أنفسهم — لأن الشرقيين لا يعرفون الدول وإنما يعرفون ملوكها — يتكالبون عليه فى حسره ؛ ويتألبون عليه فى ضيقه . وبينما هم لا يحرّكون ساكناً للدفاع عن رؤوس أموال دائنى دول أخرى كتركيا وجواتيمالا ونيكاراجوا وغيرها — مع إبقاء أصحاب تلك الأموال من ضياعها — يلبون صفحة السماء على بطن الأرض فى سبيل الدفاع عن دانيه ، هو ، مع علمهم أنهم استوفوا فوائد ما أقرضوه إياه ، وأصله ؛ وأنه ، هو وفلاحه ، باتوا أحق بأن يدافع عنهم من أولئك المرايين الشرهين ؛ وسيطلع قرائنا على تفاصيل ذلك جميعه فى سياق كلامنا التالى .



على أن هذه الأسباب الخمسة الرئيسية ، وإن قامت دون ميل قلوب المصريين الى الغربيين ، وأوجبت تقور شعورهم منهم ، لم تحمل دون تطور العقلية المصرية في وجهة النظر الى أفاضل الغربيين ، نظرة الاكبار والاجلال ، وعدم تقيص ثمن من الاحترام الواجب لهم ، لداعي كونهم غير مسلمين ؛ وأخذهم عنهم ما هم في حاجة اليه من المعارف النافعة لهم في حياتهم برغبة صادقة وهمة عرفت قيمة الحياة الجديدة .

فنعن مدينون (ل اسماعيل) بهذا التطور ، مدينون له بممكننا من السير في مضمار الحياة المدنية حسب مقتضيات الظروف ، ولا قيود على أيدنا وأرجلنا ، ولا حاجة بنا الى استئذان علماء الدين في ذلك ، كما كان أولا .

ان ( اسماعيل) لما أقدم على تحقيق الشطر الأول من الخطة التي رسمها لنفسه ، ووجد أنه ملاق حتما في تنفيذها عقبات جمة عند كل خطوة يريد أن يخطوها ، ضرب بذلك جميعه عرض الحائط ، إلا ما كان منها متعلقا بالدين أو الشرع ووطن نفسه على السير في طريقه ، مطلق الذراعين ، حر الحركات غير متقيد بما فطرت عليه الأمم من التمسك بعادتها ، وتقاليدها ، وآدابها المتوارثة كيفما كانت : فغير شكل طاعيمه ، وألبسهما لباسا غربيا ؛ وأدخل اليهما الملاهي الأوروبية ، كالأوبرا ، والتمثيل ، والمراقص ؛ وشيد المدارس على النظام الغربي ؛ وأنشأ معاهد تربية وتعليم للبنات ؛ وأجرع قهواء الكنائس على ترقية مداركهم ومعلوماتهم ؛ وأدخل على العلوم الأزهرية عنها ، وعلى طرق تعيين الأساتذة في ذلك المعهد العظيم ، تحسينات وتعديلات هامة ؛ ومنع الأراضي والمنازل للدارس الأجنبية بل لذات الارشاليات المسيحية ؛ ونفحها بيدر من المال ؛ وغير نظام الوراثة ؛ ومنع شعيه حكومة نيابية ؛

وما هو أكثر من ذلك جميعه ، فقد القروض بقوائد ، لتنفيذ أعمال الحضارة والعمران التي استوجبها تحقيق ذلك الشطر من خطته وأقام التماثيل ، دون أن يقع في خلده مرة أن يقيد بقيد أو أن يستقنى في أى شئ مما عمله .

وربما شجعه على استمراره في الانطلاق من القيود ، التي تقيد بها جده نفسه ، أنه ، في المرة التي طلب فيها رأى أرباب الدين — أى قبيل تماقده مع دولة الانجيز على منع تجارة الرقيق منها باتا ، وجد منهم تمتنا وجمودا أثارا غضبه في صميم يكانه . فشيخ الاسلام ومفتي الديار طارضا في ذلك ، زاعمين أنه مخالف للأصول الدينية ، وانضمت اليهما في المعارضة هيئة العلماء بأسرها . فعزل (اسماعيل) الشيخين ، وألنذر بالغاء عموم هيئة العلماء ، اذا استمروا على معارضتهم .

ولم يبال (اسماعيل) بهم ووقع تلك المعاهدة . وقوى عزيمته على إلغاء الرق بطريقه المعروف في زمنه أن الدين الاسلامى شديد الرغبة في منع الاسترقاق متشوف دائما الى الحرية واطلاق الأخرس من قيود العبودية .

فلما رأى الناس منه ذلك — والناس دلى دين ملوكهم — أخذوا ، رويدا رويدا ، يغيرون أفكارهم الأولى ، ويفقهون معنى الجهاد في هذه الحياة الدنيا .

ومع أنه كان يخالف العلماء فيما يراه مصلحة ، كان يثار على دينه أن يلصق به ما ليس منه من البدع فيجتهد في محوها . من تلك البدع : "الدوسة" و"الأذكار" و"السحر" و"التنجيم" .

أما الأذكار ، فأمرها معروف ، لأنها لا تزال معاصرة لنا ، ولم تجرد مجهودات عهد (اسماعيل) في إبطالها ، أو على الأقل حصرها في دائرتها العبادية المعقولة ، شيئا .

وأما "الدوسة"، فقد كانت حفلة همام في آخر أيام المولد النبوي، حينما كانت همام أعلام هذا المولد، أى في الأزبكية، أولا، لما كانت على حالها القديمة؛ ثم بعد ما أدخل الإصلاح والعمار عليها، في جهة القصر العالى .

فكانت جماهير الدراويش والأخذين على المشايخ يهودا— بعد إقلامهم على إقامة الأذكار، حتى يتورهم الخور— يأتون إلى متسع من الأرض متروك أمام صواوين المولد وخيامه، ويستلقون مرصوبين، كأنهم المجارة، الواحد بجانب الآخر؛ ثم يأتى الشيخ الحضري، شيخ السعدية، وقد تجملت عليه البلالة فأسكرته؛ ووضع على رأسه عمامة واسعة ثقيلة؛ وركب جوادا مطهما، أخذ يترنج على ظهره، ذات العين وذات الشمال، وحركت رأسه، صوب الجهتين، تفترن بذلك الترنج؛ وأقام اثنان من أصحاب المهود على جانبيه، يستندان، لئلا يزداد خور قواه من ذلك الترنج، فيقع على الأرض؛ ويسير بجواده، وهو على تلك الكيفية، فوق صفوف الدراويش المنظرحين أرضا، وقد فرغ المنوط به أمر ملاحظتهم من تصبيرهم تماما إلى حال الشارع المرصوف، الذى لا يبرز فيه حجر من المستوى العام . فيدوسهم بلا مبالاة، تطلق أعضاء من تطلق أعضاء، وتقطع عظام من تقطع عظامه، ويتهم من يتهم : لا يصاب بأذى إلا من قل لإيمانه، أو هزلت كفة آثامه<sup>(١)</sup> على ما هو في اعتقادهم الذى ورثوه عن الجاهلين .

غير أن هذه الحفلة الفظيعة لم تكن تمام إلا في العاصمة؛ وأما في الأرياف، فكانت مجهولة، لا يسمع الفلاحون بذات اسمها .

(١) أنظر : كلام بئر عن الدوسة في كتابه المختون "حياة البلاط بمصر"، الفصل السادس، والفصل الحادى عشر، والفصل الثانى عشر على الأخص، وأنظر : بيل سنت جون في كتابه المختون "الحياة القروية بمصر" ص ١٤٦ وما يليها ج ١

فبذل (اسماعيل) مافى وسعه لإبطال بدعة الدوسة الشنيعة؛ وكثيرا ماحدث زائريه من الغربيين عن رغبته فى إبطالها؛ ولكنها كانت متأصلة فى العادات، فأصلا عميقا، كادت تكون معه جزءا من العقائد. فلم يتمكن من تحقيق رغبته فى إبطالها للمعارضة مشايخ الطرق فى ذلك، وما فئى يظهر لرعاياه اشترازه من الدوسة، واستنكاره إياها، إما بالامتناع غالبا عن حضور حفلتها، وإما بالتأفف منها جهارا حين حضوره إياها. على أن مجهوداته فى هذا السبيل إن لم تنمّر فى عهده الثمرة التى كان يروم قطعها، فقد كيفت عقلية قومه وعلتها، تكييفا وتعديلا مكثا من انضاج تلك الثمرة فى عهد خلفه، وجعل إلقاء بدعة الدوسة، الشائنة للإسلام، أمرا مهسورا.

أما "السحر والتنجيم"، فقد كانا رائجين بمصر رواجاً حمل (عباس الأول) نفسه على إصدار أمره بأن ينهى من العاصمة إلى أقاصى الصعيد السحرة والمنجمين، وقد كانوا انشروا فى جميع أحيائها وشوارعها وحاراتها، جلوسا أمام رملهم المسوط.

وكثيرا ما كان اعتقاد الناس بالتنجيم والمنجمين يؤدى بهم إلى تمكين أولئك النصايين من قودهم، إما احتيالا — وهو ما كان الغالب — وإما بطرق جنائية خفية، كما كان يفعل، ماين عابدين والسيدة زيب، ذلك المنجم الشرير، الذى أغوى أكثر من مائة سيدة على أن يأتين إليه بملاهن كلها لضرورة وجودها معهن أثناء عمليات التنجيم، وتعلن واحدة واحدة، ليستولى على تلك الجواهر<sup>(١)</sup>.

فكان يقسم على (اسماعيل)، فى سعيه إلى تغيير عقلية قومه، أن يبحث جذور اعتقادهم بالسحرة والمنجمين، ولكن هل كان ذلك فى الامكان، واعتقاد القوم فيهم يرجع إلى زمان بعيد جدًا.

(١) أنظر: "حياة البلاط بمصر" لبتز، ص ٢١٧

ان ذلك لم يكن ممكناً إلا بنشر أنوار العلم الصحيح، وتعميمها بين طبقات الأمة كافة؛ وهو ما بذل (اسماعيل) جهده في سبيله، كما سبق لنا بيانه . ولا شك في أنه صدم قواعد ذلك الاعتقاد، صدمة زعزعت بنيانها، وجعلتها أضعف من أن تستطيع مقاومة تيار التنوير السائر نحو العقول باستمرار، في مجرى التعليم الموجه اليها. على أن العقبات القائمة دون تحقيق الرغائب لم تكن متولدة عن موروثات الماضي فقط، بل إن بعضها كان ناجماً عن شبهات حاضرة؛ ومعززة بضعف في دروع القائمين بحركة الإصلاح أنفسهم .

فمن الشبهات الماثلة بالعقول إلى الاعتقاد بصديق التنجيم والمنجمين، ما صدر عن منجم تركي وفد إلى القطر ومعه خاتم كان نصه الأحمر يتقلب إلى لون أبيض أثناء الاختبارات؛ فيرى طالبو هذه ظل ما يسألون عنه كأنهم يرونه في مرآة مياه صافية . وقد قام ذلك التركي بتجربة تحول حمار ذلك الفص إلى بياض في سراي الاسماعيلية حينها أمام الأمير محمد توفيق باشا ولى العهد <sup>(١)</sup> .

ومنها ما صدر عن منجم آخر أنبأ ولى العهد هذا نفسه، بمحضرة وزير الحرية، بما سيصيب الجيش المصري من انكسار في حملته على الحبشة، أيام كان ذلك الجيش يستعد للسير إلى عماربته <sup>(٢)</sup> .

نعم ان ميل عقل الأمير محمد توفيق نحو التصديق بمثل هذه الأمور كان مشهوراً، وحاملاً على إضعاف الثقة بكل ما يروى عن التجارب الممولة من أى منجم أمامه.

(١) أنظر: "حياة البلاط بمصر" لبطر، ص ٢٣٨ وما يليها .

(٢) أنظر الكتاب فيه ص ٢٤٠

ولكنه يجب أن لا يفسب عن الأذهان أن ميل معظم العقول، في ذلك العهد، كان كليل عقل ولى العهد، وأن تناقل الألسنة الأنباء عن إبحار التجارب والاختبارات أمامه، واعتقاده بصحتها، كان من شأنه أن يوطد دعائم التصديق بالنجم والمنجمين في ألباب العامة.

ومن أدهش مظاهر الضعف في درع (اسماعيل) عينه — وهو العامل على تقويم عقلية رعياه — الشعور الغريب الذى كان، من جهة، يحمله على كره الإقامة بالاسكندرية، لأن معجبا أنباءه في حديثه أنه يموت فيها — ونحن نعلم الآن أنه أنباء بكذب! — وكان، من جهة أخرى، يحمله على الالهام عن أى عمل ذى بال في يوم الخميس.

ويحكى، للدلالة على ذلك، أنه كان مرة عائدا من الأستانة الى مصر، على ظهر المحروسة. فقيل له إن الوصول الى الاسكندرية يكون يوم الخميس. فأصدر أمره الى رجال الآلات بالوصول يوم الأربعاء. فأجابوا: « هذا محال ». فاستدعى (اسماعيل) الميكانيكى الانجليزى، وقال له: «أريد، حتما، أن نصل الى الاسكندرية يوم الأربعاء». فأجابه: «هذا لا يمكن يا مولاي!». فقال (اسماعيل): «يجب!». قال الميكانيكى: «إني اذا حاولت ذلك قد أنسف المركب!». فقال (اسماعيل): «اذا وصلت بنا يوم الأربعاء جعلتك بيكا. وإن لم تصل طردتك من خدمتى!». فأوشك الميكانيكى أن يهرق المراحل، ولكنه وصل يوم الأربعاء، وكان، بعد ذلك، يقول: «لم أدن، في حياتى، من الموت، بقدر ما دنوت منه في ذلك الظرف<sup>(١)</sup>».

(١) أنظر: "جيه. بيرون وباشارات" لمورلى بل ص ١٩ و ٢٠.

ولكن هذا الضعف في (اسماعيل) لم يمنعه من مقاومة تيار السحر والتنجيم في أمته ، لعلبه بمقدار ضررها عليها ، ولعلبه بأنه اذا مع أن يقال لمربي الأخلاق من الأفراد :

لاتنه عن خلق وثأى مثله \* عار عليك اذا فعلت عظيم

فهذا قول لا يصح ، إذا وجه للصالحين من قادة الأمم ، أنت يقعد بهم عن

الاصلاح !

تغيير العقول  
برأسه الاصلاح  
اداريا وقضائيا

وأما اداريا وقضائيا ، فقد عمل (اسماعيل) على تغيير عقلية رعاياه ، بأقدامه ، من جهة ، على إنشاء شرطة مختلطة منظمة في البلاد ، وتزعمه ، من جهة أخرى ، السلطة القضائية من أيدي رجال الإدارة ، لحصرها في هيئات قضائية خاصة .

أما الشرطة ، فقد كانت ، حتى أوائل حكمه ، محصورة فيمن كانوا يدعونهم "القواصة" وواحد منهم "قواص" . وكانوا ، في الغالب ، رجالا من جهلاء الأتراك أو مرذلة الأرمن ، لا يدرون من أمور الضبط والربط سوى مصادرة الأفراد ، والاعتداء عليهم بالضرب والاهانة ، ومهاجمة البيوت وأرتكاب المنكر ، اذا ما كفوا بضبط واقعة ، وسوى المطالبة بالقبض والرشوة ، إذا ما سلم الى عهدهم بمطاه . فاذا ما كفوا بالمساعدة في نكبة كحريق أو خلافه ، اختتموها فرصة للنهب والسلب ، كالقواص الذي استدعى لاطفاء حريق ، فدخل المنزل المشتعلة فيه النيران وضبط وهو ينيل قيمته المربع من أحد قصبان صاحب البيت الفاخرة . فلما سئل عن السبب الذي حمله على ذلك أجلب : « ألم يكن ذاهبا طعمة للحريق ؟ أفألام إذا استخلصته لتقمي ؟ » <sup>(١)</sup>

(١) أنظر : "مصر الأخيرة" لبيك ص ٢٨٤

وكان قد بلغ من سوء سمعة أولئك القواصة أن الناس ، لا سيما الفلاحين ، باتوا يخشونهم ، أو مجرد ذكر اسمهم ، أولادهم ، فيقولون لهم حيناً يريدونهم أن يكفوا عن عمل غير مستحسن : « الجندى جاء » ، كأنهم يقولون لهم : « جاء البعج ا » .

على أن هؤلاء القواصة كانوا يجنبون أمام القريج ، ولا يحسرون على مطاردة مجرميهم ، لا سيما بعد تهادى القناصل في الاساءة الى الأمن العام ، بمذلل الامتيازات فوق أولئك المحرمين ، لحماية من طائلة الشرائع . لذلك اضطروا أولئك القناصل الى اتخاذ قواصة لأنفسهم ، يستخدمونها في شؤونهم الادارية والقضائية مع رعايا حكوماتهم ، بالرغم من علمهم بأنهم كلما يصلحون لأن يشمد عليهم في مهم أو ملم ، لشدة حبهم للبقيش ، وميلهم الى الرشوة .

فقد كان يحكى عن قواص من قواصة أحد قناصل فرنسا في القطر ، أنه قاد ذات يوم الى عين القنصلية فرنسا ويا حكم عليه بالحبس ، وبعد أن أدخله فيه ، مديده اليه ، وطالبه ببقيش على الخدمة التي أداها له ، بمراقبته إياه الى ذلك السجن <sup>(١)</sup> .

فنشأ من ذلك وجود نظام ضبط في البلاد ، بجانب أنظمتها الادارية المتعددة ، كان من شأنها الذهاب بالمرّة بهيئة الشرطة ، وجلب ويلات على القطر لا توصف .

فعهد (اسماعيل) الى الايطالى تمسكلى صوليرا ، بإنشاء هيئة ضبط مختلفة ، يركن اليها في عمل المحاضر ، وكلفه بتنظيمها بحيث تغنى البلاد عن القواصة كلهم ، سواء أكانوا قواصة الحكومة أم قواصة القناصل — وهو يرى ، بإيجادها ، علاوة على رغبته في توطيد الأمن ، الى نزع عقبة من العقبات العديدة المعترضة سبيل قضائه على الامتيازات .

(١) أنظر : « بارينى بالقاهرة » لكارل دي برور ، ص ١٠١ و ١٠٢ .



فقام ذلك الإيطالى بالمهمة التى كلف بها ، وأنشأ الشرطة المختلطة المطلوبة في العاصمة والتفوز والبنادر ، من خيرة رجال هيئة الضبط القديمة ، ومن رجال خيبرين بالعمل ، مدثرين عليه ، أتى بهم من أوروبا ، لا سيما من إيطاليا — وهذا هو السبب فيما نجهده ، في ذات أيامنا هذه ، من كثرة عدد الإيطاليين في رجال پوليسنا ، لا سيما بالعاصمتين ، ويورسعيد ، والسويس .

فبرزت هذه الهيئة الجديدة أمام أعين المصريين في مظهر الساهر ، حقيقة على الراحة والطمانينة العامين ، الكالئ الأمن العام ، حقيقة بعين لا تنام .

استبداد الإدارة  
في الماضي

وقد كانت كبار رجال الإدارة — كالمدبرين في الأقاليم ، والضباط في العاصمة والاسكندرية — يحملون عصا الإدارة بيد ، وسيف القضاء بالآخرى . فكانوا في وقت واحد رجال الحفظ ، ورجال الحكم ، ورجال التنفيذ ، فيؤدى بهم ذلك الى الاستبداد والتجاوز ، حتى اذا كانوا غير مجبولين على شئ منهما ، فكيف بهم وهم مجبولون على الظلم ، مولعون بالشر .

والظلم من شيم النفوس فان نجد \* ذا حفة فلعلة لا يظلم

حكاية مدير  
المنشأة وقريب  
أحد محاسب  
(عباس الأول)

فيحكى عن عبدالرحمن بك مدير المنشأة في أيام (محمد على) الأخيرة أنه صادر رجلا من المنصورة كان له في عاصمة الديار قريب يملئ محبوبة الى (عباس باشا الأول) — وكان ، في تلك الأيام ، وإلى القاهرة — واغتصب منه أملاكه . فذهب الرجل الى قريبه ، واشتكى له من تصرفات المدير ، فبلغ قريبه شكواه الى (عباس باشا) . فكتب حفيد الباشا العظيم خطابا الى عبدالرحمن بك ، شديد اللمعة ، هتده فيه بالعزل ، وما هو أوعر منه ، وأمره برّد ممتلكات الرجل اليه ، ثم بحث بذلك الكلب الى المدير مع نفس المشتكى . فلما كان من عبدالرحمن بك ، حينما استلمه وقراه ، إلا أنه

استدعى الجلاد في الحال، وأمره بضرب عنق الرجل، ففعل، ولم يتطعم في أمره عتران. ثم مضت أيام، واتفق لعباس باشا أنه زار مدينة المنصورة. فاختم أهل المقتول فرصة وجوده بين ظهرانيهم، وأصلوه بواسطة محسوبة بما كان من أمر اعتناء المدير بخطابه، واحترامه لمضمونه. فاحتلم (عباس) فيظا، واستدعى عبد الرحمن بك، وإنهال عليه شتما وسبا، وأوشك أن يأمر بقتله، لولا أن عبد الرحمن بك تدارك الأمر، وألقى تبعة قتل الرجل على الجلاد، وبعث وراء هذا وأحضره، وبأخته زجرا وإهانة ليجلا يدع له سبيلا إلى الكلام، وزعم أنه قتل ذلك المسكين من تلقاء نفسه، لفظنه أنه بذلك يرضيه، مع أنه لم يكلف إلا بتوصيله إلى الباشا كاتب ليرة أملاكه إليه. وقبل أن يفيق الجلاد إلى نفسه، ويضهم من المقصود بالكلام، أمر عبد الرحمن به فضربت رقبته بين يديه. فهذا غضب (عباس)، ونهب دم الرجلين هدرا<sup>(١)</sup>.

المقدردار وناظر  
القسمة والفلاح

ويحكى عن أحد نظار الأقسام في الوجه البحري، أنه شدد على فلاح في إحدى القرى، في دفع أموال عليه، تبلغ قيمتها ستين قرشا. ولما لم يتمكن الفلاح من دفعها، ضبط الناظر بقرته الوحيدة، وعرضها للبيع، نظير المبلغ المطلوب. فلم يقدم أحد من القرويين على مشتراها، لعدم وجود مبلغ الستين قرشا عند أحد منهم. فأحضر الناظر جزرا الناحية وأمره بجزر البقرة، وتقطيعها لإربا إربا، ستين عددا، ففعل، فأجبر الناظر القرويين على أن يشتري كل واحد منهم قطعة بقرش، وأعطى الجزار رأس البقرة، مقابل تبعة. فرفع الفلاح تظلمه من عمل الناظر إلى أحمد المقدردار بك، الخفيف، زوج زهرة هانم بنت (عبد علي) - وكان، في تلك الأيام،

(١) أنظر: ما كتبه عن عبد الرحمن هذا سيون مارين في كتابه المسمى "حوادث ووقائع بمصر" ج ١

مفتش الوجه البحرى — فأحضر الدقردار الناظر، وأنبه بسنّف، لا على جزره البقرة فقط، بل على بيعه لإياها بستين قرشا، في حال أنها كانت تساوى مائة وعشرين قرشا، كما دلت الاستعلامات التى أخذها في ذلك الشأن. ثم أحضر القرويين، وذرهم بشئة على كونهم اشتروا القطعة بقرش، بينما هم يعلمون أنها تساوى قرشين. وأحضر أخيرا الجزار، ووجهه على جزره بقرة ذلك الفلاح التميس، مع أنها كانت كل ما يمتلكه من الحطام الدنيوى. فقال الجزار: «إنى، يا مولاي، عبد مأمور. ولم أفعل سوى ما أمرت به». فقطب الدقردار حاجبيه وقال: «أولو أمرتك بأن تفعل، في هذا الناظر، ما فعلت بالبقرة، أفعل؟» فأجاب الجزار: «قد قلت لمولاي أنى عبد مأمور، أطيع الأوامر التى تصدر إلى!» فقال الدقردار: «هلم، اذنا، واجر هذا الناظر كما جزرت البقرة!» فعل. فقال له الدقردار، وقد حمد الله في حروق جميع الحاضرين: «والآن، قطعه ستين قطعة، ما عدا الرأس!» ففعل. فأمر الدقردار، حينئذ، القرويين المجتمعين بأن يشتري كل واحد منهم قطعة من تلك القطع الفظيمة، بقرشين. فتكون لديه مبلغ قدره مائة وعشرون قرشا سابه إلى الفلاح، قائلا: «خذ، هذا ثمن بقرتك، فانهب واشتر غيرها!» ثم التفت إلى الجزار، وقال له: «كما أنك أخذت رأس البقرة جزاء لك على تبك، خذ بالمثل، رأس الناظر جزاء لك على تبك في جزره وتقطيعه!» وضحك ضحكا فظيما، وانصرف.

ضابط القاهرة  
والتركى رفيع المرأة  
الحسناء

ويروى عن ضابط القاهرة — وكان بمثابة حكمدارها وحافظها معا — في أيام (عباس) الحكاية المزججة الآتية: اقترن تركى، من أعيان الدرب الأحمر، بنتاة يقال لها خديجة، كانت من أجل النساء رواء، وأكملهن قواما، وأبدهن محاسن. فخرن

فيها الى درجة ، هجر معها ، كل نسائه الأخريات وسرايه ، وسكن الى خديجة ، وحدها ، يبعدها ويتمتع بها . ولما كان الرجل على غنى مفرط ، ومشهورا بالطيبة ، وكرم الأخلاق ، علاوة على أنه لم يكن دميم الخلقة ، لما وجدت في الحى امرأة إلا وحسدت خديجة على حسن بختها ، وصمود حفظها ؛ كما أنه لم يوجد في الحى رجل ، إلا وغبط ذلك التركي على النعم الجمة التي من الله عليه بها . وكان الكل يعتقد أن عيش الزوجين هنىء رغيد ؛ وأن كليهما تمتع بقرينه تمتعا تقدر به العين ، ويرتاح اليه الفؤاد .

فالحق ، ذات ليلة ، أن ضابط القاهرة ، في تلك الأيام ، خرج يتعسس تحت أجنحة الدجى ، متدججا بسلاحه ، ومصطحبا معه قواصين من رجال الشرطة ، مسلحين أيضا ، وبالجلاد وسيفه معه . بغاس بهم خلال الحارات والأزقة ، يستطلع أحوال الأمن ، ويحس نبضه . فوجد المدينة نائمة ، هادئة ، لا يلقى جسمها عارض مطلقا .

فمن له أن يحوس ، أيضا ، خلال الخرائب والأطلال القائمة على أنقاض الماضي ، بين ميدان الرميلة والامامين ، وبين القلعة والسيدة نفيسة ؛ لعلمه أنها الملجأ الذى يؤتاه ، عادة ، قطاع الطرق ، ومرتكبو الجرائم . فرادها ، الواحدة بعد الأخرى ، ولم يجد فيها ما يستوقف الانتباه . وبينما هو يستعد للرجوع ، اذا به يصيح نور فى أبعد تلك الخرائب موقعا ، يقرب من قطعة صغيرة الى الظلام الحالك الخارجى ، فاستوقف نظره . فسار الضابط نحو منبعته ، ودخل الخربة ، بقدم ثابتة صامدة ، ومعه الجلاد فقط . وأما القواصان ، فأوقفهما خارجا . وما لبث أن أصبح على مقربة من الحجر المنبعث منها النور ، وإذا به يد أسود يتكلم بصوت مسموع مع

فلاحين، فترس الجلاد في أحدهما، فصرخ أنه أخوه . وترس الضابط في البعد، فصرخ أنه عبد السرى التركي في الدرب الأحمر، المتصنعة الألسن بسماعته وجه زوجته، وحسب زوجته له .

فأصغى الى المحادثة الدائرة بينهم، وإذا بالبعد، وقد اتضح أنه مرسل من قبل سيدته، يتفق مع الفلاحين على أنهما، مقابل مبلغ من النقود، عينه لهما، يقصدا في الليلة التالية، منزل ذلك السرى، إذ يكون، هو (البعد) في انتظارهما، عند باب الهستان المحيط بالمنزل، فيفتحه لهما، ويدخلهما منه؛ فيقتض الثلاثة على التركي، وهو يتناول طعام العشاء مع زوجته، في كشك في الهستان؛ فيقتلونه بمساعدة الزوجة، الراضية في التخلص منه، لكرامتها إياه، وغرامها بشاب من البليرة، يدعى سليم أفا، كانت ترضى الاقتران به وافقت معه على أن يحضر قبلهما، ويشاركهم في ارتكاب الجريمة .

فأول ما بدأ للضابط، لدى سماعه تلك المحادثة، أن ينقض على أولئك المجرمين، ويقبض عليهم، ويحاكمهم، ويعذبهم في الحال، بمساعدة قواصيه والجلاد . ولكن ترويه المعتاد ماد اليه، وحمله على تعديل ذلك الفكر، ورم خطة للسير تضمن القبض على جميع المجرمين، وهم على وشك ارتكابهم الجريمة، حتى يقتنع نفس الزوج باشتراك زوجته معهم فيها . فخرج بسكوت تام، وعاد الى الضابطة، وشرع يتأهب للعمل الذي نوى عليه .

وكان قد أنس من الجلاد انقبالا غريبا، ورآه يتفرس في أحد الفلاحين؛ فأدرك، من حينه، أنه لا بد يعرفه، بل قد تكون بينهما قرابة . فكلف أحد رجال الضابطة بمراقبته، بدقة، طويلا تلك الليلة، وطوال النهار التالي لها . فراقبه القواص،

وإذا بالجلاد قد شرع، منذ أن بزغت أنوار الفجر، يفتش على أخيه في جميع الأماكن التي يظنّ تردده عليها ممككا، وفي كل خافي الخرائب القائمة حول البلد. فأحاط القواص الضابط علما بذلك، فتيقن الضابط أن حذمه قد أصاب، وأخذ يتصور الليلة عذوبة بحوادث منجمة أكثر مما تصوّره في بادئ الأمر.

فلما غربت الشمس، أخذ عشرة قواصة والجلاد، وسار بهم، وكن في جوار منزل التركي، ثم هتّم نحو باب البستان المقابل للباب الذي اتفق المبدع مع الفلاحين على ادخالها منه. ولما كان معه من آلات فتح الأبواب ما لا يستغنى عنه رئيس شرطة مطلقا، فتحه بهدوء وأدخل رجاله، وهم كأنهم أشباح، وأقامهم في ظل الانقباض يترقبون.

وكان يعتقد أن أول القادمين سيكون سليم أغا، وذلك لتيقنه من أنه متفق، حتا، مع الزوجة الخائنة. وكان سليم أغا هذا شابا من ذوى اليسار، شديد الميل الى مداخلة السيدات وإخواتهن، كثير الحوادث الفرامية، الموجبة، أحيانا، تداخل رجال الضبط فيها. ولذلك كان ضابط الماصمة يؤد أن يكون شريك خديجة فيما دبرته لزوجها، لكن يقضى عليه، ويبعد الطمانينة الى أبواب طاملات كثيرة، كانت حركات ذلك للشاب تقلقهم على بناتهم وعقيلاتهم.

غير أن سليم أغا—ولو أنه أفسد، بلعاضه، قلب خديجة على زوجها، وأخرجها من جادة الأمانة المطلوبة منها له، بل وافق معها على أن يقتن بها، فيا لو طلقت من بعلا—كان أبعد من أن يعترف إنما فظيما كالنوى اقترافه، أو يشترك مع مقترفيه في اقترافه. فكان يعهل كل التدبير، ولكنه كان مصمما على الذهاب، في تلك الليلة، الى بستان خديجة، إجابة لدعوتها، وهو يظن أنه إنما يذهب الى

الملقى لفرامه ولذته . ولو ذهب ، للقي حنقه . خير أن امرأة أخرى ، في ذلك الرب عينه ، كانت هي أيضا مغرمة به ، بالرغم من اطلاعها على مقابلاته الخديعة — وكانت قد نظرت ، من نوافذ بيتها ، تجمع رجال الشرطة بالقرب من منزل التركي ، فانسلاهم الى بستانه — فإرأته سائرا نحوه ، إلا وتلت من شباكها ، وأندرت برقوعه بين غلاب خطر مميت ، إن هو لم يعدل عن السير الى خديعة ، في تلك الليلة . فعدل سليم أفا من الذهاب ، ورجع الى بيته ، بتأثير عامل خفي لم يدرك ما هو . وقضى ليته ، وهو مشغول البال ، مبلبله .

فلم يمض على تريض رجال الحفظ زمن ، إلا ورأوا السرى التركي وزوجه خارجين من المنزل ، وسائرهن نحو الكشك ، الذي كانا يتمشيان فيه — وكانت الليلة مقمرة — ثم رأوهما يمسكان الواحد بجانب الآخر ، ويديان لبعضهما من مظاهر الفرام ما أشمل نيران الشهوة في ظهور الشبان من أولئك الرجال ، وأهاج الشجون في صدر الضابط . ومضت ، وتلك المظاهر قائمة ، فترة من الزمان ، وإذا بباب البستان المتفق عليه بين الأوغاد انفتح ، ودخل الفلاحان وراء العبد يسفلان .

فدنا الضابط من الجلال ، ووضع رأس خنجره على قلبه ، وقال له ، وهو ينظر اليه بعينين ، كأنهما القولاذ القاطع : « إن تبد حركة ، أية كانت ، ومهما خفت ، آتحتنا علامة منك لأحد الفلاحين — وأظنه أخاك — تقصد بها إيقافه على ما هو فيه من خطر ، وقتلتك في الحال ! » فارتعدت فرائص الجلال ، وجد كصم .

وكان القتلة قد اقتربوا رويدا رويدا من الكشك ، وأحست خديعة بدوهم . فانقلبت بننة الى حبة ملثوية ، وقلحت عيناها نارا ، وشرعت ، والكلام يخرج

من فيها بصغير، توجه الى بلعها أشد الكلام قرصا وتوجعا، وتظهر له كراحتها وبغضها، وشماتها بحفنه الذي أصبح قيد شبر.

وبينا هي لا تزال تتكلم، والتركى مأخوذ، مصعوق، لا يدري أفى منام فطيع هو أم فى يقظة، انقض الفتلة الثلاثة عليه، وسكاكينهم مشهورة. فصاحت الزوجة الخائنة: « اقتلوه! اقتلوه! » ورأى الرجل الموت بعينه.

ولكنها ما هى إلا لحظة، وأنا بالسكاكين قد أطيرت من أيدى حاملها، ووقعت على الأرض، وأنا رجال الشرطة قد أطبقوا على المجرمين وكبلوهم بالحديد، وشتموا وثاق الزوجة الخائنة.

ففتح التركى عليه واسمعتين، وازداد غيوبة بينا الضابط، والسيف فى يده مشهر، يأمر الجلاد بالاقتراب، وضرب أعناق الفلاحين والعبد؛ والجلاد يطيع، صاغرا، ويضرب عنق أخيه، والدموع تتحدر مخفية من عينيه.

ولكن زوج خديجة، لما سمع الضابط يأمر بضرب عنقها أيضا، أفاق من دهشته، وتحتم إلى زوجه، واحتضنها، ومانع فى قتلها، بالرغم من تحققه جرميتها. غير أن الضابط ألقت نظره إلى أنها باتت مفضوحة، حلاوة على كونها مجرمة، لأن نيفا واثني عشر رجلا رأوها مكشوفة الحجاب. فأقطع الرجل عن ممانته، وتغلى عن زوجه إلى ما قدر لها.

فضرب عنقها، وغمس الضابط منديل رأسها فى دمه المتدفق، وأرسله فى أول ساعات الصباح إلى سليم أظا — هدية دامية من محبوبته إليه — وكان سليم أظا قد قضى ليله كله، هاجسا. فلما ألقى إليه المنديل، علم بأن مأساة وقعت، وأن خديجة باتت رهينة القبور!<sup>(١١)</sup>

(١١) أنظر: كتاب بيل ست جون المنون "الحياة القروية بمصر" ص ١٣٠ إلى ١٣٩



تلك كانت سلطة المديرين ورؤساء الضبط في العاصمتين والثغور؛ وإلى هذا الحد كانت أعمار الناس رهينة اشاراتهم وأهوائهم .

فاتزع (اسماعيل) منهم هذه السلطة . ولئن لم يفصل بين وظائف القضاء والادارة فصلا تاما إلا في أواخر حكمه ، وبعد انشاء المحاكم المختلطة ، إلا أنه من جهة ، منع رجال الادارة من توقيع عقوبات إصلامية لم تصدر بها أحكام ؛ وخص رجال القضاء ، دون سواهم ، بإصدار تلك الأحكام . فكانت النتيجة أن القسوة والفظاظة اللتين اشتهرت بهما عصور الحكم المصري السالفة ، إن لم تبتلا في عهده بطلانا تاما ، فقد قلتا إلى درجة كادتا تتخللان معها في حيز السدم ؛ ومن جهة أخرى ، فإن جهوده منذ تبوأ العرش في سبيل انشاء محاكم نظامية في البلاد ، تنبض على كل السلطة القضائية وفروعها فيها — وهي جهود ماثق الرأي العام واقفا عليها — أدت إلى تطور فكري في اختصاصات القضاء ووجوب فصله عن الادارة ، لا يزال يتقوى وينضج حتى أيامنا هذه ؛ ولو أن تلك الجهود لم تثمر سرعا ، بسبب مقاومة الدول الغربية ، لا سيما فرنسا ، لها ؛ ولا تمكنت من تكييف ثمرها ، التكييف المرغوب فيه ، بسبب تلك المقاومة عنها . وسرى ذلك جليا في الباب الخالص به .

وأما منزليا ، فقد عمل (اسماعيل) على تغيير عقلية رعاياه : (أولا) بما أدخله إلى حياتهم البيتية من عادات معيشة غربية ، حملت الكثيرين منهم ، لا سيما سراتهم ، على أن يستبدلوا ما كانوا عليه — كأجدادهم — من طرق جلوس وأكل ونوم واستقبال ضيوف ، بطرق جلوس الغربيين وأكلهم ونومهم واستقبالهم لضيوفهم ، عملا بالقول المألوف : <sup>٢٢</sup> "إن الناس على دين ملوكهم" .

تغيير العقول منزليا

فان (اسماعيل) طلق، بتاتا، النظام الشرقي في ذلك جميعه؛ وأقبل يجلس رياً كل وينلم ويستقبل ضيوفه، على الطريقة الغربية المحضه . أما جلوسه، فكان دائماً على أرائك مرصمة . فاذا ما شاء الكلام، مئد رجله على مقعده ، حسب عادة الشرقيين، أو نهض وشرع يخطر في الحجرة، ذهاباً وإياباً، بكتفه العظيم ، مكتراً من الاشارات اليدوية . أما أكله، فكان على الطريقة الفرنسية البحتة، يدعو إليه ، عادة، وزراءه وبعض ضيوف أوروبيين؛ ويقدّم المدعوون الدعوة جداء، لأنه كان لمطبخه شهرة كبيرة في محلها . فالأصناف المقلّسة كانت من ألد المأكولات وأشهاها . وكانت أنبذته من خيرة الخمر الفرنسية وأشهرها، ولا سيما من النوع المعروف باسم "شاتوايكيم" . أما آتية مائدته ، فكانت من أنظر ما يكون ، مذهبة الخافقة تذهيباً خفيفاً ، ومقشوش طيباً حرف "ا" بالذهب الخالص . وكان كثير المحادثة أثناء تناوله الطعام ، عملاً بالحديث المأثور . على أن عاداته كانت بالفرنساوية ، دائماً ، بسبب الضيوف المدعوين إلى مائدته . وكان هو مركز المحادثة ، لأن وريثه لم يكونوا — معظمهم — يفهمون الفرنسية إلا قليلاً . وكان كلامهم أقل من فهمهم<sup>(١)</sup> .

وأما نومه، فكان دائماً على أسرة متخذة من المعادن الثمينة، في حجر يلد ريشها على أنها معتة للنوم، فقط . وأما مقابلاته، فاتها كانت سهلة وبسيطة . يدخل الناس إليها، جواهر، ويلبسون على أرائك . فيحادثهم في مختلف المواضيع، ويقدم لهم السجائر بدل الشبكات ، والقهوة بدل الشرابات . على أنه كان يتضايق من المقابلات الرسمية، لا سيما في آخرات أيامه .

(١) أنظر: "مصر القديمة" لادوندي لرون ص ٣٣٧، و"خديويون باشاوات" لميريل ص ١٨

لذلك ، بعد أن كان الرقاد ، في مصر ، على طراحات أو على فرش الأرائك ، أصبح على أسرة متنوعة ، من السرير الحديد الى السرير البرونز والنحاس الأبيض والأصفر الى السرير الفضة .

قال ادون دى ليون ، بعد أن زار سرايات اسماعيل باشا المفقش ، عقب سقوطه : « لاحظت دليلا جديدا على تحول العادات الشرقية الى المجرى الغربية في هذا القطر ، حتى عند الذين لم يتفرنحوا في عقليتهم وأخلاقهم . ذلك الدليل هو ابدال الأرائك بأسرة النوم »<sup>(١)</sup> .

وبعد أن كان الأكل على « الصواني » والطلبليات ، تمد حينئذ يتفق ، أصبح على موائد مرتبة ، في حجر خاصة ، مجهزة تجهيزا تمل كل مظاهره على أن تلك الحجر خصيصا بالأكل دون غيره .

وبعد أن كان الجلوس على فرش فوق الأرض ، يمد على طول الحيطان ، بوسائد مسندة الى هذه ، أو على أرائك مصنوعة طبقا للطراز الاسلامي ، أصبح على أرائك مرتفعة ، تجلب رأسا من بلاد الغرب ، أو تصنع في نفس القطر ، ولكن على طراز الوارد من الخارج ؛ وعلى كراسي من الخيزران ، ومقاعد أخرى متنوعة الصنع لم يكن الجليل السابق يستعملها البتة .

وبعد ما كان رب البيت ، اذا ما أتاه زائر أضيف ، يقدم له الشربات ، فالشيك الطويل ، فالقهوة في فناجين ذات ظروف خاصة ، أصبح يقدم له ، بعد الشربات ، السجائر ، ثم القهوة في فناجين ذات آذان ، قأمة على محزون صغيرة ، من جنسها .

(١) أنظر : « مصر الخديوية » لادون دى ليون ص ١٩٥ و ١٩٦

وعمل (اسماعيل) ثانياً، على تغيير عقلية رعاياه، منزلياً، بما حبه اليهم من استبدال الطرق المعارية القديمة ، بالطرق المعارية الحديثة . فبينما كانت البيوت في السابق تفصل من الداخل ، تفصيلاً غربياً، بحوش ومناذر ذات خزائن مرتفعة، ومقاعد غير مستوية السطح ، يخرج منها الى درك قليلة الاتساع ، تنتهى الى سلم بضع درجات يوصل الى مقاعد أخرى، منفصلة عن بعضها ومرتفعة عن الأولى ارتفاعاً بسيطاً، وهكذا، حتى يبلغ الى أعلى البيت ، حيث يوجد ما كانوا يدعونه بالقصر — وهو مقعد يشرف على كل ما تحته، وتنتظر السماء من نوافذه دون سواها ؛ وبينما كانت أبواب المدخل تجعل إما واطئة ، لا يلجها الانسان إلا اذا أحنى قامته ؛ أو واسعة جداً، وفي هذه الحالة ، إما أن تكون أبوابها حديدية ، أو خشبية ضخمة ، كأبواب الحصون ؛ وإما أن تفتح في وسطها فتحة صغيرة تستعمل دون غيرها للدخول، ويضطر الداخل منها، أيضاً، الى إحناء رأسه وقامته، إحناء كبيراً ؛ وبينما كان خارج البيوت يتعدى، في الغالب، على الهواء والفرارح، تقوم الأدوار العليا على شكل بارزة عن حائط الدور الأرضي الى فضاء الشارع ، وليس في ذلك الخسارح ما يستلفت النظر، سوى المشربيات — وكانت تارة صغيرة ، بحيث لا يستطيع أن ينظر منها أكثر من شخص واحد، أو يوضع فيها غير قلة واحدة ؛ وطوراً كبيرة، واسعة وذات « خارجات » من نوعها تكاد تلامس مقابلاتها في الصف الآخر للبانى ، أصبحت البيوت تفصل، أدواراً أدواراً، على الطريقة الغربية ، كل دور مستوف لوازمه ، ومشتغل على حجر يعرف الغرض المعلقة له كل منها ؛ وأصبحت المداخل تكمي أبهة وجلالا، فيلج الانسان منها الى محن النار، وهو رافع الرأس والجبين، مستوى القامة ؛ وأصبحت الصنعة تتفنن في خارج البيوت ، تزين الوجوهات بالشرفات

الرخامية ، وبمظاهرها هندسة معمارية بدیعة . وبالنسبة لامتساع الشوارع الجديدة ، وقيام الانتشار على جانبيها ، والاستغناء بالتالى عن الحيطان الداخلية ، لم تمتد تلك الوجهات تجرور على الفضاء ، ولم تمتد أخطار تلعبها وسقوطها بالكثرة التى كانت عليها فى السابق .

وعمل (اسماعيل) ، ثالثا ، على تغيير عقلية رعاياه ، متزليا ، بما حمل عليه الغربيين والسراة الوطنيين من تشييد القصور والوكالات الفخمة ، فوق الاراضى التى وهبها لهم ، على شرط أن يقيموا عليها مساكن تناسب أجهتها مع أثمان تلك الاراضى . ولما كان ثمن بعض القطع فيها يربو على الألفى جنيه ، فان رمتجن والدويك أوف سيوزلرند ، والكلوب الانجليزى ، وغيرهم ، أنشأوا عليها قصورا بلغ ثمن الواحد منها عشرين ألف جنيه . فنتج عن ذلك أمران : (الأول) أن حب التقليد أخذ يدفع بالأهالى فى العاصمة والبنادر ، بل فى ذات القرى ، الى تشييد بيوت وقصور على مثال تلك المرات والمنازل الفخمة ، وفرشها بالرياش الفاخر ، على الطراز الغربى ؛ و(الثانى) أن الحياة المتزلية الأهلية المجاورة للحياة المتزلية الغربية ، المتفضية فى هذه التشييدات الجديدة ، شرعت تزداد بها احتكاكا ، وتمتس منها خصالا من شأنها أن تستبدل ، من قديم كثير ، جديدا يروق فى العين . وأهم ما ظهر ذلك فى إقدام الشرقيين على الاقتداء بالغربيين فى إقبالهم على التصوير شمسيا ، وعلى تزيين حجر بيوتهم باطارات صوبهم وصور أصدقائهم الفوتوغرافية .

فاذا أضفنا الى هذه الأمور الثلاثة ، ما أدخله (اسماعيل) الى صميم البيوت من تغيير فى وسائل الشرب والتنوير المساقى ، ومن تعليم وتهذيب أدبيين ، وأفكار جديدة ، بواسطة المدارس التى أنشأها والشبيبة التى رباه فيها والجارى المتربرات

في سراياته التي كان يزوجهن من وجهاء البلد فيدخلن الى بيوت أزواجهن نظام تلك السرايات ونظافتها وترتيبها ، وبواسطة بظواهر الحياة الفريسة التي نشر معالمها في عاصميتيه ، فانا لا نرى مندوحة عن الاعتراف بأنه ، وان لم يهدم كل المساكن والبيوت ، ليجتدها — مع أنه ، في الحقيقة ، هدم وجدد كثيرا منها — فقد غير حالها في الواقع ، وعدل صميمها حقا ، تعديلا يصح أن يعتبر تجديدًا محضًا ، فأصبح ينطبق عليه القول الذي صدرنا به هنا الفصل من كتابنا ، وبتنا نستطيع أن نحكم بأنه غير، حقيقة ، طاعا — أمته ، وطرق معيشتها .

ولا أدل على صحة ذلك من التغيرين اللذين طرأ عليهما سياسيا واجتماعيا من وراء جميع ما ذكر .

تغير المقولة  
سياسيا

فأما سياسيا ، فان انتشار المعارف والعلوم في البلاد انتشارا واسعا ، وتمكن مقتبسها المصدين من تهذيب عقليتهم بأفكار مؤلفي الغرب السياسيين والاجتماعيين ، من جهة ، واحتكاك الحياة المصرية ، من جهة أخرى ، بالحياة الغربية ، على ما كانت عليه هذه الحياة من استقلال في مظهرها الحدي ، ومن فوضى في مظهرها المعيب ؛ فإثارة ذلك الاحتكاك للاضمالات المختلفة في النفوس ؛ أكان الباعث الى اثارها مظهر تلك الحياة الجدي ، أم مظهرها المعيب ؛ ومجهودات (اسماعيل) الناجية به الى الفوز بالاستقلال لبلاده ، وإلى اقامتها في مصاف الدول الشرقية الكبرى ، من جهة ثالثة — وهي المجهودات التي سيأتي بيانها في حينه — وقد كانت بمثابة نار اشتعلت في الأنفوس والعقول ؛ وتنازل (اسماعيل) رسميا ، من جهة رابعة ، عن جانب عظيم من سلطته المطلقة في ميدان التشريع وربط الضرائب ، بإنشائه مجلس النواب ؛ وفي ميدان القضاء بتأسيسه المحاكم المختلطة ، وخضوعه لأحكامها وقراراتها ، راضيا

أو مكراها، وتضافر الجاليات الأجنبية بمصر، من جهة خامسة، على الإجراء من اسلاب أمير البلاد وفلاحيه « بمساعدة المحاكم المختلطة لم مساعدة عجيبة » كتعبير القاضى الهولندى فيها المسوقان يملن في كتابه الممنون<sup>(١)</sup> « أوروبا ومصر » زيادة على تضايف الدائنين الأجانب بتعصيد دولهم، لا سيما إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وتنتهم في أن تدفع لهم فوائد الديون المطلوبة لهم، ولو بارهاق الفلاح المسكين، وتحصيل الأموال منه سلفا، أو بجرمان موظفى الحكومة ومستخدمىها من صرف مرتباتهم لهم، أشهرها متوالية<sup>(٢)</sup>، وقدموهم جملة مفكرين شرفيين الى مصر، وأخصهم بالذكر جمال الدين الأفغانى، وأديب اصحق السورى، وقيامهم يتنون تعاليمهم الحارة في المجتمعات والجماعات والكتب والصحف، من جهة سادسة وأخيرة — كل هذا أوجب تطوراً هائلاً في الأفكار، وأنجب قيام عنة آمال سياسية في القلوب، ظهر وجودها جلياً : (أولاً) بما سبق لنا ذكره من جميعاً، سياسية ؛ (ثانياً) بالفتنة العسكرية التي أدت الى سقوط الوزارة النوبارية ؛ (ثالثاً) بالحركة القومية التي أعقبت إلغاء قانون المقابلة ؛ (رابعاً وأخيراً) بالعريضة التي قلمتها الشيبية المصرية الى الخديو (محمد توفيق) في أوائل أيام ملكه، والتمست فيها، بلهجة صلاتية للغريبيين، منح القطر جملة اصلاحات، دحتها « حيوية » له .

تغير العقول  
اجتماعياً

وأما اجتماعياً، فان الملابس والأزياء تغيرت . أولاً فترك النساء، في المدن والبنادر، البك، والسلطة، والحزام الكاشميرى، والطاقيع الحمراء الصوف، الموضوعه عنة متاديل عليها، وانقرص بما كان يقبل عليه من حلى ومجوهرات ؛ بل ترك

(١) أنظر : فان يملن « أوروبا ومصر » ص ٢١

(٢) انظر : مكاتبات السيد ثقفين، لفتنصل العام البريطانى بمصر في سنى ١٨٧٧ و ١٨٧٨

معظمهن ذات الضفائر والصفاء؛ وتركز الخلف والبابوچ؛ وأقبلن بلبسن، في داخل منازلهن، الجلابيب والفساتين، مفصلة، لسيدات الطبقة العليا، على المودات الغربية؛ وبضمن الطرح البسيطة على رؤوسهن؛ ويلبسن الجوربات في أرجلهن، وفوقها الشباشب. فلذا خرجن لبسن لباسا افرنجيا من فوقه السبلّة، والحبرة والهشمك؛ وأخذية غربية من ذات الكعوب العالية؛ وأقدمن — علامة محسوسة ظاهرة للتطور الحضث السائر — على أن يصوّرن، تصويرا فوتوغرافيا، وهن أيضا بلباس افرنجية؛ وعلى تكبير صورهن الفوتوغرافية، بل على التصوّر تصوّرا زيتيا، يوقفنهن أمام مهرة المصوّرين من الغربيين، بعد أن كن أذن على غير أزواجهن برؤية وجوههن وقوامهن، من البخيل بدنياره العزيز، على السائل.

قال ادون دى ليون: من أغرب الأشياء في موجودات سرايات المغنث «صورة كبيرة جدّا، موضوعة في إطار ثقيل منذهب، تمثل ابن المغنث ومروسه — وكانت ربيلة زوجة الخديو الثانية — في قنسيهما وقامتيهما، فانها كانت من النوع الذى ينتظر المرء وجوده في قصور الملوك. وبما أن كلا المتصوّرين لم يكن في لباس شرقى، فان المشابهة كانت أتمّ. أما هو، فكان جالسا، مرتديا لباسا افرنجيا ومكشوف الرأس. وأما هى، فكانت واقفة في كساء غربي من المخمل الازرق الثمين، مفصل ومطوّل على آخر اختراع الجليل. وعلى رأسها إكليل من ماس يشبه تاجا. يظنها رائيتها من صميّات الفرنجيات<sup>(١)</sup>».

وترك الرجال في المدن والبنادر، أيضا، لا سيما الموظفون، اللباس المغربي والطربوش المغربي، اللذين نراهما على (محمد على باشا) و(ابراهيم باشا) و(سعيد باشا)

(١) أنظر: "مصر الخديوية" لادون دى ليون ص ١٩٦ و ١٩٧



في صورهم الرسمية المرسومة في المكتبة المصرية وغيرها ، ولبسوا اللباس الغربي ، المرتدى به رجال تركيا في ذلك الحين ، وأغنى به الاسطيمبولية ، من تحتها القميص المكوى ، والصدري والبنتلون ؛ وانتشر ، مع شيوع هذه الملابس ، استعمال الفرش لتفريشها ، وقد كانت مكروحة ، لكونها مصنعة من وبر الخنازير ؛ وتركوا المنزل والمركوب ، واحتدوا بأحذية غريبة ، من تحتها الجواربات . فزال ، بذلك ، فارق كان يميز المسلمين عن غيرهم من بنى وطنهم ، لبسوا يدينون بدينهم . فان مزور المسلمين ومراكيهم كانت صفراء ؛ وأما النصارى واليهود فقد كان الأصل في لون لبسهم — عامة — ومراكيهم — خاصة — أن يكون أسود ، على جواز استعمالهم اللون الأحمر — اذا شاءوا — وأقلع المتمدينون منهم عن عادة حلق رؤوسهم ، مع إبقاء شوشة في قمتها ، كما كانت العادة المتبعة في الأجيال السابقة ؛ وأخذوا يصفون عن شواربهم ، وقد كانوا يبالغون في قصها ، كما لا يزال يفعل بعض المتممين في أيامنا هذه ، لا كما يفعل المقتدون بالانجليز من حلق طرفي جانبيها وقص الباقي فيها على سواء الشفة ؛ وأخذوا يقصون لحاهم على شكل مستدير ، كشكل لحية (اسماعيل) في صوره ، وتجاوز البعض ذلك ، فقلدوا الفرنج ، وحلقوا لحاهم بالمتزة . وقد كان الاعفاء عن الحلى أمرا راسخا في النفوس ، لما كان ولا يزال للحية من احترام عند بعض الشرقيين ، لا سيما البدو .

وما زلت أذكر اشتهار بعض مشايخ من العربان ، زرتهم منذ نيف وخمسين وعشرين سنة ، إذ رأوا في يدي كتاب سيرة نابليون الأول ، وعرضهم من هو ، وما كانت أعماله ، فشققوا الى رؤية صورته ؛ فأريتها لهم ، فوجدوه حليقا !!! كما أنى لا أنال أذكر ما قاله لى بعض مبشرى الكهنسة الكاثوليكية الرومانية — وكان قد جاب

احترام الحية قديما

جهات السلط والركك، في الصحراء السورية—من أن العربان، هناك، لما رأوا بين يديه صورة حبر المسيحية الأكبر وكان في تلك الأيام لاوون الثالث عشر، ووجدوا أن رئيس الدين الذي يدعوهم إليه، رجل حليق الذقن والشارب، ثروا منه ثورا عظيما وأنقضوا من حوله .

ولعل هذا هو السبب في أن مبشرى الكثلكة وrehانها، من الغربيين، يعفون عن لحام وشواربهم في الشرق، بينما هم يخلقونها بتاتا في الغرب .

شيخ البسد  
والقروى

ويذكر، للدلالة على احترام مصري (محمد علي) أنفسهم للحية، أن أحد مشايخ البلاد في الشرقية لكي يؤكد رجلا من ناحيته كان قد اختصمه، قيده في صناد المدعوين للجنديّة، بالرغم من كونه جاوز السن، وجعل مزين الناحية يحلق له لحيته : لأن قانون (محمد علي) العسكري كان يقضى بحلق ذقون الجنود، وأرسله الى المركز ضمن المرسلين اليه لتوقيع الكشف الطبي عليهم . فوجد كلوت بك — وكان هو الطبيب المكلف بالكشف، وهو الراوى لهذه الحكاية — أن الرجل غير لائق للخدمة، لداعى تجاوزه السن . فأمر بتخليته وإعادته الى بلده . ولكن الرجل أبى إلا أن ينصفه المأمور، أولا، من خصمه، الذي تسبب له باهانة عظمى بحلق لحيته . فاستحضر ذاك الخصم، وخير الرجل في أمر مجازاته . فطلب أن ياماموه مثاماه، وأن يخلقوا له لحيته مثلاما حلق، هو، لحيته . فطلق الشيخ يرجو ويتوسل، ويعرض كل ما يشاء خصمه أن يطلبه من عوض مالى، ويحاول أن يقتعه بأن حلق لحيته لن يحميه نفعاً، ولن يعيد لحيته اليه . فأصر الرجل على طلبه . ولولا أن كلوت بك تداخل بينهما، وأقنع الفلاح بقبول عوض مالى جسيم من الشيخ، لما وجد هذا مقفرا من جزلحيته، ولاضطر الى مفاداة بلده، لكيلا يكون موضع سخيرية أهلها، كما فعل

غريمه . فانه أقام في ناحية أخرى ، ولم يعد الى قريته إلا بعد أن رجعت لحيته الى ما كانت عليه <sup>(١)</sup> .

ويرى بلزوني ، الرحالة البعثة الايطالي الشهير ، عن أحد مهزاري ( محمد علي ) مهزاد ( محمد علي ) أنه أراد التنكر يوما ، لزاح ، فحاق لحيته وحضر الى مجلس مولاه . فلم يعرفه في بادئ الأمر ؛ ولكنه لما عرفه ، أضرق في الضحك ، حتى كاد يستلقي على ظهره ، وجاد عليه ببعض المال . على أن المهزاريين رفاقه ، أبوا بعد ذلك أن يجالسوه على مائدة أو في الطوى مطلقا ، لزمعهم أنه بخله لحيته ارتكب شيئا بات لا يؤمله لأن يكون واحدا منهم . وذلك لأنهم كانوا يعتبرون مختا كل من حاق لحيته وشاربيه <sup>(٢)</sup> .

وتغيرت ثانيا ، كيفية حياة الأغنياء اليومية . فانهم كانوا ، حتى أيام ( اسماعيل ) الأولى ، ينعفون من النوم مبكرين ، فيصلون صلاة الصبح ، ثم يغطون ويشربون القهوة ، ويدخنون الشبك ، فيبكون ، بعد ذلك ، ويلبسون ملابسهم ، ويكون جياهم ، ويخرجون إما للزيارات أو للتسوق ؛ وإما لمجالسة صديق حتى تأتي ساعة الغداء ، وهي الثانية عشرة صباحا : فيعودون الى منازلهم ، ويتفقدون ، ثم يشربون القهوة ، ويدخنون الشبك ؛ ويدخلون بعد ذلك الى دوائر حريمهم ، فيأمنون ساعة أو ساعتين ؛ ثم ينعفون ، فيسلون وجوههم أو يستحمون ، ويتوضؤون ، ويصلون صلاة الظهر ؛ وبعدها ، يتكيفون — والتكيف عبارة عن غيوبة المرء عن العالم المحسوس ، ليعيش برهة غير قصيرة في عالم الأحلام والأمانى ، معيشة من يرى هذه الأمانى والأحلام حقائق ، ويستمرئ لذتها استمرأ عميقا — فعند ما يقهون من

(١) أنظر : كتاب كلوت بك المكون "لغة في تاريخ مصر أيام محمد علي" .

(٢) أنظر : "بلزوني" .

التكيف ، يشربون قهوة العصر ، ويدخنون شباك آخر ، ثم يلعبون دور ضامة أو شطرنج مع أحد أصدقائهم أو أخصائهم . وبعدها ، يصلون العصر ، ويخرجون للتتره ، أحيانا ، مشيا على الأقدام ، وفي الغالب يمتطين جيادهم ، وفي ركابهم حاملو شبكاتهم ، وأمامهم سؤاسهم . فتتقدم بمواكبهم الأزيكية . فاذا عن لهم ، نزلوا ودخلوا تحت أشجارها الباسقة ؛ وإلا استمروا في تزيهمهم ، يتفرج بعضهم على بعض ، ويختلط ، أحيانا ، بموكبهم . حرية أحد كبار الباشوات المقربين ؛ فينتفجون عليها ، ويتفرج الباشا عليهم منها . وكثيرا ما كانت تزيهم الحبر والجمال ، عليها السيدات ، جالسات كما كنا نراهن ، قبل عهد الترامواي ، أى مؤثرات مجهرن ، وواضعات أرجلهن في ركاب صغير ، بحيث تثنى ركبهن بطونهن ، ويهب الهواء عليهن ، فينتفخ في حبرهن ، فيصرن كالبونات . ولما تحرب الشمس من مغربها ، أى حوالى الساعة الحادية عشرة ، على الحساب العربى ، يعودون الى بيوتهم ، فيصلون صلاة المغرب فى وقتها ؛ ثم يتمشون وينهبون الى القهوة التى يميلون اليها ، لسماع الراوى يقص سيرة بنى هلال وحروب أبى زيد ودياب والزناى خليفة ؛ أو أعمال فروسية عنتره بن شداد ، والزرر المهلهل وحرب البسوس ؛ أو فعال سيف بن ذى يزن ، وحيل على الزبيق وأخاذهه أو ينهبون للمهر ، ساعة أو ساعتين ، عند بعض الأصدقاء ، ويعودون فينامون مبكرين إلا اذا سهرروا فى فرح أو أقاموا يمتعون بطراوة الليل ، حينما يكسو القمر بأنواره أجنحة البهى ، فضة .

ولكن ، بعد انتشار ملاهى المدينة الغربية وأسبابها ؛ بعد تشييد الكوميديا والأوبرا الخديوية ، واستقدام أكبر الممثلين والممثلات اليهما ، وإقامة المراقص فيهما ، صلاوة على إدخال طائفة الليالى الراقصة السنوية الى الحياة القومية المصرية ؛ بعد

استيراد العربات بكثرة من أوروبا، حتى غصت بها شوارع القاهرة والاسكندرية، واقتناها معظم السراة فيهما ؛ وبعد اقامة حفلات السباق الخيل والمجن في هاتين العاصمتين ، وأنشاء حمامات حلوان ، اندفع الأغنياء مع تيار الحياة الجديدة التي أوجدتها كل هذه المظاهر الحضرية ، واتخذوا خلالا ضيقا كانوا عليها .

أما الملاهي ، فمن نوع الكازينوات والقهوات الفاتية ، المنشدة فيها غادات متفتنات في سلب العقول والجيوب ، كالتى أقيمت على سكة شبرا ، وفي بعض قطع من ذلك الشارع ، الذى أصبح — لاسيما في أيام العطلة والأعياد ، وإلى أن أنشئ الشارع الموصل الى الأهرام ، ووصل بين برى الجيزة والجزيرة ومصر بالكوبريين الجليلين المنشأين في سنة ١٨٧٢ — ملتقى كل من كان في العاصمة من ممثل للوجاهة ، وكرم المتمد ، ورفعة المركز ، والجمال ، والترف .

وأما الكوميديا والأوبرا ، فإن الأولى شيدت بالأزبكية في ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٦٧ ، وقد كان يوجد مكانها ، ومكان الأوبرا أختها ، بيوت صغيرة حقيرة . فاقترح (اسماعيل) على أصحابها أن يبيعوها له ؛ فرضى بعضهم وأبى آخرون . ولكنه حدث أن حريقا ألهم فيها بعد بيوت الرافضين . فاشتري الخديو منهم الأرض بالثمن عينه الذى كان عرضه عليهم في البيوت وهى قائمة وشرع يبنى مسرحية فوقها . واحتفل بافتتاح الكوميديا في مساء ٤ يناير سنة ١٨٦٨ ، فكان إنشائها ، وتأسيسها ، وتجهيزها ، وإقامة أول تمثيل فيها — كل ذلك تم في ظرف شهر وأثنى عشر يوما . ومع أنها كانت ، في بادئ أمرها ، عبارة عن بناء خشبي ، فإن إرلازها الى الوجود بمثل هذه السرعة لم يكن يخلو من شئ ، يجب له ، إعجابا كبيرا . فزيادة على ما استوحيه

(١) أنظر : "باريسى بالقاهرة" لكارل دي برير ، ص ١١٨

من الدقة المدخلان اللذان عملا فيها : (أحدهما) حديدى ، على الشمال ، للخدو ؛ و(الآخر) حديدى ، كذلك ، على اليمين ، للحرم المصون ، وأميرات البيت المالک ، فان داخل ذلك المسرح كان نلجا جندا ، مزينا بأهلى الرسوم ، وباديا على كل شئ فيه بلخ فائق ، لا سيما فى كل ما كان يتلقى بلوج الخديو والألواج الثلاثة المغطاة المعتة لأميرات أسرته .

الأرهما

وأما الثانية ، أى الأوبرا ، فقد بنيت فى السنة التالية ، فى ظرف خمسة شهور ، وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف جنيه . فظهرت ، من الخارج ومن الداخل ، فى المظهر الفخم الذى لا تزال تلهل لنا فيه . وكلف (اسماعيل) فردى ، المؤلف الموسيقى الايطالى ، الطائر المبيت ، بوضع رواية تناسب المكان والمقام ، للاحتفال بافتتاحها ، بحضور الامباطورة أوجيني ، القادمة لترأس حفلات فتح ترمة السويس . فنظم فردى روايته الشهيرة المسماة "بمائة" ، وقامت مدام بوطسونى ، المغنية البديعة الجمال الأسمر ، بتمثيل دور الأميرة الحبشية ، فيها ، باختيار فردى نفسه . وبلغ من إعجابهم المظاهر التمثيلية ، أنهم أشفقوا نيفا وخمسةائة وخمسين ألف فرنك ، منها ١٢ ألفا للشعر الصناعى ، فقط ؛ وذلك خلاف ما أعطى بلخوقة آلات الطرب (الأركستر) والممثلين (الأركست) ، وخلاف ما جاد به كرم (اسماعيل) على الأستاذ فردى ، وقدره ١٥٠ ألف فرنك <sup>(١)</sup> .

فكانت نتيجة ذلك جميعه ، أن الجمهور القاهرى ، وصل رأسه الخديو وأمرأه بيتته وأميراته ، والباشوات ، والمرأة ، أصبحوا يرون لنة حضور التمثيل المعروف بالميلودرام — أى المقترن التشخيص فيه بالثناء — من أشهى لذات الوجود ، وأنهم

(١) أنظر : " باريس بالقاهرة " لكارك دى برير ، ص ١١٨ و ١٢١

أصبحوا يستقدمون، سنويا، جوقة أوروبية، خصيصا لهذا الغرض، وينفقون عليها مبالغ طائلة، تتجاوز حد المقول. فقد قُدر بعضهم ما صرف على أفراد إحدى تلك الجوقات في شتاء سنة من السنين بمبلغ ١٢٠ ألف جنيه. وليس في تقديره من مبالغة؛ فإن المثلة الواحدة، من جهة، كانت تقتاضي، أحيانا، ألفا ومائة جنيه في الشهر، خلاف الجواهر والمدايا المقتمة لها.

ولا غرو: فالمستقدمون من أولئك الثغين كانوا ملوك التمثيل والغناء في أوروبا، في تلك الأيام، وملكاتهما؛ كالتيينور نودين والآكسة سارولتا، اللذين فصحت الأوبرا بهما؛ وكالسيو لاروز، والمسبيو قسيه والمسبيو بيجوري، والمدمات پوطسوني ومديني، ومتس قرار، وبرت جيراردين، والآكسات دورتيه ولورنس وجيرار، ولا سيما مدام ماري صاص، التي كانت، علاوة على تفوقها في الفن، من أبدع النساء حسنا؛ وكالآكسة روسيل الممثلة الماساتية، التي مثلت في سنة ٧٢ رواية "البند ٤٧" ورواية "الفوميتاج" ورواية "أدريين ليكوفير" ورواية "لادام أوكامليه" و"السيد"؛ وكديلتوا، الذي مثل في السنة حينها رواية "الفوبوزوم" ورواية "نوزتم" ورواية "الرفليون". ومن جهة أخرى، فإن كل جوقة كانت تستعمل عادة، على ثمانين راقصة، معظمهن، ميلانيات، من أجمل نجوم المسارح.

ولم من تغنى مديري الكوميديا والأوبرا في إرضاء الجمهور، أنهم أخذوا يستقدمون، أيضا، نقادين فنيين، يكتبوا المقالات الانتقادية الجميلة في التمثيل والممثلين، فيحملوا على تحسين الفن وترقية كفاءة القائمين به.

واشتهر، من بين أولئك النقاد، المدعو فيلي، ذو الشعر الطويل المسترسل؛ ولأنه كان أكفاهم، ولكن لما حله الطمع عليه من وقاحة سمجة، لمع أنه منح

٢٠ ألف فرنك، أجرة لسفره، فقط، وتحملت الأوربا مصاريف اقامته كلها، بالغة ما بلغت، فقد أبى إلا استغلال المثلثات، وحملهن على شراء سكوتيه عن هجوهن بمال يذفضنه اليه . ولما وجد منهم إضرابا، وعلم بمبالاة، تمحّول الى زمرة آلات الطرب (الكوريست) ؟ وأخذ يظمن طعيم طعنا مرزا . فلما كان منهم، ذات ليلة، إلا أنهم هاجبوه، وقطعوا شعره المسترسل — وكان شعرا كاذبا — وقذفوه ببياض البيض وصفاره، وقشر البرتقال ؟ وأهانوه اهانة لم يحسد معها بلنا من الرجل الى بلانا<sup>(١)</sup> .

وأما مديرو المسرحين — أى الكوميديا والأوربا — المتفتنون فى سبيل إرضاء الجمهور القاهرى فأولم دراينيت باشا، المعروف باسم پاولينو — وقد أطلق اسمه هذا على شارع وحى من شوارع قسم محرم بك بالاسكندرية، وأحيائه — كان صيدليا يونانيا فى خدمة الدكتور تينارد الفرنساوى . فادناه هذا من (محمد سعيد باشا) وأدخله فى خدمته . فإلبث أن أنعم عليه بلقب بك . فقلب پاولينو اسم الدكتور أستاذة، وجعله "دراينيت" وتسمى به، وظل فى خدمة (سعيد) حتى آخر لحظة من حياته .

يقول المسيو كارل دى پرير فى كتابه "باريسى فى مصر" : « ان قوة دراينيت الكبرى، بجانب ذكائه الذى لا ينكر، هى أنه طالع المرحوم (محمد سعيد باشا) عم الخديو وسلقه، فى احتضاره، ولم يفارقه حتى آخر لحظة من حياته، ولم يكن أحد ضيره يقدر على التوق منه »<sup>(٢)</sup> .

(١) أنظر : "باريسى بالقاهرة" ص ١٢٢ و ١٢٣

(٢) أنظر : "باريسى بالقاهرة" ص ١٢٦



فحينه (اسماعيل) مديرا لمصلحة السكة الحديدية، مكافأة له على ذلك، ولما تأسس المسرحان، عينه مديرا لهما. وقلمها كنت تراه، أو كان يقابلك، إلا باسمها باشا، مهما كانت مهمتك لديه. فبات لا يستطيع أحد قراءة ما في ضميره. وتمكن، بذلك، من اقتناء ثروة طائلة.

وأخلفه على وظيفته منسك بك - وسوف يأتيك نبا عنه - ومناديه بك، وفيهما دونهما شهرة.

وأما المرافق التي أقيمت في المسرحين، وأتبع بها الجمهور، فأهمها المعروفة باسم المرافق "براهما" و"جزيرة الغرام" و"الجيوكوليرا" و"فليك وفلوك".

وأما الليالي الرفيعة التي أدخلت عاداتها السنوية إلى نظام الحياة القومية المصرية، فقد كان الخديو يحييها عادة في مرآى عابدين، في منتصف فصل الشتاء، ويدعو إليها، علاوة على رجال معيته وكبار موظفيه، نيفا ومائة وخمسين من وجوه العاصمة وممراتها، وذوى الخيليات من رجال الجاليات الغربية. فكانت تجد جميع طبقات الهيئة الاجتماعية المصرية الرفيعة وجميع الأهم الأوروبية ممثلة في أولئك المدعوين. وكان (اسماعيل) يستقبل وفودهم، ابتداء من الساعة التاسعة مساء، في أحد أجنحة المرآى، بلطفه المعتاد، وبشاشته المألوفة، ويحادثهم فيما يهمهم، أو يرتاحون إليه، حتى الساعة العاشرة. فيقتم، حينذاك، ذراعاه إلى عقيلة أقدم القناصل عهدا، أو أكبر المدعوين مقاما، ويسير بها وبالجم إلى قاعة فسيحة، معلقة لماع نوبة العزف. فيسير الأمراء، أولاده الثلاثة، وزاده، وصلى ذراع كل منهم سيده، ويتبعهم الملاء، كل مع السيدة التي تسمح له المألوفات القومية باختيارها. فيحضر الجميع النوبة ساعة، ثم ينتشرون في الجهر الأخرى، زرافات زرافات، وأزواجا أزواجا،

ويشتم الخدم فرصة خلق القاعة ، لترتج معالم نوبة العزف منها ، وتحولها الى قاعة رقص نغمة . وعند ما يفرغون من ذلك ، تصدح الموسيقى ، فيعود المدحون الى القاعة ، ويبدأ الرقص ويستمر ، حتى بعد نصف الليل ، في حضرة الخديو والموظفين الخديويين المرتكبين ملابسهم الرسمية الساطعة ، والمتلألئة ضدورهم بالنياشين ، التي حلتهم بها كفاياتهم ، أو الانعامات العالية . على أن ما من أحد منهم كان يرقص ، سوى الأمراء الثلاثة توفيق وحسين وخسن ، أولاد الخديو ، لأنهم كانوا ، دون غيرهم ، متعلمين ضروب الفن . وكان حسين أكثرهم غراما به ، وأكبرهم اندفاعا مع تياره ، وأقلهم أثرا بالتعب الناتج عن المجهود المبذول فيه .

فاذا انتصفت أول ساعة بعد نصف الليل ، فتح الخديو المقصف ، فيسير اليه المدحون ، زرافات زرافات ، ويأكلون أشهى الطعام ، ويشربون ألد المدام ، مريثا هنيئا ، والموسيقى تعزف حولهم ، حتى ساطت الفجر الأولى ، فينصرفون حينذاك ، مودعين من الخديو ورجاله ، بما قابلوهم به من بشاشة وإكرام .

ولم يكن (اسماعيل) ، لا سيما في أيام ملكه الأخيرة ، يحب هذه الحفلات أو يميل الى إحيائها ، لمجرد لذاتها . فانه كان يعتبر أوقاته أثنى من أن يصرفها في الأخذ بأسباب تلك الملاهي . ولكنه كان يحبها عملا برأى رجل السياسة الثمير القائل : "إن البطن خير طريق الى القلب ! " ورغبة منه في أن تكون تلك الليالي مواسم تستفيد رعيته منها بما تزره احتفالاتها من حركة في ميداني التجارة والصناعة .

وأما السباقات ، فإن الخديو كان يحبها ، فيحسبها ملكه ، على ثقة جيبه الخاصة ، ويدعو اليها من شاء من الوجهاء والأعيان والتزلاء الأجانب . فيقتسم لهم المرتبات والحلوى والفواكه المنتومة . فكانت الدعوة اليها تمتبرمة وشرفا يرضان من قدر المدعو ،

السباقات

ولذا ، فإن السراة كانوا يتسابقون اليها ، فضلا عن السوق والمائة ، للتفريج عليها من بعيد . ولما كانت المقامرة أساسها — وطبع الانسان مقامرا — فإن ازدهار الاعتماد في تلك السباقات كان شديدا ، غير مألوف إلا في الاحضالات الدينية ، بالرغم من أنها كانت تقام ، من العاصمين ، على بعد يلزم قاصدها باحتمال شقة . فسباقات مصر كانت تحيا في الباسية ، وسبانات الاسكندرية في القبارى ، أولا ، ثم ما بين الحضرة وسيدى جابر ، حيث أقيم ، فيما بعد ، ناديا الحالى ، على الأرض التي باعها له دائرة الأمير ابراهيم باشا ، زوج الأميرة زينب هانم بنت ( اسماعيل ) العزيرة المفضلة . وكلتا الجهتين ، بالسلبة لعدم وجود خطوط ترامواى أو سكة حديدية توصلهما بالعاصمين ، كانتا قصبتين ، صلاوة على كونهما رمليتين ، وأن الطريق اليهما كانت تربة صخرية .

وكثر اقتناء السراة الخيول ، لتدريبها على الجرى ، صاها تفوز في تلك السباقات ، وبلغ من اهتمامهم بها أن على شريف باشا ، صاحب السراى الكبيرة المشهورة بشارع عبد العزيز ، المؤجرة الآن الى راهبات المحبة ، ورئيس محكمة مصر التجارية في ذلك العهد — وكان من أكبر غواة تلك الخيول — لم يكد ذات صباح يفتح جلسة محكمته إلا وأناه سائسه ، وهمس في أذنه أن جواده الفلانى — وكان من أحسن خيوله — مريض جدًا ، يخشى عليه . فنهض على باشا مذهبورا ، وأطن رفع الجلسة ، وترك القضاة والمتقاضين ، وذهب ليعول جواده المريض <sup>(١)</sup> !

وكانت السباقات تقام ، عادة ، كل خمسة عشر يوما ، ومعظم "الجوكر" أى راكبي الخيول ، فيها من السودانيين ، وإلا فالجليز . وأهم سباقات عهد ( اسماعيل ) السباق

(١) أنظر : " باريس بالقاهرة " ص ٢١٩

المقام في اليوم السادس عشر من أيام الأفراس، التي أحييت مهرجاناتها أربعين يوما، احتفالا بزواج الأمراء محمد توفيق وحسين وحسن والأميرة فاطمة هانم ، أولاد الخديو في سنة ١٨٧٣ فان "الجوكو" فيه ، كانوا مرتدين ملابس حريرية، وفاز منهم راكب جواد الخديو عيته ، يقال له "قبارى" وراكبو جياد نظير أغا، وعل شريف باشا ، وإسماعيل بك . وامتاز ذلك السباق عن غيره ، بأن هجنا جرت شوطا فيه ؛ وبأن مقصفه كان من أغر ما يقع في خلد بشر أو تراه عين ؛ وأن المدحوقين اليه كادوا يغطون بملحهم وعييدهم صحراء العباسية على اتساعها .

تقدم حلوان

وأما حلوان ، فان الخديو - بعد ما ظهرت مزايها مياها المعدنية الكبيرة ، ومنافعها للسحامين بها - وطن نفسه على جعلها "أكس لي بن" نصرية شتائية ، يؤمها رعاياه والسائحون (التوريست) للاستفادة منها . لما فنى يشجع على إقامة المباني والقنادق فيها ، بهمة لا تعرف الملل ؛ ويقدم ، هو نفسه ، المثل الصالح في ذلك ، بإنشاء قصر نفخ في تلك الضاحية العاصمة ، للأميرة والدته سنة ١٨٧٧ الى أن تم له مرضوبه ؛ وبرزت حلوان في حلة من الترغيب حملت الكثيرين من المرأة على اتخاذها مقرا لهم ، وكثيرين من الغربيين على قصدها ، في فصل الشتاء ، لتضيئته فيها . وبلغ من إعجاب الناس بهوائها ومياها أن المسيو بلان (Blanc) صاحب كازينو متنى كارلو ، الشهير بامارة موتكو ، وكازينو همبرج بألمانيا ، عرض على الخديو مبلغا جسيما من المال ليصرح له بفتح كازينو فيها للقامرة ، على شاكلة ذينك الكازينيين ؛ فاعتبر (إسماعيل) مليا ، حواقب إقامة مثل ذلك المحل ؛ ونظر الى المستقبل نظرة من يستطلع أسرارها . فرأى أموال أسرته ورعاياه تذهب الى غمرات ذلك المكان ؛ فتنبأ من مأسأت تلهس المائلات لباس السواد والحسداد ؛ ورفض .

كذلك، للأسباب عينها، مبلغاً أكبر، عرضه عليه الرجل ذاته، ليصرح له بفتح كرسال للقاهرة في القاهرة .

فلو كان ( اسماعيل ) الأمير المتمطش الى المال ، الذى يصفه أعداؤه ، الراضب في الحصول على القود من أى باب ولو ضاراً برطايه ، لما أحجم عن قبول المبلغين الكبيرين اللذين عرضا عليه ، ولبرر نفسه بحجة رغبته في صرفهما فيما يعود على مصر بانغير، سابقا في تبرره بهذه الوسيلة ، المستر سسل رودز المشهور ، الذى يروى عنه أن الظروف جمعت ، يوما ، في حفلة مع الكولونيل جوردن ، عقب عودة هذا الرجل اليوريتاني المذهب من الصين ، حيث كان قد أخذ ثورة التايبينج . قصص جوردن على الحاضرين كيف أن امبراطور الصين ، لكي يكافئه على خدماته المديدة الجليلة ، لاسيما في إنجاده نيران تلك الثورة الهائلة ، التي كادت تذهب بهرشه ، أخذ الى حجرة ملائى ذهباً ، وقال له : « خذ كل ما فيها . فانه مكافأتى لك على ما فعلت ! » فرفض جوردن قائلاً : « إنى لم أعمل إلا الواجب على . ولست أستحق على أدائى واجبي مكافأة ما ! » فانظر سسل رودز تأففا من ذلك ، واستنكارا له . فالتفت جوردن اليه وسأله : « ترى ، لو كنت مكافى ، أكنت تقبل ؟ » فأجاب سسل رودز : « بلا شك ! وكنت استخدمت ذلك الذهب في اكتساب امبراطورية جديدة لبريطانيا العظمى ! » .

على أن أكبر تعديل اجتماعى أدخله ( اسماعيل ) على حياة أمته المصرية القومية ، وأكبر هزة ، بالتالى ، هزتها عقليتها ، في صميمها ، انما هو عمله على إبطال النخاسة والرق وتحرير العبيد .<sup>(١)</sup>

إبطال النخاسة  
والرق

(١) أهم مصادر كلاً من الرق والنساء النخاسة ، فبا يختص به التاريخ المصرى في عهد اسماعيل ، هي : "مصر كما هي" لماك كون ، و "مصر" لماريوت ، و "اسماعيلية" لسيه صبرويل بيكر ، و "مصر وعهد علي" لمادن .

الرق في الاسلام فان الرق ما حق رقيق الحروب الاسلامية ، حيثما دارت رحاها ، وأليف الحياة السائلة الاسلامية ، حيثما قامت معاملها . لا لأنه أصل من أصول الدين والحشمة الاسلامية ، كما كان يعتقد الأوروبيون ؛ ولكن لأنه ، من الوجهة الحربية ، موروث عن القرون التي سبقت الاسلام ، وقد عمل الاسلام على محو هذا الإرث من نفوس المسلمين فأوصى النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا بالرقيق خيرا وحض على حق من وقع في الرق ووعده بالثواب الجزيل من الله تعالى على هذا العتق حتى أصبح من قواعد الاسلام تشوف الشارع للعزية الشخصية . ولكن المسلمين بعد القرون الأولى انقسموا في أسباب الترف ، وإنفذوا في تيار اللذات ؛ فأدى ذلك بهم الى انحلال والكسل اللذين أصبحا ، فيما بعد ، من أكبر أسباب المخطا في مضمار الحياة العملية ، وعدم أخذنا بما قيل لنا من أن "نعمل لدنيانا كأننا نمشي أبدا" ؛ وأدى بنا من جهة أخرى ، الى حمل قول الكاتب العزيز (وما ملكتم أيمانكم) على إباحة استرقاق المرأة المسلمة من طريق البيع والشراء .

فأقبل فقراء المسلمين ، لا سيما في الكرج والقوقاز ، يبيعون أولادهم ، باختيارهم ، وهم يرمون بذلك الى التخلص من عبء تهويم أود معاشهم ، من جهة ؛ وإلى التطويع بهم في بحر الحداث ، من جهة أخرى ، عسى أن تذهب أمواجه بهم الى شواطئ السعادة والعز . فان كانوا إناثا ، ربما ترقن من بيك أو باشا أو وال أو من السلطان ؛ وان كانوا ذكورا ، ربما ترقوا الى أعلى المراتب ، فأصبحوا أمراء جيوش ؛ حكام باشا صاري صكر آخر جيش عثمانى قاتل (ابراهيم) الهام ، أو رؤساء دولة ، تكسروا باشا كبير وزراء السلطان عبد الحميد ، وأند أعداء (محمد علي) العظيم .

وأقبل أغنياء المسلمين يقتنون أولئك الفتيان والفتيات ، ويختصمون بالفتيات لقضاء لذائهن وأوطارهن ، وهم لا يعتقدون أنهم ، بذلك ، يرتكبون إثماً ، أو يأتون نكراً ؛ جهلاً منهم بأصول دينهم . فاضطروهم الكارم من إتياع الجوارى واقتنائهم لمن في بيوتهم الى الاستمرار على اقتناء الخصبان لحواستهن ، وإلى الاكثار من شراء الإماء السود لخدمتهن .

ولكن إغلاق باب الحروب أدى الى تمرد الحصول على العبيد . فنشأت من نشوء النخاسة ذلك النخاسة وترعرعت ، وفشت فشتوا عظيماً ! والنخاسة هي صيد السود ، صيدا ، وتقييدهم بالحديد ، وسوقهم الى أسواق بيع الرقيق ، كالأنعام ، حتى لقد يموت كثيرون منهم في الطريق !

ولم يكن العالم المسيحي الغربي أقل تمسكاً بمبدأ الاسترقاق من العالم الاسلامي في الزمان المتأخر ولكن لدواع غير دواعيه . فالمسلمون كانوا يقتنون من الرق ، على العموم ، التمرى والترغى ؛ وأما العالم المسيحي فكان يتنى منه الاستغلال والنفع . فكانت نتيجة اختلاف الفرض بينهما أن العالم الاسلامي ، على العموم ، كان يبنى بالرقيق اعتناء المرء بوسائل لذاته ، وبمامله معاملة المصروف عائلته ؛ بل كثيراً ما يزوج الأرقاء من بناته والرفيقات من أولاده . ولو أن هناك استثناءات نادرة قد تؤخذ حجة على خلاف ذلك : كإقدام أحمد الجزار باشا ، وإلى عكا ، في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، مثلاً ، على قطع أنوف جواريه ، وأذنانهم ، ونهدهم ، وألستهم على سبيل التسلية والتفكهة ؛ وإقدام (ابراهيم) الهام نفسه ، في ساعة غضب شديد ، على قتل مملوكه المفضل عثمان ، لنهايه الى الحمام بدمشق بدون إذن منه ، وأمره بدفنه ، بحيث تظهر قدماء خارج الأرض فتأني الكلاب

وتنش جثته ؛ أو إقدامه يوما، شرب فيه أحد أولاده، وهو طفل، لبنا، فاضترأه ألم، فاضطربت والدته واتهمت أربعا من جواربها بأنهن سممنته، على إصدار أمره بالقائم حالا في النيل، قبل التثبت من صحة التهمة — وقد كانت كاذبة<sup>(١)</sup>؛ أو كإقدام (عباس) على الأمر بجياطة شفتي جارية من جوارى قصره صادفها تدخن في إحدى طرقاته — وكان التدخين محظورا على أمثالها وضرر مسموح به في التصور إلا لرباتها، أزواج أربابها الشرقيات .

على أن هذه، كما قلنا، كانت استثناءات نادرة . ولذا فإن الرقيق في الاسلام لم يكن يشعر بأنه تمس، أو ممتن ومحقر . بل كانت يفتخر بانتسابه الى مواليه، ولا يبنى عن الحال التي هو فيها حوبا .

وأما العالم المسيحي الغربي، فكان يعامل الرقيق، على العموم، معاملة غفلة وقسوة، فيتعبه ويشقيه على نسبة القائمة التي كان ينتظر أن تعود عليه من زيادة أتعابه وإشفاقه . وكان الرقيق فيه يشعر، شعورا لا مزيد عليه، بذلك وحقارته وبؤسه، ويرضب، من صميم قواده، في أن يتخلص، ولو بالموت، من المصيبة التي هو فيها .

اقرأ كتاب "خص الم طم" الشهير لمؤلفته الست هنرييت بينشرستو . فأتى ذلك الى نشوء حركة في العواطف والأفكار، أخذت تعمل عملا حثيثا على إبطال الرق، واجتثاث جذوره .

تلك الحركة بدت، على الأخص، في إنجلترا، في أواخر القرن الثامن عشر، بهمة نفر من رجال الفضل، أشهرهم جرانفل شرب، الذي ماقي، مدة نصف قرن برمته،

الرق في البلاد  
المسيحية فيه  
في الاسلام

نشوء الرغبة  
في إبطال الرق

(١) "مصر" لمرسيل : أنظر في الكتاب الجزء المنون "مصر الحديثة" ص ٤٤

(٢) أنظر : الكتاب ص ٤٤



يُمَاحِد في سبيل إبطال الرق ؛ وبمِسانى الرجال الانجلىلىن المَعروفين باسم ”الكويكرز“ أى (الراجفون) الذين قَدَموا الى البرلمان البريطانى طلبا بإبطاله .

ثم أقبل كلاركش ينشر مؤلفاته ، ويبذل همته للفرض عينه ؛ وانضم اليه ويلبرفوس بعد ذلك بقليل ، ولا مقصد له من الحياة سوى حمل البرلمان على إصدار قانون يبطّل الرق والاسترقاق . فجاءه ما ، جهادا طويلا ، أقامهما في مصاف أكبر المحسّنين الى الانسانية قاطبة .

فتأسست في يونيه سنة ١٧٨٧ لجنة مؤلفة من اثني عشر عضوا ، معظمهم من ”الكويكرز“ لإبطال الاتجار بالرقيق . ولكنها صادفت مقاومة عنيفة من أجل رجال مصر ، وعداء شديدا . فلم تبال ، وقمت على لسان ويلبرفوس طلبا الى البرلمان في سنة ١٧٨٨ ؛ وما زالت تنشر مجهوداتها ، ويبذل ويلبرفوس أمواله وجهوده ، حتى فاز بمرامه ؛ واستصدر من البرلمان الانجليزى في سنة ١٨٠٨ قانونا بإبطال الاتجار بالرقيق .

فالتفتت الحكومة الفرنسية بالبرلمان البريطانى ، وأصدرت في سنة ١٨١٥ أمرا قضى بما قضى به ذلك القانون . على أنه كان قد سبق الجمعية الدستورية الفرنسية أن اعترفت بقرارها الصادر في ١٥ مايو سنة ١٧٩١ بمساواة عموم البشر في الحقوق الشخصية ، والمدنية ، والاجتماعية ، بضرب الصفع عن جنهم ، وملتهم ، ولونهم .

وسار مؤتمرهنا في سنة ١٨١٥ في الطريق ذاتها . فنع هو أيضا الاتجار بالرق .

على أن الاسترقاق لم يزل، مع ذلك، جاريا : لأن مبدأ الرق نفسه لم يحظر وإن حظر الاتجار بالرقين، وقضت كل النخاسة قرارات مؤتمري إكس لاشابل سنة ١٨١٨ وبيرونا سنة ١٨٢٢ الدوليين .

فتأسست في سنة ١٨٢٣ جمعية تحت رئاسة كلاركش، وويلبرفوس، وبكستن، في إنجلترا ، غرضها العمل على تخفيف ويلات الأرقاء ، وإبطال الرق تدريجيا في الممتلكات الانجليزية . ولكن الكويكة البصابت جريك أذاعت نشرة عنوانها : "وجوب إبطال الرق حالا ، لا بالتدريج" حملت بها تلك الجمعية على التخل عن مبدأ الإبطال التدريجي ، والانضمام اليها في المطالبة بالإبطال السريع . وكانت الأفكار والقلوب قد تهبّت الى خطورة المسألة ، ومتزلتها من الرق البشرى الحقيقي . فوجدت الحركة ، التي قامت بها تلك الجمعية ، أرضا صالحة ، نمت فيها بذور تعاليمها بسرعة عجيبة ، وهب الرأي العام كله يؤيدها ويعضدها .

فأصدر البرلمان البريطاني قانونا في آخر سنة ١٨٣٢ حدّد بمقتضاه يوم أول أغسطس سنة ١٨٣٤ لتحرير عموم الأرقاء في دائرة الممتلكات البريطانية ؛ وخصص مبلغ عشرين مليونا من الجنيهات لدفع تعويضات منه الى موالى الأرقاء المحتررين . فما أنى عام ١٨٤١ إلا وكانت بريطانيا العظمى قد حررت نيفا واثني عشر مليون رقيق في أملاكها الهندية الشرقية وحدها .

تحرير الأرقاء  
في عموم الممتلكات  
البريطانية

فلم تشأ الدول الأوروبية أن تتأخر عنها في ذلك المضار الشريف . فأبطلت حكومة السويد الرق في سنة ١٨٤٦ وسنة ١٨٤٧ ؛ وأبطلته حكومتا فرنسا والدانيمرك في سنة ١٨٤٨ ؛ وحكومة هولندا في سنة ١٨٦٢ بدون تمويض لموالى الأرقاء ؛

اتحاد الدول  
الغربية بريطانيا  
العظمى

وأبطلته باقي الدول ، بالتدريج ، حتى اسبانيا نفسها ؛ ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية قورت إبطال النخاسة منذ سنة ١٨٠٨ وأصدرت قانونا في سنة ١٨٢٠ اعتبرتها ، بموجبها ، ضريبا من ضروب القرصنة ، فإن مبدأ الرق لم يبطل فيها ، تملأ ، والعمل به لم ينقطع كلية ، إلا بعد أن قامت الحرب الأهلية عليه بين ولايات الشمال وولايات الجنوب ، وفازت الأولى — وكانت ضد مبدأ الرق — على الثانية المتصينة له ، فأجبرتها على الرضوخ لإرادتها .

تحول الجهود  
لإبطال الرق  
في العالم الاسلامي

ولما لم يدبقي من رق في العالم إلا في البلاد الاسلامية ، للأسباب التي سبق لنا ذكرها ، تحولت مجهودات مبطليه والمطالبين بإبطلاله ، الى تلك البلاد ؛ وكان قد غاب عن أنظارهم أن الرق في الاسلام غيره في النصرانية ، وأن إمكان كان قد قال ، منذ نيف ومائتي سنة : « ما هو صواب في هذه الجهة من جبال الپيرنيات قد يكون ظلما في الجهة الأخرى منها ! » .

فشرعوا يؤلفون الجمعيات لإبطال الرق في الدول الاسلامية ، ويتدبون الوفود لمقابلة عواهلها ، ومفاتحتهم في هذا الشأن ؛ ويحضون دولهم على التداخل في الأمر ، ووضع حد « لذلك المار الانساني الذي لا يطاق » .

فحملت الحكومة الانجليزية السلطان عبد المجيد ، بما كان لها عليه من أياد ، بسبب تدخلها بينه وبين تابعه (محمد علي) ، وإذلالها هذا بين يديه ، على وضع ققرة في الفرمان الذي أصدره اليه في سنة ١٨٤١ مؤتاهها : « أن أبطل صيد السود . فإنه عمل لا يتفق مع مبادئ العدالة والانسانية ! » .

على أن لا انجلترا ولا عبد المجيد كانا يقصدان ، من مثل هذا القول ، حض (محمد علي) على إبطال النخاسة . أما انجلترا ، فانها ، من جهة ، كانت تجهل فظاعة

النخاسة في السودان — لأن تلك القطائع لم تعرف في أوروبا إلا بعد رحلات ليفنجستون ، وبيكر ، وستانلي ، ونشر هؤلاء الرحالين الأفاضل البيانات التفصيلية عنها — ولأنها ، من جهة أخرى ، كانت تشعر بأنه لا يحسن أن يخاطب بإبطال النخاسة أمير مسلم ، بينما أن معظم الدول الأوروبية والأميريكية المسيحية لا تزال مجيزة لها . وأما عبد الحميد ، فلأنه كان يعلم أن إبطال صيد السود يقضى ، حتماً ، بإبطال الخصبين ، ولم يكن في وسعه الاستثناء عنهم .

فناية ما فهمه (محمد علي) من الفقرة التي زيدت في فرمان سنة ١٨٤١ هو أن الجبلات والسلطان يمشيان منه حودا إلى صيد السود لتجنيدهم على غير علم منهما ، في جوف البلاد ، وأنها يأتين عليه ذلك . ولا يبعد أن فهمه كان في محله . غير أنه كان قد صمم تصميما باعا على عدم إعادة الكرة على الدولة العثمانية ، وكان قد اختبر ، من جهة أخرى ، قلة صلاحية السود للجندية في غير السودان ، فلم يكن يهيمه البتة ، قنص السود ، لاخذ جيش منهم ، ولا همه ، يوما في حياته ، اقتناصهم لاسترقاقهم ، واتخاذ خصبيان منهم . بل كان يهيمه ، بالعكس ، عمار السودان وتقدمه ، كما دل سفره اليه في سنة ١٨٣٩ ، وزيارته لأبعد أصقاعه ، حتى الفاوغل ، بالرغم من أن سنه كانت فوق السبعين ، وإقامته محطات عسكرية على ضفتي النيل ، وإنشائه مدينة الخرطوم عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق ، وإعلانه حرية الملاحة على النيل الأبيض ، وإبطال تجارة الرقيق ، وكما دل ، أيضا ، تشجيعه رجال العلم كسبك ، وجرائن ، ولقروني ، وغيرهم ، على جوب البلاد واستكشاف أسرارها . ولكن رجال الحكومة المصرية وموظفيها ، في أيامه ، وأيام خلفائه الثلاثة الأول ، بل في أيام (اسماعيل) ذاتها كانوا يدبرون الغزوات في أطالي النوبة والسودان ،

ويشتون الفارات على قبائل السود ، فيصطادون منها ما يمكنهم صيده ، ويعبونه في أسواق الرقيق بالخرطوم والقاهرة وغيرها ، فيصبيون ، من ورائه ، أرباحا طائلة .

فبدأ ذلك (بسميد باشا) الى السفر بنفسه الى السودان في نوفمبر سنة ١٨٥٧ بصحبة جيش عدده خمسة آلاف رجل ، تخلى عن معقله حاملا جاوز الحدود المصرية ، ولم يصطحب منه ، الى بربر ، سوى خمسمائة فارس — فقابل في بربر وجهاء البلاد ، وأظهر لهم نياته في تحسين أحوال السودان وتشجيع وسائل العمران فيه ، وأعلن رغبته في إبطال تجارة الرقيق . ثم قام الى الخرطوم ، فبلغها في ١٠ فبراير سنة ١٨٥٨ ، وبعد أن أوشك أن يعزم على التخلي عن السودان برمته ، لياسه من إصلاحه ، قبل رجاء من رجاء في تغيير عزمه هذا ، من الوجهاء ، وأمر بإجراء عدة تعديلات إدارية ، بكامل كل مديرية مستقلة عن الأخرى ، لا ترجع في أحكامها إلا الى مصر ، وعدة إصلاحات ، كتنظيم البريد بين الخرطوم ومصر على المجرى بطريق كرومسكو ، وكخفض الضرائب على الأتبان والسواق ، ومنع الجند من جمعها ، وإناطة ذلك بمشايخ البلاد على أن لا يجمعوها إلا بعد الحصاد ، وكترتيب عقد ناد من الأحيان في الخرطوم ، كل سنة ، للنظر في راحة البلاد ، وإنشاء محطة عسكرية على نهر سويت لمراقبة تجار الرقيق ، وقطع دابر النخاسين . ولما عاد الى مصر ، فكر في إنشاء سكة حديدية تجمع بين القطرين ، وتسهل مراقبة سير الأحكام واحتلالها ، مهما بسدت الشقة ، بين الولايات ولكنه لم يتمكن من إبراز فكره هذا الى حين الوجود ، كما أن إعلانه إبطال الرقيق لم يجد نفعاً ولا أفادت المحطة العسكرية

على نهر السويت شتاً، لأن البلاد لم تكن ناضجة لإبطاله، ولا راضية به؛ ولأن الحياة الاجتماعية لم تكن تستغنى عنه<sup>(١)</sup>.

فناد المطالبون بإبطاله من الغربيين إلى التفتيح في أبواقهم، وهم لا يدرون من الملووم في إيقاعه.

فلما آل العرش إلى (إسماعيل)، وصمم هذا العاهل، كما قلنا، على إدخال بلاده، بصراحة، في مضمار المدنية الغربية، وطن نفسه على إبطال الرقيق، توطينه إياها على إلغاء العونة والسخرة كقول تون ستيفان في كتابه "داس هونجى إيجيتن ص ١٥٣"، وكانت النخاسة، إذ ذاك، في أشدها، بالرغم من مقاومة (عبدعلی) و(سعيد) لها، وبالرغم من عمل الحكومة المصرية على تقليل توريد الأرقاء، نيلاً، وإبطالها أسواق الرقيق الرسمية بمصر والاسكندرية وطنطا وغيرها من البنادر!

"فالبصرة" في جهات النيل الأبيض، و"النهضة" في جبال النوبة وجبال فازوغل، وفي جهات كردوفان الجنوبية، كانوا لا يفتأون هاكفين على صيد السود بقوة السلاح، كأنهم وحوش برية؛ وسبيهم والسير بهم إلى أسواق الرقيق في الأبيض وفاشوده، والقلابات، حيث كان الجلابون يشترونهم منهم؛ وبعد أن يبيعوا أقلمهم قيمة في أسواق الخرطوم، والمسامية، وود مدنى، وستار، والقضارف، وكسلا، وبربر، وشندى، ينزلون بأقوامهم وأجلهم إلى مصر، إما عن طريق النيل، في مراكب يرفعون عليها رايات دول غريبة، ليحتموا بها؛ وإما عن طريق الصحراء، إلى أسبوط، حيث كان يوجد معمل للخصى، يديره قسوس من الأقباط

(١) أنظر: مريش "مصر الماصرة" في الكلام عن السودان، وإدوين دى ليون "مصر الخديوية" ص ٣٤٧ وما إليها.

حازوا، في أنهم من أمهر الناس في إجراء ذلك العمل التقطيع، شهرة شائعة، وينسلون منها سرا إلى مصر والإسكندرية، وأهم بنادر القطر، ويعرضون بضائعهم البشرية على الراغبين فيها، إما باطلاع رجال الحكومة، ومواقفتهم الصامتة؛ وإما خفية وخلسة بمساعدة شركاء لهم معلومين.

وكان ثمن الولد الأسود أو البنت للسوداء التي من عمره، ما بين عشرة جنيتات، واثني عشر جنيتها، وثمان الصبي الحبشي، ما بين ٢٠ و ٣٠ إلى ٩٠ جنيتها ومائة جنيه؛ وثمان البنت الحبشية التي منها ما بين الثانية عشرة والسابعة أو الثامنة عشرة، من ٧٠ جنيتها إلى ١٠٠ جنيه؛ وكان ثمن الرقيقات التي سبق استخدامهن أرخص من فبرهن، إلا إذا كنّ من صاحبات الحرف، كأن تكن طاهيات أو ماشا كل ذلك. فانهنّ، في مثل هذه الحال، كنّ يعمن بثن أعلى. وأما الخصيان، فكانوا أعلى ثمنًا من الجميع، لندرتهن. والسبب في ندرتهن قلّة نجاح عملية الخصى، وموت تسعين في المائة من الذين كانت تعمل لهم.

وكان يوافي جلابو الرقيق الأبيض جلابو الرقيق الأسود إلى تلك الأسواق. والفرق بين الرقيقين جسميًا: لأن الرقيق الأبيض كان اختياريًا، وأما الأسود، فكان مجلوبًا قسرا. وكان ثمن الجارية البيضاء يختلف بين ٢٠٠ جنيه ونعمسمائة، ويزداد، أحيانا، تبعا لجمال الجارية المبيعة، فابن ٨٠٠ جنيه وألف جنيه.

وكان الراغبون في الشراء كثيرين، إما لسدّة فراغ أحدثه الموت في عدد الأرقاء الموجودين في بيوتهم—والموت كان كثيرا لزيارة الأرقاء، وأغلب ما كانت أعمار هؤلاء البؤساء قصيرة!— وإما للغلاظة في مظاهر الأبهة والترف. فقد كانت توجد بيوت غاصة بالمئات من الجوارى، ولا يعرف أربابها منهنّ إلا القليلات، فيقبلون،

أفرادا أفرادا ، على محلات الجلادين ، ويشترى ما يطيب لهم من الرقيق المعروض ، وهم أبعد من أن يفتكروا ، حتى ولا في المنام ، بالفظائع والآثام والجرائم التي ارتكبت في سبيل تموين بيوتهم ، وسد حاجة معيشتهم القومية ؛ أبعد من أن يفتكروا بأن النخاسة كانت تتزعج ، سنويا ، أكثر من خمسين ألف أسود من حقولهم وورابهم ومرابعهم ، فلا يبقى منهم ، حيا ، كل سنة ، بعد المشتقات التي يقاسونها ، سوى عشرة في المائة ؛ وأن النخاسين كانوا ، حتى بعد وصول الرقيق الى مصر ، يفترون حياة أولئك البؤساء الى درجة أن اثنين منهم تخصم ، مرة ، على ملكية بنت سوداء ، فتلحقها أحدهما بمنحجر ، ليكلا يأخذها خصمه .

هكذا تشتري موسرات الغرب ، وعقائل كبار سراته وذواته الدنكلات والتطريزات والأشغال اليدوية النسائية الأخرى بمن صغر أو عظم ، ومن لا يفتكرن ، لحظة ، بأن أيدي قيات بأئسات ربما أمضين غالب أيامهن بدون عشاء ، هي التي اشتغلت ، في سهرات الليالي الشتائية الطويلة ، وعلى نور الزيت الضئيل ، تلك الحاجيات التي يتطلبها الظرف ، وتوجبها الكياسة .

وكان الجلليون يبيعون رقيقا الى أوردوبيين ، ولا يقدمون على ذلك ، إلا بحيلة كبرى ؛ لعلهم بأن معظم الفرنج ميالون الى إظهار قمتهم على تجارهم البشرية ، أو التظاهر بها ، رغبة منهم في وقوفهم موقف المرء ذى الشعور الرقيق والإحساس الشفيق !

فما مضت على تبوء ( اسماعيل ) عرش أبيه وجهه بضمة أشهر إلا وأصدر أوامره المشددة الى موسى حمدى باشا ، المعين من قبله ساكنا عاما على السودان ، بتحقيق تجمار الرقيق وقطع دابرهم . فالتقى موسى باشا في تلك السنة حينها سنة ١٨٦٣ القبض

انضمام اسماعيل الى  
الحركة التحريرية



على سبعين مربحا مشحونة بالأرقاء بين كاكافاشودة، وأتى بالمسيبين الى الخرطوم .  
ثم أحضر ملك «الشلك» من فاشودة ؛ فسلمه الرقيق الذي أخذ من بلاده، ورجعه  
بالهدايا اليها . ووزع الباقي على التجار والموظفين لتربيتهم . وأما النحاسون ، فانه  
زجهم في السجن ، ولم يخرجهم منه حتى تمهدوا بدم العودة الى مثل تلك التجارة —  
وعود عرقوبة باطلة !

على أن (اسماعيل) كان يعلم علم اليقين بأن إبطال النحاسية يستدعي ، أولا ، إبطال  
الرق بصفته حالة اجتماعية ، لأنه علته . ولكن أنى يتأتى إبطاله ، وتقاليده شعبه ،  
ومصالح جانب عظيم من رعاياه واقفة بجانبه ، للدفاع عنه ؟

ولكن عزيمته لم تكن لتنتهي أمام عقبات ، مهما كان نوعها ، ومهما كانت جسامتها ؛  
وما لم يكن يستطيع مصادمته ، جبهة لجبهة ، كان يصادمه جنبا بلجنب . قسطنطين ، إذا ،  
بالمبدأ الديني القاضى بيجواز تحرير كل عبد يسمى مولا معاملته ؛ وأصدر حالا بعد  
ارتقائه العرش أمرا بتحرير كل عبد أو أمة يثبت على سيدهما أنه أساء معاملتهما<sup>(١)</sup>.

فشعر العالم المصرى بأنه هوجم في عقرداره ؛ وأحسن بستان الرمح الموجه اليه ،  
بمس صميمه . فهب لدفع المعجمة والاعتصام منها ، وراء حصن مبدأ ديني آخر ،  
وهو المبيع للسيد أن يعاقب عبده أو أخته ، المرتكبين سرقة . وشرع كل سيد يدفع  
تهمة الإساءة الى عبده ، المرتكن عليها لتجوز عقبه من رقبته ، بتهمة سرقة يرى  
عبده بها .

وبما أن شعور القضاة ، قاطبة ، كان في جانب السادة ، فما من عبد ينجح مطلقا  
في إثبات دعواه ولا ينجح أحد في تحرير عبده أراد تحريره بهذه الوسيلة ، وكاد الأمر

(١) أنظر : ماككون "عصر كاهي" ص ٣٢١

الذى أصدره (اسماعيل) يؤول الى مجرد البقاء جبراً على ورق، لحزب المطلوب منهم تنفيذ على عدم تنفيذه .

فعدّل (اسماعيل) وجهة هجمته، وحوّل السلطة في الحكم في دماوى الأرقاء الطالبين للتحرير من القضاة الشرعيين الى قناصل الدول الأجنبية . وأمر الهيئات الأهلية الحاكمة بإصدار العتق وقيده ؛ كلما طالبهم قنصل بذلك <sup>(١)</sup> .

فكان كأنه نجب "شلا" للارتطام "بكردي" <sup>(٢)</sup> أو، كما يقول المثل العربى ، "كالمستجير من الرمضاء بالنار" . فان القناصل لى يرضوا الرأى الأوروبي المطالب بإلغاء الرق وإبطال الانحياز به ، أخذوا يصكون بقرير كل مشتك ، بدون تحقيق شكواه ، والتثبت من صحتها . وبلغ من المتولى أعمال القنصلية البريطانية بالمنصورة سنة ١٨٧٣ — ولم يكن ، حتى ، نائب قنصل ! — أنه فى ظرف شهر واحد حمد تيفا و ١٧٠٠ رقيق . ولولا أن نخبه أرباب العائلات ارضعت حتى تناولت حنان السماء ، فأوجبت تداخل ذوى الشأن ، لحز ذلك المهترم كل أرقاء المديرية .

فضرب (اسماعيل) انماسا فى أسداس ، لما رأى رفاقه يعاكس تحقيقها خصومها وأصدقاؤها ؛ واضطر الى تعيين صوم أصحاب الأرقاء الذين حرّم ذلك المتولى بدون حق ؛ كما أنه اضطر الى تضيق سلطة القناصل وإشراك الهيئات المحلية الحاكمة معهم فى تحقيق الشكاوى التى يقدّمها الأرقاء ضد موالهم .

ولشعوره باضطراب الرأى العام حوله ، بحق ، بسبب التطوف الذى حصل من المنصر الأجنبي ، كاف نوبار باشا ، وزير خارجيته ، فكتب الى قنصل إنجلترا

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هي" ص ٣٢١ .

(٢) هما صبران هالان فى بروتاز سينا يقابل أحدهما الآخر ويتحلفهما الملاسة .

العام كتاباً أذيع للأشرف، أوقفه فيه على حقيقة نيات الخديو، وذكره «أن الدول الأجنبية لا سيما إنجلترا، لما حررت الأرقاء عرضت أصحابهم، وأن الخديو، بصفته أميراً مسلماً، لم يمكنه، فيما أصدر من أوامر متعلقة بتحرير الأرقاء، أن ينسى أن واجب عرشه يقضى عليه بحماية ما يقوّه الدين، وتوجب العادات والتقاليد القومية احترامه. ولذلك اقتضت إرادته أن يحترّم المساواة معاملتهم من الأرقاء لا كل من طلب العفو منهم<sup>(١)</sup>» .

والذي زاد في امتناض (اسماعيل) في هذا الشأن، هو أن الغربيين أنفسهم الذين كانت بلادهم وحضارتها تطلبه بالحاح بالعمل على إبطال النخاسة والرق في بلاده، كانوا أكبر عقبة تصادفها مساعيهم المبذولة في السبيل الموصل إلى ذلك بما كانت امتيازاتهم تضمن لهم من سلامة في متاجرهم غير الجائرة، وتحميمهم من عقاب في إقدامهم على مخالفة أوامره. وقد أظهر امتناضه هذا بقوة لهجة يعجب بها، فيما أجاب به، بلندن، رجال وفد الجمعيات الانجليزية والفرنساوية لمقاومة النخاسة والرق، الذين اغتنموا فرصة وجوده في تلك العاصمة في سنة ١٨٦٧، وطلبوا مقابلته ليرفعوا إليه رغبة تلك الجمعيات في أن يحقق خديو مصر أمنية الحضارة الغربية، وأمل الإنسانية الراقية فيه .

فانه أذن نوبار باشا بادخلهم عليه، والقيام بأمر الترجمة بينه وبينهم، عملاً بمقتضيات الرحيمية، ولو أن (اسماعيل) كان يتكلم بالفرنساوية كأحسن متكلم بها فيهم . فقابلهم بلطفه المهود الخلاب، الذي كان يسحر به كل من يصادفه، فيميل بمواطنيه إليه كيفما شاء . وقال لهم بالتركية، فترجم نوبار كلامه بالفرنساوية :

(١) أنظر : «مذكرات» «مصر كما هي» ص ٣٢٢

«إنه ملشرح تمام الانسراح لمقابلة حضرات أعضاء الوفد، بصفتهم توابا عن الجمعيات الانسانية الموقرة العاملة على إبطال النخاسة والرق، لأنه، هو نفسه، يرغب جدًا في إبطالها، واتخذ أقوى الوسائل لذلك. ولكنه يرى بالأسف، أنه اذا كان في وسعه أن يرغم شعبه على الامتنال لأوامره بالرغم مما في الامتنال لها في موضوع الاقلاخ عن النخاسة والرق، من مضاضة على تفوسهم وإضرار بمصالحهم، ومخالفة لتقاليدهم، فانه لا يستطيع عملا مطلقا ضد الأوروبيين أنفسهم، المقيمين في بلاده، والذين هم أكبر المجرمين. فانهم يتجرون بالعاج وريش النعام والصمغ، اسما وحجة، ولكنهم في الحقيقة إنما يتجرون بالرق في سرايهم النازلة في النيل. فلو أن تلك المراكب لا راية لها، أو كانت الراية المصرية هي الخافقة عليها، لأمكن تفتيشها: فاذا وجد فيها رقيق صودرت وضبطت، فأحق الأرقاء وحقب المجرمون، كما وقع في بحر الستة الأشهر الأخيرة من السنة الماضية. فان كومنلانا وأميرالا مصريين ربما بالرصاص، لإقدامها على مخالفة أوامره، ومساعدة النخاسة وتهريب الرقيق. ولكن المراكب الآتية برقيق ترفع، دابة، راية إحدى الدول الغربية، لكون أصحابها أوروبيين. فاذا تعرض لها رجال حكومته ونشأ بينهم وبين أصحابها جدال بخصوص المشحون والحمولة البشريين، فالجواب المفعم هو أن الرجال نوتية والنساء أزواجهم أو سراريهم، والصغار أولادهم. فتغل، بذلك، أيدي السلطة المصرية. ألا فليعلموا أن النفوذ الأوروبي، في مدة السنين الثلاثين الأخيرة، قد غير مصر تغييرا كلياً. فلو كانت الحكومة المصرية حرة في معاملة النخاسين الأوروبيين معاملة النخاسين الخاضعين لسلطانها، لبطلت النخاسة، وبطل بالثاني الرق بعد مدة يسيرة. ولكن حكومته غير حرة في ذلك. والواجب يقتضي أن تمنحه الدول الأوروبية السلطة

الكافية لاستعمال حق التفتيش في المراكب التي تخفق عليها راية غربية . أما إبطال الرق ، فمسألة أخرى . فالرق موجود في القطر منذ تيف ١٢٨٣ مسنة ، ويكاد يكون ممزوجا بدينه . ولا شك في أنه نظام فظيع ، ويود ، هو ، لإطاله : لأن المدينة والرق بمصر يستدعيان ذلك . ولكنه لا يتيسر عمل هذا في يوم واحد . على أنه لو بطلت النخاسة ، بطل الرق في ظرف ١٥ أو ٢٠ سنة على الأكثر ، أو لما بقي إلا أثر قليل منه . فوأيه ، والحالة هذه ، مخالف لرأى حضرات زائريه . لأنه يعتقد أن النخاسة أس الرق في بلاده ، وأنه يجب إبطالها ، لكي يمكن لإطاله ، وإلغاء القنصلية البريطانية في انطروم ، مثلا ، مكنه من العمل ضد النخاسين بجاح ، ولذا فان الطريقة الوحيدة الفعالة في معاملة التجارة الرقية هي أن تسلمه الدول الغربية بسلطة منع الأوروبيين من الإقدام عليها ، ومباشرتها <sup>(١)</sup> .

ولكن امتعاض (اسماعيل) من النخاسين الغربيين لم يكن ليقعد بهمته عن تميم مشروع إبطال النخاسة والرق الذي وطن نفسه على فحاده . لأنه كان يعلم أنه بمثابة حجر الزاوية من بناء الحضارة الغربية الذي صمم على إقامته في البلاد ؛ وأنه إن أهمله فقد ينهار ذلك البناء بكيفية لا يعود معها من سبيل الى إعادة الكرة ومحاولة تشييده .

وهو — ولو أنه بعامل تربيته العائلية الأولى ، وتأثير منبهه الأصل — كان مكثرا من اقتناء الحسان من الجوارى على الأخص ، والجوارى على العموم ، حتى لقد قال بعضهم إن سردياته كانت تحتوي على ألقى جارية ؛ وأنه كان شديد الحرص عليها ، لا يسمح لأحد برؤيتها ، ويقاب أشد العقاب حتى من تجاسر على استراق النظر

(١) أنظر : "عصر الخديوي" لادمون دي ليون ص ١٦٧ و ١٦٨

اليهن<sup>(١)</sup> . إلا أنه كان مقتنعا بأن تملكات الإيام كانت قد بلغت بمصر في عهده الى موقف لم يعد معه بدّ لحياتها القومية من أن تحمل في جسمها الحضارة الغربية محل الروح القديم ، وإلا تفككت وانحلت كما يتفكك ويحل الجسم المهرم ، القائمة فيه روح هرمية . وكان يعتقد أن أهم مميزات الحضارة الغربية إنما هي علاقة المرأة الغربية بالرجل ، ومركزها في الحياة العائلية منه ، وهما علاقة ومركز لهما ، حتما ، عما يتقدمه الرأي العام الأدبي الغربي في وظيفة المرأة في الوجود . فبينما الحضارات ، التي دالت ، كانت تعتبر المرأة متاعا ، ومتى كانت تحسن الرأي فيها تعتبرها آلة تناسل ، أى أم أولاد ، فإن الحضارة الغربية الحديثة أبّت عليها إلا أن تكون رفيقة الرجل وشريكته في حياته ، تشاطره أمتعها وهمومها ، وأفراحها ولذاتها . فدعتها ، لذلك ، قرينته ، أى المرتبطة به ، ارتباطا الند بالند ، بينا الحضارات الأخرى كانت تدعوها "حرمه" أى "متاعه" و"النسئ الخاص به المحرم على غيره" . فكان يؤدّ ، أنا ، لإبطال الرق ، ليتوصل من إبطاله الى إبطال حياة الحریم . وجعل المرأة بالتربية الجديدة ، التي تعطى لها في المدارس الحديثة ، رفيقة الرجل وشريكته في حياته ، أى جسم جسمه ، وروح روحه .

وكثيرا ما كان يقول في محادثاته في هذا الموضوع الخطير : « إن تعدّد الزوجات وحشية الحریم ببطلان يوم تمكن تربية بنات الفلاحين التربية المنزلية من إحلالهن

(١) وقد كاد يغير ذلك اخبارا مرأء الشبان الثلاثة الذين خاطروا بأقسامهم ، مرة ، وانسلوا الى داخل بيتان إحدى سراياه حيث تمزجوا ، مليا ، على نسائه يلعبن ويداعبن بعضهن بعضا . فقتلن لهن أحد الخصيان وحاول القبض عليهن ، فهربوا . فلاردنهم وكاد يظفر بهم ، لولا أنه وقع في بركة ماء . فحتموا من تسلق السور والإمراع الى مركب كانت على شاطئ النيل . فأغفاهم صاحبها فلاحها ، فأنكر أنه رآهم بالمرة ، لما أراه الخصى معه شرذمة من البلط وسأله عنهم .

في الليوت محل الرقيقات ، اللاتي هن مصروف كبير ، وضرر أكبر ، ويوم تجعل ،  
التربية المدرسية المرأة رفيقة الرجل وشريكة حياته . أما الآن ، فما هي عادة إلا مادة  
ترف ! » .

وللدلالة على أن رأيه هذا كان رأيه الحقيقي ، لا رأيا يتصنع به إرضاء لخواطره  
الغربيين المحيطين به ، أو رغبة منه في اكتساب ثناء الرأي العام الغربي ، والظهور أمامه ،  
كذبا ، في مظهر الأمير المتحضر الراق ، أبي إلا أن يكون أولاده الثلاثة الكبار أزواج  
قريئة واحدة ، وأبي أن يكون لبناته ضرائر عند أزواجهن .

ولئن اعترض على صحة إخلاص شعوره ، في ذلك ، بأنه لم يصحح ، هو نفسه ،  
عن الانتكاس من الزوجات ، والاستئثار من الجوارى ، فالجواب على الاعتراض هو أن  
مثله في شغفه بالاصلاح ، وفي عزيمته على إدخال بلاده في مضمار المدنية الغربية  
الحديثة ، كمثل بطرس الأكبر الروسي في ذلك جميعه . فكما أن بطرس ، مع بقاءه  
على نقائصه الشخصية ، قد بذل أقصى جهوده لتحرير شعبه من عبوه القومية ؛  
وكما أن بقاءه ، هو نفسه ، على نقائصه الشخصية ، وشعوره بعدم تمكنه من إرغام  
قوتها ، وهو الرجل صاحب الإرادة الحديدية ، ربما كان النافع الأكبر له الى الثبات  
في خطة الاصلاح القومي التي رسمها لنفسه ، هكنا ( اسماعيل ) — وقد وجد ،  
باختباره الشخصي ، الذي أرغمه عليه تكيف ماضى جدوده ، مضار إحلال المرأة  
من الرجل محل المتاع المحض — أبي إلا أن يتخذ من حاله الشخصية باعثا جديدا  
على بذل أقصى جهوده في سبيل تغيير حال قومه .

على أنه لو لم يكن له من نفسه هذا الباحث ، ولو لم يشعر ، من تلقاء ذاته ،  
بوجوب القضاء على النخاسة والرق ، للتمكن من تغيير حياة الحريم وإبطال التمرى ،

وتعتمد الزوابع، فقد كان يحصد من احتكاك أفكاره بأفكار أمراء الغرب، ومن الحوادث الجارية حوله، ما يولد في نفسه ذلك الباعث .

فان ألبرت إدورد، برنس أوف ويلز، وولي عهد المملكة البريطانية—وهو الذي عرفناه، في أيامنا هذه، الملك إدورد السابع — لما كان في ضيافته في أوائل سنة ١٨٦٩ كثيرا ما كان يحبذ تشديده في إبطال النخاسة والرق، ويختلق المناسبات ليحبب إليه فكرة إرسال حملة عسكرية الى عقر دار النخاسين في أقصى السودان، تضرب على أيديهم، وتقطع دابرهم، فيحمله على استمراء لذة المجد الذي تتوج أجيال المستقبل بهاته، ذكره، إذ تقرر باسمه، في تاريخ قومه، لقب "مبطل الرق" في السودان . وكانت البرنسيس أوف ويلز قرينة البرنس ألبرت إدورد — وهي الملكة ألكسندرا البازة أم الملك جورج الخامس البريطاني إمبراطور الهند — تنضم الى عملها في التحييد والتحبب، وتضفر بيديها الجميلتين بضما من الأشعة المتكونة منها تلك الهالة !

فتأمل، يارعاك الله !، في مقدار تأثير ذلك في نفس (اسماعيل) الكريمة !

ومن جهة أخرى، فان كبار النخاسين في السودان — وأشهرهم الزير رحمت باشا — كانوا بسبب إغضاء موظفي الحكومة المصرية عنهم، بل وضمهم معهم — وذلك «لأن كل موظف في السودان، سواء أكان تركيا أم مصريا، كان لا يستطيع اجتناب ميله الى النخاسة والنخاسين» حسب قول شفاينفرت، الرحالة الألماني — وذلك بسبب تقوى مواعدهم من النخاسة عينا، لتكوينهم، من الشبان السود، الذين كانوا يصطادونهم، وأبقى الأعبد، كتائب شعواء يتنوها في الأصمقاع، فتشر مهابتهم، وتكتسح لهم، كانوا قد بلغوا بذلك الى درجة من التبعة والطمع، حملت



معظمهم على الطموح الى الامارة والملك ، فالاستقلال بالجهات المنتشر ظل هيئتهم فوقها .

فكان لابد ( لاسماعيل ) من تشديد عزيمته على كسر شوكتهم ، والبطش بهم ، والحيولة بين زمرهم وبين رؤساء تلك الزروع ، التي كانوا يشنون غاراتهم عليها .

فانتدب ، أولاً ، لهذه المهمة ، السير صموئيل بيكر ، مستكشف بحيرة ألبرت نيازراً ، بناء على توصية البرنس أوغو ويلز نفسه ، وأنعم عليه برتبة فريق مع لقب باشا ، ومما حاكما على البلاد الاستوائية لمدة أربع سنين ، تبدئى من أول أبريل سنة ١٨٦٩ براتب قدره عشرة آلاف جنيه سنوياً ، وسيره اليها على رأس جيش مؤلف من ١٧٠٠ رجل ، معهم ثلاث بطاريات مدافع جبلية ، وبطارية ساروخ ، بعد أن زوده بفرمان من لدنه ، يعهد اليه ، بمقتضاه ، في فتح تلك البلاد ، وإبطال تجارة الرقيق فيها ، وتنشيط زراعتها .

فقام بيكر ، ومعه امرأته ، من السويس في ٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩ ، وذهب عن طريق سواكن وبربر الى الخرطوم ، وفي السابع من شهر فبراير سنة ١٨٧٠ قام منها بثلاثين مركباً ، فزل بالقرب من ملتقى نهر صوبت بالنيل الأبيض ، وبني محطة سماها " التوفيقية " ، تيمناً باسم ولي العهد ، أقام فيها سبعة أشهر . ثم سار في بحر الزراف الى جندوكورو ، فبلغها في ٢١ أبريل سنة ١٨٧١ ، وبعد أن أقام فيها شهراً ، رفع عليها العلم المصرى ، وسماها " الاسماعيلية " ، وجعلها مركزاً لحكومته . وفي ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢ سار منها ببعض الجند ، جنوباً ، فأنشأ عدة نقط عسكرية . وتقدم الى بلاد يونيور ، فخلع ملكها « كبريقه » ، لأنه خاتله ، وولى ببله مزاحماً له يدعى « ريونجا » . وفي ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ أعلن ضم بلاد يونيور الى المملكة

المصرية ، رسمياً ، وأنشأ نقطة عسكرية في عاصمتها "مسندى" ، وهى على ٥٠ ميلاً من بحيرة ألبرت نيازنا ، وحقد شروطاً ودية مع مناسى أوميتزا ، ملك أوجندا ، وبذلك تفرج الى بسط نفوذ الحكومة المصرية من الصوبت الى بحيرة فكتوريا نيازنا . ولكن هذا التفوذ لم يدم طويلاً فى يونيو ١٨٧٢ . فان كبيراً الملك المخلوع جمع جموعه وهاجم بيكر فى "مسندى" ولم يكن معه إلا مائة رجل ، فأخلاها ، مضطراً ، فى ١٤ يونيو سنة ١٨٧٢ ، وسار الى فاتيكو ، ومنها الى جندوكورو ؛ قبلها فى أول أبريل سنة ١٨٧٢ أى يوم نهاية مدة حكمه على خط الاستواء . فترك صكره فيها ، وقام فى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٢ الى انحرطوم ، ومنها الى مصر ، فوصل اليها فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٢ ؛ واستغنى من وظيفته ، فقبل استعفاؤه . وقد كتب عن قيامه بمهمته هذه كتاباً سماه "الاسماعيلية" سرد فيه وقائعها وحوادثها ؛ وبين المصاعب التى لاقاها ، والأهوال التى اعترضته فى سعيه الى إبطال الرق ، وعمله على البطش بالناسخين فى تلك البلاد القصبية . وهو كتاب تلذ مطالعته وتفيد جداً .<sup>(١)</sup>

همة الكولونيل  
جوردن

ونذب (اسماعيل) ، بعد استغفاء بيكر ، الى نفس المهمة ، الكولونيل جوردن ؛ وجعل العساكر الموجودة فى جندوكورو وما والاها ، حتى البحيرات الكبرى تحت إمرته ؛ وزوجه بفرمان حضه فيه على تنظيم تلك البلاد ، والسعى الى عمارتها ، ومعاملة أهلها بالرفق واللين والتأليف .

فسار جوردن من مصر فى ٢١ فبراير سنة ١٨٧٤ الى انحرطوم ، ومعه نفر من تجار الرقيق جعلهم فى خدمته ، لينتمهم عن تعاطى تجارتهم ، من جهة ، ولستمين بهم ، من جهة أخرى ، على تعقب تجار الرقيق ، أخذوا بالقول المأثور "لا يفل الحليد إلا

(١) توجد منه نسخة مزيّنة بالرسوم فى دار الكتب المصرية .

الحديد". ولما قام من الخرطوم أخذ معه بعض جنود وسار بهم قاصدا جهات خط الاستواء. فوصل الى جندوكورو في ١٥ أبريل سنة ١٨٧٤، وشرع يباشر شؤون المهمة التي أتى من أجلها.

ولكن، بما أن أعماله يدخل معظمها في دائرة المجهود الذي بذله (اسماعيل) لتحقيق الشطر الثالث من خطته، فانا نرى الأولى إرجاء بيان تفاصيلها الى الباب المخصص لذكر ذلك المجهود.

على أن الرأي العام المصري — وآرائه وميوله في أمر النخاسة والزق عرفت منها ما عرفت — كان ساخطا على حملتي هذين الانجليزين، طاعنا على المجهودات المبذولة، باكما على الأموال المنفقة في سبيل نجاحهما. ولم يكن في القطر كله من مصري معضد للخديو في جهوده ومساعيه سوى أولاده الأمراء الثلاثة، لاسيما أكبرهم محمد توفيق، ولحقه عهد، الذي قال يوما للبارون دي مالورتي: «إنى أكره فكرة الزق ذاتها!»، ووزيره نوبار باشا وشریف باشا؛ لا بل قام أوروبيون كثيرون يفتنونها فرصة لكسب الأموال: إما مكافأة على مدح ما جود، أو أجرا على امتناعهم عن مطاعن كاذبة؛ كذلك الألماني البارون، الذي روى عنه رياض باشا أنه طلب منه ألف جنيه مصري، ليملك قلبه عن الكتابة في مسألة الزق ضد الخديو وحكومته؛ ولما رفض ذلك الوزير إعطاه ما طلب، انبرى يعطى في حسن نوايا الحكام المصريين، ويشنع عليهم<sup>(١)</sup>.

معاهدة أغسطس  
سنة ١٨٧٧ القاضية  
بإبطال الزق

ومع ذلك، فإن (اسماعيل) استمر يجاهد جهاد الأبطال، فبرمال برضى أم بسخط حتى آل الأمر الى عقد معاهدة أغسطس سنة ١٨٧٧ مع بريطانيا العظمى لمنع

(١) انظر: "مصر" لبارون دي مالورتي ص ١١٥ حاشية رقم ٤٧٣، وانظر الكتاب عنه ص ١١٣، وانظر أيضا "الاسماعيلية" لسيير صموئيل بيكر، ص ٦ وما يليها.

الاتجار بالرق، وإبطال الرق، قضت مواتها : (أولا) أن يبطل، بعد التوقيع عليها، إدخال الأرقاء إلى الأراضي المصرية، وصرورهم بها أو بيعها، (ثانيا) بأن لا يسمع، في المستقبل للسود والحبشان العائشين بمصر، بمغادرتها بدون أن يشهروا أنهم أحرار، (ثالثا) أن جميع النخاسين والمتجرين بالرق، في أية بقعة كانوا من الأرض المصرية، يحاكمون أمام مجالس عسكرية، (رابعا) أن الحكومة المصرية تستعمل نفوذها على قبائل أفريقيا الوسطى، لكي تحملها على وضع حد ونهاية لاقتناص الرقيق، (خامسا) أن السفن البحرية البريطانية في البحر الأحمر، وفي المياه المصرية الأخرى يكون لها حق تفتيش كل المراكب المصرية، (سادسا) أن يبع الرقيق من عائلته إلى عائلة يبطل بالقطر المصري بعد مضي سبع سنوات، ويبطل في السودان بعد مضي اثنتي عشرة سنة<sup>(١)</sup>.

وتلا تلك المعاهدة القراران الوزاريان الصادران في ٢٣ أغسطس و ١٥ أكتوبر سنة ١٨٧٧، والدكرتو الصادر في أول يناير سنة ١٨٧٨ تهنيئا لشؤون الموضوع، وروغبة في الوصول إلى إبطال الرق.

خلق لرسل، الكاتب الإنجليزي، أن يقول عن (اسماعيل) في يوميته في الشرق ص ٥٦٤ : « إن عمله في إبطال تجارة الرقيق جدير بالاعجاب الشديد، لا سيما أنه أقدم عليه، وتقائيد شعبه، ومصالح جانب عظيم من رعاياه ضده<sup>(٢)</sup> ! » وحق للكاتب الإنجليزي الآخر ياتاسا سميت، أن يكتب بملء قلعه : « إن يكن التحرير الإنجليزي عظيما، والتحرير الروسي أعظم، والتحرير الأميركي أعظم من الاثنين، فالتحرير المصري أعظم الكل، بلا جدال ».

(١) أنظر : اتفاق ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧

(٢) رسل، "يومية في الشرق" ص ٥٦٤

(٣) أنظر : "ارتنا في الهرم الأكبر" لياتاسا سميت ص ٦٧

كما أنه حق للورد هتو أن يهتف بملء فيه في مجلس العموم البريطاني في أول يونيه سنة ١٨٧٨ : « لاشك في أن حاكم مصر الحالي عمل على إبطال الرقيق في بلاده ، وتحسين حال رعاياه ، أكثر من كل حاكم مسلم ، بل ربما أكثر من كل حاكم مسيحي في مئة من الزمان مساوية لمئة عمله ! » .

على أن كل هذا التعديل المتوقع ، الذي أدخله (اسماعيل) على حياة أمته المصرية ، وفصلناه تفصيلا وافيا في الصفحات السابقة ، إن أوجب تطورها المستمر ، وإن غير مجارى العقلية في بعض طبقاتها ، لم يكن يستطيع أن يتجسم ثمره إلا مع توالى الأيام .

الظواهر خلاف  
الحقيقة

لذلك استمرت معظم ظواهر الحياة القومية تتجلى هي هي أمام من لا يرون إلا الظواهر ولكن الذين كانوا يتمكنون من أن يخترقوا بنظرهم حجب الظواهر ، ويتبينوا ، بين طيات دجى الليالى بصيص نور الفجر ، كما يتبين سليم العين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، في بصيص الشفق البعيد ، أولئك لم يكونوا ليفتروا بتلك الظواهر ، وكانوا يعلمون يقينا أن الحركة التي صدرت ، بقوة ، عن يد (اسماعيل) ، قدفت بالحياة المصرية الى مرافق الحياة الغربية ، وأدخلت المصالح الغربية الى معجم مرافق الحياة المصرية ، أو جبت حتما تطورا مستعزا ، وجعلت البقاء على الجمود ، أو الرجوع القهقرى أمرين خارجين من دائرة الامكان .

فلم يكن ليسمعهم إلا أن يرددوا القول التالى المأثور عن صاحب كتاب " المسألة المصرية " وهو : « إنما القطر المصرى مدين بكل عنصر تتكلم ورق لجلده اليوم فيه لسنى ملك (اسماعيل) الست عشرة ! » .

(١) أنظر : " مصر " المأثور من ١١٧ و حاشية رقم ٤٧٧

(٢) أنظر : " المسألة المصرية " طبع ١٨٨١ من ٣٧

## الباب الثاني

### تحقيق الشطر الثاني

(أى السعى إلى الفوز بالاستقلال التام للبلاد)

### إجمال

كانت مصر، لما ارتقى (إسماعيل) عرشها السنى، مقيدة بثلاثة قيود كبيرة، تقفها عن السير إلى مكانها الطبيعي في مصاف الأمم المستقلة .

(القيد الأول)، حق الامتياز الذى منحه (محمد سعيد باشا) سلفه لشركة القناة العالمية، وأصبحت هذه الشركة، بمقتضاه، تسيطر حكومة مصر صولتها، وإدارتها، وماليتها، في جزء عظيم من بلادها .

و(القيد الثانى)، السيادة العثمانية بما يتبعها من التضييقات المذلة، والإلزامات المصغرة، والتورث بالأرشدية وهلم جرا .

و(القيد الثالث)، الامتيازات الأجنبية بما تستلزمه من إدخال القناصل حصيهم في دولا لأعمال الإدارة المصرية، وإيقافهم حركته، ومناهضتهم الحكومة في كل مشروع لا يروق في أعينهم وكل إجراء يزعمونه أو يزعمه تابعوهم، ماسا بمصالحهم: دول صديدة تراحم الدولة صاحبة الشأن على دفة الأحكام، وعلى منصة التشريع والعدالة ! فصمم (إسماعيل) على كسر هذه القيود الثلاثة كسرا باتا، وأزالها . وما فتئ يعمل على ذلك، عملا حثيثا، نيفا وثلاثة عشر عاما، حتى تسنى له نيل معظم مرامه، وتحقيق جل أمانيه، بالرغم من صعوبات لا تحصى، وعراقيل لا تعد، ومقاومة ظرووف الدهر وصروفه له، مقاومة مدحشة، وليان ذلك قول :

## الفصل الأول<sup>(١)</sup>

### ازالة القيد الأول

قيد ما كان جائرا على حقوق العرش المصري ، في الامتياز الممنوح  
لشركة قناة السويس العالمية من ( محمد سعيد باشا )

”سكنتاه ، دخل بحماره“

«مثل ماى»

نبذة في تاريخ تركة  
السويس قديما

إن فكرة انشاء تركة تصل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، فكرة قديمة جدًا .  
فهيرودتس المؤرخ اليوناني يقص أن نبطاؤين بناء متيك الأول (وملك من ٦١٠  
الى ٥٩٤ ق . م) كان ممن أقدموا على اخراج تلك الفكرة الى حيز الوجود . فشغل  
في العمل الفلاحين المصريين ألوفًا ، ألوفًا . فمات منهم ثعبا نيف ومائة وعشرون ألفًا .  
ثم إنه أوقف الأشغال بشنة لأن أحد كهنته وإفاه بنبوءة مفادها أن ”الفرعون“ إنما  
يشغل للغير ؛ وأن منفعة التركة تكون للأجانب ، لا لمصر .<sup>(٢)</sup>

(١) أهم مصادر هذا الفصل هي الآتية : ”مصريتنا“ لفردينان دي لابس ، و ”قناة السويس"  
لطلعت بك حرب ، و ”أصول تركة السويس“ لفردينان دي لابس ، و ”تذكارات أربين سة"  
لفردينان دي لابس ، و ”رسائل ويومية ومستندات الرجوع إليها في تحرير تاريخ تركة السويس"  
لفردينان دي لابس ، و ”مصر المعاصرة“ لمريشو ، و ”رسائل من مصر“ لبريتلى ست هيلر ،  
و ”فتح برنخ السويس“ لفردينان دي لابس ، و ”أسرة دي لابس“ لبريديه ، و ”تذكارات  
أربين حاما“ لفردينان دي لابس ، و ”فردينان دي لابس . حياته وأعماله“ لبريتان ،  
و ”قتال السويس“ لروسيبول ، و ”تاريخ اتصال البحرين“ لسودين ، و ”قتال السويس  
ومستقبله“ لفردينان .

(٢) أنظر في كتاب ”مصر“ لما لورق ، ذكر الخطاب المرسل من الاجتولوجى برويش باشا الى  
البرنسي رودلف في عهد النمسا والمجر ، ص ١٤٨ و ١٤٩

ودودور الصقلي يقص أن نيطاؤ، إنما بدأ عمل تلك التربة ؛ وأن دارا الأول، ملك الفرس (وملك ما بين ٥٢١ و ٤٨٥ ق م) أراد إتمامها، ولكنه توقف لما قيل له من مهندسيه إن منسوب البحر الأحمر أعلى من سطح الأرض المصرية؛ وإن مياه ذلك البحر تنمر القطر، لا محالة، فيما لو حفرت تلك التربة .

وسترايون يقص أن الذي بدأ في تحقيق هذه الفكرة، إنما هو سيزوستريس، قبل حرب ترواده (ومن قائل إن سيزوستريس هذا، هو أوزرتسن الثالث، أكبر فراعنة الأسرة الثانية عشرة الفاتحين؛ ومن قائل إنه رامزس، أو رامسيس الثاني ثالث فراعنة الأسرة التاسعة عشرة، ومن كبار فاتحيها، وملك من ١٢٨٨ الى ١٢٢١ ق م)؛ وأن هناك من ينكر ذلك، وينسب البدء في تحقيقها الى نيطاؤ بن بشاء مثبك؛ ويقول إن دارا الأول الفارسي أراد إنجازها، ولكنه توقف لما قيل له عن علو منسوب مياه البحر الأحمر عن سطح الأرض المصرية؛ وأن ثاني البطالسة (وملك ما بين ٢٨٥ و ٢٤٧ ق م) قطع البرزخ السويسى، وسد التربة عند مدخلها في القلزم، بحيث بات الدخول فيها والمروء الى البحر الخارجى تحت تصرف الإرادة (٤) — كذا —

وبليس يقول إن الذى أقعد بطليمس عن إتمام التربة لم يكن الخوف من أن تتفرق مياه البحر الأحمر القطر؛ ولكن الخوف من أن تفسد تلك المياه الملحة عذوبة مياه النيل !

غير أن هذه الأقاويل كلها لا تنفيذ أن الفكرة حققت، أبدا، بشكل تام . وأن الاتصال بين البحرين كل بحيث بات في استطاعة كل السفن، مهما كان حجمها، المرور من القلزم الى الأبيض : فان بلوتركس يقول في ترجمة مرفص أنطيني



إن هذا الروماني الشهير أتى الى الاسكندرية قبل واقعة "الكسيم" بقليل . فوجد كليوبا ترا ، خليفته ملكة مصر ، مشغلة في البحث عن وسائل تمكنها من قتل مراكبها فوق البرزخ الفاصل بين البحرين ، تهرب في المحيط الهندي بجميع كتوزها . ثم أتى الرومان ، ويقول المقرئ إن الامباطور هدرانوس تم التهمة التي بدأها ترايانوس متبنيه ؛ وأن هذه التهمة كانت لا تزال مفتوحة في أيام حكم الاسلام الأولى بمصر .

عل أن المعروف هو أن عمرو بن العاص أراد حفر ترعة تذهب من القنطرة الى السويس ؛ فتمنع عمرو بن الخطاب ، بحجة أن وجودها يفتح طريقا لمراكب الروم ، ثمكّن به من تهديد مكة والمدينة . فبدل عمرو عن فكرة التهمة المستقيمة الى فكرة التهمة الواضحة بين البحرين عن طريق النيل ؛ واحضر المجرى التراياني الذي كانت الأيام قد طمرته ؛ وهو الذي عرف باسم "خليج أمير المؤمنين" وبقي مفتوحا ١٣٢ سنة .

ثم مرت على مصر الأعصر الوسطى ، بظلامها الدامس ، الذي لم ينفذ اليه نور من العلم إلا بين حين وحين ؛ وتلاها مكنون الموت وسكوته ، اللذان خيما على الديار المصرية من سنة ١٥١٧ الى سنة ١٧٩٨ ، فلم يعد ، هناك ، كلام على اتصال بوجود بين البحرين ، بل ولا فكر يحول حول ذلك الاتصال .

وإذا بالحملة الفرنسية البوآبرية ظهرت في الآفاق ، وحلت بدوى عظيم على أرض مصر ونحت سماتها في تلك السنة عينا (سنة ١٧٩٨) فنهض القطر خائفا وجللا من سبات الموت ورقده ؛ ودبت اليه حياة جديدة ، أبصر نورها بعد جهد هائل ، دام نيفا وبضع سنين .

وحديثا

وكان من باكورة الأعمال التي أقدم عليها الجنرال بونايرت، قائد تلك الحملة، أنه ذهب بنفسه الى السويس، وجاب برزخه، ليرى آثار التربة القديمة، ويفحص مسألة إعادة الاتصال بين البحرين، خصوصا شقصيا. وأنه كاف، بسدئذ، لجنة، من علماء حملته، بدروس الموضوع درساً تاماً، وتقديم تقرير واف عنه له.

فاستغل هؤلاء العلماء تحت رعاية كبير مهندسيها، المسؤولين، شغلا حثيثا استغرق طول مدة الاحتلال الفرنسي للبلاد المصرية، ووضعت كتابا في أبحاثها، كان من أفضى آثار مرور ذلك الاحتلال بالبلاد الفرعونية.

ثم ذهبت أطا صير السياسة بزيم تلك الحملة، أولا، ثم بالحملة حينها، الى حيث أعدت لها الأقدار شأنا، لا مثيل له في التاريخ. فقصد ليرتقره بباريس، بدلا من أن يقدمه في القاهرة، الى بونايرت، قنصل أول الجمهورية الفرنسية، بدلا منه الى بونايرت، جنرال عام الجيش الفرنسي بالقطر المصري. قتلاه بونايرت بلوممان زائد، ثم هتف قائلا، كأنه آسف على مجد حرم منه: «ان العمل لدوشان عظيم. ولكني لست بالقادر على القيام به الآن، خير أن الحكومة التركية قد تمجد يوما مجدها ونفراها في فقاذ هذا المشروع الخطير!».

وكان الكونت ماتيه دى لسبس قنصلا لفرنسا بمصر في سنة ١٨٠٣ فوردت اليه تعليقات من بونايرت، قنصل أول الجمهورية الفرنسية، مؤذاه أن يقبل على اختيار أكثر قواد القوات التركية الموجودة في القطر، جدارة وأعلام أخلاقا، ويخطر عنه الجنرال سيبيستاني السفير الفرنسي في القسطنطينية ليحمل الباب العالي على تنصيبه وإليا على مصر، حساه أن يكون للفرنساوين حونا على الممالك

(١) انظر: "مصر وتركيا" لفردينان دى لسبس ص ٤٣

والانجليز أصلقاتهم . فاختار دى لسبس (محمد على) وارتبط معه برى صداقة متينة ، وأوصى به سيستيانى خيراً <sup>(١١)</sup> .

فلما ذهب الثورة بكبرى خورشيد پاشا ، وانتخب علماء القاهرة المكفونى العظيم واليا عليهم ، عضد سيستيانى انتقاهم لدى حكومة القسطنطينية ، وجعلها تعتمد . لحفظ (محمد على) للكونت دى لسبس جميله — وكان حفظ الجليل من أجل ما امتازت به أخلاق ذلك النافذة العجيب .

ولما اختارت الحكومة الفرنسية ، بعد ذلك بئف وسبع وعشرين سنة ، فردينند بن الكونت ماتيه دى لسبس ، ليكون نائباً للقنصل الفرنسي ، بالاسكندرية ، استقبله الباشا العظيم بإكرام زائد ، وخصه بعطف أبوى ، وما فنى يظهر له من ضروب الحنان ما جعله أو كاد يجعله أحد أفراد الأسرة العلوية .

ولما شب الأمير محمد سعيد ابن الأمير العصبى ، وترعرع ، عهد (محمد على) الى فردينند بأمر الاحتناء بصباه . فقام فردينند بذلك قياماً حسناً ، وعلم الأمير اليافع ركوب الجياد ، وحبب اليه إجهاد النفس فى التمارين الرياضية — وكان (محمد سعيد) فى أشد الاحتياج اليها : لأنه كان عظيم الخشنة بدنيا الى حد أن أباه حتم عليه حضور أربعة عشر درسا فى اليوم ، والاختار من الرياضة الجسمية ، لى تذهب عنه بدائته ، وأنه كان يزنه ، كل أسبوع ، فإذا وجد وزنه زائداً على ما كان فى الأسبوع السابق ، عاقبه عقاباً صارماً ، وإذا وجدته ناقصاً ، كافأه ، ولو أن عظم جتته وبدائتها لم يكونا ، فى بدء أمره ، مرضاً ، بل كانا كعظم جثة برنس فى (رواية الفرمان الثلاثة لاسكندر

(١١) أنظر : "أما فى رمة السريى" فردينان دى لسبس ص ٨٧

دوماس)، وكهظم جثة عبادة بن الصامت في أثناء فتح مصر لمؤرخى العرب، مظهر قوة غربية، وصحة عجيبة .

فلشأ عن اعتناء فرديندد بمحمد سعيد، ذلك الاعتناء، أن هذا الأمير الشاب صادقه مصادقة أكيدة وألفه ألفة زائلة كان الباشا العظيم أبوه من أكبر مشجعيه عليهما، ومن أميل الناس الى توثيق صراهما بينهما .

وكان تفصل فرنسا العام بالاسكندرية، في ذلك العهد، رجلا من أدباء عصره يقال له المسيو ميمو . وكان لا ينفك يقرأ الكتاب الذى وضعه، في مسألة ترعة الاتصال بين البحرين، المندوبون الذين عهد اليهم الجنرال بونا برت بحشها وفحصها . فأوجد غرام مطالعة ذلك الكتاب النفيس، في روح الشاب دى لسبس المتخرج على يديه . فأكب دى لسبس على مطالعته باهتمام زائد، وما لبث أن ثبت في ذهنه، بكيفية لا تترزعزع، إمكان إيجاد ذلك الاتصال؛ فوطن نفسه على تخصيص جميع قوى عقله وروحه وجسمه لتفادته .

غير أن صروف الأيام ما حتمت أن تقلته من القطر المصرى الى الغرب؛ وقلته هناك في عدة مناصب سياسية أظهرت فضله، ونشرت ذكره . ولكنها أبعدته عن محط رجال أفكاره، ومطمح أنظار رغائبه : ألا وهو برزخ السويس، الذى لم يعد يبنى مجدا مخلدا إلا من وراء قيامه ببحر ترعة الاتصال بين البحرين .

وكانت الأنظار، في أوروبا، قد اتجهت نحو تحقيق هذه الفكرة، القديمة العهد، لا سيما منذ أن هب السانسيمنيون، وصل رأسهم الأب انفستين المشهور، يجذون تحقيقها، ويحضون عليه؛ وأتى بعضهم، مع أسنانهم المذكور، الى مصر، وأخذوا

(١) أنظر : "أسول رعة السويس" لفرديناند دى لسبس ص ٣٠

يدرسون الموضوع درسا عميقا ، ويتكرون المشروعات المختلفة لتحقيقه : فتالابو أشار بعمل ترعة من الاسكندرية الى مصر، تجتاز النيل عند هذه العاصمة، ثم تسير منها الى السويس، وبرول أشار بعمل ترعة من السويس الى بحيرة المتزلة، ثم تسير منها غربا، متبعة الساحل المصرى الشمالى، حتى الاسكندرية<sup>(١)</sup>.

ولكن (محمد على) رفض، بتاتا، التصريح بأى عمل من هذا النوع. وأى كل الإياه أن تحتفر ترعة دولية، لوصل الغرب بالشرق الألفى، فى داخلية بلاده. فتسير السفن تجارية أو حربية فيها رافعة أعلام دولها المختلفة، ويتعرض القطر لطوارئ ليست فى الحسبان، قد تؤدى الى استيلاء إحدى الدول العظمى الغربية، لا سيما بريطانيا العظمى؛ عليه.

والذى حمل ذينك المهندسين حل وضع مشروعيهما المذكورين، إنما هو الاعتقاد السائد على عقول علماء العالم، قاطبة، بصحة الاختبارات والمباحث التوبوغرافية والأوروغرافية، والهيدروغرافية، التى قامت بها لجنة سنة ١٧٩٨ الفرنسية تحت إدارة المهندس لير، والتى أدت بها الى تقرير علو سطح البحر الأحمر، تسعة أمتار، عن سطح البحر الأبيض، وبالتالي استحالة عمل ترعة مستقيمة واحدة بين البحرين، فتجتاح برزخ السويس الفاصل بينهما، مباشرة.

على أن هذا الاعتقاد لم يكن أثبت قواعد وأركانها من خلاله : لأنه كان كغيره، مبنيًا على التسليم بما وصلت اليه مباحث المتقدمين، وما ثبت فيه أحكامهم، لا على خبرة ومباحث شخصية. فها هم، والحالة هذه، أن اهتروا على قواعده، وأخذت أركانها تنهار فى عقول الذين كانوا ممن يابون أن يقيموا بناء تصديقهم وإيمانهم على المزاعم،

(١) أنظر : "مصر الحاضرة" لريثر، ص ١٤٧ وما يليها.

ولا يريدون لها قاعدة سوى درسهم واختبارهم الشخصيين : فان أخطأوا ، قائما  
بخطفون ، علما ، وإن أصابوا ، فالفخر — وأي نخر — لهم دون سواهم .

بلقة سنة ١٨٤٦ قُضيت في سنة ١٨٤٦ ، إذا ، لجنة مختلطة للنظر في تقرير ليبر ، وإعادة فحص  
الموضوع ، فحسب أدق من الذي عملته لجنة سنة ١٧٩٨ ، وأوسع دائرة . فوات  
أعمالها مهمة فائقة وتدقيق لا مزيد عليه ؛ وانتهت خاتمة المطاف بها الى اعتماد رأي  
المستر متيليس المهندس الانجليزي . فقُضيت أن فرق الارتفاع ، بين سطحي  
البحرين ، لا يعبأ به . وأن عمل ترعة واحدة مستقيمة ، تحتاز البرزخ ، وتصل بين  
الأبيض والفلزم أحر ، والحالة هذه ، مستطاع .

وكان (محمد علي) — لما فرغت تلك اللجنة من أعمالها ، وأبرزت نتيجة مباحثها الى  
الوجود — قد أشرف على الخرف ، وآلت الأحكام في القطر بعد موت (إبراهيم) الهام  
ابنه ، الى (عباس الأول) . فحُضِرَ بمباحث تلك اللجنة عرض الحائط ، وتحوّل عن  
فكرة إنشاء «ترعة اتصال دولية» الى إجراء رصف الطريق ، ما بين مصر والسويس  
الذي كانت تسلكه عربات التزيت ، بحيث يصبح صالحا لسير كل عربة طيه  
بسهولة وسرعة ، ويتم الاتصال بين العاصمة والفلزم من سبيل أمين . فجعل عرض  
ذلك الطريق ٣٠ مترا ، وسلك رصفه ٤٠ سنتيمترا ، وبوشر العمل فيه ؛ فسوّى ،  
أولا ، رمل الأرض ؛ ثم وضعت عليه طبقة من الحجر الدبش سمكها ١٥ سنتيمترا ،  
هرست هرسا بمرور محفزة خرائتيّة مخففة عليها ، تجزها أربعة ثيران ؛ ثم وضعت  
فوقها طبقة أخرى عرضها ١٥ سنتيمترا ، كذلك ، هرس مثل الأولى . وتلتها  
طبقة ثالثة ، غطيت على سمك ١٥ سنتيمترا ، أيضا ، برمل من رمل الصحراء ممزوج  
بأديم عمر مشتمل على ترجيحات جبسية ؛ وهرس كل ذلك ، مثل ما هرس

الطليقة الأولى . ثم جعل على جانبي ذلك الطريق اتساع قدره متران ، لسير المشاة ، وعملت سكة صغيرة بجانبه ، لتصريف مياه الأمطار . واحتفرت بئرًا توازية بالقرب من حصن أجروند ليرتوي منها الريح والغادي ، ولكنها لم تفلح ، ولم ترو من ظمأ .

قلب مات (عباس) ، وآل عرش مصر الى (سعيد) ، وبلغ النبأ ، بذلك ، علم فرديند دى لسهس — وكان مشتغلا في ترميم قصر لحياته ، سكتته أنيس سوريل ، خلية شارل السابغ الفرنسي ، في زمنا — تهال ، واستبشر ، وأرسل يهته تهنتة خالصة . فردّ (سعيد) عليه واستداه الى مصر ، ليشاطره سروره وهناه .

ولما وفد عليه ، أكرمه إكراما فائقا ، واستصحبه معه في سياحة ، قام بها على رأس عشرة آلاف جندي بمدافعهم وخيولهم ، من الاسكندرية الى مصر ، عن طريق الصحراء الغربية <sup>(١)</sup> .

مفاتيح دى لسهس  
الأسع (سعيد)  
في شأن فتح ترعة  
السويس

فأخذ دى لسهس يهين الفرص ليفاتحه في مشروع قناة السويس الذي كان اختمر في اعتباره اختارا تاما ، مستعينا على ذلك بذى الفقار باشا ، صديقى الولى الأقرب اليه . واتفق له ، ذات يوم ، بعد ما استأذن (سعيدا) في الانصراف الى شأن من شؤونه ، وهو معه في تلك السياحة ، أنه امتطى صهوة جواد كان ذلك الولى وجبه لياه ، ووشب به فوق كتيب مرصع من الحجارة أمام عموم القواد المصريين . فاعجبوا به وأكبروا فروسيته .

ففى اليوم التالى ، اغتم فرديند فرصة مناسبة ، وجرّ الحديث الى رغبته في أن يسطع ملك صديقه بعمل نغم ، يمتد ذكره في حالة من سنا ، الى نهاية الدهور ؛

(١) لهذا ولجميع ما يتبع ، أنظر على الأخص : "بيادى أرواح ترعة السويس" لفردينان دى لسهس

واقترح حل (سعيد) الإقدام على إنفاذ مشروع التبعة؛ وهو يحتج بأن يلهب كلامه غيظته، فيجعلها تدوى منذ تلك الساعة، بترثم العالم المتمدين بأسره، بأناشيد مديحه. فبالرغم من أن (سعيدا) كان قد أكد مرارا، قبل ذلك، لغير دى لسبس بأنه لن يحمي في هذا الموضوع عن عزيم والده، وعن خطة الرفض التي وضعها لنفسه، فإنه سكر بالنهر اللذيذة المبذولة له في كلام محاذيه؛ وما هو أهم من ذلك، اقتنع باقتناعه، وتأكد من أن إنفاذ المشروع يزيد مصر أهمية، ولا يعرضها لأى خطر يكون. فقال لـدى لسبس: «أجل! إنى مقتنع. فثق بى، واعتمد على<sup>(١)</sup>».

ثم استدعى قواده، وقص عليهم ما دار بينه وبين صديقه دى لسبس من الكلام، وسألم رأيهم؛ فذكروا ما رأوا من فروسية ذلك الفرنسي. ولما كانت عقليتهم تقربهم، كقول دى لسبس حينه، إلى تقدير رجل يحسن ركوب الخيل ويحب الوثب فوق الكتب والخفر، أكثر منها إلى تقدير رجل عالم متعلم<sup>(٢)</sup>، فانهم فتحوا أعينهم، واسعة، للدلالة على فهمهم؛ وهزوا رؤوسهم مرارا، للدلالة على استحسانهم؛ وقالوا بإجماع بعدم جواز رفض طلب يقتضيه مثل ذلك الصديق. فثبتت موافقتهم (سعيدا) في عزيمته.

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٥٤ — وكان الأمير قد بلغ العاشرة ببجته، ومدعو به، وأُنزل دى لسبس صديقه في قصر المسافرين، وهو الذى

(١) أنظر: "أصول ترعة السويس" لفردينان دى لسبس ص ٤٠، ر "أمرة دى لسبس"

ص ٣٢٠ لبريديه، و"تذكارات أربعين عاما" لفردينان دى لسبس ص ٢٩

(٢) أر أن "أحكام الوثب بالحصان أعظم دليل وأقوى برهان" كما يقول محمد طلعت حرب بك في كتابه

عن فتاة السويس ص ٣٠



كان مخصصا في أيام الحملة الفرنسية لاجتماع أعضاء لجنة القناة فيه تحت رئاسة لير البادى ذكره، فتأمل غرائب الصدف، وعامنها ! — استدعى (سعيد) فريدند دى لسبس الى القلعة، بدون أن يقول له لماذا؛ وهناك في مجمع من القناصل العامة والوجهاء المزدحمين لتهنئة الأمير بسلامة الوصول، أعلن، على رؤوس الأشهاد، الوعد الذى صدر منه لدى لسبس صديقه، وأكد عزمه على منح امتياز له بتأسيس شركة مساهمة عالمية، لإبراز المشروع الى حيز الوجود<sup>(١)</sup>.

وأعقب قوله بالعمل؛ ومنحه بعد خمسة أيام في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ الامتياز الموعود به؛ وكلف مهندسى حكومته، ليان بك وموچيل بك، باللهاب معه الى البرنخ، ودرس طبيعة أرضه، وفحص مسألة إنشاء التربة المرخوبة فيه، ورفع تقرير واف له عن كل ما يتبينانه.

فذهب المهندسان في الشهر التالى، وأقاما هناك أياما، مع دى لسبس، يدرسان الموضوع درسا تاما. وقررا بهما نهائيا على أن تنشأ ترعة مستقيمة، تجتاز البرنخ في جهته الأقل انساعا، أى ما بين بيلوزيم (القرعة) على البحر الأبيض، والسويس على البحر الأحمر.

ثم جمع دى لسبس مائة من أصدقائه، وحلهم على أن يكتب كل منهم بحصة ثمنها خمسة آلاف فرنك — ولا شك في أنها تساوى الآن مليونين من الفرنكات على الأقل — واستخدم المبلغ المجموع لاستقدام لجنة هندسية دولية مشكلة من سبعة من المهندسين : هولندى، والإنجليزى، وبروسيانى، وأسبانى، ونمساوى،

(١) انظر: "أماثل ترعة السويس" لفردينان دى لسبس ص ٥٦ و "أمرة دى لسبس" لبريديه

ص ٣٢٢، و "تذكرات أرلين تاما" لفردينان دى لسبس ص ٥٥

وليطالان ، وفرنساوى ، ومن عدة بحارة فرنساوين وانجليز ؛ ومن مهندس هيدروغرافى تابع للبحرية الفرنساوية ، طلب اليها أن تدرس المشروع ، وتطلع على الثقرر الذى وضعه ليتان بك وموچيل بك .

فذهب رجال تلك اللجنة ، بادئ بدء ، الى البرنخ ، ليقفوا بأنفسهم على الأماكن التى قرر أن تجتازها التربة ؛ وكان برفقتهم فرديند دى لسبس والمسيو برتيليمى سنت ايلير ، المتصخب سكرتيرا عاما للشروع ؛ وقد كتب عن مصر فى ذلك العهد عدة كتابات رجعت اليها أحيانا فى مؤلفنا هذا .

وبعد إجراء عمليات هندسية وأبحاث توبوغرافية ومقاسات بارومترية قوتت تلك اللجنة أن سطح البحرين واحد ، وأظهرت أسباب الغلط الذى وقع فيه ليير بنهايه الى أن ملسوب البحر الأحمر أعلى من ملسوب البحر الأبيض بكثير ؛ وأثبتت أن أرض البرنخ التى ستجتازها التربة ، أرض ثابتة ، يظل فيها الخرف الى عمق ما ، لا أرض رمال ممتوجة تهتد كل حفر بطمر ، كما قال بعض مسفهى أحلام الراضين فى حفر تلك التربة ؛ وأثبتت أيضا ، أن لا خوف على منفذ التربة فى البحر الأبيض من تكاثر أحوال طمى النيل ، حوله : ( أولا ) لعدم سير تلك الأحوال جهة المنفذ المتوى لإيجاده ؛ و ( ثانيا ) لوجوب ذوبانها حتما فى مياه البحر على فرض سيرها نحوه .

وبناء على ذلك ، طرحت اللجنة جانبا مشروعى تالابو وبرؤل ، وقررت العمل بمشروع المهندسين ليتان بك وموچيل بك لأسباب أهمها : أن مشروع تالابو يوجب صعوبة — وهى اجتياز النيل عند العاصمة — لا سبيل الى التغلب عليها ؛ إلا بإجراء عمليات هندسية هائلة ، يتضائل أمامها ما عمل من هذا القليل فيما بعد فى مجرى ترعة "بانما" الحالية ؛ ويتعذر جدًا إجرائها . فاذا فرض ، وأمكن ، نجم عن الإجراء

خطران جسيان في منتهى الفظاعة : (الأول) تمرير القناطر الخيرية الى السقوط ،  
والبلاد الى الفرق ؛ و (الثاني) ضرورة تسرب المياه من أسفل الى أعلى في الأطنان  
المجاورة ، فتصاب يجذب مستديم .

وأن مشروع برول يوجب أن تجتاز التربة النيل ، مرتين ، وجميع ترع الوجه  
البحرى المتجهة شمالا ، ولا سبيل الى ذلك إلا باقامة جسور لحفظ مياه النيل في المدى  
الذى يقتر ، وهو مالا يمكن عمله : لأن الفيضان يلعب بتلك الجسور ويفرق منطقة  
التربة البحرية فينتج عن إغراق المشروع تخريب التربة ، في كل فصل يزيد النيل فيه ،  
وإتلاف الزراعة في صوم الوجه البحرى .

فلما فرضت اللجنة من أعمالها ، عرضها دى ليهس على (محمد سعيد باشا) صديقه .  
فأصدر هذا الأمير أمرا عاليا بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ و ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٢٧٢  
صديق به على الامتياز السابق منحه منه لذلك القرفساوى العظيم بتأسيس شركة جامعة  
لحفر القناة ، ووضع بموجبه الإلزامات والتعهدات والواجبات التى تكون على تلك  
الشركة ، مقابل المنح والامتيازات والمزايا المعطاة لها<sup>(١)</sup> .

أما أهم الإلزامات ، فهى وجوب تحويل بحيرة اتتمساح الى ميناء داخلية ، صالحة  
لإيواء أعظم السفن حجما ، ووجوب دفع مرتب مندوب تختاره الحكومة المصرية  
لينوب عنها ، ويحافظ على مصالحها لدى مجلس إدارة الشركة ؛ ولإيجاد حامل طال للشركة  
فى الاسكندرية تحوّل له السلطة اللازمة لضمان سير العمل ، وانتظام العلاقات بين  
الشركة والحكومة المصرية ، فيما لو اختارت الشركة أن يكون مركز إدارتها فى مدينة

(١) أقل : "مصر المأمرة" لمريش ، ص ٢٧٢ وما يليها .

خارجة عن القطر المصرى؛ ووجوب صرف خمسة عشر فى المائة من صافى الأرباح السنوية للحكومة المصرية، على أن تزيد هذه النسبة كلما جددت مدة المنحة، وقدرها الأول ٩٩ عاما، بشرط أن لا تتجاوز تلك النسبة ٣٥ ٪ من صافى الأرباح فى أى حال من الأحوال، وأن تحتسب الشركة، وتمتنع بالكلية، عن كل تمييز وفضل فى معاملاتها للسفن التجارية؛ فلا تفضل المنتمية منها لأمة على المنتمية منها لغيرها؛ وأن لا تزيد رسوم الاجتياز التى ستقاضاها على عشرة فرنكات على كل طن من حمولة السفن، وعن كل فرد من المسافرين.

وأما المنح، فاهمها تخلى الحكومة المصرية للشركة عن ملكية جميع الأطيان البائرة غير المملوكة لأحد التى قد تروىها الشركة وتزدها؛ وإعفاؤها من كل ضريبة، مدة عشر سنوات، ابتداء من تاريخ الشروع فى تصليحها؛ وتسليم الحكومة للشركة كل الأطيان المملوكة للغير، التى قد يصبح امتلاك الشركة لها لازما لإتمام العمل واستغلال الامتياز الممنوح، على شرط أن تدفع الشركة لأصحابها التويضات الحقة عنها؛ وإعفاء كل ما تستورده الشركة من الآلات والمواد من البلاد الأجنبية، من كل رسوم جمركية عند دخولها القطر المصرى؛ وتمكين الشركة من حفر ترعة ماء عذب تذهب بمياه النيل الى أماكن الأعمال، وتكون ملكا لها، تستغلها استغلالها لباقي أجزاء امتيازها؛ والتصریح لها بإقامة المباني، التى ترى أن عملها يستوجبها؛ وتكليف عمال الحكومة وموظفيها، عموما بمساعدة الشركة وتمضيدها، كلما احتاجت الى ذلك، فيما تحتاج اليه؛ ووضع العدد الكافى من الفلاحين تحت تصرفها، لتشغلهم بمزقتها، وتحت ادارتها، فى أى نوع تريده وترتليه من الأعمال والأشغال اللازمة مقابل دفع أجور معقولة لهم، واتخاذ التدابير الصحية الواقية الواجبة.

غير أن (محمد سعيد باشا) كان قد اشترط لصحة الامتياز برقته ، أن يصدق عليه سلطان تركيا ؛ ولو أنه كان متفقاً مع دى لسبس على اعتبار ذلك التصديق مجرد مظهر رسمي ، لا يؤبه له .

السى الى نيل  
تصدق السلطان  
الباشا على الامتياز

فذهب دى لسبس ، إذا ، الى القسطنطينية ، لينال . فوجد الحكومة العثمانية منشوحة الى المشروع ، والسلطان نفسه ميال الى تفاذه . ونال من المصدر الأعظم كتاباً أكد له فيه الارتياح العام ، السائد على الدوائر السياسية العثمانية للموافقة على الامتياز الممنوح ، فبات متيقناً من قرب صدور فرمان السلطان المنهي بتلك الموافقة . وإذا به يرى سفير إنجلترا ، السير ستراثرند دى ردكليف يقوم لمناقضته ، ويمنع في التصديق ، بإيعاز من اللورد بليرستن وزير الخارجية الانجليزية .

مقابلة  
الشرا

وكان اللورد بليرستن هذا ، في ذلك العهد ، الكلمة العليا في الدوائر السياسية الأوروبية ، كما أنه كان للسير ستراثرند دى ردكليف النفوذ الأكبر على دوائر الأستانة الحكومية .

فدخل المشروع ، إذا ، في دور سياسي لم يكن دى لسبس يتوقعه ، وبدأ عهد مناقشات عنيفة ، حاول خصوم المشروع التغلب عليه فيها ، بالاستناد على مزاعم أهمها : (أولاً) أن المشروع وهمي خيالي ، لا سبيل الى تحقيقه ، (ثانياً) أن نفقاته ، على فرض تحقيقه ، نفقات المحافظة على التربة ، وصيانتها بعد خربها ، تزيد جداً على كل ما يمكن أن ينتظر من أرباح احتمالية من وراء تحقيقه ؛ (ثالثاً) أن التربة المنوى عملها تفصل مصر عن تركيا فصلاً باتاً ، وتمكن الأولى من الاستقلال عن الثانية ؛ (رابعاً) أن فتح برزخ السويس تهديد يوجه الى استتباب أقدام السلطة البريطانية

في الهند ؛ فهو ، والحالة هذه ، خطر جسيم على مصالح بريطانيا العظمى السياسية والتجارية ؛ (خامسا) وأخيرا أن تحقيق المشروع خطر ، بنوع خاص ، على استقلال مصر عنها ؛ لأن تحقيق المشروع قد يجبر إنجلترا إجبارا على امتلاكها ، بينما هي لا تريد ذلك ، ولا يهمنها من مصر إلا أن تكون الطريق التي تمتازها نحو الأملاك البريطانية الآسيوية ، آمنة ، سليمة .

وقد صبر اللورد بايرون من هذا الفكر الأخير بما كتبه اللورد كولي ، حيث قال : « نحن لسنا في حاجة الى مصر ، ولا نريد لها لأنفسنا ، أكثر مما يريد رجل عاقل ، له ملك في شمال إنجلترا ، بينما مقامه في جنوبها ، أن يمتلك جميع الفنادق القائمة على الطريق الموصلة الى الشمال ؛ غاية ما هو في حاجة اليه ، أن تكون الفنادق هذه معنى بها اعتناء حسنا ، وأن تكون مفتوحة له في كل وقت يريدها ، ومستعدة تمام الاستعداد لأن تقدم له لما حنينا لا كله ، وغيلا بريديا تحمل عمل خيله المتعبة » .

فدحض دى لبس الزم الأول ، دحضنا لم تعد تقوم معه لذلك الزم قائمة ، برأى اللجنة الدولية الهندسية السالف ذكرها ؛ ودحض الزم الثاني ، دحضنا نهائيا ، أيضا ، بتقرير شامل مفصل وضعه رجال فتيون خيريون ؛ منهم اثنان بريطانيان ، ينتموا فيه ، حسابيا ، مقدار أقصى ما تستوجبه التربة من التفتقات ونفقات صيانتها ، ومقادير الإيرادات العائدة الى الشركة التي تقوم بحفرها ، والأرباح الناتجة لها عنها بالنسبة لمجموع حمولة السفن التي تمر منها ، ومعايير الأطنان الموهوبة اليها من الحكومة المصرية ، والتي ستباشر زراعتها ؛ ودحض الزم الثالث بأقوال رسمية صادرة عن (سعيد باشا) ذاته ، أكد بها ولاءه للسلطان العثماني وعدم وجود مصلحة لنفسه في الانفصال عن تركيا ؛ ودحض الزم الرابع بأن الواقع يكذبه ، وأن حفر

الترعة لا يفر شيئا في أسباب نسبة الملاحة البريطانية الحالية الى ملاحة الدول الأخرى ، لأنه في استطاعة بريطانيا العظمى إبقاء تلك النسبة كما هي ؛ ودحض الزعم الأخير بقول ظاهر الصواب ، وهو أن حفر الترعة شرقى مصر ، وفي بروزى وبلى لا مصلحة للقطرفيه ، يخرج مصر في الحقيقة ، عن طريق بريطانيا العظمى الى أملاكها الآسيوية ، ويحول دون تضارب مطاعمها ومطامع فرنسا السياسية بمصر . وأنه اذا كان هناك ما يجبر بريطانيا العظمى على محاولة امتلاك مصر ، فأنما يكون ذلك بقاء طريقها الى أملاكها الآسيوية بجزارة داخلية القطر المصرى ؛ وشعورها ، ذات يوم ، بأن تلك الطريق باتت غير آمنة وغير سليمة .

فأدى ثبات دى لسبس وشجاعته ، من جهة ؛ وكون الحق القفى والمنطق في جانبه ، من جهة أخرى ؛ الى فوز المشروع على خصومه ومقاوميه ، وإلى إقبال الناس على الاكتتاب في أسهم الشركة العالمية المرغوب في تأسيسها ، للتمكن من إنجازه الى حيز الوجود .

بيد أنه لولا وقوف (محمد سعيد باشا) بجانب صديقه ، وهو موطن حزبه وطنيا <sup>تضيد</sup> <sup>دى لب</sup> وطيدا على تنفيذ المشروع مهما كلفه من جهود ، ومهما اضطر الى التغلب عليه من صعوبات وعقبات ، والتعرض اليه من أخطار ؛ لولا إقباله إقبالا مصححا على تقديم كل المتوفر عنده من مال في سنة ٤٥ ، وقدره خمسمائة ألف ريال ، الى صديقه المذكور ، وإقدامه على إنشاء ترعة الماء المذب التي نيط بالشركة لإنشائها ، على مصروفه انحصار وبأيدى مصريه ؛ لولا اشتراؤه ، بمبلغ ينيف على ثلاثة ملايين الجنيهات ، كل الأسهم الباقية معروضة للبيع ، التي لم تدر الشركة كيف تصرفتھا ، في أيام تأسيسها الأولى ؛ ولولا وضعه بالقرمان الذى أصدره في ٢٠ يولييه سنة ١٨٥٦

العدد الكافي من الأيدى المصرية تحت تصرف الشركة ، لأخفق المشروع ولنفرق المساهمون أيدي سبا .

عل أن وقوف (سعيد) ذلك الموقف ، حيال استمرار المعارضة الإنجليزية ضخمة بتقل في الجور، تملأه صعبا، تومض فيها البروق وتدوى الرعود ، كان من شأنه أن يجمع ، حول ذلك الأمير المتقلب الأهواء ، أسبابا متنوعة لمضايقة لانهائية لها ، تؤذى حتما إلى إرهابه عصرا . وهو الأمر الذي وقع ؛ فجعله يتجمل ، ويقول للاممية ومؤاخذيه : « إنما أعطيت الامتياز ، بلا ترو لصديق وهو فرنساوى . نغاطبوه ، أو خاطبوا حكومته . أما أنا فلست أستطيع سحب امتياز أعطيته <sup>(١)</sup> » .

ولكن ذلك لم يكن إلا ليزيد معارضة المعارضين ولحب الصباغين ، حتى زهقت نفس (سعيد) ؛ وأخذ التحول يأكل من بلانة جسمه . فقال دى لسبس له يوما : « ألا نذهب معا الى السودان ، فنبعد عن التقلد ، ونصيب حرميين : (الأول) أننا نتمكن من التكلم في شؤون قناتنا ، وليس حولنا طائل ؛ و(الثانى) أنك تنظر بميلك حال شعب أقيمت أحكامه اليك ، وبيئتنا أنه يش من الظلم الضاغطة عليه ؛ فتصلح حاله ، وتمتد ظل السعادة فوقه <sup>(٢)</sup> ؟ » .

فطرب (سعيد) للفكرة ، وقام من وقته الى زيارته للسودان التي ذكرناها ؛ فلما بلغ بربر لاوقد أثارته شجونه الولايات والمصائب التي رآها حقيقة بتلك الشعوب المسكينه .

(١) أنظر ؛ "تذكارات أربين تاما" لقرديتان دى لسبس ، قلا من كتاب "أسرة فرنساوية :

آل دى لسبس" ص ٣٤٩ و ٣٥٠

(٢) أنظر ؛ "تذكارات أربين تاما" لقرديتان دى لسبس ، و "أسرة فرنساوية : آل دى لسبس"

لبردييه ص ٣٥٠ ، و "هومة دى لسبس" ج ١ ص ٤٥٤ باختلاف في الرواية .



فدخل دى لسبس عليه، يوما، وإذا به يبكي بكاء مغيثا. فسأله: «ما الذى يبكيك؟»  
قال: «أبكي على شقاء هذا المملأ، وعلى ما فعلت به أسرتى. فإن العرائض مفعمة  
بالشكاوى ترد الى، فى كل لحظة، من عموم طبقات الناس. وقد رأيت بسيفي  
رأسى القرى التى أحرقتها الدفردار صهرى ولم يسد لآن بناؤها. هذا يؤس فوق  
طاقة الاحتمال. وقد عزمت على التخل عن السودان. فأتزكه وشأنه، وأعود  
الى مصر!».

فقال دى لسبس له: «هذا لن يكون. أنت لا تستطيع أن تعود بهذه الصفة،  
فأزاً من وجه واجبك. أنت أمير متعلم ذو خبرة. فكن لهذه الأمم، وأنشئ لها  
بلديات تهتم بشؤونها!».

قال (سعيد): «صلفت. وسترى فى ذلك همى!».

فلما وصل الى شندى، اجتمع، حوله، أكثر من مائة ألف رجل. فقال لهم:  
«بغنى أن الشيخ التركى الحالم على هذا البلد، منذ نيف وعشرين سنة، قد حبس  
عنده صفة أرقاء، وصل الأخص عبدا أوتق قيوده، فهو قد خالف بذا، أوامرى  
القاضية بمنع الاسترقاق. فأتونى به!».

فأطاعوه. فأمر بالتركى، فطرح على بطنه، وضرب مائة سوط، ثم غل بأغلال  
عبدته. فصاح الجمهور: «الله! الله! هكذا يكون الإنصاف والعدل! وإلا، فلا  
فليحيى الأمير!».

(١) أنظر: «آل دى لسبس» لبريديه ص ٣٥٠، و«يومية دى لسبس» ج ٢ ص ٤ باختلاف

قليل، فى الرواية، و«تذكارات أوجين حاما» لفردينان دى لسبس ص ٤٨٦ ج ٢

فعاد (سميد) الى مخاطبتهم وقال : « أترون هذه الحصون التي أقامها والدي ، منذ نيف وأربعين سنة على ساحل النيل ؟ اذهبوا وخذوا المدايح التي فيها واطرحوها في النهر ! » .  
فهمس دى لسبس في أذنه ، قائلاً : « إنك لتطرف . فقد يستعملونها بعد رحيلنا ، ويستعملونها فيما قد يضرنا ! » .

فقال له (سميد) : « لا تحذف ! فهي خير صالحة ! » .

ولما بلغوا الخرطوم ، وتمشوا هناك ، حشامهم الأول — وكان للدينا وفي عمل معد إعداداً جليلاً ، بالزم من بعد الشقة — وقع عند نهاية الأكل ، حادث ضريب .  
فان وجه (سميد) أعظم بغاة ، وانتفعت شفتاه ومروق رقبته . فأدلى طربوشه على عيبيه ، حتى كاد ينطى نصف أفقه — وهو عمل كان يقدم عليه دائماً في أوقات انفعالاته الشديدة — واقبلت سمعته انقلاباً خفيفاً . فارتفع الحاضرون ، وتسالموا :  
« ماذا جرى ؟ » وإذا به نهض ، بغتة ، وتناول سيفه وقذف به بعيداً على أريكة في آخر الحجرة ، وصاح : « أتركوني ! لا تسألوني عن شيء ! » ففر الجميع ، مذهورين ! فقال (سميد) لأحد أمثائه : « سر بالمسيو دى لسبس الى الأوبة التي أعدت لي حالا ، وليتركني الكل ! » فوقع الوزراء في حيرة ، وضربوا أنماساً في أسداس ، لأنهم اعتقدوا أن حرارة الطقس قد أثرت في عقل الأمير فأورثته جنونا ، وهو على ذلك البعد السحيق من عاصمته ! ولم يدروا ما العمل !

فلما كانت الساعة الثانية صباحاً ، طلب (سميد) أن يحضروا له حماماً بارداً .  
فدل ذلك على أنه أفاق من الحال التي كان فيها . وعند الساعة الثالثة ، أرسل الى

(١) أنظر : « يومية دى لسبس » ج ٢ ص ٤ ، و « آل دى لسبس » لبريديه ص ٣٥٢ ، و « مذكارات أربعين عاماً » لفردينان دى لسبس ص ٨٧ ج ٢

دى لسبس . فدخل الفرنساوى عليه واذا به متكئ على أريكته يدخن شبة بهدوء تام . فقال له : « أنت طلبت منى يا صديقى ، أب أسمح لك بزهة على النيلين الأبيض والأزرق . فما قد جعلت تحت تصرفك مركبتين وطبائى . اذهب وتزده كما تريد ! » .

فقال دى لسبس : « يعنى أنك تطردنى . أجل . ولكنى أريد أن تعرفنى ، أولاً ، ما الذى جرى لك البارحة ! » .

فلم يجبه (سعيد) الى طلبه . والذى دارق خلد دى لسبس ، بناء على قرائن الأحوال هو أن (سعيدا) قال ، حتما ، فى نفسه : « هذا رجل أتى من باريس ، حيث ترك طائفته وأولاده ، وجاء الى الخرطوم على بعد نيف وألفى ميل عن مصر . فيفتح ذهنه هو ، الى نصيحة حسنة يبذلها لى ، وأنا لا يفتح ذهنى لها ؟ » وأن هذا الفكر هو الذى غير دمه الى حد أخرجه عن دائرة صوابه ، حتى خطر له أن يثب عليه ويقتله ، فرمى بسيفه بعيدا ، ليحلا يغلبه الوسواس ، فيصير الى ما صار اليه الاسكتندر الأكبر مع كليتس صديقه . ثم أراد إبعاده ، بعد ذلك بضعة أيام ، ليحلا تنسب اليه الإصلاحات الجميلة ، التى صمم على إدخالها على حالى السودان الادارية والاجتماعية ، بل تنسب هى وشاذاها اليه دون سواه !<sup>(١)</sup>

غير أنه فى سنة ١٨٥٧ حينها التى سافر (سعيد) فيها الى السودان ، شئت فى الهند الثورة العسكرية المشهورة التى كادت تهلك بريطانيا العظمى تلك المستعمرة الغنية ، وتستترع من التاج البريطانى أجل وأتمن ماسة فيه .

(١) أنظر : "تذكارات إرمين تاما" لفرديناند دى لسبس ، و "الدى لسبس" لبريدييه ص ٣٥٣ ، و "هجرة دى لسبس" ج ٢ ص ٦ فيها بعض اختلاف فى الرواية .

فشعر الشعب الإنجليزي بأسره شعورا عميقا بتقدير الفائدة الناجمة له قبل غيره، وأكثر من سواه، عن تقصير مدى السفر البحرى بين شواطئ بلاده وشواطئ الشرق الأقصى؛ وأخذ يفتد مشروع دى لسبس حق قدره؛ وشرعت الدوائر التجارية والصناعية، بل بعض الدوائر السياسية حينها، تحبذ العمل، وتستنكر معارضة الحكومة الإنجليزية له.

فبات الطريق إذا ممهدا هناك، أمام مجهودات دى لسبس؛ وأصبحت الأرض صالحة لتنمو فيها بذور اقتناعاته. فلما أتم البلاد الإنجليزية، لتنوير أذهان أهلها واستمالهم الى مشروعه، وجد من مظاهر الاحتفاء به، والاكرام له ما قوت به حينه وانفصرح له صدره. فخطب في نيف وخمسة عشر مجتمعا حافلا بتقابات التجارة ومندوبيات البلديات، في لندرا وفيرها، من أمهات المدن البريطانية. فثال منها كلها، قرارات بصلاحية المشروع وكبير فائدته للتجارة على العموم والتجارة الإنجليزية على الأخص.

وحدا ذلك بزمرة من خيرة رجال البرلمان البريطانى الى القيام لتعظيمه، وسؤال الحكومة رسميا في جلسة ٢ يونيه سنة ١٨٥٨ عما اذا كان في عزمها أن تساعد على نفاذ مشروع قتال السويس، وتعمل الباب العالي على منح الفرمان المطلوب له.

فأثار هذا السؤال أحقاد اللورد بليرستن الكاتبة، وهييج غضبه. ففسى مركزه وواجب المجاملة التي يقتضيها منه لفرنسا وحكومتها؛ وانبرى للرد على السائل، بمضاضة لا مزيد عليها، قائلا: «إن الحكومة البريطانية أبعد من أن تعضد "مخزعة" وطريقة نصب، غرضها الاحتيايل على اقتناص أموال البسطاء، بحجة نفاذ مشروع خيالى وهمي، لا سبيل مطلقا الى نفاذه!»

فانضم مجلس النواب الى اللورد النيل ، ورفض السؤال والخوض فيه بأطعية ساحقة .

لما كان من دى لبس إلا أنه أجاب على ذلك بإقدامه ، في ٥ نوفمبر سنة ١٨٥٨ ، الاكتاب العام على فتح الاكتابات العامة في أسهم الشركة العالمية ، بفرنسا وغيرها من الأقطار القريبة . ففاق النجاح كل ما كان ينتظره ؛ وغطى الاكتاب حثة مررات ! فلم تنقض سنة ١٨٥٨ إلا والشركة قد تأسست ، وتعين لها مجلس ادارة ، وبات وراء دى لبس بعضه ضد كل من يقاوم المشروع ، خمسة وعشرون ألف مساهم ، ورأس مال فرنساوى يزيد على مائة مليون من الفرنكات ، ويقسم على الحكومة الفرنسية أن تنافع عنه ، مهما رغبت في الوقوف على الحياد لعدم تمكين صفاء الحق السياسى بينهما وبين إنجلترا . وربما كان للفتنة — التى ، على إثر رفض البرلمان البريطانى السؤال الذى وجهته اليه تلك الزمرة المتتورة من أعضائه ، قامت في جثة ، من أعمال شبه الجزيرة العربية ، وهاجم فيها خمسة آلاف متحمس قنصلتى فرنسا وإنجلترا ، وقتلوا رجالها ، وفتكوا بنسائهما ، وارتكبوا من الآثام والمنكرات ما يحل عن وصفه القلم <sup>(١)</sup> — دخل في إقدام الناس ، لاسيما الفرنسيين على الاكتاب في أسهم المشروع . كأنهم أرادوا بذلك أن يؤكدوا ، من جهة ، مشاطرتهم الأمير (محمد سعيد باشا) رأيه فيما قاله لدى لبس ، حينما بلغت أئبا تلك الفتنة ، وهو : « إن ترعنا سنكتفل بعمل عودة جثة أو غيرها من بلاد شبه الجزيرة العربية الى مثل هذه الفظائع ، أمرا متعذرا ، لأنها سيجر بلاد العرب بأسرها ، ولو بالزحف منها ، على أخذ نصيبها من الحركة النورية <sup>(٢)</sup> ! » . وأن

(١) أنظر : "رسائل ودية ومستندات" لفردينان دى لبس ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ و ٣٠٠

(٢) أنظر : الكتاب السابق ذكره لى لبس ج ٢ ص ٢٩٨

يحتجوا ، من جهة أخرى ، على وقوف الحكومة الانجليزية ذلك الموقف الشاذ ، بعد أن أصدر العلم قراره النهائي ، بإمكان عمل التربة ، وبات بالمرتب ، رغم محاولته إخفاء عواطفه الحقيقية ، ببقته وراء مزاعم باطلية ، لا يستطيع أن يمد الحجاب على أنه إنما ظل يقاوم المشروع ، لأن مصدره فرنساوى محض ، وأنه هو يكره فرنسا ، وكل ما يزيد في عظمتها ، لكونه من بقايا الحزب المتشيع بالسخط عليها ، ويوجب منافستها ، دون غيرها .

البد. في السمل

وفي ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ ذهب المجلس المؤلف لإدارة الشركة ، برئاسة رئيسه المسبوقى لسياس وزمرة من المهندسين ، الى برزخ السويس ، من جهة البحر الأبيض المتوسط ، حيث قامت ، بعد ذلك ، مدينة بورسعيد الجميلة ، وحيث كان قد أحتشد جمهور يروى على مائة وخمسين مائين نوقى وطامل ، ونهض الرئيس بينهم ، خطيباً ، وببده فأس ، وقال :

« باسم شركة قناة السويس البحرية الكونية ، وبمقتضى قرارات مجلس إدارتها ، نضرب ، الآن ، أول ضربة فأس على هذه الأرض ، لفتح مداخل الشرق الى تجارة الغرب ومدنيته ، ونحن متعهدون ، هنا ، فى اخلاص واحد لمصالح مساهمى الشركة ، ومصالح الأمير النبيل (محمد سعيد) منشئها الكريم والمحسن اليها صنعا<sup>(١)</sup> . »

وأقبل ينكس بفأسه التراب فى الأخدود المحتط ، لحفر التربة فيه . واقتدى به جمهور الحاضرين . ثم قامت الأعمال على قدم وساق ، وأخذت تتقدم منذ ذلك الحين ، بلا ملل ولا كلل ، وبدون انتظار ورود القرمات السلطاني المؤذن بالتصديق على الامتياز الممنوح .

(١) أنظر : "رسائل وجرية ومستندات" لفردينان دى لسياس ج ٣ ص ٨٠

فهاج ذلك منط الحكومة الانجليزية . فوطنت نفسها على تعطيل المشروع وإيقاف الأعمال ، مهما كلفها ذلك من المشاق . وأوعزت الى السير بلور سفيرها بالأستانة — وكان قد خلف ، هناك ، اللورد سترايفرد دى رد كليف — بأن لا ينفك راجا على أنفاس الحكومة العثمانية ، حتى يقضى منها الوطر المرغوب .

فقال السير بلور في نفسه : «إنا اذا زرنا الأمير (محمد سعيد) من إمارة مصر ، حبط المشروع برقته من تلقاء ذاته ، بسبب زوال مانع امتيازه ! » .  
وافتق ذهنه في الحال ، الى تدبير وسيلة للوصول الى ذلك .

فاتفق مع الحكومة العثمانية على أن يقوم السلطان عبد الحميد لزيارة بيروت ، ويدعو الأمير (محمد سعيد) الى مقابته فيها . فلا يسمعه إلا أن يجيب الطلب . فلما يلقي بنفسه بين يدى الحكومة العثمانية ، يقبض عليه ، ويشهر تهمة ، ويعلم خلفه ، ويؤلى غيره . ثم يطالب دى لسبس بالتوقف عن العمل ، لبطان الأساس القائم ذلك العمل عليه ، وأعنى به حق الامتياز الممنوح من أمير مة من متبوعه ممتزدا ، لإقدامه على منعه إياه .

فوافقت الحكومة العثمانية على ذلك ، وأرسلت بريطانيا العظمى عمارة بحرية الى مياه الاسكندرية لمساعدتها على تنفيذ المتفق عليه (٢٣ يولييه سنة ١٨٥٩) .

ولكن الانتصارات المتوالية التي أحرزتها الجيوش الفرنسية والمصرية في إيطاليا تحريرهذا الاقليم من نير التماسوين ، رفعت من شأن فرنسا ، وزادت في هيبة نفوذها الى حد أن كلمتها أصبحت العليا في أوروبا ، وأن لندن والأستانة لم تعربدا تجمران على تنفيذ الخطة التي رسمتها غيلة السير بلور للتخلص من مشروع ترمه

السويس . فاهمل السلطان أمر سفره الى بيروت — على أننا رأينا أن (محمد سعيد) قد زارها في تلك السنة عنها — وأقلمت العارة البريطانية من مياه الاسكندرية .

غير أن ذلك لم يقعد الحكومة الانجليزية عن معاكسة القناة ؛ ومال زال السير بلور بالباب العالي حتى حمله على ارسال مندوب يدعى مختار بك الى الأمير (محمد سعيد باشا) يحمل اليه الأمر السلطاني بإبطال الأعمال الجارية في البرنخ (أكتوبر سنة ١٨٥٩) .

فقد الأمير في حينه جمعية من قناصل الدول المقيمة بالاسكندرية ، وصرخ الأمر عليهم . فنهشوا كلهم ولم يصيروا جوابا ؛ لأن دولهم بأجمعها — ماعدا إنجلترا — كانت موافقة على المشروع ، مستحسنة له .

وإذا بالمسيو ساباتييه ، القنصل الفرنسي العام ، لحزازات نجحت بينه وبين رجال المشروع عن كيفية تشكيل مجلس ادارة الشركة ، قام وأعلن موافقته على مطالب الأستانة ، في وسط الاستغراب والبهت العامين .

فلم ير الأمير ، حينذاك ، بلنا من الإذعان الى الأمر . وأخذ يفكر في كيفية اعلان صديقه دى لسبس به .

ولكن دى لسبس علم بما جرى في حينه . وهب لثلاثي النكبة المؤشكة أن محل به . فرفع الأمر ، مباشرة ، الى الامبراطور نابوليون الثالث ، ووسط لديه الامبراطورة أوجيني قريبة — وكان بينها وبين صاحب مشروع الترمعة ، صلة رحم — وطلب التأخير على حكومة الأستانة ، تأميرا يحملها على إلغاء الأوامر التي زودت مختار بك بها ، وعزل ساباتييه ، أو نقله الى قنصلية غير قنصلية الاسكندرية . فاجابه الامبراطور الى طلباته كلها . فتدخل لدى الباب العالي سماخلا فعالا ، كان المصدر الأعظم ، على باشا



يقتضيه من مهمم قواده، ليتمكن من الاستناد عليه في مخالفته لرغائب السفير البريطاني، وإبطال الأوامر التي حملها مختار بك إلى الاسكندرية. وعزل ساباتيه عزلا باتا. لما زادت إنجلترا إلا عنادا واصرارا على الفوز ببرامها. وأقبل قنصلها بالاسكندرية يخوف الأمير (محمد سعيد) من عواقب اكتتابه بالنيف والمائة والخمسين ألف مهمم التي أخذها لحساب حكومته من أسهم الشركة الأرمينية ألف .

ولكن (سعيدا) لم يبال، وما زال واقفا بجانب صديقه دى لسبس بمضيه ويشجعه، حتى وافاه الأجل المحتوم. وكان دى لسبس قد رأى بين يديه، ذات يوم، عصا جميلة أحضرها (سعيد) من لندن، أثناء زيارته لها. فأهداه أخرى أجمل منها صنعا، لتقوم مقام تلك العصا الإنجليزية، وتكون تذكارا منه للأمير العزيز. فاتفق (سعيد) معه على أنه إذا دخل عليه ووجده قابضا على عصاه هذه، يضاطبه في شأن القناة بلا خوف ولا وجل. وأما إذا دخل عليه، ووجد في يده العصا الإنجليزية فليفهم حالا أن هناك عذلا، وأن الكلام في شأن القناة لا يناسب<sup>(١)</sup>.

فلما آل زمام حكم القطر المصري إلى (اسماعيل)، أظهر لدى لسبس ارتياحه إلى القناة، ورغبته في أن يتم ذلك العمل المجد في عهده، ليتشرف ويقتخر به أمام الأجيال المستقبلية. ووعده من تعضيده له، وقيامه بتمهيدات سلفه، انخير كله. ولكن ذلك كان عقب ارتقائه العرش مباشرة، في وقت لم يكن يدري فيه بالتقام ما هي تلك التمهيدات — لأنه، لا سيما منذ أصبح ولي العهد، كان يتحاشى التداخل

(١) انظر: "أسرة فرناوية: آل دى لسبس" لبريديه ص ٣٦٧، و"تذارات أوبين طام"

لقردينا دى لسبس، و"رسائل وديرة وستندت" ج ٤ ص ٢٧٧

في أى شأن من شؤون الحكومة لم يكلفه عمه به ، منعا لايحاء أسباب لوشاية دساس ، يبنى من إبلاتها قريبا من (محمد سعيد) وحظوة لديه .

فلما وقف على حقيقتها ، امتنع امتناعا لا مزيد عليه ، لما وجدته ناجما عنها من مشاركة الشركة لحكومته في صولتها ، وإدارتها ، وماليتها ، وودّ لو أمكنه تعديلها بحيث يزود الشركة من تلك المشاركة ، بدون حرمانها من أى امتياز تجارى ، أو مصلحي ، يضمه امتيازها لها .

اطلاع (اسماعيل)  
على حقيقة  
تهدات سلفه  
وامتناعه

ثم لما تبين أن القناة إنما تعمل بأيدي فلاحى مصر ، وأن معظم النفود المنفقة عليها ، هود مصرية ، ربما يتجمع رأس المال الأجنبي المكتسب به ، ودّ فى صميمه لو تمتح الشركة عن المشروع له ، وتركته يقوم وحده ، بمجود الوسائل التى يمدّها من بلاده وفيها ، بذلك العمل الاجتماعى الجزيل الفائدة . فلا يعود نفع انشائه واتمامه إلا اليه ، وتعود معظم الفائدة الناجمة عنه الى قطره المصرى . فتجرى القناة شرقية يكتولا<sup>(١)</sup> جليدا ، بينا النيل يمرى فى وسطه ، معين حياة وخيرات أبدية ، وقد صبر من شعوره هذا بقوله : « إني انما أريد القناة لمصر ، لا مصر للقناة<sup>(٢)</sup> ! » ولكنه ، لمعرفته أخلاق دى لبس معرفة كافية ، كان متأكدا من أن الرجل لن يتخلّى عن نفاذ مشروعه بنفسه ، مهما اضطره نفاذه الى المناضلة والمقاولة عنه . فحصر فكره ، إذا ، فى العمل على إزالة ما فى الامتياز ، الممنوح له ، من جائز على حقوق الحكومة المصرية السيادية . فان أدّى ذلك الى تقضى الشركة عن المشروع ، مقابل تعويض

(١) الكترول نهري لإقليم ليدبا آسيا الصغرى كان يروى مدينة سرد عامه ، ويدق تمرا كان مصدر الثروة الجسيمة التى جعلها تارون ملك ذلك الاقليم .

(٢) أنظر : "مصر" لمالورق ص ١٥١

موافق يمنع لها، كان خير ما يرام؛ وإلا، فانه يكون قد فك عن ساعدى حكومته القيد الخجاسى الحلقات الذى ظلها به ذلك الامتياز؛ وأعطى بها :

(أولاً) ملزومية الحكومة المصرية بتقديم أربعة أنحاس العمال الذين تحتاج الشركة اليهم ، ولو بلغ عددهم عشرين ألفا ؛ بما يتبع ذلك من حق للشركة في مطالبة الحكومة بتعويض في حال تقصيرها أو عجزها .

(ثانياً) ملكية الشركة لترعة الرى والملاحة النيلية ، التى كلفها الامتياز المنوح لها بعملها ؛ وهى التربة الواجب أن تأخذها من مياه النيل عند مصر، لتذهب بها حتى بحيرة التساح ، حيث تنقسم الى قسمين ، يذهبان عماديين للترعة البحرية : (أحدهما) شمالا، نحو البحر الأبيض، لغاية بورسعيد؛ و(الثانى) جنوبا، نحو البحر الأحمر، لغاية السويس . وحق الشركة في رى الأقطان ، الخاصة بالأفراد، المجاورة لها من مياهها، مقابل جعل لها وحدها، دون غيرها أن تربط مقداره .

(ثالثاً) ملكية الشركة ملكية مطلقة، بدون مقابل، وبدون دفع أموال أميرية، لجميع الأقطان ، غير المملوكة لأحد ، التى قد تحتاج اليها في عملها الترعين : البحرية الملحة والنيلية العذبة ؛ وملكيتها المطلقة أيضا لجميع الأقطان التى قد تروىها وتضلعها، على شرط أن تدفع عنها أموالا بعد مضى عشر سنوات من تاريخ الشروع في تأهيلها للزراعة .

(رابعاً) سلطة الشركة التامة على التربة البحرية وضفتها ؛ وتصرفها، دون غيرها، في توسيعها التوسيع الذى ترضه، وفي اقامة المباني التى تريدها؛ ومنع الحكومة المصرية من اقامة ما تريده من حصون على ضفافها ؛ والافراد بالنظر في شؤون العاملين في ورشها ومعاملها، والمقيمين على البرزخ الجارية أعمالها فيه .

(خامساً) وأخيراً : اضطراب الحكومة المصرية الى نزع ملكية الألبان الخاصة بالأفراد، التي قد تحتاج الشركة اليها، لنفاذ أعمالها، أو استقلال امتيازها .

فلما سمع عزيمته على هذا السعى، أقبل بنفذه، وهو لا يخفى في جهاده لومة لائم، لا لأنه لم يكن يقدر نتيجه حق قدرها، كلا — فانه لم يكن بالأمير الباهل، مطموس البصيرة، العاجز عن أن يرى أن مقاومته لشركة قناة السويس، قد تصبفها الأهواء والأغراض بصبغة غير صبغتها الحقيقية؛ فترسمه أمام العالم المتمدنين وأمام التاريخ في صورة الظالم النبي، البازل جهده في القضاء على أعظم مشروع، بل أعظم عمل أبززه القرن التاسع عشر الى الوجود، وأقدم على تنفيذه؛ وفي صورة الأحمق الباحث على ائتلاف ما هو حقيق باعتباره خير جوهرة في جواهر ملكه — ولكن، لاعتقاده أن واجبه، بصفته ولي أمر الحكومة المصرية، المسؤول عن استقلال البلاد، والاستقلال الداخلي النوعي الذي ضمنته لها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠، والقرامانات السلطانية الصادرة مؤذنة بالتصديق على قراراتها، يحتم عليه ازالة الحكومة التي أصبحت للشركة ضمن حكومته . فأقدم إذا على ذلك، وهو مرتاح الوجدان مطمئن القلب، واثق من أن نياته الحقيقية، ومراميها الفعلية لن تلبث أن تظهر للآل : فيمتدحه قاذووه، ويفهمه نفس أصحاب المصالح المغايرة لمصلحته .

فأقول خطوة خطاها في هذا السبيل، الاتفاق الذي أبرمه، على يد نوباريك مع الشركة بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٨٦٣ — أي بعد ارتقائه العرش بشهرين — فانه أحل بموجبه الحكومة المصرية على الشركة في القيام بوصل تربة الماء العذب

بد. النزاع  
بين (الملك)  
وهي لبس

(١) أنظر : بنود الامتياز الممنوح من (محمد سعيد باشا) في مريش : "مصر المعاصرة" ص ٢٧٢ وما يليها .

الناحية من الزقازيق الى بحيرة التماسح فالى السويس جنوبا ، ويور سعيد شرقا ، بالنيل عند مصر ، وذلك اجتنابا للتنازعات المتوقع لجوهرها ، حتما ، عن نزع ملكية الأعيان الخاصة بالأفراد ، واللازمة لحفر مجرى التربة من مصر الى الزقازيق ، واحتراما لمصالح الحكومة المصرية <sup>(١)</sup> .

وثاني خطوة ، الاتفاق المالى الذى عقده مع الشركة ، على يد مندوبه عينه فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٣ — أى بعد الاتفاق الأول بيومين — فانه قرر بمقتضاه ، المطلوب من حكومته ، حتى ذلك اليوم عن الـ ١٧٧٦٤٢ سهما التى اكتب بها الأمير (محمد سعيد) ، ورتب كيفية دفعه ؛ وحفظ لحكومته الحق فى الاتفاق مع الشركة على كيفية دفع الخمسين الباقيين من ثمن كل سهم ، حينما تطالب الشركة مساهميهما <sup>(٢)</sup> .

ثم دخل فى المعركة بصراحة ؛ وأخذ يضرب على القيد الخماسى الحلقات ، بقوة وحكمة ممتزجتين معا ، امتزاجا لطيفا ؛ لا سيما وأنه كان قد اتفق على العمل مقدما مع الحكومة الثمانية ، ووضع كلاهما خطة السبر الواجب اتباعها .

فارتكن على اعلانه رغبته فى ابطال السخرة ، وعلى أن السخرة فى حد ذاتها أمر كرهه ، من الوجهة الانسانية ، تأباه روح الانصاف وتنفرد روح العدالة منه ، ليطالب الى الشركة تنازلا عن حقها فى مطالبة الحكومة المصرية بالعمال الذين هم فى حاجة اليهم ؛ لأنها تشملهم بخبرة ، ولو أنها تدفع لهم فى الحقيقة أجرة انتقالهم من

(١) أنظر : صورة هذا الاتفاق فى "رسائل برلمانية ومستندات" لفردينان دى لابس ص ٢٨٩

وما يلحق ٤

(٢) أنظر : صورة هذا الاتفاق فى الكتاب ج ٤ ص ٢٨٣ وما يلحق

قراهم الى البرزخ ومنه اليها إيابا، مهما بعدت شقتها عنه ؛ وتدفق لهم أجورا يومية على نسبة أعلى مما يدفع من نوعها لأمثالهم في البلاد ؛ وانها تقدم لهم فوق ذلك المأكل والمأوى ؛ وتقوم بشؤون علاجهم في حال مرضهم ، مع احتساب أجرتهم لهم مدة معينة، بالرغم من انقطاعهم عن العمل ، وهم يعالجون في المستشفيات التي تمهلت بانفسائها لهم .

وارتكن على أن احتياج الشركة ، بسبب الأعمال الجارية في البرزخ ، الى ترعة تذهب بجياه النيل العذبة الى أماكن العمل المتعددة ، والى مدينة بور سعيد التي أنشأتها حديثا ، من جهة ؛ ومدينة السويس ، من جهة أخرى ؛ وتكون صالحة للإلاحة النيلية معا ، إن بذر مطالبة الشركة للحكومة المصرية بتحويلها الى الأبد من الانتفاع والاستفادة من تلك التركة ، ومطالبتها بالتعهد لها بالمحافظة عليها وعلى منسوبها ، مهما تنوعت طوارئ الحدائق ، لا يبرز تملك الشركة لها تملكا مطلقا . لأن الترع التي على شاكلتها ، بصفتها منفعة من المنافع العمومية ، لمن الأشياء التي لا يجوز تملكها للأفراد ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وأمسوا وحدة دعوها "شركة" ولأن تملكها حق من حقوق الحكومة في جميع الأقطار ، لا يشاركها أحد فيه .

وارتكن على أن الخواطر والتصميمات المنصوص عنها في المادة الثامنة من فرمان الامتياز المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، والمادة الحادية عشرة من فرمان الامتياز الثاني المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ — وهى المطلوبة لبيان وتحديد مساحة الأقطان اللازمة لتمكين الشركة من القيام بنفاذ مشروعاتها ، وعمل الترعين البحرية والنيلية — لم تصنع حتى ذلك العهد ، لمطالبة الشركة بمصر مزاعمها التملكية للأقطان غير المملوكة لأحد ، ضمن حدود الاعتدال والمعقول ، والاتفاق مع الحكومة المصرية على

حقيقة المساحة اللازمة لها في الصحيح ، لتتمكن من ضمان نجاح مشروعها ؛ والتخل عما عداها من الأطنان الأخرى التي وضعت يدها عليها ، استنادا على المادة الرابعة من فرمان الأول ، والمادة العاشرة من فرمان الثاني .

وارتكن على أن قوانين الدولة العلية لا تبيع التنازل لأجنبي عن ملكية أرض في دائرة ولاياتها ، إلا بفرمان خاص يصدر من لدن الخصرة الشاهانية ، وصل أن مصر انما هي ولاية — وإن كانت ممتازة ومتمتة باستقلال داخل — من ولايات الدولة العثمانية ؛ وأن قوانين الدولة التملكية تطبق إذا عليها بلا مرء ولا جدال ، يطالب الشركة بالتخل عن جميع الأطنان غير المملوكة لأحد التي آلت اليها ملكيتها بموجب نصوص فرمانين ، لقيامها بريها وفلاحها ؛ وبتحرير الحكومة المصرية بالتالي ، من حلقة القيد الخامسة والأخيرة الناجمة لها عن نص المادة الثاني عشرة من فرمان الثاني .

وارتكن على منطوق آخر فقرة في المادة الرابعة من فرمان الأول ، وعلى حقوق الدولة السيادية المعترف بها في كل صقع ، لمطالبة الشركة بالخضوع لحق الحكومة المصرية ، في تحديد اتساع التربة ، وإقامه ما تشاء على ضفافها من استحكامات حربية وحصون ، وفي سيطرتها ، دون سواها ، على عموم رعاياها المنتشرين في البرزخ والعاملين في معامل الشركة وورشها .

وبعد أن اغتم فرصة وجود السلطان عبد العزيز ووزيره قواد باشا بمصر ، واستوفى من بقائهما على العهد الذي اتفق عليه معهما ، أثناء أقامته بالأستانة ، عهد الى وزيره نويس — وكان السلطان عبد العزيز قد أنعم عليه برتبة الباشوية الرفيعة — في مهمة الاتفاق مع دى لسبس على ازالة ذلك القيد الخامسي الخلفات بالتى هي أحسن .

فشرع ذلك السيامى الحاذق يتخارب مع "الفرنساوى العظيم" — كادعى "ججتا" دى لسبس — عساه أن يصل الى اقناعه بقبول طلبات (اسماعيل) .

ولكنه لم يفلح ؛ لأن الأمير انما كان يريد أن يدرك أغراضه بدون دفع أى تعويض ؛ زعمه أن الشركة ، باقلامها على الأعمال ، قبل نيلها مصادقة السلطان العثمانى على الامتياز الممنوح لها ، مع ذكر وجوب حصولها عليه فى نص ذلك الامتياز ، قد ارتكبت خطأ اختياريا ، عليها أن تتحمل ، دون غيرها ، عواقبه ؛ وانها والحالة هذه ، غير حققة فى مطالبة التير — والحكومة المصرية أقل من سواها — بأى تعويض عن الأضرار التى قد تتعم عن تجاوز وقت فى شره . ودى لسبس ، من جهته ، اذا وجد من نفسه ميلا الى التسليم ببعض مزاعم الأمير ، وطلباته ، حتى بدون تعويض ، كالطلب الأخير ، مثلا ، لم يكن يستطيع أن يسلم بها كلها ، ولا سيما بما كان منها مختصا بالعمال والأطيان ، إلا مقابل تعويضات كبيرة تمكنه من تجاوز مشروعه ؛ إلا اذا كان مستعدا — ولم يكنه — الى اطراح العمل بأثره جانبا ، والتخل عنه .

فلما لم تجدد المفاوضات بمصر نفعا ، أمر (اسماعيل) نوبار بالرحيل الى الأستانة ، والسعى لدى أولى الأمر ، هناك ، فى اتمام المتفق عليه بينه وبينهم والاستعانة ، على إنجاز مهمته ، بما لم يزل قائما من عهداء للشروع فى نفس الدولة البريطانية وسقيها فى تلك العاصمة . ولم يبال بأن يقال عنه إنه آلة فى أيدي اللورد بليرستن والحكومة الانجليزية ؛ وأن ينسب اليه ممالأتهما على هواهما ممالأة مبلية على الاعتقاد بأن بريطانيا العظمى ، بعد حوادث سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٥٦ ؛ وبعد إجبارها فرنسا ، بالرغم من انتصاراتها الايطالية فى سنة ١٨٥٩ ، على الحلأ عن سورية بعد سنة ١٨٦٠ ، أصبحت صاحبة القسح المثل فى ميادين السياسة



المالية ، وصاحبة التفوذ الأكبر في القسطنطينية ؛ وأصبح استغلال رضاها ، إذا ، للاعتقاد عليها ، فيما بعد ، لتحقيق المطامع الشخصية ، أمرا مرغوبا فيه .

ولكى لا يكون هناك شك في أنه إنما يحارب ما هو متجاوز حد الاعتدال في الابتياز الممنوح للشركة ، لا مشروع القناة نفسه ، أمر نوبار بأن يخصص مهمته في طلب ونيل الأغراض الآتية من حكومة الأستانة وهي :

(أولا) إعادة الأتبان المعطاة للشركة من (سميد) سلفه الى الحكومة المصرية .

(ثانيا) منع إقامة حصون واستحكامات حربية على شاطئ القناة مطلقا ، وحفظ شكله التجارى المحض الذى أنشئ من أجله .

(ثالثا) إلغاء الشرط الموجب على الحكومة المصرية تهديم الجبال من قبلها الى الشركة . فان لم يمكن ، تخفيض مددهم من حشرين ألفا الى ستة آلاف ؛ ورفع أجورهم ، مع إعفائهم من الخضوع لسيطرة الشركة لكى يستمروا خاضعين لحكومتهم المصرية فقط .

فسافر نوبار الى الأستانة في شهر يوليو سنة ١٨٦٣ ، ونجح في مهمته الناجح المنتظر . فاستصدر من الباب العالى أمرا الى (اسماعيل) يحتم عليه عرض المطالب الثلاثة الميمنة أعلاه على رئيس الشركة ، وأعضاء مجلس ادارتها ، فان قبلوها في ظرف ستة أشهر ، فيها ، وإلا فتوقف الأشغال بالقوة الجبرية .

ثم رحل الى باريس ، لعله أن الأمر سيرفع حتما اليها ؛ وأنه يحدربه إذا أن يهدد الطريق هناك على الأخص لنجاح مطالب سيده .

(١) أنظر : "رسائل ديمية ومستندات" لهردينان دى لسي من ٣٥٠

فأبلغ (اسماعيل) في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ أمر الباب العالي الى المسيودي لسبس ومجلس ادارة الشركة؛ فامتعضا له، أيما امتعاض، وحررا في ٢٩ من الشهر عينه الى الامبراطور نابوليون الثالث كتابا حاد الشعور، طلبا فيه عنايته بالأمر.

ولتقدير دى لسبس الخطر حق قدره، وتيقنه من أن المكتبات لا تجدى ما يجدى الكلام والعمل، سافر بنفسه الى باريس، ليتأصل خصمه، هناك، في ذات الميدان الذى اختاره للنضال.

فلارت بينه وبين نوبار أدوار مبارزة كلامية وصحفية سياسية، استلقت اليها أنظار العالم المتمدين كله، وأثارت شجونا، واضعالات متعددة مختلفة.

النضال بين  
دى لسبس ونوبار

وكان نوبار قد اكتسب ثقة الدوق دى مرني، صنو نابوليون الثالث، واستوثق من تعضيدته الفعال. فاعتقد أن الفوز بات، حتما، حليفه، لما كان لذلك الدوق التقدير من التأخير على روح الامبراطور، والتفوذ لديه. ولكن دى لسبس، من جهته، كان مستوحا من انعطاف الامبراطورة قريبته، على المشروع، ومن تعضيدتها له، تعضيدا لا يبالى بالمقبات والصعوبات، ولو أنه خفى. فطلب إليها أن تحمل الامبراطور على رفض تماخل دى مرني في الأمر، وأن يمهّد النظر فيه الى المسيودي لويس وزير الخارجية الفرنسية. وأفلح في طلبه.

غير أن التقود اشتغلت، من وراء الستار، وبذلت عن سعة. فقامت الجرائد المعادية للشروع في انجلترا طعن طعنًا المثر المعتاد عليه، وتسفه أحلام القائمين به، وترميمهم بالمطالب والمطامع الشخصية، والعمل على تحقيقها دون سواها. وتبادى بالويل والثبور على استخدام السخرة في سبيل انشاء تلك التربة، معلنة منافاة ذلك

لمبادئ الإنسانية والمدنية الأوروبية . وانضمت اليها في حملتها بعض الجرائد الفرنسية عينها ، لا بل بعض كبار الكتاب والمفكرين ، ومنهم بارادول ، فانه سئل من بعضهم ، عند عودته من القطر المصري : « هل ذهبت لمشاهدة أعمال ترعة السويس ؟ » فأجاب بتميز : « لم أذهب ، ولو ذهبت لجلعتها خراباً ! » .

غير أن جرائد أخرى ، في عموم الدول الأوروبية ، قامت تدافع عن المشروع وتعيذه ، وتدافع عن حقوق الشركة وتعضدها . وأثار دى لسبس الرأي العام الفرنسي وهيج حوافله الوطنية بأن صوّره المشروع فرنساويا محضاً ، وأقهمه بأنه إنما يضطهد ويقاوم لفرنساويته ، وأن الشرف الفرنسي أصبح ، إذا ، متعلقاً بنفاذه . وبلغ من دفاعه عن حسن سمعة مشروعه ، أنه قدم نوبار باشا نوبار ، بصفته الشخصية ، لا بصفته مندوب ( اسماعيل ) الى محكمة جنح السين ، متهما إياه بنشر كتابات ومستندات مزورة ثلاثية ، من شأنها إحباط ثقة مساهمي الشركة بمشروعها ، وهتك ناموس التأمين به .<sup>(٢)</sup>

سوق (نوبار) الى  
محكمة جنح السين

فدفع محامو نوبار التهمة بابرار كتاب مرسل من الدوق دى مرني الى موكلهم ، يرر عمله ويصده بتعضيد الامبراطور . فاعلم دى لسبس الامبراطورة أوجيني بالواقع ، وتشدد في طلب إبعاد دى مرني عن الأمر ، ولم يحجم عن استنهاض هم مواطنيه ، لا سيما كبارهم ، لحملهم على الوقوف بجانبه وقوفاً يرغم ويقهر الخصوم ، ويخيب مساعيهم .

(١) أنظر : في " رسائل ويومية ومستندات " لقرديان دى لسبس أحوال الجرائد الانجليزية .

ولاية ١١ فبراير  
سنة ١٨٦٤

فأقام مريدوه وجة له بإريس في ١١ فبراير سنة ١٨٦٤، تحت رئاسة البرنس  
چيروم نابوليون، وبحضور نيف وألف وستمائة مدعو، أقيمت فيها الخطبة الزائدة،  
مطالبة بإزالة كل عقبة من طريق إنشاء تلك التربة، وأهمها خطبة رئيس الحفلة  
نفسه، وخطبة المسيو دى لسبس، وخطبة المسيو ديبين، من كبار رجال الشرع  
والقضاء بفرنسا<sup>(١)</sup>.

أما الرئيس فانه، بعد أن أحرق بخور الشناه والمدح (لإسماعيل)، وأعترف بأنه  
أنما يقاوم دى لسبس وشركته، لا لرغبة منه في تعطيل مشروع القناة، ولكن  
لرغبته في أن يقوم، هو نفسه، بإنجاز ذلك العمل الخطير، أنكر عليه مقدرة على  
القيام بذلك، واستشهد على صحة قوله بزعم زعمه له موجيليك، مؤداه أن مصر،  
بعد أن صرفت نيفا وعشرين مليوناً من الفرنكات على إنشاء القناطر الخيرية، حومت  
نفسها الاستفادة منها، لضنها بليون ونعمائة ألف فرنك أخرى، فمن الأبواب التي  
كانت تلك القناطر في احتياج إليها. فتركها، إذا، تؤول إلى انحراب لقعود همتها  
عن اتفاق ذلك المبلغ اليسير الباقي، المطلوب لتتمام عملها، وشبه الشرقيين على  
العموم، في مشاريعهم وأعمالهم "برجل يفقد بنطلونه، لإهماله خياطة زربقصه!"  
وختم خطبته بنصيحة أسداها للشركة بأن تطرق باب التصالح مع الحكومة المصرية  
على مبدأ منع السفرة، ورد الأتبان مقابل عوض معقول.

وأما المسيو دى لسبس، فبعد أن شرح أغراض الشركة ومراميها، ونتيجة  
ماوصلت إليه في أعمالها، ومقدار الخير الذي أسدته إلى الصحراء الواقعة بين الزقازيق

(١) أنظر: هذه الخطبة في "رسائل ويومية ومستندات" لفردينان دى لسبس ج ٤ ص ٣٨٧  
وما يلحقها.

والسويس ، بحفرها التربة التي أوصلت مياه النيل الحلوة إليها ، فأحيتها ، ومقدار ما يجب أن ينتظر من نجاحها ، بعد تمكنها من جلب مياه البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة التمساح — لأن هذا هو العمل الذي قصدت دون إتمامه همة السلف ؛ وأما إيصال القلزم بتلك البحيرة عينها ، فقد قام الأقدمون به ، وفدته أيضا الأعصر الوسطى — قال إن الشركة لا ترفض الاتفاق مع الحكومة المصرية ، ولكن على شروط تلائم مبادئ الحق والانصاف ، وتراعى ما وصل إليه المشروع ، والتمهيدات التي في حيازته ؛ فلا تقف في سبيل نجاحه .

وأما المسيو ديبين ، فانه ، بعد أن أقر مشروعية أعمال الشركة ، ولو أنه لم يصدر ، إلى ذلك الحين ، فرمان سلطاني يؤيد الامتياز الممنوح لها ، أبدى أملا بأن تزول كل عقبة ، سيما ، من سبيل المشروع وتحقيقه ، فتتحول ترعة السويس من "ترعة عواصف" إلى "ترعة رجاء صاحب" مشيرا إلى ما أجاب به ملك البرتغال (عمانوئيل السعيد) أمير سفنه الجسور ، برثماؤس دياز . فان هذا البحري المقدم ، لما روى لذلك الملك السعيد الطالع حوادث رحلته حول شاطئ أفريقيا الغربي من شماله إلى جنوبه ، ووصوله ، في محاولته بلوغ بحار الهند ، إلى أقصى رؤوس تلك القارة ، جنوبا ، واصطدامه هناك بزوايج وعواصف وأنواء حالت دون تكمته ، بما أفرغت من قلوب بحارته وخيالاتهم ، وما أسقطت من همهم ، قال الملك : «اني قد رأيت ، إذا ، أن أسمي ذلك الرأس "رأس العواصف" !» فقال الملك : « كلا ، بل ندعوه "رأس الرجاء الصالح" تيمنا بالخير في المستقبل ! وإلا شبطنا الحزم ، وعقنا الإقدام !» . فكان لتلك الوثيمة ، والخطب التي ألقيت فيها ، وقع في قلوب الأمة الفرنسية ، وفي العالم المفكر برمته ، دوى صدهاء ممتة مديدة .

محكم نابوليون  
الثالث

فرأى (اسماعيل) أن الرأي العام المتعدين قد يندفع ، فيضلل به ، فيحول ذلك دون بلوغه مطالبه الحق . فكتب نابوليون الثالث رأسا ، واختاره حكا بينه وبين الشركة ، وقبل دى لسبس والشركة التحكيم بسرور فائق .

فأمر نابوليون بتشكيل لجنة من رجال ذوى نزاهة مشهورة تحت رئاسة وزير خارجيته المسيو دى لويس ، للبحث فى الأمر من جميع وجوهه ، ودرسه درسا دقيقا . فوالث اللجنة المذاكرة والدرس ثلاثة أشهر متوالية ، ثم رفضت الى الامبراطور نتيجة ما وصلت اليه مباحثها .

محكم نابوليون  
الثالث

فأصدر الامبراطور حكمه فى ٦ يوليه سنة ١٨٦٤ ، وقرر ما يأتى :  
(أولاً) اعادة ستة آلاف فدان من الأطنان الممنوحة للشركة ، الى الحكومة المصرية ، بتخفيض مقدار الأرض التى كانت للشركة على جانبى التربة من كيلو متر الى ستمين مترا .  
(ثانياً) اعادة جميع الأطنان التى باشرت الشركة فلاحتها وزرعها وقدرها ٦٣ ألف هكتار ، الى الحكومة ، على أن لا تبقى لنفسها منها سوى ثلاثة آلاف هكتار .  
(ثالثاً) تخلى الشركة للحكومة المصرية عن كل حق فى مدا التربة ذات الماء العذب من مصر الى السويس وبور سعيد ، والزام الحكومة المصرية بعدها — وهى التربة المعروفة الآن "بالاسماعيلية" — مع حفظ حق الشركة فى الانتفاع بها .  
(رابعاً) ابطال حق الشركة فى مطالبة الحكومة المصرية بالعمال إلا على سبيل العارية المأجورة .

(خامساً) إلزام الحكومة المصرية ، مقابل ذلك جميعه ، وعلى سبيل التعويض ، بدفع مبلغ ٨٤ مليوناً من الفرنكات<sup>(١)</sup> .

(١) انظر سورة هذا القرار فى "وسائل يوربية ومستندات" لفردينان دى لسبس ج ٤ ص ١٦٦ وما يلحقها .

فهاز (اسماعيل) بالنرض الذى رعى اليه ، ولم يستكثر في سبيل فوزه ، المبالغ الجمة التى أنفقها في تمهيد الطريق ، بين الأستانة وأوروبا ؛ ولا المبلغ الجسيم الذى ألزمه بدفعه الحكم الصادر من نابليون الثالث .

ولكى يثبت للأأنه ، في نزاعه مع شركة القناة ، انما سعى الى تحرير بلاده من قيد كانت مغلوطة به ، لا الى الإضرار بالمشروع العظيم ، أبرم مع الشركة في ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ اتفاقا حفظ بمقتضاه للحكومة المصرية الحق : (أولا) في اقامة كل التجهيزات والاستحكامات الحربية التى تراها لازمة لحماية القطر ، على الأراضى المحتلة حرميا للقناة البحرية ، على شرط ألا تتجيم عنها حوائق لللاحة ؛ و(ثانيا) في إشغال ما تراه من تلك الأراضى بتشيديات تنشئها لمصالحها كالبريد والجمرك والتحكلات العسكرية وخلافها ، على شرط أن لا تكون عقبة في سبيل استغلال الشركة امتيازها ؛ وأن تدفع الحكومة لها ثمن الأراضى التى تستغلها ؛ كما أنه حفظ للأفراد الراغبين في الاقامة على شواطئ التربة البحرية ، أو في المدن القائمة على طول سبيلها ، الحق في حيازة ما يروونه من الأراضى اللازمة لتشيدياتهم ، على شرط أن لا تزيد على فدان فرسائوى (أكر) ، وأن يخضعوا لقوانين البلاد وطوائفها ، ويدفعوا الضرائب ، أسوة بباقي سكانها ، وأن لا يقيموا منازلهم حيث يوقون الملاحة ، ويدفعوا للشركة ثمن الأرض التى يرضون فيها .

وتنازلت الشركة للحكومة المصرية ، بموجب هذا الاتفاق ، عن جميع المباني القائمة منها لمصالحها على ضفاف ترعة الماء العذب ، من الزقازيق الى السويس ، بمنحها الأصل ، على أن توجرها الحكومة لها بواقع ٥ ٪ سنويا من رأس المال المستد إليها ، وبما أنها كانت قد اشترت من شركة إلمامى باشا ، تخشيش الوادى كله ، وكان

بهم الحكومة المصرية استرداده ، ضمن الأفيان الأخرى التي قضى حكم نابوليون بإعادتها إليها ، فقد باعته الشركة لها بمبانيه ومشتعلاته ، بموجب الاتفاق ذاته ، بمبلغ عشرة ملايين من الفرنكات .

واتفق الفريقان على أن يكون دفع جميع المبالغ التي أصبحت الحكومة المصرية مدينة بها للشركة ، على أقساط شهرية متساوية ، تبدأ في أول يولية سنة ١٨٦٦ ، وتنتهي في أول ديسمبر سنة ١٨٦٧<sup>(١)</sup>

ثم أبرم في ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ اتفاق آخر مع الشركة تلخص فيه فرمانا ( سعيد ) وكل ما تلاهما من اتفاقيات بين ( اسماعيل ) والشركة ، وما حكم به نابوليون ، وما ذكر في اتفاق ٣٠ يناير السابق ، ليأخذ الكل شكلا نهائيا تصادق عليه حكومة الأستانة ، كطلبها . فحفظ ( اسماعيل ) فيه لحكومته الحق في أن يشرف البوليس المصرى على عموم التركة البحرية ، وتوابعها وملحقاتها ، ليقر الأمن ، ويقيم حدود الشرائع والقوانين فيها ، كما أنه حفظ حق مرور المواصلات ، والتجارة ، والناس جميعا ، بدون دفع أى رسم كان ، في التفتك التي تختارها حكومته على ضفاف التركة ، ولا اعتبار الشركة مصرية ، ولو أنها مؤلفة من عناصر دولية ، اتفق معها على أن يكون الفصل في المنازعات الناشئة بين أفرادها ، والخاصة بتكوينها ، فقط من اختصاص المحاكم الفرنسية ؛ والفصل ، فيما عدا ذلك من المنازعات ، من اختصاص المحاكم المحلية دون غيرها<sup>(٢)</sup> . وكان الباب العالي قد ماطل جئنا ، بتأثير الدوائر الرسمية البريطانية الخفى في الأستانة ، في منح التصديق المطلوب على فرماني ( سعيد ) ، بالزم من أنذار أرسله إليه الامبراطور

(١) انظر : نص هذا الاتفاق في " رسائل و برقية ومستندات " لفردينان دى ليسبس ج ٥ ص ٢٢٢ وما يليها ومساحة أفيان تخميش الرادى غير مذكورة .

(٢) انظر : نص هذا الاتفاق في الخطاب مع ج ٥ ص ٢٣١ وما يليها .



نابوليون الثالث، بناء على الحاح دى لسبس . ولكنه اتفق أن فؤادا باشا، الصدر الأعظم، كان يتعاجل في جنوب فرنسا، لما حلت ركاب الامبراطور بمرسيليا، في ذهابه الى الجزائر، متفقدا . فذهب فؤاد الى مقابله ولكن الامبراطور أعرض عنه، ولم يلتفت اليه، ولا رد له سلامه . فاضطرب لذلك الصدر الأعظم، واستغهم عن السبب . فرد عليه بكلمة واحدة : «فرمان» . لما اقضى أسبوع واحد إلا وصدر، في ٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٢ و ١٩ مارس سنة ١٨٦٦، فرمان التصديق على اتفاقية ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ السابق ذكره . وقد قل دى لسبس في هذا الصدد : «لقد صدق المثل العربي القائل : "أوقية خوف أفيد من قنطار صداقة"»<sup>(١)</sup> .

وفي ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩ أبرم (اسماعيل) اتفاقاته في سبيل استعادة آحر حقوق السوية النهائية دولته السيادية الباقية في يد الشركة . فترع بمقتضاها منها، مقابل مبلغ عشرين مليون فرنك، حق إعفاء مستودعاتها من الخارج من الضرائب الجبركية، وألزمها بأن تدفع، على مرأبها وسفنها المانحة في مياه ترعة الاسماعيلية، الرسوم التي تدفعها المراكب والسفن المصرية؛ وأن تخضع للوائح السنوتة؛ وأن تنازل للحكومة المصرية عن القيام بخدمة البريد والتلغراف، لها ولجمهور، غير حافظة لنفسها إلا تلغرافا خاصا بخدمة الداخلية؛ وأن تخفل للحكومة حينها عن رسوم الصيد في التربة والبحيرات؛ وتشركها، بواقع النصف، في الانتفاع بأثمان الأراضي التي تبيعها الشركة من الأطنان التابعة لها، والخاصة بها، طبقا لنصوص المعاهدات السابقة؛ وأن تنازل لها، مقابل عشرة ملايين أخرى من الفرنكات، عن كل المستشفيات المقامة على البرزخ بمشتملاتها،

(١) انظر: «أمره فرساية»، و«آل دى لسبس» لبريديه ص ٣٨١، و«منشأ ترعة السويس»

لدرينان دى لسبس ص ٢١٩ و ٢٢٠، و«تذكارات» ٤٠ طما «توقف مع ج ٢ ص ٧٥٨

وجميع المنازل والمباني المملوكة لها ، في رأس الهيش ، والقنطرة ، وبحيرة البلح ، وفردان ، والجسر ، والورشة نمرة ٦ وجبل مريم ، وطوش ، والسرايتوم ، وجنيفا ، وشالوف ، والكيلومتر نمرة ١٤ من سهل السويس ؛ وعن محاجر المكس ومينائه ، ومشتملات الاستغلال فيه ؛ وعن غازنها ومخازنها في بولاق ودمياط ، خالية من كل نزاع ومحذور ! وتنازلت الحكومة للشركة عن قطاعات (كوبونات) أسهمها ، البالغ عددها ١٧٦٦٠٤ ، ابتداء من أول يناير سنة ١٨٧٠ الى أن تستوفي الشركة منها مبلغ الثلاثين مليوناً من الفرنكات التي أصبحت الحكومة مدينة به لها بموجب هذه الاتفاقية .

بهذه الكيفية ، وهذه الوسائل ، وببذله جميع هذه الأموال ، تمكن (اسماعيل) من كسر القيد التجاسى للحقات الذى غل به فرمانا الامتياز الممنوح من سلفه الى فردينان دى لسهس وشركة قناة السويس ساعدى حكومته ، وسلهاها جانباً عظيماً من سلطتها واستقلالها .

فلما تم له ماسى اليه ، أقبل ، وهو منشرح الصدر ، على مساعدة الشركة المساعدة الكلية ، حتى مكنتها من إنجاز عملها ، وأبرازه الى العالم يحتال في حظه البهية . وأخذ على نفسه القيام بافتتاح الترمعة افتتاحتها بذكره في بطون السطور ، وصندوق الأجيال ؛ ويؤكد لذلك أن (اسماعيل) كان أكبر الناس تهديراً بحلالة العمل الذى تمجده به ملكه . وسيأتى بيان ذلك الافتتاح في حينه .

## الفصل الثاني<sup>(١)</sup>

### ازالة القييد الثاني

قييد السيادة العثمانية ، بما يقبها من تضييقات مثله ،  
والزامات مصغرة ، وتوديث بالأرشدية الخ .

أعذب الألفاظ قولى لك :خذ \* وأمر اللفظ نطقى : بعمل  
«ابن الوردى»

إن تداخل النمسا والروسيا وبروسيا ، بزمامة المجلترا ، وبموجب اتفاقية لندن المؤرخة ١٦ يوليه سنة ١٨٤٠ ، بين السلطان العثمانى و (محمد على) الكبير ، لوضع حد للحرب القائمة بينهما ، وحفظ مكان الدولة العلية ، الذى أصبحت الجيوش المصرية تهتده ، لا سيما بعد انتصار (ابراهيم) الهام على الأتراك فى وقعة نزيب (٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩) ، أدى الى استصدار تلك النول فرمانين وجها من السلطان

عبد الحميد الى (محمد على) بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ (٢١ ذى القعدة سنة ١٢٥٦) فرمان ١٣ قير  
سنة ١٨٤١

كانا بمثابة قاعدة بنى عليها كان مصر السياسى والادارى معا .

(١) أم مصادر هذا الفصل هى : "مجموعة فرمانات فى القضاء والادارة بمصر" قليب جلد ، و "تاريخ المالية المصرية" لمجهول ، و "داس هوتى اجيش" قون . ٨ . ستيفان ، و "مصر" لستافى فين بول ، و "مصر" لماسيل ، و "مهران مصر" لشارل تليوى ، و "الكافى" لميخائيل بك شادوبيم ، و "مصر تحت حكم اسماعيل" لمالك كون ، و "كلمات عن الوراة لعرش المصرى" لرونكى ، و "اعتبارات عن الوراة مباشرة لعرش المصرى" لجورق ، و "تضية باننا مصر" لوكولتش ، و "مصر القديمة والحديثة فى مرض باديس سنة ١٨٦٧" لنييرس ، و "دى لبيس : حراة وأعماله" لفيرتران .

التبوء الاشا حشر فبالفرمان الأول منهما ، ألقى السلطان ، بناء على إيماء الدول المذكورة ، الأمر الذى كان قد خلع بموجبه (محمد على) من كرسي ولاية مصر — لاعتباره إياه عاصيا ومتجاوزا — وأعادته إليه ، مبيتا فى نحرطة أرسلها له ، فى الوقت نفسه ، حدود تلك الولاية ؛ ومنحه ، بطلب الدول عنها ، حق توريث أعقابيه ذلك الكرسي ، على الشروط الآتية :

(أولا) أن يختار السلطان العثماني من أولاد (محمد على) الذكور ، أو أولاد أولادهم الذكور ، من يشاء ليخلف على السدة المصرية الوالى المتوفى . فإذا لم يوجد ، بين الأولاد والحفدة ، خلف ذكر ، فيختار الباب العالى من يشاء للولاية ، بدون أن يكون لأولاد الإناث حق فيها ، إلا اذا شاء السلطان اختيار أحدهم ، على أن لا يتبع حق التوريث الاختيار .

(ثانيا) أن يكون الوالى ، المختار من بين أولاد (محمد على) أو أولاد أولاده ، ملزما بالنهاب الى الأستانة ، والمثول بين يدى السلطان ، ليقبل زمام ولايته تقليدا شخصيا رسميا .

(ثالث) أن يشبه ولاية مصر ، بالرغم من حق الوراثة المنوح لهم ، بباقي وزراء الدولة ، فى المنصب والتقدم على الأئناد فى الرسميات ، والتصدر ، على قاعدة الأقدمية ؛ وأن يوصفوا ، وينعتوا فى المكاتبات والمحاطبات الرسمية ، بما يوصف وينعت به أولئك الوزراء .

(رابع) أن يكون مفعول جميع المعاهدات المبرمة بين السلطنة العثمانية والدول ، ومنطوق كل خط شريف ، وخطهما يوفى يصدر من لذن السلطان ، للتقنين والتشريع ، ساريا فى الولاية المصرية ، ومتفندا فيها تنفيذه فى عموم أنحاء الممالك الشاهانية .

(خامسا) أن تكون جباية الضرائب والأموال والرسوم الجمركية وغيرها ، برمتها وعل أنواعها ، باسم سلطان تركيا ، وطبقا للأصول المتبعة في النولة صاحبة السيادة .

(سادسا) أن يرسل ربح الإيرادات المصرية كلها الى خزينة الباب العالي ، سنويا ، على سبيل الجزية ؛ وتصرف الثلاثة الأرباع الباقية في شؤون الادارة الداخلية ، وفيما تستنزمه احتياجات بيت الولى ؛ وأن تكون طريقة توريد الجزية الى سيديق عليها في سنة ١٢٥٧ ، معتمدة لمدة خمس سنوات ؛ ثم تكيف وتعزل طبقا للظروف ومقتضيات الأيام ؛ وأن يكون الولى ملزما بتعريف الباب العالي بمقدار إيرادات القطر بالضبط ، وبيانها له ، بيانا وافيا ، اجتنابا للتلاعب في مقدار الجزية .

(سابعا) أن تكون السكة باسم السلطان العثماني ، وأن لا تختلف في شيء أساسا عن مثيلتها المضروبة في الأستانة العلية .

(ثامنا) أن لا يزيد عدد الجيوش المصرية في أيام السلم على ١٨ ألف جندي ؛ وأما في زمن الحرب ، فلباب العالي أن يبلغه الى ما يراهي . وأن يكون تكوينه ونظامه مطابقين لتكوين الجيوش العثماني ونظامه : فصجل مدة الخدمة العسكرية خمس سنوات ؛ ويؤخذ من مقرعى الستين الباقيتين عشرون ألفا ، بقم ثمانية عشر ألفا منهم بالقطر المصري ، ويرسل الألفان الباقيان الى الأستانة ؛ ثم يبرسح خمس العدد كل سنة ، ويقترع ، ببله ، أربعة آلاف جندي جديون ، يبقى منهم في القطر ٣٦٠٠ ، ويرسل أربعمائة الى الأستانة .

(تاسعا) أن يكون شكل ملابس الجنود المصرية ، برية كانت أم بحرية ، وشكل راياتها ونياشينها ، كملابس الجنود العثمانية البرية والبحرية ، وكشكل راياتها ونياشينها ،

لا تميز بين الجندين إلا فيما يخص بنوع الأقمشة ، فانه يصرح للحكومة المصرية أن تختار منها ما يلائم طقس البلاد ومناخها .

(عاشرا) أن لا تبنى مصر سفنا حربية مطلقا ، إلا بتصريح صريح من الباب العالي ، يعطى لها كتابة .

(حادى عشر) أن يقتصر حق الوالى ، فى تعيين ضباطه البريين والبحريين وتزويجتهم ، على اللوجات الصغرى لغاية درجة الصاغ قول أغامى . فاذا أراد رفع ضابط الى درجة أعلى من هذه ، فعليه أن يخبر الباب العالي ، ويستحصل الترقية منه مباشرة .

(ثانى عشر) أن أى إخلال بأحد هذه الشروط يؤدى الى إلغاء حق انتقال الولاية بالإرث ، فورا .

وبالقراءان الثانى ، قلاد السلطان (محمد على) الولاية على بلاد النوبة ودارفور وكردوفان وسنار ؛ ولكن بدون حق فى توريثها لأعقابها ؛ كأن السلطان أراد بذلك أن يقيم على الحدود المصرية الجنوبية ، المستقبل ، خطرا يشهره خلفاؤه فوق رؤوس خلفاء (محمد على) كسيف دامكليس ، ابتغاء إبقائهم فى حدود الطاعة والأمانة ، فيما لو حق لم انطويح ضنا — مع أن (محمد على) هو الذى فتح تلك الأقاليم ، وأخضعها لحكومته المصرية ، ولم يكن لسلطان تركيا عليها من حق ، إلا ما نجم له عن فتح (محمد على) لها — وأزيمه ، مقابل ذلك ، أن يقدم له بيانا مفصلا مضبوطا بإيراداتها عامة ، لفرض الجزية الموافقة عليها ؛ وأن يبطل النخاسة منها وعادة خصى السود . وأبلغه فى الفرمان عينه : (أولا) عفو عن جميع الجنود والضباط والمستخدمين الذين اشتركوا فى تسليم البحارة العثمانية له ، مستثليا منهم بعض أفراد حينهم بالاسم ، وعلى

رأسهم أحمد فوزى باشا أمير تلك العجالة — وهو الذى قصده نوبار باشا فى الرواية التى رواها للورد كرومر ، وذكرها هذا فى الصحف الأولى من كتابه المعنون "مصر الحديثة" ومقادها : « أن أحد أمراء الأساطيل العثمانية كان قد انضم الى (محمد على) أثناء حروبه مع تركيا ، وحرصه عليها ، وخدمه فى مقاومته لها ، خدمات جليلة . فاعلى (محمد على) منزلته ، وحفنه بصنوف من الرماية والعناية والنعم ، لم يترك معها محلا فى نفسه لشبهة أو أمنية . فحاش الرجل عيشة رغيدة على فراش وثير من الهناء ، الى أن وضعت الحرب أوزارها بين التابع والمتبوع ، ونخست معاهدات لندن والفرمانات التالية لها ، الأزمة الشديدة التى زعزعت قواعد الشرق الأدنى نيفا وعشرة أعوام . فبذكر الباب العالى حينذاك — ولم يكن قد نسى قط — الخيانة التى ارتكبها أمير أسطولها ، وحمل الى فهم (محمد على) أنه يحل إقدامه على معاقبة ذلك الجانى عقابا سريعا ، منزلة جميل بليغ يسديه اليه . فأرسل (محمد على) الى ذلك التركى من أنهمه أن الحياة متاع فان ، وأن لذاتها ظل زائل ، وأنه يحذر بالمرء أن لا يفتأ مستعلا بالمقابلة وجه ربه الكريم فى أى وقت يشاء الله أن يستدعيه اليه ؛ وأن الموت قد يأتى أحيانا فى جرعة ماء ، أو فنجان قهوة الى من يحم أجله » . فأدرك الأميرال العثمانى معنى الكلام ؛ فقام من ساعته وتوضأ وصل صلاة العصر ، ثم تجمّع فنجان القهوة المسومة الذى قفّم له ، بتجملد ، كأنه أحد الستونكيين ، تلامذة زينون الفيلسوف ؛ وهو يقول بالتركية : « قسمت ! » ؛ وأبلغه (ثانيا) تثبيته بكارضباط الجيش المصرى ، وبكبار موظفى الحكومة المصرية فى الرتب السامية التى أنعم عليهم بها ، واحتاد بابه العالى لإياها .

(١) انظر : "مصر الحديثة" للورد كرومر ، ص ١٧ وما يلها منه. أنزل

فأبدى (محمد علي) ارتياحه الى ارادة السلطان المعبر عنها بالفرمانات ؛ ولكنه طلب تعديل كيفية التوريث ، ومقدار الجزية السنوية ، والحق المعطى له في ترقية الصف ضباط والضباط ، ومنح الرتب .

نفاير الباب العالي بذلك الدول الوسيطة السابق ذكرها في ١٩ أبريل سنة ١٨٤١ فردت عليه في ١٠ مايو التالي ، وأشارت بجعل التوريث بالأرشدية ، وتعيين مبلغ محمد للجزية ، يراجع ليعتدل بين حين وحين ؛ ولم ترأسا في تحويل (محمد علي) حقا أوسع من المقول له ، فيما يختص بترقية الجنود والضباط ، ومنح الرتب ؛ لاعتبارها الجيش المصرى والبحرية المصرية جزئا من القوات البرية والبحرية العثمانية .

فأصدر السلطان فرمانين آخرين نهائين الى (محمد علي) ، أحدهما في أول يونيو سنة ١٨٤١ ( ١١ ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ ) ، والثاني في ٢٠ يولييه سنة ١٨٤١ ( أول جمادى الآخرة سنة ١٢٥٧ ) . حدد له بمقتضاها ، حدود الولاية المصرية ، طبقا للين في خريطة أرسلها الصدر الأعظم اليه ، وأجابه ، فيما هذا ذلك ، الى طلباته : بفصلت الوراثة بالأرشدية ، كما هي في بنى عثمان ؛ على أن يكون التعيين من الباب العالي ، وبموجب فرمان خاص يصدره السلطان ؛ وبجمل مقدار الجزية ٨٠ ألف كيس على حساب الكولونات الاسبانيولية ، وتُؤخذ والى مصر حق منح الرتب لغاية درجة "الميرالاي" ؛ وأما درجتا "الميرلوا" و"الفرق" فأبقى حق منحهما مرتبعا باستئذان الأستانة أولا .

فرمانا أول يونيو  
و ٢٠ يولييه  
سنة ١٨٤١

وعلى ذلك صادقت الدول الأوروبية الوسيطة ؛ وانضمت فرنسا اليها في نهاية الأمر ، فأصبح النظام المصرى كما هو مقدر في تلك فرمانات الأريسة ، جزئا من النظام السياسى الدولى العام ؛ وأصبح مركز مصر ، القائم عليه تحت حفظ الدول الغربية

تصادق الدول  
عليها



جمعاء، فيما يختص بعلاقاته معها، وعلاقاتها به، وفيما يختص بالمحافظة عليه من مطامع الدولة العلية عنها، ومن تعديت احداها عليه .

على أنه لم يوجد فيه شيء يحظر على وإلى مصر تعديل القيود التي ترسله بالدولة العثمانية، دون غيرها، وتكييف مركزه منها، ومركز بلاده الداخلى بالنسبة اليها، وفيما لا يمس بمصالح الدول الغربية السياسية والتجارية، تكييفاً يكون أكثر موافقة له، ولقطره .

عمل (اسماعيل)  
على إزالة تلك  
القيود

فلما جلس (اسماعيل) على أريكة مصر، وجعل إحدى غايات حكمه إزالة بلاده أكثر ما يمكن من الاستقلال، لم يأل جهداً في سبيل البلوغ إلى ذلك التعديل والتكييف، بلوغاً تكون نتيجته تحرير مصر من قيد السيادة العثمانية، وتتمتع عرشها بجميع حقوق السيادة والملك .

تحويل مجارى  
الوراثة

فأول ما وجه إليه بمجوده تحويل نظام الوراثة من الأرشد فالأرشد في ذرية (محمد علي) كلها إلى الولد البكر فالولد البكر من ذريته، هو — وكان (عباس الأول) قد سعى هذا السعى عينه، ولم يفلح — فلم تثبط خيته همة (اسماعيل)، لأنها كانت مشتملة بنوعين من أنواع الوقود، لا يدتان نارها تحبوا أبداً، وهما: الحقد والحب. أما الحقد، فعلى الأمير مصطفى فاضل أخيه من غير أمه، وعلى الأمير حليم باشا عمه<sup>(١)</sup>.

ومرجع السبب في حقد على أخيه، إلى صكره والدتهما المتبادل، الذي كثيراً ما أزعج داخلية والدهما (ابراهيم) المهام، فالى وشى الوشاة بالأمير مصطفى فاضل بعد صيرورة عرش مصر الى (اسماعيل) أخيه .

(١) أنظر: "الكافي" لتاريخه بك ص ١٢٤ ج ٤

فوالدتهما كانتا غثقتى المجلس والميول ، بالرغم من تمكنهما الواحد من قلب  
بملهما السامى، ووحدة تأثيرهما عليه . فلم تكتفيا بتبادل الكره بينهما ، بل أشربتا  
قلبي ولسيما ، واجتهدتا فى جعلهما عذوين لدودين ؛ لا سيما أنهما ولدتهما فى شهر  
واحد ، وبنا كل منهما ليمنى أن تكون أسبق الاثنتين الى الوضع ، ليكون ابنها أقرب  
الى العرش ، مال الحظ الى جانب أم (اسماعيل) .

فشب الصبيان والسنون تبنى بغض كل منهما للآخر ؛ والوالدان تركان نمو هذا  
البغض ، حتى كانت كارثة كفر الزيات التى جعلت (اسماعيل) ولى عهد السدة  
المصرية . فلم يمد الأمير مصطفى فاضل وأمه يحتملان النظر الى المستقبل ، وباتا  
يتمنيان أن يطول عمر (محمد سعيد باشا) أو تقصر حياة (اسماعيل) . فلم يحقق الدهر  
لهما هذه الأمنية ، ولا الأخرى . مات (سعيد) ، وهو فى ظهر حياته ، وارتقى (اسماعيل)  
عرش جده ، وهو فى مقتبل عمره .

فلم يحتمل الأمير مصطفى فاضل وذووه الحياة تحت حكمه ؛ فسافروا جميعا  
فى منتصف سنة ١٨٦٣ الى أوروبا ؛ وأقاموا فى باريس . وربما أدى ذلك البعاد  
الى تراخى حبل الضغينة بين الأخوين ، خصوصا وأن قلبهما كانا محبوبين ، طبيعة ،  
على العواطف الطيبة ومفتحين لها .

ولكن الوشاة الذين لم تكن مصلحتهم فى أن يسود الوفاق بينهما ، وكانوا كالدباب ،  
يتناسون الحياة من الاقبال على مص القروح وتبييجها ، كانوا ساهرين لا ينفلون .  
فاخذوا يمتنقون من الأكاذيب على الأمير النائب ، ما لم يكن معه بد (لإسماعيل)  
من الاستراحة فى كره أخيه ، والإغراق فى حقه ؛ بل إنهم لم يجمعوا عن تصوير

ذلك الأخ النازح في صورة الرجل المؤامر المخامر ، الساعى الى إهلاك أخيه ، لى يأخذ منه عرشه . وبلغ بهم حجم الخداع والدسائس الى حد أن ألقوا قنبلة ، سرّاً ، ذات صباح ، في حديقة قصر الجيزة ، وأسرعوا الى التقاطها ، جهرًا ، وتهدمها الى (اسماعيل) ، حجة دامغة ، وبرهاناً قاطعاً على صحة مؤامرات ومخامرات ومساى أخيه الشريرة <sup>(١)</sup> .

وبما أن القلب المضطرب باضعال قوى ، تنتم يصيرته بتأثير ذلك الانفعال ، فلا تعود يتناصحه تنظران الأمور إلا كما يقدّمها اليهما ذوو الأضرار ، فان (اسماعيل) لم يظن أن تلك القنبلة كانت فارغة ، لا تعمل في جوفها سوما مطلقاً ، واعتقد اعتقاداً ثابتاً أن أخاه أراد قتله ، ليخلفه على عرشه .

والسبب في قتله على عمه ، عبد الحليم ، هو أن هذا الأمير كان ، في الواقع ، يتطلع الى الأريكة المصرية ، ويرغب فيها ؛ ولو أن هذه الرغبة لم تقتن بعمل عدائى لتحقيقها . ولكن مجرد وجودها في نفسه كفى لى يقضد الوشاة منها منبتاً خصباً ، يتون فيه جرائم البغضاء بين (اسماعيل) وبينه ؛ ولم يدموا القرض الموافقة لذلك .

فقتول السلطان عبد العزيز ضيفاً على حلم باشا في بستانه على ضفاف المحمودية بالاسكندرية ، وفي قصره المنيف بشبرا ، وتناوله طعام المشاء عنده في هذا المكان الأخير ، والتعطفات التى ماقت يوالها طيه ، طوال مدة إقامته بمصر — ولا شك في أنه انما كان يرى بها الى جعل (اسماعيل) يشعر بأن عمه سيف معلق فوق رأسه ، فيرصى عن كل مطعم ضار بمصالح الدولة العثمانية — كل ذلك كان في أيدى الوشاة أشعة شمس استخدموها لإحياء تلك الجرائم وهوية نموها .

(١) أنظر : "تاريخ مصر في عهد اسماعيل" لـ "الكوكب" ص ٢٤ ، و "تاريخ مصر المال" مجهول .

وكان حليم باشا، من جهة، يعيش معيشة تنمية، غريبة المظاهر الى حد يجعل  
لوشى الوشاة مجالا فسيحا، فقصره في شبرا كان، كما قلنا، بديعة البدائع، وجديرا بأن  
يثير عوامل الحسد في قلوب الحاسدين، ولو كانوا ملوكا؛ وعدد الحواشي والخدم،  
والجوارى الحسان، والأشباع الذين كانوا تحت اشارة صاحبه في ذلك المقام الفخم،  
لم يكن من شأنه أن يروق من تابع في عين متبوعه؛ ونخروجه، كثيرا، الى الصيد،  
في أبهة وجلبة، تحيان ذكرى السلاطين الممالك السالفين، وتلفتان اهتمام السوق  
في العاصمة وضواحيها؛ وإقدامه على الصيد بالسلوقية المدينة، والبزاة المنزلة، كأن  
زمن العصور الوسطى لم يتزل الى رسمه؛ وانضواؤه تحت راية الماسونية واهتمامه  
بأسرارها المكونة اهتماما طاملا؛ وإضافة ذلك الى كونه ابن (محمد علي) مباشرة، وا  
بله انتشار الأموال الشائعة بأن (ابراهيم) إنما كان ابن زوجة (محمد علي) من بعل غيره،  
لا ابن صلبه، وأن (محمد علي) إنما تبناه ورياه، فقط، كإبنه<sup>(١١)</sup> — وهو قول عار عن  
الصحة بتاتا، وربما كان من اختلاجات أولئك الوشاة أنفسهم، نسبوه الى حليم باشا،  
ليزيدوا في تمكيد المياه التي كانوا يعملون بلا انقطاع على تمكيدها بين (اسماعيل) وعمه،  
بأنواع الوسائل كافة — كل ذلك كان مادة جيدة لأن تضفر منه أسكايل شوك،  
توضع تحت وسادة الأمير المتولى؛ فنخزه ونخرأ اليها، وتجعل نومه قلعا مضطربا،  
تضمحه على كراهة عمه، والتخوف منه، تحوفا زائدا.

ولما كان الإقدام على الاثم في الأسرار الشرقية لا يزال يتلو بسرعة ساعة التفكير  
في المنفعة التي تعود على تركيحه من ارتكابه، فان تخوف (اسماعيل) من أخيه وعمه  
كان على قدر الفائدة التي يرجوها كل منهما من وراء موته.

(١١) أنظر: "مصر الخديوية" لادوين دي ليون ص ٥٤٤ وما يليها.

(١٢) أنظر: "مصر في عهد اسماعيل" لماك كون ص ٧ في الحاشية الأولى.

فكان إذا من مصلحة (اسماعيل) أن يقضى على تلك الفائدة القضاء المبرم، بعمل يبحث من قلبه ذنوب الأميرين كل جذور الأمل في أن موته يوجب ارتقاء أحدهما إلى العرش مكانه .

وأما الحب، فلبلاه أكثر منه لأولاده ونفسه .

وذلك لأن أبولة الملك من الولد البكر في الأسرة الواحدة من شأنها أن توحد بين مصالح الأمير ومصالح الرعية؛ فلا تعود همة الأمير منصرفة، كما كانت، إلى إنماء ثروته الشخصية وثروة أسرته على أكتاف الثروة العمومية وثروة فروع الأسرة الأخرى .

(نعباس الأقول)، مثلا، إنما أراد مصادرة أملاك باقي أعضاء عائلته والاستيلاء على أموالهم لكي يحصل مستقبل ولده (الحامى) — ولو لم تزل إليه الامارة — سعياء أكثر من كل واحد منهم — ولو قدر لأحدهم أن يخلفه على العرش — وإنما صادر، لهذا الغرض عينه، أملاك رعاياه، واغتصب أموالهم : فترك لابنه المذكور ما يزيد على ثمانين مليوناً من الفرنكات من الثروة المقنولة غير الثروة العقارية .

والواقع هو أن الأمير المتولى، الذى يعلم حق العلم أن مآل عرشه لغير ابنه، لا يمكنه أن يعتبر ثروة البلاد المسلمة مقابلتها إليه إلا فريسة لأطباعه، ومنجبا يستنفده في إغناء نفسه وذويه؛ فلا يهجمه شغيت البلاد أم سعدت، عاشت أم هلكت، مادام جيبه ممتلئا وخزيفته طامرة .

والأمير، في الأسرار التي يؤول العرش عندها من أرشد الأفراد فيها إلى الأرشد، قد يحملها المواطنين الإنسانية الطبيعية على كره محوم أعضاء أسرته، لتخليه، في كل منهم، خليفة يخلفه، اضراما بخلافة بنه . فهجمه، والحالة هذه، أن يمتص، وهو

على قيد الحياة، خيرات البلاد كلها، لكن لا يترك منها شيئا، بعده، لأولياء عهدہ  
الاحتاليين المكروهين منه . ومقبة تلك السبقة إنما تعود على البلاد أكثر منها على  
أفراد أسرته، غير بنيه .

والدليل على أن حب (اسماعيل) لبلاده كان رائده في سعيه، أكثر من كل عامل  
غيره، هو أن هواه كان أن يخلفه على العرش ابراهيم حلمى ابنه من الأميرة جنتانار  
هانم، أحضر زوجاته عليه، والتي سعت سعيًا عمودًا في سبيل نجاح مقاصده . ومع ذلك  
فانه سعى لاكبر أولاده (عمد توفيق)، بالرغم من أنه لم يكن يحبه محبة لباقي اخوته .  
(فاسماعيل) إنما، لأنه كان يكره أخاه وعمره من جهة، ولأنه كان، من جهة أخرى،  
وعلى الأخص، يحب بلاده، أقبل يسعى في الأستانة ليحمل أولى الشأن فيها على  
تغيير نظام الوراثة بمصر، وحصرها في ذريته دون باقي الأسرة المحمدية العلوية .

ولحسن طالعہ، كان ميله الى ذلك ونجاحه فيه يوافق هوئ نفس عبد العزيز  
المكتون .

فبعد العزيز، أيضا، كان يشتهي أن يغير نظام الوراثة في أسرة عثمان، وهو أيضا  
كان يتخى أن يحصرها في ابنه يوسف عز الدين، وفي بكر أولاده، بعده، فبكر أولاده  
الى الأبد . ولكنه لم يستطع بلوغ أمنيته، بالنسبة لقوة التقاليد . فكان يرغب،  
والحالة هذه، في نجاح (اسماعيل) في سعيه، ليكون ذلك سابقة، يبنى هو على قاعدتها  
بناء مجهوداته .

على أن ذلك لم يمنعه من التظاهر بالرفض في بادئ الأمر لبتال من مال (اسماعيل)  
وهداياه ما كان التغيير المطلوب به جديرا، ولكن تكون الظواهر غرارة أكثر مما

هي ، فتبدو الصعوبات للساعي أكبر من حقيقتها ، أو عزز الى بعض جرائد الأستانة بأن تكتب في الموانع القائمة دون تحقيق رغائب والى مصر وأن تبالح في وصفها .  
فانخدع (اسماعيل) ، أو تخادع ، الى حد استعجار جرائد أخرى لتحيد التنير وتظهره أمام الملا في مظهر العمل المفيد للبلاد ، والذي لا مندوحة لها عنه ، لتتقدم باطمئنان في معارج الفلاح والرقى والرخاء .

ولكنه ، من جهة أخرى ، فتح يده ضحية في السر والجهر : بغرت خيرات النيل ذهباً وفضة على ضفاف البوسفور ، حتى لم تبق هناك ذات واحدة ممن يرمى في مساعيها تقديم وإنجاح السعى المصرى ، إلا وتالما من عطاياه وجوده الحامى ما جعلها تدأب على العمل له<sup>(١)</sup> .

ولو أزداد التاريخ حصر قيمة ومقدار كل ما صرف في تلك الأيام في الأستانة ، وتصادد الأبواب التي صرف فيها ، لأحياء الأمر وسقط دونه كيلا . لأن المبالغ المصروفة تجاوزت مئة ملايين من الجنيهات . ومن البهيمى أن (اسماعيل) لم يكن وحده في ذلك الصرف . فكما أنه كان يهود بالأموال والهدايا ، من جهة ، ويجود أمه بأضعاف أضعافها لتساعده على تحقيق مطعمه ، كان أخوه وعمه ، من جهة أخرى ، يبذلان كل ما في وسعهما لإخفاق مسعاه ، وتخريب أمانيه ، لما في تحقيقها

(١) أنظر : "مصر" لمالوف ص ٧٧ والحاشية رقم ٢٥٤ التي يها فيها إيراد قول فون هـ . ستيفان الوارد في ص ١٥٢ من كتابه "داس هوتيجس اجين" والذي نصه : « قد اكمل قناتان (اسماعيل) لكي يبال تغير مجارى الرواة وهو تغير في منتهى الفائدة ليه ، اضطر الى اتفاق ثلاثة ملايين من الجنيهات بالقسطنطينية ومن المؤكد أنه سيجد مناسبات أخرى لزيادة الاتفاق في هذا السيل » ، وانظر : "مصر تحت حكم اسماعيل" لمالك كون ص ٣٨ وما يلحقها لغاية ص ٤١ ، وانظر : مالوف عه ص ٧٩ في الكتاب ذاته .

من الاضرار بمصلحتيهما . ولكنه تغلب في نهاية الأمر؛ ومقابل ما بذل ، وما وعد ببذله ، ونظير رفعه الجزية السنوية المفروضة على مصر من ثمانين ألف كيس الى ١٥٠ ألفا — أى من أربعمائة ألف جنيه مجيدى الى سبعمائة ونحسين ألفا ، أصدر السلطان فرمانه القاضى بانتقال كرمى الولاية من متبوى كرمىها الى بكر أولاده ومن هذا الى بكر أبنائه أيضا ، وهلم جرا ؛ وذلك في ١٧ مايو سنة ١٨٦٦<sup>(١)</sup> قرئ هذا فرمان بمصر باحتفال شائق . وهنا رجال الدولة وأعيان الأمة (الأمير محمد توفيق) — وكان لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره — بمصير ولاية عهد الديار المصرية اليه . وكبرت منزلة (اسماعيل) في صيون الجميع ، وشعر الكل بسكينة دخلت على نفوسهم ، كأن الحاضر والمستقبل بأمانين<sup>(٢)</sup> .

وكان من الطيبى أن يقرن (اسماعيل) بسعيه الى تحويل مجارى الوراثة عن أخيه وعمه ، سعيه الى تجميدهما من ثروتهما العقارية المصرية ، ليكون قضاؤه على مطامعهما في العرش المصرى تاما مبرما ؛ ويكون استتباب الأمر له منتظما قارا .

فاؤفد ، منذ أواخر سنة ١٨٦٤ ، الى أخيه في باريس من فاتحه في أمر بيع الأقطان التى له بمصر . فرفض الأمير مصطفى فاضل بيعها لأن شعاع الأمل في مصير العرش المصرى اليه ، كان لا يزال منتشرا بقوة في جوانب قلبه . ولكنه ، بصامل نزق الشباب ، وحسب الظهور ، ما قى يهلك الملايين تلو الملايين ، ويولم الولائم تلو الولائم ، ويعود بالهدايا تلو الهدايا — مع أن إيراداته كانت قليلة وضئيلة ، بالرغم من اتساع أملاكه العقارية ، وذلك بسبب التراخيل المقامة بمصر في سبيل استغلالها استغلالا حسنا —

(١) أنظر : "مجلة الفرمانات" .

(٢) أنظر : "الكافى" لشاربم بك ص ١٤٤



وما قئ يضطر، بين حين وحين، الى الاقتراض بفوائد ساحقة، من خزانة الصبارة ومن عملائه، حتى باتت حالته المالية معقدة تعقيد ذنب الضب؛ وباتت ديونه الباهظة محرجة له إحراجا شديدا يصعب عليه الخروج منه إلا بالبيع.

فراى (اسماعيل) أن يعيد إذ ذاك الكرة، لاسيما أنه كان قد فاز بإقصائه عن مجارى الوراثة. فآوفاذ اليه مفااتيحا آخر، يعرض عليه بيع الأملاك التي له بمصر؛ ولما لم يعد له مندوحة عن البيع، نجحت المفاوضات هذه المرة؛ وقرا الاثناق على أن ثمن المبيع المتفق عليه وقدره مليونان وثمانون ألف جنيه انجليزى، منها ثمانون ألفا قيمة السممرة — يدفعه (اسماعيل) أوراقا مالية لحاملها من أوراق الدائرة السنية المالية المضمونة من الحكومة المصرية والمتجة فوائد بواقع ٩ ٪، وأن تستد قيمة تلك الأوراق على خمسة عشر قسطا سنويا، ابتداء من أول يناير سنة ١٨٦٧ فامضى عقد البيع ببافيس فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٦٦، ومجى فى اليوم السادس والعشرين منه؛ ولكنه لم ينفذ فى شكله الذى اتفق عليه؛ لأن البنك السلطانى العثمانى ومجل انبهايم وشركائه حلا محل الأمير مصطفى فاضل وأخذوا بدل تلك الأوراق المالية سندا عاما مينة فيه تمهدات الدائرة السنية وضمانا الحكومة المصرية؛ وأصدروا به، فى لندن، قرضا بملويون جنيه انجليزى بفوائد ٩ ٪ سنويا.

أما سليم باشا، فان انفاقه عن سعة، بل إسرافه هو أيضا إسرافا مفرطا، كان قد أذى به منذ سنة ١٨٦٣ الى عقد قرض قدره ثلثائة ألف جنيه انجليزى، تمهد بإسناده على خمس عشرة سنة، أقساطا متساوية. ثم أذى به سعيه فى الأستانة لاجباط جهود (اسماعيل) الخاصة بتعديل مبدأ الوراثة، الى عقد قرض آخر فى سنة ١٨٦٦

مقداره سبعمائة ألف جنيه مصرى . فاضطر الى رهن كل أملاكه العقارية بمصر ، ضماناً لوفاء هذين القرضين ؛ وبات يتخبط تحبطاً أليماً ، كلما حل موعد للدفع .

نظاره (اسماعيل) فى شراء أملاكه المرهونة منه ؛ لما وجد حلیم باشا فى شدة ضيقه واحتياجه الى التقود بئداً من بيعها ، لاسيما بعد ما يتيقن من نجاح مساعى ابن أخيه فى الأستانة ، وخيبة مساعده هو ؛ فباعها له نظير مبلغ قدره مليون ومائتا ألف جنيه انجليزى ، دفعت الدائرة السلية له منها ثلثمائة ألف جنيه انجليزى بأوراق من أوراقها المضمونة من الحكومة المصرية ؛ وأخذت على نفسه دفع الباقي من أقساط القرض الأول وقدره مائتان واثنان وسبعون ألف جنيه ؛ ثم اقتدت أوراق القرض الثانى المالية ، وسلمتها خالصة الى الأمير البائع .

واحق بعد ذلك أن البوليس — لكى ينال « محظوظيته » عند الخديو ، ويظهر لسموه تيقظه وسهره على حياته الثمينة — أقدم فى شهر اكتوبر سنة ١٨٦٨ على استكشاف مكيدة زعم أن عمه حلیم باشا دبرها لاغتاله . فنصب شركه ، وبث زبائنه ؛ وفى الثانى والعشرين من الشهر المذكور أعلن للألجاج مساعده ، وتمكنه من القبض على المتآمرين على حياة ملك البلاد . فاضطر (اسماعيل) الى إبعاد عمه عن القطر .<sup>(١)</sup>

وبعد أن عدل (اسماعيل) على النقط الذى يتناه ، نص فرمان أول يونيه سنة ١٨٤١ الجاعل الوراثة بالأرشدية والمعلن منطوق الشرطين الأول والثانى من شروط فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ، أقبل يعمل على إلغاء الشرط الثالث منه ، وهو انخلاص بتشبيه ولاية مصر بوزراء الدولة الثمانية .

العمل على تحرير  
لقب "ورلى"  
بلقب يشتر بهلال  
مركز صاحب مصر

(١) أنظر: "مصر تحت حكم اسماعيل" لما ذكره ص ٧٩ ، و "تاريخ مصر الحديث" لجهول ص ٧٧

وكان قد عزم عزما أكيدا على إشراك مصر في معرض باريس العام المزمع إقامته في بحرم سنة ١٨٦٧ ، وعلى إجابة دعوة عاهل الفرنسيين ، والذهاب إليه بنفسه ، ليظهر بلاده أمام العالم المتحدين في ثوب التقلم والرق الذي لبسه في عهد أسرته العلوية وعهده . فيحصل الأمم المتحدية على اعتبارها واحدة منها ، وليظهرها بينخه وجوده ، وسطوع معروضاتها في ثوب الثروة التي لا حد لها — الذي هو في الحقيقة ثوبها الصحيح — فيوطد في العقول ، تخديرها لتلك الثروة تخديرا رقيقا ، ويقز في القلوب همتها غير المتناهية في مقدرتها على القيام بجميع تعهداتها المالية ، مهما بلغت قيمتها ، وأية كانت موايد تحقيقها .

ولوئوه من ذهاب السلطان عبد العزيز ، أيضا ، الى زيارة ذلك المعرض ، كان يريد أن يفتنهماف فرصة ثمينة ، ليذر بنور الاصلاح القضائي السائر في خلدته ، والمقصود منه القضاء على القيد الثالث المقيدة به البلاد ، أى قيد الامتيازات الأجنبية .

فقدأبه ، من جهة ، على إزالة القيد الثاني ؛ ولرغبته ، من جهة أخرى ، في الظهور أمام الملأ الأوروبي — ليسهل عليه نجاح مقاصده — في مظهر رسمي منيف ، يستوقف الأنظار ويوجب الاحترام لشخصه ، أكثر مما لو كان مرتهديا لباس وال ، لا تميزه عن باقي ولاية السلطنة العثمانية إلا بعض ميزات خصيصة به ، طلق يعمل على نيل لقب يشمر بأن صاحبه ، إن لم يكن في مصاف الامبراطرة والسلاطين والملوك ، فلا يقل عنهم كثيرا . على أن يكون نيله إياه مصحوبا بحصوله على امتيازات تجعل حقيقة المنصب على نسبة سمو تسميته المتبناة .

فشرح يغازب الأسنانه ، بوساطة المعتادة ، في أمر منحه ذلك اللقب ، وأقبل ينق المبال عن سعة ، ويكثر من الجود والهدايا النفيسة السنية الى السلطان ووزرائه

والفقيزين لديه، مجتهدا في استصدار فرمان يتخوله التلقب بلقب "العزیز" وهو المطلق في القرآن الشريف على وزير فرعون على مصر، راغبا جدا فيه، وشيقا الى احرازه. فداوت المخاضات بشأنه طويلة ومتعبة، بين البلاطين؛ واستمرت مدة بين أخذ ورد؛ ولكنها لاقت في سبيلها عقبتين، لم يمكن التغلب عليهما مطلقا :

(الأولى) أن لقب "العزیز" خص به (يوسف بن اسرائيل) دون غيره من وزراء الفراعنة؛ وأن ما خص به نجي لا يصلح لإطلاقه البتة على فرد من الأفراد، مهما كانت درجته رفيعة .

و (الثانية) أن اسم السلطان المالك (عبد العزیز) . فلودعى (اسماعيل) "العزیز" لكان السلطان إذا عبده، أو لتبادر الى أذنان السذج أنه عبده؛ أو أمكن، على الأقل، فتح باب لمنكت ينال الحضرة السلطانية بما ينقص من جلال قدرها<sup>(١)</sup> .

فاستبعد، إذا، لقب "العزیز"، لا سيما وأنه اسم من أسماء الله الحسنى، وشرع في البحث عن غيره .

وكانت قد جرت العادة منذ أيام (محمد علي) بتسمية الديوان المصرى الأعلى، أى الديوان المحيط بشخص الوالى مباشرة "بالديوان الخديوى"، كما أن الولاة أنفسهم يحكم تلك العادة كانوا يدعون أحيانا "خديوين" .

فبعد مناقشات ومباحثات كتابية وشفهية كثيرة، انضقت الآراء، نهائيا، على أن تعطى صيغة رسمية لتلك العادة، وأن يكون لقب "خديو" خصيصا، من ذلك

الاتفاق على لقب "خديو"

(١) أنظر: "مصرى عهد اسماعيل" لملاك كون ص ٩٠ وما يليها، و "الكافى" لشاربم بك

الحين فصاعداً ، (باسماعيل) وخلفائه على العرش المصري ، إشعاراً بإعلاء مرتبتهم الى درجة العواهل .

فصدر بذلك في ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ فرمان تلى بمصر ، بأبهة واحتفال عظيمين ، حضره كل ذى حيوية في البلاد ، واتفق الكل ، لاسيما الشرقيون ، على أن (اسماعيل) فاز فوزاً مينا ، وأصبح حقيقة في مصاف الملوك .

ولم يكن احتفادهم في غير عمله : (أولاً) بالنسبة لفخامة اللقب الجديد ؛ و(ثانياً) بالنسبة للامتيازات الجديدة السنية التي أوجبها .

”تغديبو“ كلمة فارسية بمعنى ”الإله“ و”الرب“ ؛ فهي تشعر إذا بعظمة وجلالة لا تشعر بهما لفظة ”العزيز“ العربية ؛ وتلش صاحبها رداء استقلال في المركز والعمل أكثر مما تلشه إياه أية كلمة أخرى .

والامتيازات الجديدة ، التي أوجبها ذلك اللقب ، كانت كبيرة وغير معظرة الى حد  
الامتيازات  
أن معاني الكلمات الدالة عليها في فرمان أشكل فهمها على معظم الناس : فان  
السلطان تناول : (أولاً) نص الشرط الرابع من الشروط الاثني عشر التي منح فرمان  
١٣ فبراير سنة ١٨٤١ بمقتضاها حق توريث السدة المصرية (محمد علي) وذريته ،  
وهدمه هدماً ؛ وقرر أن المقصود من القوانين العثمانية الواجب تنفيذها بمصر ، إنما  
هي المبادئ العامة الملطنة في خط جللخانه ، وأعني بها الضامنة الأعمار والأملأك  
والأحراض ؛ ولما فيما عدا ذلك ، فانه خول للحكومة المصرية الحق في وضع القوانين

(١) أنظر : ”مصر“ لما رفق ص ٧٧ و ٧٩ فانه جعل تاريخ هذا فرمان ٩ يونيه بدلا من

واللوائح والأنظمة التي يقتضيها حسن الإدارة وتراها «هى» مناسبة لعادات البلاد، وطباع أهلها، وموافقة لمصالحهم؛ وصرح (ثانياً)، لتحديد، أن يعقد مباشرة مع الأجانب ودولهم أية اتفاقية إنشاء بخصوص الجمارك، وعلاقات البوليس بالجناليات الغربية، ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد، وإدارة البريد، وهلم جرا؛ على أن لا تقصد تلك الاتفاقيات شكل معاهدات دولية ماسة بسيادة الدولة العليا على القطر، وأوجب (ثالثاً) على الباب العالى أخذ رأى الحكومة المصرية فى كل معاهدة تجارية يريد إبرامها مع الدول الأجنبية، ليتمكن أولو الشأن المصريون من المحافظة على مصالح مصر التجارية.

ولما كان فرمان الصادر فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بشأن تعديل قانون الوراثة قد صادق بمصادقة تامة على تعديل السابع والثامن والحادى عشر من الشروط المدونة بفرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١، وغوّل الحق لأمر مصر فى سك تقود تختلف عن تقود باقى السلطنة، مع إبقاء اسم السلطان عليها؛ وفى رفع عدد الجهش المصرى من ثمانية عشر ألف جندي الى ثلاثين ألفاً؛ وفى منح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية من الصنف الأول بدون استثنان، وباقى الرتب حتى أعلاها أى رتبة روملى بكريك ورتبة بالا، مدنية كانت أو عسكرية، يجوز إخطار الباب العالى، لاعتقادها، وإرسال برامتها من لدنه؛ وكان ترك اختيار القماش اللازم للملابس الجنود المصرية، وتفصيله الى يجوز إرادة الخديو قد ألقى، فى الواقع، جزئاً عظيماً من ملزمات الشرط التاسع من الشروط الأتفة الذكر، فانه لم يسد يبق من القواعد التى بنيت عليها السيادة الثمانية على مصر، سوى ما أقيم منها فى الخامس والسادس والعاشر من شروط فرمان

١٣ فبراير سنة ١٨٤١

على أن نص الشرط الخامس انما كان مجرد خبر على ورق : لأن الأموال ، والضرائب ، والرسوم ، وغيرها من أوجه الإيراد ، كانت تجبي باسم الحكومة المصرية لا باسم السلطان ؛ ولم تكن طريقنا ربط الجمارك وتحصيلها مماثلين لما كان جاريا ومعمولا به في تركيا ، حتى قبل أن ينزل فرمان ٨ يونيو سنة ١٨٦٧ الحق لتحديد في ابرام أية معاهدة بحرية يريدنا مع الأجانب .

وقد رأينا أن الجزية تعدلت أولا ، وثانيا ؛ وقررت ، أخيرا ، بحيث لم يعد السلطان دخل في الإيرادات المصرية ، ولا حق في معرفة مقلداها ونوعها — فلم يبق ، إذا من حائل ، في الحقيقة وواقع الأمر ، بين مصر واستقلالها استقلال تاما ، سوى قيد الجزية السنوية ، وقيد منعها عن بناء سفن حربية ، إلا بتصريح كتابي .

أما قيد حظر بناء سفن حربية ، فإن ( اسماعيل ) أقبل يعمل على كسره ، وملكاد فرمان المانع له لقب "خديو" لا يزال رطبا على قرطاسه . فانه ، وهو في باريس يزور المعرض ، وبينما السلطان نفسه فيها ، أوصى المامل الفرنسية بعمل ثلاث بوارج مصفحة من النوع الذي كان يطلق عليه اسم "فرقاطة" ومن الطراز الحديد المستعمل لدى الدول الأوروبية كلها ، بدل السفن الحربية الشراعية القديمة ؛ وليكلا يجد معارضة من السلطان ، واجتبا لكل انحراف في خاطره عنه ، أفهمه أن تقوية الأسطول المصري — وهو جزء من الأسطول العثماني — بتلك البوارج ، ما هو في الحقيقة إلا تقوية للأسطول العثماني عينه ، وزيادة في مهابته وقت الحاجة . فلما رأى أن عبد العزيز غير مقتنع بذلك ، وغير راض عن عمله ؛ وأن وزراءه المرافقين له في سياحته — وقد عز عليهم أن يكون لنوبار باشا ، الوزير المصري ، شأن أكبر من شأنهم في عالم السياسة — أقبلوا على معاكسة مساعيه الزامية الى تحرير

بلاده من قيد الامتيازات الأجنبية ، بالقضاء على السلطات القضائية الدولية القائمة فيها ، بحجة المحافظة على حقوق السيادة التركية على مصر ، وبحجة تأييد نصوص القرارات ، استعان ، من جهة ، بالامبراطور نابليون الثالث ، ورجاء التوسط بينه وبين متبوعه لازالة الخلاف بالتي هي أحسن .

ففضل الماهل الفرنسيون ذلك ، عن طيبة خاطر ، لما كان (لإسماعيل) من المتزلة لديه ، ولرغبته في أن يلقوه بأياد تلزمه بمساعدة القائمين بمشروع قناة السويس ، بمساعدة فعالة ، تمكنهم من إنجازها بتمرة .

وأقبل ، من جهة أخرى ، يبذل الوسائل التي كان هو أدري الناس بفجاحها عند السلطان ووزرائه : فشرع يظهر (العبد الميز) كل ما استطاع اظهاره من مظاهر التعظيم والاحترام والاجلال ؛ ويظهر لوزرائه ما طاب وحسن من ضروب الاحكام لندرايته بعظم وقعه من نفس متبوعه وأقربهم ؛ وأخذ ، في الوقت عينه ، يقدم لهم جميعا ، من الهدايا والتقديمات والأعلاق النفيسة ، ما لم يكن له بد من تسكين هياجهم عليه ، وازالة ما خلق بخواطهم من النقور منه والانحراف عنه .

ولم يكتف بذلك ؛ بل إنه ، بعد رجوع السلطان من سياحته الى عاصمته ، من طريق برلين وڤينا ونهر الطونة ، صرح على الأستانة ، في عودته الى مصر ، وأقام فيها يحامل ربه ووزراءه ، حتى حملهم على اصدار فرمان شهر سبتمبر التالى سنة ١٨٦٧ المفسر ما غمض والتبس فيه من عبارات فرمان ٨ يونيه السابق .

وأما الجزية ، فانه لم يكن يمكن التفكير ، البتة ، في قطعها عن تركيا : لأن جميع الامتيازات ، التي نيلت ، انما أمكن نيلها ، وجميع القيود التي كسرت ، انما أمكن كسرها ، برفع مقدار المال المعطى سنويا من مصر الى السلطان ، رهبا مستمرا .



فلاجل قطع الجزية ، إذا ، كان يجب أن تسبق مصر بلغاريا الى العمل الذي عملته هذه الدولة في سنة ١٩٠٨ ، وتعلن تقلص ظل السيادة العثمانية عنها ، ووثوبها الى بمجوعة الاستقلال التام .

على أنه لو فرض ، وتمكنت من عمل ذلك ، فقد كان من المحتمل ، في تلك الأيام ، أن لا تجد فيه مصلحتها : [لأنها ربما تعرضت ، والوقت غير مناسب ، الى حرب مع تركيا ، فقد كانت تميز طيها ويلات جسيمة ، ألقها إعادة أماسة سنة ١٨٤٠

غير أن ( اسماعيل ) كان ، مع ذلك ، مصمما تصميا وطيدا على نيل الاستقلال التام لمصر ، يوما ما ، ول رفع قيد الجزية المذل عن عاتقها ، ولكنه كان يرقب الفرص لهذا الغرض ، ويحينها ، ليستنمها ويستفيد منها ، عاملا ، في الوقت عينه ، على إدراك مناه من سبل يخطتها لنفسه ، ووسائل ينفذها ، ولا يرى اتصالها بغرضه ، مباشرة .

منها توصيته مصانع الأسلحة الفرنسية ، في سنة ١٨٦٧ ، على صنع عدة آلاف بندقية من البنادق ذات الإبر ، التي كان قد اخترعها رجل يقال له "نساسيو" وقسمت باسمه ، ليسلم بها الجيش المصري ، بدل البنادق القديمة ، الموضوعة بين يديه منذ أيام ( محمد علي ) الأخيرة : فيكسبه قوة واستعدادا للطوارئ .

ومنها إشراك حكومته في مؤتمر النقود ، المتقدد بباريس في تلك السنة ، وإرساله مندوبا من قبله يمثل مصرفيه وتزويده إياه بأوامر أدنى تفادها الى تعديل النظام النقدي في القطر في السنوات التالية .

ومنها حمله الملكة فكتوريا ، بواسطة قنصلها العام بمصر ، على منحه أكبر درجات وسام الحمام ، وتكليفها اللورد كلارنس باجت ، أمير أسطولها في البحر الأبيض المتوسط ، بالذهاب الى عاصمة الديار المصرية ، خصيصا ، لتقليد إياه : فعمله اليه

السعي الى  
الاستقلال  
والوسائل التي  
اتخذت لذلك

ذلك اللورد في وفد حافل من كبار ضباط عمارته البحرية ، وبعض كبار الكتاب ؛ وما حلت ركابهم بمصر إلا وأتزلّم (اسماعيل) في قصر التزعة ، بشبرا — وهو الذي نزل فيه ، بعد ذلك بسنتين البرنس أوف ويلز وقرينته ؛ ونزل فيه بعد نيف وأربعة عشر عاما ، الوفد العثماني الأول ، الذي أرسل لتسوية الخلاف بين الخديو (محمد توفيق) ورجال الجندية الثأرين على أنظمة حكومته — واحتفى بهم احتفاء عظيما ، كان له أحسن وقع في نفوسهم . ثم استدعاهم الى حضور استعراضه للجيش المصرى الجديد في ميدان العباسية الشاسع . فكانت فرقة المجانة أهم ما استوقف أنظارهم واهتمامهم فيه ؛ لأن جمال ملابسهم البدوية البديعة ، وسمرة وجوههم الناشئة عن لفع شمس الصحراء لما ، والتعاقبهم جلال البيداء التي شبوا فيها ، وكونهم جميعا من العرب ، حرك في المتفرجين عوامل الاستحسان والإعجاب — ولو أن السنة السوء التي لم تترك (الاسماعيل) عملا بدون أن تنفث عليه سمومها ، زعمت أن أولئك المجانة لم يكونوا حربا مطلقا ، وإنما كانوا من صعايك الناس ، ألبسوا تلك الملابس في ذلك اليوم ، لجود التفرير بالضيق !

ومنها اعتناؤه بالجيش المصرى وتعليمه ، اعتناء فائقا ؛ وإنشائه المدارس الحربية . لتخريج الضباط الأكفاء ، واستدعائه القواد الأمريكين لتدريبهم وتكوين أركان حرب متفوقين منهم ، وسيأتى شرحه بالتفصيل عند كلامنا على تحقيقه الشرط الثالث من خطته .

ومنه دأبه المستمر ، والذي سيأتى بيانه في حينه ، حل معالجة نجاح مشروعه القضائى المقصود منه القضاء على قيد الامتيازات الأجنبية ، المتخذ على الأخص من تيجة مصر للدولة العلية ، مانحتها .

ومنها اغتنامه فرصة وجوده بالإستانة في أغسطس سنة ١٨٦٨ لطلب ونيل وتبنة الوزارة الكبرى لولى عهده (الأمير محمد توفيق باشا) لاعتباره ذلك خطوة واسعة في سبيل رفع شأن العرش المصرى؛ لأنه اذا كانت درجة ولى عهده ، درجة أكبر وزراء الدولة العثمانية ، فإذا يجب أن تكون درجة الجالس فعلا على الأريكة المصرية . ومنها محبة جنوده من كريت النائرة على حكم الأتراك ، بالرغم من إلحاح على باشا الصدر الأعظم عليه بإبقائها فيها ، غير مبال بمقد ذلك الوزير عليه من جراء محبتها . على أن أهم تلك السبل والوسائل ، لإشراكه مصر ، مستقلة عن تركيا ، في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ واستقلاله ، دون السلطان العثمانى ، بل وبأعماله إياه بتاتا بالقيام بحفلات فتح ترعة السويس في سنة ١٨٦٩

اشترك مصر  
في معرض باريس  
العام سنة ١٨٦٧

#### ١ — اشترك مصر في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧<sup>(١)</sup>

كان (اسماعيل) ، منذ أن حزم على ذلك ، قد أصدر أوامره الى ماريت بك ، مدير المتحف المصرى ، باتخاذ جميع الوسائل المؤدية الى جعل القمم المصرى في ذلك المعرض في مقسمة أقسام الدول الشرقية قاطبة . ففخذ ماريت بك الأوامر بكل دقة ، وصرف عن سعة ، صرفا تمكن به من إعادة الحياة المصرية القديمة الى التجل في الجزء المخصص لها هناك ؛ ومن إظهار الحياة المصرية المعاصرة بجانبها : فينبأ موميات فراعنة القدم ومماثلهم تعرض في وسط ينهب بالزائر الى تحمیل نفسه عائشا . ثلاثة وأربعة وخمسة آلاف سنة الى الوراء ، كانت أشكال الوكائل والأسواق المصرية المعاصرة تبعث الى الحياة بمصر في النصف الثانى من القرن التاسع عشر بعد المسيح .

(١) أمم مراجع هذا الجزء من الفصل : "مصر القديمة والحديثة في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧" "تيجرس .

وكان المعرض العام كله ، بعد أن أوشك في مبادئه أن لا يكون شيئاً يذكر ، قد تجلّى في مجالى بهجة تفوق كل وصف ؛ وأخذت الأقوام والطوائف تؤمّه من كل حذب وصوب ، ومن كل فج عميق ؛ وتعاقت في أفسامه وقاعاته أقدام اسكندر الثانى وفرنسيس يوسف ، إمبراطورى الروميا والنمسا ، وغلوم ملك بروسيا ، وألبرت ادورد ولى عهد الملكة البريطانية ، وفكتور عمانوئيل الثانى ملك إيطاليا الحلو الشمايل ، فهدما عبد العزيز سلطان تركيا ، خليفة الاسلام ، وأمير المؤمنين .

قسم المعرض  
المصرى

وكل هذه الرؤوس المنتجة مرّت على القسم المصرى ؛ ووقفت ، برهة ، أمام نش ورمسيس الثانى — الفرعون القدير ، المظنون حتى ذلك اليوم أنه سيزوستريس هيرودوتس ، أكبر الفاتحين ، وأجد من تكلمت جيبته بأكاليل الفخار العسكرى — ومخضت ، مأخوذة ، صامته ، الى جنة الراقد على صدرها نيفا وثلاثة آلاف عام والمنبعث عنها درس جليل فى بطلان كل مجد عالمى . ورأىهم الأقوام والطوائف يقفون تلك الوقفة ؛ فأقدم أكثر من واحد ، فى مجموعها المزدحم ، يحلل الأفكار والتأملات المائرة فى خلد أولئك المتوجين ، وهم يحسون بذات أبيهم ، وينظرون بأم أعينهم أن العظيمة البشرية الأكثر سطوعا ، لظل زائل ؛ وإن المجد البشرى الأكثر تألقا ، لشاع صائر الى ظلمة ناؤوس .

ثم مرّت تلك الرؤوس المنتجة على بيت "شيخ البلد" المقام بجانب المعبد المصرى القديم ، والمجهزة فيه معامل الكاكت : فاذا بها فى القدم ، منذ نيف وخمسة آلاف عام ، ماهى اليوم ؛ وإذا بالمصريين والمصريات ، العاملين فيها ، هم هم المرسومة أشكالهم على جدران ذلك المعبد العتيق : دليل ساطع على حيوية الأمة المصرية ، وعلى أن الملوك والعواهل يتغيرون على عرشها ، ويتعاقبون يزولون ؛ أما هي ، فباقية الى الأبد !

نعم، إنها أضعفت، بفناء طائفة كهنتها القديم، قوتها ورجولتها وفلاحها؛ وأصبحت طائفة الخطى؛ قليلة الاهتمام بالأمور؛ خائفة لكل نير؛ قابلة لكل عبادة؛ عديمة الوحدة، والجلسية، والمهيئة للخصوصية؛ غير ممانعة في التنازل عن نفس ذاتيتها، وتفسير دينها ولغتها وعاداتها — كأنها ليس بالثقل الذي يؤبه به — راضية بأن يصوغها المجلس السامى في قالب يكافئه، بالرغم من شدة نفورها منه، في السابق، وكراهيتها له؛ غير مستغربة صيرورتها يهودية وصريرية، وهى التى قاومت مائة وخمسين عاما قتال الوطن، لتتخلص من التير المحكوسى اليهودى العربى؛ غير مستغربة أن يكون مبدأ أزميتها التاريخية مجزرة الشهداء في عهد ديوكليانس، من جهة، والفتح الاسلامى، من الأخرى، وأن يصبح كل تاريخها القديم المجد — الذى لا يضارح سنا العظيم من عصوره سنا أى تاريخ كان في الوجود — شيئا ملسيا، لا طلاقة لها به، بل أجنبيا عنها بالكلية .

نعم إن هذا كله صحيح . ولكنها، بفضل الحماد معظمها في الاسلام، عادت فاستردت جنسيتها وهيئتها الخصوصية؛ ولولا الأقلية المسيحية، التى بقيت فيها — وربما كانت تكون مصيبة عليها وعلى نفسها لولا ما ظهر من تضافر أبنائها في العهد الأخير — لاستردت وحدتها، أيضا، في العقلية، والمصلحة، لا سيما أنها حافظت، بالرغم من صروف الأيام وحوادث الليالى، على شكلها الأصل، وعاداتها، ومظاهر حياتها القديمة بجانب مظاهر حياتها الجديدة .

ذلك ما رآه أولئك المتوحدون، زائرو القسم المصرى، في ذلك المعرض العام، وقد انتقلت خطواتهم من قسمه القديم الى قسمه الحديث. فانه كان يشمل وكالة مربية الشكل، لها صحن فسح يحيط به عمد من كل جهة، وبين كل عمد وعمود،

خلاية لوضع البضائع فيها؛ وفي أحد أركانها، حجرة متروية، ينفذ إليها نور النهار من خلال باب خشبي؛ وفيها فسقية مياه معلقة لوضوء التجار؛ ويعلم ذلك جميعه دور علوى، منقسم الى حجر، منفصلة الواحدة عن الأخرى، معلقة لسكنى الأجانب، وفاتحة على طرقة دائرة .

وبجانب تلك الوكالة، قهوة تصنع القهوة فيها على الطريقة المصرية؛ فعدة دكاكين، معروضة فيها المصنوعات المصرية، يستوقف النظر منها، على الأخص، صناعة الجلود وديبها، واثقان الأنسجة، وجودة السروج، والصواني الخزفية، والمصوغات، والطريرز على الجلد والقماش — وكلها تشهد بمهارة أيدي صانعيها — والآلات الموسيقية: كالكنجة المصرية، والعود، والقانون، والكبوترى، والنابى، والقيثارة، والرابابة، والإزمارة، والنقارية، والستير، والدربكة، والصنوج وغيرها. على أن أهم ما كان في ذلك المعرض المصرى قسم محصولاته الزراعية وهى: عنة نماذج قطن من أجهل الأنواع — والقطن كما هو معلوم، إنما أدخل (محمد على) زراعته الى القطر المصرى، عملاً بنصيحة فرنساوى، يقال له المسيو جيميل، كان قد رأى بعض شجيرات منه في بستان باشا تركى اسمه (عوى) بالقاهرة، فألفت انتباهه وتقديره للفوائد الجمة التى تعود على البلاد من وراء تعميم زراعة ذلك النبات فيها — وجملة أصناف قح، وذرة، وتيل، وتسم، وبرسيم، وفول، وترمس، وحنا، ونيلة، وتبغ؛ وأصناف أرز وبلح وقصب سكر. الخ

وبينا زوّار المعرض المصرى في باريس يسحبون بهذه المعروضات، ويتقنون من دكاكين سوقه الى قهوته، الى صحن وكأنته؛ ويقول لهم ماريت بك إن فى مثلها، بالتام، نزل الجفرال. بونايرت، لما دخل الاسكندرية فاتحاً، وبيناهم

يتراحمون ، للتفرج على موميات الفراعنة ، لا سيما مومية « رعسيس الثاني » ،  
وتقتل مصر كلها أمامهم ، تمتلئ بها غيلاهم ، من أوائل تاريخها الى أيامهم ،  
ويقص عليهم ماريت بك عجائب أيام (محمد علي) ، ومنهشات أعمال (اسماعيل) ،  
والتيهيرات الأساسية التي أدخلها على الحياة المصرية ، بقصد حملها على التطور نحو  
المدنية الغربية — ليخدم بذلك مآرب مولاه ، وعلى من قدره وقدر بلاده في أذهان  
ساميه وقلوبهم — اذا بالجواريذ الباريسية صدرت مبشرة بوصول «خديو» مصر  
الى عاصمة الامبراطورية الفرنسية ، وخصص معظمها عمودا أو عمودين لرواية  
ما يعلبه عن ذلك الزائر الجليل .

ولما كان القلب المنوح له حديثا جديدا على السامع ، أقبل الناس يتساقطون :  
« خديو ؟ ماهو الخديو ؟ » واشترأت أعناق أفهامهم الى الوقوف على معنى الكلمة ،  
بالتعزف بحقيقة الأمير المطلقة عليه .

وكان (اسماعيل) قد قدم ، وجيوبه ملأى بالنقود ، وترازن المصارف بباريس  
ولندرت تحت أمره وتصرفه . ففتح يديه بسطاء وبذخ لم يهدهما العالم الغربي  
في طاهر من العواهل الذين زاروا ذلك المرض . فبات أحسنه إعجاب الجميع ،  
ولقبته الدوائر الاجتماعية ، على اختلاف أنواعها ، «أسد اليوم» ، وانكسفت ،  
أمام بهجة أصغره الزمان ، المبذول يهود حامي ، شمس جلالة السلطان عبد العزيز ،  
على شقة سطوحها .

فوقع في خلد العامة أن « الخديو » إنما هو أحد ملوك رواية ألف ليلة وليلة ،  
بعت الى الحياة ، ثانية ، ليؤكد للأد أن أقاصيص تلك الرواية إنما هي حقائق ،  
لا أحاديث خرافة ، وأن « خليفة الفراعنة على عرش القطرين » أكبر ملك حلت

قدماء في ارض فرنسا ، كما أنه ألقى حواهل الأرض قاطبة . وعلت منزله ومثله  
بلاده في تقدير الكل واعتبارهم ، طوا كبيرا .

لطيفة (لسماعيل)  
أشماز يارتهلاديس

ومن الأخبار التي تناقلتها الألسنة عنه ، حكايته مع أحد كبار نبلاء البلاد  
الفرنساوية ، التي رواها الكنت دى لافيزون في مذكراته غير المطبوعة ، ومؤداها :  
أن ذلك النبيل دعاه الى وليمة في قصره ، بضواحي باريس . فأجاب انخديدوعته ؛  
واذا به يرى قصرا بلغ من الجمال والجلال ، وفانور الياش ، ما لم يكن أحد  
يتوقع وجود مثله ، أبدا ، في حوزة غير المملوك . فأعجب (لسماعيل) به أيما إعجاب ؛  
وبعد تناول طعام الغداء — وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين — أبدى لمضيفه  
استحسانه العظيم لقصره . فشكره النبيل على تعلقفه . وكان قد قيل (لسماعيل) إن  
الرجل في ضيق مالى شديد . فأحب مساعدته بشكل لا ينجح له إحساسه . فسأله  
عما اذا كان يريد بيع قصره — وكان الرجل ، على شدة احتياجه الى نقود ، لا يرى  
في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء الضخم ؛ ولكنه استنكر مقابلة لطف  
(لسماعيل) بمشونة الرفض . فعز له أن يبالغ بالثمن ، ليحملة على العدول عن رغبته  
في المشتري — فأجاب : « إني قد أبيعه ، يا مولاي ، مقابل خمسة ملايين من  
الفرنكات ! » ؛ ولم يكن يساوى أكثر من مليون ونصف مليون .

فالتقط (لسماعيل) الكلمة من فيه ، وهى طائفة ، وقال : « إني اشتريته منك ،  
بهذا المبلغ ! » وحررله في الحال حوالة يثمنه على أحد بنكريه بباريس . فلم ير الرجل  
بدا من قبول البيع .

غير أن (لسماعيل) التفت ، حينذاك ، الى ابنة ذلك النبيل — وكانت هيفاء  
لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعا — وقال باقتسام جميل ، غاطبا والندبا : « على انى



لا إهلاك تمنع في أن تمحر عقد البيع للأتمة ابتك هذه اللطيفة، تخليداً لذكر استحسن "خديو مصر" طرفها وأتابها، وليكلا يقال انى زرتك لأجرك من ملكك! » .

فكان لهذه الهبة الجلية، وكيفية منحها، رنة إعجاب في العاصمة الفرنسية، جعلت (اسماعيل) موضع إشارات البنان والفتافات الأعين، حيثما توجه، وأبما حل، ومهلت عليه جداً تحقيق الرغائب السامية الدائرة في فؤاده، ألا وهى القضاء على القليدين المقيدين استقلال بلاده، وأضى بهما : ما تبقى من ظل السيادة العثمانية عليها، والامتيازات الأجنبية .

مفارقة بين اسماعيل  
وخليل الثاني  
امبراطور ألمانيا

ولا غرابة . فان هذه الحادثة تذكرنا بما كان من خليل الثاني، امبراطور ألمانيا المخلوع، أثناء زيارته لسوريا سنة ١٨٩٨ فانه، بعد أن غمر، هو وزوجه، بهدايا (عبد الحميد) الثمينة، وكلف الدولة العلية نفيا ومليونين من الجنيهات، ونقل الى عاصمته، من بعلبك، معظم نفائس معبد الشمس الشهير فيها، بتصریح من ذلك السلطان—وهى آثار لا تقدر بأموال ولا تمن بكنوز—بعد أن اقتطع منه، في صميم بلاده، الأراضي الشاسعة، ليستعمرها الألمان، وقال امتياز انشاء السكة الحديدية من أشقوداره، تجاه الأستانة، الى بنداد، بالمزاي والضمانات المالية والقارية العظيمة اللاحقة بها—فكان كأنه وضع يديه على رقية الدولة البائسة، وملك قلبها— ولم يعط، عن ذلك جميعه، بدلا، سوى صداقته، وهدايا لحاشية السلطان ورجال ماينته، بلغ ثمنها خمسة وثلاثين ألف فرنك، فقط—اذا كانت ذا كرتى لا تخوننى—

(١) انظر : "مذكرات الكونت دي لافيزون" المنشورة في جريدة "البروس ليجسين" بمصر والاسكندرية سنة ١٩١٧، ط١ ما أعلن .

واكليل بروتز منسوب أهناه الى خريج (صلاح الدين) مرققا بوعد صريح مقتضاه ارسال مثيله من الذهب الخالص ليقوم مقامه ، وهو وعد لم يحقق مطلقا ، حل أخيرا في دمشق ، حيث أبهج العالم الاسلامي المغرور به ، باعلانه صداقته ، أى صداقة "الإمبراطور الألماني" للثلاثمائة مليون مسلم المنتشرين على سطح البسيطة ، ووقوفه بجانبهم مضدًا معززا — كأنما الثلاثمائة مليون مسلم ، وهم لو اتحدوا قلبا و كلمة ، لوزنوا في كفة الأقدار وزنا رابحا ، في حاجة الى تمضيد فرد ، مهما كان مركزه رفيعا ! — ثم زار بيت آل العظم الرفيع الحسب والنسب ، وشرع يكثر من استحصان رياشه وأثاثه لما أنس من حميد ذلك البيت الكريم أنه كان يرحوه بالحاح احتراى ، أن يتفضل ويشرفه بأخذ كل ما كان ييدى به إعجابا . وما زالا على ذلك المنوال : هو يستحسن ، والعظم يهب ، حتى أحس العاهل نفسه ، حل كبر جشعه ، أنه تمذى كل حدود اللياقة ، وأنه أصبح يتقم طيه ، من باب عدم الإغراق في القحة ، الوقوف في مضمار ذلك السلب . لما وجد ما يصبره عن شعوره خيرا من قوله ، باقسام ، الى حميد ذلك البيت الرفيع العباد : «إني أتيت لأزورك ، لا لأسرقك !» وهى في الحقيقة جملة استجدائية في قالب ذوق ، كان من شأنها ، بداهة ، توريث النيل المشقى في تيار كرمه المنسفع — كما كان الواقع — فان العظم الخنى بوقار أمام جلالة زائره ، وقال : «إبتنا يا مولاي ، بأولادنا ، ونسائنا ، وأرواحنا ، ومتاعنا ، ملك أمير المؤمنين ، وبما أنك صديقه ، فتحن أيضا ملك جلالتك !» — ولست أدري أن انسانا يحترم نفسه ، ولو قليلا ، فاه ، في أيامنا هذه ، بجملة بعيدة عن الروح العربية والاسلام الصحيح ، بعد هذه الجملة عنهما ! — إلا أنها أطربت نفس القيصر الألماني المتألهة ، طربا بعيد القور . فالتفت الى حاشيته المرافقة له ،

وصفي، وقال : «هكذا يكون الولاء للالك، والمرش ! فتى أرى قلب شعبي مغما بمثله ؟ » واستمر في سلب مضيقة من نقائس رياشه .

فأين عمل هذا الامبراطور النشوم البارد، من عمل ذلك الخديو الكريم، الباهر ؟ وبعد أن مهد (اسماعيل) السبيل لنجاح مسعيه بباريس، حتى أصبح تحقيقهما لديه أمرا غير مشكوك فيه ، سافر الى إنجلترا على ظهر سفينة حربية فرنسوية ، وضعا الامبراطور نابوليون تحت تصرفه ، مبالغة في إكرامه، وإظهارا لصداقته له . فحينه قلاع دوفر، ومدافع فرقاطتين انجليزيتين أرسلتا خصيصا لآرامه، وقوبل، حل الميناء، بكل مظاهر الاحتراف يبعي ملك من الملوك . ولما نزل في محطة تشيرنج كروس بلندن، وجد حرسا قائما لتأدية التحية العسكرية له ومواكب ملكية موضوعة رهن اشارته . ولكن، فيما عدا ذلك، فإن الحكومة الانجليزية أرادت مجاملة (عبدالمعز) فأهملت جانب (اسماعيل)، ولم تخصصه بقصر من قصور الأسرة المالكة . ولولا أن ضيافته الملكية بمصر لكبار رجال بريطانيا العظمى، الذين وردوا عليه زائرين، كانت قد أكتسبه قلوبا صديدا في تلك البلاد، لأضطر الى التزول في فندق عام .

غير أن بعض كبار اللوردات هب ينتقد على الحكومة الانجليزية اهمالها شأن "خديو مصر" الكريم . وأسرع اللورد دنلي، ووضع، تحت تصرفه، قصره الجميل — وكان يضارع أنعم القصور الملكية في أوروبا حسنا، وفخاسة رياش — وقامت الصحف اللندنية نظرية، وتلقى عليه، وتعتنه بأجل التعوت، قائلة عنه «إنه أحقن حكام الشرق وأوسعهم نورا في عقليته» وترحب به ترحيا جيلا .

فراة الملكة فكتوريا أن تشارك شعبا في شعوره، وبعد مضي يومين على وصول (اسماعيل) الى بلاده استقبلته في «وندزر كسل» بمعية ولي عهدا، استقبالا شاهقا

ملكيا . ثم جمعت معا بين اكرامه وإكرام (عبد العزيز) . فاستمرضت الأساطيل البريطانية في برسمث ، إجلالا لها ؛ ودعتهما ، الواحد بعد الآخر ، الى ولائم فاهرة ، أولتها لها خصيصا . واقتدت بها بلدية لندن ؛ فاقامت ، لكل منهما ، حفلة استقبال حافلة في «الجبلد هل» الشهيرة !

فكان ذلك جميعه بمثابة اعتراف شبه رسمي من الحكومة والأمة البريطانيتين بمساواة (اسماعيل) ببعد العزيز ، مساواة تكاد تكون تامة . وهو أقصى ما كان «تخديو مصر» ينى نفسه به . فالتخذه ، والحالة هذه ، سابقة يرجع اليها ، يوم يحين الأوان لاطلانه استقلاله ، اعلاتا صريحا ، ومطالبته الدول بالاعتراف به اعترافا رسميا .

لذلك ، ولوثوقه من فرنسا وامبراطورها ، وثوقا كليا ، عاد الى مصر من سفره الى المعرض منشرح الفؤاد انشراحا لا مزيد عليه — بعد أن عرج على الأستانة كما تقدم وأدب فيها وليمة فاهرة للسلطان ، مساء يوم السبت ٣١ أغسطس سنة ١٨٦٧ ، في قصره الجميل بميكون ، (السابق مشتراه على ضفاف البسفور ، واعداده اعدادا فاخا ليكون جديرا بحلوله فيه ، مع حاشيته ، عند ذهابه الى دار الخلافة<sup>(١)</sup>) واستصدر فرمان . سبتمبر سنة ١٨٦٧ الذي سبق ذكره — واما عاد منشرحا ذلك الانشراح لأنه بلغ من اشراكه بلاده في ذلك المعرض وفحاه به اليه مقصدين من المقاصد التي حملته على ذلك الاشراك ، وهما : ( أولا ) اظهار «مصر» متقدمة راقية ، جديرة بانعطف كبريات الدول عليها ، والأخذ بناصرها ، وتوطيد الثقة التامة بآلياتها ، والاعتقاد بلا نهائية ثروتها في نفوس الجميع ؛ و(ثانيا) حمل العالم المتتمدن على أن يحله ، من نفسه وصميمه ،

(١) ترى وصف تلك الوليمة البديعة في الجزء الخامس من «كنز الرطب في متنبات الجواب»

عمل ملك حقيقى مستقل . وتمكن فى الوقت عينه من المحافظة على حب الأستانة له ، بالرغم من عمله على تقليص ظلها الثقيل عنه ، وهو تمكن كان لا بد منه لتجاح مقاصده الخفية . فلم يستكثر فى سبيل ذلك جميعه الأموال الجمة التى أنفقها ، وعلتها منققة فى خير الوجوه ، ولو أنها بلغت بضعة الملايين من الفرنكات علنا .

الاستقلال ، دون  
السلطان العثماني  
بالقيام بحفلات  
ترعة السويس

٢ — الاستقلال دون السلطان العثماني بالقيام بحفلات ترعة السويس<sup>(١)</sup>  
عاد (اسماعيل) ، من السويس ، الى القاهرة — بعد قيام البرنس أوف ويلز الى الاسكندرية ، ليحرم منها ، ووجهته الأستانة ، فى شهر مارس سنة ١٨٦٩ — وقد شغف بعمل دى لبس شغفا يفوق حدود التصور ، ووطن نفسه على أن يقوم باحتفالات فصح التركة للتجارة العالمية ، قياما يزيل كل ما أشكل على الغير فى الماضى من نيائه ، ويظهر ثروته وثروة بلاده فى مظهر تتضائل أمامه كل ثروة أخرى ، مهما عظمت ، أو نفعتها الأحلام ؛ فيهر العالم المتمددين ويسحروه يأخذوه ، ويفتنمها فرصة فى الوقت عينه ليحجز مما بقى من القيود الثمانية الملقاة على عاتق مصر ، فيعلن استقلاله بها ، بمساعدة العواهل الغربيين الذين يكون قد فاز باستألتهم اليه ، لا سيما الامبراطور الفرنساوى ، والملك الايطالى ، صديقيه الجيمين .

(١) أهم مصادر هذا الجزء من الفصل : "رسائل ويومية وسعادات" لفردينان دى لبس ، و "آل دى لبس" لبريديه ، و "ترعة السويس بعد فتحها" لفرديك دى كوتك ، و "خطة مر المدعوين الى حفلات افتتاح ترعة السويس" ، و "تاريخ مصر الحديثة" لجورجى بك زيدان ، و "افتتاح ترعة السويس" ليتكول ، و "فردينان دى لبس - حياته وأعماله" ليرزان ، و "مصر بحسب المعاهدات سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١" ليرداتلو ، و "مصر وتركيا" بلوى لساك ، و "انديرو والسلطان" لبيومون ، و "الخلاف التركى المصرى من الوجهة القانونية" لورى ، و "بعض كلمات عن مصر الحديثة وثائب السلطة" ، و "انقلاب" لبريج ، و "مصر وتركيا" لريزانى ، و "كنز القائب فى متخبات الجواثب" ج ل لأحمد فارس الشدياق ، و "تاريخ مصر فى عهد اسماعيل" لساك كون .

وبينا هو يضع الخطة لسيده وعمله ، ويستمرىء ، مقنماً ، لذة فوزه بمبتنياته ،  
واحراز اعجاب العالم به ، وقع في خلد مدير الأوبرا الخديوية ، المدعو منسى بك —  
وكان أرمينيا تفرنس — أن يلقى سكيته ، ويشغل فكره ، ليفترس شكره ، ويثرى  
من «محظوظيته» .

مكيه

ففى ذات ليلة من لىالى أبريل الأولى ، إذ كان (اسماعيل) مزماراً للذهاب  
الى تلك الدار ، ليحضر تمثيل الجوقة الفرنساوية ، المستأجرة في ذلك العام ، دخل  
منسى بك ، مضطرباً ، الشرفة المخصصة هناك لسموه ، وأخرج شيئاً سجعاً حاول  
صانعه أن يجعله آلهة جهنمية — من تحت الكرسي الذى كان (اسماعيل) يجلس عليه ،  
وأوقع الصوت في الدار . فاضطربت كلها ، وبطل التمثيل ، وحملت الأنباء الى  
الخديو — وكان لا يزال يعابدين — فانزعج ، وعلا الغضب وجهه ، إذ ظن أنها مكيه  
جديدة دبرها له مريدومه المنفى . وارتجت أركان العاصمة ، ووجلّت قلوب الجالية  
الغربية في القطر . وأكب رجال الشرطة ، ورؤساؤها على البحث والتفتيش ، للوصول  
الى معرفة مديري تلك المكيه .

فأسفر بحشهم وتقديهم .: (أولاً) عن أن تلك الآلة ، المزعومة جهنمية ، لم تكن  
تنفى في جوفها مسوماً ، وإنما كانت مظهر خطر فقط ، وآلة نصب في الحقيقة ؛  
(ثانياً) عن اعتراف منسى بك نفسه بأن المسألة كلها لعبة درهما ، هو ، لتتخذ  
شكل مكيه ، فيكون له نغرا اكتشافها ومنغم المكافأة الثمينة التي كانت لا بد من  
إعطائها له .

غير أن (اسماعيل) لم ترق في عينه تلك اللعبة ، ولولا تداخل قنصل فرنسا ، بتأثير  
ممنلة من ممثلات الجوقة كان مغرماً بها ، لنصف بذلك الأرمني السمع الأرض ،

أو نفاء على الأهل إلى فازوخلو، ذلك البلد الذي لم يكن أحد يعود منه . ولكن تتداخل  
 القنصل الفرنسي على عمله . فجود ملهى بك من رتيته ونياشيته ، فقط ، وطرد  
 من البلاد ، وأخذ بالاعتماد إذا تجاسر على العود إليها <sup>(١)</sup> .  
 وإنما كان مثار غضب (اسماعيل) وتميزه من تلك اللعبة السمجة خوفاً من أن تكون  
 سبباً في نشوء فكر الاعتداء عليه ، حقيقة ، في بعض العقول المريضة ، أو بعض القلوب  
 الناقصة ، لما جعل عليه الإنسان من حب الاعتداء ، لا سيما بما كان ثراً وسوماً . فأمر  
 بإغلاق دور التمثيل والملاعب ، وأبطل ملاهى القصور ، وقصصها . ولم يكن خوفه  
 في غير عمله . فان الجند كان قد شرع يتذمر من قلة الطعام ، وردائه ، وكثرة  
 التعب وبهاخلته ، فيما كان يحمل عليه من العمل في إقامة القصور الخديوية ، وتحسين  
 العاصمة وتنظيمها ، وفي الشؤون المدنية المحضة الأخرى . وإنما أراد (اسماعيل)  
 أن يحمل الجند على ذلك العمل ، وأن يكون طعامه بسيطاً وقليل ، بالرغم من ذلك ،  
 ليعتده احتمال المشاق ، وقناعة النفس ، فيكون منه جيشاً متصفاً بصفات الجيش  
 الذي انتصر به (ماريس) الروماني على جموع السمبر والتوتون ، بعد أن شغله طويلاً  
 في أعمال شاقة كذلك العمل ، وبصفات الجيش السبرطاني ، الذي لم يكن يعطى له  
 طعام ، بالرغم من كثرة جهوده ، سوى حساء محروق ، أى جيشاً بطلياً قوياً ، لا يتمكن  
 مصر به من الاستقلال التام ، فقط ، بل من مد سلطانها إلى أبعد الأقطار الجنوبية ،  
 ورفع رأيتها على خط الاستواء ذاته . ولكن روح ذلك الجند أبت أن تكون من  
 طراز جيش ماريس ، وجيش أسبرطة . فكثرت فيه التملل والتضجر ، من العساكر ،  
 ومن الضباط أنفسهم ، وتحت نوافذ سراي طابدين عنها .

(١) أنظر : "مصر في عهد اسماعيل" لما يكون ص ٨٩ و ٩٠ .

إتعاد روح تمرد  
في البلد المصري

فاضطر (اسماعيل)، لحق تلك الروح الشريرة في بده نشأتها، أن يأمر بالقضاء القبض على عدد من الضباط المشار اليهم بالبئان في مظهر ذلك التمرد — وقد جعل بعضهم ذلك العدد ثمانية، وجعله آخرون أحد عشر — وعما كتبهم أمام مجلس عسكري فحوكوا، وحكم عليهم بالاعدام رميا بالرصاص. ونفذ فيهم ذلك الحكم، ثاني يوم صدوره، في قرية تجاور مصر. على أنه لم تمض أيام قلائل على ذلك التنفيذ إلا ووجد أربعة حشاك مسلحون ومتأبطون شرا يتجولون في بستان قصر الجزيرة، والسوء متلبس بجميع حركاتهم. وكان الخديو مقيا إذ ذاك في ذلك القصر. فقبض عليهم في الحال، وقتلوا رميا بالرصاص، وطرحت جثثهم في النيل. فحمدت روح الفتنة في الجحش، ولم تعد تبدي حراكا<sup>(١)</sup>.

ومن حسن حظ البلاد أن هذه الحوادث المزعجة، وإقدام مجلس النواب — قبل انقضاؤه في الخامس والعشرين من شهر أبريل عينه — على ربط عوائد وضرائب جديدة (منها عوائد على رؤوس حيوانات النقل والفلاحة الزائد عمرها على ثلاث سنوات) مرا بدون أن تضطرب لها حياة البلاد؛ مع أن نفاذ تلك الضريبة الغريبة، فيما لو أريد اجتناب الحيف والإجحاف، كان من شأنه ايجاد مجلات خاصة لقيد مواليد تلك الحيوانات : وهو أمر كان فيه ما فيه من السخرية والهزء في ذلك العهد ! وإنما قل الاهتمام بذلك جميعه لأن الأفكار كانت كلها مشغولة بسفر الخديو القريب لزيارة ملوك أوروبا وعواهلها، ودعوتهم الى حضور حفلات افتتاح ترعة السويس، وهو حضور كانت التجارة المصرية تتوقع منه أكبر الخيرات وأجزائها، وكان المصريون يملقون عليه آمالهم في بلوغ بلادهم الاستقلال المنشود !

(١) أنظر: "مصر في عهد اسماعيل" لملك كرن ص ٩٠ و ٩١



ولكى تكون رحلة الأمير الرسمية لهذا الغرض مميزة عن كل ما سواها من نوعها، قرأ الرأي على أن يعين الأمير (محمد توفيق باشا) قائما مقام سمو آية الفخيم، مدة غيابه، تحت إرشاد شريف باشا، وزير الخارجية. ولكيلا توقظ هواجس في صدر تركيا، أشيع في بادئ الأمر أن السفر إلى الخارج إنما علمته معاودة وجع الحنجرة الخديوي، وإشارة طيبه عليه بالذهاب إلى (إمسن) و(فيشي)، هذه المرة.

ووجع الحنجرة هذا كان أصرتى (اسماعيل) في بحر شتاء سنة ١٨٦٨، ولم يشخصه الأطباء، في الأول، تشخيصا صحيحا. فأهل الخديو شأنه، وتهاون في مداواته؛ فانقلب إلى وجع خطير، ومرض شغل الأفكار وأقلقها. فإسرع دولة الوالدة الجليلة، والحرم المصون إلا الإلحاح على الملك بإعادة طيبه العادي الخاص إلى خدمته — وكان قد أقاله وأبعده عن القصر بسبب حادثة بلاطية لم يدرك كنهها، وتضاربت الألسنة في روايتها وبيان تفاصيلها — فإعاد إلى معالجته، إلا وبدأ التحسين في حالة المريض الجليل، واستمر مطردا، حتى أزال العلة تماما. على أنه لم يكن ليسب، في الحقيقة، إلى مهارة الطيب؛ بل إلى فرح الخديو بالجزيل بمولود جديد رزق به، في السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٦٨، دعاه (أحمد فؤاد) فرت به عينه، وأعدّه الله مستقبل باهر. ولكن الطبيب رأى، مع ذلك، وجوب سفر سموه إلى الخارج لمعالجة بياه الجهات الموصوفة، توصل إلى قطع دابر ذلك المرض بالكلية، ومنع عودته في المستقبل. فرأى (اسماعيل) أن يسافر إلى بروصة في الأناضول: (أولاً) لأنها بلد إسلامي؛ و(ثانياً) لأن مياهها قلما يوجد لها مثل في البلاد الأخرى؛ و(ثالثاً) لأنها قريبة من الأستانة، وكان هو في احتياج إلى تسجيل موافقتها على المشروع القضائي، الذي كان قد خلف نوبار باشا، وزيره

في أوروبا ، ليجد في إدراكه تحقيقه . فبعث ، أولا ، من حل تلك المياه تحليللا  
 كياويا ؛ ولما أظهر الفحص جودتها ، قرر السفر الى بروصة والاقامة بها زمنا ، ثم  
 مغادرتها الى (إمس) أو (أوبن) ، فالى باريس للسج خيوط مساعيه الاستقلالية  
 وتشييها ، ولمساعدة نوبار على نفاذ الإصلاح المرغوب فيه ، والذي كانت المخاطر  
 بشأنه قد تهمتت تقريبا محسوسا جدًا . فسافر اليها ، في الواقع في ٣٠ مايو سنة ١٨٦٨ ،  
 وتعالج بياه حماماتها المعدنية . فافادته فائدة كلية ، عدل معها عن الذهاب الى (إمس)  
 أو خلافتها ، وقرر تمضية باقي فصل الصيف في عاصمة السلطنة الثانية ، يتوّم بمظاهره  
 ولائه ما قد توقفه مساعيه وأعماله من ظنون في صحة ذلك الولاء وحقيقته ، ويسدل  
 من قهوه المبذولة بسطاء ، حجابا كثيفا أمام حيون الراضين في الوقوف على كنه  
 نيائه . ففعل ، ونال ماتمى ، وصاد الى بلاده ، بعد غيبة ثلاثة أشهر عنها ، وهو يرى  
 أنه يكاد يلمس لمحاحه باليد .

ولما أشيع ، في المناسبة التي نحن بصدددها ، أن معاودة داه الحنجرة له هي الموجبة  
 لسفره هذا العام ، قرنت الاشاعة بنبا مؤقّاه أن الأطباء أشاروا عليه بالاستحمام بالمياه  
 الأوروبية ، هذه المرة ، لختموا عليه السفر الى أوروبا ، ثم شرع — والاشاعة ترويح  
 وترويح — في أخذ الاحتياطات اللازمة لتكون الرحلة محفوفة بمظهر ملكي حقيق ،  
 فيتم كل شيء بحيث يسبق السيف العذل !

فلما اكملت الاستعدادات جميعها ، أطلع انجليدو من الاسكندرية في ١٧ مايو الى  
 البندقية ، ومعه حاشية يفوق عدد رجالها مثله في الرحلات السابقة ؛ ويحيط به  
 مظهر يكاد يكون امبراطوريا . فأطلقت الحصون مائة مدفع ومدفعا ، تكراما لوداعه ؛  
 وسار يخته القصر "المحروسة" تتقدمه ثلاث سفن حربية ، وتبعه ثلاث أخرى ،

سفر انجليدو  
 الى أوروبا  
 لاستدعاء عواجلها  
 الى خللات ترحه  
 السويس

نخى اذا توسط عرض البحار بتلك الهارة المستوقفة الأنتظار ، صرّح على جزيرة كرفو ، حيث كان جورج ملك اليونان مقيما . وبالرغم من أن هذا العاهل كان قد أوشك منذ عهد قريب أن يشتبك في حرب مع تركيا ، وأن صلاقاته بها كانت لا تزال بسبب كريت عدائية أكثر منها ودية ، دناها إلى حضور حفلات فصع ترمة السويس المقبلة ، بالحاح ، وقدم لزوجته الجميلة ، الملكة أيلما — ولا تزال حية — مائة ألف فرنك ، مساعدة للمهاجرين الكريتين ، مظهرا لها عطفًا كبيرًا عليهم ، على زعم الجرائد اليونانية ، ورضة أكيدة في تخفيف ويلاتهم — كأنما تركيا في واد ، ومصر في واد آخر .

وبعد أن أقام بضعة أيام بضيافة الملك جورج ، أقبل إلى البندقية ، وسار منها إلى فلورنسا ، حيث أسرع الملك فكتور عمانوئيل الثاني ، صديقه الحميم ، من مقره في تورينو ، إلى مقابله ، وأنزله في القصر الفخم المسمى "قصر بي" نزول ملك ممالك . فأقام (اسماعيل) هناك أسبوعا ، وهو في روحه وشدته عطف عناية وإكرام فائقين ، ثم سار إلى فيينا ، حيث قوبل وعومل أيضا كملك ممالك .

ثم سار إلى برلين . فأنزل في "الشلوس" ، وأبدى له غليوم الأول ، الملك الشيخ ، من الاحتراف والاعزاز والتعظيم ما لم يقل عما صادفه منها في فلورنسا وفيينا .

ثم سار إلى باريس . فوجد مقابلة رجة ملكية من طاهل الفرنسيين وشعبها ، وتشجيعا سريرا لمساعدته ، فوق ما كان يتوقع .

ثم سار إلى لندن . فأنزلته الملكة فكتوريا ، هذه المرة ، في قصر بوكينغهام الامبراطوري . وتبارت هي في ونذر ، والبرنس أوف ويلز في حربلور وهاموس ،

والدوكات في قصورهم، والبلدية في "الملش هوس" و"قصر البلور"، في تكريه وتنظيمه، نيفا وعشرة أيام، إكراما وتعظيما قلما يبذل مثلهما حتى للوك .  
فالشرح صدر (اسماعيل) ، وإبتهج نواذه .

ولكن تركيا — وقد حقد صدرها الأعظم ، على باشا ، عليه بسبب محبه جنوده من كريت، وما بنا منه نحو ملك اليونان من التودد والاكرام ، ونحو ثوار الجزيرة من الاعتلاف والمساعدة — كانت واقفة له بالمرصاد . وما أدركت غرضه الحقيقي من رحلته، إلا وأقبلت تمكر عليه حבורه ، وتخذ من مسلكه ، ومن تغير خاطر السلطان عبد العزيز عليه ، لعدم قصده إياه ، قبل الجمع ، بصفته سيد مصر، وعدم توجيهه الدعوة إليه لرأس الحفلة العتيدة ، حجة تهديده وتوعده ، ووسيلة لابتزاز قهوده ، في سبيل رضاه عنه .

التزام مع تركيا

فبعثت في منتصف شهر يونيه ، وقبل حلول الركب الخديوي في أرض المحقرا ، منشورا الى جميع السفراء العثمانيين لدى الدول الغربية ، تأمرهم فيه بالاحتجاج على عمل خديو مصر، واعتباره خارجا عن حدود الياقة ، جارحا لحقوق السيادة التي لتركيا عليه ، ومزريا بالواجب المطلوب من النتائج لمتبوعه ، وذلك لأن الدعوة الى حضور حفلات فتح ترمة السويس إنما كان يجب أن تكون باسم السلطان العثماني ، سيد البلاد الحقيقي ، وعنه دون غيره ، لا باسم الخديو ، الذي ما هو إلا نائبه ، وأنها ، بالتالي ، بشكلها الذي تشكلت به ، باطله ملغاة .

ولم يكف الباب العالي بذلك ، بل أوعز الى جرائده المأجورة بكتابة "تركيا" ، وجرادة "الليفنت هرلد" بشن الغارة على مامع لمصر من امتيازات ، وحمل الحملات العنيفة على (اسماعيل) ، ورميه بتهم المروق والخيانة ، والسعي الخبيث الى الإضرار

تركيا؛ وتماهى في هذا التيار، تماذيا ظهر بأجل معانيه ورموزه في المقالات المتتابعة، التي دمجها يراع مسيو بردانو، كبير كتابه المأجورين، ورئيس تحرير جريدة "تريكة". فانه حصر في سبعة أوجه أنواع الخطأ التي زعم أن (اسماعيل) ارتكبها، وطلب بالحاح أن يكون عقابه عليها العزل من منصبه، وإعادة مصر ولاية عثمانية بكافى الولايات — عملا بالشرط الثاني عشر من شروط فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

وأما تلك الأوجه السبعة فهي :

(أولاً) ذهاب الخلدديو الى أوروبا لسر غور الدول فيما يتعلق بعزمه حل اعلان استقلاله بمصر .

(ثانياً) إقدامه حل الدخول مباشرة في غارات ، بقصد عقد معاهدات تجارية مع الدول الأجنبية، بدون استئذان تركيا أولاً .

(ثالثاً) تكليفه نوباز باشا بالسعى لدى الحكومات الغربية لمجملها على المصادقة على إنشاء محاكم مختلطة ، لا وجود لها في باقى ولايات الدولة العثمانية ، وتصريحه لذلك الباشا بالتلقب بوزير خارجية مصر ، مع أن مصر لا خارجية لها سوى خارجية الدولة العلية .

(رابعاً) تسليحه الجيش المصرى ببنادق من الطراز الحديث ، بدل إبقائه مسلحا بالبنادق القديمة ، أسوة بالجيش العثماني .

(خامساً) عقده قروضا باسمه ، بدون استشارة تركيا واستئذنها .

(سادساً) اضافته ثلاث فرقاطات مصفحة الى أسطوليه الحربى لتعزيزه تعزيزاً يحمي منه حل سلامة الدولة العلية .

(ساجا) وأخيرا تجنبه ، عمدا ، مقابلة السفراء الثمانيين في المواسم الأجنبية التي زارها .

فلنعم (اسماعيل) هذه الهجعات بمجدة . وكلف ، هو أيضا ، جرائد وكثا من مردييه ، الأخذ بناصره ، وتفنيد مزاعم الباب العالي ودحضها ، وبيان سخافة اعتبار بعض تلك الأوجه ضارة بمصالح الدولة العلية ، في حين أن نفعها ظاهر للميان : كوجهي تسليح الجيش المصري ببنادق من الطراز الحديث ، وبناء الفرقاطات المدرعة الثلاث . فان في مثل هذين الأمرين من اكساب تركيا قوة وبأسا ، فيما لو شت حرب بينها وبين دولة أخرى ، ما يجدر بتركيا شكر مصر عليه ، لا تأنيبها وتقريرها .

فكثر بين الناس تداول كتب ونشرات ونيز : ككتاب "مصر حسب معاهدات سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١" إردثانو ، وكتاب "مصر وتركيا" بلای لساك ، وكتاب "مسألة باشا مصر" للوكوتش ، وكتاب "الخلاف المصري التركي" للوري ، وغيرها . وبعضها متصغر تركيا ، والبعض لمصر ، حتى جاشت النفوس وهاجت الصدور ؛ واحتدم النزاع احتداما بات يخشى معه من شوب حرب بين التابع والمتبوع ، يبيد بها التاريخ نفسه .

فأمرت الحكومة المصرية بتزيم الحصون والقلاع والاستحكامات وتحصينها ، وتدريب الجيش وتزويده ، واتخذت كل الاحتياطات ، التي استدعتها تلك الحال الحرجة ؛ وشرع (اسماعيل) يسعى الى استمالة الدول الغربية اليه ، بصفته معتدى عليه ، بدون وجه حق ؛ ووضع ، في الوقت عينه ، في مصرف من مصارف باريس ، ٥ مليون من الفرنكات ، توفيا للطوارئ . ولكنه أكد ، أيضا ، رغبته في الاستمرار على خطته ، وعدم احتفاله بإبراق تركيا وإعادها ، بالخطبة التي وجهها الى اللورد مير

في ولية الملش هوس التي دعت به بلدية لندن إليها ، وهي خطبة هيمنت تمام الهيمنة على سابقتها الملقاة منه في القاعة عنها ، لدى أول زيارته للعاصمة البريطانية في صيف سنة ١٨٦٧ وتجد صورتها في الجزء الخامس من "كتالوغات" السابق ذكره ص ٦٤٣ غير أنه ، لدى عودته الى باريس ، بعد أن زار بروكسل لدعوة ملك البلجيك ، أيضا ، الى احتفالات السويس العتيدة ، أشار الامبراطور عليه بأن يلبس جانبه ، موقعا ، ويدع ، جانبا ، كل ما من شأنه زيادة توتر العلاقات بينه وبين تركيا ، ريثما تخف عن الأمور . فان مسألة الاوكرميرج كانت قد أقيمت ، في الهواء السياسي ، كحرب لاه لا تزال تياراتها شديدة ، وربما كفت شرارة واحدة لتنفجر منها حلقة تهترها ألا تكون .

وشعر (اسماعيل) نفسه أن الفرصة غير سانحة لفتح باب ويلات على مصر والشرق ، وأنه يحذر به أن لا يدع مكثرا ، مهما كان نوعه ، يحول بينه وبين بهجة الأعياد بفتح ترمة السويس للتجارة العالمية ، والفخر الناتج له عنها ، لا سيما أنه يدري كيف تنال الأخرى في الأستانة ، مهما عز منالها .

فأهمل ، مؤقتا ، مسألة النزاع القائم بينه وبين متبوعه ، واعتبر تهديدات تركيا كلاما فارغا ، سوف يقضى عليه قضاء مبرما بهاء حفلات تفتح التربة ، ورأى أن يفتن فرصة وجوده في باريس للدخول مع بعض المالين في مخابرات غرضها إنشاء بنك أهلى ، وبنك عقارى بمصر ، يكون هو أكبر مساهميهما وأهم علامتهما : وذلك لعلمه أن لا استقلال سياسى لبلاد لا استقلال مالى لها .

فصرفه مالى ، كان مخصصا لخدمته في تلك العاصمة ، بالمسيو ليقى كريميه . فأدت تلك المعرفة الى ربط وفاق صداقة متبادلة بين سموه وذلك اليهودى ، وإلى إنشاء البنك الفرنكو المصرى ، بواسطته .

كذلك تعترف ، بواسطة نوبار باشا ، بالماليين ا . دى جيرارد دين وشركائه . وكانت نتيجة معرفته بهم إنشاء "الشركة العمومية المصرية" للاحتجار والاستغلال ، قتم انخديو معظم رأس مالها ، وكل مصاريف تأسيسها . وكان الغرض منها حفر ترعة كبرى لرى جزء الوجه البحرى الشمالى الغربى ، وإعادته الى ما كان عليه فى أيام البطالسة والرومان ؛ وقد سبق لنا الكلام عن ذلك جميعه . وبعد أن كان قد عززم على نعيم بحرى سياحته ، والذهاب الى بطرسبرج ، حيث كان قيصر الروس قد دعاه الى زيارته من القرم ، عدل عن ذلك وتوجه الى (أوين) للتعالج ببيهاها .

فوردت عليه ، وهو هناك ، دعوة من الباب العالى ، للور بالأساتنة لدى عودته الى مصر ، لكن يقتم الايضاحات المطلوبة منه عن تصرفه المطعون فيه ؛ فرفض ، ولكنه ما لبث أن علم أن الباب العالى استدعى أخاه الأمير مصطفى فاضل من أوروبا ، وعينه وزيرا للداخلية الثمانية . فقصر مدة إقامته فى (أوين) واستحمائه ببيهاها ، وأسرع الى طولون ، وركب البحر منها الى الاسكندرية فى ٢٣ يولييه .

غير أن على باشا لم يدعه فى راحة ، وأبى إلا أن يفرضه بخطابات مؤلفة . فلم يرض على رجوعه الى عاصمته أسبوع ، إلا وأرسل اليه مندوبا خاصا من الأساتنة ، يعمل خطابا شديد اللهجة ، يتضمن كل ما سبق للباب العالى الشكوى منه ؛ ويطلبه بايضاحات سريعة وإلا فإن الدولة العلية تعتبر تعدياته خاترة لحزمة فرمان سنة ١٨٤١ وتنفذ الاجراءات التى يستدعيها ذلك .

وكان (اسماعيل) ، قبل استلامه هذا الكتاب الجارح ، أعد وفدا تحت رئاسة شريف باشا لى يرسله الى الأساتنة ، بقصد إزالة سوء التفاهم الواقع ، وزوده بما يجعل لكلامه وقفا حسنا لدى رجال الدولة الثمانية ؛ ولكن شريفا باشا لدى احلامه



على رسالة على باشا التهديدية ، أبى النهاب إلا مشعولا بتذكرة مرور من لندن  
القتضالية الفرنسية . فكلف (اسماعيل) اذ ذاك طلعت باشا بالمهمة ، وسلمه ردّا  
على رسالة على باشا ، برز نفسه فيه من التهم المعزوة اليه ، ومائة ألف جنيه ليعزز  
بها ذلك التبرير .

فلم يرق الرد في أعين رجال تركيا ، ولا أقتنعهم المبلغ ، لاسيما بعد أن قارنوه بما ناله  
غيرهم ، قبلهم ، من ندى الخديو المصري ، فأرسلوا الى (اسماعيل) بلافا نهائيا ، طلبوا  
فيه منه سبعة أمور : (أولا) تسريح ما زاد في الجيش المصري على ثلاثين ألف رجل ،  
وجعل لئس الجنود الباقية لئس رجال الجيش العثماني بالتمام ؛ (ثانيا) بيع البنادق  
ذات الإبر والمدفوعات التي اشتريتها الحكومة المصرية الى الدولة العلية ، أو التنازل  
لها عنها ، مقابل ثمنها الأصلي ؛ (ثالثا) عرض الميزانية المصرية ، منذ ذلك التاريخ ،  
على الباب العالي مستويا ، لتصديق السلطان عليها ، واعتماده إياها ؛ (رابعا) إبطال  
المخابرات بين خديو مصر والبول الأجنبية ، إلا بواسطة سفراء الباب العالي ؛  
(خامسا) امتناع الخديو عن الاقتراض ، في المستقبل ، بدون تصريح خاص من  
السلطان ؛ (سادسا) إجراء مفعول « التنظيمات » بمصر ، أسوة بباقي ولايات الدولة  
العلية ، وترك أمر المخابرة في إنشاء المحاكم الجديدة المرغوب فيها ؛ (سابعا) إنزال  
الضرائب الى ما كانت عليه أيام ارتقاء الخديو عرش مصر .

فلما بلغت هذه المطالب الى (اسماعيل) ، كان بميئته قنصل دولة أجنبية ؛ فقال  
(اسماعيل) له : « إذا غامل الانسان الأحرار ، فيلزمه إما استمالتهم اليه بالرشوة ، وإما  
الكشرهم عن أنيابه . أما وقد رشوتهم في الماضي ، فاني ، الآن ، لكاشر لهم  
عن تاب ! » .

ولعله أن سفراء إنجلترا وفرنسا والنمسا وإيطاليا لدى الباب العالي مضطرونه، أمهل الرد على تلك المطالب ما يزيد على شهرين . ولم يرسل جوابه إلا في أوائل شهر نوفمبر، محذرا بقلم نوبار باشا، الذي كان قد عاد من أوروبا .

وكانت لمجة ذلك الجواب الاستخفافىة تستر وراء حجاب رقيق من المجاملة . وبينما يتظاهر مبتاه بالخضوع لمطلب أو مطلبين من مطالب الصدر الأعظم ، قابل برفض صريح الامتثال لأوامر الباب العالي القاضية بأن لا يقترض خديو مصر قروضا جديدة بدون تصريح من السلطان ، وأن يرسل ، سنويا ، ميزانية حكومته ليتال التصديق عليها .

فلم يعد فى وسع الباب العالي سوى الاعتراف بالانحلال والانسحاب من المعمة ، أو إشهار حرب على مصر ، وكلا الأمرين كانا كريهين لديه . أما الأول ، فلما فاتته طيبة الدولة فى النفوس ، وأما الثانى ، فلعلم انهماقه مع صفاء الأعياد الموشك انقاسها احتفالا بفتح ترعة السويس . ففضل ، إننا ، السكوت مؤقتا . وتمكن (اسماعيل)، بذلك ، من التفرغ للقيام بتلك الأعياد ، قياما يهر الجليل الحاضر ، ويدوى صدهاء فى آذان القرون المقبلة الى الأبد<sup>(١)</sup> .

وكان المسيو دى لسبس قد أطن فى ٢ أغسطس أن افصح الترمه للالاحة العالمية يكون يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ؛ ففى ١٥ أغسطس أزيل الحاجز القائم دون دخول مياه البحر الأحمر فى البحيرات الملحة ، فتدفقت فيها . وأقبل رجال الشركة يذأبون على تميم الأعمال الأخيرة : من قياس الأعماق ، ورفع المواقي التى قد تكون تخلفت عن الشغل فى سبيل السفن حتى جرت ، وتظهر فرش الترمه من كل رمال تطوقت اليها .

(١) انظر : "مصر تحت حكم اسماعيل" لمالك كون من ص ٩٣ الى ١٠٣ .

فطرح (اسماعيل) ، في المزاد، أمر القيام بالشؤون التي تستدعيها الاحتفالات العتيدة ، حافظا لآزينة المصرية حق عموته على من يرسو عليه مزادها . وأرسل يستحضر خمسمائة طاه ، وألف خادم من ترپسته ، وجنواء ، وليفرنو ، ومرسيليا ، ليقوموا بخدمة ضيوفه ، زيادة على طهاته ، وخدمه المصريين . وبعث يجرى المسيو دى لسبس بأخذ الاستعدادات اللازمة لضيفاة ستة آلاف مدعو .

ثم أكتب على وضع الترتيبات ، واصدار الأوامر ، وتحرير الدعوات التي صمم عليها . وكان قد أجاب دعوته من عواهل أوروبا كل من لم يحل دون مجيئه حائل . فوصده بالحضور : أوجيني امبراطورة النمساوين ، وفوقريوسف امبراطور النمسا وملك المجر ، وفردريك ظلم على عهد الساج البروسيانى ، وقريته بنت الملكة فكتوريا ، وهنرى أمير هولندا ، والأميرة قريته ، ولويس أمير المرس . ومن لم يتمكن من المجيء ، أمر سفيره بالاستئانة أن يقوم مقامه ، أو انتدب أحد كبار رجال دولته لذلك .

أما السلطان فلم يدع مطلقا ، ولا حسن لديه أن يدعو نفسه ، ولا كلف أحدا من كبار رجال دولته بتمثيله ، بل اكتفى بالإيازالى سفير انجلترا لديه بذكر اسمه لدى فتح الترتبة .

على أن ذلك لم يكن كثيرا في عيني (اسماعيل) إلا من وجهه المستحسن . فراق لديه جدّا تغيب عبد العزيز ، لأن وجود السلطان على رأس ذلك الاحتفال كان من شأنه المهبوط بخديو مصر الى الورا ، وبمصر الى درجة ولاية عثمانية محضة ؛ بينما أنب عدم وجوده كان برهانا محسوسا على جلوس الخديو في مصاف الملوك ، وعلى

استقلال مصر عن تركيا، حتى فيما لها من العلاقات بالدول الأجنبية، لا سيما إزاء بقاء احتجاجات الباب العالي السالف ذكرها، حبرا على ورق .

ولكى يكون العيد عيد العلم، كما هو عيد تلاقى المذاهب البشرية، دعا (اسماعيل) جمهورا غفيرا من رجال الأدب والعلم، والفنون، والتجارة الكبرى، والاستقلال الفنى، ومراسلى الجرائد الغربية المهمة كلها، بل ذات مراسلى الجرائد التى من الطبقة الثانية والطبقة الثالثة فى الأهمية — لما كان للأدب والعلم والصحافة وباقي ما ذكر من رفيع المنزلة لديه .

على أن كثيرين ممن لم يشتهروا فى شئ ولم تكن لهم، نسيبا، حيلية ما على الإطلاق، بل كانوا أى فلان من الناس، تمكنوا من حشر أنفسهم فى زمرة أولئك الرجال الأكارم: إما لمنزلة شخصية لهم فى أعيان المدعوين من أرباب الحيليات، وإما لتكتمهم بوسائل متعددة، من الحصول على أوراق دعوة باسمائهم . ويقال إن عدد هؤلاء المتطفلين زاد على ثلاثة آلاف .

أما الامبراطورة أوجيني، فانها سبقت موعد الاحتفال، وقدمت الى العاصمة المصرية فى الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر . فأنزلها (اسماعيل) فى قصر الجزيرة، وقام بشؤون ضيافتها، قياما فائق كل ما اعتاده الملوك وأطام عواهل العالم من نوعه .

بمجيء الامبراطورة  
أوجيني الى القطر  
المصرى

وكان قد ذكر بعضهم أمامه، قبل حضورها، أنه لا بد لها من زيارة الأهرام، وأن الطريق، الى ذلك الأمر الفرعونى العظيم، لا تزال على ما كانت عليه فى عهد زيارة عبد العزيز له . فسرطان ما أمر (اسماعيل) بتجهيلها، وجعلها مسلوكة للعربات وخرسها بأطل أنواع الشجر ! وسرطان ما نفذت أوامره، ومضت وزير الأشغال العمومية، ومدير البحيرة الأبدى، بلا انقطاع، فى العمل ! فأنشئت تلك الطريق

تجهيد الطريق الى  
الأهرام

في أقل من سنة أسابيع، كأن ملوك الجن قد اشتغلوا فيها وغمضوا، وبات العالم الشئى الى زيارة الأهرام مدينا بها للامبراطورة أوجينى، كما أن السياح في الأراضى المقدسة مدينون لزيارة غليوم امبراطور ألمانيا السابق لها بالطريق السلطانية الجميلة الممتدة ما بين حبرون ( الخليل ) وبيت المقدس — وفرعها الآتى الى بيت المقدس من عين كارم — و نابلس، والناصره، وطبرية ! لأن عبد الحميد إنما أنشأها لراحته ! وبعد أن قضت أوجينى أسبوعا في مصر، لم تفك الأعياد والاحتفالات تتوالى فيه تحت قدميها، ساحرة، آخذة بالألباب، كل أنواع وبكفيات لا يزال الشيوخ في عهدنا هذا يتحدثون بها، ويمدونها، في مخيلاتهم الممتلئة، مزرية بذات احتفالات الجفنة، المعتدة للصالحين، قامت للسياحة الى النيل، والتفوح في الصعيد على آثار الفراعنة المصريين .

وسافر ( اسماعيل ) معها، بشخصه، متعلقا في خدمة جلالة الجليل وجمالها الجليل . لحقها بصنوف من الأبهة والفضخنة، وترثمت قديميا الملكيتين من أنواع الترف والملاذ، ما لم يقع في خلد ذات ( كليوباترا ) في أبهى أحلامها الذهنية، وليالى حياتها " العديدة المثيل " .

ولابد من أن الامبراطورة، حينما وقفت في الأقصر، وعند نرائب طيبة القديمة، على آثار ( حاتشبو ) العظمى، أخت طوتمزس الثالث، ناپليون مصر القرعونية، فارت بين نفسها وبين تلك الامبراطورة المصرية القديرة، مقارنة لا يدري كنتها إلهى، ولابد من أن ذكر ( كليوباترا )، أيضا، أطل على غيبتها من نافذة تذكارات أيام صباها، فأخذت أفكارها تحوم، نارة، حول مخاض قصر التويلرى، بباريس، قريبا قرينها البعيد، المرافق قلبه تنقل خطواتها في رحلتها، على بعد الشقة

رحلة الامبراطورة الى الصعيد

بينهما، وتذكرها علاقته بعمه الإمبراطور الأكبر، الذى ترك، هو أيضا، أثرا بعيد الغور فى تراث مصر التاريخى الخطيب، وطورا حول مضيقها النيل، المستفد، فى سبيل إرضائها، جميع الوسائل التى يمكن لأكبر الخيلات تفتقا أن تجود بها. نتصوره قيصرا أو أنطونيس، قد أعيدا الى الحياة ليقوما بمخدمتها !

ولما انقضت تلك الرحلة التى لانتفى، وعاد المتترهان الجليلان الى مصر، ارتاحت أوجعنى فى قصر الجزيرة يومين . وأما (إسماعيل) فانه اصطحب وزيره نوبار وشريف، وكبار رجال بلاطه وحكومته، وسافر بهم الى الاسكندرية، واستقل منها ظهر يجته المحروسة، وسار الى بورسعيد، ليستقبل أصحاب التيجان الملمين دعوته، فبلغها يوم ١٣<sup>(١)</sup> نوفمبر.

وإذا بسفن العالم المتمددين كله، قد أمتها من جميع جهات الأنقى، وضيوفه العليدين وقد صرفت لهم من جيبه الخاص تذاكر المجيء من بلادهم والاياب اليها، فى الدرجة الأولى، قد أنوا من كل بلع عميق، تحف بهم أنواع الراحة والهناء كافة؛ وإذا بأساطيل الدول، بما فيها الأسطول المصرى، قد اصطفت فى المرفأ الفسيح، الذى أنشأته شركة القناة أمام بورسعيد؛ والقيالى المصرية قد خيمت حل ضفاف التربة، حتى مدينة الإسماعيلية، لتتحفظ نظام الحفلات، وتزيد فى بهجتها<sup>(٢)</sup>.

وباليت (إسماعيل) سويسات إلا وأقبل أمير هولندا وأميرتها . فاستقبلهما استقبالا حسنا شاققا .

بده الحفلات  
بافتتاح تربة  
السويس

(١) أنظر: "مصر فى عهد إسماعيل" لما ذكر كون من ص ١٠٣ الى ١٠٥

(٢) بلع ما يأتى لفاية نهاية الحفلات، أنظر: "رسائل ديومة ومستندات" قرديتان دى لسب ج ٥

من ص ٢١٩ الى ٢٥١، و"آل دى لسب" لبريديه من ص ٣٨٩ الى ٣٩٢

وفي اليوم التالي ١٤ نوفمبر، وصل السيدى لسياس مع أسرته : وفي يوم ١٥ نوفمبر، قدم فرقة يوسف امبراطور النمسا والمجر، وكان قد تعرض لخطر جسيم لكيلا يؤخر عماد وصوله : فانه، وهو قادم الى بورسعيد، استحسن في شواه المسيحية أن يبرج في طريقه، صلي يافا، ويوزر القدس الشريف، ففعل . ولكنه، لما عاد الى يافا، يوم ١٤ نوفمبر، وجد البحر عجاجا، والنوء عاصفا، والريح تسوق الأمواج الى الشاطئ، جبالا، جبالا — ويافا مرفأ ردى لا تمخله السفن مطلقا، بل تحف في عرض البحار، بعيدة، لا انتشار الصخور في الماء بالقرب من الشاطئ، لا سيما صخرين قائمين عند مدخل الميناء كأنهما «شلا» و«كاردى»، لا بد للقوارب والغلاطك الناهبة بالمسافرين، الى السفن الراسية خارجا، من المرور بينهما، والتعرض لخطر التحطم على أحدهما، أو على كليهما، حينما يكون البحر هائجا، مائجا . فانه قنصل فرنسا بذلك الثغر، ورجاه أن يؤجل سفره، ريثما يهدأ النوء، اجتنابا لمصيبة قد يترلقوعها السالم بأسره . وانضم الى قنصل فرنسا في رجاها الأميرال تيجوتوف — المنصور في لسا — وكان قائد الاسيطل النمساوى المقل للامبراطور، وتمادى في إلحاحه على مولاه، بعدم مبارحة الشاطئ، مؤكدا له أن الاسيطل، والبحر على ما هو عليه، لا يستطيع مطلقا الاقلاع والمخر .

فأبى فرقة يوسف إلا المخاطرة، قائلا : «إني قد وعدت بأن أكون في بورسعيد يوم ١٥ نوفمبر، ولا أستطيع أن أخلف وعدا وعدت به» . ونزل في قارب، ومعه خمسة نواتي وأمر بالانطلاق . فانطلق النواتي به يمدفون، والأمواج تتقاذف قاربهم، وتهاجم من فيه مهاجمة جرفت اثنين منهم، لم يستطع الباقيون إقناذهما إلا بكل صعوبة، حتى دنوا، بعد جهد جهيد، من المذخرة التي كانت تغلظهم .

واذا بخطر الصعود اليها ، أكبر الأخطار التي حافت بهم ، لشدة هيجان الأمواج حولها ، واصطدامها فيها بقوة ، وعدم تيسر الاقتراب منها للقارب الضئيل المقل جلالة الامبراطور النمساوى ؛ أو تنزيل سائرها الى من فيه للصعود فيها .

فاضطر رجالها الى تدلية حبال من حبالها في الفضاء ، تعلق الامبراطور بأحدها بكثا واحتيه المضمومتين ؛ فرفعه البحارة الى ظهر الباصرة ، والأمواج تتلاطم حوله وترطمه ، كأنها تريد ابتلاعه ، ويمز عليها بجأته منها .

ولما بلغ الباقون المأمّن ، ولحق بهم الأميرال في قارب آخر ، أفلقت المدفعة ، ووجهتها بورسعيد ، خير مبالية بالرياح العاصفة حولها ، ولا بالأمواج الهائجة ، المتراامية عليها ، لاقتراسها . لحقت وعد الامبراطور ، ووصلت الى بورسعيد ، في اليوم الخامس عشر ؛ وما استقرت في المرفأ ، ومالت الشمس الى المغيب ، إلا وهدأت الأمواج ، وصفت الطبيعة ، وتلون الأفق بألوان بية كقوس قزح ؛ كأنه ابتسام السماء ، ووعده السلام المقبل عيده بعد يومين .

فاطلقت المدافع من كل السفن الحربية الراسية هناك ، احتفاء بوصول جلالته ؛ واستقبله (اسماعيل) استقبالا حافلا .

وفي يوم الثلاثاء ١٦ نوفمبر ، دوت المدافع حينها ثانية عند الساعة السابعة صباحا ، ودخلت المرفأ المدفوعة الألمانية المقلبة البرنس فردريك قلهم الى عهد مملكة يروسيا . وكان قد أصبح لهذه المولة شأن عظيم في العالم الأوروي ، بعد انتصارها على النمسا في حرب سنة ١٨٦٦

وما كادت تلك المدافع تسكت لحظة ، إلا وعادت الى النوى باستمرار . وتضاعف مهد طلقاتها تضاعفا ارتجت له السماء والأرض وأعماق البحار . وإذا بجمع من السفن



ظهر في البعد ، وتهدم بجلال نحو المرفأ ؛ وأمامه البانحة "الايمل" (النمر) تحمل  
جلالة الامبراطورة أوجيني ، امبراطورة فرنسا وبن ، وربة الاحتفالات العتيبة -  
وكانت واقفة على ظهر السفينة ، يحف بها كبار نبلاء الدولة البونبرية ، وقريناتهم ،  
و جمع وصيفاتها ، وهي في وسطهم كألثة الجمال واللف . وكانت قد ذهبت من مصر  
الى الاسكندرية ، وأتت منها الى بورسعيد .

فاكتظت ظهور عموم الجاريات بنواتها ، وضباطها ، وأركان حربها ، وموسيقاها ؛  
وانشرت فوقها اعلامها تحف وتزفر ، وغص الشاطئ بالطوبجية المصرية وجمهير  
المتفرجين ، والمدحون ، المثئين المدنية الحديثة في خير مظاهرها ، والقوى العقلية  
البشرية في أبهى معانيها . وصلت تهاليل الجبع ، وملات الفضاء ؛ وتجمت فيه  
اقتسامات القلوب المبتهجة ، بكافة عظيمة ، أخذت الامبراطورة تستنشق حبرها  
الذكي ، طرية ، ثملة .

وكانت ، وهي قادمة الى القطر المصري ، قد حضرت أعياد فتح القناة الأكبر ،  
في البنديقة ، وأعياد السفور التالية لها . وهي أعياد بذل فيها أقصى الجهود لتكون  
السحر الحلال ، والشعر الآخذ بالأبواب ؛ ولكنها ، مع ذلك ، حيناً رأت تغمها محاطة  
بهالة ذلك الانتاج وذلك المجد ، وأحاطت حينها بجميع جلال ذلك المنظر الفريد ،  
لم يسمعها إلا الهتاف بأن قالت : « ياقه ! لم أر في حياتي شيئاً أجمل من هذا ! » .

فلما رست بها بانحرتها في المرفأ ، قصدها (اسماعيل) أولاً ؛ وهاتها بسلامة الوصول ؛  
وأكد لها أن وجودها خير ما يتفائل به ؛ وأعرب لها عن شكره وازتياعه ، لتفضلها  
بقبول دعوته ، وترأس تلك الحفلة المجددة ملكه الى الأبد ، والتي تمت بيهودات  
اشترك فيها الجميع .

ثم تلاه امبراطور النمسا والمجر، فولى عهد الدولة الروسية، وقتما لها تحياتهما واحترامهما، فباق المواهل والأمرء .

فاستقبلت الكل بلطفها المعروف، ووجدت، لرد التحية الى كل واحد من أولئك المواهل، الكلبة التي تمزق على الفؤاد كطبيب يحرق مطرب . ثم أخذ الجميع يستمدون لحفلة افتتاح الترملة المباركة .

وكانوا قد أقاموا ثلاثة ارتفاعات خشبية مكسوة بالحرير والديبايح : واحد في الوسط، للضيوف الأجلاء، أصحاب التيجان، والأمرء والمواهل ورجالهم . وواحد على اليمين، لعلماء الدين الاسلامي، وفي مقدمتهم العلامة الشيخ مصطفى العروسي، شيخ الجامع الأزهر والاسلام بمصر، وصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المهدي العباسي، مفتي الديار . وواحد على اليسار، لأجبار الدين المسيحي، وعلى رأسهم المسيبور باور الرسول البايوي، وخادم كنيسة القصر الامبراطوري بباريس، وكان قد حضر خاصة لمباركة الترملة، ثم لعقد قران السيودي لسبس على الكرسيولة اللطيفة التي أحباها وأحبته، بالرغم من تكلل جبينه بلجين الشيب .

ونصبوا على الشاطئين، الأسوي والافريق، المظلات البديعة للجماهير المدحون والمنفترجين، وفي صدرها كلها، مظلة لمؤسسى الترملة ومجلس إدارتها، وأخرى لرؤساء الشركات التجارية المظلى في العالم ومنديها، وثالثة لرجال الصحافة العالمية والمكاتبين .

واصطفت الجنود المصرية بين رصيف التزل والارتفاعات الخشبية الثلاثة، لتحفظ النظام حولها، وتمنع الازدحام عنها . وترتبت الطوبجية بين الرصيف الداخل في البحر، من جهة الغرب، وعمل الحفلة، وتجهزت وترصفت المراكب الحربية—

وكانت خمسين مربكا — والسفن التجارية — وكانت نيفا وفلاين — داخل المرفأ على شكل قوس بدیع المنظر .

أما الحربية ، فكانت ستا مصرية ، وستا فرنساوية ، واثنتي عشرة انجليزية ، وسبعا نمساوية ، وخمسا ألمانية ، وواحدة روسية ، وواحدة دانمركية ، واثنتي هولنديتين ، واثنتي اسكتلنديتين ، واثنتي أسبانيتين ، وفرقاطتين انجليزيتين أخريين هاتين واقفتين في البعد كأنهما رمز الحرب ، المززع اندلاع ليها بعد ثمانية شهور ، يهتد مظهر ذلك السلم العظيم . ولم يكن هناك أسطول ايطالي ، لاضطراره الى مغادرة المياه المصرية ، بغاة ، تحت قيادة البوك داؤستا ، بداعي اشتداد المرض على فكتور عمانوئيل الثاني ، الملك الحلو الثمائل ، وصديق ( اسماعيل ) الحميم — وهو مرض كان السبب في تخلفه عن تلك الحفلة ، وحرمانه لذة تتبع صديقه بحضوره اليها — على أن ايطاليا بقيت ممثلة هناك ، بمراكب تجارية عديدة .

فلما كانت الساعة الثالثة بعد الظهر ، وقد فرغ الجميع من تناول الطعام على نفقة الخديو واستراحوا ، أخذت الموسيقىات تصدح ، وشرع الموكب الفخم يتقدم ، ليجلس الكل في المكان الذي أعد لهم .

واذا بزكى بك ، ورئيس التشرفات الخديوية ، قد برز أمام الجميع يفتح الطريق ، وتلاه الأمير ( محمد توفيق ) ، ولي عهد مصر ، وعلى ذراعه أميرة هولندا ، فولى عهد البولة البروسية ، وأمير هولندا ، فالسير هنرى إلبت سفير إنجلترا في الأستانة والثائب ، حرافا ، من السلطان عبد العزيز ، فالأميرال الاسباني ، فالأميرال الفرنسي باريس ، والمسيو دروى دى لوم ، فالكولونيل الانجليزي رسل ، فرضا بك محافظ بورسعيد ، فالبرنس جورج ولي عهد الهانوفر ، فالكولونيل دوريج .

وما استقر هؤلاء في مقاعدهم ، إلا وصدحت الموسيقى كلها بالنشيد الفرنسي . ثم ظهرت ألوية النمسا والجر تحيط بالراية الفرنسية . فاشترأت الأعتاق ، وأحدثت الأبصار ، وإذا بالامبراطورة أوجيني ، يسير خديو مصر أمامها ، تتقدم متكئة على ذراع الامبراطور فرقت يوسف ، ووراعها فردينان دى لسيس ، فالأرشيدوق فكتور النمساوى ، فمجلس إدارة الشركة ، فالأمير عبد القادر الجزائري — وكانت الحكومة الفرنسية قد دعتة الى تلك الحفلة ، خاصة ، اعترافا له بالفضل الذى أبداه في الدفاع عن المسيحيين ، وحمايتهم أيام مذابح سوريا ، ووضعت تحت تصرفه الدارعة "فورين" لتقله من بيروت الى بورسعيد . فلما ظهر برنسه الأبيض في وسط ازدحام تلك الرؤوس المتوجة بتيجان الملك ، وتيجان البعيرة أو العلم ، أو العصاية أو الفضل ، إلا واستوقف الأنظار شكله الجميل ، وقوامه المعتدل ، ووجهه المكسو مهابة وجلالا — فطوسن باشا بن الأمير (محمد سعيد) ، والوالى السابق ، صاحب الأيادى البيضاء على مشروع القناة وشركته — وانما أراد (اسماعيل) الذى كان يحب طوسن حبا أبويا ، وزوجه ، فيما بعد ، ابنته ، ولم يفتأ يواليه بنائته ورعايته الى آخر لحظة من حياته ، كأنه يريد أن يخفف عليه وطأة التوكل المستديم ، المتتابع منذ صباه ، والمسبب له عن كون أحد خدام أبيه فصح ، ذات يوم ، بسرعة وشدة ، بابا في السراى كان الطفل طوسن واقفا وراءه ، فصدمه الباب في جبهته ، فوقع مغشيا عليه . فارتعد الخادم وخارت فرائصه ، وما كان منه ، في خوفه من غضب أبى الأمير الصنبر ، إلا أنه أغلق عليه الباب ، وتركه طريقا على الأرض ، فاخذ الحواس ، دون أن يضر بالحادثة أحدا . فبقى طوسن على تلك الحالة ، عدة ساعات ، حتى اقتلته مربيته ، وبحث عنه ، فوجدته في تلك الحجرة طريقا لا يلى . فلم تعد

حادة طوسن باشا  
وعرفه طفل

تجديده الأدوية ، بعد ذلك ، نفعا لتأخرها . واستمر طول حياته ضعيفا ، هزيعا ، مرجع السماع<sup>(١)</sup> ، انما أراد (اسماعيل) أن يحضر طوسن ذلك الاحتفال ، ويكون له فيه مركز خاص ، لكي يكون فيه ، ببيتته المكسوة ، منذ ذلك الحين ، بمظهر ماوراء المادة ، خير ممثل لروح أبيه ، المراحة في عالم النعيم ، والتأطيرة بابتهاج الى العمل التام ، الذي لولاهما لتأخر بروزه الى الوجود أجيالا .

وتلا طوسن ، نوبار باشا ، فالبرنس ميرافيد الملك يواكيم صهر نابوليون العظيم ، فبرچيريك ، فالجنرال دوسه الفرنسي ، فوزيرا الامبراطور فرديريوسف ، وهما الكنت دى بيسن ، والكنت انترامى ، فسفيره لدى الباب العالي ، البارون بروكيش ، فاللوك دى هوسكار ، فالجنرال الرومى إجناتييف ، فالأميرال التساوى تيجيتوف ، فسيادات عديدات من معية الامبراطورة ، فالنائبون عن المؤتمرين العالمى والتجارى ، وعن شركة المساجيرى الفرنسية . وكانت الباحة التى أقلت مديرها ، ثم اشتركت في حفلة الاجتياز الى البحر الأحمر ، أكبر بوانر تلك الشركة ، فاركان حرب الأساطيل المتمدة ، فسفراء الدول وقناصلها ، فزمر المدحون أفواجا أفواجا .

فلما اكتمل مدحهم ، وانتظم ذلك العقد الفخم ، دوت المذايع من كل جهة ، متباعدة الطلقات ، مؤذنة ، على ذينك الساحلين الاسلاميين ، وبالقرب من ديوح نوات طليا وقائع الحروب الصليبية ، بأن حادثة جلى ، ألما سمجبت التواريخ البشرية لها مثيلا أو شبيها ، تمت في تلك الساعة ، تحت أشعة تلك الشمس النحبية الساطدة ، وأمام عين الآله رب البرية كلها على السواء : ألا وهى حادثة تصالغ الشرق والغرب ، مصالغة أخوة وسلام ، وتمايق الصليب والملال ، معانقة احترام وتام !

(١) قصص على خبر هذه الحادثة ثقة بن الحق الناس بالمرحوم الأمير (طوسن) سيد .

ثم قام علماء الاسلام، وشيوخهم في مقتنمهم، وأقاموا بالوقار والجلال، الخمينين  
أبدا على كل مظاهر العبادة الاسلامية، أدعية الشكر والحمد، وبعد الفراغ منها،  
ألقي شيخ الاسلام خطبة وجيزة، راقية، شائقة، منع ضيق الوقت من ترجمتها  
لجمهور الحاضرين.

ثم تلا أجازار المسيحية علماء الاسلام، فأنشدوا نشيد الشكر اللاتيني المعروف باسم  
"التدويم"، المنسوب الى القديسين أمبرويس وأغسطينس، وشاركهم فيه كل  
من شاء من الجلم المسيحي الحافظ له، وفي مقتنمهم الامبراطور والامبراطورة .  
ثم تقدم المسليور باور، وألقى بصوته الجهوري، وعجارتة الفرنسية البليغة،  
خطابا بجملة الحماسية شعلات حواطف أو شهاب نار فؤادية، أو هتافات قلب طالع  
حبا للانسانية، شقت صدره، وانطلقت تلوى في الآفاق . وجهه الى انحديو  
أولا، فإلى الامبراطورة، ثم الى الامبراطور، ثم لم يترك جنارة إلا ومدحها، ولا فغلا  
إلا وأخى عليه .

نقص (اسماعيل) أولا بثنائه، بصفتة رب الحفلة، ومنيع ذلك الجهور العام،  
وقضى بما له من فضل على إنجاز المشروع، ونشر معالم المدينة في قطره، وحفه  
الأديان كلها برطاية واحدة، رعاية الملك الكريم الذي يراها كلها جذيرة بالعطف  
لإيقانها متماسكة متآخية . ثم خاطب الامبراطورة أوجيني : فذكر ما وجده المشروع،  
من قوة في لطفها، وتعصيد في موالاتها، وتأبيد في حواطفها، وما لاقاه في فرنسا،  
البلد الكريم، الذي هي طاهلته المجله، من إقبال، وتشجيع، وشذ أزر . ثم خاطب  
الامبراطور فرديريوسف : فشكره على أنه ما انفك معتقدا في نجاح المشروع، عاملا  
على غرس حب الاقبال عليه في قلوب رطايه، وذكره بزيارته لبيت المقدس، وقبر

المخلص، ليستخلص من ذلك، دعاء له بطول بقائه مجداً في خير الرعية المهود أمهرها اليه . ثم انتقل الى الكلام عن دى لسبس، الرجل الذي دخل في التاريخ، حيا : فوفاه حقه من المدح والثناء بقدر ما يستطيع فم بشرى أن يفعل ذلك . وخص بالذكر من شاركوه في عمله ، أولئك الذين قضوا بحبهم شهداء انكباهم على تحقيق الأمانة الكبرى ، فوارثهم الرمال التي كانت بالأمس الصحراء المحرقة ، فأصبحت بفضل مجهوداتهم مزارع تذكّر الرائي بما كانت عليه أرض غسان في مصر الفراعنة ، من البساطة والخصب . وختم خطبته ببناء وجهه ، أولا ، للشرق ، ثم للغرب ، ذاكرة لكل فضائله ومميزاته ، وحاضرا كلا منهما على صدم فصح حررة ، في المستقبل ، وبطلما الله بها في ذلك اليوم ، المثلث البركات !

فقبل خطابه بهتاف مستطيل ، وكان له من القلوب أجمل موقع ! ثم شرع في الافتتاح ، وانشد الأقوام يتفجرون على الأعمال العظيمة ، التي تمت على يد الشركة ، في هذه القناة المزرية بأعمال الصراغة الغابرين .

ولما كان المساء ، وحانت ساعة الطعام ، مدت الموائد متتابعة لسته آلاف مدعو . فاكل الكل من أنواع المأكّل الفاخرة ، وشربوا من الخمر اللذيذة الثمينة ، مالم يخطر على فكر بشر ، ولا سمعت بمثله أو رأت نظيره الأجيال ، حتى اذا دقت الساعة الثامنة ، بدت الزينات تجلج شاطئ آسيا وأفريقيا ، وتعمل الليل ساطعا كنهار جميل . وتجلت "المهروسة" بأوار ، خيل معها للرايين أنها أصبحت شمسا نائقا ، وأخذت ، بين كل دقيقة وأخرى ، تطلق قنبلة في الفضاء ، تستقبل للموسيقىات دويها بعزف شجي ، ثم ختمت ذلك جميعه بحراقة هائلة ، فخرجت في كبد السماء ، كأنها بركان ، ولكن بركان فرح وجذل وأبتهاج ، لا بركان ويل وهول وثبور !

وبينا مظاهر كل هذا الهناء والسرور تنوغل في الليل البهيم ، فصحوله الى ليل نعيم لم تحلم بمثله الأحلام ، طفتت تنقشر بمصر والاسكندرية ، وتهمس في ذات باريس أنباء سوء مدحشة ؛ شرع الحساد والأوغاد يرقعونها ، ليحولوا فرح العالم المتمدنين الى حداد أليم .

اشاعات سوء

فسمع الملأ ، وهو مأخوذ ، أن الامبراطورة ، لما تحققت أن فتح القرمه للملاحه وهم وغيال وجنين خييلة مريضه لن يتحول الى مولود حي أبدا ، عادت الى فرنسا ؛ وأن الامبراطور طرد الى ترينسته ؛ وأن محضرا هاتلا ، لم يستطع ازالته ، قام سادا في وجه السفن ؛ وأن حريقا هاتلا التهم ستين بيتا بالاسماعيلية فدمرها ؛ وأن جمهور المتزوجين — وقد أظهرت لهم الوقائع الزاهنة أنهم أتوا من عموم أصقاع العالم ليراوا في بساطة قلوبهم ، بلنا خلق صناعة لا أمل له في حياة مستقبله ، ومزما أن يعود صحراء كما كان — رجح يضرب أسدريه بايكا على خيبة آماله ؛ وأن مهتمى الشركة هربوا ؛ وأن دى لسبس فقد رشده ، وجن ؛ وأن كبير المقاولين ، المسيولا قاليه ، صبق ياسا ، فانقصر !

والسبب في رواج هذه الأنباء السيئة ، والاشاعات المشؤومة ، هو أن المسيودي لسبس رأى أن يجرى مقاييس عميقة ، في تلك الليلة حينها ، لكي يطمئن تمام الاطمئنان على خلق القرمه من كل طائفي يعوق الملاحة فيها ، من غد . فأمر أن تعمل تلك المقاييس بين كل عشرة أمتار وعشرة ؛ لا بين كل مائة متر ومائة ، كما كانوا يفعلون في السابق . فكشفت نقاذ أواصره عن محضر لم تكن المقاييس الأولى أظهرته . فانخذ ، في الحال ، الاجراءات اللازمة لازالته . وما زال يعالجها حتى فرغ من أمره .



فاتفق حينئذ مع الخديو على تسير سفيتين تسيران غور المسير كطليقي الأسطول المزمع أن يمتاز التربة في الصباح؛ وسيرا مركبا فرنساوية وفرقاطة مصرية .  
أما المركب الفرنسي — وكان ربانها حاذقا — فخرت بسلام وأمان، وأدت مأموريها على أحسن ما يرام . وأما الفرقاطة المصرية ، فأصابها سوء في سيرها ، وجنحت في وسط القناة؛ فانغرس مقدمها في الضفاف، وسد جسمها سطح التربة، على بعد ثلاثين كيلومترا من بور سعيد .

فلما نجا خبر ذلك الى الخديو والمسئودى لسبس، أسرعا ليريا الواقع ويتدبرا أمره . وكان (اسماعيل) قد سافر الى الاسماعيلية ، ليجهز معدات استقبال المتوجين والعوائل الآخرين وبقي ضيوفه . فقفل راجعا ، الساعة الثالثة صباحا ، يوم ١٧ نوفمبر حينه ! واجتمع لدى لسبس أمام تلك السفينة الحربية الجالحة ، واجتهد كلاهما في رفعها وتويعها ، فلم يفلحا — ولم يكن في الاستطاعة ولا في الرغبة تأجيل موعد الافتتاح ، انتهىء للاقاويل وشرها !

فذهب (اسماعيل) الى بور سعيد ، تحت جناح الليل ؛ وباد بألق بحار من الأسطول المصري الراسي بها ، ودفع بهم الى العمل على تنظيف التربة من تلك الفرقاطة . فقال لدى لسبس : « إن لدينا أسلوبيين للبلوغ الى المقصود : إما الهجيء بالسفينة الجالحة الى وسط القناة ، أى تويعها ، وهو الأفضل ؛ وإما الهجيء بجزئها الشاغل الماء الى الضفاف ، بحيث يحصل طولها موازيا لطول القناة ، ويلصق بالساحل . فإن لم يفلح كلاهما .....

فقطع (اسماعيل) عليه كلامه ، وقال : « إن لم يفلحا ، تنسف المركب نسفا ! »

قترأى دى لسبس عليه، وفاقه، وهويكاد ييكي فرحا، وقال : « نعم ! ننفسها !  
ولانى لم أجسر على إبداء هذا الرأى لسموك، لما فى نفسها من الضرر المادى على  
البحرية المصرية ! » على أنهما لم يحتاجا الى نفسها، وتمكن العمال والجنود من جلب  
جرثها الشاغل الماء الى الضفاف، وإلصاقه به، بحيث خلا المجرى للسفن لتتحرف فيه .  
ولم يبق الخديو أودى لسبس أحدا من المدحورين بالمقبات التى أزالاها فى تلك الليلة  
الخطيرة . فلم يبق فكر أحد منهم، وبات الجميع فى هناء وحبور، وفى انتظار لبحر  
اليوم التالى، اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر !  
وكان يوما مشهودا !

فما بزغت شمس، وتناول الإقوام طعام الفطور، إلا وسار «الإجل» (النسر)  
بالامباطورة، من بور سعيد، وولج القناة بجلاء ملكية، وتقدم، فلما، يشق تلك  
المياه المعجبة به، حتى انا لم يد بينه وبين المكان الذى جنحت فيه، بالأمس،  
الفرقاطة المصرية، سوى مسير خمس دقائق، ورد نبأ على الخديو ودى لسبس من  
الأميرال المصرى القائم بعمل رصف تلك السفينة الجانحة، أن العمل قد تم، وأن  
القناة أصبحت مسلوكة لا طاق فيها .

فطرب (اسماعيل) جذلا، وتهدى لسبس تنهدا عميقا، ثم رفع عينيه ويديه نحو  
السماء وشكر الله من صميم فؤاده . وقد قال، بعد ذلك، لأحد أخصائه : « لم أشعر  
فى حياتى، مطلقا، مثابا شعرت فى تلك الليلة، أن الخطية تكافئ النجاسه هكنا، وأن  
القسوة على مثل ذلك التقرب من الفوز ! »

فلما حرت بانرة الامباطورة، عند القنطرة، بتلك الفرقاطة، وأطلقت هذه—  
وكان اسمها «اللطيف» — مدافعها، ترحيبا بها، ظنت أوجيى وطن كل من معها،

وكل من كان لاحقا بها ، أن تلك السفينة الحربية انما وضعت ، هنالك ، خصيصا لتجنيها ، فأعجبت بالفكرة الجميلة والاعتناء اللطيف وشكرت (لإسماعيل) بديع ذوقه . كذلك كان الأمر مع باقي أصحاب التيجان والأمراء . وهكذا حوّلت العناية الإلهية الساهرة على ما جريات الأمور العقبة الخفيفة الى وسيلة من الوسائل العديدة التي جادت بها ، ليكون نفاذ التربة المالية وبهجتها تامين !

وكان شاطئ بحيرة التماسح غاصين بالألم والجماهير والقبائل القادمة من تلقاء نفسها الى مشاهدة الحفلات والتفريج عليها ، أو المرسلة هناك بأمر من (إسماعيل) ليزيد منظرها بهجة تلك الحفلات عنها . فانه أراد أن يرى ضيوفه نماذج من الأمم الخاضعة لصبولطانه ، وصورة صغيرة من طاداتها . فأصدر أوامره الى جميع مشايخ العربان ، ومشايخ البلدان من الاسكندرية الى أقصى السودان ، بإرسال وفود من قبائلهم وسكان نواحيهم الى الاسماعيلية ، في مظاهر حياتهم اليومية : فازدحمت ضفاف البحيرة بنجم العربان و« عشش » الفلاحين وأكوخ الأمم السودانية ، التي كانت تأوى مئات الألوف من البشر ، والتمخضات ، المختلطي اللون ، والشكل ، والملبس ، والنوم ، بأولادهم ونسائهم ، بعضهم على صهوات الخيول ، وآخرون على أسنمة الحجن ، وغيرهم على ظهور الخمر ، يدون في تلك القلوات ، وأحرية الصوف تسابق الشعور المتفوشة ، وشعور البشارين المجلجلة ، وعمائم العمد تسابق « طواق » الصبايدة ، ولبد الفلاحين ، بينما دربكات النسوة ، المختلفة الأجناس والأقاليم ، وطبولهن أو مزمارين بعض العيد وريابهم تحي في كل صوب المراقص والألعاب ! وكانت تلك الأحوال كلها ، وهي محجوزة عن ضفاف التربة بصف ممتد على طولها من الجنود المصرية ، تنتظر بفانح الصبر ظهور البواخر المقلدة الامبراطورة والملوك

الذين معها، وهى لا تكاد تصتق أن انتظارها يحقق؛ وإذا برأك حربية مصرية  
ولبت بحيرة التماسح آتية من جهة السويس !

فاستغرب الأقوام ذلك، وأخذوا يتقولون عما حساه يبنى؛ ولكنهم ما لبثوا،  
وهم يتهايمسون، إلا وسمعوا دوى المنافع يتناول عنان المهاد، ورأوا الشاطئين  
يلتهبان، بكليتهما، والبروق لتصاعد من جوانب المراكب الحربية المصرية، قتهاقوا،  
وإذا بالنسر "الاجل" يتقدم متبغفرا مدلا، وعلى مقدمته الامبراطورة كأنها بالزغم  
من سنى عمرها الثلاث والأربعين، إلهة الجمال والجلال، أو كأنها، وهى فى وسط  
وصيفاتها، وعزف الموسيقى يحف بها، ويتماوج فى الهواء (كليوباترا) المهد القديم  
صاعدة مياه نهر السندس، لتقابل أنطونيس، ولكن لا كتهمة تصيد جبرير نفسها،  
بل كحكمة قادمة لتعولها كلمة أنطونيس الجليلي، ويسجل وجودها: (أولا) استقلال  
مصر المنشود؛ و(ثانيا) مصالحة روى الشرق والغرب بمد طول التنافر والمعاداة.

فأذكروا أن قدوم تلك السفن الحربية المصرية إنما هو للسلام والصحة.  
فرفعوا، هم أيضا، أصواتهم مهللة؛ وجىوا ضيفة خديوم العظيمة وجمهور من  
معه، لاسميا دى لسبس الواقف بجانبها، والذي كانت هى تقسمها تلفت أنظار الجميع  
وتهايلهم إليه، اعترافا منها بفضلها.

ومارست بانعرتها فى فرضة الاسماعيلية المسيحية إلا وذهب (اسماعيل) للسلام  
عليها — وكان يحته قد تلا يحتها — فحياها تحية الاجلال؛ ثم رأى على عتق دى لسبس،  
وطانقه طويلا، والبشر مرتسم على وجهه، والعواطف تميل بحسبه. وقلت السفن  
المقلية للامبراطورة، وولى عهد التاج الپروسيانى، وباقي الأمراء، والعظماء، والسفراء،  
ورست كلها بجانب "الاجل".

ققصبد (اسماعيل) الفرقاطة الامبراطورية، فالمدرسة البروسانية ، فباق السفن ،  
وقتم لكل من راكبها عبارات الاحتراف والتحية الواجبة . ثم نزل الى البر وقصد  
قصرا بناه في آخر لحظة على ضفاف البحيرة خصيصا لاستقبال ضيوفه والاحتفاء  
بهم فيه .

وكان قصرا نفعا، نشأ في وسط مظال من السندس الزاهر، وباقات من الأشجار  
المزدهية بالرياحين والأزهار، كأن إحدى ساحرات الحكايات الخرافية ضربت  
الأرض بمصاها فأخرجته يتهدى في بهائه .

فانتظرت أوجيني برهة، ربما أيقنت أن مضيفها استراح قليلا ، وزلت لثرد له  
زيارته . فامتطت ، أمازونة جديدة ، صهوة جواد مطهم ، وانطلقت تعدو به نحو  
ذلك القصر . فاستقبلها (اسماعيل) فيه ، كأنه يستقبل إلهة ، وبذل لها من الاكرام  
والاجلال وصنوف الارتياح والمنايا ما لا يزال ، بدون شك ، يتردد أمام عيني غيلتها ،  
في أيام شيخوختها هذه البائسة ، كأنه منام رأته أو عاشته في ساعة مثثلة السعادة<sup>(١)</sup> !

وبعد أن مكثت ساعة في زيارته ، واستقرأت ، بليلة ، حلوة تلك الأوقات  
السريعة المرور ، عادت الى الاسماعيلية على ظهر هجين ، وحيون الأقوام شاخصة  
اليها ، وقلوب فوارس العرب تشيعها . ومن يدريني — وقد جعلها معروفة للجميع  
اقامتها السابقة بمصر ، ورحلتها على النيل الى أفاء ، الصعيد — من يدريني أن  
المواجس لم تحدث ، حينذاك ، هاتيك القلوب بأن تلك الامبراطورة الجبيلة ،  
الجليلة ، الراكبة جوادا ، طورا ، وقارة هجينا ، الأندلسية المولد والنشأة ، قد تكون  
سليمة بيت عربي ، رفيع العباد ، أو فرع دوحة ملكية أظلتها سماء الجبراء الشعرية

(١) كتب هذا في سنة ١٩١٨ أي قبل وفاة الامبراطورة .

في غرناطة ، المدينة العربية ، البديعة الذكر ، غرناطة ، مسقط رأس تلك  
الامبراطورة الجميلة ، ومنبت صباها ؟ ومن يدري أنه لم يكن لهذه الهواجس نصيب  
في جمل مظاهر الاجلال البادية حول أوجيني من تلك الجماهير التي كان معظمها  
عربيا ، حارة ، عميقة ، كأنها تريد أن تحيي مجدنا زال ، ونفارا درس ؟

وما فتئت الامبراطورة سائرة بهيجتها ، حتى وصلت قصر دى لابس . فاستراحت  
فيه . ثم استقبلت سيدات الاسماحيلية . وكانت قد أنباتن ، مقدما ، برقيتها في مقابلتهن  
هناك ، لشكرهن على عواطفهن نحوها . فوجدت أولئك السيدات تلك الساعة من  
أهل ساعات حياتن ، وظنت كل منهن أن اسمها بات لذلك تاريخيا .

ولما كانت الساعة الثانية ، بعد الظهر ، نزل الامبراطور فرتر يوسف ، وولى  
عهد المملكة البروسية ، وباقي العواهل والأمراء الى الشاطئ ، وقصدوا قصر (اسماعيل)  
ليردوا اليه تحيته . فقبلوا بما قوبلت به الامبراطورة من التعظيم والاکرام ، ومظاهر  
الابتهاج العام .

ثم انقضت بقية ساعات ذلك النهار القريد في أنس وحظ ، وتزاور وأعياد . حتى  
انما وافت الساعة السابعة ، مساء ، مد سماء العشاء . فاكثفت ، بالموائد ، رجات  
القصر السابق ذكره . على سعتها . وكثرة عددها ، وكان ذلك منتظرا . ولذا فان  
الخدويكان قد أعد في الفضاء ، حول قصره ، خيام ومظال ملئت فيها أيضا موائد ،  
وأولت ولائم لمن لم يسمعه القصر من المدحوقين .

فأكل جميعهم المحتشد من الطعام الفاخر المجهز بمعرفة أمهر الطهاة ، أكل هنيئا ،  
وشرب شرايا فائرا . وتجاوز بعضهم في ذلك الحد ، لا سيما من لم يكن يحلم بمثل

تلك المأكولات الملكية، مطلقاً، حتى إنه لقد يروى عن فرنساوى بطين، أنه نهض عن المائدة التي كان قد ألهم ما عليها، التهام النهم، الذي لا يجد شراسته حد، كأنه فيتلهم الامبراطور الرومانى، فأخذ يمز بيده على بطنه، مملسا صدره القسيح الأرجاء، وقال بتهم لصديق له من جلسه، كان جليسه على المائدة: «انى قد أكلت ثروة ثلاثة فلاحين مصريين!» بدون أن يشعر بما فى قوله من سماجة<sup>(١)</sup>!

مرئص  
الاسماعيلية

وبعد الفراغ من تناول طعام العشاء، أقام الخديو مرقصا لعموم مدعويه، تحت رياسة الامبراطورة أوجينى، بذل فيه ما لا يستطيع قلم وصفه من البذخ وصنوف اللذات ودواعى المرور. ورتب فيه مقصفا حوى ألد ما طاب من صنوف المأكول والمشروبات.

فاشترك، فى الرقص، أصحاب التيجان أنفسهم؛ ولم يكونوا أقل المشتركين فيه جدًا ونشاطًا، بل كانوا قدوة لغيرهم فى استمراء لذة تلك الساعات السريسة المرور! فأوجب ذلك منهم، استغراب الأقوام الشرقيين المحيطين بالقصر والمظال؛ لأنهم، حتى تلك الليلة، كانوا يعتقدون أن الرقص والنصف شأن الراقصات، فقط، والسكرارى من الرجال! فما كادوا يصدقون أعينهم، لما أبصروا أوجينى، الامبراطورة العظيمة؛ وفرتة يوسف، الامبراطور الخطير؛ وفردريك غليوم، الأمير البرومباني المكلل الجلين بانتصارات سنة ١٨٦٦؛ وباقي الأمراء والأميرات؛ وخديوم نفسه، الرجل الوقور، يرقصون ويمرحون بكافى المدعويين وأكثر؛ وأبصروا أن السن ذاتها لم تمنع فردينان دى لسبس، على اشتعال ناصيته شيئا، من أخذ نصيبه من الرقص والملاهى الأخرى، المجموعة حوله. ولا بد من أن هبة أولئك الأعاطم تضاهات

(١) أنظر: "خديويون وباشادات" لمحمد بل ص ١٢ و ١٣

بعض التضائل في أعينهم ، لا سيما إزاء وقار الأمير عبد القادر ، البطل الجزائري المعروف ، الذي حل امتزاجه بجمهور الراقصين والراقصات ، لم يرقص ولم يقصف ، وبقى متفربا فقط ، ملتحفا هيئته وجلاله .

فلم ينسوا ليلة الثامن عشر من شهر نوفمبر ، وماقتوا ، بعد ذلك ، يذكرونها أمام أولادهم وحفلاتهم ، كما ارتسمت على مخيلاتهم . ولم يخطئوا في أنها ليلة لن تنسى ، لأنها كانت ، في الواقع ، ليللة لم تر القرون لها مثيلا ، ولن ترى شبيهها الأجيال القادمة .

ومن حسن حظ الناس أن المستقبل مجهل مكتوم ، وأن الغد صنو منظم لا يعرف وجهه ، ولا تهرأ سطوريده ، مهما كان الراضب في استعلاء عياه وفتح كفه قويا وكريما ، أوجيلا وجليلا ! فان ذلك يجعل استمراء حلاوة الساعة الحاضرة ممكنا ، ويحل على الانماط بقول القائل : « ولك الساعة التي أنت فيها ! » وإلا لو كان الأمر بعكس ذلك ، وأمكن رفع الحجاب عن هذا الشبح الذي هو ضيفنا ، كما يدعو هيجو ، الشاعر الأوحده ، وظلنا المرافق لنا أبدا واسمه « الغد » ، لو أمكن حمله على التكلم وإباحة سره المكنون ، هل كانت أوجيني ، الامبراطورة الجميلة ، تهتم ذراعها ، في الرقص ، الى الأمير البروسياني ، الذي كان مزمما ، بعد أقل من عشرة شهور ، أن يثل عرش زوجها ، وفتح في جنب فرنسا ، وطنها الاختياري المبوب ، ذلك الجرح العميق الأليم ، الذي استمر نيفا وسبعيا وأربعين سنة داميا ؟ بل هل كانت تحضر تلك الحفلات والأعياد ، وترضى أن تكون إلهتها ، ومحط الأنظار فيها ، وهي المزممة ، بعد أقل من عشرة أشهر ، أن تسقط من حائق ، وتغتر من قصرها الامبراطوري ، وجلة ، بينا الثورة تهدر ورامها ، وتأوى بلصر الى إنجلترا ، فتتزل ،



معفرة الثياب والوجه ، في إحدى محطات لندن ، وترى نفسها تزاحمها المناكب ، بلا احترام ، في سيرها لتبحث عن عربة بمحضان واحد تملأها وتقل أثاثها القليل ، الذي تمكنت من تهريبه معها ؟ بل هل كانت تلك الحفلات عينا تبرز لها شمس ، وهل كان يقع في خلد (اسماعيل) أن ينفق الملايين التي أتحقها عليها ، وعلى الضيوف الذين دعاهم إليها ، فلم يتكبدوا في ذهابهم وإقامتهم ولما بهم درهما واحدا من جيوبهم حتى ولا على غسل ملابسهم واستحمامهم ، لو علم أن الامبراطور نابوليون الثالث ، معتمده في ملاباته ، وفي تحقيق أمانيه ، ساقط عن عرشه بعد عشرة شهور ، وأن امبراطوريته المغيبة على الأكوان محوكة عن قريب ؟ وأن فرنسا ، صاحبة الكلمة العليا في مجتمع الدول ، والقدر المثل في ميدان السياسة ، ستبت بضعة أعوام كسيرة الجناح قليلة النفوذ ؟

وهل كان الامبراطور فرديناند يوسف استمرا ، بلنة ، حلاوة تلك الليلة البهيجة ، لو علم أن أخاه الأرستقراطي مكسيمليان ، امبراطور المكسيك ، الذي كان لا يزال يتيما ، منذ أن قتله جوارز زعيم الجمهوريين المكسيكيين ، رميا بالرصاص ، في يونيو سنة ١٨٦٧ ، ليس وحده الأمير الذي كتبت له الأقدار القتل ، في بيته المهسبرجي ، وأن ابنه الوحيد وولي عهده رودلف ، واليصابات زوجته ، التي قادها إله الغرام إلى سريرته وعرشه ، وفرديناند ابن أخيه ، وولي عهده ، بعد رودلف ، وزوجة فرديناند هذا ، سيقضون كلهم قتل ، كأخيه ، وأنه هو نفسه ، وقد توصل في الشيخوخة وبات على حافة القبر ، سيرضى بأن يثار باسمه أكبر وأفظع حرب رآها العالم ، فتقتل حزنا ، حبر العالم المسيحي الأكبر بيوس العاشر ، فيموت وهو غير راض عن جلالاته الرسولية ، بل ناظم عليها ، حل ما كان لقداسته من المكانة في نفس جلالاته ؟

وسيقضى هو عينه نجده ، فى وسط نيران تلك الحرب المندلعة ، العتيدة أن تلك دولته  
دكا ، وتخرب بيته تخريبا تاما . فيمضى ، ولا ترافقه الى قبره سوى لعنات الملايين  
من الأمهات والأرامل ، والخطيات النواكل ، ولا يذكر العالم المتمدين سمات حياته  
الأخيرة إلا ليلعنه ، بعد ما كان لا يذكر اسمه إلا متأسيا ، خاشعا أمام نجلال شبيهه  
المكمل بالحداد ؟ !

وهل كان البرنس فردريك غليوم ألبروسيانى وقريشته ، بنت الملكة فكتوريا  
الانجليزية ، ذاقا بللة بهجة تلك السويحات الهنيئة ، لو قرعا فى مجمل المستقبل حقوق  
غليوم ، ابنهما الأكبر ، لها فى كبرهما ، وسوء معاملته لها ، لما أصبح المرض العضال  
أباه على سر رموته ، وحرم الموت الامبراطورة فردريك من زوجها ، وتركها تحت  
رحمة تصرفات ذلك الابن الكاره فيها النجم الانجليزى ؟

فلكون الغد مجلا مقفلا ، أبدا ، أمكن الذين عاشوا تلك الليلة الفريدة أن يتمتعوا  
بهناشها ، بين قريرة ، وقلب مطمئن !

وامتزجت بطرب المرقص ، الموسيقىات والحلواقات والألعاب النارية والزينات  
المتألقة أنوارا ، حتى لم يبق أحد لم يعتبر نفسه قد نقل الى عالم الخيالات الذى وصفته  
روايات ألف ليلة وليلة !

وهكذا انقضت فى جوار وإنتهاج تلك الليلة الفريدة فى وسط مريح مائة ألف  
نفس ! وقضى الند الثامن حشر من شهر نولمبر فى تزدهات على البصرة ، وفى ضواحي  
الاسماعيلية ، لم تعرف كلالا ولا مللا ، والبشر مرسم على جميع الوجوه والجلجل يملأ  
جميع القلوب !

ولما عاد المساء، عادت الولايم، وحفلات الرقص والقصف، وعاد (اسماعيل) الى محضر حقول ضيوفه بتفنته في أساليب جمع اللذات تحت أقدامهم، تفنتا فاق حد الوصف، وأنست ممرات تلك الليلة ممرات الليلة التي سبقتها، وتزكت ورامها بمراحل ملاذ «الحياة التي لا تقلد» المشهورة عن كليوبترا وأنطونيس .

وفي صباح اليوم التالي، أقلعت البواخر والسفن الامبراطورية والملكية بمن عليها، وأمامها «الإجل» (النسر) وتزلت نحو الجنوب، قاصدة السويس . ولكن الضيوف الكرام رأوا أن يمضوا الليلة على ظهر البحيرات المتة، ليكون لهم نصيب من التمتع على السرايم، وليكون لأهالي تلك الجهات قسط من أفراح الترة، ففعلوا . وبات الأسطول التاريخي، هناك، وأذان الصحراء المحيطة مصيخة لدوى المدافع، وعزف الموسيقىات .

فلما بزغ الصباح، تابعت تلك السفن سيرها، فوصلت الى السويس الساعة الحادية عشرة ونصفا من صباح يوم عشرين نوفمبر . فكتبت (أوجيني) في مجل «الإجل» هذه العبارة : «وصلنا الى السويس، على البحر الأحمر، اليوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٦٩» أوجيني . وتلا توقيمها تواقع كل من كان معها . ثم أرسلت إشارة برقية الى باريس تليّ قرينها «بأن الأمر انتهى، واجتياز القناة تم ا» .

وبعد أن تناول العواهل طعام الغداء، أرسل كل منهم، أيضا، الى عاصمته إشارة برقية بمعنى إشارة الامبراطورة . ثم رأوا، جميعا، وجوب ذهابهم الى ظهر «النسر» ليحتفوا، في شخص أوجيني، بالعمل المجيد الذي تم على يد «الفرنساوى الكبير» . وفي اليوم التالي، عادت الامبراطورة الى بور سعيد، في ظرف ست عشرة ساعة، وأقلعت منها الى طولون .

أما الخديو، وبقى ضيوفه الضخام، فمادوا من السويس إلى مصر بالسكة الحديدية .  
وخير كل من شاء من المدعوين، بتخصية ماشاء من الأيام التالية، عشرة على الأقل،  
في القصر المصرى، على ثقافة الخديو الشخصية .

أما الاحتفالات التى أقيمت بمصر لفرقة يوسف وفردريك فلهم وبقية الأمراء  
والأميرات فيكفى القول، لإدراك أهميتها، أنها ضارعت في جلالها ونفقاتها ما جعل  
من نوعها للسلطان عبد العزيز . وأما الاعتناء ببقية الضيوف فلا أدل عليه من بيان  
الأطعمة التى كانت تقدم، ثلاث وأربع مرات في النهار، لذات الأكلوف من أوضاعهم  
قدرا . وهالك ذاك البيان في بساطته التاريخية :

فطور الصباح : قهوة بلبن وزبدة أو شاي بلبن وروم، بيض مُضَهَّب (برشت)  
أو على الصحن، شكولاته وبسكويت، حسب طلب المسافرين .

طعام الظهر : ماكارونى أو أرز مغفل أو ما شابه ذلك، صحن لحم بارد،  
صحن شواء، صحن لحم مطبوخ، بطاطس على الطريقة الانجليزية، أربعة توابل،  
أربعة أصناف فواكه، جبن، قهوة، وأشربة مختلفة .

طعام العشاء، الساعة السابعة مساء : حساء متنوع، صحن سمك، صحن لحم،  
صحن طعام محض، صحن طعام بارد، شواء من الطير، سواء أكان ديكاً رومياً أم طيور  
صيد، سلطة خضراء، صحن خضار مطبوخ، صحن حلويات، صحن قشدة متنوعة  
التراكيب، صحن أصناف فواكه مجموعة مما، جبن، قهوة، وأشربة متنوعة .  
فاتحة .

طعام نصف الليل، لمن شاءه واعتاده من المسافرين .

الخمور الواجب تقديمها مع طعام الظهر : نبيذ عادي ؛ نبيذ ميدوك ؛ نبيذ شاتومرجو — وهما من أنفرا أنواع البردو — ونبيذ سوترن .

الخمور الواجب تقديمها مع طعام العشاء : نبيذ عادي ؛ نبيذ ميدوك ؛ نبيذ مادير ؛ نبيذ بريجونيا ؛ شاتولافت ؛ شيمانيا على قدر الطلب !

هذا ، علاوة على أن تذكر جيء هؤلاء الضيوف ، جميعهم ، وإياهم إلى بلادهم ، في الدرجة الأولى ، تحف بهم كل أنواع الراحة — كما سبق لنا القول — كانت على نفقة الجلب الخديوي الخاص . وأن إزالم إلى البر ، وفي الفنادق ، وقلم من بلد إلى بلد بالسكة الحديدية ، وعلى البواخر النيلية ، وما أرادوا إنفاقه على أنفسهم في ذات شؤونهم الخصوصية ، كان جميعه على الجيب العامر عينه .

فلا غرابة ، والحالة هذه ، إذا تجاوزت نفقات الأسابيع الستة المقضية ما بين وصول الامبراطورة أوجيني إلى القاهرة واليوم الثلاثين من نوفمبر ، أى إذا كان معظم المدعوين قد بارحوا الديار المصرية ، مبلغا اختلفت في تقديره الأقوال ، بين مليون وثلاثة آلاف جنيه انجليزي ، وأربعة ملايين . فقد صرف نيف وعشرة آلاف في طبع ثلثمائة نسخة ، فقط ، من تاريخ رسمي للاحتفالات والأعياد ، على جلد فيل ؛ وترتيبته بالزقوش والصور الجميلة ؛ وأعطى ألف جنيه لواضعه وحده ، ودفع الخديو إلى فنادق (أوتيلات) الاسكندرية ومصر خمسة وستين فرنكا ، وإلى فنادق القناة مائة فرنك وخمسة فرنكات ، يومية ، عن كل مدعو أقام فيها ، خلاف أجرة غسيله . والمعلوم أن عدد المدعوين زاد على ستة آلاف !

فكما أن أرض مصر لم تر ، في كل تاريخها ، أعيادا تكاثرت الأعياد ؛ ولا حلت فيها ، في وقت قما ، ركاب ضيوف أجلاء ، كالذين حلوا فيها ، بمناسبة تلك الأعياد ، هكذا

انقضت الحال أن تفوق النفقات كل حد في الاعتدال والاعتیاد ، وتدخل فيما لا يستطيع ، في غير التصور حصره ، لا سيما وأن استقلال مصر السياسى التام كان الفرض المنشود منها .

لذلك كان البيان الذى استوقف انتباهنا واعتبارنا ، أكثر مما سواه ، في مجريات تلك الاحتفالات والأعياد العجيبة ، بيانا قرأناه في كتاب وضعه مؤلف يقال له المسيو « برتران » في حياة فردينان دى لسمس وأعماله ، مؤذاه على ما ذكرنا أن السلطان عبد العزيز أناب عنه في حفلة فتح التربة العالمية السير إليوت سفير بريطانيا العظمى بالأستانة . وأن ذاك السفير قام فعلا بتلك المهمة ، فوق تمثيله دولته في تلك الأعياد عينها .

نيابة سفير  
بريطانيا العظمى  
عن سلطان تركيا

فهل كان ذلك فالأ أوجبه الاقنار على غير علم أو شعور من ذلك السلطان المنكود الحظ ، أم كان توقفا مضطربا مبليلا جال في فؤاده بأن فتح تلك التربة من شأنه ، في يوم حديد ، مبلغ مصر نهائيا عن دولته العثمانية السلطانية لإدماجها في جسم الدولة الانجليزية الامبراطورية ؟

مهما يكن من الأمر ، فإن انفصال مصر عن تركيا نهائيا ، وإعلان بريطانيا العظمى حمايتها عليها منذ نيف وأربع سنوات<sup>(١)</sup> ، يحصل قارئ التاريخ مأخوذ اللب ، لدى وقوفه على نيابة مسفير إنجلترا عن سلطان تركيا في حفلة فتح تربة السويس ، التربة التى كان من شأنها إما زيادة توثيق عرى الاتصال الشديد بين تركيا ومصر ، بعامل زيادة المصالح المتبادلة — وهو ما لم يحصل — وإما فهم تلك العرى بالمرّة بعامل

اقطاع الاتصال المادى ، وقيام جمهور مصالح عالمية بجانب مصالح التابع والمتبوع — وهو الذى وقع ! —

ولا يبعد أن يكون بعض المفكرين من الذين حضروا تلك الحفلة ، قروا بين نيابة السبراليوت الانجليزى عن سلطان تركيا فيها ، وبين قول اللورد باهرستن ، وزير بريطانيا العظمى الأكبر ، في مقاومته لمشروع حفر ترعة السويس ، وهو : « إن نفاذ هذا المشروع يضطر إنجلترا الى امتلاك مصر ، وهو ما لا نريده » ، فتطيروا ، وتوقعوا منذ ذلك الحين ما وقع بعد مرور خمسة وأربعين عاما . والتاريخ كله عبء لمن يعتبر !

عود الى النزاع بين  
مصر وتركيا

على أن الباب العالى ، لإشعارا للعالم كله بأن عدم ترأس السلطان العثمانى أكبر حفلة تاريخية أقيمت على أرض عثمانية في عهده لم يكن ليزعزع حجرا واحدا في قواعد سيادته على القطر المصرى ، ما كاد يعلم أن ضيوف ( اسماعيل ) الفخام قد فارقوا بلاده حتى أرسل اليه في أواخر شهر نوفمبر ، على يد مندوب سام ، بلاغا نهائيا في شكل فرمان ؛ أمره بمقتضاه بالخضوع حالا للأوامر تابعه ، وإلا اتخذت ضده الاجراءات المهيئة في التعليقات المزودة بها حامل فرمان . وأهم تلك الأوامر ما يختص بالامتناع عن عقد قروض إلا بتصريح سلطاني ؛ ووردت في الوقت نفسه على ( اسماعيل ) افادات برقية من سفراء فرنسا وإنجلترا واتمسا بالأمانة تشير عليه باللين مؤقلا ، واظهار ولو شبه امتثال للأوامر المرسلة اليه . فرأى نفسه مضطرا الى مواجهة الباب العالى وحيدا ، بدون معين أو عضد ، بعد إخفاقه مبلفا طائلا في سبيل إكرام ضيوفه ، أضعف خزانة حكومته المصرية — ولكنه كان يعلم من جهة أخرى أن الأوامر المكتوبة لم تكن ، في عرف الدولة العلية ، أكثر من سحر على ورق ، اذا عرف المرء كيف يتقى مفعولها .

فلما وصل الفرمان الى يده، أمر بتلاوته بسرمة في ميدان القلعة، بحضور المنسوب العثماني، وبحو سة من الموظفين، ليس بينهم من يفقه التركية إلا اثنان، وبعد إطلاق بضعة مدافع، إشعاراً بتلاوته. ثم أحاط الباب العالي علماً بما تم.

ولكنه أظهر له، في الخطاب ذاته، الذي أرسله اليه لهذا الغرض، أنه لا يعلق على ذلك أهمية مطلقاً، وأنه بالرغم من امتثاله، حياً في المحافظة على السلم، للأوامر الواردة إليه، لا يرى أن حقوقه وامتيازاته الممنوحة إليه مست؛ بل يعتقد أنها لا تزال كما كانت، حيثما كانت.

فما كان من الباب العالي، ردّاً على هذا الكتاب، إلا أنه أبقى اليه بأن «أرسل حالاً المسمى ألف بندقية ذات الإبرة السابق مشتراها منك، وكلف من يلزم بطولون بتسليم المنقرات المصنوعة هناك، لحسابك، الى الضابط الذي يبعثه الباب العالي، لأجل استلامها».

فاهمل (إسماعيل) الجواب على ذلك التلغراف. فأيدى الباب العالي بتلغراف آخر كان حظه حظ سابقه. ولكن يظهر الخديو مقدار اهتمامه بإشارات الصدارة البرقية، فيكيد على باشا خصمه الشخصي، أقدم — بالرغم من استدعاء أعياد الفطر القرية وجوده في العاصمة — على سياحة زهية على النيل، محبة عقيلة أمريكية من جيلات الغرب، ورفقة ضيوف كان الحظ والتفنن في وسائل الملذات خير ما يعيشون لأجله في هذه الحياة الدنيا. ولم يد من زهته تلك إلا في الأسبوع الثاني من العام الجديد سنة ١٨٧٠<sup>(١)</sup>.

(١) أنظر: "مصر في عهد إسماعيل" لملاك كوتون من ص ١٠٨ الى ١١١



فأبرق، حيث أخذ، إلى الصدر الأعظم قائلاً، عما يختص بالبنادق، إنه لم يشتر منها سوى أربعين ألفاً فزقها على جنوده، وأنه لم يعد يبق منها إلا ما لا سبيل إلى الاستغناء عنه للاحتياج إليه احتياطياً، وعما يختص بالمدفعات، إن صانعها لم يقدموا له حساب نفقاتها بعد، وأنه، متى قتموه، وستدله الباب العالي ما سبق إحقاقه منه، وأخلي سبيله من كل مسئولية تالية، يسرع بتسليمها إليه .

وبعد مضي خمسة عشر يوماً ورد الحساب المقول عنه، فأرسله (اسماعيل) إلى الأستانة متباطئاً . فلما اطّلت عليه وجدت أن الثمن المطلوب من تلك المدفعات ثمانمائة ألف جنيه إنجليزي . فما وسمها، بعد محاولة إدخال بعض التعديل عليه، إلا قبوله على فقر خزنتها، ودفعته وهي تمتعضة امتعاضاً كبيراً .

فاغتم (اسماعيل) حالتها النفسية، وأرسل نوبار باشا إليها بما يزيل امتعاضها — وكان (اسماعيل) يقول : «إن نوبار خير من تمهد إليه مهمة لدى رجال الأستانة، لتفوقه في الصلف والتكتيك، كما أن «شريفاً» خير من يوفد إلى بلاد الانجليز، لمهارته في الصيد والقنص» .

واضح أن عادت إلى الأستانة من مصر، في ذلك الوقت، غادة بديعة الجمال، كان السلطان عبد العزيز قد أعجب بحسنها لدى زيارته (لاسماعيل) في مدة إقامة هذا الأخيرة على ضفاف البسفور .

فلما أزيلت النقود، التي بذلها نوبار باشا، كل أسباب الخلاف القائم بين تركيا ومصر، اتخذ هماز الأستانة ولسانها ما اتفق من رجوع تلك الغادة إليها مع وجود نوبار باشا فيها، وتردد أقدامها الحورية على سراي «ضلمه بنجه» ذريعة للتأكيد

بأن تسوية الخلاف التركي المصري إنما يجب أنسبتها ، في الحقيقة ، الى عمل تلك السفيرة الجميلة ، وحسن وقع زيارتها للسراى السلطانية في قلب السلطان عبد العزيز ، لا الى هود نوبار أو تنازل الخديو عن مدّعاته . ألا ، (ويل لكل همزة لمزة) !!!

غير أن تسوية الخلاف لم تجعل (اسماعيل) يقطع عن تغذية أمنية الاستقلال التام في صميم قواده ، والنظر ، بالتالى ، الى مستقبل علاقاته مع تركيا بين الريب والحذر . لذلك ما انفك دأباً على إتمام استعداداته الحربية ، وجمع الجنود جمعا حثيثا ، وحشددها على شواطئ البلاد ، وفي ثغورها ، لا سيما بالإسكندرية ، حيث اكتنف ميدان (محمد على) بها وبمعلّتها ، وحيث أخذت المدافع تدوى ، بين حين وحين ، مننثرة بالصهجر للدفاع ، بل ولل هجوم أيضا .

وقد كتب أحد مراسل الصحف الى جريدته ، في أوائل تلك السنة ، ما يأتى :  
« قد نظرنا ، بالأمس ، عدّة آلاف من القفلة يؤمرون بالاشتغال في إقامة المعازل والحصون ، وبنّا ، وكل مظهر من مظاهر الحياة حولنا يعملنا على الاعتماد بأنفسنا الترك متطرحيهم هنا ، وأن سموا الخديو بعد لم استقبالا حاميا . والناس بالإسكندرية يتهايمسون بانه سيجد مساعدة في ذلك من اليونان والكريتيين ، ومن يوسف بك كرم زعيم المواردنة الثأرين على الدولة . في جبل لبنان والذي أصبحت علاقاته بسموه في منتهى الود والإخلاص . ألم يجد (محمد على) العظيم حوتا فعلا ، وحليفا صدوقا في شخص الأمير بشير الشهابي الكبير ؟ فلم لا تتردّد صورة هذا اللبناني الخطير على نخيلة (اسماعيل) كلما يطرق اسم يوسف بك كرم أذنيه ؟ ولم لا ينتظر ، فيما لو هاجم تركيا في عقر دارها ، أن يجد من هذا الزعيم نفس المساعدة والمعاونة اللتين وجدتهما (محمد على) من ذلك الأمير ؟ »

إن الناظر الى الاسكندرية الآن يخالف مدينة في حال حصار، لا مركزا هادئا للتجارة والاعمار؛ ولا يمكنه إلا أن يتوقع شرا من الحرب، من أية جهة هبت . فمحطات البوليس وقطعه المادية قد عززت بجند نظامي؛ وسلحت البطاريات بأثقل المدافع وأقواها؛ والجنود، بالبنادق ذات الإبرالجديدة . ولا ينفك العمل جاريا في الترسنة ليلا ونهارا، لتجهيز المعدات والآلات والذخائر الحربية على أنواعها .

وقد خفيت كلمات النظام العسكري والأوامر العسكرية، وجعلت عربية بدلا من التركية؛ وطردت التركية أيضا من جميع مصالح الحكومة، وأحلت العربية محلها؛ وأصبح كل شيء، في الواقع، يدل على عزم الخديو على قطع علاقاته بالباب العالي، وفهم عرى كل وثاق يربط مصر بالسلطنة العثمانية، وينذر بقرب حدوث ذلك! »  
ومما ساعد على رسموخ هذه التوقعات في النفوس أن الكولونيل كورونئس، زعيم الثورة الكريية التي أتممت حديثا، أتى الى مصر وانتظم في جنديتها . وكذلك (موط) الجنرال الامريكاني الاتحادى .

وما أقام هذا الأخير بمصر مدة، وأتم بعض أشغال مالية فيها، إلا وكلفه الخديو بالذهاب الى نيويورك، ليحمل أى عدد كان من المحاربين، أمثاله، على التطوع في الجندية المصرية . ففعل . ولكنه هو، والذين أحضرهم معه لم يكونوا ممن يشتهر بأتمالم . فما وسع (اسماعيل) إلا صرفهم، بيجوب مملوءة، واحضار ضباط أمريكيين غيرهم جديرين بثقته، وأكلفه المهمة التي كان يريد أن ينوطها بهم؛ فحضرُوا تحت قيادة الجنرال (ستون)؛ وقاموا بأعباء ما عهد اليهم من الأعمال خير قيام : إما

(١) أنظر : "تاريخ مصر المائى" لمجهول .

لثلاثين عسكريين، وأما كهندسين، ومراهقين ملحقين بستة حملات جنوبية، سيأكل الكلام عنها في حينه .

على أن (إسماعيل) — وإن يكن قد اتخذ مآذيه لمقاومة الطوارئ من الوجهة العسكرية — لم يكن بالرجل الذي يميل إلى التطوع في مجاهل الحروب، متى أمكنه تحقيق أمانى نفسه بطرق سامية، وبواسطة ما يبيذه من مال .

فعلمه، من جهة، أن الأستانة مبنية تشترى أكثر مما كانت روما، لما خرج «جوجرتا» ملك نوميديا منها هائفا : « لا يعوزك، أيتها المدينة المبتاعة، إلا من يستطيع شرائك » ؛ وأن السلطان عبد العزيز لا يرضى عليه باجابه أى طلب يرفعه إليه، حتى لو كان الاستقلال الكلى بمصر، إذا شفعه بما يوازى أهمية الإيجاب من الأصغر الزتان، ولشموه، من جهة أخرى، بأنه يستطيع شراء الأستانة، مهما تنالت في المساومة عن قطعها، ويستطيع إعطاء سلطانها ما يجب من الذهب، مهما كان كبيرا، رأى، ريثما تحسن الأيام الأحوال، أن يقصد حاصمة بنى عثمان، فيقدم فيها مساعده، ويجهل مركزه بنفسه، وبما يطمع فيه من تقوده .

لذلك، لما غمر نخزيتته القرض الذى عقده له، بالرغم من حظر الفرمان الأخير، محل يشوشهم وجود شملت، أرسل يستدعى ابنه الأمير (محمد توفيق) من سياحته التى كان قد قام إليها، منذ زمن قليل، في البلاد الأوروبية، وبلغ فيها مدينة فيينا — وهى سفرته الأولى والوحيدة الى خارج القطر — فأقامه مقامه حل دفة ادارة البلاد، ثم استقل «المحرسة»، يحنه الخصاص، وسار بأماله وأمواله الى الأستانة، بالرغم من أن مناسبات الحرب المقبلة بين فرنسا وبروسيا كانت تسمى في القضاء، وأن بعض المقرئين منه أشاروا عليه بتأجيل سفره، لذلك السهب، وريثا تزول،

سفر (إسماعيل)  
الى الأستانة

من النفوس ، القرحة التي أوجدها خلافه الأخير مع دار الخلافة . ولكن (اسماعيل) أبى ، لأنه كان يعرف من هم رجال تلك الدار ، ولأنه ، ربما كان يتوقع تلك الحرب ، ويعتقد ، بجميع أهل الشرق ومعظم أهل الدنيا ، في تلك الأيام ، أن النصر مضمون لفرنسا فيها ، وأنه يحسن به ، إذا ، أن يتخذ أهله ، ويمهد طريقه في عقد دار خصمه ، ليتمكن من الاستفادة من النصر الفرنسي العتيق ، الاستفادة كلها ، وهو غير متمرض إلا إلى أقل ما يمكن التعرض إليه من الأخطار .

غير أن الحرب باغتته ، كما باغتت الجميع : (أولا) بفضاء شويها ، (ثانيا) بمرسة ربحان كفة بروسيا على فرنسا فيها . فبعد عودته إلى القطر ، في أوائل أغسطس ، وعواطفه تحي فيه ، رغم الواقع ، الأمل بنصر الفرنسيين على أن نصرهم يحقق أمانه .

وليس من يشك في أنه ، لو انتصرت فرنسا في تلك الحرب ، ففازت بروسيا خصيمتها ، ونجحت من المعركة صاحبة الكلمة التي لا تقاوم في ميدان السياسة الأوروبية ، وبرز نابليون الثالث ، صديق الحديق الحميم وزوج أوجيني ضيفته الكريمة ، في شبه المتلة التي كانت لعمه العظيم ، عقب عقده معاهدة طمت سنة ١٨٠٧ ، وأثناء مقابلته بالقيصر ، أسكندر الأول الروسي ، في إدرفت سنة ١٨٠٨ ، كان (اسماعيل) وضع يده في يده ، وطلب إليه أن يشد أزره في موقفه ، ونادى باستقلال بلاده التام من سلطنة آل عثمان ، معتمدا على امبراطور الفرنسيين في تسوية مركزه الجديد إزاء الدول الأوروبية ، وحال وجود ترعة السويس التسوية التي ترضيه وترضيها . ولكن الخساف شموس الامبراطورية النابوليونية ، وتدهور الدولة الفرنسية تدهورا ساحقا ، في تلك الحرب المشؤومة ، كانا ضربة مؤلة جدا انتهالت

على مطاعم (السمائل) فصدمتها ، واضطرت صاحبها بأن يعود الى ما كان عليه من شراء أجزاء ذلك الاستقلال تباعاً ، شراء صريخاً ، من السلطان وبابه العالي بالمال ، وبيع مقدار الجزية السنوية ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ولكنه بقي ، مع ذلك ، متعينا للفرص ، حاملا على اعتناهما ، خير يأنس من رحمة الله ، وعاسن الأقدار . ولما رأى أن ارتكابه على فرنسا بات ، طوائها بعد قهرها ، كما كان ارتكان ملوك يهودا على فرعون مصر — أى مثل اتكاء المزم على قصبية قد تنكسر فتجرحه ، كقول حزقيال النبي اليهودى — وجه وجهه شطر إنجلترا ، وشرع يتقرب اليها أكثر من السابق . نفص عمل جرينفيلد وشركائه الهندسى بلندن ببناء ميناء الاسكندرية — وقد سبق لنا ذكر ذلك فى حينه — ولولا حرب السبعين لعهد بصله الى عمل فرنساوى ؛ وبلغ من إعراضه عن فرنسا ، لا سيما مذ رأى تعنتها فى مقاومة الإصلاح القضاى ، ماحل وزير ماليته — وكان قد شعر بأن نتيجة تلك الحرب هلمت النفوذ الفرنساوى فى نفس مولاه وفى مصر ، شأنها فى كل صقع وقطر آخر — على الاعتقاد بأنه لم يعد ، ثمت ، من حاجة الى عمل حساب لها : فأبى تنفيذ عقد كان قد أبرم بين الحكومة المصرية وأحد الفرنساويين ، قبل تلك الحرب ، وعامل المظالمين بنفائه بصفاء وخيلاء لم يكن ليحسر على مجرود الافكار فيما قبل واقعة « صيدان » . ولكن التفصل الفرنساوى أظهر ، من جهته ، وقاحة وتقسفا ، كأن نابوليون الثالث لا يزال فى كل مظاهر عظمتة ومجده ، جالسا على عرشه ، محط أنظار العالم المتمددين . ولم يكتف بمقابلة عتق الوزير المصرى وعجرفته بضغيفيهما من العتق والعجرفة ، بل دخل ذات يوم ، عنوة ، فى بيت فرنساوى كان كاتب سر لشريف باشا ، واغتصب أوراقا من شأنها إيقاع عدة من كبار الموظفين المصريين

تمت طائفة مسؤولية خفيفة، على ما أشيع في ذلك الحين . ولما أصبحت في يده، جابه بها الوزير اسماعيل صديق باشا، وهقده بأفشاء سرها المكنون اذا هو لم يجب طلبه في الحال . ولما كان وزير المالية هذا من أولئك الموظفين الجبار، بل في مقدمتهم، خاف الفضيحة، ونزل على شروط القنصل . فأصاب هذا، بمقتضاها، فائدة مادية، على ما همست به الألسنة، أكبر من الفائدة التي نالها محسوبة <sup>(١)</sup> .

ثم ان (اسماعيل) عملا بالخطتين معا: خطة تمحين الفرص لاعتنامها، وخطة التمكن بما له من قلب الأستانة ولها، اشترك، من جهة، اشتراكا رسميا في المرض الذي أقيم بشيئا سنة ١٨٧٢؛ وأقبل على التوسع وراء حدود مصر الجنوبية، من أقصى غربها الى أقصى شرقها، توسعا سياى بيانه؛ واستقر، من جهة أخرى، بتزده على الأستانة، كشمس تضيء الموات، وتبث الحياة، يعمل على بت كل علاقة تبعية لها، وكسر قيد سيادتها عليه حلقة، حلقة <sup>(٢)</sup> .

ففي الأسبوع الثالث من شهر يونيه سنة ١٨٧٢ سافر وبمعيته سمو الأميرة والدته الى الأستانة، وقد حزم حزما أكيدا على أن لا يبقى، ماسوى الجزية، على أية رابطة كانت بينه وبين الدولة العثمانية . لما مضت على وصوله اليها بضعة أيام إلا وأهدى عبد العزيز، بحجة الاعتراف له بما كان من وقع جميل في نفسه للخفاوة العظمى التي قابله بها، خمسين ألف بنقلية من طراز مرتين هنرى، كان قد أوصى معامل إنجلترا بصنعها . وبعد مضي أسبوع أو أسبوعين، اختتم فرصة احتفال السلطنة العثمانية بقبوله وليكها عرض الخلافة الاسلامية، فأقام في قصره، بأمركون، معام ابتهاج فاحر،

(١) أنظر: "مصر في عهد اسماعيل" للملك كون ص ١٤١ و ١٤٢

(٢) أنظر: "مصر في عهد اسماعيل" للملك كون ص ١٤٢ الى ١٤٥ بلنج ما على .

توالت فيه الولائم، النادرة المثال، لكبار رجال الدولة، ختمها بوليمة خاصة بجلائته، بلل فيها من صنوف اللذات، ومختلف المطاعم والمشارب، ما لا يقع في خلد رجل، وتوج ذلك جميعه بأن قدم لعبد العزيز «طعم» سفرة، بديما، من صنع باريس، كل آتيته من الذهب المرصع بالجحارة الكريمة، وقد استعمل في ترينها، من الماس وحده، نيف وخمسة آلاف قيراط !

على أن هذا جميعه، رغم جسامته، لم يكن بالنسبة الى اللاحق إلا كسبة التوابل الى الطعام الحقيقي . فان (اسماعيل) لم يمض على اقامته في الأستانة شهران، حتى كان قد قدم الى السلطان مليوناً من الجنيهات العثمانية، وخمسة وعشرين ألف جنيهه الإنجليزي الى الصدر الأعظم، وخمسة عشر ألفاً الى وزير الحرية، وعشرين ألفاً ونيفا الى صفة من كبار السراى السلطانية .

واشتركت الأميرة والدته الكريمة معه في استمالة القلوب اليه . فانها فوق الهدايا النفيسة التي قدّمتها الى نساء الوزراء العثمانيين، وكبار موظفي السراى السلطانية، تقربت من السلطانة ذاتها، والدة عبد العزيز، وأولت لها الولائم الفاخرة، وقدمت لها في احداها من التحف الثمينة ما لا يمكن وصفه، أو حصره . ومن أغرب الصدف، أنهما، بعد الاختلاط الكثير، وقص كل منهما أخبارها على الأخرى، تحققتا أنهما قريتان تجتمعان في جدّ واحد . ففرحتا بذلك فرحاً عظيماً، وجعلتا يتواردان كل قليل، ولا تقطع الواحدة عن الأخرى في كل يوم رسل التحية والتسليم ! فكان ذلك من أسعد توفيقات (اسماعيل) ؛ لأنه أكسب مصالحه في السراى السلطانية صوتاً لم يرتفع للطلب، أبداً، سدى !<sup>(١)</sup>

(١) أنظر : "الكلى" لبيطريك غارديم ج ٤ ص ١٦١ و ١٦٢



فطلب بكاسة من متبوعه التفضل بتوسيع دائرة اختصاصاته ورفع الجهر الموضوع عليه في أمر الاستدانة .

فصدر له فرمانات في شهر سبتمبر من السنة حينها ، ثبت أولها — وتاريخه فرمانا سنة ١٨٧٢  
١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢ و٧ رجب سنة ١٢٨٩ — جميع الامتيازات السابق منحها له ؛  
والثاني الثاني — وكان مصرحاً بـ "يخط شريف" ليوضح مغمضاته — منطوق فرمان  
سنة ١٨٦٩ المحظر عليه اقتراض أى قرض جديد في المستقبل ، بدون تصریح خاص  
من الباب العالي ، وخوّل له حق الاستقراض أى شاء ومتى شاء وكيف شاء . وتاريخ  
هذا فرمان الثاني ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ و٢٢ رجب سنة ١٢٨٩

فقد أن رجال الاستانة ، وإن لم يضجلوا من مدّ أيديهم الى الرشوة ، استحيوا من  
تدوين عارها وتسجيله على نفوسهم . ولذا فانهم لم يقبلوا هذا فرمان الأخير ولا  
"الخط الشريف" المرفق به في مجلات الباب العالي ، كما كانت قد جرت العادة .  
فأراد مدحت باشا ، بعد سقوط الصدر الأعظم محمود باشا وخلع السلطان عبدالعزیز  
المنكود الخط وقتله ، أن يعلن بطلان ذينك التحريرين موضوعا ، لبطلانهما شكلا .  
ولكن السير هنرى إليوت ، سفير إنجلترا ، تداخل في الأمر ؛ وأقنعه بضرورة اعتادهما  
لوجود تأشير سلطان تركيا عليهما<sup>(١)</sup> !

فلما استعاد الخديو حريته المالية ، ونال ما ناله من تكسير قيد السيادة الثنائية عليه ،  
على الكيفية التي ذكرناها ، عاد الى الاسكندرية في شهر أغسطس ، فرحا ، مبتهجا .  
فترفت له ثلاثة أيام ؛ وكذلك تزيّنت القاهرة عند وصوله اليها ، ودقت فيها البشائر ،  
وزاره الأمراء والكبراء وكل ذی مقام ، مهئين . وما لبث فرمانان السابق ذكرهما

(١) أنظر "مصر في عهد اسماعيل" لما ذكره ص ١٤٥

أن لحقاء اليا ، فقرنا فى حفلة ساقفة ، وأطن مضمونها ، ين قصف المذافع ، وعزف الموسيقىات .

وفى عشرين مايو من العام التالى (١٨٧٣) غادر (اسماعيل) حاصته مرة أخرى ؛ وبعد أن أقام بالاسكندرية أياما ، ريثما جمع له وزير مالىته نحو من مليون جنيه ، وأجرى له ويكله فى الأستانة عملية مالية ، أتمت ثلاثه ملايين جنيه أخرى ، أطلع الى الأستانة ، وجيوبه مفعمة ، وهو يرى أن أقصى أمانيه باتت حقائق راضية ! وماذا كان يتنى ، هذه اللعة ، من رجال تركيا ، وفرمانا العام الماضى قد منحاه كل ما تأقت اليه نفسه من الاستقلال ، ومظاهر الملك الحقيقى ؟

كان يتنى أن يتخذ ذلك المنح شكلا قانونيا ، وأن يصدر فرمان ثالث يحتوى على كل ما ضمته له الفرمانات السابقة ، فيضمنه من جديد ؛ وبعد أن يسجل فى سجلات الباب العالى ، تحاط الدول الأوروبية علما بمحتوياته ، ويجعل على التصديق عليه رسميا ، كيلا يتمكن الباب العالى فى المستقبل من العود الى تعليق سيف دامكليس على رأسه ، أو رأس أحد من ذريته ، مرة أخرى ، كما فعل فى سنة ١٨٦٩ : فلا يعود القلق على الوراثة ، وعلى حقوق الحكومة المصرية الداخلية ، واستقلال البلاد الذاتى يؤلم الأفكار ، ويوجع القلوب ، ويلقى الاضطراب فى الإحصاء كما فعل قبيل الاحتفالات بفتح ترعة السويس ! ولنيل هذا جميعه لم تكن الملايين التى ملا جعبته بها كثيرة ، عند سفره الى حاصته الدولة العثمانية .

فما بلغ شهر يونيه منتصفه إلا ودوت ، فى العاصمتين المصريتين ، أنباء نجاحه فى مهمته نجاحا تاما ، وتحقيقه الأمانى التى سافر من أجلها . وشرع الناس يتحدون

بمضمون فرمان الجديد — فرمان ٨ يونيه سنة ١٨٧٣ — الذي استصدره ، وبأهميته  
 وثمنه ، فلم يختلف اثنان في كبير قيمته وجليلها . فانه أتى مهمتنا مصادقا على جميع  
 القرمات والخطوط الشريفة الممنوحة (لحمد على) وخلفائه ؛ ومدخلا عليها تحسينات  
 وتوسعات جمة ؛ وشارحا على الأخص ما كان منها متعلقا بالورثة ، وشكل القوام  
 بما لو كان الخديو ، في المستقبل ، قاصرا ، حينما تؤول الخديوية المصرية اليه .  
 ومنح (اسماعيل) بموجبه ، من جديد : (أولا) حق سن القوانين واللوائح الداخلية ،  
 على أنواعها ، وأية كانت مراميها ؛ (ثانيا) حق عقد اتفاقات تجارية ، ومعاهدات  
 تجارية ؛ (ثالثا) حق اقتراض أى قروض شاء في مصلحة البلاد ؛ (رابعا) حق زيادة  
 جيشه أو تنقيصه كما يشاء ؛ (خامسا) حق بناء سفن حربية ، ما عدا المدرع منها ؛  
 وبالاختصار حق تنظيم الادارة المدنية والعسكرية والمالية في البلاد طبقا لما توجبه  
 مقتضيات الأهالي المكافحة وطايتهم الى عهده .

أى أن هذا فرمان توج سعى (اسماعيل) الى نيل الاستقلال التام تنويها نهائيا ؛  
 وجعل قيد ارتباطه بتركا كأنه غير موجود . ويكلا يفوت أحدا استمراره لذته ، وللدلالة  
 في الوقت عينه على الوسائل التي بذلت لاستصداره ، رأى محرووه أن يضموه بالجملة  
 الطبعية الآتية : « عليك الانتباه والاتفات ، أشد الانتباه والاتفات ، الى توريد  
 المائة والخمسين ألف كيس المقررة ، سنويا ، الى خزنتى السلطانية ، بدون تأجيل ،  
 وبدقة تامة ! » .

على أن (اسماعيل) ما قفى معنى نفسه بظروف من دهره بممكنه من التخلّص ،  
 أيضا ، من ذينك الانتباه والاتفات ، وقطع تلك المائة والخمسين ألف كيس من  
 فم تركيا ، لإتفاقها في شؤون بلاده ، وطن ، قبيل نشوب الحرب بين روسيا وتركيا

في سنة ١٨٧٧ ، أنه قد يستطيع اختتام فرصة الاضطراب السارى فى جسم الدولة العثمانية على أثر خلع السلطان عبدالعزىز وقتله ؛ و خلع السلطان مراد الخامس ومجئته ؛ وانعقاد مجلس المبعوثان وفضه ؛ و تخافم الخطب بين دولة القيصر ودولة الخاقان ، تفالفا أدى الى شبوب نيران الحرب واستمرارها ، ليعلن استقلاله وهو آمن طوارئ الحداث .

فان الملاء قد لاحظ في شتاء سنة ٧٦-٧٧ أن إقامة الجفرال إجتانيف الرومى طالت فى العاصمة ؛ وأن اجتماعاته بالحديو تمددت ؛ وأن الأوقات المخصصة لها امتدت مرة من مرة ؛ ولاحظوا أيضا أن خطابات سرية تبودلت ، بواسطة ذلك الرومى الشهير ، بين بلاطى مصر وطهران ، دون أن يعلم أحد بمضمونها سوى كاتبها ؛ وأن نيفا وستة آلاف جنيه أنفقت ، هدايا ، فى سبيل المحافظة على سر تلك المكتبة ؛ وأن رغبة (اسماعيل) فى أن تكسر الدولة العثمانية لم تكن أمرا خفيا ؛ وأنه لم يبعث المدد المصرى الذى تحتمه الفرمانات إلا وهو ممتعض ، وبعد أن تمنع عن إرساله تمنا كبيرا <sup>(١)</sup> .

وربما شجعه على تنفيذ تصميمه ما كان من حرج موقفه المالى ، واشتداد وطأة الدائنين عليه ، ليقينه من أنه لو تمكن من الدخول ببلاده فى مصاف الأمم المستقلة تمام الاستقلال ، فقد يستطيع الاقتداء بتركيا حينها ، والجمهوريات الأمريكية الصغرى وإشهار إفلاس حكومته بدون خوف أو وجل ، وبدون أن يستطيع دأشوه أن يرفعوا فوق رأسه ، بمعاضدة دولهم ، السلاح المستمد من سيادة السلطان عليه ليهتدوه به ، أو يستعملوه ليعزلوه به عن عرشه !

(١) انظر : "حياة البلاط بمصر" لبطر ، ص ٢٠٨ و ٢٠٩ .

ولكنه - إما لأن الجسارة الكافية للإقدام على ذلك العمل أعوزته في آخر لحظة؛ وإما لأنه توقع أن يكون الشر الناجم عنه أكبر من الخير المأمول منه؛ إما لأن مقاومة تركيا البطولية، غير المتوقعة من دولة كان الاعتقاد في وهنها التام راسخا في العقول، جعلته يوجس في بادئ أمره خيفة؛ فلما أسفرت النتائج الختامية عن سحقها التهاى بفضل تولى عبد الحميد إدارة رعي الممالك من أعماق قصره، كانت الفرصة المناسبة قد أفلتت؛ وإما لأنه، بعد التفكير والتقدير، لم يجد من نفسه القوة الكافية، لا سيما فيما لو تعددت العواقب؛ أو لأسباب أخرى غير هذه كلها لا تزال نجعلها - فضل البقاء على حاله، وترك مناسبة تلك الحرب تمر بدون أن يقتنمها .

كل ما حصر رغبته فيه، بعد ذلك، إنما كان حمل الدول المجتمعة في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ على إدخال مصر ضمنها، أو إدراج مسائلها، على الأقل، ضمن مواد برنامج المباحثات، والبت في حالها السياسية، نهائيا، ليكون مركزها الجديد، منها ومن تركيا، مشمولا بضمايتها جميعا . فأعزى إلى صنة كتاب، أشهرهم برونسفيك، بتناول الموضوع وبمبحثه، وحض الرأي العام الأوروبي على الأخذ به <sup>(١)</sup> .

وقد دلت الحوادث التالية على مقدار فطنة (اسماعيل) في سعيه هذا، وبعد نظره الناقب . فان تركيا، بعد أن طلبت إليها دولتا فرنسا وإنجلترا إقالته عن عرشه، أرادت أن تفتنهما فرصة لتلغى، في الوقت عينه، جميع الامتيازات والميزات الممنوحة منها للهندوية المصرية، وتطوى كشعا عن المبالغ التي التهمتها، مقابل منحها إياها، أو يرسل لها الهندويو (محمد توفيق) عشرين ألف جنيه . فرفض . فأخرت فرمان

(١) أنظر: كتاب "سرد المؤتمر" لبرونسفيك .

توليته . ولولا وقوف الدولتين المذكورتين في وجهها وتشتدّها في أن يخلّف (توفيق) أباه في كل ما كان له من الحقوق لراوحت فطاطلت فأذت .

غير أن التجلّح لم يكلل مساعي (اسماعيل)، هذه المرة، وأبى البرنس فون بزمرك، عميد ذلك المؤتمر، إلا اعتبار مصر ممثلة في أشخاص يمثل تركيا، ووافقت باقي الدول على رأيه، فنجبا لفتح باب قد ينفلت منه شر . فلما وسع الخديو إلا الاذعان للواقع . على أنه، في آخر ساعات ملكه، لما رأى نفسه مهاجما في حقوداره، وذأى أن ملاحته بتركيا، على ضآلتها وتفاهتها، هي السبب في البلاء والويل المحيقين به، هب لقطعها بتاتا، واستعدّ لإعلان نروجه على السلطان العثماني، ومقاومة إرادته . غير أنه، إزاء توقّعه حلول المصائب على بلاده من جراء ذلك، عدل عن رأيه، وقبل بأن يضحي نفسه، وأن يورث ابنه بعده ملكه، كما هو، أي ملكا لم تعد تربطه بالدولة المتبوعة سوى رابطة جزية مالية أوهى من خيط العنكبوت<sup>(١)</sup> .

على أن المجهودات التي بذلها (اسماعيل) وأدت، في نهاية الأمر، إلى جعل مصر، فيما عدا الجزية السنوية، مستقلة عن تركيا تمام الاستقلال، كلفتها نيفا وأثنى عشر مليوناً من الجنيهات نقدتها السلطان عبد العزيز، وحده، زيادة على بضعة ملايين أخرى صرفها في أسفار وإغداد وفود وهدايا، وتهادم لوزراء ذلك السلطان، وكبار رجال دولته !

(١) أنظر : "المعالم المصرية" طبعة سنة ١٨٨١ ص ٣٦







## الفصل الثالث<sup>(١)</sup>

### إزالة القيد الثالث

#### قيد الامتيازات الأجنبية القضائية

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته \* وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا  
«الفتى»

نبذة في تاريخ  
الامتيازات  
الأجنبية

إن نظام الامتيازات الأجنبية ، الممنوح من الدولة العثمانية الى الدول الغربية ، والمقرر في مصر بسبب تبعيتها للباب العالي ، ولأنها جزء من المالك الشاهانية ، كان يقضى بأن يكون مرجع رعايا تلك الدول في شؤونهم التجارية ، والمدنية ، والشخصية ، الى قناصلهم ؛ وأن لا يفرض عليهم ولا يؤخذ منهم ضرائب ، إلا بعد مصادقة دولهم عليها ؛ وأن لا يحاكموا أمام محاكم السلطة المحلية ، فيما يهتمون به من جنائيات وجنح ومخالفات ، وفي قضاياهم التجارية والمدنية مع رعايا الدولة ، إلا بحضور قناصلهم أو تراجمتهم ، لينالوا ، من ذلك الحضور ، حماية من كل ظلم ، ومساعدة في كل شأن .

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "محاضر التدريبات المختلفة التي التأمّت بمصر وباريس ، وفرنسا ، والأساتذة العليا ما بين سنة ١٨٦٩ وسنة ١٨٧٣" ، و "تجارب خاصة بالاصلاح القضائى" ، و "الامتيازات والاصلاح القضائى بمصر : ضرورية - وجوب إبرائه حالا" ، و "الاصلاح القضائى بمصر" ، بلاتسكى ، و "الاصلاح القضائى بمصر والامتيازات" ، و "الامتيازات" ، بليسيه دى روزاس ، و "الاصلاح القضائى بمصر : رسالة الى جاتسكى" ، لنتكل ، و "تريار باشا" لحواسكى .

فأما في تركيا، فإن نظام تلك الامتيازات لم يخرج، مطلقاً، عن الدائرة التي وضع، أصلاً، فيها؛ ولم يرو، أبداً، أن تنصلاً تعدى حدودها، وانفتحت على ما حفظ للسلطة المحلية من حقوق . و ربما كان السبب، في ذلك ، قلة عدد الأجانب في البلاد — بالنسبة لاسماها — وقلة احتكاكهم بأهلها .

فمع ما كان في نظام الامتيازات، والحالة كذلك، من خرق لمبدأ سيادة الحكومة المحلية المطلقة في دائرة أملاكها، فإن مضاره العملية لم تكن محسوسة، لضعف الحكومة المحلية نظرها عن الاهتمام بشؤون الأجانب المحضة التي لا مساس لها بأنظمتها أو بحقوق رعاياها، ولا اعتبارها أولئك الأجانب هملاً؛ لهم ما للهمل، الدائرين في الأسواق والشوارع والأزقة، من استقلال في الحياة، وطعيم ما على أولئك الحمل، فيما لو تعرضوا للأهالي بسوء أو تملأوا على أشيائهم .

وأما في مصر — لا سيما بعد أن أزال (محمد علي) كل الحواجز التي كانت بين حياة الأجانب وحياة الهيئة الاجتماعية المصرية، وفتح أبواب الهجرة الى وادي النيل، واسعة، أمام الغربيين؛ وعلى الأخص بعد وفاته، وتوارى قوة يده المتينة الثابتة؛ وبعد أن لفظت حوادث أوروبا السياسية في سنة ١٨٤٨ عدداً كبيراً من المهاجرين الى القطر المصري؛ وضاضحت، بل جعلت حرية التجارة وحرب القرم، وعلى الأخص، الأمن الغني على البلاد، عدد الجاليات الغربية ثلاثة أضعاف ما كان — فإن نظام تلك الامتيازات خرج عن حدود دائرته بالمرة؛ وما تقيقتاصل الدول، اعتماداً على ما لحكوماتهم من قوة، واعتاماً لضعف خليفتي (محمد علي) و(إبراهيم) السياسي، يفتانون على حقوق السلطة المحلية التشريعية والقضائية، حتى هدموا كل أركانها، وأصبحوا منها في مركز العزيم من الذليل، والحاكم من المحكوم .

التجاوزات

فلم يموذوا يكتفون بالنظر في شؤون رعاياهم المدنية والتجارية المحضة، المتفصلة عن الشؤون المحلية حينها، ولا بحماية رعاياهم من جور الحكام المحليين الاحتمالي، أو إبعاد الحيف والظلم عنهم؛ بل عملوا ذلك: (أولاً) إلى اقتراع كل سلطة جزائية على أولئك الأجانب من أيدي الحكومة، وجعلها من اختصاصهم، دونها، وبدون تدخلها في النظر في المخالفات والجلبج والجنائيات المرتكبة من رعايا دولهم، حتى في التي تحدث أضراراً بالرعايا الوطنيين؛ (ثانياً) إلى إلزام هؤلاء الأهالي ذاتهم بالمثل أمام محاكمهم القنصلية، في دعاويهم المرفوعة على رعايا حكومات أولئك القنصل، تطبيقاً لأبدأ القانون الروماني الناص بأن «المدعى إنما يقاضى المدعى عليه أمام محكمة المدعى عليه عينه»؛ ثم وصلوا، في تعدياتهم الجائرة على حقوق الحكومة المحلية، إلى حد داسوا معه — فيما يخص برعاياهم، متى كانوا مدعين، والوطنيون مدعى عليهم — على ذات المبدأ الروماني الذي تقرر: زعماً منهم أن حقوق الأجانب لا يؤمن عليها في المحاكم الأهلية، وأنهم لا يبعدون في أخلاق القضاة الوطنيين ما يقيمون عليه حقهم في قضائهم، فأجبروا نفس المقاضى من أهل البلاد على المثل أمام محكمة مقاضيه القنصلية، وحاكموه؛ ثم ألزموا الحكومة المصرية، عن طريق المخابرات والتعهدات السياسية، بتنفيذ أحكامهم على رعاياها، رغم أنفها، ولو كان حكمهم جائراً.

وإنما توسلوا إلى إلزام الأهالي بذلك بوسيلتين اتخذوهما من سوء استعمالهم ما منحتهم الامتيازات من حق حضور التنفيذ بأنفسهم وحق حضور ترابعتهم محكمة الأجانب أمام محاكم السلطة المحلية. فان أولئك التراجمة — ولم يكونوا يتقاضون من القنصليات سوى ثلاثين أو ستين فرنكاً، كرتب شمري — كانوا، لأسباب شخصية لا تقيس عن فطنة اللبيب، يحملون التعاقب إلى المحاكم المحلية في القضايا المرفوعة على

رعايا قنصلياتهم . فلا تستطيع هذه المحاكم إصدار أحكامها وهم طائون ، أو في حال غياب المدعى عليهم — المتخلفين عن الحضور ، لتأكيهم من غياب التراجعة — فتأجل القضايا أياما وأشهرًا ، حتى يضجر المتعون من الأهالي ، ويهجاوا الى قناصل خصومهم في أمل نيل حمايتهم ، والقناصل ، بدلا من إرسال الجميع مصحوبين بترابجهم الى منصة القضاء الأهلى ، طفقوا يحلسون هم أنفسهم ، قضاة بين القرنيين . ولما كان معظمهم ، إلا قناصل الدول الكبرى ، تجارا ، فانهم ارتاحوا الى الأمر جذا ، لأنهم رأوا فيه إمكان قيامهم قضاة في دعاوى قد ترفع عليهم أو منهم بصفتهم تجارا . كذلك كان القناصل يتخلفون عن حضور تنفيذ الأحكام الصادرة ضدهم رعايا دولهم من المحاكم المحلية . فيعطل التنفيذ أياما وأشهرًا ، بالمثل ، حتى يضطر من حكم لمصلحتهم من الأهالي أن يخلصوا للقضاء القنصل ، وهم يؤملون — وكثيرا ما كانت آمالهم تنهب أدراج الرياح — أن يستطيعوا تنفيذ حكم يصدره القنصل نفسه في مصلحتهم .

وليت القناصل وقفوا عند هذا التجاوز الأخير ، ولكنهم تمدوه التمدى النهاى ، أيضا ، وبلغ من تعارفهم فى الفطرسه والخيلاء أنهم استدعوا ذات حكومة البلاد أمام منصة محاكمهم ، وحاكموها وحكموا فى أغلب الأحيان عليها ، لمصلحة رعاياهم ، بتعويضات باهظة ، كثيرا ما كانت تثقل كاهلها ، وبلغت فى أربع سنين فقط ، أى ما بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٨ ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنيهات وذلك بحجة إقدامها على فسح عقود أبرمتها مع أولئك الأجانب أو على أعمال أوجبت فسح تلك العقود .

على أن جميع تعديت القناصل هذه لو كانت تجاوزات ويزمات غطرسه فقط ،  
لهان انشطه وقت فداخته . ولكنها أوجبت اضطراب مجارى العدالة اضطرابا لم  
يعد يمكن معه إقامة معالم للعدل مطلقا ، وأضاع الحقوق كلها ، وذلك لثلاثة أسباب  
أساسية :

(الأول) أن تلك المحاكم القنصلية لم تكن متضامنة في تشريعها وأحكامها ، بل  
ولا مرتبطة ولو بمجرد ارتباط فوق بعضها ببعض : فكل منها كانت ، من جهة ،  
تطبق قوانين دولتها ، ولا تعترف ، من جهة أخرى ، بالأحكام التي تصدرها زميلاتها .  
ونتيجة ذلك أن المدعى كان يضطر ، متى تعدد المدعى عليهم ، الى رفع قضيته  
الواحدة أمام كل محكمة من محاكم خصومه المتعددة القنصلية ، وإلى اتباع إجراءات  
قانونية مختلفة ، ربما أدى جهله بأحدها الى بطلان دعواه شكلا ، فإذا صحت  
إجراءاتها كلها ، وأصدرت تلك المحاكم المتعددة أحكامها ، فانه كثيرا ما كان يحدث  
أن بعضا من تلك الأحكام كان يناقض البعض الآخر متناقضة كلية : فيكسب  
المدعى هنا ، وينحسر هناك — وأمر الوكالة ذات الزوايا السبع بالاسكندرية ،  
وتضارب الأحكام في كل من زواياها ، لا يزال حاضرا نحن الشيوخ منا .

ولما كان من السهل على المدعى عليه الذى خسر أن يلبس رداءه القضائى لغيره  
من جلسة المدعى عليه الذى كسب ، وذلك بواسطة تحويل بسيط ، فان المدعى  
الذى كسب كان يضطر ، فى مثل هذه الحال ، إما الى إعادة دعواه ضد خصمه  
الجليد أمام المحكمة القنصلية التي حكمت لغير مصلحته ، والتي كان لابد لها ، إذا ، من  
أن تحكم ضده مرة أخرى ، إما أن يكمل أمر التمويض طيه الى الله ويحمل خسارته  
صابرا ، وإما أن يلجأ الى الاستئناف بعد الفراغ من كل نقاض ابتدائى .

على أن مجرد تصديق الراغب في التفاوض مجموعة العقبات القائمة أمامه في مثل تلك الأحوال ، ومبلغ المصاريف والتعققات التي سيضطر إلى بذلها لكي يبلغ النهاية ؛ ثم تخيله أنه قد لا تكون هناك نهاية لتفاضيه ، حتى بعد الاستئناف ، إزاء سهولة تحويل الحقوق ، وعدم تقييد المحاكم بالأحكام التي تصدرها الواحدة منها ، كأننا كافين لتبسيط عزيمته وصلوله عن كل مقاضاة ، والرضا بضياع حقوقه .

هكذا حدث لشركة قناة السويس . فانها أجرت بيتا لها في بور سعيد إلى أجنبي هناك ؛ فتأخر عن دفع ما عليه ؛ فأعطته أمام محكمة الفصلية ؛ فتنازل عن الإيجار لأجنبي آخر من غير جنسيته ؛ فأهملت الشركة القضية الأولى ، ورفعت قضية أخرى أمام محكمة الأجنبي الجديد ؛ فتنازل هذا عن الإيجار إلى أجنبي آخر من جنسية خلاف جنسيته ؛ فاضطرت الشركة إلى إهمال القضية الثانية ، ورفع قضية ثالثة ؛ ففعل الثالث ما فعل الثاني ؛ فبئست الشركة من إمكان حصولها على حقوقها ؛ فأهملت ، ولم تعد إلى المطالبة بها إلا بعد تأسيس المحاكم المختلطة .

(الثاني) أن تلك المحاكم الفصلية لم يكن يهمها الحق ، على العموم ، بقدر ما كانت تهتمها مصلحة رعايا دولتها ؛ لأن كل فصل ، إلا ما ندر ، كان يعتبر أن الغرض من وجوده في البلاد إنما هو الدفاع عن مواطنيه ، سواء أكانوا مظلومين أم ظالمين ؛ وأن ينصرهم ، أكان الحق في جانبهم أم عليهم . ونتيجة ذلك أن المحكمة الفصلية ، مهما كانت جنسية المدعى ، كانت ، تقريبا دائما ، في جانب المدعى عليه ، مبدئيا ؛ فتعزب له تحزبا بيتا ، تتمتع منه كل نفس تشمر ، ولو قليلا ، بنقل الحيف ومضاضته .

أما إذا كان المدعى من الأعلى، فمقابلته عاظم البلاد حمل المحاكم القنصلية بالمثل كان متعذرا، لعدم تمكنها من محاكمة أجنبي على الإطلاق، بعد ما ثبت في العادات القضائية حتى تتصل الأجانب من اختصاصها، سواء أكانوا مدعين أم مدعى عليهم .  
وأما إذا كان المدعى أجنبيا ، فإن قنصليته كانت تهيئ الفرص لتعامل مواطني المدعى عليه التي تحيزت قنصليته له على قاعدة للمعين بالمعين والسن بالسن .

مثال ذلك ما فعله المسيو تريكو ، أحد قناصل فرنسا بالاسكندرية ، يوناني من هذه المدينة . وتفصيله : أن يونانيا رفع على فرنساوى ، أمام محكمة المسيو تريكو هذا القنصلية ، قضية طالب خصمه فيها بدفع مبلغ استحق عليه بموجب سند موقع منه . وكان لابد للحكمة من أن تحكم على فرنساوى بدفعه ، إلا إذا سجلت على نفسها الجور والظلم . فلما فُتحت الجلسة ، ونُودي على القضية ، وحضر اليوناني وخصمه أمام المسيو تريكو ، سأل هذا القنصل اليوناني قائلا : «أنت يوناني من رعايا الحكومة المحمية أم يوناني من رعايا دولة اليونان؟ » فأجاب الرجل : « أنا يوناني من رعايا دولة اليونان » . فالتفت المسيو تريكو إلى كاتب الجلسة وقال : «شطب القضية» ثم وجه كلامه إلى المدعى وقال : « لاشأن لك عندي ، اذهب وقل لقنصلك أنه متى عامل فرنساويين الذين يتقاضون أمامه بالعدل ، أعامل أنا أيضا بالعدل اليونان المتقاضين أمامي » .

(الثالث) هو أن تلك المحاكم القنصلية إنما كانت ابتدائية فقط، وأن استئناف الأحكام الصادرة منها كان يجب أن يرفع إلى إحدى محاكم أول درجة في وطن المدعى عليه . فإذا كان هذا فرنساويا ، مثلا ، كان استئناف الأحكام الصادرة من قنصليته بالقطر المصري إلى محكمة «إكس» ، وإذا كان طليانيا ، فإلى محكمة «انكورا» ، وإذا

كان يونانيا ، فالى محكمة « أثينا » ؛ واذا كان بريطانيا ، فالى محكمة « لندن » ؛ واذا كان نمساويا ، فالى محكمة « تريست » ؛ واذا كان روسيا أو ألمانيا ، فالى محكمة « برلين » أو إحدى المحاكم الألمانية الأخرى ؛ واذا كان أمريكا ، فالى محكمة « نيويورك » ؛ وهلم جرا .

وكان من شأن هذا النظام أن يتأكد المستأنف مصاريف جمة قد ترهقه إرهافا ، وأن يضيع من الوقت والمناسبات المصلحية ما قد يضربه أضعاف الإضرار الناجم له عن الحكم المستأنف الذى رآه مجحفا بحقوقه ، فيما لو امتثل له ورضى به .

ولكنه لو حمل نفسه على تكبد تلك المصاريف وتضييع ذلك الوقت وتلك المناسبات ، وأمكنه ، بعد التمس والمنايا الشديدة ، البلوغ الى استصدار حكم يلقى الحكم المستأنف ، هل كان فى استطاعته أن يستغنى عنه بغير نهاية متاعبه وتال المبني ؟ كلا . فان خصمه قد يكون — أثناء المقاضاة فى أوروبا أو أمريكا — حوّل حقه الى شخص ثالث من غير جلسيته ؛ فلا يعود من المستطاع تنفيذ الحكم الاستثنائى ضده ؛ ويضطر المتقاضى المسكين الى إعادة دعواه ضد الشخص الثالث المحوّل الحق اليه ، وهو لا يتوقع إلا أن يكرر هذا الشخص أيضا الملعوب حينه ، وهكذا الى ما لا نهاية له فيفضل ، إزاء ذلك ، التنكب عن كل مطالبة !

وفى جميع هذه المراحل القضائية من الإضرار بالمعاملة وتوقيف حركة التجارة والأشغال ، ما نحن فى غنى عن شرحه .

على أن الذى كان يثير الاقتمالات فى النفوس ، ويجعل القلوب على الامتناع الشديد أكثر من ضياع الحقوق المدنية ، على ما كان فى ضياعها من المضايقة ، كيفية القيام بالعدالة الجزائية .



فبينا السلطة المحلية ، في تركيا ، تقبض بنفسيها على المجرم ونحاكمه أمام محاكمها الجنائية ، سواء أارتكب جريمته ضد أحد الأهالي أم ضد أجنبي مثله ، وتتخذ فيه الحكم الذي تصدره تلك المحاكم ، كأنه أحد رماياها ، لا يميزه عنهم ميمز ، كانت السلطة بمصر لا تكاد تنجاسر على إلقاء القبض على الجاني الأجنبي ، وتكاد تحتاج في ذلك إلى استئذان قنصليته ، واحضار أحد قواصمها أو مترجميها ليكون شاهدا على أن القبض لم يتعد فيه الواجب ، ولا سبب اهانة لخصرة المجرم . فاذا قبضت عليه سلمته إلى قنصليته لترى شأنها فيه ، سواء أكانت الجناية واقعة من الجاني على أحد الأهالي أم على أحد الأجانب .

ولما كانت نزوات القنصليات ما عرفنا ، وكانت محاكمة الجناة أمام أقرب محكمة من محاكم بلادهم الأصلية ؛ وكان ، من جهة أخرى ، يصعب ، بل يتمذر إقامة الشينات على ارتكاب المتهم الجنائية المعزوة اليه ، في بلاد تبعد آلاف الأميال عن محل وقوعها ، وفي محكمة يأبى شهود الواقعة السفر للثول أمامها ، وتأدية شهادتهم بين يديها ، كانت النتيجة مائة في المائة ، عادة ، تبرئة ذلك الجاني ، وعودته إلى القطر ، وقد أصبح الخوجا ديمتري نيوبولو ، مثلا ، بعد أن كان مسيروقسطندي ؛ والخوجا مرتينو فينتش ، بعد أن كان الخوجا فيني ؛ وأنه أصبح ذا لحية كثة ، بعد أن كان حليقا ؛ أو حليق الشارب ، بعد أن كان يحمله كأنه عترة زمانه أو أبو زيد الهلالي سلامة ؛ كل هذا كان يجري في قطر عشرة في المائة ، على الأقل ، من التسعين ألف أجنبي أوزيدون ، المقيمين فيه ، من أكبر الأشرار العائنين في الأرض فسادا .

فكانت الحال، إذا، لا تحتمل؛ وجذرية بأن لا يسكت عليها نحو الاستقامة من الأجانب أنفسهم؛ فكيف بالحكومة المحلية، وقد بلغت الروح منها الترقوة في هذا الشأن، وعلا خبيعتها من الاقليات على حقوقها والاضرار بها وبرعاياها.

وكان (اسماعيل)، منذ جعلته كارثة كفر الزيات ولى عهد السنة المصرية، قد أقبل يتبحر في علم الحقوق عامة، وعلم الحقوق الدولية خاصة؛ واتخذ الأستاذ ببنى معلما في ذلك، ومرشدا ومعيئا، حتى أصبح يدرى ماله وما عليه، يوم يقوم على منصة الأحكام، دراية تامة؛ فلم يكن والحالة هذه ليستطيع صبرا على تمتد السلطات القضائية والتنفيذية في بلاده. فأومر الى نوبار باشا، وزيره الحكيم، وأكثر رجال دولته ميلا الى الأخذ بأسباب المدنية المصرية، وأعرضهم بأساليب السياسة الغربية؛ فوضع ذلك الوزير في سنة ١٨٦٧ مذكرة لمولاه فصل فيها، بافصاح ولهجة شديدة، عيوب ذلك النظام القضائي، وسوء تأثير مجاريه على نجاح البلاد وتقدمها المادى والأدبى معا، وبرهن على أنه عقبة في سبيل المصالح الأجنبية ذاتها، وفي سبيل استخدام أصحاب الكفالة من الغربيين لتسليمهم زمام الأعمال والأشغال العمومية التى يحتاج فيها الى علم وفن متخصصين، لا وجود لها في دائرة البلاد المصرية.

مذكرة نوبار  
في سنة ١٨٦٧

فأما أنه عقبة في سبيل المصالح الأجنبية، فلأن الأخذ بمبدأ القانون الرومانى الفاعل « إن المدعى يقاضى أمام المحكمة التابع لها المدعى عليه »، ولأن استئناف الأحكام القضائية أمام المحاكم الغربية في بلاد القنصليات الغربية، موجب لارتباك التقاضى، وضياح الحقوق، فيما يخص بالأجانب، كما أنهما موجبان ذلك فيما يخص بالأهالى سواء بسواء.

وأما أنه عقبة في سبيل استخدام قوى الكفاءة من الغربيين ، فلئن الحكومة المحلية - إزاء تحيز القنصليات لرباطها ، وأخذها بتناصرهم ، محقين كانوا أو على بطل ؛ ولا سيما إزاء التجاء تلك القنصليات الى الوسائل والمؤثرات السياسية في تنفيذ أحكام التضمينات البطارنة التي تصدرها ، وصل الأخص بعد المعر التي ألقي الماخى دروسها الميزة عليها ، وبعد أن لدغت من البحر عينه أكثر من مائة مرة ، مع أنه كان الأجدر بها أن تأخذ بقول النبي صل الله عليه وسلم : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » - أصبحت لا تستطيع مطلقا استخدام أجنبي متخصص في علم أو فن ، لتستغله في مصالحها ، خوفا من أن يسوء استعمال سلاح المطالبة بتعويض وهو السلاح الموضوع في يده من ذلك النظام الجائر .

وختم نوبار باشا مذكرته بأدلة ناصحة تفيد لإفادة تامة ان المتفعين ، وحدهم ، من ذلك النظام إنما هم الآثمون المجرمون ، أولا ، فالمشايخون الخاتلون بملهم ، وقال : « إنه لا يلقى ، لذا ، أن تبقى الحكومة المصرية والدول الأجنبية محافظة على نظام هذه ماهيته ، استبقاء لتجاوزات ضج منها كل الرجال المستقيمة نواياهم ، الحلقة مطالبهم » . وصل ذلك ، اقترح إبدال النظام السيئ المختل ، بنظام آخر يحافظ على روح الامتيازات الممنوحة للأجانب ، وينشئ في الوقت عينه ضمانات لحقوقهم خيرا من التي يتمتعون بها تحت ظل حرفة تلك الامتيازات .

وكان المنتظر أن يقع هذا الاقتراح من الجاليات الأجنبية في القطر موقعه من الحكومة المصرية والمصلحة العامة ؛ وأن يقوم أصحاب الحجا ونبوو الأهتمام ، على الأقل ، في تلك الجاليات الى تحميذه ، وتحرير الفوائد الناجمة عن إخراجهم الى حيز الفعل من إلهام قصيرى النظر والإدراك من مواطنهم .

ولكن الواقع خالف المنتظر مخالفة كلية، وجاء معاكسا له تمام المعاكسة .  
فإن أصحاب الامتيازات، على اختلاف جسياتهم، ما عدا الانجليز منهم، هبوا  
هبة واحدة لتقبيح اقتراح نوبار باشا، والتمسك بالقديم المعمول به، وتحذير حكوماتهم  
من الموافقة على تغييره أو تعديله، بدعوى أن التنكب عنه مفض الى ضياع حقوقهم  
وتعريضهم الى هوى السلطة المصرية الاستبدادية .

المشروع لا يزال  
حظوة لدى  
الحكومة  
الفرنسية

لذلك لما عرضت مذكرة وزير (إسماعيل) واقتراحه على الحكومة الفرنسية —  
لأنها كانت في ذلك الحين صاحبة أكبر نفوذ في مصر وصلت تلك الحكومة لجنة  
خاصة مؤلفة من أفاضل رجال التشريع والقانون في باريس لفحص الأمر وتمحيصه،  
فإن هذه اللجنة بالرغم من الايضاحات الوافية التي قدمها اليها نوبار باشا في ٣ ديسمبر  
سنة ١٨٦٧، إذ كان في تلك العاصمة، وبين بموجبها ماهية الضمانات الموجودة  
لمصالح الأجانب في الإصلاح القضائي المقترح — قررت عدم صلاحية المشروع،  
ووجوب بقاء القديم على ما هو عليه . فصادقت الحكومة الفرنسية على قرارها،  
عقب تقرير عزيز الوزير المسيودي مستفيه ذلك القرار به . فظن الملأ، لحظة، أن  
المشروع المصري ولد ميتا .

ولكنهم ما لبثوا أن رأوا نوبار باشا يهيب ويغند، في رقه على المسيودي مستفيه  
المؤرخ ٢٨ يولييه سنة ١٨٦٨، مزاعم هذا الوزير ويدحضها دحضاً تاماً، وما لبثوا  
إلا وعللوا أن حظ المشروع، لدى الحكومة الانجليزية، كان خير حظ له لدى الحكومة  
الفرنساوية؛ وأن اللورد ستانلي — وهو الذي أصبح، فيما بعد، اللورد دربي —  
وزير الخارجية البريطانية قرر بصراحة أن التجاوزات التي نفثت على الحكومة المصرية  
منها ضائرة حقيقة بمصالح كل أصحاب الشأن، وخير قائمة على وفاق دولي تام، أو مستندة

الى معاهدة أو تمهد البتة ؛ وأنه وعد نوبار باشا بتعصيد حكومة جلالة الملكة ،  
القلبية ، له في كل مجهود يبذله لإزالة الحال المشكو منها ، وتقرير الاصلاح المقترح ،  
فما لو أمكنه الحصول على موافقة باقى الحكومات .

ولما كان هذا الوعد بمثابة تشجيع لنوبار باشا على مواصلة سعيه ، فان (اسماعيل)  
أمر وزيره ببذل أقصى مجهوده لتبيل تلك الموافقة ، وزوّجه بتفويض مطلق ليجرى  
كل ما يراه لازما ، وأن ينفق كل ما يرى انفاقه من النقود في مسيل البلوغ الى  
الغرض المقصود . وانما فتح له اعتادا لا حد له في الصرف لأن الحكومة العثمانية  
رأت ، في تلك الأثناء ، أن تقوم لتعكس المشروع ، وتضئ عليه ، فأرسلت الى  
(اسماعيل) مذكرة تهديدية ورد فيها ، ضمن تغييرات أخرى ، الجبل الآتية : « إن  
سموكم أدرى الناس بأن مصر ، فيما عدا بعض الامتيازات المقررة لشخصكم ، لا تختلف  
في شيء عما مطلقا عن باقى ولايات السلطنة ، ولا يجوز لادارتها الدخول مباشرة  
في محاربات مع الدول الغربية ، أو ربط علاقات معها رأسا . فالمحاربات ، والحالة  
هذه ، التي تحاول إجرامها لتتال ، في مصلحتها ، تغيير المعاهدات القائمة ، إنما هي ،  
في الحقيقة ، تعدييات على حقوق الباب العالى ، وتجاوزات لا يصح السكوت عليها » .

وظاب عن فكر تركيا ما أثبتته ، فيما بعد ، القنصل الأمريكانى إدون دى ليون ،  
في كتابه المسمى "مصر الخديوى" السابق لنا الرجوع اليه مرارا أن فكرة الحكم  
المختلطة فكرة تركية أبديت في الخط المايونى الخيدى الصادر سنة ١٨٥٦ ، وأطلقت  
الى الأمير (محمد سعيد) ليصمم بها . فبرز (سعيد) ككتفيه استخفافا ؛ ولكنه عرضها ،  
مع ذلك ، على قناصل الدول المعممين ، ليروا رأيهم فيها ؛ فرفضوها ، لزعمهم أن  
أناسا كسكان مصر في ذلك العهد — وليتنا نستطيع أن لا نقول كسكان مصر في هذا

العهد، أيضا — يهجمهم أن يعيشوا حياتهم «متفصلين»، وأن يدفنوا منفصلين كذلك بعضهم عن بعض، كل في مقبرته، إذا جمعوا معا ليكونوا محكمة مؤلفة من ستة مسلمين، وأرمنين، ولايتيين، ومسيحيين روميين أرثوذكسيين، ومسيحيين روميين كاثوليكين، وقبطيين أرثوذكسيين، وقبطيين كاثوليكين، وحاخاميين، قد يحتاجون، لكي ينعوا من أن يفتق بعضهم بعضا، الى أن يستعمل معهم، بسطاء، الكرايج<sup>(١)</sup>، أسمى أدوات القضاء الشرقي». • وظاب عنها أيضا أن شريف باشا، في ٧ يولييه سنة ١٨٦٠، أعاد تلك الفكرة الى الأذهان، بدعوى أن الدول الموقعة على معاهدة سنة ١٨٤١ قبلت بإنشاء محكمة مخططة دولية؛ وأنها لم تمارض حينذاك في إخراج اقتراحه الى حيز الوجود؛ مع أن البلاد لم تكن تستفيد منه مطلقا؛ (أولا) لأن المحكمة التي اقترح إنشائها لم تكن لتكون من قضاة ثابتين بمرتبات شهرية معلومة مقررة؛ بل من أفراد يختارون للفصل في كل قضية على حدة مقابل إعطاء الواحد منهم خمسة جنيهات عن كل جلسة تقعد للنظر فيها — وهو ما كان من شأنه حملهم على موالاة عقد الجلسات، وتأجيلها الى ما شاء الله، ليصبوا المغنم الجليل المخصص لهم، لا سيما إذا ساعدتهم على ذلك سعى متفاض سيئ النية، يهجمهم أن لا يبت حكم في قضيتهم؛ و(ثانيا) لأن التأمين الذي فرض دفعه على المتقاضين لرفع دعاوهم الى تلك المحكمة كان بالطبع جسيما جدا، للتمكن من دفع تلك الجنيئات الخمسة الى كل قاض في كل جلسة من الجلسات التي يدعى الى الجلوس فيها مهما كان عددها<sup>(٢)</sup>!

(١) أنظر: "مصر الخديوية" لادون دي ليون ص ٣٠٠

(٢) أنظر في الكتاب منه المصنف التالية لنهاية ص ٣٠٥

ولعل الذى حمل الحكومة العثمانية على عدم المعارضة فى مشروع شريف باشا، ارتياح قلبها الى أنه جعل النظر فى استئناف الأحكام التى تصدرها، ابتداءً، المحاكم المختلطة الملتزمة بمصر، على النمط المذكور، من اختصاص محكمة الأستانة الاستثنائية دون غيرها !<sup>(١)</sup>

فأقبل نوبار، إذا، يدأب ويسعى ليلا ونهارا، ويبدل التقود حيث يجب بذلك، وينفقه إغاثا حكيما، لحمل الصحافة على الانضمام اليه وحده أزره ؛ ويزيل ما علق فى أذهان رجال بطرسبرج وأمثنا من المخاوف، من أن يؤدى الإصلاح المطلوب إجراؤه بمصر الى زعزعة أركان الامتيازات فى باقى أنحاء السلطنة العثمانية، لا سيما فيما كان منها تحت إدارة الباب العالى مباشرة ؛ ويعمل — عقب موت المسبودى مستتبه، واستلام المركز دى لا فاليت زمام وزارة الخارجية الفرنسية — بعهده وقبوله بمهذبا لإجراء محادثات بين فرنسا ومصر رأسا، خارجا عن اشتراك باقى الدول، بخصوص الإصلاح المطلوب — على تهدة بال تلك الدول المترجم، وعلى جمع كلمتها كلها، لا سيما فيما يتعلق بعدم خروج الخديو عن دائرة اختصاصاته وحقوقه فى المسامى المبذولة، بعكس ما كان يزعم الباب العالى، حتى تمكن، بعد سنتين من جهود عنيفة وسفرات متوالية الى أهم العواصم الأوروبية، من حمل الحكومات الفرنسية والبريطانية والنسايوية والبروسانية والروسية والإيطالية : (أولا) على تعيين لجنة مؤلفة من قضاةها بمصر وبعض مبعوثين خصوصيين للاجتماع فى القاهرة، فى شهر أكتوبر سنة ١٨٦٩، والبحث فى مسألة الإصلاحات الواجب إدخالها على النظام القضائى بمصر؛ و(ثانيا) على تفهيم الباب العالى بأنه ليس فى اجتماع تلك اللجنة وبمحا

(١) أنظر : "مصر الخديوية" لادوين دى ليون ص ٣٠٣

ما يس ، بأى نوع من الأنواع ، بحقوق الدولة السيادية ، من جهة ؛ وأنه ليس ما يتحول الباب العالى الحق فى مطالبة الدول بأن كل اتفاق يجرى بينها وبين تابعاته من الولايات ذات الاستقلال الداخلى ، التى تدفع له جزية ، يجب أن يسرى على جميع الولايات الشاهانية ، من جهة أخرى .

فلما تم ذلك ، أُلحِمَ الخديو مجلس النواب فى اجتماعه المنعقد فى شهر فبراير سنة ١٨٦٩ وبشرهم باجتياز حكومته المقبات القائمة فى سبيل إرضاء الحكومات الغربية ، مبدئياً ، بأجراء الإصلاحات القضائية المطلوبة .

اجتماع لجنة الدولية  
بمصر

وفى ٢٨ أكتوبر من ذات سنة ١٨٦٩ اجتمعت اللجنة الدولية بمصر فى دار نوبار باشا ونحت رئاسته ، فأذا بها مشكلة من كل من الحرفون شرايز معتمد دولة النمسا والمجر وقنصلها العام بالقطر المصرى ؛ والحرفون تيريمين معتمد الاتحاد الألماني الشمالى وقنصله العام لدى الحكومة المصرية ومعه الدكتور نيرز نائب قنصل ذلك الاتحاد بالقاهرة ؛ والكزنل ستاتن معتمد بريطانيا العظمى وقنصلها العام فى القطر المصرى ومعه السير فيليب فرئيس القاضى بالمجلس الأعلى البريطانى فى الأستانة ؛ والمسيودى مريتينو معتمد دولة إيطاليا وقنصلها العام بالقطر المصرى ومعه السيودور جياكونى المستشار بحكمة استئناف برشيا ؛ والمسيودى لكس قنصل روسيا العام بمصر ، والمسيودى تيريكو قنصل فرنسا بالقاهرة ومعه المسيودى بيترى القنصل القاضى ووكيل القنصلية الفرنسية بالاسكندرية .

فقدّم نوبار باشا اليها المسيودى باترنسترويك ، والمسيودى كيسل المايمين ، بصفتها مستشارى الحكومة المصرية فى المسائل القانونية ؛ واقترح عليها تعيين المسيودى مونورى



الحامى الفرنسي ، كاتباً لأصرار الجلسات ، فقبل اقتراحه ، واستلم الرجل مهام وظيفته ، وفُتحت الجلسة في الحال .

فأصبح نوبار عن غرض الاجتماع ، وأنه ليس من السياسة على شيء ، وبين الضرورة الداعية الى اجراء الاصلاح القضائى المرغوب فيه ، وسأل اذا كان لا يحسن ، والحالة هذه ، إشراك قناصل الدول ، التى لا تمثل لها ، في المباحثات المزمعة . فاقترح قنصل الاتحاد الألمانى الشمالى استدعاء قنصل اليونان العام ، على الأقل ، بسبب عدد اليونان الكبير ، المقيمين بالقطر ، ولكن المسيو تريكو قال : إن المندوبين غير مختصين باستدعاء أحد ، وإن مخاطبة قنصليات تلك الدول ، وإخطارها بانعقاد اللجنة ، وإلغات نظرها الى المناقشات الدائرة ، لشأن من شؤون الحكومة المصرية . فصودق على رأيه ، وبوشرت الأعمال .

فقرر المندوبون ، أولاً ، أن الآراء إنما تكون استشارية ، لا تحقيد دولهم في شيء ، ثم سلم نوبار باشا كل واحد منهم نسخة من المشروع ليكون قاعدة للمناقشات التالية . فرغب مندوبو روسيا اليه بأن يعطى كلا من المندوبين نسخة ، أيضاً ، من التقرير الذى ردت به اللجنة الفرنسية بباريس على اقتراح الحكومة المصرية . فأجاب نوبار بالإيجاب . وتأجلت الجلسة الى يوم السبت ٦ نوفمبر ، للمناقشة في صوابية إحلال قضاء واحد مشمول بالضمانات الكافية محل القضاة السبعة عشر الموجودة في القطر .

وفي جلسة ٦ نوفمبر بحثت اللجنة ، أولاً ، فيما اذا كان يحسن أن يقدم بأعمالها تقرير عام ، أم يكفى بتقرير فردى يقدّمه كل مندوب عن رأيه الى دولته . فبعد ما دارت المناقشة في ذلك بين الأعضاء ، قرر مندوبو النمسا والمجر وبريطانيا العظمى

وأيطاليا والروميا وجوب وضع تقرير عام يوقعه الجميع . ورأى مندوبو الاتحاد الألماني الشكلى أن لا يكون ، هناك ، شغل عام . وذهب مندوبو فرنسا الى أن اللجنة بلجنة تحقيق ، وأن لا داعى ، بالتالى ، الى أخذ الأصوات فى هذه المسألة ولا فى غيرها .

ثم سأل نوبار باشا الأعضاء عما رآه كل منهم فى المشروع الذى أعطيت اليه نسخة منه فى الجلسة الماضية . فأجل مندوب النمسا والمجر رده ريثما يصل زميله المرفسكوه من أوروبا . وقال مندوبو الاتحاد الألماني الشكلى انه يجب معرفة ما هى الأدوات المشتكى منها فى النظام القضائى القنصل ، قبل البحث عن الأدوات التى يجب أن تعالج بها . وانبرى المسيو چيا كوني فأوضح أن النظام القضائى القنصل لا يجوز فى شئ على المعاهدات الامتيازية والعادات ، ولكنه يجب مراعاة فى سبيل العدالة وانتشار قوى المدنية فى القطر المصرى ، كما أن نظام المحاكم المصرية يوجب مثلها وأكبر شأنها . وأبان ، بالتالى ، أن الطريقة الوحيدة لإصلاح ذلك هى ما تقترحه الحكومة المصرية من إنشاء محاكم فى بلادها على النمط الأوروبى ، ومن سن تشريع يتناسب مع التشريع الغربى . ثم تكلم بما يفيد أنه درس المشروع درساً تاماً . واقترح تعديلات جملة معقولة عليه — أخذ فيها بمد معظمها — وتلا السيور چيا كوني الكرنل ستانتن ، قرأ ، باسمه واسم زميله ، مذكرة ذهب فيها الى أن نوبار باشا اختار الطريق القويم لإصلاح الخلل الموجود فى القضاء بمصر ، سواء أ كان قنصلية أم أهلية ، وأنهما — مع ابدائهما بضع ملحوظات خاصة بكيفية انتخاب القضاة الغربيين فى المحاكم الاصلاحية المنوى نشاؤها ، وموضوع الرئاسة ، وعناية الدفاع فيها ، والمهام أمامها — يريان من واجبهما تمضيده فى أمر إيجاد الأدوات اللازمة ، حالما يتوسع فى شرح مشروعه المجهمل . ثم قام المندوب الرومى ، ومع اعترافه بصوابية ابدال النظام القضائى القنصل

المتعمد بنظام قضائي موحد، قال إنه يجب، قبل قبول اقتراحات الحكومة المصرية، البحث في مقدار الضمانات التي تقدمها، وصلاحياتها، فتقرر مدة معينة تستغل فيها المحاكم الجديدة، على سبيل التجربة. أما المندوبان الفرنسيان، فأصرّا على وجوب بحث ماهية الأدواء، قبل الافتكار بما يكون الدواء.

وبما أن أغلبية المندوبين أجمعت على أن توحيد القضاء خير من بقاءه موزعا، متضاربا، وطلبت من الحكومة المصرية تقديم مشروع مستوف، تام الايضاحات، ومبين الضمانات كلها، ارفضت الجلسة على أن يقدم نوبار باشا تلك الايضاحات في الاجتماع التالي.

وفي يوم السبت ١١ ديسمبر انعقدت الجلسة في دار نوبار ونمت رياسته، وقد انضم الى اللجنة عضوان جديان: هما المرفون فسكوه أنديتلجن المندوب النمساوي الثاني، وكان مستشارا في مجلس الامبراطورية الأوليكي الأصل، والمسيو أوبرملر المندوب الروماني الثاني، وكان نائب قنصل روسيا بالاسكندرية. فافاض نوبار باشا في بيان الأضرار الناجمة عن نظام القضاء القنصل، والملازمة له ملازمة لا سبيل الى تجريده منها، مهما كانت شخصية القناصل، وشرح مشروع الحكومة شرحا وافيا، وأجاب على ما أبداه المندوبون الايطاليون والبريطانيون من التعديلات.

فاجمعت آراء الكل، ما عدا المندوبين الفرنسيين، على وجوب هدم لأنحة ترتيب المحاكم المنوية، مفصلة بالتدقيق، لإمكان المناقشة فيها. وأما المندوبان الفرنسيان، فقالا انه يجب على كل مندوب أن يقتدى بالايطاليين والبريطانيين، ويقدم ملحوظات شخصية على المشروع الأصل، لتتباد الحكومة المصرية تتورا. فقال نوبار: ان الحكومة المصرية انما تقابل، بكل اذياح وسرور، كل ما من شأنه

زيادة اطمئنان الغربيين الى المحاكم الجديدة ؛ ووعد بتقديم لائحة ترتيب لها ، مفصلة تفصيلا تاما ، في الجلسة التالية .

هذه الجلسة عقدت في يوم الأربعاء ١٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩ ، مشكلة كسابقاتها وفي المكان عينه . فقدم المندوبان الفرنسيان تقريرهما فيها ، وتلاه . فاذا به يجيز النظام الفصل القضائي ، ويدفع كل عيب عنه ؛ ويرى أن الأهالي إنما استفادوا من وجوده ، وأن من لحقهم ضرر منه ، في الحقيقة ، إنما هم الأجانب ؛ ولكنه اعترف ، مع ذلك ، بأن توحيد القضاء خير من إبقائه موزعا ؛ وتناول مشروع الحكومة ، فحصره ، وحجبه ما رأى تحييزه فيه ، وانتقد ما رأى انتقاده ، وصل الأخص في باب الضمانات المقدمة والمطلوبة . وأهم ماورد فيه وجوب حضور مندوبين خصوصيين ، تعيينهم الدول غير القضاة ، جلسات المحاكم ، لإبداء آرائهم في القضايا المعروضة عليها ؛ وانشاء محكمة تميز ، فوق محكمة الاستئناف ، تكون تحت رئاسة وزير الحفانية — وبما أن هذه الوزارة لم تكن موجودة ، فإن التقرير أشار بانئسابها — وتوحيد القانون في المواد التجارية والمدنية على السواء .

ثم قدم نوبار باشا لائحة ترتيب المحاكم الجديدة ، التي وعد بها . فأجمعت الآراء على أن تجعلها اللجنة ، مجتمعة ، في الجلسة التالية ، بعد مناقشة دارت على اقتراح قدمه المسيو تريكو ، وعضده فيه زميله الفرنسي ، مؤذاه تكوين لجنة خاصة لدرس تلك اللائحة ، وتقديم تقرير عنها .

وفي جلسة ٢١ ديسمبر سنة ١٨٦٩ — وقد انضم الى أعضاء الجلسات السابقة المستر تشرلز هيل معتمد الولايات المتحدة الأمريكية وقنصلها العام بالقطر المصري ، بناء على تعيينه من قبل دولته — انتقد مندوبا النمسا والمجر كيفية وضع اللائحة الترتيبية

للمحكمة الإصلاحية، المقسمة من نوبار باشا، لأن فيها حشوا أو تقصيرا، ومرضيا لائحة من صنع المحرفون فسكوه إجمالية ومفيدة. فبعد مناقشة لمعرفة أى اللائحتين تعرض للبحث، وفيما إذا كانت يحسن تعيين لجنة لتحضير لائحة ثالثة تجمع بين آراء المندوبين كافة، تناول نوبار باشا بكل بساطة اللائحة التي جهزتها الحكومة المصرية، وقرأ: «هيا! لنناقش. فليس الأمر كما ترون صعبا!» فدارت المناقشة، وإذا، على مواد تلك اللائحة. فغذف منها اختصاص المحاكم بالنظر في القضايا القائمة بين أجنبي وأجنبي من جنسيتين مختلفتين، ولو أن جميع المندوبين أجمعوا على ترضيب حكوماتهم في تقرير اختصاص تلك المحاكم بذلك، وعدلت تسمية المدن التي تنشأ فيها، وقدر بعد مناقشة حادة إنشاء محكمة تميز، ولما اتضح أن السير في المناقشات، على ذلك النمط، يطيل المباحث، ويستغرق زما طويلا، اتفقت الآراء على تعيين لجنة لترتيب مواد اللائحة، طبقا لمنطقية تفرع الأفكار من نصوص كل مادة. فانقضب كل من حضرات المندوبين فرنسيس، وفسكوه، وجاكوني، وبينترى أعضاء تلك اللجنة، تحت رئاسة نوبار باشا.

وفي جلسة ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٦٩، طرحت اللائحة، كما عدلتها اللجنة، على بساط البحث أمام اللجنة العامة. فناقش المندوبون موادها في تلك الجلسة وفي جلسة ٢٨ ديسمبر التالية، فانضح أن كثيرين منهم، على ما ليسهم من المعلومات وبالرغم من حسن نياتهم، كانوا متشبعين تشبعا تاما بمؤثرات مصالح الرعايا الغربيين الوهمية، لا الحقيقية، وعوامل الرغبة في المحافظة على الامتيازات القنصلية، بصفة أن معظمهم أعضاء في الجسم القنصل العام. فنجم عن ذلك أن المباحث جرت في طريق وعمر، شائك، وأن مهمة نوبار باشا ظهرت مخوفة بمخبطات أكثر وأكبر مما كان يتوقع.

ولكنه تجلده وتقوى ؛ ونمت عزيمته على قدر ارتفاع العقبات والصعوبات أمامها ؛ وتدرج بحكمة ولطف وسعة صدر ، حيث كانت هذه الصفات واجبة ؛ وبروح منكثة انتقادية ، حيث كان يستحب دحض المزاعم بلمحة أكثر منه ببرهان وحجة ؛ وأظهر من هتق اللعن وحضوره ما كان لا بد له منه من التغلب على كل مقاومة . وأشد ما دارت المناقشة فيه كان :

(أولا) على مسألة إنشاء محكمه تميز فوق المحكمين الابتدائية والاستئنافية . فنزح إنشائها مبدئيا ، على أن يعين قانون المرافعات ، فيما بعد ، دائرة اختصاصاتها .

(ثانيا) على مسألة الرئاسة في المحاكم العتيدة ، وهل تكون لمصرى أم لأجنى .

تقرر ، فى النهاية ، رأى المسيو جيا كرنى : بأن تكون لمصرى ، على أن لا يرأس سوى الدوائر التى يقاضى أمامها الأهالى بعضهم بعضا ، واجتباعات المحكمه الصموميسه ، وفى الرصميات ؛ وأن تكون لأجنى ، فيما صد ذلك ، على أن يدعى الرئيس الأجنى ويكلا ، لا رئيسا . وحفظ نوبار باشا للمصريين الحق فى الرئاسة ، مطلقا ، حالما يوجد بينهم من يكون لها كفو .

(ثالثا) على مسألة كيفية اختيار القضاة الأجانب وتمييزهم : هل يكون ذلك من حقوق الحكومة المصرية ، أم من حقوق الحكومات الأجنبية ؛ وهل تضمن للقضاة المعيين مراكرم فى بلادهم يعودون إليها اذا غادروا خدمة الحكومة المصرية ، أم لا . فتقرر بأن الاختيار والتميين يكونان للحكومة المصرية ، على أن لا تستدعى إلا من توافق حكومته على تعيينه ، بعد أن تطلب من وزارة الحفانية ، فى كل دولة ، بياناً باسماء القضاة المشهورين باللياقة والكفاءة ؛ وأن الحكومة المصرية لا تدخل ، مطلقا ، فى أمر ضمانه حفظ مراكرم المعيين لهم فى بلادهم .

(رابعا) على مسألة تحويل الحق للأفراد في التماس محاكمة أى قاض من القضاة الأجانب؛ وهل تكون محاكمته بمعرفة أعضاء أعلى محكمة مختطة، أم بواسطة محققين يشخبون من أفراد الجاليات، حفظا لثقافتها في القضاء الجديد . فقوض نوبار الرأى في ذلك للتدوين، لعدم وجود مصلحة للحكومة المصرية في الشأن مطلقا . ولكنه قال : إن السليور جاكونى، صاحب الاقتراح، يبالغ في الأهمية التى يلقها على قلق الجاليات واضطرابها المحتملين؛ لأن ذينك القلق والاضطراب ناجمان، في الحقيقة، عن جهل الجاليات ماهية المباحث الدائرة . وأثبت كلامه بأن ما تقررته اللجنة، منذ البداية، من عدم اختلاطها بالخارج وجعل مداولاتها وأبحاثها أمرا سريا، انتهاء لكل تشويش آدى، بعكس المقصود، الى اضطراب جبل الطمأنينة في صدور تلك الجاليات الغربية، وإقدامها على ضروب من الحسد والتخمين جعلت كل من يقابله من ذوى الخوف على مصالحهم يبدى له اعتبارا من نوع ما يأتى : « اذا قد عزمت على جعلنا أتراكا؟ » أو «هكذا تقررتم أن تسلموا زمام التحكم فينا للأتراك»؛ وأدت الى إطلاق عقول بعض التدوين أنفسهم، كما هو المشاهد من أقبالهم على بث غاوتهم في الجلسات . على أن ذينك القلق والاضطراب يزولان متى علمت حقيقة المباحث ومراميها، والنتائج التى تؤدى إليها .

تقرر، بعد ميل معظم التدوين الى تحكيم أعضاء أعلى محكمة غخططة في الطعون التى تقدم ضد القضاة، أن يحفظ البت نهائيا في الأمر الى نصوص قانون المرافعات المزمع وضعه .

(خامسا) على مسألة تعيين نيابة عمومية، على ما هو عليه في أوروبا، لدى الحاكم الجديدة أم عدم تعيينها . تقرر تعيينها؛ وأنت يكون، مبدئيا، اختيار رئيسها وزجلها — ومعظمهم من الأوروبيين — كاختيار رجال القضاء .

(سادما) على مسألة اختصاص المحاكم الجديدة ؛ وهل تحكم في القضايا بين  
أجانب من جلسات مختلفة أم لا . فاشتد البحث في ذلك بين السيور جياكوني ،  
القائل باختصاصها ، والمسيو پيتري ، القائل بملءه . فانضم المسيو تريكو الى زميله ،  
وقال بأن القنصليات الفرنسية ترى نفسها مختصة بالنظر في ذات المنازعات القائمة  
بين الرعايا التابعين لها على عقارات موجودة في بلاد الدولة العلية ، بما فيها القطر  
المصري ؛ فلا ترى أن تتخل عن النظر في القضايا الشخصية المرفوعة من أجنبي على  
فرنساوي . فسأله الكرنل ستاتن : « بموجب أى قانون ترى نفسها مختصة بذلك ؟ »  
فأجاب : « بموجب الأمر العالى الصادر من ملك فرنسا سنة ١٧٧٨ » فقال  
نوبار باشا : « إنه لم يكن ، في ذلك العهد ، من ملك عقارى للأجانب في بلاد  
السلطنة العثمانية ، بل لم يكن لهم حق اقتناء ملك عقارى فيها على الإطلاق ؛ وأن  
(محمد على) الكبير كان أقل من منحهم عقارا ، حتى الكائنس ، ليجب اليهم الزواج  
الى القطر والإقامة فيه ، لهاده » . فقال السيور جياكوني : « ما هنا كنيسة القديس  
مرقس والقديسة كاترينا ، بالاسكندرية : فانها كانت ، منذ زمن مليد ، ملك  
البندقيين ! » فقال نوبار : « إن هذا الاستثناء يؤيد القاعلة ! » ثم أثبت ، بأدلة  
قاطعة ، أن تعرض القنصليات للحكم في القضايا العقارية ، تجاوز ، لا حق . فواقفه  
على ذلك المسدويان الانجليزيان . وختم نوبار البحث في هذه المسألة برجاء قلته  
الى المسدويين بأن يعلموا دولهم بكيفية دخول ذلك التجاوز في نظام الامتيازات  
القنصلية ، وصيرورته بنير حق جزئا منها .

(سابعا) وأخيرا ، على مسألة تنفيذ الأحكام التى تصدرها المحاكم الجديدة . هل  
يكفى باخطار القناصل بها ، وإحاطتهم علما بيوم التنفيذ وماعته ، بدون أن يكون



لم حق في المعارضة في التنفيذ ، كما أشار السنيور جياكوني ، أم يجب أن تشترك في التنفيذ السلطان الخلية والقتضلية ، كما أشار المسيو بيترى ؟ فاحتم ، هتا ، الجلال بين الأعضاء احتداما عتيفا . وأبدى المندوبان الفرنسيان من الصحافة في الرأي ، والتمنت ، العجب العجاب ، حتى لقد يخيل للطلع على المناقشة أن يتساءل : « كيف أمكن لعقل رجلين من ذوى النباهة كالسيو تريكو والمسيو بيترى ، أن لا يفهما الايضاحات والبيانات الجلية المقدمة من نوبار باشا ؟ » وبعد أخذ وردّ طويلين ، أجمعت الآراء على أن رأى السنيور جياكوني أخرى بالاتباع من رأى المسيو بيترى .

وفي جلسة ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٦٩ طرح نوبار باشا على بساط البحث مسألة الاصلاح الجزائى ، وطلب الاهتمام بها ، وبين ماهية الضمانات التى ترى الحكومة المصرية أن تقدمها ، لتسكن القلوب الى إجراء ذلك الاصلاح .

فأجمع رأى المندوبين على أن الحال القضائية بمصر أحوج الى الاصلاح الجزائى منها الى الاصلاح المدنى ، ماعدا المندوبين الفرنسيين ؛ فانهما زعما أن إجراء أى تعديل كان فى النظام القضائى الجزائى يعدّ تمديدا على الامتيازات ، وأنهما لا يستطيعان ، والحالة هذه ، اقراره ولا المناقشة فيه ، ولو أنهما يحضران المناقشة ، لإبلاغ حكومتها ما يدور فيها .

فتسرع فى بحث مواد المشروع الذى جهزه نوبار باشا . وما بدئ فيه إلا وأبهر السنيور جياكوني ، وأثبت بأفصح بيان ، وجوب إجراء الاصلاح الجزائى لنيل غرضين لا بد من توخيها فى وضع نظام أى عدالة جزائية كانت وهما : حماية الهيئة الاجتماعية من الآثمين ، بضرب سريع على يد المذنب يكون عبرة لمرتكبي الجرائم ، وتحديم الترضية الكافية للجنى عليهم . والنظام القضائى القنصلى خلو منهما ، لأن

التحقيق فيه يعمل كتابة، ويرسل الى المحاكم الجزائية في البلاد الغربية لتحكم فيه ، مع أن المجمع عليه في التقنين الأوروبي هو أن التحقيق كتابة أمر لا يجب أن يؤبه به . ولو قامت القنصليات بإرسال شهود كل واقعة الى الخارج ، لتكلفت نفقة فوق حد الطاقة ، كما حدث له في سنة ١٨٦١ ، إذ كان قاضيا إيطاليا بمحكمة الاسكندرية القنصلية وأرسل شهود متهم تسكن الى أوروبا ، عملا بالنظام التسكاني : فكلفه مجزء لإرسالهم ، ماعدا المصاريف الأخرى ، عشرة آلاف فرنك ، وكما كان يحدث للقنصلية الإنجليزية حينما كانت تحكم الجناة بمصر أمام محكمة الجزاء بالطلعة . فانها كانت تعطى الشاهد أحيانا ثمانين فرنكا في اليوم ، فوق مصاريف سفره في الدرجة الأولى ، ناهبا وإياها ناهيك بما قد ربح في الأثمان من أن المدالة الخارجية لاضمانة فيها للترضية الكافية ، الواجب هديهما لمصالح المني عليه ، وأن الجناة ، المرسلين ليعا كوا أمامها ، كثيرا ما يسودون وقد برئت ساحتهم ، لعدم توفر أدلة الادانة أمام ذلك القضاء ، مع كثرة توفرها حيث ارتكبوا جنائياتهم . فلا دواء ، والحالة هذه ، لهذا الخلل إلا بإنشاء محاكم جزائية مغلطة منظمة ، كالتي تقترح الحكومة المصرية إفتشاءها ، وبترتيب هيئة محلفين ، يؤخذون من بين وجوه الجاليات الأجنبية وسراتها ، ليساعدوا القضاء في مهمته .

فقال المسيو بيطرى : أن لا شيء يزجج الجالية الغربية أكثر مما لوقيل لها إنها ستحاكم أمام محاكم القطار الجزائرية ، بدلا من أن تحاكم أمام قنصلياتها . وأعلن المرفون شرايز أحد المنبشرين النمساويين أن ما يخاف منه ، في الحقيقة ، هو أن لا تكون الحكومة المصرية مغلطة في تنفيذ ما قد يقصد من الانخافات بينها وبين الحكومات الغربية في هذا الموضوع .

فنض نوبار باشا، وبند ذلك الخوف بحجج قاطعة، وأظهر أن مصلحة الحكومة المصرية ومصلحة الدول الغربية متفقتان تمام الاتفاق في تنفيذ كل عقد يعقد بين الفريقين في موضوع الإصلاح المرغوب فيه من الفريقين على السواء، ودحض مزاعم المسيو بيترى قائلا : ان الجالية الغربية ستحاكم أمام محاكم منتظمة على الطريقة الأوروبية، مشكلة معظمها من قضاة ينخبون في أحضان الهيئة القضائية الغربية، في بلاد الغرب حينها، وأمام محلفين من وجوه رجال الجالية ذاتها، ولو أن الأحكام تصدر متوجة باسم خديو مصر، لا أمام محاكم محلية محضة .

فأبى المسيو تريكو إلا الاستمرار على التمسك بحرية الامتيازات، مؤكدا، مع ذلك، أن القناصل لا يرغبون في شيء أكثر من تخليهم عن السلطة القضائية، على شرط أن يعطوا الضمانات الكافية لتسكين ضمائرهم .

فصادت اللجنة، حيثئذ، الى بحث مشروع الحكومة المصرية الجزائي ليلم وقوفها على مقدار الضمانات المقترحة فيه وماهيتها . وأهم ما دارت عليه المناقشة كيفية تكوين هيئة المحلفين ؛ غير أن الآراء أجمعت، في نهاية الأمر، على ترك شأن تكوينها الى نصوص قانون المرافعات الجزائية ، والاكتفاء بوجوب تقرير تلك الهيئة ، مؤقتا ، بصفة ضمانات للتممين .

فاكد نوبار باشا أن الحكومة المصرية ستجهز قانون عقوبات وقانون تحقيق جنائيات تامين، وستعرضهما على المندوبين : إما ليدرسوها ، وإما ليرسلوها الى حكوماتهم . قشبت المسيو تريكو بأنه لا صفة للمندوبين الفرنسيين لفحص مثل هذين القانونين . فقال نوبار : « لا بأس، فالمندوبون الآخرون لا يرون هذا الرأي » .

وأجمعت الآراء هذه المرة ، بعد أخذها من جديد ، على وجوب وضع تقرير إجمالى بنتيجة المباحث ، يوقعه المندوبون ، ويرسلونه الى حكوماتهم . ولكن المندوبين الفرنسيين خالفا لاجماع ، واحتفظا دون غيرهما برأيهما الأصل .

وفى جلسة ٥ يناير سنة ١٨٧٠ قرأ نوبار باشا مذكرة وضعها الكرنل ستاتن ، مفادها تأجيل ترتيب المحاكم الجزائية سنة بعد ترتيب المحاكم المدنية ، ليخخذ من سير هذه مشجعا على إنشاء تلك ، أو مشبطا له .

وكانت قد وقعت فى أيام يناير الأولى حركة ضوضائية بالاسكندرية اضطرب لها الأمن العام — فقال نوبار بعد فراقه من تلاوة تلك المذكرة : «ان هناك خطرا فى التأجيل ، وأن الأفضل إجراء الاصلاحين المدنى والجزائى معا» .

فعارضه المسيو تريكو وقال : «بل الأفضل تأجيل إنشاء المحاكم الجزائية الى أن تثبت المحاكم المدنية كفاءتها ، وتجعل القلوب ساكنة الى ما تقدمه لها من ضمانات ؛ وأن الذنب فى الحوادث الأخيرة على رئيس البوليس » فرد عليه نوبار باشا بأن البوليس بوليس القنصليات ، فى الحقيقة ، لا بوليس الحكومة ؛ وأن الذين قاموا بالحركة الإثمية الأخيرة إنما كانوا أوروبيين ؛ أى أن رئيس البوليس لم يكن يستطيع أن يقبض عليهم ويمرئ التحقيق معهم إلا بتصریح من قناصلهم ؛ وأن إلقاء اللوم ، والحالة هذه ، على البوليس المصرى أمر لا يتفق مع الانصاف .

فأعاد المسيو جياكونى كرتة ؛ وأعلن انضمام المندوبين الايطاليين الى رأى الكرنل ستاتن . اذا لم يؤخذ برأيهما المؤيد لرأى نوبار باشا فى وجوب إجراء الاصلاح الجزائى حالا . فلم يبق سوى المندوبين الفرنسيين أحد إلا ووافق على ذلك . ورفضت

الجلسة بعد أن نيظ بلجنة مؤلفة من السير فرنسيس والسليور جياكوني والمسيو بيترى، تحت رئاسة نوبار باشا، تجهيز مشروع التقرير الواجب وضعه بأعمال اللجنة حتى ذلك العهد .

وفي جلسة ١٧ يناير سنة ١٨٧٠ قرئ مشروع التقرير هذا؛ فوقعه الجميع، ما عدا الدكتور نيرز، وكان مريضاً، والمرفسكوه، وكان قد سافر . ثم قال نوبار باشا : «إن الحكومة المصرية ستجهز قانوناً للرافعات ريثما تأتي تعليمات للندوين الفرنسيين والنسوين من لندن دولهم، تصرح لهم بالمناقشة فيه » .

وما لبثت اللجنة أن حررت التقرير، وبيلت فيه ما آل إليه مشروع الاصلاح المقررها المواق المقترح من الحكومة المصرية، فيما يتعلق بترتيب المحاكم الجديدة، والقضاء في الأمور المدنية، والتجارية، بعد تعديله وتحويره، فاذا به ما يأتي :

(أولاً) استبدال الحالة القضائية الفوضوية ذات الجهات الاختصاصية المتعددة بسلطة واحدة تكون مختصة بالفصل فيما بين الأهالي والأجانب على السواء ، تسلم مقاليدها الى ثلاث محاكم ابتدائية تنشأ بالاسكندرية ومصر والقاري (أو الاسماعيلية) ومحكمة استئنافية عليا تجلس بالاسكندرية، ومحكمة تميز فوقها، تشكل مثلها .

(ثانياً) جعل أغلبية القضاة فيها كلها من أرباب القضاء والقانون الغربيين ، تدفع الحكومة المصرية لهم مرتباتهم، ولا تملك حق عزلهم أو تأديبهم ، بل يفوض ذلك الى الهيئة التي سيخولها هذا الحق القانون النظامي الأساسى المزمع وضعه ..

(ثالثاً) تحويل هذه المحاكم حق الاختصاص بالنظر في جميع القضايا التجارية والمدنية، والقضايا العقارية، والقضايا الشخصية عنها إلا ما كان منها قائماً

بين أجنبيين من جلسة واحدة، وفي جميع المنازعات، الناجمة عن الرهون التي تسجل في مصلحة أجنبي على الأعيان الثابتة، أيا كان مالكوها وواضعو اليد عليها، حتى لو كانت وقفا.

(رابعاً) أن يكون أعضاء كل محكمة ابتدائية خمسة: ثلاثة أجانب ووطنين، وأعضاء المحكمة الاستئنافية العليا سبعة: أربعة أجانب وثلاثة وطنيون.

(خامساً) أن يكون الحق للدول الموقعة على مشروع الإصلاح القضائي هذا، بعد مرور خمس سنوات على تحقيقه، أن تعتله بالانضمام مع الحكومة المصرية، إذا رأت موجبا لتعديله، أو تلغيه، وتقرر العود الى الحال السابقة، اذا اتضع لها أصوية ذلك.

وقررت اللجنة، فيما يختص بالإصلاح الجزائي، ما يأتي:

(أولاً) أن تحكم المحاكم الجديدة في قضايا المخالفات البسيطة، أو تتدخل قاضياً منها لمحكم فيها، على أن يكون هذا القاضي أجنبياً، اذا كان المخالف أجنبياً، وأن تستأنف الأحكام متى قضت بجنس.

(ثانياً) أن وحدة القضاء في باب الجنايات والجنح أمر ضروري لتأمين عموم المصالح، مهما اختلفت جنسيات أصحابها، على أن يسبقها بحث دقيق في الضمانات الناجمة عن تشريع تام يشمل القانون الجزائي وقانون تحقيق الجنايات.

(ثالثاً) أن يجرى الإصلاح القضائي في الأمور المدنية والإصلاح القضائي في الأمور الجزائية معاً، وإلا فنشأ المحاكم الجزائية بعد مرور سنة على تأسيس المحاكم المدنية التجارية وعملها، وظهور صلاحيتها للجميع، ظهوراً لا ريب فيه.

ثم أسرع كل من المنتوين وأرسل نسخة من هذا التقرير الى دولته ، واستعدت نوبار باشا للسفر الى الأستانة لينال المصادقة على المشروع من الباب العالي .

بلقة باريس  
لنقص المشروع

وما لبث أن ورد على الخديو تفراف من باريس يفيد تشكيل لجنة هناك، تحت رئاسة وزير الخارجية - وأن المسيو دى لسبس، المعروف بميله الكلى الى تضيق الاصلاح المبني، عضو فيها - للنظر فيها اذا كان يصح التسليم بالمبادئ التي ارتكبت عليها لجنة القاهرة لاعتبار الاصلاح واجبا أم لا .

مراقبة انجلترا

وورد بعد ذلك بأسبوع على الكرزل ستاتن نبأ من الحكومة البريطانية يفيد أن هذه الحكومة رأت، بعد الفحص، وجوب إجراء إصلاح لتوحيد القضاء بمصر، ولكنها لا تستطيع قبول ما قرره لجنة القاهرة، كليا أو جزئيا، إلا بعد الاطلاع على القوانين الموعود بوضعها، وقبولها .

تشكيل لجنة  
إيطالية بفلورنسا

فبلغ ستاتن ذلك بكثاب الى نوبار باشا، وأعلم هذا الوزير الخديو؛ فقال (اسماعيل) المعتمد الايطالى في القطر؛ وألح عليه في إبلاغ ذلك الى الحكومة الايطالية؛ وطلب استصدار قرار منها شبيه بقرار الحكومة البريطانية . فصدع دى مرتينو بالطلب؛ وأجابت الحكومة الايطالية طبق المرام؛ ثم شكلت، هي أيضا، لجنة لدروس المسائل المقدمة اليها من لجنة القاهرة .

وحوالى العشرين من شهر مارس سنة ١٨٧٠ وصل نوبار باشا الى الأستانة؛ وقابل على باشا مرتين متواليتين . فقال له الصدر الأعظم ان الباب العالي لا يرى اعتراضا على موضوع الاصلاح؛ وأنه مستعد لمساعدة جهوده، بحيث يضمن نجاحها؛ على أنه يرى، ضمانه لحقوق السلطان السيادية، أن تصدر ارادة «سلطانية»

أولا ، تمنح الحكومة المصرية اختصاصات ومزايا جديدة خاصة بالفرض الذي تسعى إليه ، تخوفا حق عبارة الدول في شأنه .

ولكنه عاد بعد ذلك ورفض المشروع برئته رفضا باتا ، وأعلن نوبار بعدم رضا  
رفض تركيا  
الباب العالي به مطلقا .

فوقع هذا الرفض موقع الاستغراب من عموم سفراء الدول بالاستانة . فاستغفروا ، فقيل لهم إن البالي العالي يترض : (أولا) على أن يكون القضاة الأجانب في المحاكم المتبناة أكثر عددا من القضاة الوطنيين ؛ (ثانيا) على اختصاص تلك المحاكم بالنظر في القضايا التي قد يكون للإدارة المصرية فيها دخل ؛ (ثالثا) على اختصاصها ، أيضا ، بالنظر في القضايا المرفوعة بشأن أحيان ثابتة ؛ وأن الباب العالي إنما ينظر الى المشروع برئته ، من الوجهة السياسية ، فلا يرى أن يكون لمصر مركز استثنائي فيما يتعلق بالنظام القضائي : فإما أن يتناول الإصلاح السلطنة كلها ، وإلا فإنه لن يتناول إقليميا منها دون غيره .

فأسف السفراء لذلك . ولكن نوبار باشا ، الخبير بأحوال الاستانة ، أظهر لهم أنه لا يئاس مطلقا من نيل مبتغاه ، بالرغم من نزاهة طلي باشا الشاذة ، ومن معاداته الشخصية للحمديو .

في الوقت نفسه ، وكأن الأقدار أرادت أن تهون على الحكومة المصرية وقع الرفض العثماني ، ورد عليها من حكومات روسيا وبروسيا والولايات المتحدة ما يفيد قبول هذه الدول الإصلاح القضائي مبدئيا ؛ ولو أنها أبدت تحفظا فيما يختص بالضمانات المقترحة وقبول باقي الدول ذات الشأن بها .

مواثقة  
روسيا وبروسيا  
والولايات المتحدة  
على الإصلاح  
القضائي



وكانت حركة الأفكار في الجاليات القريبة بالقطر قد قامت على قدم وساق . فاجتمع لدى المسيو موشكور ، نائب الأمة الفرنسية بالاسكندرية ، وجوه الفرنسيين القاطنين الوادى الخصب ، وتداولوا في الواجب عمله . فاجمع رأى أظليتهم على استحسان المشروع الاصلاحى ، عامة ، بعد إدخال بعض تعديلات عليه . ولكن فئة منهم ذهبت الى عكس ذلك ؛ وما علم أعضاؤها بتكوين اللجنة بباريس لمراجعة أعمال لجنة القاهرة وقراراتها ، وتحصيل ضمتها من سميتها ، إلا وأرسلوا الى رئيسها الرسالة التالية : « نحن الفرنسيون نرانا مضطرين الى التأكيد أن هذا الاصلاح المزعوم سوف يكون نحرابا لنا ! » .

مدون الباب المال  
عن الرض

وكان نوبار في تلك الأثناء قد سعى وهو عالم أن سميه ليرتجى . فأوقفه على باشا على الشروط والتعديلات التي يرى الباب العالى وجوب إدخالها على المشروع ، ليحوز قبوله . فما زال الوزير المصرى رجال الديوان حتى حملهم على الاعتقاد بأن الاصلاح القضائى الراغبة الحكومة المصرية فى إدخاله إنما هو شأن من شؤون القطر المصرى الادارية المحض ؛ ومع أنه سلم ، مبدئيا ، بتعديل الأوجه الثلاثة المعترض من الباب العالى عليها التعديل المطلوب من رجال الأستانة ، وقبل أن يعتبر تعيين القضاة الأجانب شيئا مؤقتا ، فقط ، ربما يتسنى وجود قضاة أهليين من ذوى الكفاءة المعترف بها ؛ وأن يمثل رأى رجال لجنة القاهرة بالألا يختص غير المحاكم البلدية بالنظر فى التجاوزات التي قد تقع من قضائياتهم ومباشرون شؤون وظائفهم ، عاد بكيفية حكيمة ، وقال مصادقة الديوان العثمانى على مشروع موفق بين مطالبه وما ذهبت اليه مطالب رجال الهيئة السياسية القريبة فى الأستانة حينها ، وحاول جمع الاشتراطات التي وضعتها لجنة القاهرة ؛ ثم تمكن بجهاته وحذقه من جعل المصدر

الأعظم عنه يسلم نسخة من ذلك المشروع الى كل فرد من أفراد تلك الهيئة ، لكي يرفعه الى دولته ؛ وسافر الى العواصم الأوروبية ليتال مصادقتها أيضا عليه .

وكان قد سبقه اليها منشور أرسله على باشا الى سفراء الدولة العلية في تلك العواصم أوضح لهم فيه مصادقة الباب العالي على المشروع القضائي المصري ، بشرط أن لا تكون المحاكم الجديدة مختصة بنظر القضايا التي نقيم بين الأهالي وبعضهم ؛ ولا بالحكم على الموظفين فيما قد يصدر عنهم من تجاوزات لحدود وظائفهم . وطلب الى أولئك السفراء تعضيد نوبار باشا في مساعيه .

وحوالى منتصف شهر مايو سنة ١٨٧٠ كانت اللجنة الفرنسية — بعد سلسلة مفاوضات دارت بين نوبار باشا وبين المسيو دوفرجيه رئيسها ، والمسيو اميل أليفيه رئيس الوزارة الفرنسية ، القائم بشؤون وزارة الخارجية مقام وزيرها المتنيب — قد فرغت من أعمالها بباريس ، ووضعت مشروعا من عندياتها أبلغته الحكومة الفرنسية الحكومات الغربية الأخرى لتوقفها على آرائها في الموضوع .

تجربة  
أبحاث الهيئة  
الفرنسية

وأهم ما جاء فيه : جعل عدد قضاة محاكم أول درجة سبعة ، منهم أربعة أجناب ؛ وصدد مستشارى محكمة الاستئناف أحد عشر ، منهم سبعة أجناب ؛ وضم محلفين وطنيين ، ومحلفين أجنيين من التجار الى القضاة المشكلة منهم الجلسات التجارية ، وأن يكون لهم صوت فى المداولات ؛ ووجوب غايرة الحكومة المصرية الحكومات الغربية فى كل تعديل يراد إدخاله فيها بعد حل القوانين التى ستفق عليها ؛ وتأجيل العمل بالاصلاح الجزائى مؤقتا ؛ والموافقة فيما عدا ذلك على ما أقرته لجنة القاهرة . فوافقت عليه بأكمله حكومتا بطرسبرج وقيينا ؛ ورأت حكومة برلين ، بعد مقارنته بالمشروع المصرى الذى عدلته لجنة القاهرة الدولية ، أن محكمة التمييز أصبحت غير

مرغوب فيها ، مذ جعل عدد قضاة أول درجة خمسة وعدد قضاة الاستئناف ثمانية فى كل جلسة ، لوجود الضمانة الكافية للتقاضين فى عدد القضاة هذا الكبير ، وقالت إنها تفضل أن يكون عدد مستشارى جلسات محكمة الاستئناف فرديا عنه زوجيا ، اجتنابا لكل عرقلة فى التصويت .

وأما حكومة إيطاليا فأحالت المشروع الفرنساوى الى لجنتها المشكلة تحت رئاسة الكافالير ديزيمبروا ، والى كان أحد أعضائها السيور چياكونى .

فرأى ( اسماعيل ) أن الوقت بات مناسباً للائهاق مع الدول على تعيين لجنة دولية يكون رأيها تنفيذيا ، تمحص المشروع الواجب تنفيذه ، مستخلصة إياه من المشاريع الثلاثة الموضوعة على بساط البحث ، وهى : "المصرى" الذى عدلته لجنة القاهرة و "العثمانى" ، و "الفرنساوى" — وكيفية جعله لازاميا للجميع . ومنع نوبار باشا ، لتحقيق هذا الغرض ، سلطة مطلقة . ولكن الدول المختلفة رأى ، قبل مواقعة الخديوى على ما يروم ، وجوب اطلاعها على التشريع الذى ستحكم المحاكم الجديدة بمقتضاه ، وطلبت نشر القوانين التى وعد بها ، أى القانون المدنى ، والقانون التجارى ، وقانون المرافعات المدنية والتجارية ، قبل الإقدام على أى إجراء يكون ، وتركت جانبا ، مؤقتا ، قانون العقوبات وقانون تحقيق الجنائيات ، لائمهاقها على تأجيل الاصلاح الجزائى الى حين .

ورأت الحكومة الإيطالية فوق ذلك ، وأخذنا بإشارة لجنتها ، وجوب انفاق الحكومة الخديوية مبدئيا مع الدول على تحديد عدد القضاة ، ودرجاتهم ، وعدد الموظفين الذين سوف تطلبهم من كل واحدة منها ، وذلك حصيا للمنافسات قد نلهم عن اتخاذ

قواعد أساسا لذلك التصديد ، غير الثلاث الآتية ، وهى : أهمية الدول سياسيا ، عدد أعضاء جالية كل منها ؛ عدد قضايا كل جالية .

ففى أن الخديو ، لما عرض عليه السليور دى مرتينو ، قنصل إيطاليا العام بالقطر المصرى ، رثائب دولته ، رأى تعديل القاعدة الأولى ، واتخاذ قلة أهمية الدول السياسية بدلا من أهميتها المطلقة أساسا لتحديد عدد القضاة ، وذلك توصلا الى ملاءمة كل نزاع على النضوذ قد يقع فى خلد الدول الكبرى الإقدام عليه ، بواسطة تفوق عدد قضاة إحداها على عدد قضاة غيرها . ورأى ترك أمر تحديد عدد الموظفين من كل دولة وتعيينهم الى هيئات المحاكم حينها ، بدون تدخل أية دولة فيه .

طبع القوانين  
المخططة ونموزيها

وفى أوائل شهر يولييه سنة ١٨٧٠ تم طبع القوانين المصرية المخططة . فوزعها نوبار باشا على الدول المختلفة ، حالا ، لإجابة لرغبتها . فقرر اللورد جرافل ، وزير الخارجية الإنجليزية ، الى المركيز دى لا فاليت ، سفير فرنسا فى لندن ، فى ٢٢ يولييه سنة ١٨٧٠ ، أنه بعد اطلاعه عليها ، يوافق تمام الموافقة على إنشاء الهيئة القضائية الجديدة المرغوب فيها بمصر ، وعلى شكلها المبين فى المشروع الفرنساوى ، ودائرة الاختصاص المعينة لها ، وأنه كلف سفراء بريطانيا العظمى لدى الدول المختلفة ، وبالأستانة ومصر ، بتسليم تلك الحكومات نسخة من كتابه اليه ، لإعلامها بانفاق إنجلترا وفرنسا على الأمر ، لكى يسرى الخديو ، حالا ، الى إحراز قبول السلطان بالإصلاح القضائى كما تقرر بالمشروع الباريسى ؛ ويعلن السلطان قبوله الى الدول . فتقدم الحكومة المصرية على اتخاذ التدابير والاجراءات اللازمة لتكوين تلك المحاكم وإنشائها .

الحرب السجينة  
توقف المفاوضات

ولكن الحرب كانت قد نشبت بين فرنسا وألمانيا، وأصبح الزمن غير مناسب للمفاوضات، فعزل الخديو عنها، مؤقتاً، وأخذ يفكر في اصلاح آخر يقوم مقام الاصلاح القضائي ولو جزئياً .

فوقع في خلده انشاء بلدية بالاسكندرية، ينزل لها حق النظر المطلق، قضائياً، في جميع أمور التنظيم والايامارات في الثغر، مع توسيع دائرة محاكم التجارة، وجعلها مختصة بالنظر في أمور لا تكون تجارية بكل معنى الكلمة. وأقدم بحس بنض التفاصيل في ذلك . فوافقه بعضهم، وأبى البعض الآخر، ومن ضمنهم معتمد إيطاليا، إلا أن يكون كل اصلاح قضائي يجري في البلاد شاملاً عاماً، لا جزئياً خاصاً .

فحوالى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٨٧٠ — وكان فوز ألمانيا على فرنسا بكيفية نهائية ساحقة بات أمراً مؤكداً، ونزول فرنسا على الشروط الألمانية أمراً لا يحتمل ريباً مطلقاً — رأى نوبار أن الوقت قد حان مرة ثانية لاعادة المفاوضات في الاصلاح القضائي الى مجاريها السابقة، لاسميا ازاء كثرة تردد الاشاعات عن قرب اجتماع أوروبا في مؤتمر هام قد يتناول بحث مسائل شرعية أخرى .

فأرسل في ٢ يناير سنة ١٨٧١ كتاباً في شكل مذكرة، الى عموم معتمدى الدول في القطر، يطلب فيه مصادقة حكوماتهم على القوانين المصرية المختلطة التي عرضت نسختها على كل واحدة منها ؛ وأن تكون تلك المصادقة إما مباشرة ، وإما بواسطة معتمدى الدول مجتمعين بهيئة لجنة خاصة، أو بواسطة مندوبين تختارهم الدول لذلك الغرض . وأرسل نسخاً من ذلك الكتاب الى وزارات الخارجية كلها .

فأسرعت روسيا، وأجابت انها تصادق على القوانين المذكورة، وتصرح لمتعتها في القطر المصري بالموافقة الى تناول مباحث لجنة القاهرة الأولى، ولكن إيطاليا ابت

أن تبدى رأيا نهائى، قبل أن تفرغ لجنتها من فحص المشروع والتشريع المسنون له؛ وأبت إلا الوقوف، مقدما، على الشكل الذى سوف يتخذه تنفيذ الصهدات المتبادلة، أى على كيفية تشكيل المحاكم المتيدة .

فراى نوبار باشا أن يرد على هذا الإباء ردا طويلا، أثبت فيه أنه لم يكن فى وسع الحكومة المصرية أن تعبر عن فكرها فى هذا الشأن بأحسن مما عبرت عنه إذ قالت انها ستختار قضاة أوروبين، وتستشير فى تعيينهم بكيفية شبه رسمية حكوماتهم المختلفة لتحيط اختياراتها بأكثر مما يمكن من الضمانات؛ وإن القواعد التى تريد الحكومة الايطالية أن تتخذ أساسا لتحديد عدد القضاة ودرجاتهم لقواعد لا يصح العمل بمقتضاها : (أولا) لأنه من شأنها جعل المحاكم المتيدة دولية أكثر منها مصرية؛ و(ثانيا) لأنها ستثير، حتما، منافسات دولية، ترى مصر أنها فى غنى عنها؛ وأن الحكومة المصرية فكرت، لاجتناب تلك المنافسات، فى تشكيل محاكم أول درجة من قضاة يؤخذون من سويسرا والبلجيك وهولندا، وتشكيل محكمة الاستئناف من مستشارين يؤخذون من الدول العظمى؛ لأن معاملة هذه الدول على قاعدة المساواة أمر ممكن، فى هذه المحكمة العليا، بسبب كثرة عدد أعضائها .

فأقرت ايطاليا هذا المبدأ، ولو أنها لم توافق على أن يكون عدد مستشارى الاستئناف الثريين سبعة فقط؛ وأطلعت الحكومة المصرية على التقرير الذى وضعته لجنتها فى فلورنسا . فاذن به تقرير ضاف واف، تناول كل دقائق المشروع وتعديلاته، وما اقترح له، والمشروعين الثانى والفرنساوى؛ وعص ذلك جميعه تحيينا مستوفيا؛ واستنتج نتائج، واستلطف آراء أقر معظمها فيما بعد، لوجودها قرينة الصواب، وبلغت

الحكمة والتبصر. فأحرزت الحكومة المصرية بترجمته الى الفرنسية اوية ، لتستفيد ويستفاد مما جاء فيه .

مرادفة  
الباب العالي

غير أن الباب العالي كان قد أظهر استياء لا مزيد عليه من عرض القوانين المصرية على الدول لنيل تصديقها عليها ، لاعتباره ذلك افتياتا على حقوق الدولة : (أولا) لأن العرض يقتضى أن القوانين جديدة ، وغير قوانين باقى السلطنة ، ولاحق فى وضع قوانين جديدة إلا للسلطة صاحبة السيادة العليا ؛ و(ثانيا) لأن العرض يقتضى أن موافقة الدول الأجنبية عليها تكفى لى تجرى تلك القوانين فى القطر المصرى ، مع أنه للاحق لمصر فى اجراء قوانين تكون غريبة عن قوانين الدولة العليا ؛ فأرسل بهذا المعنى كتابا كله خيلاء الى الحكومة المصرية ، أنذرها فيه بأن أمر " الإصلاح " إنما هو من الشؤون السلطانية لا من الشؤون الداخلية المصرية ؛ وأنه يرى بناء على ذلك أن تترك الحكومة الخديوية عنه ، وتتركه لحكمة الباب العالي ، ليجرى ما يراه فيه .

ولكى تكون معاكسته للشروع مكسوة الفلواهر برداء يخضع له الصواب ، أعلن الدول أنه مشغول ، هو نفسه ، فى وضع قانون قضائى لعموم السلطنة ، وأنه ميفرغ من وضعه فى ظرف ستة شهور ؛ فما على مصر ، والحالة هذه ، إلا انتظار صدوره للعمل به أسوة بباقي الممالك الشاهانية .

فأرسل الخديوى فى بادئ الأمر مصطفى رياض وزير حقايقته الى الأستانة لازالة سوء الفهم الواقع ، وأعلم الحكومة الايطالية بالمعارضة المبجلة من قبل الديوان العثمانى ، لتعمل على رفعها .

ولكنه اتفق أن على باشا ، الصدر الأعظم ، مرض في الأمعاء ، المرض الذي قضى فيه نحيبه . فلم تفتح المفاوضات إلا بطيئة . وبدأ من انجلترا حينها ما جعل الملاً المصرى يوجس خيفة على مشروعه القضائى .

فتوالت الأشهر بدون جدوى ، واجتهد الباب العالى ، لا سيما بعد موت على باشا ، فى حل الحكومة المصرية على طرح مشروها فى زاوية الإهمال ، عتبا ، من جهة ، على ما ألزم الخديو به نفسه للدول من عدم إدخال أى تغيير على القوانين المختلطة مئة خمس سنوات ، وخوف (اسماعيل) ، من جهة أخرى ، بما قد يفهم — على زعمه — عن المشروع من نتائج وخيمة على الأهلى والحكومة وعلى حقوق مصر واستقلالها . وتمسك — بهريرا لسلوكه — بما آلت اليه الحكومات الأجنبية ، إلا الإيطالية ، من الجلود إزاء المشروع ، حتى أن فرنسا حينها ، لا تشغلها بمداواة جروحها ورتق خروفاها عن الاهتمام اهتماما زائدا بالشؤون الخارجية ، امتنعت من ارسال تعليمات بخصوصه الى سفيرها فى الأستانة .

ولكن همة (اسماعيل) لم يلبطها قيام تلك العراقيل فى سبيل إصلاحه المرغوب ، ولو أن المقربين اليه ، حتى الحكومة الإيطالية صديقه الجيمة ، أوشكوا أن يخافوا على عزيمته الملل والتعب ، ويحثوا إقلاعه عن رأيه . وإنما كان السبب فى تجلده وعدم خور همته ما كان قد وطن النفس عليه توطينا صادقا من القضاء على قيد الامتيازات الأجنبية التى كانت — فى عرقه — أشد ما يتحمل عائق الحكومة المصرية وأشد ما يقعد بمصر عن بلوغها استقلالها .

فرد فى ١٣ يونيه سنة ١٨٧٣ على الصدر الأعظم رقبا يلغا ذكر فيه : « أن الباب العالى حينه كان قد وافق على جعل حد سير المحاكم الجديدة خمس سنوات ، وقال



لأنه لم يفتأ معترفاً بأن سن القوانين حق مقدس من حقوق السلطنة المطلقة، الخاصة بها دون سواها، وأنه لذلك لم يقع في خله أبداً أن يسن قوانين، وأن القوانين المختلطة التي سنتطبقها المحاكم الجديدة إنما هي، في الحقيقة، القوانين السارية بالقطر المصري في كل آن، أي أنها، إذا، قوانين السلطنة عينها. ثم ذكر الباب العاشر بأن المشروع تحت التداول والأخذ والرد منذ أكثر من خمس سنوات باطلاع الديوان السلطاني وموافقته، وذكره بكل ما حصل في الشأن، وأن الآراء كلها أجمعت على أن القضاء، كما هو بالقطر المصري، ليس بقضاء، وأنه مادام لا يوجد في قطر من الأقطار قضاء منظم، تصدر الأحكام عنه للجميع، بكيفية واحدة على السواء، فالتقدم والرفق والتجارة والمدنية تبت كلها أمورا متعذرة، ان لم تصبغ في دائرة الحال، وأنه لا يرى، إذا، كيف يمكن أن تنظم القضاء في بلاده النتائج الوخيمة التي يخوفه منها الباب العاشر، وأن ثواب الدول الذين تابخوا في المشروع، في كل لجنة شكلت لذلك الغرض، أبدوا من شعائر الاحترام لاستقلال القطر، والحقائق التي يعتبرها الجميع مقدسة، ما حمل الباب العاشر عينه على إقرار المشروع، بعد إدخال بعض تعديلات طيه، وأنه لم يبدى لثفاذه إلا رغبة الدول في الاطلاع على القوانين التي سوف تطبقها المحاكم العتيدة، وأنه لو كان في إبداء هذه الرغبة ما يجرى على استقلال الحكومة وحقوقها، أو ما يفيد تدخلها في شؤون تشريع القطر، لما أبدت ولما قبلت، وأن نتيجة كل ما تهتم أن تنفيذ المشروع إنما يقصد به في الحقيقة حصول الأهالي والكل، سواء بسواء، على حقوقهم الضائعة، وحصول الحكومة المصرية على الطمأنينة والحماية اللازمتين لها.

سفر (إسماعيل)  
الى الأستانة

ولعلمه أن وجوده بشخصه ، في الأستانة ، يفعل ما لا يفعل خير الأئمة والبراهين في قضاء لباينة ، أكثر من كل مكانة مهما كانت فصيحة ، عزم على السفر الى الأستانة ، وسافر اليها في أواخر شهر يونيه عينه ، مصطحبا وزيره الحكيم نوبار باشا . فاستغتمت إيطاليا فرصة وجوده في تلك العاصمة ، وفتحت خارجيات الدول الكبرى في أمر تعضيد مساحيه لدى الباب العالي ، بواسطة سفرائها بالأستانة ، والعمل ، في الوقت ذاته ، على منع كل تأثير على الخديو من شأنه دفعه الى المطالبة بتطبيق النظام القضائي الذي تطبقه الدولة العلية في ممالكها ، ببلاده .

فاجابت النمسا وفرنسا وألمانيا إيطاليا الى طلبها ، وكلفت كل منها سفيرها لدى الحكومة العثمانية بالعمل على اقناع الباب العالي بوجوب المصادقة على مشروع الاصلاح القضائي بمصر . أما الحكومة الروسية فامتنت ، في بادئ الأمر ، لقلعة مصالحها في القطر . وأما إنجلترا فكانت : « ان الظروف في تركيا ، لا سيما بعد حرب القرم ، لم تعد ، كما كانت في الماضي ، موجبة لتداخل الدول كثيرا في شؤونها الداخلية ؛ وأنه يحسن ، والحالة هذه ، بالدول الانتظار ريثما تفرغ الأستانة من وضع القوانين التي وصلت بانجازها في ستة أشهر ، واللائحات فقط الى أن لا تتدخل فيها ما يكون مغايرا أو مبطلا للصالح الأجنبية المعمول بها » .

نزول تركيا  
عن إصرارها

فأدى سعى الخديو ، من جهة ، السعى السابق لنا ذكره في غير هذا الفصل ، ومساعي سفراء الدول الأربع المشتركة ، من جهة أخرى ، الى نزول تركيا عن إصرارها ، وقبولها تطبيق القوانين المطروحة أمام الدول لتتصق عليها ، تطبيقا مؤقتا ، في القطر ، ورضاهها التام عن النظام القضائي المتبدلة إقامته <sup>(١)</sup> .

(١) أنظر : الكتاب المرسل من الصدارة العظمى الى الخديو في ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٩

فراى (اسماعيل) أن يطرق الحديد وهو مخفي . فشرع يفاوض الدول برغبته في أن يبت — وهو مقيم بالأستانة — في المسائل المختصة بالمشروع ، والتي لا تزال على بساط المناقشة . فتزود الدول سفراءها هناك بالتمليات والسلطة اللازمة لذلك . لأنه وإن يكن اهتمام الباب العالي بتلك المسائل بات سطحيًا ، إلا أن المناقشة فيها بالأستانة عينها ، وهو فيها ذات فائدة كبرى ، لتمكين المتخبرين من الحصول بسهولة على موافقة الديوان ، فيما لو نجت مسألة يحتاج فيها إلى إحراز تلك الموافقة ؛ وأنه إذا رأت الدول أن الأمر يقتضى اشتراك متخصصين فيه فلتسرع بإرسالهم إلى الأستانة ، لأنه لم يعد في استطاعته المكث فيها إلا قليلا ؛ ولقت نظرها ، في الوقت ذاته ، بمذكرة أرسلها لكل منها وزيره الحكيم نوبار ، إلى أن أهم ما يجب اتخاذه عليه إنما هو الإصلاح القضائي الجزائي ، الذي قد يقرأى لبعضها تأجيله إلى أجل غير مسمى ، وإلى أهم ما تراه الحكومة المصرية في ذلك الإصلاح ، أى اتخاذه الدول على جعل المحاكم الجديدة مختصة بالحكم بجرائم في كل ما كان غلا بنظامها وتنفيذ أحكامها ، أو حاطا من كرامتها ؛ وفي كل ما يقع مغايرا للقانون من قضائيات وموظفيا .

فساكن من الجزال أجنا تيف ، السفير الروسي في الأستانة ، إلا أنه استدعى السفراء لديه ، بصفته أقدمهم عهدا ، لمطارحة أفكارهم في المشروع المرغوب فيه . فاجتمعوا في ٦ أغسطس سنة ١٨٧٢ ؛ وشرح لهم نوبار بإشأ — وكان قد استدعى إلى ذلك الاجتماع أيضا — كل سوابق المسألة . وبعد مفاوضة تناولت أمر ردة القضاة المترجمين والترجمات ؛ وأمر حلول ترجمة القنصليات محل مترجمي المحاكم في القضايا التي يطلب ذور الشان فيها ذلك ؛ وأمر ترك تعيين رؤساء البلديات لجمعيات القضاة العمومية ؛ وأمر حضور مندوبين خصوصيين من لدن الدول سير

المحاكم الجزائية - وقد عارض (اسماعيل) فيها بعد فيه معارضة شديدة وأبى قبوله إياه كلياً ، لئلا يقود الى تجاوزات من نوع المشتكى منها في نظام القضاء القنصل - وأمر تحلى السلطة المصرية عن المحكوم عليهم من المحاكم الجديدة الى قنصلياتهم لتنفيذ العقاب فيهم بمعرفة - ورفض بتاتا - وأمر جعل المحاكم حينها ، بعد مضي سنة على تأسيسها ، مختصة بالنظر في الجزاءات على أنواعها ، وأمر تكوين لجنة المحلفين في القضايا المختلطة بواقع النصف من الأهالي والنصف من الأجانب ، بدلا منها من جلسات المتهمين ، ارفض الاجتماع على أن يبلغ السفراء مضمونه الى دولهم .

ثم حرد نوبار باشا مشروطا للاصلاحين المدني والجزائي ، على قاعدة ما اتفق عليه في تلك الندوة ، أهل فيه ، سهوا ، ذكر اللغات القضائية ، وجوب تسجيل العقود الناقلة لللكية والرهون لدى المحاكم الجديدة مع إخطار المحاكم الشرعية بها ، وأمورا أخرى أقل منها أهمية ؛ وأهل ، عمدا ، إنشاء محكمة التمييز ؛ وقبل الخديو ، إرضاء لبعض الدول ، أن لا يسهل بالنظر في الأمور الجزائية الى المحاكم الجديدة إلا بعد مضي خمس سنوات على تأسيسها .

فأبدت فرنسا وإنجلترا والنمسا وإيطاليا بعض اعتراضات على ذلك المشروع ؛ وأهمها الاعتراضات الإيطالية على ما أهل نوبار باشا ذكره سهوا ؛ واعتراض فرنسا على تحويل المحاكم المختلطة للنظر في الأمور الجزائية ، حتى فيما يتعلق بما كان مغللا بنظامها وتنفيذ أحكامها ، أو حاطا من كرامتها ، أو مرتكبا من قضائيات وموظفيا - وهم يؤدون وظائفهم - من مغاير لقوانينها .

فأجاب نوبار إيطاليا أن السهو سيتدارك ؛ ولكنه أجاب فرنسا أنه لا سبيل الى إنشاء المحاكم المختلطة اذا لم تمنح حق النظر في النوع الأخير من التجاوزات المستوجبة

الجزء : لأنه لن يوجد في العالم قضاة يريدون أن يكون النظر فيها قد يمس كرامتهم — وهم يؤيدون وظائفهم — موكولا الى غيرهم ، وأثبت رأيه بأدلة قاطعة .

تصلبت فرنسا في رأيها ، فألح نوبار على الجنرال اجنا تينف بجمع السفراء ليعروا رأيهم في الأمر . فاجتمعوا في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٢ وقرروا تعيين لجنة لفحص ماهية الضمانات التي تقدمها الحكومة المصرية ، لتطمئن الحكومات الأجنبية اليها ، وتعتقد أنه لن يقع تجاوزات على حقوق الأجانب ، فيما اذا منحت المحاكم المختلطة حق النظر في نوع الجزاءات المطالب نوبار بها ، والتي أكد أنه لا سبيل الى إنشاء المحاكم بدونها .

ففي اليوم الحادي عشر من شهر يناير سنة ١٨٧٣ التأمت اللجنة المرغوب فيها بالأستانة ، مشكلة من السير فيليب فرنسيس القنصل البريطاني ، والمسيو تريكو القنصل الفرنسي ، والكافالير جاكوتي المستشار بالمحكمة الاستئنافية الإيطالية ، وفون جلث القنصل الألماني ، وفون برجر سكرتير الوكالة النمساوية ، والمسيو جنسن سكرتير الوكالة البلجيكية ، والمسترجود ناو متمد الولايات المتحدة ، والمسيو كون مستشار وكالة هولندا ومدير ادارتها القنصلية ، والمسيو هتروغو القنصل الروسي العام وأحد أمناء المجرة الامبراطورية الروسية ، والكونت برنيكوف القائم مقام مستشار الوكالة السويدية النرويجية ، ونوبار باشا ، ومعه المسيو مونوري مستشاره القضائي .

وانضم اليها في ثالث جلساتها الدون دز تارقت فريري كاتب البروتوكول في الوكالة الاسبانية ، وانعقدت تحت رئاسة السير فيليب فرنسيس ، بصفته أقدم القناصل عهدا ، ست مرات ، أي في ١١ و ١٥ و ٢٨ يناير ، وأول و سادس وثامن فبراير

سنة ١٨٧٣

فطرح عليها نوبار باشا، في أول جلساتها، المشروع الذي وضعتة الحكومة المضرة وشرحه شرحا وافيا في مذكرة قدمها لكل من المندوبين وممها قائمة ببيان أنواع التجاوزات المطلوب ترك الحكم الجزائي فيها للحكومة الجديدة .

فدار الكلام على كيفية وجوب السير في فحصها، وهل يقتضى تعيينها، بمجاوزا تجاوزا، أم يفضل تعيينها، فئة فئة؛ وأية سلطة تكون مختصة بالنظر فيها قد لا يذكر منها : المحاكم الجديدة، أم القنصليات؛ فأنظر المسيو تريكو، منذ ذلك الحين، من الخشونة في المباحث، عملا بالتعليمات الواردة الى سفارة فرنسا بالاستانة من وزير الخارجية الفرنسية، ما تمتص له النفوس لدى اطلاعها عليه؛ تلك الخشونة بلغت درجة الوقاحة في الجلسة التالية، وزاد في سماحتها ما بدا من شكل تمتعت صاحبها فيها، على أن الرئيس طلب الى كل من المندوبين إبداء رأيه في المذكرة ذات قائمة التجاوزات التي سلمت اليهم . فكان السنيور چاكوفى أقولم تكلمنا . وأهم ما يستوقف اليوم الانتباه في أقواله ما ورد فيها من أن الغرض الذي يرى اليه نوبار باشا من الإصلاح القضائى إنما هو توحيد المنصرين الأجني والأهل بمصر؛ وأنه هو، چاكوفى، على أمله في أن هذا التوحيد سيتم يوما ما، لا يرى أن الوقت المناسب لذلك قد حان؛ بل يرى أفضلية بقاء المنصرين منفصلين الواحد عن الآخر، لأسباب أبداها، أو جهها قلة تهمتهما المتبادلة .

وتلاه المسيو هتروفو؛ فطلب وضع قائمة أعمال لكل جلسة حتى تسهل المناقشة؛ وأيده المسيو تريكو في طلبه .

فوضعت في الحال، ودارت المناقشة طويلا : (أقولا) في ما هي الجرائم والجنح التي ترتكب ضد رجال القضاء، وهم في حال تأدية وظائفهم في الجلسات وخارجا منها؛

وما هي التي ترتكب ضد عمال القضاء في غضون تأديتهم وظائفهم) (ثانياً) في ما هي الجرائم والجنح التي ترتكب ضد نفاذ الأحكام، وعمال الضبط والربط الذين يحضرون تنفيذها؛ (ثالثاً) في ما هي الجرائم والجنح التي ترتكب من رجال القضاء وعماله — وهم يؤدون وظائفهم — أو ترتكب منهم كنتيجة تجاوزهم في تأدية وظائفهم . فوفى البحث في البابين الأولين؛ وأجلت بقية البحث في الباب الثالث الى الجلسة التالية . وفي الجلسة التالية، بعد أن دحض نوبار باشا زعمه المرحلت، وأيده فيه المسيو تروثو بوجود حفظ النظر في جزاء من يقتل أحد رجال القضاء المتيد، للقنصليات، استوقف البحث في الباب الثالث السابق ذكره ، ووفى؛ ثم انتقلت اللجنة الى فحص ماهية الضمانات التي تلتزم الحكومة المصرية بتقديمها ، ليطمن الغريون ويسكنوا اليها . فتناقشت طويلاً في الموضوع . وأهم ما استلفت اليوم النظر في تلك المناقشة أمران :

(الأول) تشدد نوبار باشا في أن يكون للأهل نصيب في العقوبة، سواء أكان في بلدان المحققين، أم في محكمي الجنح والجناتيات؛ وتشدد المسيو تريكو في أن لا يكون لهم ذلك النصيب مطلقاً ، واضراقه في هذا التشدد الى حد إعلان أن عدم وجود المنصر الأهل في جميع الهيئات القضائية الجزائية شرط لا يمكن لدولته أن توافق بدونه على جعل المحاكم الجديدة مختصة بالنظر في ذات التجاوزات الجزائية الجزئية المطلوب اختصاصها فيها؛ كما أنها ترى هذا الرأي أيضاً فيما لو رفضت الحكومة المصرية إعطاء الضمانات المطلوبة منها كافة .

(والثاني) حيرة المندوبين في الذي يجب عمله اذا رأت قنصلية ما أن التهمة الموجهة الى متهم غير داخلة ضمن الجرائم أو الجنح المفوض الحكم فيها الى المحاكم

الجلدية؛ واقتلاق عقول أولئك الرجال الأفاضل دون الايضاح الجلى بين المقدم من الموسيو مونورى فى الموضوع . ولولا أنه يجب على المؤرخ أن يراعى عقلية كل جيل لإبداء حكمه عليه ، وأن العقلية الغربية فى تلك الأيام كانت متأثرة بقلّة الثقة فى عدالة الشرق والشرقيين ، تأثرا بليغا ، ومشغولة بخاوف كبيرة من تداخل الادارة المصرية فى شؤون القضاء المختلط — مع أنه لم يكن من مستوخ لا تشغالها — لحكمتا على أولئك المتدوين بالنباوة المطبقة ، وعلى مداولاتهم بالهتر الكلى . وانقضت هذه الجلسة الثالثة ، بعد تعيين لجنة لصحير الاقتراحات التى تقرها الحكومة المصرية ، والاقتراحات التى ترفضها .

وفى الجلسة الرابعة أعلن المسيو مونورى أن الحكومة المصرية أقرت ذات الاقتراحات التى كانت رفضتها سابقا بعد إدخال بضعة تعديلات عليها بموافقة أعضاء اللجنة . فتمكنت اللجنة ، بذلك ، من وضع بيان بالضمانات المطلوبة والمطعاة كلها . ثم قرأ ماحررته اللجنة ، وهو الذى نراه اليوم فى القانون المختلط ، فى باب اختصاص المحاكم ، وباب التحقيقات الجزائية والتنفيذ .

فوافق المتدوبون عليه ، وقدر توزيع نسخة منه على كل مندوب ليدى ، بعد فحصه ، الملاحظات التى يرى إبداءها بشأنه ، وكلف الرئيس حضرات المتدوين تريكو وچانسن ومونورى بتجهيز مشروع تقرير عام ، يكون عمل اللجنة قاعدته .

وفى جلسة الخامسة أراد المسيو هيتروفر الرجوع عما تم . فعلم السير فيليب فرنسيس ونوبار باشا رأيه ، وبعد ملاحظة أبدأها المسيو كين على ذكر اختصاص المحاكم بالنظر فى المخالفات البسيطة ، ومصحها حالا ، عقب شرح أبدأها المسيو تريكو والمسيو مونورى والسنيور چياكونى ، وتأكيد صدر من نوبار باشا بأنه مادامت الدول قد صدقت



على ذلك الاختصاص ، لما صلتحت على الاصلاح القضائي المدني ، فلا يهيمه أئذ ذكر المخالفات أم لا تذكر في الموضوع الذين هم في صلبه ، أقبل المندوبون يفحصون تقرير اللجنة ، بندا بندا . فأدّى فحصهم الى مناقشة هامة فيمن يصح ومن لا يصح قبول شهادته من الشهود ، وانتهى بهم الأمر الى تقرير المادة الموجودة الآن في القانون الخاصة بمن يجوز رده من الشهود ، وذلك بالرغم من اعتبارات في منتهى الوجاهة ، أبداها السير فيليب فرنسيس تأييدا لمبدأ القائل بجواز سماع شهادة الأهل والأقارب . وعلى ذلك أرفض الاجتماع .

وفي الجلسة السادسة استؤنف لمخص تقرير اللجنة . فأعاد المسيو هيترو البحث في احتمال تعدى المحاكم الجديدة ، في تحقيقاتها الجنائية ، على حقوق الفصلات . فأدّى ذلك الى مناقشة ، نجم عنها النص الخاص الموجود في القانون المختلط ، المحظر على قاضي التحقيق بالمحاكم المختلطة التداخل في تحقيق الجنائيات والجلب العادية ، وصلى ، فيما عدا هذا ، على تقرير اللجنة . ثم تلى مشروع التقرير العام الذي كلف بوضعه المندوبان تريكو وجانسن بمساعدة المسيو مونوري ، وأرفض الاجتماع .

وعقد المندوبون ، بعده ، اجتماعا أخيرا في ١٥ فبراير سنة ١٨٧٣ صادفوا فيه حل محاضر الجلسات الست ، وعلى التقرير العام ، ووقعوه . ثم شكروا الرئيس ، السير فيليب فرنسيس ، عملا باقتراح المسيو تريكو ، ورفضوا تقريرهم العام الى سفراء دولهم لدى الباب العالي . فأرسله السفراء الى حكوماتهم ، وأرفقوا به اللائحة النهائية التامة التي وضعها نوبار باشا عقب تلك المداولات لترتيب القضاء المختلط .

تصدىق بريطانيا  
الطنس وإيطاليا  
على الاصلاح نهائيا

فصادقت على الاصلاح نهائيا : بريطانيا العظمى في ٢٦ مايو ، وإيطاليا في ١٩ يونيو سنة ١٨٧٣ ، ومع أن مدير شركة ترعة السويس بعث الى وزير الخارجية الفرنسية كتابا

بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٨٧٣ يروج فيه، باسم الشركة ومصالحها، واسم المائتي ألف أجنبي الموجودين في القطر، بالمساعدة على إنهاء المخاضات، وتأسيس القضاء المختلط بالقطر، رحمة بمصالح الجميع، أبت فرنسا إلا خلق عراقيل جديدة، بشأن اختصاص المحاكم الثنية في النظر في التظلمات—زعمها أن التظلمات داخلة في نظام الأحوال الشخصية، المحظر على تلك المحاكم النظر فيه—وبشأن كيفية تعيين رجال القضاء .

فاضطر نوبار الى دحض زعمها الخاص بالافلاس بكتاب فصيح تاريخه أول أبريل سنة ١٨٧٣؛ ولكنها أصرت عليه؛ وفتح في الشأن الحكومات الأخرى . فالت فرنسا والروسيا الى سحب بعض ما سلم به مندوباهما في الأستانة؛ ونجم عن ذلك صعوبات وعراقيل جديدة، رأى الخديو معها أن يبعث الى نوبار باشا بالامتناع عن إحراء أى عمل في شأنها، حتى يقدم سموه الى الأستانة بنفسه .

ثم سافر اليها سفرته الشهيرة في يونيه سنة ١٨٧٣؛ وأقام هناك الاقامة التي رأيناها يتال في خلالها كل ما أراد نياله من مراميه؛ وأهمها التصريح له بسن جميع القوانين واللوائح الداخلية، التي يراها صالحة للبلاد ولازمة لها . فكان ذلك بمثابة مصادقة رسمية صريحة من لدن السلطنة الثنية على القوانين المختلطة التي وضعتها الحكومة المصرية وكانت لا تزال شبهة، في موافقة الحكومة الثنية عليها، معلقة في أذهان الدوائر السياسية الغربية، في الأستانة وأوروبا، بسبب الإبهام والغموض الواردين في ترجمة الكتاب المرسل من المصدر الأعظم الى الخديو بتاريخ ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٩ — ١٩ يوليه سنة ١٨٧٣ من التركية الى الفرنسية .

ولكن الصعوبات التي أنشأتها الحكومة الفرنسية بشأن دعاوى الافلاس ما فتئت، بالرغم من ذلك، قائمة؛ والمفاوضات التي أوجبتها بين الدول سائرة .

تصدىق الدولة  
الدية

استقرار فرنسا على  
المعارضة

وبلغ النزاع أشده بين الحكومتين المصرية والفرنساوية في شهر نوفمبر سنة ١٨٧٣،  
لإذ جاهر نوبار باشا للتقنصل الفرنسي العام بالقطر المصري بعدم تمكن حكومة  
الخليديو من تفسير ثمن مطلقا فيما أقره مندوبو الدول، وصلى معظمها عليه في شأن  
قضايا الإفلاس .

وربما كان السبب الذي حمل نوبار باشا على المجاهرة بذلك القول أخبار السوء  
المبالغ فيها، الواردة عن فرنسا في الجرائد الأجنبية، والتي جعلت القوم بمصر يعتقدون  
ذلك البلد ممزقا تمزيقا على أيدي الأحزاب القائمة فيه عقب انخزال فرنسا في الحرب  
السيبيلية .

فما كان من التقنصل الفرنسي إلا أنه أجاب على قول نوبار باشا « بأن مصر  
هي الراغبة في إجراء الإصلاح القضائي، لفرنسا؛ وأن هذه الدولة إزاء ذلك الرضى  
لا ترى سوى الامتناع عن المخاطر، حتى تأتيا خارجية مصر باقتراحات يمكنها  
قبولها » .

فلما علمت نتيجة تصويت ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٧٣، وثأ كد الملأ من قيام حكومة  
منظمة بفرنسا، عاد نوبار إلى مخبراته؛ وحاول الاتفاق مع المعتمد الفرنسي على  
تعديل يوفق بين طلبات الفريقين . ومع تمسك المعتمد الفرنسي بالتعليمات الواردة  
إليه من الخارجية الفرنسية، رأى من الواجب عليه تهيم تلك الوزارة بأن البقاء  
على الحال القضائية المعمول بها في ذلك الحين أمر محال وضار، الضرر كله، بالمصالح  
الفرنساوية ذاتها، لأنها حال فوضى حقيقية .

تصديق  
الولايات،  
الناب

وكانت حكومتنا النمسا والولايات المتحدة قد اتفقتا، في الإثناء، بمحكومي إنجلترا  
وابطاليا؛ وصادقتا على آخر لائحة وضعت لتنظيم المحاكم الجديدة، مشترطين موافقة

مجلسي تواجها عليهما ، واتبعتهما ، بعد قليل ، الحكومة الألمانية أيضا في أبريل سنة ١٨٧٤ ، كذلك كانت حقول المالية التجارية الفرنسية بدأت تفتق الى فهم المضار الناجمة للصالح الفرنسية عن استقرار حكومة فرساي معارضة في الاصلاح ، ومتفرقة في عنادها عن باقي الدول ؛ فلم يحجم المعتمد الفرنسي عن اعلام رئيسه ، وزير الخارجية ، بذلك ، بل إنه أرسل اليه في ٢٥ يناير سنة ١٨٧٤ عريضة مؤرخة ١٥ يناير عينته قسما اليه نائباً الأمة الفرنسية بمصر ، المسيو موسو ، والبارون ديوار دي جلتون ، موقعة منهما ومن عدة فرنساوين مشغولين في مشروعات أشغال عمومية هامة ، يلتزمون فيها بالحاس موافقة الحكومة الفرنسية ، السريعة ، على الاصلاح ، لتلا تغطل مصالحهم ومصالح باقي أفراد المالية .

فلما ذلك جميعه ، رأى وزير الخارجية الفرنسية ، قبل الانفلاق من خطته والانضمام الى الدول المصادقة ، أن يمين بالاتفاق مع زميله ، وزير المالية ، لجنة خصومية لفحص الموضوع تحت رئاسة المسيو فنت ، وكيل وزارة المالية هذه . فعينت ؛ وبعد أن باشرت عملها ، وقامت بمهمتها قياما دقيقا ، رفعت في يونيه سنة ١٨٧٤ الى وزير الخارجية الفرنسية تقريرا يلخص بعبارة رأى ثمانية من أعضائها التسمة ، ويشير على الحكومة الفرنسية بقبول الاصلاح القضائي ، في الحال التي وصل اليها ، أسوة بباقي الدول ، واجتنباً لبقاء فرنسا وحيدة في مضمار ، المضار فيه كثيرة وكبيرة ، والفائدة معدومة .

ولكن بالرغم من ذلك ، وبالرغم من أن الخديو — لاعتقاده أن الطريق مهدت نهائيا ، وأن تشغيل المحام الاصلاحية بات مستطاعا — أقبل يخاطب بعض الدول في شأن القضية اللازمين لها ، وطلب الى حكومة ايطاليا ارسال الكافاليري كوني

مقاربة فرسا  
المقاربة الأخيرة

ليكون المستشار الايطالى في محكمة الاستئناف العتيقة، استمرت الحكومة الفرنسية على مخاوفها، وحل معارضتها في أمر التفليسات . وأضافت الى ذلك تشددا في تعيين قاضيين من جنسيات الدول السبع، المثلة في لجنة القاهرة سنة ١٨٦٩ لدى محاكم أول درجة ، هذا المستشار المرغوب في تعيينه ، من جنسية كل منها ، في محكمة الاستئناف ، وإن لم يمكن ، فتمين فرنساويين عضوين في النيابة العمومية .

فرأى الخديو ، عملا بنصيحة السليورجيا كوفى الذى كان قد قدم القطر في شهر يولييه من السنة عينها ، أن يلغى النص الخاص بالتفليسات من لائحة ترتيب المحاكم وقائمة اختصاصاتها، لكي يزود المعارضة الفرنسية من سلاحها ، وأن يجيب الحكومة الفرنسية الى مطالبتها المشتركة مع مطالب الحكومة النمساوية ، وأخى بها : بقاء القناصل وأتباعهم خارجين عن دائرة اختصاص المحاكم الجديدة ، وكذلك معاهد العبادة والعلم ، والفصل في القضايا القائمة ، قبل استتباب تلك المحاكم ، بطريقة استثنائية يتفق عليها فيما بعد ؛ وجلس قاض أو مستشار من جنسية المدعى عليه دائما في الجلسات التي تنظر قضيته أمامها ؛ ولكنه ، مع وده بزيادة عدد القضاة الفرنسيين ، فيما لو أنشئت دوائر جديدة في المحاكم العتيقة ، خلاف المنشأة بموجب لائحة الترتيب ، رأى نفسه مضطرا الى عدم إجابة الحكومة الفرنسية الى طلبها ، المقصود منه تعيين قاضيين تابعين للدول السبع المذكورة في محاكم أول درجة .

فرجع المعتمد الفرنسي الى وزارة الخارجية ، برسائل ، المذكرة المرسلة اليه من شريف باشا ، والمبين فيها كل ما قبل الخديو به حسما للترجع ، ونصحه مرة أخرى بالاقلاع عن المعارضة ، وقبول الاصلاح . فأجاب الوزير بالمصادقة على ماورد

في مذكرة شريف باشا، ووعد بعرض ما جاء فيها ولائحة ترتيب المحاكم الاصلاحية على الجمعية الأهلية العمومية حالما تجتمع لتصلق عليهما معا . فأضى المعتمد الفرنسي ساوى مع شريف باشا في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٧٤ محضرا ذكرت فيه التعديلات المنطق والمصادق عليها ؛ وأرسله ، مهورا بامضائه وامضاء الوزير المصري ، الى الخارجية الفرنسية . فأعلنت هذه الوزارة ، بما جاء فيه ، عموم المعتمدين الفرنسيين ، بمنشور أرسلته اليهم ؛ وأبلفت الحكومة الفرنسية الحكومة المصرية في ديسمبر سنة ١٨٧٤ مصادقتها على مشروع الاصلاح القضائي ، مؤقفا ، حتى ترى الجمعية العمومية الأهلية رايها فيه .

ولكنها عادت ، بعد ذلك بقليل ، وفحصت باب مشكلة جديدة بخصوص مقاصد الحكومة المصرية الاحتمالية في أن ترفع الى المحاكم المتيدة ما قد يشجر من منازعات بينها وبين أعضاء الجاليات الأجنبية بشأن الرسوم والأموال والضرائب ؛ وكلفت معتمدها بالاسكندرية بالحصول على ضمانات أكيدة تفي بالتخاذ الخديوي تلك المحاكم وسيلة لسف يوقعه على الفرنسيين في باب المطالبة بالأموال الأميرية ؛ فلم تلقت الحكومة المصرية الى هذا التحكم الجديد ؛ وأعلن شريف باشا المركزي دى كازو ، المعتمد الفرنسي ساوى بالقطر ، بأن الخديوي ، بعد مصادقة برلمانات معظم الدول على الاصلاح القضائي ، وحضور معظم القضاة المعيّنين للحاكم الجديدة ، لم يدرى بدا من إقامة هذه المحاكم ؛ وأنه حين يوم ٢٨ يونيو سنة ١٨٧٥ لإجراء تلك الحفلة الرسمية ؛ ويوم ١٨ أكتوبر التالى لبده التقاضى أمام الهيئة الاصلاحية الجديدة ؛ وأنه يرجو أن الجمعية الأهلية العمومية الفرنسية تكون قد تمكنت ، هي أيضا ، قبل تاريخ ٢٨ يونيو

المذكور، من اعتماد الاصلاح حتى لا تحرم مصر مساعدة أنوار معارف رجال القضاء الفرنسيين، قبل شروع تلك المحاكم بمباشرة أعمالها .

فأعاد وزير الخارجية الفرنسية الكرة ، وطلب من معتمد فرنسا بمصر الضمانة السابق طلبها منه بشأن الأموال والضرائب والرسوم الجمركية . فعاتت المفاوضات بشأنها بين هذا المعتمد وشريف باشا . فأكده فيها الوزير المصري بناء على أمر صريح من ( اسماعيل ) اختصاص المحاكم الجديدة بالنظر في المنازعات التي قد تنشأ بين المصالح الأميرية المصرية والأجانب بخصوص الرسوم الجمركية والأموال والضرائب المقررة والتي ستقرر ، وعزم الحكومة المصرية الأكيد على عدم قبول تنازل الفصيلات في ذلك جميعه .

فلما رفع المركز دى كازو هذا التأكيد الى اللوك ديكاكز، وأعلمه أيضا بتحديد يوم ٢٨ يونيه سنة ١٨٧٥ لترتيب المحاكم ، سقط الدوك في يده ، وامتنع قلبه ، وعادته ضافوه السابقة . فرأى أن يوقف مصادقة الحكومة الفرنسية على مشروع الاصلاح القضائى حتى يمدد شخص الاحتياطات التي يقتضيه أخذها مبدئيا لتلا تضام المصالح الفرنسية .

ولكى يصل الى هذا النرض بكيفية أكيدة صحيحة رأى أن يستشير في الأمر محكمة إكس الاستثنائية لاعتقاده أنها ، بصفتها المحكمة التي تستأنف أمامها أحكام محاكم مصر الفصيلية ، أدري الهيئات النظامية كلها بالمصلحة الفرنسية الحقيقية بالقطر المصري . فانتدبت محكمة إكس لجنة من مستشاريها لفحص الموضوع وتجميعه وتقديم تقرير رضى الذبول اليها تنفي طيه إجابتها على الوزارة .

تقرير لجنة محكمة  
الأكس

فاجتمعت تلك اللجنة وتباحثت ؛ ثم كلفت السيورولان ، أحد أعضائها ، بوضع التقرير الذى أدت مباحثها الى الاتفاق عليه . فوضعه وقدمه الى المحكمة ؛ واذا به يظن على المشروع طعنا مرثا ؛ ويشير بطرحه جانبا ، كلية ، وعدم المدول من النظام القضائى المتصل ( ١٧ يونيه سنة ١٨٧٥ ) ؛ وبني رأيه هذا على السببين الآتيين :

(أولا) أن العداء والخصام القائم منذ الأزل بين الأجتناس الاسلامية والأجتناس المسيحية لا يزالان مستمرين على شتتهما الأصلية .

(ثانيا) أن الوحدة بين تلك الأجتناس فى المدنية والعادات والعقبة الدينية غير موجودة بتاتا . فلا يحسن ، والحالة هذه ، تحرير محاكم واحدة لما جميعا ؛ لا سيما أن الأسباب التى قضت بإيجاد نظام الامتيازات لا تزال موجودة كما كانت <sup>(١)</sup> .

ولما كان هذان السببان لا يخرجان فى الحقيقة عن أنهما مجرد تأكيد ، لاجمة قديهما ، انبرى رجال فرنساويون صديدون من أرباب التقنين والقانون الى دحضهما وإبطالهما .

على أن الأمور كانت ، أثناء كل هذه المباحث والمفاوضات العقيمة ، تجري مجراها حثيثا : فان القضاة والمستشارين الواقع اختيار الحكومة المصرية عليهم ، كانوا ، بموافقة دولهم ، قد أمثوا القطر المصرى مقر وظائفهم الجديدة ؛ واجتمعوا كلهم ، ماعدا الفرنسيين ، بالاسكندرية فى الثلث الأخير من شهر يونيه سنة ١٨٧٥

(١) أنظر هذا التقرير فى مجموعة المحاضرات والوثائق الخاتمة بالإصلاح القضائى ، بكتبة محكمة الاستئناف المختطة بالاسكندرية .



حفلة استقبال  
القضاة الأتول

فاستدعاهم الخديو الى الحفلة الحافلة التي عين لها يوم ٢٨ منه ؛ واستدعى اليها أيضا جميع قناصل الدول ومعتمديها ما عدا المعتمد الفرنسي . فأسرع جمعهم وأتم سرأي رأس التين رسميا .

فاستقبل شريف باشا وزير الحفانية والتجارة وفودهم ، وأكرم وفادتهم ، ثم سار بهم الى قاعة الاستقبال الكبرى حيث كان قد سبقهم الأمير (محمد توفيق باشا) ولى العهد ووزير الداخلية ، ومنصور باشا صهر الخديو ، واسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونخبة من كبار أرباب المناصب العليا . وما انتظم قدومهم فيها إلا ودخل عليهم (اسماعيل) مصحوبا برجال معيته السنية ، فحياهم ببشاشته المعهودة ، ثم خاطبهم قائلا :

« يا حضرات السادة ، إن تمضيده صاحب الجلالة السلطان الأعظم ، ملكي الأكرم ، ومضافرة الدول المريدة الخير ، يكتاني من إقامة معاهد الإصلاح القضائي ، وإجلاس المحاكم الجديدة على منصباتها . واني لسعيد برؤيى رجال القضاء المتفوقين الأكابر الذين أكل اليهم بوثوق تام عهدة إحقاق الحق مجتمعين حولي ، فان المصالح كافة ستجد في أنوار معارفكم طمأنينة كاملة : فتقابل قراراتكم من الجميع بالاحترام والطاعة . إن هذا اليوم أيها السادة سيكون من أيام التاريخ المصرى المحدودة ؛ ولسوف يند فائمة عصر مدنية جديد . واني لمقتنع أن مستقبل العمل العظيم الذى أنشأناه معا قد أصبح بون الله تعالى أمرا مضمونا ! » .

فرد شريف باشا على سموه باسم القضاء الجديد وكأنه لسان حاله . فرجا منه أن يقبل تهنئته على عمل الرقى العظيم الذى تم على يديه ، وشعور شكر القضاء الجليل على الثقة التى تفضل وعهد بمقتضاها الى إخلاصهم مصالح البلد الكبرى ومستقبله . وأكد

له أن الهيئة القضائية المصرية الجديدة تقدر مهمة إحقاق الحق التي عهد سموه بها إلى حكمتها وإخلاصها وشرفها حق قدرها، لاعتبارها إياها ميزة من أهم ميزات سلطته السامية، تفضل وخصصها بها؛ وأنها تمتد نفسها سميدة أن مثل هذه الثقة الكريمة الثبيلة قد وضعت فيها؛ فستستمد من أفكار سموه الصاعدة الممدّنة ما تستعين به على القيام بأموريتها الرقيقة، القيام الأمتل، مع تقديم عملها الفعال لإنجاح جهوده المتأخرة؛ لأنها ستطلع حتما إلى مجد نقش اسمها على صفحات قلوب الأجيال التالية، بأنها كانت ممن تم على أيديهم العمل العظيم المرتبطة سعادة مصر به، والذي يعتبر بلا ريب من أسنى مفاتيح ملك سموه.

استقرار فرنسا على  
ممانتها

ورغم ذلك جميعه استمرت فرنسا على ممانتها وترقيدها وامتناعها. وكتب وزير خارجيتها في أول يولييه سنة ١٨٧٥ إلى سفراء فرنسا لدى حكومات ألمانيا والمجتراتا والنمسا وإيطاليا وروسيا يبلغهم الخلاف ذا الشأن الخطير، على زعمه، القائم حديثا بين الحكومة الفرنسية والحكومة المصرية؛ ويكلفهم باستطلاع آراء تلك الدول في موضوعه. فرأت الحكومات التي أخبرها أن يؤجل فتح المحاكم إلى أول يناير سنة ١٨٧٦؛ وأجاب (اسماعيل) أنه لا يأتي ذلك. فأخطر نوبار باشا المعتمدين الأجانب في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٧٥ بذلك التأجيل المطلوب؛ ورجا أن تمكن الجمعية الأهلية العمومية الفرنسية من المصادقة على الإصلاح في غضون المهلة الجديدة.

وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ رفعت الفرقة التجارية بمرسيليا إلى وزارة الخارجية الفرنسية عرضا التمت فيه باسم أشهر المحلات التجارية في ذلك الثغر مبادرة الحكومة الفرنسية إلى المصادقة على مشروع الإصلاح القضائي بمصر؛ وأرغفت

بعرضها كتابا طلب تجار مرسيليا اليها رفضه الى الخارجية وتقريرا ضافيا صادرا من الفرقة التجارية حينها تأييدا لاحتجاجها . ولكن فرنسا استمرت مع ذلك مقيمة على ترقيدها .

تهديد  
الحكومة المصرية  
بالغاء محكمتي  
التجارة بمصر  
والاسكندرية

فلما رأت الحكومة المصرية منها ذلك ، ووجدت أن استمرارها على تلك الخطوة قد يؤدي الى تأجيلات ومماطلات جديدة ، أنذرتها بأنها مستعدة لإقفال محكمتي التجارة الموجودتين بمصر والاسكندرية ؛ فلا يعود للفرنساوين سبيل الى مقاضاة الأهالي أو الأجانب على السواء في المواد التجارية مطلقا .

ومحكمة التجارة بمصر والاسكندرية كانتا محكمتين مختصتين بالنظر في القضايا التجارية المرفوعة من الأجانب على الأهالي ، وبالعكس ، والمرفوعة من أجانب على أجانب غيرهم . وكانت كل منهما مشكلة من رئيس وطني قلما كان يدري شيئا من شؤون التجارة أو قوانينها ، ومن محلفين وطنيين ، ومحلفين أجبيين لا يدرون شيئا بالمرء من القوانين ، ويحكمون في الغالب إما طبقا للبداهة والعادات ، اذا كانوا نزهاء ، وإما طبقا للأهواء ، اذا كانوا ممن تلعب الرشوة بضمائرهم .

وكانت الأحكام الصادرة من إحدى المحكمتين تستأنف أمام الأخرى ؛ فتتشكل هذه حينذاك من الرئيس عينه وأربعة محلفين وطنيين ، وأربعة محلفين أجانب .

وكان لدى كل محكمة : مترجم وباشكاتب وكتّاب ومحضرون معينون كلهم من لدن الحكومة المصرية ، ويتقاضون رواتبهم منها متى تقاضوها . كذلك كانت وزارة الحفانية تعين أيضا رئيس كل محكمة من المحكمتين بالراتب الذي تراه .

ولا أدل على قلة مبالاة أولئك الرؤساء بالمهمة الموهودة اليهم مما رويناه من على شريف باشا وحصانه فيما سبق ؛ كما أنه لا أدل على قلة درايتهم في الغالب من

معرفة أن رئيس المحكمة التجارية بالاسكندرية، وقت تزيب الحاكم المختلطة، كان ديمترى بك بشاره؛ في حين أن مترجمها، في بعض عهده، كان بطرس غالى باشا، الوزير المصرى الشهير، الذى قتله الوردانى في ٢٠ يناير سنة ١٩١٠، والفرق بين مدارك الرجلين ومعارفهما وتفتح ذهنهما كالفرق بين الليل والنهار ! وأن سلف ديمترى بك المذكور كان رجلا تركيا يقال له الاكفى بك، يكاد لا يعرف القراءة .

وكان المحلفون في تينك المحكمتين ينصوبون من بين أربعة وعشرين تاجرا بمصر، ومن عدد أكبر من هذا بالاسكندرية، تكتب أسمائهم في كشف تقدمه المحافظة الى وزارة الحفانية، فتمين هذه اثني عشر منهم محلفين أصليين واثني عشر آخرين نوابا عنهم في حال غيابهم أو احتضارهم . أما المحلفون الأجانب فكانت الحكومة تختصهم من بين عدة من وجهاء تجار الجاليات القريبة، تهتم القنصليات كشوا بأسمائهم الى الوزارة حينها .

وهذه هي القاطنة المتبعة الآن في الحاكم المختلطة في انتخاب المحلفين، سواء أكانوا من الأهالى أم من الأجانب، ولا شك في أنها من بقايا النظام القديم . والتعديل الوحيد الذى أدخل عليه هو أن التجار الواردة أسمائهم في الكشف هم الذين ينصوبون الآن المحلفين، والمحكمة التجارية المختلطة هي التي تصادق بعد ذلك على انتخابهم، لا الحكومة المصرية كما كان سابقا .

فلما وصل انذار الحكومة المصرية الى الخارجية الفرنسية، وصلت هذه من جهة أخرى أن امتناع فرنسا عن الموافقة، بعد موافقة باقى الدول، إنما يضر في الحقيقة بفرنسا والمصالح الفرنسية وحلها دون غيرها، عرضت المسألة على الجمعية العمومية — وكانت لا تزال منعقدة — وطلبت اليها بت الرأى فيها .

مواقفة فرنسا بعد  
التي رافقتها

فبالرغم من أن بعض الخطباء ، من محبي الكلام لهيجته ، وجدوا الفرصة سانحة ليعرفوا في أعجابهم بمفان فرنسا الماضية ، وبما كان لها من الأهمية في المسائل الشرقية على الأخص في أيام فرانسيس الأول ولويس الرابع عشر ، ولينذروا بذلك الإعجاب إلى الإصرار على رفض المشروع ، بالرغم من أن قوة مديدة من قواب الأمة انضمت إلى أولئك الخطباء وقاومت المشروع مقاومة عنيفة ، فإن أغلبية الجمعية العمومية رأت في نهاية الأمر وبعد جدال شديد أن تقرر الواقع وتصادق عليه ، في أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٥

فيتضح من تفصيلات ما ذكرنا أن أمر توحيد الشرائع والقوانين والمحاكم ليس من مبتكرات اليوم؛ وأن الحكومة المصرية قد رمت إليه منذ نيف وخمسين عاما، وكادت تبلغ بنيتها منه ، بفضل اجتهاد الخديو (اسماعيل) ونوبار باشا وزيره الحكيم لولا معارضة الحكومتين التركية والفرنساوية ، وحيلولتهما بينهما وبين أمنياتهما ، وتمكنهما في نهاية الأمر من عدم ادخال الإصلاح إلا مبتورا : الشيء الذي قيد المستقبل في نصف دائرة الفوضى القضائية القديمة؛ وجعل مصر تزج حتى يومنا هذا تحت ثقل التجاوزات الامتيازية الموجبة حتما ثقل تجاوزات قوانين الأحوال الشخصية .

فلما وافى أول يناير سنة ١٨٧٦ افتتح رياض باشا - وكانت وزارة الحفانية المصرية قد عهدت إليه - عهد الصداقة الجديد في القطر المصري ، افتتاحا رسميا حقيقيا ، بتقليده قضاء محكمة الاسكندرية الابتدائية المختلطة وظائفهم ، تقليدا علنيا ، على أن يكون بدء أعمالهم في أول فبراير التالي ، لكي تتمكن الحكومة الفرنسية في هذه المهلة من الموافقة على القضاة الفرنسيين الذين يختارهم الخديو ، وتمكن هؤلاء من الوصول إلى مقر وظائفهم .

وما وافق الخلامس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٦ إلا وكان كل القضاة إما كنهم؛ وأخذت المحاكم الإصلاحية تقيم معالم العدالة على قاعدة القوانين الجديدة . غير أن القضاة الفرنسيين لم يحضروا إلا بعد ذلك بربعة .

هكذا زالت آخر حقبة من السبيل المؤدى الى الاستقلال، بزوال سلطة القنصليات الأجنبية المدنية من جانب السلطة المصرية المحلية؛ ولولا تمتت فرنسا وتصلبها، الذى لا مبرر له غير مخاوف مخيفة لا يابيه التاريخ لها، لزالست سلطة القنصليات عنها الجنائية أيضا وليأت دولها القائمة فى جسم دولتنا المصرية فى خبر كان منذ نيف ونمسين سنة .

على أننا نستطيع أن نقول بحق إن (اسماعيل) بعد أن أزال سلطة شركة السويس التجاوزية على ضفاف القناة؛ وأبطل حقوقها المثقلة عوامن الحكومة المصرية بمقتضى الامتياز الممنوح من سلفه لتلك الشركة؛ بعد أن غير مجارى الوراثة، من الأرشد فالأرشد فى أسرة (محمد على) الى الابن البكر فالابن البكر من ذريته؛ بعد أن أبدل صفة "الوالى" الحقة، التى كان يشترك فيها مع باقى ولاية الدولة العثمانية بلقب "مخدوم" الفخيم؛ بعد أن نال جميع الحقوق الملكية المناسبة لتلك اللقب الجديد، والى أصبح بموجبها مستقلا تمام الاستقلال فى بلاده، وحمل الحكومات الأجنبية على اعتماد تلك الحقوق اعتمادا دوليا؛ بعد أن أزال جزءا كبيرا من السلطة التجاوزية التشريعية والتنفيذية التى أوجبها فى بلاده نظام الامتيازات الجائر؛ بعد أن تقل الحدود المصرية نحو الجنوب الى ما يقرب من خمس عشرة درجة، ونحو الغرب والشرق الى ما يقرب من درجة ونصف — وهو ما منفصله فى الباب الثالث التالى — أصبح محقا فى أن يدعى أن الخطلة التى وضعها لنفسه لما ارتقى عرش أبيه وجده قد تحققت؛ وأنه بلغ فى أقل يوم من سنة ١٨٧٦ أوج عزه وفروجه مجده !

بلغ الأوج

تقرير العمل  
بالتاريخ  
التاريخي

ولكى يكون آخر عمل عمله في ذلك السبيل الذي وضعه لنفسه مشعرا بحقيقة  
مهامه، فانه، في هذا اليوم حينه، أى أول يناير سنة ١٨٧٦، أمر باستبدال التاريخ  
القبطي المعمول به في دوائر الحكومة الرسمية بالتاريخ التفريري المعمول به في عموم  
الدول الغربية المتمثلة؛ كأنه يريد أن يفهم أوروبا وأمريكا معا أن مصر—منذ أن  
تزوج الإصلاح القضائي، على الطريقة الغربية، مساعي مليكها الحيثية غير المنقطعة  
نحو اقامتها مستقلة في المركز اللائق بها في مصاف الدول — قد أصبحت في الواقع،  
لا في التعبير المجازي فقط، «قطعة من أوروبا» كما أكد هو نفسه .





تم المجلد الأول

ويليه المجلد الثاني ؛ وأوله : ( الباب الثالث من الجزء الثالث

المعنوت <sup>٣٢</sup> رابعة النهار ” )

---





## هذه السلسلة تضم :

- ١ - فتح العرب لمصر
- ٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤ - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- ٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر
- ٧ - ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
- ١٠ - فوح مصر وأخبارها
- ١١ - تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
- ١٢ - قوانين الدواوين
- ١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
- ١٤ - الحكم المصري في الشام
- ١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
- ١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧ - مذكراتي
- ١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية
- المعروفة بحرب القرم
- ١٩ - وادي التطرون وريهاته وأديرته ومختصر البطارقة
- ٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
- ٢١ - الرحلة الأولى للبحث عن يتابع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
- ٢٢ - السلطان قلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشآت المعمارية
- ٢٣ - صهوة العصر
- ٢٤ - الممالك في مصر
- ٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر
- ٢٦ - سلاطين بني عثمان

Bibliotheca Alexandrina



0354356



**MADBOULI BOOKSHOP**

**مكتبة مذبولة**

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ٥٧٥٦٤٩٦ Tel: 5756421